لمزيد من الكتب الحصرية
زوروا موقع عصير الكتب
www.bookjuices.com

رواية



الأسيرة الباردة

إيمان بدران

ننتظر رأيك ومناقشتك للكتاب
على جروب عصير الكتب
facebook.com/groups/Book.juice/



Email publish@tashkeel- publishing.com
Website www.tashkeel-publishing.com
Mobile 201006250473 FB/Tashkeeel

الأسرّة الباردة - إيمان بدران

رواية

I.S.B.N : 978-977-6555-36-5

رقــم الإيـــداع: 2017/2005

الـطبـعـة الأولى : ٢٠١٧

تصميم الغـلاف : أحمد فرج

الإخراج الداخلي : ضياء فريد

المـديـــر العــام : سيد شعبان

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحــبه للمساءلة القانونية، والآراء والـمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

الإهداء

إلى أبي الحبيب

إلى زوجي وابني وابنتي ع. م. ر.

لمزيد من الكتب الحصرية
زوروا موقع عصير الكتب
www.bookjuices.com



ننتظر رأيك ومناقشتك للكتاب
على جروب عصير الكتب
facebook.com/groups/Book.juice/

مقدمة

قد تستغرق المرء لحظةُ أبديةٌ يجوب فيها الكون سابحاً فوق سحب الخيال .... ينتقل من غيمةٍ لأخرى .... يراقص فيها بنات أفكاره على أنغامٍ سرمديةٍ هادئةٍ، أو يقارع فيها أبالسة براكين غضبه الثائر ...

قد يخْلُص المرء من هذه اللحظة بفكرةٍ أو مخرج من مأزقٍ أو حتى نسمة ارتياح وسط قيظ يومٍ صاخبٍ .... وقد ينغمس في نارها ويحترق بلفح اللّهيب العاصف من أنفاسه حينها .....

ثُلّةٌ هم من يغتنمون مثل تلك اللحظة ليجددوا خلايا حياتهم ويرتقون وكثيرون هُم مَن مِن علٍ يهوون ......

وكلٌ، في النهاية، مما كسبت أيديهم ينهلون ....



لمزيد من الكتب الحصرية
زوروا موقع عصير الكتب
www.bookjuices.com



ننتظر رأيك ومناقشتك للكتاب
على جروب عصير الكتب
facebook.com/groups/Book.juice/

١

حالت ظلال الأصيل دون رؤية الطريق بوضوحٍ.. واستحالت الأشكال كلها إلى أطيافٍ باهتةٍ، منها الساكن ومنها المتحركٌ.. كانت الطريق مرصوفةً بأوراق الخريف المتساقطة عن الأشجار المصطفة على جانبيها لتُحيل اللحظة إلى لوحةٍ زيتيةٍ بديعةٍ.. بكل أسفٍ لم تستمتع بها مهرة على الإطلاق...

فاليوم، وبعكس سائر الأيام، حيث اعتادت أن تستمتع بروعة هذا المنظرِ النحاسي اللمسة المخضبِ بحناء المساء، كانت الغيوم المحلقة برأسها أكثف بكثيرٍ من نتف السحاب القطنية الرمادية المعرَّقة بخيوط الذهب المنسحبةِ خلف شمسٍ هزمتها هبات النسيم الباردة فأخفتها طيلة اليوم خلف دفعاتٍ من الغيوم، والتي شعرت الشابة ذات السنين اليافعة بأنها تقصد أن تعلوها هي لتحجب عن رأسها، بل وعن حياتها كلها، أي بصيص أملٍ قد يطمح للحظة بأن يشرق فوق بؤس أرضها المظللة بدرجات الأسود، أوَ حتى الرمادي في حال أرادت لها الأيام شيئاً من الراحة... سارت بلا وعي تطوي الطريق تحت نعل حذائها البني المتآكل بخطواتٍ شاردةٍ، متجهةً كالمُسيرة إلى منزل شهدٍ، تلك الطفلة الرائعة ذات الخمس سنوات..

لم يكن في الكون كافةً قوةٌ تستطيع أن تخرج مهرة من سجن الضيق، وضيق الظروف، إلَّا لحظات جلوسها مع الأطفال لتعلمهم أولى حروفهم وكلماتهم، ولتشاهدهم يتطورون ويكبرون وهم يردِّدون ما علَّمَتهم إياه من دروسٍ وأناشيدٍ ....

اعتادت أن تذهب إلى بيوت تلاميذها الصغار من أبناء الطبقة الثرية بسعادةٍ وإقبالٍ، وأن تستمتع بالمشاهد الرائعة المرتسمة على طول الطرق المؤدية إلى وجهاتها بمجرد خروجها من عالمها المهترئ البالي وابتعادها عن ازدحام وتلوث المنطقة التي تسكنها والتي تشبه بألوانها ترابية الرائحة، الكثير من الأحياء والأزقة التي تفترش أرض البلاد ...كانت تعيش أحلامها وخيالاتها الخاصة خلال تلك الدقائق الثمينة، فتارةً تتخيل نفسها أميرةً تسير في حديقة قصرها المنيف وهي ترفل في أمتارٍ من الحرائر والأقمشة الناعمة لأثوابٍ لا تشبه من قريبٍ أو بعيدٍ هذا المعطف الأخضر العتيق بأزراره الكبيرة التي لم تكن له سابقاً وإنما استبدلت بها تلك القديمة التي تآكلتها الأحداث والسنوات العجاف... وتارةً تحلم بأنها جولييت تنتظر روميو في إحدى الحدائق الغناء وقد قتله الشوق للمسةٍ منها أو نظرة حبٍ تتعطف بها على شابٍ أفقده الصبُّ كل صوابٍ...

إلا أنها اليوم لم تر من بديع المشهد أمامها إلا حزن ألوانه لغروب شمسه، ولم تستشعر إلا ألم الأوراق المسكينة التي تطحنها تحت قدميها، ولم تسمع إلا أنين الأغصان الدقيقةِ المتكسرةِ إثر خطواتها الغاضبة الغاشمة... كان عالمها الحقيقي أبعد ما يكون عن المثاليّ، ولكنها كانت تتحمله وتتصبر عليه بأناسٍ ترى فيهم ملاذها وكنزها الحقيقي... مي وماجد وطارق ثلاثة أسماءٍ تعني لها الدنيا وما فيها... ثلاثة أفرادٍ جعلوها تلملم شتات نفسها وتتحامل على إنهاكها وتصبو فوق الصِّعاب لتستطيع بإمكاناتها البسيطة جداً أن تواجه الدنيا فتصمد بالكاد أمام هجمات أذرعها الأخطبوطية الطويلة ذات الجَورِ والبطشِ، المتعاقبة الضربات، بلا ترددٍ ولا رأفةٍ بعظامها التي تكاد تتهشم كالأعواد الصغيرة التي تدعسها هي الآن، وتثبت أمام ضربات أمواجها العاتية...

انتشلها من قاع أفكارها ضوء الثريا الذي أغرق وجهها فجأةً حين فُتح باب الفيلا التي وصلتها دون أن تدرك، محمولةٌ فوق أمواج من الخطوات التي لم تشعر بِخَطْوِها، ولكنها ابتسمت تلقائياً وهي تقول:

«مساء الخير يا كريمة»

ردت مدبرة المنزل النحيفة بودٍّ وهي ترسم على تجاعيد وجهها الطيب، شقاً رفيعاً فيما بدا كابتسامة مرهقة وقد زادت من اتساع فتحة الباب لتفسح لها المجال لتدخل:

«مساء النور، تفضلي يا آنسة مهرة.. شهد بانتظارك»

تبعتها مهرة في صمتٍ، مارةً تحت الثريا الضخمة المتدلية من علٍ لتتوسط السقف، بل والبهو نفسه بخيلاء عروسٍ، لا، بل ملكةٍ في ثوب تتويجها المرصع بالجواهر والحلي في ترفٍ لامعٍ ساحرٍ ... اعتادت مهرة فخامة وجمال السقف المزخرف برسوماتٍ زيتيةٍ لمجموعةٍ من الفتيان والفتيات بملابسِ العصورِ الوسطى وهم يضحكون ويدورون حول فتاةٍ معصوبةِ العينين تمدُّ يدها برقةٍ ورقيٍّ محاولةً الإمساك بأحدهم.. (ألا ليت الحياة كلها لعبٌ ولهوٌ) كان هذا لسان حالها وهي تصعد السلم الرخامي بهدوءٍ وقد غاصت قدماها في السجاد الخمري المنقوش الكثيف الذي افترش الممر العريض الذي بلغتاه بالأعلى حيث تركتها كريمة بعدما أومأت لها بأدبٍ صامتٍ. ازدانت جدران الممر بلون القهوة وقطعٍ من ورق الحائط المخطط باللونين الخمريّ و الذهبيّ، واختالت بأروع ما وقعت عليه عيناها من لوحاتٍ ورسوماتٍ وتحفٍ، والتي لم تكن لديها من الخبرة ولا التذوق ما يعينها على تقييمها تقييماً موضوعياً، ولكنها كانت على يقينٍ من كونها من أجمل وأثمن الأشياء التي احتوتها هذه الفيلا، وكذلك الفيلات الأخرى التي تذهب إليها. ابتلع السجاد حذاءها القديم الذي تناقض بشدةٍ مع روعة وفخامة الأرضيات التي يطؤها، فلم تسمع صوت خطاها وكأن كل ما يحيط بها يرسل إليها رسالةً واضحةً مباشرةً لا جدال فيها: لكم هي صغيرةٌ وضئيلةٌ في هذا العالم، الخيالي بلا منطقٍ والحقيقيّ

بلا شكٍ في ذات الوقت.. لم يكن ليشغل بالها مثل هذا الإحساس أو لتؤرقها مثل هذه الأفكار لولا مزاجها المعتل هذا المساء، فحثت الخطى تهرب من ظلمة أفكارها حتى وصلت غرفة الطفلة، وطرقت بابها الثقيل طرقاتٍ خفيفةٍ قائلةً بصوتٍ ثابتٍ هادئٍ:

«شهد.. هذه أنا، مس مهرة..»

ابتسمت لسماع الصوت الرقيق من خلف الباب يرافقه صوت دبيب قدمي الصغيرة الدقيقتين والذي كان خفيفاً سريعاً كضربات جناحيّ فراشةٍ تحلق بسعادة... فتحت شهد الباب، ببهجةٍ تقفز فوق صفحة وجهها الطفولي المحبب، صارخةً بانشراحٍ بالغٍ:

«هاي، مس مهرة، تعالي أريك الصورة التي رسمتها اليوم..»

دلفت مهرة إلى عالم شهدٍ الخاص وأغلقت البابَ وراءها بإحكامٍ ...



لو قيست سهولة الحياة بالمال، لكانت الحياة إلى نادرٍ أبسطَ من شربةِ ماءٍ.... ولو قيست بالسمعة والشهرة لكانت عذبةً سلسةً، كالنَّفَس الداخلِ والخارجِ دونَ عناءٍ.... ولو كان النجاح بالعمل مقياساً للسَّعادة ،لكان نادرٌ أسعدَ مَن عنترة حين ظفر بمحبوبته عبلة.... أمَّا لو كانت العَلاقات الشخصية الوطيدة هي المعيار، فعلى مقياس من واحدٍ إلى عشرة، يحتل نادر المرتبة «صفر» باقتدارٍ وتميزٍ ....

رغم ذلك لم يشعر أبداً بالتعاسة، ولم تستوقفه وحدته الداخلية ولو للحظاتٍ... فمنذ وفاة والده قبل أحد عشر عاماً، وتولِّيه مسئولية إدارة ثروة العائلة والحفاظ على نشاطاتها الاستثمارية الضخمة – وهي مهمةٌ كان قد أعد لها تماماً، بعكس شقيقه فؤادٍ الذي اختار درب الصحافة ولم يكن مهتماً البتة بكل ما تعلق بالتجارة أو الإدارة–، مُنْذ ذلك الحين، لم يجد نادر

الوقت ليفكر في أي شأن دون العمل... بل إنه كان يمضي أسابيع أو أشهر، دون حتى أن يزور حجرة نومه، ما بين سهرٍ في مكتبه وبين السفر لعددٍ من الدول التي تحتضن أفرعاً عدة لشركاته، حتى بات يشعر بالغرابة في الليلة التي يقضيها في فراشه، حيث يتآكله الأرق البارد بين طيات الأغطية الحريرية، ويقض مضجعه شعورٌ غير مريح بأنه لابد وأن يتواجد الآن في مكانٍ ما، وأن هناك بالتأكيد ما يستطيع أن يفعله ليستفيد من هذه السويعات القليلة، خيراً من النوم كمراهقٍ خالِ البال.....

الليلة، كان موضوع حلقة الأرق عن ثلاثة أسماءٍ، تملكت حياته وأحالتها إلى جحيم حي، فؤاد وأميرة وسامر.... شقيقه وابنة خالته وشقيقها .... فمشاكلهم التي لا تنتهي، والوقت الذي يتطلبه إصلاح ما أفسدوه في لحظات عبثهم ونزقهم، يتخطى الساعات و أحياناً الأيام، والتي لم يكن نادر يملكها ليجود بها، فكان يقتطعها من فقرات نومه القليلة...

ثم هناك شهد... الجانب المشرق واللذيذ في حياته، والواحة الظليلة التي يهرب إليها من قيظ الحياة ولهاثها... كانت أرق وأسعد اللحظات لديه تلك التي يقضيها معها. وكان أحب الألقاب إلى قلبه بين كل الألقاب والاحترامات التي اعتادتها أذناه، هي كلمة «**بابي**» حين تخرج من بين شفتيها البراقتين بلون البراءة، وابتسامتها العذبة تضفي لحناً خاصاً للكلمة الرقيقة....

طرقاتٌ مهذبةٌ على باب حجرة نومه، عرف من أدبِها صاحبَها، أيقظته فوراً من شروده، فاعتدل في فراشه الذي لم يخلد إليه إلا منذ ساعةٍ أو أقل بعدما انتصف الليل... رد بهدوءٍ:

«**ادخل**»

فُتح الباب برفقٍ ليخترق شعاع ضوءٍ رفيعٍ حرمةَ الظلمةِ الشديدةِ للغرفة، وتوسط الضوء ظِلُّ رجلٍ طويلِ القامةِ نحيل، قال صاحبُ الظِلِّ بصوتٍ منخفضٍ لم يُخْفِ تردده :

«آسف يا سيد نادر، ولكن صوت صياح السيد سامر والآنسة أميرة عالٍ جداً ويبدو أن الخلاف بينهما شديدٌ جداً هذه المرة»

تنهد نادرٌ بعمقٍ قبل أن يلقي عنه الأغطية قائلاً:

«حسنٌ ،عُد أنت لتكمل نومك يا آدم وسأذهب إليهما حالاً»

أومأ آدم برأسه وخرج مغلقاً الباب وراءه بهدوءٍ... أضاء نادر المصباح الصغير المجاور لفراشه ليفترش ضوؤه الباهت قِطْعَاً من الظلام ليس بكبيرٍ، و جلس ساكناً للحظاتٍ قبل أن يقوم متمتماً:

«الصبر من عندك يا الله.»

ارتدى روباً حريرياً قاتماً وخرج مسرعاً ليسمع، وهو لا يزال على أعتاب حجرته، أصوات شجارٍ تكاد تطال السماء.. خَفَّ نحو غرفة سامر، مصدر الضجيج، والتي تقبع في آخر الرواق، وما أن فتح بابها ووقف مكانه صامتاً، مطلقاً نظراتٍ غاضبةٍ حادةٍ إلى كلٍ من سامرٍ وأميرة، حتى صمتا بدورهما.... سأل بغضبٍ مكتوم:

«هل تعرفان كم الساعة الآن؟!!! ألا يستطيع شجاركما أن ينتظر حتى الصباح، أم لابد من إيقاظِ جميع من في البيت؟!!!!! حقاً، لا أفهم!!! ألا يخجلكما سماع الخدمِ لشجاركما كل ليلةٍ؟!! هناك طفلةٌ لا يجب أن تستيقظ الآن ولا يصح أبداً أن تسمعَ مثل هذا الهراء...»

ردت أميرة بعصبيةٍ:

«أنت لا تعرف ماذا فعل يا نادر... لقد سرق عقدي الزمردي الذي أهديتني إياه في عيد ميلادي الماضي ليهديه لإحدى صديقاته الساقطات ليتباهى و .....»

قاطعها سامر بصوتٍ هادرٍ:

«لا تقولي (سرق)، فلن أسمح لكِ بمثل هذه الإهانات ... ثم لِمَ تتحدثين وكأنكِ اكتسبته من أجر عملك؟»

«أنت لا تملك ذرة من إحساسٍ!!! لصٌ، وتهدد!! بل وتسخر مني!!! أترى يا نادر؟ منتهى التبلد واللامبالاة ..»

وعندها لم يتمالك سامر نفسه فهجم على أخته ليضربها حين استوقفته ذراعٌ ثابتةٌ التَفَّتْ بقوةٍ حول ذراعه، ثم شعر بجسده يدفع بحدة إلى الوراء وسمع نادر يقول بانفعالٍ محاولاً بصعوبةٍ ظاهرةٍ السيطرة على غضبه والحفاظ على صوته منخفضاً بقدر ما أُوتيَ من طاقةٍ على ضبط النفس:

«لابد من أنكما قد فقدتما عقليكما تماما!!!»

تابع موجهاً كلامه لأميرة:

«كل هذا الضجيج من أجل عقدٍ يا أميرة؟!! عقد!!!»

قاطعته: **«المبدأ يا نادر أنه...»**

هز رأسه بنفاذ صبر مقاطعاً إياها: **«مبدأ؟!!! يا سيدتي الفاضلة، سأشتري لك عقداً مثل الذي.. (فقدته) ... بل أجملَ و أثمن .... أراضيةٌ أنتِ الآن ؟»**

اكتفت بهز رأسها، فتوجه لسامرٍ بكلامه هذه المرة قائلاً بضيقٍ: **«صدقاً يا سامر!!! أليس لتصرفاتك هذه نهاية؟! ألا يوجد سقفٌ لتصرفاتك غيرِ المعقولة هذه؟!!!»**

رد سامر ببرودٍ هازاً كتفيه:

«أكنتَ تريدني أن أتسول إليك لتعطيني ثمن هدية صديقتي؟ لقد سئمت هذا الدور المهين... أترى؟ هي تغرقها بالمجوهرات والهدايا بالإضافة لراتبٍ شهريٍّ محترمٍ، فيما أحصل أنا على مصروفٍ شهريٍّ كالطفلِ الصغير، فإن أردتُ إهداءَ شخصٍ ما هديةً، فعليَّ تسول هذا منك.. منتهى الهوان....»

«فقررت أن تستبدل دور اللص بالمتسول...» هكذا علقت أميرة فقاطعها نادرٌ فوراً وبحزمٍ: «كفى .»، ثم عاد ليوجه كلامه لابن خالته:

«انتهينا من الحديث في هذا الموضوع.... لم أحب أبداً ما سمعت منك يا سامر وآسف إن كان هذا شعورك ولكني لن أقبل بسماعِ مثل هذا الهراء ثانيةً...»

حاول سامر أن يعلق إلا أن نادراً أوقفه بحركة من يده مكملا:

«ستتحدث في هذا الشأن لاحقاً، فليس هذا محله ولا أوانه.... سألتقيك على انفرادٍ لأفهم المصطلحات الغريبة التي استخدمتها توا... راضِ الآن أختك ولتخلدا للنوم والصباح رباح يا سيد سامر..»

اعترضت أميرة: **«لا أريده أن يراضيني بكلام لا يساوي شيئا... أريد عقدي، وإن لم يُعِدْه ُغداً فسوف...»**

قاطعها سامر: **«ماذا؟ سوف ماذا؟»**

«قلتُ كفى» قاطعهما نادر بحدةٍ، ومرر أصابعه في شعره زافراً بحرارةٍ، ثم استطرد:

«أرجوكِ يا أميرة، لا داعيَ للمزيدِ من الشجارِ، لن نُعيدَ ونزيد فيما نقول، بعد أن وعدتك بأن أشتري لك عقداً أفضل. اذهبي الآن إلى فراشك وأتعهد إليكِ بأن العقد الجديد سيكون لديك غداً إن شاء الله.»

نظر إلى ساعة يده ثم صحح ساخراً: **«أو اليوم بالأحرى.»**

استدار مغادراً الحجرة دون أن ينظر إليهما و أغلق الباب وراءه بهدوء... ساد صمتٌ طويلٌ بعدها، نظر خلاله الشقيقان لبعضِهما قبل أن ينفجرا ضاحكَين ضاربَين كفيهما ببعض... **«أنت شيطان»** عقَّبت أميرة وسط ضحكاتها. غمز سامر بعينه بصمتٍ لأخته وهي تغادر غرفته مسرورة....

نعم.. مغنمٌ جديدٌ .... ولو كان بسيطاً....



ارتفع أذان الفجر ليهدهد النفوس الحائرة، وأضاءت زقزقات العصافير سحب الظلام التي انقشعت رويداً رويداً، ليملأ نور الشمس السماء الصافية العطشى للضيِّ، وينساب شعاعها الدافئ كعذب المياه حين يروي جفاف الأرض بحنان....

جافى النوم أجفان مهرة وقضت ليلتها تحاور لحظاتها وتستجديها الحلول. لم تكن مستعدةً إطلاقاً للقرار الذي اتخذه طارق، خطيبها الذي قرر السفر فجأة.... هي ليست ساذجةً لتصدق أن فكرة السفر واتته فجأة ف(قرر) أن يسافرَ، فهي تعلمُ يقيناً أنه ليسافر خلال أسابيع فلابد له من أن يكون قد بحث طويلاً ثم تقدم للوظيفة المناسبة وانتظر حتى يأتيه القبول، وبعدها سيقضي أياماً وأسابيع أو ربما أشهراً على أقل تقديرٍ لاستخراج جواز سفرٍ وأوراق عملٍ وما إلى ذلك.... وهذا تحديداً ما يؤرقها ويَقُضُّ مضجعها، فكيف خَفِي عليها ما كان يرتب له طارق وهما يلتقيان يومياً أو إن لم يفعلا فهما يتحادثان بالساعات هاتفياً؟! ألا يعني هذا أنه كان شديد الحرص والإصرار على ألَّا تعلم شيئاً عن موضوع سفره هذا؟ وماذا يعني هذا في شرع المحبين؟ أليس من المفترض أن تكون شريكته في مثل هكذا قرار؟ كانت تظن أنهما يتبادلان نفس القدر من الاحترام والتقدير ... والإخلاص. وتساءلت إن كان هذا سيصبح أسلوبه لدى اتخاذ أيِّ قرارٍ مصيريٍّ، وبخاصةٍ إن كان يظن بأنها لن توافقه فيه. إن ما أثار حيرتها وجعلها تتقلب في فراشها وجنبها يتجافى عن برده، الذي تغلغل في أوصاله ومساميره الصدئة القديمة، أنه كان بإمكانه أن يخبرها بقراره وأنه لن يقبل النقاش فيه منذ البداية، أما وأن يتفنن في إخفاء الأمر عنها حتى اللحظات الأخيرة، فهو لأمرٌ آخر! ألا يفترض بهما أن يخططا لمستقبلهما سوياً؟! أم أن صورة المستقبل في نظر طارقٍ لم يعد لها فيها حيزٌ كبيرٌ؟

«على فكرة، لقد وقعت عقد عملٍ معقولٍ في مكتب محاماةٍ كبيرٍ في دبي وسأسافر خلال أسابيع إن شاء الله ..»

هكذا، وبمنتهى الاختصار وبكل بساطة، أعلمها طارقٌ بقراره على طاولة الغداء في ذاك المطعم الصغير في وسط البلد الذي اعتادا ارتياده لقربه من محل عمله ومحطة الميكروباص التي تمثل لها نقطة الانطلاق لأرض لم تكن لتطأها لولا أن فتح لها خطيبها أبوابها صدفة. تركت الملعقة من يدها نظرت إليه متسائلةً : «**ماذا؟**»

استمر طارقٌ في تناول غداءه وكأنه لم يُلقِ للتوِّ بقنبلةٍ مدويةٍ وَسْطَ المائدة، ورد ببساطة:

«**دبي ... أحدث مدن العالم وأكثرها تطوراً... فرصة العمر جاءتني للعمل هناك.... هذه هي الفرصة الذهبية التي لا تأتي إلا مرةً واحدةً .... سأتمكن أخيراً من إتمام جهازنا وادخار مبلغٍ محترمٍ للقيام بمشروع العمر، وأن أؤسس مكتب المحاماة خاصتي الذي لطالما حلمتُ به حين أعود بإذن الله .**»

قالت بجمودٍ ونظرة الصدمة لم تبارح عينيها بعد:«**جهازنا مكتملٌ يا طارق ولا ينقصنا إلَّا أن نتزوج** »

ترك الشوكة بدوره سائلاً ببساطةٍ وهو يحدق في عينيها:

«**إذاً، لِمَ لَمْ نتزوج حتى الآن برأيك؟**»

أجابته فوراً:

«**أتسألني أنا!!!! أنت من قلت أنك لست مستعداً تماماً لتحمل مسئولية ماجدٍ ومي الآن وأنك تود الانتظار قليلاً حتى تستقر ظروفُك، وأشياء من هذا القبيل..**»

«**ها أنت قد قلتها بنفسك ... لست مستعداً بعد لهذه المسئولية الكبيرة كما ينبغي. وما دمنا سننتظر، فلنستثمر الوقت بأفضل ما أوتينا من فرص. وما سأنجزه هنا في مصر في أعوام، سأدخره هناك، بل وأكثر، في غضون أشهر. صدقيني يا مهرة، نحن أولى بهذه الفرصة**»

«أولاً، أنت من قلت أنك غير مستعد، لا أنا. ثانياً، لم تتصور أن نفقات الأولاد ستزداد بعد زواجنا؟! إنهما ملتحقان بمدارس حكوميةٍ وباقي مصاريفهما أنا بالفعل أوفيها وقادرةٌ على الاضطلاع بها، فما المشكلة؟! ما الجديد؟!»

«منتهى الخبرة والحكمة منك أن تقولي أن مصاريف إخوتك لن تزداد.. ودعيني أولاً أصحح أنهما ليسا (أولاد)، لقد كبرا يا مهرة، فمي مقبلةٌ على الثانوية العامة وماجد سيلحقها بعد عام. لقد أصبحا شابين، وستتغير احتياجاتهما وستفوق متطلباتهما طاقتك. هذا دون تقدير مصاريف الدراسة الجامعية. صدقيني يا مهرة مصاريفهما ستتضخم بأكثر مما تتصورين.»

صمت ليراقب تأثير كلامه عليها، ولكنها لم تفتح فاها بكلمةٍ فتنهد متابعاً بصوت خافت وهو يميل إلى الأمام ليمسك يدها بين يديه:

«صدقيني يا حبيبتي. أنا أفكر في مصلحتنا، والراتب الذي تعاقدت عليه يعد محترماً بالنسبة لخبرتي المحدودة.»

«لكني لا أرى الأمور هنا مستحيلة كما تصوِّرها، فعائلاتٍ كثيرةٍ تتدبر أمرها بشكل لا بأس به و .....»

ترك طارق يدها واعتدل في مقعده مقاطعا إياها بانفعال:

«حقا لا أدري ما بك مؤخراً يا مهرة!! أصبحتِ تجادلين كثيراً وتقتلين أبسط الأمور نقاشاً!! سأفترض معك أن أوضاعيَ مهيأةٌ و أموري مستقرةٌ ، وهو أبعد ما يكون عن الواقع بالمناسبة، و لكن فلنفترض جدلاً صحة هذا، فأين بالضبط المشكلة في رغبتي في تحسين أحوالي المادية؟! ما المانع من أن أطمح للمزيد وأن أتوق وأسعى لتطوير نفسي؟! من قد يلومني على أنني أحلم بأن أعيش حياةً رغدةً بدلاً من الكَدِّ يوماً بعد يوم لكسب فتاتٍ بالكاد يكفينا؟ وإن تمكنت من إعالتنا كما تحلمين، فأخبريني أن أحلامك لنا لا تشمل طفلاً واحداً على الأقل!.. ألا يفترض بك أن تشجعيني على هذا الطموح وأن تدفعينني للتقدم والعمل ومثل تلك الأمور؟! بالله عليكِ دعكِ من هذه النظرات وثقي بي، هذا القرار في مصلحة الجميع.»

«م ..ما هذا الكلام الغريب؟ تعيلنا؟ تعيلنا؟ وهل أنتظر زواجنا، لتعيلنا؟!! وما قصة أجادل وأناقش هذه؟! هذه حياتي أيضاً تلك التي تتحدث عنها!!!! لا أحد يلومك يا طارق... ولكن بالحديث عن الثقة، ألم يكن يجدر بك إخباري عن قرار سفرك قبل الآن؟ أم أنك لا تأبه لرأيي ولا تثق به؟ ولكن دعك من هذا فقد مضى أوانه. حريٌّ بيَ الآن أن أنبهك لأمرٍ بسيطٍ نَسيتَ أن تضعه ضمن خُططك الحالية.»

«وما هو؟»

«أنا.. أنا يا طارق ... أنت قلت أن الفرصةَ ممتازةٌ وأن الراتبَ مجز، ولكنك رغم هذا لم تفكر في أن نُتمَّ زواجنا وأن تصطحبني معك بدلاً من تركي هنا وحدي!»

سألها مباشرة: **«وأخويكِ؟»**

سألته بدورها: **«ما بهما؟»**

أجابها بصراحة:

«يا حبيبتي، تعاقدي على راتبٍ جيدٍ لا يعني مطلقاً أنه سيكون كافياً لنسافر أربعتنا. المدارس والجامعات هنا مجانيةٌ ولكنها هناك باهظة التكاليف وستستنزفنا حتى آخر فِلس. لن أدخر درهماً إن سافرنا معاً.»

«سأعمل أنا الأخرى، فرواتب المدرسين في الخليج ممتازة.»

«أتمنى رغم شكي في سهولة هذا. ولكن ما صفة سفرهما معنا لدى السفارة؟ وأي مدارسٍ سيدخلون؟ ألن يؤثر تغيير الظروف والمناهج سلباً على تحصيلهما ومجموعيهما؟! ثم، ماذا سيكون عليه الحال حين يحين وقت دخول مي الجامعة؟ ستضطر لتركنا والعودة وحدها، وسيكون هذا بعد عامين فقط..»

تنهد مكملاً: **«صدقيني يا مهرة، أتمنى أن نسافر سوياً ولكن حتى لو قررنا هذا الآن فلن أستطيع الانتظار حتى أرتب لسفرك أنت وإخوتك، فقد حددت لي الشركة مهلةً لأسافر خلالها ولا يمكنني التأجيل.. لقد فات الأوان يا عزيزتي..»**

«أتفق معك لأول مرةٍ اليوم، فقد فات الأوان فعلاً..»

«أوه، هيا الآن يا حبيبتي، لا داعي لكل هذه السوداوية. ثقي بي ولن تندمي. وصدقيني، أنا أفكر في ماجد ومي في كل خطوة أخطوها.. وربما أكثر منك»

رفعت حاجبيها بسخرية فتابع مبتسماً: **«لا تصدقين؟ حسنٌ، غداً سيثبت لك صدق قولي.. اهدأي الآن و دعينا نكمل غداءنا قبل أن يبرد.»**

وبنفس البساطة التي افتتح بها الحديث اختتمه، تاركا إياها كالمخدرة فلا درت كيف أنهت غداءها ولا شعرت كيف عادت إلى بيتها، كما أنها لا تذكر كلمة واحدة مما قالاها لها شقيقاها وهما يتناولان غداءهما الذي أعدته شاردة بعد عودتها من لقائها بطارق. وهكذا أكملت يومها تتيه بين دروس تلاميذها وبين مساعدة إخوتها في مذاكرة دروسهما، إذ يعتمدان عليها بدلا من الدروس الخصوصية، لضيق ذات اليد. وما أن حل المساء حتى انكمشت في سريرها محاولة أن تلوذ ببرد النوم من نار أفكارها التي تنهش قلبها وعقلها ...

أجفلها رنين المنبه معلناً أوان استيقاظها، فأوقفته بتوتر وقفزت من الفراش كمن يقفز من فوق الشوك...استقبلت الصباح الوليد الذي لم تلوثه نكبات الحياة بعد بروح، ولْنَقُل، مترقبةٍ، علَّ اليوم يحنو عليها بعدما أنهكها سابقيه، الواحدَ تلو الآخَر....



«ما تفعله غير معقولٍ أو مقبولٍ يا فؤاد.»

اعترضت شهيرة بحدةٍ وهي جالسة بجواره في السيارة البيضاء الفارهة التي يقودها كالمجنون وهما في طريق عودتهما إلى الفيلا..

«لا يمكنك أن تعتمد أسلوب الحياة المستهتر هذا ولدينا طفلةٌ تنتظرنا في البيت. لا يصح أبداً أن تقضي كل ليلةٍ ساهراً حتى بزوغ الفجر مع أصدقائك تلهو وتشرب ولا تعود إلا بعدما أستحثك بنفسي على العودة!! لا، لا، هذا غير مقبول .»

رد فؤاد متلعثماً من شدة سكره وغرقه في الخمر طوال الليل:

«مـا .. مـا بـكِ يـا شـيري؟! مـا بـكِ، هـه ؟ شـهد بخـير في البيت تحت سـمع وبصر نـادر.»

ضحك مكملاً: **«يعني بحالٍ أفضل بكثيرٍ مما لو كنت معها.»**

«ابنتنا تحتاج إلى والدها يا فؤاد.. تحتاجك أنت وليس أي أحدٍ آخر مهما أحبها واهتم بها.... كيف يمكن أن تنشأ نشأةً سويةً وأنت تهملها بهذه الصورة..؟ هه؟ أجبني؟!»

التفت إليها زوجها قائلاً بعينين حمراوتين محتقنتين وهو يرمقها غضباً دون الالتفات إلى ثيابها السوداء التي ما انفكت ترتديها مؤخراً:

«تتحدثين وكأنك تؤدينها حقها.. فها أنت معي الآن وابنتك في البيت.»

«أنا معك لأعيدك!!»

«حسنٌ.. وبالأمس؟! أتحدى إن كنت قد رأيتها أو تحدثت إليها.؟»

نظرت إليه من خلال عينين عسليتين أورثتهما لابنتها، قائلةً بتوسل و التأثر يقطر من حروف كلماتها: **«أرجوك يا فؤاد، لا تعد إلى هذا الموضوع... فأَنت تعلم تماماً أن بعدي عنها هو رغماً عني.. أنت تدرك مدى......»**

قاطعها بحدة: **«أدرك ماذا ؟»**

ردت بحنان وهي تُرجع خصلة شعر كستنائي جعداء خلف أذنها في حركة تلقائية: **«أنّي لولا الظروف ما ابتعدت عن شهد لحظةً واحدةً. وأنه لو كان الأمر بيدي، لما سمحت لأحدٍ غيري بتمشيط شعرها وقراءة قَصَصٍ ما قبل النوم لها ... ولكن ماذا عساني أفعل يا فؤاد؟ هه؟ ما حيلتي في وضعي هذا؟ أَنا متأكدة أنك في قرارة نفسك على يقينٍ تامٍ من صدقي، فأستحلفك بالله أن ترحمني من سياطِ لومِك كلما تقابلنا..»**

لم يلتفت إليها فؤاد بعدها طوال الرحلة إلى البيت وبقي مُحَمْلِقَاً في الطريق لا يرى فيها إلا فراغا تملؤه أشباحٌ راقصةٌ تتقافز على أوتار أعصابه المنهكة. وصلا وجهتهما، وما أن أوقف السيارة أمام باب الفيلا الداخلي حتى ترجل منها متخبطا تاركا محركها دائراً...

وصل إلى أعلى الدرج الرخامي المؤدي لباب الفيلا فاستند إليه بظهره وأخذ يبحث عن المفتاح في جيوب ثيابه وحين فشل في إيجادها أخذ يدق الجرس بنفاذ صبر. فُتِحَ الباب فدفعه بجسده كله واندفع نحو السلم الداخلي مترنحا قائلاً لآدم من وراء ظهره:

«**أغلق الباب وراء شهيرة يا آدم وضَعْ السيارة في الجراج...**»

وقفت كريمة – مدبرة المنزل التي فزعت من طريقة قرع جرس الباب– بجوار آدم ونظراتهما تلحق بفؤاد وهو يحاول جاهداً الثبات على درجات السلم حتى وصل أعلاه سالماً و توجه نحو غرفته... نظر كل منهما للآخر ثم انصرفا كل إلى حاله هازين رأسيهما أسفاً، فتوجهت كريمة إلى المطبخ لتجهيز ما ستستخدمه لإعداد الفطور، بينما اتجه آدم إلى الدرجات الخارجية نازلاً إياها بسرعة. وصل إلى السيارة فدلفها ليغلق الزجاج ويوقف المحرك، ثم خرج منها بخفةٍ و أغلق الباب تاركاً إياها حيث هي، فهو لا يعرف القيادة!!.. صعد الدرجات عائداً وأغلق باب الفيلا وهو يلتقط أنفاساً ثقيلةً مُتَمْتِمَاً بهدوءٍ وهو يستدير ليلحق بكريمة :

«**لا حول ولا قوة إلا بالله ...رحمةُ الله عليكِ يا سيدة شهيرة ... رحمة الله عليك...**»



جلس نادرٌ مسترخياً في ضوء النهارِ الناعمِ المنسابِ من النوافذِ الواسعةِ لغرفةِ الطعامِ والتي تكشفُ عن بانورما واسعةٍ للحديقةِ التي يوليها آدمُ اهتماماً وعنايةً كبيرةً ويتابعُ الجنائنيّ في كل تفصيلةٍ تخصُّها لتبدوَ دائماً غَنَّاءةً مزهرةً باعثةً على الراحةِ والبهجةِ والتجديد، أولاً، لِعِلْمِهِ بِحُبِّ نادرٍ واهتمامِه بالنباتات، وبخاصة، النادرِ منها، والتي ملأ بها الحديقة، مستورداً إياها من أقاصي الأرض وأدانيها، وثانيا، فمن وجهة نظره، إن كان الوقت يَشُحُّ عن وهبِ نادرٍ بضع دقائق من الراحة والاستجمام، فلنختلسه إياها، بمنتهى راحة الضمير، بجلسةٍ هنيئةٍ مع فنجانِ قهوةٍ أمام هذا الجمال الأخاذ...

استغرق نادرٌ في قراءة مقالٍ اقتصاديٍّ في إحدى الصحف المتخصصة - إحدى وسائل الوقت الشيطانية لاسترداد ما قد سلب منه سلفاً من دقائق-، فلم يشعر بدخول شخصٍ ما إلى الغرفة...

«يبدو وأنَّا، سنكون أنا و أنت فقط على مائدة الإفطار اليوم.»

أجفل نادرٌ رافعاً رأسه، ثم قال وهو يعود لصحيفته :

«لم أشعر بدخولكِ يا أميرة...»

رفع فنجان القهوة إلى شفتيه وهو يسأل دون أن تغادر عيناه الجريدة:

«أين الجميع إذاً؟»

أولته أميرة كامل اهتمامها وهي تجيبه مبتسمة:

«صباح الخير لك أيضا..»

نظر إليها قائلاً بأدب:

«آسف، صباح الخير يا عزيزتي.. اعذريني رجاءً.. فهذا المقال مهم وقد استولى على كل انتباهي..»

أشارت بيدها ألَّا مشكلة وهي تجيبه:

«لا بأس يا نادر... أقدر انشغالك، فقط كنت أداعبك..»

عاد ثانية إلى صحيفته مكرراً سؤاله:

«**إذاً؟ أين البقية؟**»

أجابته وهي لا تزال توليه نفس القدر من الانتباه:

«**خرج سامر مبكراً**» وأشارت بأصابعها كعلامتي تنصيصٍ مُكْمِلَةً بسخرية: «**لأمرٍ هام.**».. تابعت وهي تهز كتفيها: «**شهد لازالت نائمةً، فلا يزال الوقت باكراً جداً عليها.. أما فؤاد فقد عاد كعادته قرب شروق الشمس و لن يستيقظ قبل العصر.**»

«**إذاً لِمَ استيقظتِ أنتِ مبكرةً هكذا على غير عادتكِ؟!**»

تأملت أميرة للحظاتٍ في جانب وجهه المنهمك في المطالعة وتلاحقت أنفاسها.. لَكَم تحب هذا الرجلَ بملامحه السمراء الحادة وطباعه الهادئة وصوته الرخيم الذي تأسرها نبراته وتحرك فيها مشاعر لم تحلم يوماً بأن تختبرها في أرقِّ أحلامها.

مدت يدها لترتاح على يده برقةٍ رادَّةً بصوتٍ منخفضٍ:

«**لم أشأ أن تتناولَ إفطارك وحدك.**»

سحب نادر يده من تحت يدها بهدوءٍ بحجةِ طَيِّ الجريدةِ في ردٍ مهذبٍ، ثم شَرَعَ يُكمل فَطوره صامتاً، فرُغم جمالِ أميرة وذوقها الرفيع واندماجها مع الطبقة المجتمعية الرفيعة وكأنها نشأت فيها مُذْ نعومة أظفارِها، حتى باتت من أشهر آنساتها وأكثرهن لفتاً للأنظار، بأناقتها وجمالها وبحديثها اللبق المنمقِ المحسوبِ بالميزان، في أي محفلٍ. إلا أنه لم يشعر نحوها أبداً بأكثرِ ممَّا يشعر به القريبُ نحو قريبتِهِ مِن صِلةٍ ووِدٍ، لا يقتربان ولو قليلاً من مشاعرِ الرجل نحو المرأةِ، خصوصاً، تِلك التي يطمحُ للارتباطِ بها... أثقلَ الصمتُ الجوَّ جاعلاً إيَّاهُ يتململ بعدمِ ارتياحٍ، فقال بعد دقائق:

«ما ذاكَ الأمرُ الهام الذي استدعى خروجَ سامرٍ قبل السابعة؟ لعلهُ لم يقع في مشكلةٍ جديدةٍ..»

لاحظت أميرة تغييره للموضوع، فردت بخفةٍ:

«وكيف لي أن أعرفَ؟ فهو لا يخبرني عن شئونه وأنا بدوري لا أستفسرُ عنها...»

ضحكت بخفةٍ مكملةً: **«ولكنِّي لا أظنهُ في مشكلةٍ، فَلَمْ يَبْدُ عليهِ الضِّيقَ.. وعموماً، لا تقلق، فلو كان واقعاً في ورطةٍ ما، لكنتَ أنتَ أولَ مَن يعلم ..»**

رد باقتضاب: « **بالتأكيد.**»

أكملا فطورهما في صمتٍ تحتَ سمع آدم الواقف كالتمثال يسمعُ ولا يتحدث... ولو تكلمَ، لقال لنادرٍ ما قال مالكٌ في الخمرِ ...



صارت أعصاب مهرةٍ على شفير هاويةٍ، فاليومُ هو الرابعُ والتسعون بعد سفر طارقٍ، ولم تتلقَ منه اتصالاً واحداً بعد!

نعم.. كانت تحصى الأيام والساعات مُذْ ودعت طارقاً في المطار. يومها أخذت تلاحقه بنظراتها وهو يبتعد ويبتعد حتى حالت سُترُ المطر بينها وبين مرآه.. وللحقِّ، لم تدرِ أهي الأمطار المنهمرة من السماء أم تلك المنهالة من عينيها، لتجرف في طريقها الأمل والفرح وتنزحهما نزحاً عن وجهها، هي التي أغشت بصرها..

«سأكتب لكِ وسأحادثكِ يومياً يا حبيبتي .»

هكذا وعدها مودعاً إياها بقبلةٍ بطيئةٍ على يدها واختزل وعده كله بعدها في اتصالٍ يتيمٍ في اليوم التالي لسفره ليطمئنها على سلامة وصوله..

الآن، وبعد مرور كل هذه المدة، ذهبت لتزور والدته، رغم علمها أن زيارتها لن تلاقي الترحاب من قبل مضيفتها التي تذكرها دائما بالفنانة

«ماري منيب» في فيلم **«الحموات الفاتنات»**... فهي لسببٍ لا يعلمه إلا الله كانت لا تطيق ذِكراً لمهرة، وكانت تلاقي أيَّما هديةٍ تهديها إياها أو مجاملةٍ مهذبةٍ تبادرها بها بكل برودٍ وبابتسامةٍ تجمد القلب، وكثيراً ما تساءلَت مهرة كيف تنجب امرأةٌ قاسيةٌ مثلها شاباً حساساً كطارقٍ!!

وجرت الزيارة كما توقعت تماماً، فلم تُرِحِ السيدة «**نادية**» – والدة طارقٍ – قلبها، وعادت أدراجها ظمآى كمن نهل من ماء البحر....

«تقول (كيما) أن مامي معي طوال الوقت»

تنبهت مهرة إلى أنها استغرقت في خيالاتها تاركةً شهد دون متابعةٍ أو اهتمامٍ.. اعتدلت لترد بابتسامةٍ واسعةٍ:

«بالتأكيد يا حبيبتي.. ماما تحبكِ كثيراً ولا يمكن أن تبتعد عنكِ، وكونكِ لا ترينها لا يعني أبداً أنها لا تراكِ، فهي حولكِ في كل مكان تحبكِ وترعاكِ.. أتعلمين؟ أتذكرين ذاك الفيلم الذي حكيتِ لي عنه حيث تلك الجنية الصغيرة بأجنحتها السحرية؟ ألم تخبريني بأن لا أحد يستطيع أن يراها؟ مامي ذهبت إلى هناك يا حبيبتي ولهذا لا نراها..»

«أتعنين أن مامي أصبح لديها أجنحةً سحريةً؟»

كانت عينا الفتاة تلمعان بإثارةٍ فاتسعت ابتسامة مهرة وأجابت بحنو:

«ألن يكون هذا جميلاً يا عزيزتي؟.»

قوست شهد شفتيها بشكلٍ مؤثرٍ، وقالت وهي لا تقاوم عبراتها:

«ولكنني اشتقت إليها.. ألم تشتق هي إلي؟!»

تأوهت مهرة وهي تقوم من مقعدها لتحتضن شهد وتقبل أعلى رأسها.. حارت، فما يمكن أن تقول لطفلةٍ في مثل حداثة سنها لتهدئها وتفهمها أن الموتى لا يعودون، وأن الحياة لا تأخذ أعز الناس لديك، إلا حين تكون في أشد الحاجة إليهم وقمة الارتباط بهم!! كيف تقنعها بأنها ستكون بخيرٍ وستبلي

حسناً بدون والدتها، وهي نفسها تجسيدٌ حيٌ لعكس تلك المفاهيم؟ كيف تشرح لها أن مشاعر الشوق المؤلمة هذه لن تهدأ إلا لتثور مجدداً عند كل أزمةٍ أو فرحةٍ؟

قالت للطفلة الناظرة إليها ببراءة:

« أتدرين ..دعينا نتفقُ على أمرٍ جميلٍ.. أنا أيضاً فقدت أمي، فقد ذهبت هي الأخرى لأرض الحوريات.. فلنغلق أعيننا و لنتمنى أن يتلاقيا هناك وأن تصبحا صديقتين ترعى إحداهما الأخرى، بينما أنا وأنتِ هنا نرعى بعضنا بعضاً كذلك . ولتكن هذه لعبتنا الجديدة، فسأكون أختك بدلاً من معلمتك.. ما قولك؟»

فُتح الباب على مصراعيه قبل أن تتمكن الصغيرة من الرد، ووقفت أميرة هناك عاقدةً ذراعيها، فوقفت مهرة بدورها قائلةً بأدبٍ:

«أهلاً يا آنسة، تفضلي»

«مهذبةٌ جداً حتى تأذني لي بدخولِ إحدى غرف المنزل الذي أقطنه»

صَدمت مهرةَ نبرةُ السخريةِ التي تحدثت بها أميرة، ولم تَرُقْها، فهذا أول حوارٍ بينهما رغم التقائهما أكثر من مرةٍ أعلى الدرج أو أسفله أو في طريق خروجها، ما جعلها تسألها ببرودٍ: **«خيراً يا آنسة؟ هل هناك خطبٌ ما؟»**

ردت أميرةُ بتهكمٍ:

«كنتُ مارةً بجوارِ الحجرةِ حين استوقفني الهراءُ الذي تملئينَ به عقلَ الفتاةِ.»

جفلت مهرة: **«عفواً ؟!»**

أكملت أميرة وهي تتقدم لتتمشى في الحجرة لامسةً الألعاب المصطفة على الأرفف بأطراف أصابعها ، مُقَلِّبَةً بعضها بين يديها باهتمامٍ زائفٍ:

«أرض الجنيات.. والأموات الأحياء ... ترانا ولا نراها.. ترعانا وحولنا في كل مكانٍ... هذه يا عزيزتي مواصفات الإله !!!! ألا ترينَ أن هذه مبالغةٌ غيرُ مقبولةٍ»

شعرت مهرة بالدم الحار يفور في عروقها ليغمر رقبتها صاعداً حتى قمة رأسها. ردت بعصبيةٍ ظاهرةٍ :

«آنسة أميرة، لستُ حديثةً في عملي... كما أنِّي أظن أن ما تقولينه الآن هو ما يُعَدُّ (غير مقبولٍ) على الإطلاق.»

قطعت حديثها حين سمعت شهقات شهدٍ التي تكومت على الأريكة الزهرية الوثيرة باكيةً وهي تراقبهما بعيونٍ متسعةٍ ممتلئةٍ بالدموعِ وهي لا تفهم لم تبدو المرأتان غاضبتين بهذا الشكل. ابتلعت مهرة ريقها بصعوبةٍ وأسرعت إلى جانب الطفلة لتهدئ من روعها متوقعةٍ أن تعود أميرة من حيث أتت لتفعل أيَّما كانت تفعل قبل أن تقرر أن تعكر صفو الصغيرة المسكينة.. ولكن، كان لدى أميرة وجهة نظرٍ أخرى، فلم تبارح مكانها ولم تتوقف عن الحديث، ولذهول مهرة سمعتها تتابع بنبرةٍ ثابتةٍ و صوتٍ قاطعٍ كالنصلِ الحادِ و عيناها تثبتان الصغيرة في مكانها: **«الموتى يا حبيبتي، موتى. لا يسمعونَ ولا يرون، وبالتأكيد لا يعودون.. مامي ذهبت يا شهد إلى حيث لا يمكن أن تعود.. كما فعلت أمي وأبي وجدك. جميعهم ذهبوا، ولكننا لا زلنا هنا يا حبيبتي.. وعالمك الآن يقتصر على من تعيشين بينهم ويرعونك..»**

التفتت لترمق مهرة بنظرةٍ ساخرةٍ مكملةً:

«مَن تستطيعينَ رؤيتهم.. بابي وأنا ونادر وسامر.»

اقتربت من شهدٍ لتجلس بجوارها وتحتضنها متابعةً:

«نحن نحبكِ يا حبيبتي .. وكلما أسرعتِ في إدراكِ واقعكِ كان من الأسهل لكِ ولبابي ولنا جميعاً أن نتابع حياتنا بسهولةٍ وأملٍ وراحةِ بالٍ.. ألا ترينَ أنكِ تعذبين أباكِ، بِذِكْرِ أملكِ المتواصلِ أمامه، وأنه يولي هارباً ولا يعودُ إلى البيت إلا بعدما تنامين، حتى لا يرى دموعكِ، ولا يسمع بكاءك المتواصل؟!! ألا تحبينه هو الآخر؟! إن كنت تحبينه، فستستمعين لما أقول يا شاهي الحبوبة.. انسَيْ من مات وعيشي مع من بقي ويحبك كثيراً...»

وما أن انتهت حتى وقفت وغادرت الحجرة مخلفةً وراءها ذهولاً وصدمةً يتخبطان وَسْطَ عاصفةٍ من عطرِها النفاذ....



«صباحُ الخيرِ» قالها فؤاد باقتضابٍ وهو يدلف إلى غرفةِ مكتبِ نادرٍ ويقطع المسافة الواسعةَ بين الباب والمكتب الضخم بخطواتٍ عريضةٍ...

«مساءُ النور» رد نادر بهدوءٍ دون أن يرفع عيناه عن (اللاب توب)، فتَمتَم فؤاد بالإنجليزية: « **أرجوك!!**»

ابتسم نادر: «**ماذا؟**»

ثم عقَّب ساخراً بعدما تلاقت نظراتهما للحظة:

«آسف.. أأزعجتك؟ أرجوك ألا تبالي بي، فعادةً أكون نزِقاً في مثل هذه الساعة المبكرة من (المساء)»

زفر فؤاد متجاهلاً تعليق نادر تماماً، فهو يعلم أن الجدل الذي يوشك أن يبدأ لن ينتهي بكل الأحوال لصالحه، وكذلك فهو رغم الخلاف الدائم والاختلاف التام بينهما، إلا أنه يعلم علمَ اليقينِ أن نادراً حريصٌ عليه وعلى مصلحته كل الحرص ومراعٍ لابنته مراعاةً تامةً تفوق اهتمامه هو بها. كما أنه -بينه وبين نفسه- لا يجد منَ الأساسِ سبباً حقيقياً يدفعه للدفاع عن نفسه، فهو مقرٌ بكل ما سيقوله له نادر سلفاً، إذ أنه غير راضٍ عن نفسه أو حاله على كل الأصعدة... فقد (كان)، ولهذه الكلمة معانٍ وأبعاد زمنيةٍ كثيرةٍ، كان زوجاً محباً، قدر ما استطاع... كان أباً مراعياً حانياً وموجَوداً طوال الوقت لملاكه البالغ من العمر خمس سنوات .. تلك الفتاة الرائعة التي كان عالمها يدور برمته في فلكه هو ....

(كان) صحفياً لامعاً، متابعاً وسباقاً.. (كان) نافذَ البصيرةِ ينفرد بتحليلاتٍ وانفراداتٍ بارزةٍ..

(كان) يَعِدُ نفسه بمستقبلٍ باهرٍ مع زوجةٍ يشيخُ بين ذراعيها، وأطفالٍ يكبرون في كنفه وتحت رعايته... وَعَد نفسه بأن يصبح من أكبر الصحافيين في مجال السياسة... بأن يتفاخر أحفاده بانتمائهم لفؤاد عزّ العرب...

عزُّ العرب!! هه... أين هو الآن من كل أحلامه؟ كيف يمكن للحظة غضبٍ كريهةٍ أن تدمر، ليس فقط حاضره، بل ومستقبله وكيانه وأسرته وكل ما رنا إليه يوماً ..؟

على مَن يصبُّ جامَ غضبه لفقده أحب من يملك؟ القدر؟ أولسنا جميعا دمى بين يديه يصفها كيفما يشاء ليصل بنا إلى ما هو محتوم ؟! أم المال ؟ فهو المحرك ذو القوة القصوى الذي يضخ الطاقة في كل شرايين الحياة، كما يضخ نار العنفوان بكيان صاحبه ويمنحه قوةً وجرأةً وأحياناً صَلَفَاً، فيقول ما يشاء لمن يشاء وقتما يشاء، وأن يفعل ما يشاء فيمن يشاء حينما يشاء؟

أَم ببساطةٍ، لا يلومَنَّ إلا نفسَه، التي ما أمرته وما اقتادته إلا لكل سوءٍ، ولعدم تقديرِ النعمة التي كانت بين يديه، فاختفت في لحظات حتى لَيَظُنُّ وكأنها لم تكن؟

قطع نادرٌ عليه حبل أفكاره سائلاً إياه باهتمامٍ: «**أنت بخير؟ ما بك؟!**»

رد ببساطةٍ: «**لا شيء، أنا بخير، فقط أشعر بصداعٍ خفيفٍ.**» **وابتسم مكملاً: «لا شيء يعجز عن علاجه فنجان قهوة.»**

ضغط نادر زر الاتصال الداخلي مع السكرتيرة قائلاً بنبرةٍ آمرةٍ: «**شطيرتي برجر وفنجان قهوة يا نهلة.**»

«**حاضر يا سيد نادر.**»

اعتدل ونظر إلى فؤاد المغلق العينين بألمٍ. تنهد ثم تابع عمله شاردَ الذهنِ... سحبه مَدُّ أفكارِهِ للتأمل في وضعِهِ ووضعِ شركاته، وفوق كل هذا، وضع شقيقه الوحيد... يَعُزُّ عليه كثيراً ما آل إليه حاله، فليس الجالس أمامه بتهالكٍ الآن هو فؤاد كما عرفه الجميع يوماً... فؤادُ الذي ما إن كان يدلف إلى مكانٍ ما،

حتى يصبح محطَّ اهتمام الموجودين بخفة ظله وحضوره ووسامته وفوق كل هذا رجاحة عقله وثقافته... فقد كان محدثاً لبقاً وكان حديثه، ولو عن أبسط الأمور، أخّاذاً، مرحاً و مشوقاً.. وهو يذكر جيداً يوم أعلن فؤاد عن خطبته لشهيرة، زميلة دراسة شقيقه الأكبر، والتي لم يأبه لفارق السن بينهما لصالحها، كيف أن صديقاته و قريباته كدن يَمُتْنَ كَمَدَاً .. مَن يُلامُ على ضياعِ إنسانٍ بمثل روعةِ فؤاد؟ أهو الحزن الذي عصف بنفسه لموت شهيرة؟ أم الخَوف من مسئولية شهدٍ هو ما دفعه للهروب إلى كهوف العزلة والوحدة؟ أم عليه أن يلوم نفسه لانشغاله عن الوقوف المعنوي بجانب شقيقه؟ فبدلاً من أن يَشُدَّ من أزره وأن يساعده ليتماسك من أجل ابنته، اندفع ليرعى صغيرته اليتيمة ويغرقها بحنانه وكأنه هو أيضاً كان يحتاج إلى من يشعره بوجوده في غير عالم المال والأعمال.. فانقلاب حياة شقيقه رأساً على عقب، قلب حياته هو الآخر، وبدَّل حاله من شاب أعزبٍ يعتنق عمله شريعةً، لأبٍ أعزبٍ يضطلع بمسئولية طفلةٍ ذات خمس رِبَاعٍ بكل ما يتطلبه هذا من سعة صدرٍ وسعة حيلةٍ وما أتيح له من وقتٍ يستطيع منحها إياه.. وللحقيقة، لم يدرك نادر صعوبة تنشئة طفلٍ إلا مُذْ ذاك الحادث الحزين الذي أودى بحياة زوجة شقيقه المحبوبة...فالمال في حياة الطفل مهم، ولكن للحكاية أبعاد أخرى وخفايا كثيرة، وحين انسحب فؤاد تماماً من حياة شهد، تركها تائهةً لا تدري ما حل بدنياها الوردية، وتركه هو يتخبط في دنيا الصغيرة لا يدري ما يفعل ومن أين يبدأ...

و لكن الأيامُ خيرَ معلم، فبعد أن كانت أقصى نجاحاته مع شهد تقتصر على أن يجعلها تتوقف عن البكاء، أو أن يجعلها تبتسم إن حالفه الحظ، أصبحا الآن صديقين لهما أسرارهما و عالمهما الخاص... بل، وضحكاتٍ ونكاتٍ بنكهة الطفولة.. وكان فخوراً بنفسه لهذا، ففي خِضَمِّ حياته الهائجة بكل انواع المشاغل، إلا أنه تحدى نفسه ونجح في أن يوجد لشهدٍ مرفأً خاصاً يرسو به ليرتاح قليلاً من تلاطم أمواج العمل ومن عناء الترحال...

عاد ليسأل نفسه محللاً، أيمكن أن تكون نجاة فؤاد بأعجوبةٍ من ذاك الحادث المقيت قد ولدت لديه شعوراً بالذنب؟؟؟؟ من يدري؟ فهما لم يتحدثا بهذا الشأن أبداً.. فكلما فتح نادر نافذةً للحوار بهذا الخصوص سارع فؤاد بالهروب منها متعللاً بحُجج متعددةٍ ، وكان يستشيط غضباً ما إذا أصر نادرٌ على متابعة كلامه، ما جعل الأخير في النهاية يُؤْثِرُ الابتعاد عن مناطق الاختلاف ليحظى بأي قدر من صحبة أخيه بلا جدال... هو يعلم تماماً أن هذا غير كافٍ، فلشقيقه عليه حقٌ ولكنه لا يدري ما عليه أن يفعل. الجميع يقف مكتوف اليدين وهم يرَون بأعينهم فؤاد وهو يضيع، وربما إلى الأبد، و لكن لا يستطيعون له نصحاً....

طرقاتٌ خفيفةٌ على الباب انتشلته من كآبة أفكاره. انتظر حتى وضعت نهلة الطعام والقهوة على الطاولة وتابعها حتى غادرت المكتب مغلقةً الباب وراءها بهدوء... التفت إلى فؤاد المغمض العينين فيما يبدو وكأنه استغرق في نوم عميقٍ.. ناداه بصوتٍ خافتٍ حتى لا يجفله: «**فؤاد.. فؤاد**» ورغم حرصه انتفَض فؤاد: «**ماذا ؟ ما الأمر؟!**»

«**استغرقتَ في النوم ولا أريد أن تبرد قهوتك، تناول فطورك قبلها من أجلي... ولنتحدث حين تصبح مستعدا .**»



«**أريدك أن تعمل معي يا فؤاد.. هنا في الشركة، حيث يُفترض أن تكون .**»

تمطى فؤاد في كرسيه ومد جسده مسترخياً سائلاً والتسلية باديةٌ على وجهه بعكس ما توقع نادر: «**لماذا ؟**»

بقي نادر صامتاً للحظاتٍ، فلم يتوقع هذا الميل للإذعانِ، و إنما كان قد أعد خطاباً – في حالِ رفض شقيقه المتوقع لعرضه– يَحُثُّ فيه فؤاد على تحمل بعض المسئولية وأشياء من هذا القبيل... أجاب بعد برهةٍ:

«الشركة ملكك أيضاً، ولكَ فيها مثل ما لي.. ولهذا يجب عليك إدارتها معي ومتابعة أعمالها.»

«و؟»

«لقد تعبتُ من تولي كلَّ الشئونِ وحدي يا فؤاد. أحتاج حين أسافر لِمَن أثقُ بهِ ليتابع العمل، أريد أن أرى من خلال عينيك، وأن أطمئن منك وليس من أحد مساعديّ على حركة أموالنا.»

«و؟»

رمق نادر فؤاد بحدةٍ: **«أتسخرُ مِني؟!»**

اعتدل فؤاد وقال هازاً كتفيه:

«وكيف تريدني أن أصدق أنك نمت ثم صحوت فوجدت نفسك فجأةً بحاجةٍ ماسةٍ (إليَّ)، أو دعني أقُلْ (تريدني) معك هنا في الشركة؟ مُنْذ متى وأنت تحتاج إلى أي مساعدةٍ في العمل، أو في أي شيءٍ آخر؟ ومِمَنْ ؟ مني أنا!!! وأنت محاطٌ بلفيف من جَهابذَةِ الاقتصادِ وخبراءِ سوقِ المالِ، في حين لا أَفْقَهُ شيئاً في مجال الأعمال ولا حتى أدركُ الفرقَ بين البورصةِ وشارع عبد العزيز !!»

«لَمْ أَنَمْ و أصحو على هذه الفكرة أو أي شيءٍ من هذا القبيل. لقد كنت أفكر منذ ما يزيد عن العام في أن أطلب منك أن تنضم إلي وأن تدعك من الصحافة ولو لِحِينٍ... والآن أراكَ بالفعل قد ابتعدت عن الصحافة ولم ترتبط بأي عملٍ آخر، فقلتُ لنفسي (لم لا؟)، فهذه شركتك أنت الآخر... عَلَّكَ لَم تنسَ هذا..»

«إن كنتَ حقاً تحتاجُ إلى المساعدة، فاطلبها من أهلِها... تحدث إلى خالِك..»

رجع نادر بظهر كرسيه إلى الوراء سائلاً بهدوءٍ:

«وأين هو خالك الآن؟»

«وما أدراني؟»

«بالضبط»

اعتدل نادر ثانيةً واضعاً مِرفقَيه على المكتب:

«لا أحد، ولا حتى أنا، يعلم إلى أين يذهب خالك ولا متى سيعود. هذه نقرةٌ، الأخرى هي أن الأمر شاقٌ جداً على رجلٍ في مثل عمر خالك ليبدأ في تعلمه وإجادته ومتابعته ... هي في الواقع مسئوليةٌ ثقيلةٌ مرهقةٌ وأنهارٌ من المال قد لا يدري إلى أين تَؤول.. ثم ما يجعلك تظن أنه سيقبل بمثل هذه المسئولية ولا ناقةَ له ولا جَمل فيها، فيما أنت صاحب المال تتنصَّل من تولي أمره؟! أكرر، هذه أموالنا، مالك ومال شهدٍ يا فؤاد، ولا أرى أن نُحمِّل غيرنا مسئوليته ولا أن نأتَمِنَ إلَّانا عليه.»

«ألا تثقُ بخالي حسَاب؟!!»

«أثق به ربما أكثر مما أثق بنفسي... ولكن، لِمَ تُشَعِّب الكلام؟ أنا أطلب منك أنت ولو أردتُ خالك معي لكنتُ طلبت منه ذلك فوراً.»

جاء دور فؤادٍ ليعتدل في مقعده، ونظر مباشرةً في عيني نادر قائلاً ببطءٍ مؤكداً على كل حرفٍ من حروف كلماته:

«إِنْسَ الأمر تماماً، وأَسْدِ نفسَك وأسدني معروفاً بألا تفاتحني بهذا الشأن ثانيةً. وإن كان حضوري إلى هنا سيضايقك فلن أحضر ثانية.»

هب واقفاً فوقف نادر بدوره:

«أطلب منك أن تتولى الإدارة فتقول أن حضورك يضايقني!!! صدقاً، ماذا حل بك يا فؤاد؟! كيف التوى دماغك بهذا الشكل؟!»

دار حول مكتبه ليقف في مواجهة شقيقه الثائر قائلاً بصوتٍ هادئٍ حازم:

«جُلَّ ما أتمناه هو أن تعود كما كنت في سابق عهدك، وأن تسترد مكانتك واحترامك لدى الجميع... هذا أقل ما تستحقه يا فؤاد.»

قرَّب فؤاد وجهه من وجه أخيه قبل أن يقول من بين أسنانه:

«ليس لديك فكرةٌ عَمَّ أستحق، فلا تتحدث عَمَّ لا تدري.»

وفي لحظاتٍ كان قد غادر الغرفة كالعاصفة تاركاً وراءه نادراً كالتمثالِ محملقاً في الباب المغلق حيث خرج أخوه..لا يدري كم بقي على حاله، ولكنه حين تنبه، زفر واستدار ليجلس خلف مكتبه ثانية، مستقبلاً حاسوبه، مفرغاً غضبه على أزراره..



«أريد أن أقابل والد شهد للضرورة يا كريمة.»

«السيد فؤاد غير موجودٍ الآن يا آنسة مهرة، ولكنني أستطيع إخباره بما تودين إبلاغه إياه.»

«آسفة و لكنِّي أريد مناقشة أمرٍ هامٍ معه، فمتى يمكن أن يتواجد؟»

«لا أحد يدري يا آنسة.»

«حسنٌ، أنتِ لديكِ رقم هاتفي.. من فضلكِ أعطه إياه وليتحدث إلي بأي وقتٍ.»

«إن شاء الله.. سأبلغه يا آنسة .»

غادرت مهرة الفيلا واستدارت كريمة لتعود إلى المطبخ بعدما أغلقت الباب لتتفاجأ بأميرة تستوقفها من أعلى الدرج سائلةً:

«ما الأمر؟ ماذا كانت تريد مدرسة شهد؟»

تعجبت كريمة من السؤال ولكنها أجابت بأدبٍ:

«كانت تود مقابلة السيد فؤاد لأمرٍ هامٍ.»

«وما هو؟»

«لا أدري، فلم تشأ إخباري.»

أشارت لها أميرة بيدها أن تنصرف ثم عادت أدراجها إلى حجرتها حيث يجلس سامر مدخناً سيجاراً، وهو غير مبالٍ بالرماد الذي ينفضه على السجادة العاجية الغالية.

«انتبه للسجادة يا سامر، لا تقلب حجرتي لبقايا منجم فحم كغرفتك.»

سألها دون أن تغادره لا مبالاته:

«ما بالُكِ عصبيةٌ هكذا؟ ماذا حدث الآن؟»

«مدرسة شهد تريد أن تقابل فؤاد لتشكوَ إليه ما حدث بيننا اليوم.»

اعتدل سامر وعلق ساخراً:

«ليس هذا ما يجعلك متوترةً وعصبيةً هكذا، لابد وأن هناك أمرٌ آخر يشغل بالكِ.»

عاد ليأخذ نفساً من سيجاره باستمتاعٍ ثم تابع مبتسماً:

«فأنتِ تعرفينَ جيداً أنها مهما قالت لفؤادٍ فهو لن يبالي إطلاقاً ولن يلقي للأمر بالاً من الأساس... هذا، على فرض أنها ستتكمن من لقائه في المقام الأول.»

«نعم.. ولكن ماذا إن قابَلت حينها نادر؟ أتظنه لن يأبه هو الآخر؟» نظر إليها سامر بحدةٍ، وقال بضيقٍ ظاهرٍ:

«لا أدري ما الذي دفعك للتدخل في شأن الفتاة؟!!! مالَكِ وما تخبرها به معلمتها؟!»

«إنها تعبثُ برأس الفتاة وتملؤه بالخرافات.»

«وأنتِ تهتمين لأمرِ شهدٍ وتتابعين عن كثبٍ ما تلقنها إياه المدرسة؟ !! ولهذا تعمدتِ جرحها بكلامٍ سخيفٍ غير لائقٍ!!!»

«دعْكَ من السخرية.»

جلست، ثم سحبت من فمه السيجار ودخنتها ببطء قبل أن تقول بهدوء:

«بصراحة لا آبه للطفلة ولكنني لم أتمالك نفسي حين سمعت ما تقوله لها تلك التي تدعو نفسها معلمةً، فانهيار شهد وتذكرها لأمِّها يشغل نادر ويستغرقه تماماً، وظننت أنها كلما أدركت واقعها وتقبلته بسرعةٍ، كلما تمكن نادر من التفكير في نفسه وفيَّ، وقلقي سببه أنِّي لا أريد أن يُعيقَني شيءٌ عمَّا أصبو إليه.. ولو كان هذا الأمر تافهاً كتكدير معلمة شهد.»

ارتكن سامر بمرفقيه على ركبتيه مائلاً إلى الأمام محدثاً أميرة بجديةٍ غريبةٍ عليه غرابةَ الجليدِ عن سطحِ الشمسِ:

«استمعي إلي يا أميرة وأنصتي جيداً لما سأقول.. ما برأسكِ لن يحدث ولو بعد مائةِ عام، ولو كان نادر سيتزوجكِ لكنتِ الآن زوجته بل ومنذ سنوات، ولكنه غير مبالٍ بالفكرة نفسها، إن لم يكن بكِ أنتِ يا غاليتي... عليكِ أن تكوني واقعيةً وأن تتحركي وفقاً لما هو واضحٌ وأكيدٌ.. لن نبني قصوراً من الرمال، فدعي السذاجة فقد سئمتُ القلق والترقب. دعينا نركز ولْنضعَ أرجلنا على أرضٍ ثابتةٍ فالفرصةُ مواتيةٌ لنا الآن وللمرة الأولى منذ سنين، فرجاءً كفانا عبثاً.»

ردت بعصبيةٍ، حيث لمس سامر وتراً حساساً بكلامه دون أن يدري، أو ربما هو يدري تماماً:

« انا لا أعبث ، بل أحاول بكل ما اوتيت من حيلة ، و لكنه كالسد المنيع !»

قاطعها :

«وهذا بالضبط ما أعنيه يا أميرة، فلابد أن تستبعدي مشاعركِ وتنحينها جانباً، فالرومانسية ليست رفاهيةً متاحةً في هذه المرحلة..... هذا لصالحكِ و صالحي.. مفهوم؟!»

باغتتها صراحته وتلويحه بمشاعرها نحو نادر فردت بغضبٍ:

«جدية؟ من يتحدث عن الجدية؟ أنا أقوم بكل شيءٍ، أفكر وأنفذ وأنت لا

تجيد سوى صرف المال والاستمتاع بما أنجزه... وهل هناك ما يثبت جديتي أكثر من قلقي، والذي كنت منذ دقيقةٍ واحدةٍ فقط تحاول أن تخلصني منه، من أمر تراه تافهاً؟ ألا يعكس هذا جديتي واهتمامي بأدق التفاصيل؟»

«لم لا تواجهين الحقيقة؟ أحقاً تظنين أن أمراً تافهاً ككلامك مع المعلمة سيؤثر في قرار نادرٍ إن أراد الزواج بكِ؟ صدقيني، نادر ليس هو الصيد المناسب، إن فهمت ما أعني.. فدعيكِ رجاءً من الحب والسخافات، فهما لأصحاب الفرش الناعمة، ودعينا نحن نمد جذورنا ونتمكن حتى نسيطر في النهاية على كل شيء.»

نفضت رماد السيجار في المطفأة دون أن تعقب على كلام سامر مكتفيةً بهزةٍ خفيفةٍ من رأسها.. بقيا على هذا الحال فترةً غيرَ وجيزةٍ، حتى لَيَظُنُّ الناظرُ إليهما أنها لوحةٌ ثابتةٌ لولا تحرك يد أميرة بالسيجار من وإلى فمها وتراقص عمود الدخان الذي تنفثه من فمها وأنفها والذي كان يتلوى في الهواء كحيةٍ تبثُّ سُمَّها في رأسيهما مع كلِّ انحناءةٍ لها، وكلاهما ينظر للآخر عبر الدخان المتراقص، محاولاً سَبْرَ أغوارِه...

تكلمت أميرة أخيراً:

«ماذا يدور في رأسك؟»

نظر إليها سامر، كان شكلها غريباً وسط سحابة الدخان. هو يعلم أن أخته على استعدادٍ لفعل أي شيءٍ ، وكل شيءٍ لتحصل على ما تريد، وكان يعجبه هذا الطبع فيها... ويخيفه أيضاً إن صدق مع نفسه....

لكنه لا يختلف عنها كثيراً، وابتسم للفكرة، رادّاً ببرودٍ مستفزٍ:

«فؤاد»

ردَّدت بتعجبٍ مصطنعٍ:

«فؤاد!!»

«نعم، فلو نظرنا إلى الحال الآن من بعيدٍ، سترين أن القوة كلها بيدِ نادرٍ، فهو صخرة هذا البيت وعماده الذي يرتكن عليه الجميع ما جعله كالحجر الصوان، وهذا يترك صاحبنا فؤاد ضعيفاً هشاً متجاهَلاً ومتجاهِلاً كل شيء حتى ابنته الوحيدة.»

قاطعته:

«ولهذا أرى أن نادراً هو السبيلُ للحصول على كل ما نبغي، فلِمَ نتقرب لِمَنْ لا يملك ولا يحتكم على قرار؟!»

«وهنا يأتي السؤال المهم : كيف؟؟؟»

تنهد بعمقٍ ثم تابع:

«يا سيدتي الجميلة، في استراتيجيات الحروب، لاقتحام قلعةٍ أو حصنٍ ما، لابد من البحث عن نقطة الضعف لا مركز القوة.»

«و لكن نقطة ضعفك العتيدة لا قيمة لها هنا، فكما قلتَ أنتَ منذ لحظاتٍ، لا حول له ولا قوة، فحتى لو تمكنا من استقطابه، فلا حاجة عند نادرٍ لرأيه ولا هو يسعى للتدخل في أي شيءٍ مهما كان بسيطاً، ولا حتى في شئون شهد.... هو مستغرقٌ في الكآبة، مستمتعٌ بالغرق في ذكرياته وآلامه»

«وهو كذلك يمتلك النصف في كل شيءٍ رغم ذلك.»

«أتعبتَني يا سامر!!! أُعيد ما قلت سابقاً، لا يتحكم ولن يستطيع حتى وإن أراد... فمن جهةٍ لا يريد أن يتعب نفسه ومن أخرى لا يفقه شيئاً إطلاقاً في إدارة الأعمال وربما لا يعلم حتى حجم أملاكه.»

«ومن سيمنعه إن أراد أن يتدخل أو يفهم أو حتى يتشارك مع نادر في إدارة أعماله؟»

«نادر» ردت بسرعةٍ وثقةٍ، فهي تعلم تماماً أن نادراً بكل حبه واهتمامه بأخيه، لن يخلط الأوراق ويدخل المشاعر في العمل... فشخص بتفاهة فؤاد وضعفه هو آخر من سيدخله نادر إلى شركته التي ضحى فيها بعمره وجهده

طوال السنوات الماضية. ليس أنانيةً ولكن مراعاةً لمصلحة العمل ومن ضمنها مصلحة فؤاد شخصياً...

ابتسم سامر:

«خذلتني يا أميرة.. خانكِ ذكاؤك هذه المرة.... فنادر يقاتل ليستعيد فؤاد صوابه ولو كنتُ أنا مكانه لفكرتُ في جذب انتباهه صَوب الشركة والعمل ... ولا أظن أن فؤاد يستجيب ولهذا فإن عرض هو العمل في الشركة الرئيسة فلن يعترض نادر إطلاقاً.»

«أعلم أن نادراً يحب فؤاد، ولكن ليس على حساب مصلحة العمل التي يراها مصلحة الجميع أيضاً.. و لهذا فربما لن يمانع وجودَ فؤاد في الشركة ليل نهار، ولكنه كذلك لن يمنحه صلاحياتٍ مطلقةٍ أبداً ولن يشجعه فؤاد باستسلامه... ودعني أقلب السؤال الذي سألتَه سابقاً: كيف؟ وما الذي يمكن أن يقنع فؤاد أن يتركه مما هو فيه وأن يعمل مع أخيه في حين سيفشل نادر، مع كل مكانته لدى فؤاد، حسب افتراضك في اقناع ؟»

«ليس (ما)، وإنما (من).» قالها و سكتَ ليمنحها لحظاتٍ تستوعب فيها ما عَنِيَ..

أطلقت أميرة ضحكةً ساخرةً عاليةً أحنقت سامراً كثيراً كونها تسخر منه، ولكنه تجاهل حنقه وهم بمتابعة حديثه إلا أن أميرة قاطعته بسخريةٍ حادةٍ:

«يالَكَ من ساذج، أنتَ تتحدث بمنطق اللا منطق!!!، وكأن تحولي من الاهتمام بنادر للاهتمام بفؤاد الّذي قلّما أُحَدِّثه من الأساس لن يكون ملحوظاً.... وكأن جميع من في البيت لن يشُكُّوا في نواياي حينها.... فؤاد ليس غبياً، وإن كان مغيباً، كذلك فإن نادراً يتابعه بعين الصقر.. ولن يسهل أبداً علينا التقرب إليه كما تتخيل. هذا بالإضافة إلى واقع أن ما فيه فؤاد الآن هو بسبب (حبه) العميق لشهيرة، ومحاولة الالتفاف حوله واقناعه بالزواج بي ربما تكون مستحيلةً، على الأقل حالياً، فلستُ الوحيدة التي رأت هذه الفرصة، ولطالما لاحظتُ كيف يصُدُّ كل من تحاول التقرب

إليه من صديقاتنا وأقارب شهيرة.. لا، ما تطلبه مستحيلٌ ولن أضيع وقتي ومجهودي في ملاحقة سرابٍ.»

اغتاظ سامر كثيراً من صحة منطقها وكيفية عرضها لفكرته بطريقة جعلتها تبدو ساذجةً ضحلةً في حين أخذ هو يفكر ويخطط لكيفية تنفيذها أياماً ولياليٍ.. ولكنه يدرك أن عليه أن يصبر على أميرة حتى يصل إلى مراده، فبدونها لن يستطيع شيئا ولو بسيطاً كتغيير سيارته أو الحصول على أي كان من المكاسب المادية، و لهذا فقد استدعى كل قواه للسيطرة على أعصابه ليقول بصوتٍ استطاع أن يجعله هادئاً خافتاً ساخراً ليستفز انتباهها، فهو يعلم مدى غرور شقيقته وأنها لن تفلته بعد تعليقه إلا بعدما ترغمه، كما سيجعلها تظن، بالبوح بكل ما لديه، بدلا من المصادرة على أفكاره حتى من قبل أن يفكر فيها، كما هي عادتها....

«**حجج واهية.**»

تعليقٌ وحيدٌ أطلقه سامر وهو يقف، وهَمَّ بمغادرة الغرفة، فاستوقفته أميرة: «**لِمَ و لِمَن أتحجج...؟!! لك أنت؟ أتظن نفسك...**»

قاطعها بسرعة:

«**قبل أن تستغرقي في السباب، أرجو أن تعتبريني لم أقل شيئا واهدأي وانسَيْ كل شيء...**» قالها بهدوءٍ وأدبٍ كمن ندم على ما قال، ولكنه احتفظ بشبح ابتسامةٍ عند ركن فمه كان يعلم أنها ستفهم منها أنه لديه المزيد وأنه ليس آسفاً فعلاً على ما قال فوقفت بحدةٍ عن كرسيها رافعةً صوتها بطريقةٍ لطالما كرِهها، فهي تشعره دائما بأنها أكبر وأنضج وأكثر حرصاً على صالحهما بالرغم من أنه هو شقيقها الأكبر.. الأكبر بأعوامٍ..:

«**لن أهدأ ولن تترك الحجرة دون أن تشرح لي تماماً ما تعني بالحجج الواهية، وأحذرك يا سامر، فأنا لن أسمح لك بممارسة ألاعيبك الكلامية معي... تحدث ولا تستفزني أكثر من هذا.**»

كرهها أكثر فأكثر.. ولكن رغم كل شيء، فقد أفلحت (ألاعيبه) كما سمَّتها... ابتسم لنفسه ولكنه لم يسمح لابتسامته بأن تطفوَ على صفحة وجهه.. عاد باستسلامٍ ظاهريٍّ كَمَنْ أُسْقِطَ في يده وقال هازاً كتفيه ببساطة:

«تأملي ما قلته تواً.....»

عاد ليواجهها ممسكاً بذراعيها برفقٍ حتى يستأثر باهتمامها:

«إذا كانت ملاحقة فؤاد سراب، فماذا تسمين ملاحقة نادر؟! وإن كان نادر يرى فيكِ خطراً على أخيه، فَلِمَ سيختاركِ لنفسه ؟! تتعَلَّلِين بعدم رغبتكِ إهدار وقتكِ ومجهوداتكِ وأنتِ تُلقين حياتنا قرباناً تحت قدمي العزيز نادر طمعاً ليس في حبه وإنما في نظرة استلطافٍ منه..»

شعرت بكلامه كالصفعة فأدارت وجهها قائلة بسرعة: **«أنا لـ ...»**

قاطعها ثانيةً، عليه الآن أن ينهال عليها بكل ما أوتي من أفكارٍ لِيَنفُذ من هذا الثقب الذي أحدثه في كبريائها وينسل إلى عقلها، ليثبت نفسه وقدرته أمامها ولو لمرةٍ يتيمةٍ، فقال وكلماته تسابق بعضها على لسانه حتى لا يفقد فرصته الوحيدة:

«أفيقي يا أميرة، فقد كنتُ أراقب محاولاتك اليائسة منذ انتقلنا للعيش هنا، وكنتُ أخبر نفسي بأن لا بأس من المحاولة فقد تتاح لك ولنا الفرصة يوماً، رغم اقتناعي يوماً بعد يوم، وبمعرفتي التي ازدادت مع الوقت بشخصية نادر، بأن هذا مستحيل، ولكن لم يكن لدينا ما نخسره...ولهذا تابعت بصمتٍ كل ما تفعلين، وكذلك كل تفاصيل حياتها، فبَصِرتُ ما أعماكِ عنه بريق السيد العظيم.. راقبتُ كيف تحولت العلاقة وكيف أصبح نادر يعتبر نفسه والد كل من فؤاد وشهد معاً، كما سمعت نادر كثيراً ما يَحُثُّ فؤاد مؤخراً ليستفيق مما هو فيه، وبمعرفتي لنادرٍ أتوقع محاولته اجتذاب اهتمام فؤاد للشركة... أمَّا وقد لاحت لي الفرصة الآن، فقلت لنفسي (لم لا يكون فؤاد هو حصان طروادة والذي من خلاله سندلف، ولو من الباب الخلفي، لعالم الأعمال والثروة ....) .. وأملي في تنفيذ هذا هو أنت يا أميرة، فإن لم

تستفيقي من حلمك الوردي فسنقضي بقية عمرنا نعض أناملنا من الندم، فلن نطال حينها لا بلح الشام ولا عنب اليمن.»

لاحظ صمتها فاغتنم فرصة ترددها واستماعها إليه دون مقاطعةٍ أو تعليق ما يدل على أنها تَزِنُ كلامه و تديره في رأسها، فعاجلها بالقاضية:

«صدقيني يا أميرة، لن يتزوجك نادر ولو بعد ألف عامٍ... انظري أنت إلى من حوله من النساء.. أحقاً تظنينه يفضلك على سيدات المجتمع الراقي؟ فرغم أنك تعيشين هنا إلا أنك لست أميرة أو ممثلة أو سيدة أعمال، ولن يحمل زواجه منك له أي فائدة... فنادر، قبل كل شيءٍ، رجل أعمالٍ ، ولن يكون زواجه إلا صفقةً، إما أن توسع أعماله أو ترفع مكانته.... فبزواجه سيقطع الكثير من الطرق التي كانت تمهد لصفقاتٍ وأعمالٍ ربما لن تحدث إن تزوج... فالكثير من سيدات الأعمال يحلمن حلمك بالزواج منه وهو يجيد الرقص على نغمات هكذا أحلام، فإن قرر أن يقطع كل هذه الأوتار، فلابد وأن يكون العائد والمقابل أكبر بكثيرٍ من الثمنِ... فأخبريني أين أنتِ من كل هذا؟ هه!! تذكري يا أميرة أنك لست هنا إلا لأننا، ولحسن حظنا، كنا نعيش مع خالي حسَّاب، ولولا أن نادراً أراده أن ينتقل للعيش معه هنا هو وفؤاد بعد موت والدهما، لظللنا في ذاك الحي البائس....»

قاطعته بسرعة:

«نادر يحتاجنا أيضاً يا سامر، فنحن أيضاً عائلته.... وكل إنسانٍ يحتاج إلى عائلةٍ...»

صمتت وانتظر حتى تكمل ولكنها لم يكن لديها ما تضيفه، فابتسم ابتسامةً صفراءَ وقال بسخريةٍ:**«يحتاجنا!!!!! أوه بالطبع!!!! كلُّ إنسانٍ (يحتاج) لعائلةٍ، ولكن إلى أي مدىً ولأي سببٍ.... نعم، اتفق معك بأن نادراً يحتاجنا، ولكنه يحتاجنا لأننا برهانٌ حيٌ على إحسانِه... مسمارٌ في طاولةٍ أنيقةٍ يزين بها ردهته.. ليثبت للناس من حوله ومن قبلهم نفسه كم هو طيبٌ وكريمٌ... فهو ينفق على أبناء خالته المساكين، وليس هذا فحسب، بل ويستضيفهم استضافةً دائمةً في بيته... أو لِنَقُلْ، يُؤوِيهِم في بيته..»**

أشاحت أميرة بوجهها بعيداً حتى لا يرى سامر أثر كلامه في مآقيها... ابتلعت ريقها بصعوبةٍ.. لم تعد مرتاحةً في مكانها حيث يثبتها من ذراعيها ليحدثها عن قربٍ هكذا، فتململت بحركةٍ خفيفةٍ رصدها سامر إلا أنه تجاهلها، فهو لن يُضيع هذه الفرصة أبداً، فلم يحدث يوماً أن تَحدَّث واستمعت هي، ولا أن شعر بمثل هذه القوة والسيادة فيما بدت هي ضعيفةً هشةً... وقد أعجبه جداً إحساس التفوق هذا ولهذا فهو لن يفلتها حتى يطمئن إلى ثبات فكرته التي زرعها وسيرعاها بعناية حتى تؤتي ثمارها...

تنحنحت أميرة وفتحت فاها لتدحض كلامه، إلا أن صوتها خذلها، فخرج هزيلاً خافتاً متقطعاً: «**ليس الأمر بهذه الصورة يا سامر!!! فنحن هنا منذ سنين طويلةٍ ولم أشعر يوماً بما قلت مِن قِبَل نادرٍ.. لم أشعر بأننا دون أحدٍ أو عبئاً على أحدٍ.. بل على العكس، فلقد ترك لي إدارة البيت تماماً ولم ينتقدني ولو مرةٍ واحدةٍ... لا، نحن هنا لأنه سعيدٌ ببقائنا هنا..**»

هنا طفح الكيل، فضحك سامر بغيظٍ وقرَّب وجهه من وجهها أكثر، قائلاً بصوتٍ خافتٍ ليأسر انتباهها ثانيةً:

«**أنا لم أقل بأننا عبءٌ على نادر، وإن كنا بالفعل كذلك... فنحن وإن لم نكن عبئاً مادياً، فنحن عبءٌ نفسيٌّ ومعنويٌّ..**»

سألته بخنوعٍ عجيبٍ:

«**كيف؟**»

أجابها بثقةٍ وهو يضغط على ذراعيها فيما بدا لها وكأنه يوبخها:

«**ماذا سيحدث في رأيك حين يقرر نادر الزواج من أيٍّ كانت؟ وهذا سيحدث قريباً أو بعيداً...أيُّ صفةٍ ستكون لوجودي هنا؟ ألن يكون وجودي هنا مقيداً لحرية عروسه؟ وهو أمرٌ غير مريحٍ ولا مقبولٍ لدى أيٍّ كان...!!! وبالتأكيد لن يعجب الوضع نادراً وزوجته**»

صمت لحظة وحين أَلْفَى صمتها يُغلِّف نظرتها اللامبالية، شعر بأن مجهوده كله سيذهب سدىً، فيبدو أن أميرة لا تكترث إطلاقاً لمصيره وما سيحل به مادامت تضمن مكانها بالقرب من نادر...

تآكله الغضب ولكنه علم تماماً ما عليه قوله ليهزم شعور الطمأنينة لديها ويمزقه إلى أشلاءٍ، فقال مركزاً على حروف كلماته:

«دعكِ مني أنا... أتستطيعينَ أن تخبريني، ما صفة وجودكِ أنتِ هنا في حالِ زواج نادر؟ فأيُّ امرأةٍ ستقبل بوجود شابةٍ عزباء جميلةً مثلك في بيت الزوجية، تتبختر أمام عيني زوجها جيئةً و ذهاباً؟!»

قاطعته: «**لا، لن يطلب نادر مِنِّي... مِنَّا.. مغادرة المنزل أبداً، فهو ليس بهذه الأنانية وقلة الأصل... كما أنه لن يمنح أبداً، أحداً، أياً كان، هذه السلطة عليه وعلى بيته!**»، وتابعت بخفوتٍ: «**وبخاصةٍ و هو يعلم أنَّا لا نملك مكاناً آخَرَ لنذهب إليه.... وحتى بدون هذا السبب، أستبعد تماماً هذه الفكرة يا سامر... تماماً..**»

رفع سامر أحد حاجبيه قائلاً بسخريةٍ:

«**تماماً!!!**» هو يعلم أنها على حق ولكن لابد أن يفكر بسرعةٍ... فأكمل: «**لدينا بيتنا القديم أم نسيتِه؟ عامةً، لهذا قلت أننا عبءٌ عليه، فهو لا يعرف كيف يتخلص مِنَّا ويحتفظ في نفس الوقت بخاله وسمعته وهالته..**»

أتبع كلماته بضحكةٍ ساخرةٍ قصيرةٍ تاركاً ذراعيها اللذان احمرا وارتسمت عليهما أصابع سامر حيث كان يمسكها بقوة، ووضع يديه في جيبي بنطاله الجينز هازاً كتفيه في خفةٍ قائلاً ببساطةٍ:

«إن أردتِ التأكد من صحة كلامي فما عليكِ إلا أن تطلبي من نادرٍ (الإذن) بالانتقال إلى مسكننا القديم... وأقسمُ لكِ الآن، بأنه لن يمانع أو حتى لربما لن يسألك عن السبب، بل سيسارع ويتفضل، كالعادة مشكوراً بالتباهي بعطائه وكرمه الذي لا حدود له، وسيعرض ترميم بيتنا القديم وإعداده، أو لربما اقترح شراء البيت بالكامل من صاحبه و بنائه من جديد ليكون موائماً ومستعداً لاستقبالنا.»

ضحك بصوتٍ عالٍ هذه المرة بشكلٍ أزعج أميرة كثيراً وتمنت لو أنها لم تفتح مع سامر هذا النقاش من الأساس، فلم تكن مستعدةً إطلاقاً لكل هذا الكم من دفعات الإحباط والمرارة التي تحملها الحقيقة الساكنة في كلمات أخيها.. تابع ببساطة:

«ولكني أحذركِ، فلو عرضتِ على نادر مثل هذا العرض، فلن يكون هناك مجالٌ للرجوع فيه، فسننتقل بسرعة البرق، قبل حتى أن تدركي أنه وافق عليه بالفعل..»

ابتلعت ريقها وتراجعت بضع خطواتٍ إلى الوراء لتجلس على الأريكة المخملية البنفسجية الفخمة التي تتوسط حجرتها الواسعة وأخذت تدير عينيها فيما حولها فيما ابتعد سامر ليجلس على الكرسي الذي كان يحتله سابقاً عن يمينها وهو يراقب بعينين راصدتين حركتها التي تشير إلى أنها تقلب الأمر في رأسها وهذا لا يعني إلا شيئاً واحداً.... أنه وصل لمراده وأخيراً سيصبح هو المفكر وهي الأداة.... ولن يطول الأمر حتى يبعدها إن استلزم الأمر قبل أن تبعده هي، وهو ما لن تتوان أميرة عنه إن شعرت به يهدد مصالحها أو وضعها، لذا عليه أن يكون سريعاً ودقيقاً و لكن متأنياً، فإن كان يظن نفسه ذكياً، فأخته داهية... ولو استشعرت منه ما تكره، فلسوف تقلب الطاولة على رأسه...بل وربما على رؤوس الجميع...

تراجع في كرسيه وهو يراقبها تتقاذفها أمواج الحيرة... فقد قلب عالمها تماماً... كانت لا تزال تجول في حجرتها بعينيها الخضراوتين القاتمتين وهي تزم فمها الصغير الممتلئ بقلقٍ وضيق ظاهرَيْن...

تململت أميرة وهي تغالب أفكارها، فهي لم تتخيل نفسها تغادر يوماً حجرتها هذه إلا لتنتقل إلى حجرة نادر، في آخر الرُّواق الطويل، وليس أبعد من هذا...نظرت إلى النوافذ العالية ذات الأفاريز العاجية المحفورة يدوياً، والتي تطل على بانوراما رائعةٍ للحديقة من ناحية حوض السباحة الواسع.. آه، شتَّان بين هذا المنظر والمنظر الكئيب للبيت المهجور الذي تطل عليه الشرفة الوحيدة لبيتهم القديم في بولاق... وشتانَ بين حوائط غرفتها المتصدعة

المطلية بالزيت بلون أخفته الشقوق، و بين حوائط غرفتها المغطاة بورق الحائط العاجي المزدان بخيوط الذهب ولون البنفسج الفاتح والذي اختارته بنفسها أثناء إحدى سفراتها العديدة لفرنسا. وقع بصرها على الفراش الواسع الوثير الملكي الشكل والذي يتسع لعائلة كاملة من أربعة أفرادٍ، وكأنها حين اختارته كانت تحاول أن تمحو عن جسدها ذكرى تلك المرتبة الهزيلة التي كانت توصل البرد إلى عظامها الرقيقة أكثر مما كانت تمنعه...لا يمكن أن تترك هذه الفيلا، لا يمكن أن تتنازل عن ذكرياتها الوحيدة السعيدة وهي تنتقي كل قطعة أثاثٍ وكل تحفةٍ ولوحةٍ زيتيةٍ نسقتها جميعها بذوقٍ عالٍ أدركته من النظرة الراضية التي لاحظتها في عيني نادرٍ حين أنهت صفها وتزيينها، ما جعله يعهد إليها بتجديد البيت ومنحها كل الصلاحيات للتصرف كما ترتأي في الفيلا، أو البيت كما اعتاد أن يدعوه..

استوقفتها اللوحة الزيتية الكبيرة التي توسطت المساحة الكبيرة فوق فراشها، فلها ذكرى خاصة جداً، إذ اشترتها في أول مرةٍ خرجت فيها مع نادر وحدهما. ابتسمت حين تذكرت كيف فاجأها نادر بزيارة معرض للوحات أحد أصدقائه الفنانين بعدما أنهيا عشاءهما الذي تناولاه وحدهما بعدما اعتذر كل من خالها و سامر. قال نادر يومها بعدما همَّا بالمغادرة وهي تشكره على دعوتها: «**أجِّلي الشكر لما بعد.. فلدي مفاجأةٌ لكِ.**»

تذكرت سعادتها وضحكها كالطفلة الصغيرة وهي تشاهد اللوحات، «**اختاري واحدة**» همسها نادر في أذنها وهي تطالع إحدى اللوحات بشغفٍ ولكنه اعترض بشدةٍ حين أشارت إلى اللوحة الكبيرة التي تصدرت المعرض... كانت لفتاةٍ عاريةٍ إلا من وشاحٍ أبيضٍ شفافٍ ينسابُ بتراخٍ على وسطها مغطياً بالكاد ما لا يجوز أن ينكشف، بينما نصفها العلوي عارٍ تماماً وهي تتمدد بدلالٍ على أريكةٍ مخمليةٍ بنفسجية اللون تنظر بعينين لعوبتين لمن يطالعها... كان رفضه نهائياً وقاطعاً إلا أنها لم تدخر وسيلةً لإقناعه ولم تتوقف عن الإلحاح طوال الأسبوع الذي تلا تلك الليلة. وأخيراً استسلم نادر لرغبتها مشترطاً ألا توضع

في أي مكانٍ في الفيلا إلا غرفتها.. يومها فقط شعرت بأن نادراً يُكِنُّ لها نوعاً مختلفاً من المشاعر، وقد غذَّى هذا الاعتقاد أسلوبه الرقيق في التعامل معها كاهتمامه بيوم عيد ميلادها، وحرصه على حضورها لكل حفلات الفنانين التي تحب الاستماع إليهم وإلى المعارض الفنية التي ملأت بمعروضاتها أركان الفيلا وزخرت بها حجرتها، كما لم يبخل عليها أبداً بالهدايا والمجاملات الناعمة..

أفاقت من أحلام اليقظة حين لاقت عيناها نظرة شقيقها الساخرة تحت حاجبين مرتفعين بتعجبٍ، فأدركت أنها استغرقت وقتاً ليس بالقصير منجرفةً بعيداً عن موضوعهما. لا تدري كيف، ولكنها شعرت بأن عيني سامر كانتا أكثر سواداً مما هما عليه أصلاً! تنحنحت لتساعد صوتها في أن يخرج واضحاً وقالت بهدوء: «**هل أنهيت كلامك؟**»

كاد أن ينفجر فيها صارخاً، ولكنه تماسك بكل ما أوتي من قدرةٍ على ضبط النفس... لقد كان صامتاً طوال فترة تأملها تاركاً كلماته تتسلل بهدوءٍ إلى عقلها وقلبها.. كان متأكداً من أن أميرة لن تخذل نفسها ولن تغلب عاطفة المراهقات على مصلحتها. أما وهذا هو الحال، فعليه أن يكون أكثر حدةٍ وأن يخاطر باستفزازها لأقصى حدٍ بأن يقتل كل صورةٍ جميلةٍ لمستقبلها في خيالها وأن يقطع خط الرجعة تماماً على تلك الأوهام...أراد أن يهينها، أن يجرحها في كبريائها... والله وحده يعلم ما يمكن أن تفعله أميرة حين تتألم... اقترب منها ورفع ذقنها بإصبعيه قائلاً برقةٍ خبيثةٍ:

«**أعلم أن كلامي قد يكون جارحاً، ولا تريدين تصديقه، فمن الصعب بعد أن رسمتِ لنفسكِ صورة سيدة القصر أن تدركي أنكِ ما كنتِ إلا و سيلةً وثمناً بخساً لرغبةٍ من رغبات السيد نادر، ألا وهي وجود خالي حسَّاب معه حتى ينتبه لفؤاد ليتفرغ هو لعمله وسفرياته... انسي نادر يا أميرة، فهو لا يبالي بكِ ولا يراكِ مثلما تحلمين، زوجة وحبيبة... ولولا بقية من أخلاقه، لنال منك ما شاء، لقاء رجاء عينيك المتوسلتين له جيئةً و ذهاباً.**»

قال كلماته الأخيرة وهو يفتح الباب، ثم رمقها بنظرةٍ تحمل ألف معنىً قبل أن يخرج صافقاً الباب وراءه بقوةٍ، ما جعلها تنتفض بعنف...

وقفت في مكانها ترتعش من هبات الحقيقة الباردة التي أخذت تضرب روحها العارية بلا رحمةٍ، وأصداء كلمات سامر تتردد بين جنبات عقلها وتطلق طنيناً يُصِمُّ الآذان في رأسها، فأخذت تدير عينيها في غرفتها علها تجد خلاصاً من الألم الذي قبض على قلبها وأخذ يعتصره بعنفٍ وشراسةٍ، إلا أنها لم ترَ شيئاً! فقد ظللت ظلمة الحقد غرفتها كما أظلمت من قبل قلبها وعقلها.. لم يأت سامر بالجديد فيما يخص تجاهل نادر لها، ولكم جرحها في كثير من المواقف حين تجاوز ملاطفتها له بأدب واظهاره عدم انجذابه لها في كثيرٍ من المناسبات، فينتهي بها الأمر وحيدةً باكيةً في ظلام غرفتها حتى تشرق شمس يوم جديدٍ تحلم فيه بلقاءٍ ولو سريع معه آملةً بأن يستجيب لاستجداءاتها الصامتة ولو بابتسامةٍ واعدةٍ يتيمةٍ... كل هذا صحيح، ولكنها كانت دائماً ما تواسي نفسها بكثرة انشغاله واحترامه للقرابة بينهما، فهو نوعٌ نادرٌ من الرجال لم تقابله فيمن عرفت من الرجال في حياتها، وأولهم أخوها الذي لا مبدأ له ولا ملة، فمصلحته هي عقيدته الوحيدة. و رغم هذا لم تجده يوماً يعمل أو يسعى لنجاحٍ، وحتى فيما يخص وضعهما هنا، فهي من تفكر وترتب وتنفذ، فيما يكتفي هو بجني ثمار تخطيطها. وكانت تحتمل كل هذا بلا مانعٍ... أما الآن وقد قرر أن يضع نفسه على الخريطة فيباشر بتجريحها وتجريدها من كل ما تتوارى وراءه من سُتُرِ الرُّشد والحكمة ويدعها هزيلةً مرتعشةً تواجه أسوأ مخاوفها بهذا الأسلوب الجارح السافر، فهو ما لن تسكت عنه أبداً، ولن تغفره له يوماً، وستحرص على أن يدفع أخوها ثمن هذه اللحظات المؤلمة بكل شكل يشفي غليلها...(الآن أصبحت خبيراً في العائلة وتعرف كل شيءٍ عن نادر، هه، سنرى من الأذكى هنا ومن له الكلمة الأخيرة يا سيد سامر...)... كانت لا شعورياً تستثير غضبها ضد أخيها لأن قلبها لا يزال يأبى أن يقسو على نادر، فرغم كل ما قيل، لن ينقطع لديها الأمل في أن تصبح زوجته وسيدة هذا البيت إلا حين تخطو غيرها في ثوب زفافٍ إلى غرفته. وهي على عكس سامر، لا تلوم نفسها أبداً على تمسكها

بنادر، فالأمر بالنسبة لها له بعدان ولا عيب أبداً في هذا. فإن كانت تستطيع أن تجمع ما بين ما تصبو إليه من مكانةٍ وسطوةٍ، وبين أن تُمضيَ لياليها في أحضان من تحب، فلا يجب أن تحسب الوقت ولا أن تتعجل الأمور، ولكم انتظرت الكثير من النساء رجالاً لا يدنون من نادر صفة ولا مكاناً، ولكنهن أحببنهم، فما بالُ من تحب رجلاً كنادر؟!!!! ألا تنتظره لآخر العمر؟! فرغم أن نادراً كان الأقل وسامة بين الأخوين، إلا أن وجوده في أي مكان كان موضع اهتمام الموجودين جميعاً وبخاصة النساء. ورغم كونه قليل الكلام، إلا أنه كان جذابا بطريقةٍ غامضةٍ وكان هذا أكثر ما يشدها إليه، فهو لم يكن يتحدث إلا ليقول ما يلزم وقتما يلزم، فليس مهرجاً كسامر الذي قد يتحدث الليل بطوله، دون أن تخرج من كلامه بشيء مفيد... أما فؤاد، فهي لا تكرهه، ولكنها أيضاً لا تحبه.. ولن تحبه... فقلبها امتلكه نادر وانتهى...عادت تهدهد نفسها الفزعة (أليس من المحتمل أن يكون نادر في انتظار الوقت المناسب للتقدم لي، فمن قبل ربما لم يكن مستعداً نفسياً للارتباط، والآن ، وفي ظروف كظروف فؤاد، فهو لن يقدم على أي خطوة صوب الزواج قد تعيد أخاه لذكرى زواجه وموت زوجته، فربما عندما يستعيد فؤاد توازنه سيقدم نادر على الزواج)... ولكن ماذا إن صحَّ تقدير سامر، وارتبط نادر وقتها بغيرها؟ ماذا سيكون حالها وكيف ستحيا مع جُرحِ تَرْكِهِ لها؟ تساقطت حبات العرق البارد على جبينها وهي تتخيل نادراً في حُلَّةِ العُرْسِ وفي ذراعه تعلقت عروسٌ غيرها ...ارتعشت ثانيةً.. لا، لن يكون مصيرها في ذاك البيت القديم! لن تكون إبنة الخالة المسكينة التي يشفق عليها نادر! لن تكون ضيفةً عند أيٍّ من كانت!! ستكون سيدة هذا البيت، ولو كان زواجها من فؤاد هو السبيل لذلك، فليكن... فبهذا أيضاً ستبقى بالقرب من نادر، فلا أحد يعرف كيف ستجري الأمور وينقلب الحال.. ولابد أن تكون موجودةً حين تفتح الفرصة أبوابها... ستكون هنا، وسيعلم الجميع من هي أميرة حسَّاب.. وعلى رأسهم، سامر..



دقت ساعة الحائط دقاتها الأربعة معلنةً اقتراب بزوغ الشمس فيما كان نادر يدلف من الباب الزجاجي لبهو الفيلا التي اكتنفها ظلامٌ ناعمٌ دافئٌ أرخى أعصابه وبعث السكينة في نفسه. كان الزجاج المزدان برسوماتٍ وألوانٍ هادئةٍ، تعكس أشعة الشمس ملونةً داخل الفيلا نهاراً، فيما تتمايل خطوطها في ظلمة الليل على ضوء القمر الخافت الذي ينير الردهة كلها من خلال تلك النوافذ والأبواب الزجاجية الواسعة التي شغلت أغلب مساحة الجدران بالدور الأرضي، كما تفعل الليلة...

تحرك بهدوءٍ وخفةٍ نحو السلم الرخامي حين استوقفته حركةٌ خفيفةٌ. اقترب من إحدى ردهات البهو حيث يقبع تلفازٌ ضخمٌ يحتل معظم الحائط الذي يتوسط مجموعةً من الأرائك الحديثة الطراز والكراسي عالية الظهر التي تشبه تصميماتها تلك التي كانت في قصور الملك فاروق، في مزيج غير مألوفٍ ولكنه ملفتٌ ومريحٌ أبدعته أميرة ببراعةٍ... نادى بصوتٍ خافتٍ مداعبٍ وهو يقترب من الأريكة ترابية اللون: «**هاي (نابليون)، أهذا أنت؟**». كان يظنه قِط أميرة ال (شارترو) المدلل، ذو الفراء الرمادي المزرق القصير، والعينين البرتقاليتين اللامعتين كالنحاس، والذي تبنته في إحدى سفراتها لفرنسا- ولأنه كان يسير مختالاً متبختراً، مقتنعاً بأن الجميع هنا وجد لخدمته ك (إمبراطور)، فقد أخذوا ينادونه بهذه الصفة، ما جعل أميرة تطلق عليه هذا الاسم- ... ولكنه حين أمعن النظر في الظلام، لاحظ ذاك الجسد الطويل الممدد على الأريكة، ولم يدهش حين اقترب أكثر ليتعرف على فؤاد.. ولكن لدهشته لم يكن فؤاد نائماً كما توقع، بل كان يهمهم ويهذي بكلامٍ غير مفهوم..

أشعل نادر ضوء الثريا فأجفل فؤاد ووضع يده على عينيه مشيحاً بوجهه بعيداً عن النور الباهر الذي ملأ الردهة قائلاً بحدةٍ :«**أطفئ الضوء اللعين!!**»

اقترب نادر دون أن يُعِرْ غضبه اهتمامه ليجلس بجواره قائلاً بصوتٍ رقيقٍ :«**لِمَ أنت نائمٌ هنا يا فؤاد؟ دعني أساعدك لتصعد إلى غرفتك حتى لا تصاب بالبرد. هيا، ناولني يدك وقُمْ.. هيا.**»

مد يده لفؤاد، ولكن الأخير دفعها بنزقٍ وهو يعتدل ليجلس ويستند بمرفقه على كتف أخيه قائلاً بسخرية:

«أين ذهبت لياقتك يا نادر؟ أتريدني أن أصعد إلى غرفتي تاركاً زوجتي الجميلة هنا ونحن وسط نقاشٍ هامٍّ؟ أنت حتى لم تُلقِ عليها التحية! ماذا تريدها أن تظن بك الآن ؟ هه؟»

نظر نادر إلى الفراغ الذي يشغل الكرسي الفيروزي الضخم حيث ينظر شقيقه ثم عاد لينظر في عينيه محاولاً ألا يعكس صوته المرارة التي ملأت حلقه:

« فلتكملا حديثكما في الصباح، فأنت مجهدٌ الآن وذهنك غير صافٍ لمناقشة أي شأن.. هيا، فالإرهاق بادٍ عليك..»

صمت لحظةً، ثم صحح مكملاً : «**عليكما.**»

ابتلع ريقه بصعوبةٍ آسفاً لرؤية فؤاد على هذه الحالة.. هو يدرك ألا قيمة أبداً للجدال معه وهو في مثل هذا الحال من سُكْرٍ، وربما حُمَّى.. ولهذا ، فسيجاريه حتى يقنعه بالصعود لغرفته على الأقل..

اقترب فؤاد بوجهه من وجه نادر كثيراً، حتى ملأت رائحة الخمر النفاذة أنف شقيقه، قائلاً:«**أقلقٌ عليَّ يا نادر؟ أم عليها؟ أليس من المفترض ألا تتدخل فيما يخص حياتنا الشخصية؟ أم أنك صاحب الكلمة أيضا في علاقتي بزوجتي ؟ هه؟**»

قاطعه نادر حتى لا يسترسل في سخافاتٍ سيندم صباحاً على قولها:

«آسف، لم أقصد التدخل.. فقط أطلب منك أن تصعد لترتاح.. أم لا يحق لي القلق على صحة شقيقي الوحيد؟»

انتفض فؤاد واقفاً فترنح و ارتطم بالطاولة الزجاجية التي تتوسط الردهة، ما جعلها تنقلب ويتكسر كل ما عليها من تحفٍ وأنتيكاتٍ كريستاليةٍ وفضيةٍ.. سَمَّرَه الضجيج للحظاتٍ قبل أن يتابع حركاته العصبية وهو يصرخ في نادر بغضبٍ:

«ما دُمتَ قد عينت نفسك مسئولاً، فلتتحدث إليها.. أخبر السيدة بأنها لابد وأن تهتم أكثر بزوجها وابنتها.. أخبرها بأنها.. بأني .. أنا..»

مرر أصابعه في شعره الأسود بعصبيةٍ مكملاً بعينين محمرتين مغرورقتين بالدموع:**«أنا تعبت.. تعبت من تركها لي هكذا.. من معاملتها لنا وكأننا غير موجودين ولا قيمة لاحتياجنا لها.. أخبرها يا نادر. أخبرها بأني سأقول لابنتها بأنها لا تحبها ولا تريدها.. بل أخبرها بأني سأتركها ولن أرجع إليها أبداً إن لم تعد تهتم بي كما كانت تفعل من قبل.»**

كان يتحدث و الدموع تنهمر من عينيه لتغرق وجهه الذي كساه إحساسٌ بالغضب والضياع، ونادر يراقبه والحزن يقبض على قلبه بقبضةٍ غاشمةٍ مزقت شرايينه أسىً وقهراً، وشعر وكأن حجراً ثقيلاً يجثُم على صدره فيغوص بروحه إلى أعماقٍ سحيقةٍ.. كان يقاتل دموعه حتى لا تترك مَكَامِنَها، فلن يزيد الأمر إلا سوءاً إن بكى هو الآخر **«وا أسفاه! أهذا فؤاد زهرة شباب عزِّ العرب؟! فؤاد!! سكيرٌ، كئيبٌ لا يقوى على مواجهة واقعه...؟ أصبح الآن أنقاض إنسان... وبدلاً من نيل الجوائز في الصحافة أو حتى الرماية التي تفوق فيها، فهو يجاهد ليقف معتدلاً.. يا لها من خسارة ..ليتني أستطيع أن أقول ما يريد لشهيرة، فأنا أحتاج عودتها إليه، تماماً مثله»**

قاطعهما صوت خطوات متسارعة قادمة من خلفهما حيث مسكن آدم وكريمة.. فنهض بسرعةٍ واقترب بخطوةٍ واسعةٍ من فؤاد قائلاً بصوتٍ مخنوقٍ:

«اهدأ الآن يا حبيبي وسأخبرها بنفسي بكل ما تريد، وسأوبخها بالتأكيد على تقصيرها معك.. الدنيا ليست فوضى، وهذا البيت له كبير..»

قاطعه فؤاد بعينين متسعتين هامساً في أذنه:

«لا، لا توبخها، بل تحدث معها برفق، فهي إنسانة حساسة ولا أريدها أن تحزن أو تتضايق... فقط عِدني بأنك ستعيدها إلي يا نادر.»

رد نادر وهو يمسك بمرفق فؤاد:

« أعدك بأن أفعل ما بوسعي.. ولكن هيا الآن، فلا داعي لإيقاظ البيت باكمله..»

اقتربت الأصوات والهمهمات، وكان نادر يتمنى ألا يرى أحدٌ فؤاد في هذه الحال المزرية فأكمل متوسلاً: «**بالله عليك يا فؤاد، هيا نصعد إلى غرفتك.. إن كان لي خاطرٌ لديك، فلا تدع أحداً يراك وأنت بهذه الحالة.. هيا أرجوك**»

«**حسنٌ، سأصعد وحدي**» قالها فؤاد وهو يدفع نادر فجأةً حتى كاد الأخير أن يسقط أرضاً لولا تمسك بظهر الأريكة في نفس اللحظة التي ظهر فيها كلٌّ من آدم وكريمة بلباس نومهما على أعتاب الردهة، وما أن شاهدا الموقف واستوعباه، حتى توقفا مكانيهما بأدبٍ... كانت كريمة تنازع رغبتها الملحة في ترتيب المكان وتصحيح وضع الطاولة المقلوبة ولَمِّ الأجزاء المتكسرة، ولكنها خافت أن يهاجمها فؤاد، أو أن تنتابه إحدى نوبات هياجه فيكسر كل ما بالمكان نكايةً بهم، ولن يساعد هذا أبداً، لهذا آثرت أن تبقى مكانها متنهدة في صمتٍ حزينٍ.. كانت تحبه و تشفق عليه، ولكنه صار يهاجمها ويضايقها كثيراً في الآونة الأخيرة ما جعلها تبتعد حرفياً عن طريقه أينما صادفته، فلا حبها ولا اهتمامها عادا يُهِمَّانه..

كان نادر في تلك اللحظات قد اعتدل واقفاً وهو يعدل من هندامه بعدما خلع جاكيت بذلته ووضعه برفقٍ فوق مسند أقرب كرسيٍّ، فيما تابع فؤاد ترنحه وسط الأشياء المتكسرة والعرق يغرق وجهه وشعره وقميصه القطني المجعد.. نظر كلٌّ من نادر وآدم إلى بعضهما، فتقدم الأخير فوراً دون أن ينبس ببنت شفةٍ نحو فؤاد، وعلى نهجه فعل نادر، وفي لحظة كانا إلى جواره كلٌّ من جهة، ولِحَظِّ فؤاد كان توقيتهما ممتازاً، فقد انهار فاقداً الوعي فجأةً، فالتقفاه بسرعةٍ قبل أن يهويَ أرضاً، ومرا بجوار كريمة التي كانت تراقب ما يحدث بتأثرٍ شديدٍ ووجهٍ مبتلٍ..

«**اهتمي بالردهة قبل أن يستيقظ أحد يا كريمة.**» قالها نادر وهو ينوء تحت ثقل جسد أخيه المتراخي.. فردت بسرعة: «**حاضر.**» ترددت لحظة، ثم لحقت بهم أعلى الدرج وهمست في أذن نادر من الخلف:

«**أريد أن أخبرك بأمرٍ ما بخصوص شهد يا سيد نادر.**»

هز رأسه وأكمل طريقه مع آدم حتى دخلا غرفة فؤاد، فوضعاه برفقٍ على كرسي كبير في ركن الحجرة فيما أسرع آدم ليحضر ثياب النوم من الخزانة تاركاً نادر يحل رباط حذاء شقيقه وحزامه.. عاونه آدم في تبديل ثياب شقيقه ثم نقلاه إلى الفراش الذي أزاح آدم أغطيته بسرعة.. تنفسا بعمق بعدما انتهيا ووقفا للحظات ينظران إلى بعضهما في صمتٍ معبرٍ.. كان آدم يعتبر الشقيقين كولديه.. وكان يحبهما ويحترمهما، فقد اعتنى بهما منذ صغرهما وراقبهما وهما يكبران ليصبحا رجلين ذوا مكانةٍ و شأنٍ... هو يفهم نادراً من نظراته، ويعلم مدى الألم الذي يعتريه الآن وهو يشعر بأنه وعلى الرغم من كل ما يملك، فهو لا يملك حيلةً لمساعدة فؤاد. وقد حاول بدوره التحدث إليه والتخفيف عنه، إلا أنه لم يكن أوفر حظاً من نادر... الكل يدرك أن فؤاد ألْيَن عريكةً من نادر، وكان الطرف الأضعف حين توفي والدهما منذ سنوات.. لكن أن ينهار لهذه الدرجة، وأن ييأس من الحياة بهذه الصورة، فهو الأمر الذي لم يتوقعه ولم يتقبله أحدٌ أبداً..

« **سيكون بخيرٍ إن شاء الله يا بني**»

قال آدم كلماته المواسية تلك وهو يربت على كتف نادر الذي ربت هو الآخر على عضده قائلاً بامتنان:

« **شكراً يا آدم.. لا أدري ماذا كنت سأفعل في هذا البيت المجنون لولاك.. حقا لا أدري.**»

رد آدم بسرعةٍ: «**رجاءً لا تقل مثل هذا الكلام، فأنت من يزن هذا البيت ونحن هنا نتحرك وفق ما ترى، وأنت تبلي حسناً بصدقٍ يا بني.**»

«ولكن فؤادٌ يضيع، وكذلك ابنته.. وأنا عاجزٌ عن فعل أيِّ شيءٍ، ولا أعرف ما هو التصرف السليم.»

أداره آدم برفق من كتفيه و مشى معه صوب باب الغرفة قائلاً بابتسامةٍ أبويةٍ:

«التصرف السليم الآن هو أن تخلد للنوم، فقد أشرقت الشمس وأراهن بأن لديك اجتماعاً أو زيارةً أو أياً ما كان من أمور العمل بعد سويعاتٍ قليلةٍ..»

قاطعه نادر: « **أود البقاء مع فؤ..**»

«سأبقى معه حتى يفيق، وسأعتني به فلا تقلق.. وهو على كل الأحوال لن يستيقظ الآن، فلا جدوى من إرهاق نفسك.»

كان لوجود آدم في حياة نادر عظيمُ الأثرِ، فقد كان ذا دورٍ كبيرٍ في تخطيه هو وشقيقه محنة فقدان والدهما، كما كان مع نادر خيرَ عونٍ حين ماتت أمه وهو ابن الرابعة، لذا أودعه نادر ثقةً عاليةً كانت بدونها حياته لتتعطل إذ لولاه لما كان هناك من يعتمد عليه في غيابه ليرعى البيت وقاطنيه على اختلافهم...و لهذا، فإنه يستمع إليه وينتبه كثيراً إلى ملاحظاته ويعيرها قدراً كبيراً من الاهتمام، فمن جهته، لم يكن آدم ثرثاراً أبداً، ولا سعى يوماً لأن يخوض فيما لا يعنيه، مما رفع من قدره لدى الشقيقان، ووالدهما من قبلهما... والآن، وقد وجد نادر أن كلامه مقنعٌ، نظر نظرةً سريعةً صوب أخيه ثم فرك عينيه ثانيةً وهو يفتح الباب قائلاً:«**تصبح على خيرٍ يا آدم.**»

خرج و أغلق باب الحجرة خلفه بهدوء وآدم يرد بأدبٍ: « **وأنت بخيرٍ يا سيد نادر.**»

تفاجأ نادر حين استدار أن وجد كريمة لا تزال واقفةً بانتظاره أمام باب الحجرة.. وما أن رأته حتى بادرته قائلة: «**هو على هذه الحا..**»

قاطعها نادر وهو يمسك برسغها ويبعدها برفقٍ عن باب الحجرة: «**ششش.. أخفضي صوتك يا كريمة، فلا نريده أن يستيقظ وكذلك الآخرين.**»

أومأت برأسها وتبعته حتى باب حجرته في آخر الرواق. استدار نادر حينها قائلاً بتعبٍ ظاهرٍ: «**حسنٌ، أخبريني الآن بما لديك يا عزيزتي، ولكن باختصارٍ رجاءً، فرأسي به مدافع هاون تقصفه بشده.**»

قالت كريمة فوراً متحدثةً بسرعةٍ: «**السيد فؤاد على هذه الحال منذ الحادث، وكثيراً ما أسمعه يتحدث مع المرحومة لساعاتٍ بغرفته.. أنا لا أتدخل فيما لا يعنيني ولكني قلقةٌ جداً عليه.. وعلى شهد.**»

مسح نادر وجهه بيده، ثم استند بكتفه على حلق باب غرفته المفتوح وهو يضع يديه في جيبي بنطاله قائلاً: « **لا بأس، أعرف أنك تهتمين لأمره... لا تقلقي فسيتحسن قريباً، هو فقط بحاجةٍ إلى بعض الوقت..**»

«**و لكن الحادث مَرَّ عليه أكثر من عامٍ وهو لا ير....**»

قاطعها نادر بنفاذ صبرٍ و لكن بصوتٍ هادئٍ: «**أخبرتكِ ألا تقلقي يا كريمة.. سأعتني به وبشهد..**» وعلى ذِكْرِ شهدٍ تذكر قولها بأن لديها ما تخبره به بشأن الصغيرة فسألها:

«**أوَلَيسَ هناك أمرٌ ما بخصوص شهد تودين إخباري به؟**»

قالت فوراً: «**معلمة شهد تود التحدث إلى والدها لأمرٍ رفَضَت إطلاعي عليه قائلةً بأنه أمرٌ هامٌ جداً.. وبما أن السيد فؤاد لن يه..**»

قاطعها ثانية و هو يتراجع ملمحاً لانتهاء النقاش: «**بالطبع، اعطها رقم هاتفي ولتتصل بي غداً ما بين الثامنة والثامنة والنصف صباحاً..**»

قاطعته سائلةً: «**أتقصد اليوم؟**»

نظر إلى ساعته فوجدها تناهز السادسة، ولأول مرةٍ مُذْ رجع اليوم لاحظ ضوء الشمس الذي اخترق الظلام وقد أشعَّ مضيئاً متوهجاً مؤذناً بنهاية الراحة وبداية يوم عملٍ جديدٍ..

رد متنهداً: «**نعم، هذا ما قصدته تماماً.. من فضلك يا كريمة أعدي القهوة**

وسوف ألحق بك بعد نصف ساعةٍ.. ولكن قبل كل شيء، أتِمِّي ترتيب الردهة قبل أن يستيقظ أي من أميرة أو سامر... فلا أريدهما أن يعرفا شيئاً مما حدث..»

ردت وهي تستدير وتحدث نفسها بدلاً من أن ترد عليه: «**طبعا سأرتبها قبل أن يستيقظا!!! وهل يستيقظ أحدٌ في هذا البيت قبل الظهر سواك؟ أما أن يعلموا بأمر فؤاد فلا تقلق، لا ينقص إلا أن تعلم الصحف....»**

تابعها نادر رافعاً حاجبيه وعيناه شبه مغمضتين، كمن يستمع إلى موسيقى شجية، وهو يتلقى تمتمات كريمة الحانقة. تنهد بعد لحظاتٍ ثم استدار مغلقاً الباب وراءه، وقال محدثاً فراشه و هو يخلع ثيابه استعداداً لأخذ حمامه الصباحي:

«**أنت لا تدري كم تؤلمني رؤيتك الآن.»**

دخل تحت سيل الماء البارد علَّه يغسل عنه آثار القلق والحزن، فأمامه يومٌ طويلٌ وهو بحاجةٍ لذهنٍ صافٍ وبالٍ خالٍ ليستقبله..



جلس نادر على طاولة الطعام الفارهة وحيداً يتناول فطوره في صمتٍ لا يقطعه إلا صوت فنجان القهوة حين كان يضعه من يده على الطبق الصيني الصغير، أو صوت أوراق الصحيفة التي يطالعها وهو يقلبها بين الحين والآخر.. لم يكن معه سوى كريمة لتقوم على خدمته فيما بقي آدم بجوار فؤاد كما وعده.. كان معتاداً على الصمت ومرتاحاً إليه.. إلا أنه في الآونة الأخيرة كان قد اعتاد صحبة أميرة على طاولة الإفطار، ورغم صمتهما إلا أن وجود شخصٍ ما معه واهتمامه به بشكلٍ معينٍ قد أشعره بالفراغ الذي تضج به حياته.. هو يدرك ما تكنه له أميرةُ من مشاعر، ولا يدري لم لا يتزوجها.. فهو في النهاية رجل، يحتاج كغيره إلى زوجةٍ يريح رأسه على صدرها لتزيح بأصابعها عنه عناء وأعباء عمله.. يحتاج إلى أبناءٍ يملؤون حياته بهجةً وسعادةً بدلاً من هذا اللون الرمادي الكئيب، ورغم أن فكرة الأطفال لم تخطر من قبل

بباله، إذ دائماً ما كان يظن نفسه عمّاً بليداً وكذلك سيكون كأب، ولديه لهذا التفكير أسباباً وجيهةً، إلا أن أزمة فؤاد جعلته ينتبه لرغبته في الأطفال وقدرته على الاهتمام بهم من خلال رعايته للعزيزة شهد... ابتسم حين لاحت صورتها لخياله... نعم، يريد أطفالاً مثلها.. أذكياء لطفاء، ولديهم قدرةٌ فطريةٌ على إذابة الجليد بابتسامةٍ صغيرةٍ ...

«تناول شيئا، فأنت لم تتناول شيئاً منذ الأمس على ما أعتقد. وها أنت تشرب القهوة على معدة خاوية.»

كانت كريمة تتحدث بحزم وصرامةٍ وكأنها تحدث طفلاً صغيراً لتحثه على تناول طعامه.. قَدَّر نادر اهتمامها ولكنها أعادته لدائرة أفكاره، فلو كان متزوجاً، لكانت زوجته دللته وأطعمته بيدها فيما هو منشغلٌ بصحيفته، بدلاً من كريمة بأوامرها العسكرية وعينيها المتطفلتين ... ضحك في سره وهو يتخيل علاقة كريمة بمن سيتزوجها.. زوجته!!! كلمةٌ لها وقعٌ غريبٌ... إمرأةٌ غريبةٌ تجوب الفيلا تلبس خاتمه وتغدو سيدةً على بيته وحياته... (و لمَ عليها أن تكون غريبة؟)، حدث نفسه بصمت، فهو يعرف أن أميرة تنتظر فقط كلمةً واحدةً منه.. إن ما يثير تحفظه عليها هو أنه لا يشعر كثيراً بأنه يفهمها، فتارةً تكون رقيقةً كالنسمة ويشعر بأن كل ما يهمها في الدنيا هو راحته واهتمامه، وتارةً أخرى يجدها أنانيةً، متطلبةً ومثيرةً للمشاكل، ولكن ما الذي يجعله يظن أنه سيفهم أياً كانت من سيتزوجها؟! أو أن هذا ليس بطبع كل النساء؟!! بالطبع يقابل الكثيرات من كل الطبقات يومياً، وله صداقاتٌ وعلاقاتٌ جيدةٌ بالعديد من النساء، ولكن على المستوى الخاص فيما يتعلق بأمور الحياة الزوجية طويلة الأمد، فكل خبرته كانت من خلال ما رأى بين أبويه وكذلك بين فؤادٍ وشهيرةٍ، وعلاقة أو اثنتين جنحتا للجدية، إلا أنهما لم يستمرا طويلا.. و يا لها من خبرة.. و هنا قفزت صورة سامر أمام عينيه، فزفر حين تذكره، إنه إنسانٌ لا يحتمل ولن تحتمله أي امرأة يتزوجها، ولهذا أيضا لربما كانت أميرة هي الزوجة المناسبة... فبزواجه منها لن يتغير أي شيء في البيت ولن يختلف

على أهله الأمر، إلا فيما يخصه هو وهي... وهو أمرٌ ربما أدخل جواً جديداً وفي نفس الوقت مريحاً على من يعيشون معهم... (لِمَ لَمْ أفكر هكذا من قبل؟)، تعجب من نفسه.. ومن الفكرة.. ربما الأحوال في البيت تحتاج إلى تحريك الهواء الساكن قليلاً... إذاً، فليكن.!!. سيتحدث إلى أميرة اليوم في هذا الأمر، وإن وافقت، وهذا ما يظنه، فسيتزوجان بعد عيد الفطر، فلم يبق على رمضان إلا اليوم.. طوى الصحيفة ووضعها جانباً حين لاحظ أنه يقلب صفحاتها دون أن يقرأ كلمةً واحدةً . وقف وهو يكمل فنجان قهوته حتى آخر قطرة، فهو لا يشعر أبداً بأنه في كامل نشاطه اليوم كما اعتاد أن يكون وهو ذاهب إلى عمله.. ربما كانت حالته النفسية والضغوط التي يرزح تحت ثقلها هي السبب في وهنه اليوم.. (حسنٌ، ربما أستعين اليوم بالسائق بدلاً من القيادة بنفسي)... خرج بسرعةٍ وكلمات كريمة الغاضبة تلاحقه معترضةً على أسلوبه في هدر صحته وعدم الاعتناء بنفسه كما يجب..

«**صباح الخير يا سيد نادر، أخيراً رضيت عني وستسمح لي بإيصالك إلى العمل..**» بادره السائق الذي لا يدري هو لم عينه في المقام الأول، فهو و فؤاد يقودان سياراتهما بأنفسهما، بل و يستمتعان بهذا كثيراً، فلطالما كانت السيارات شغفهما منذ الصغر، حتى أن فؤاد قرر يوماً أن يشترك في إحدى السباقات وبالفعل تباحث في الموضوع مع بعض الشركات لترعاه، إلا أن والده رفض في النهاية رفضاً قاطعاً خوفاً عليه من عواقب مثل (هذه الرياضات المتهورة) كما وصفها أبوهما حينها.. ولأن فؤاد لم يكن بطبعه ملتزماً بأي شيءٍ، فقد ترك أمر السباقات يذهب إلى غير رجعةٍ، اللهم إلا من السرعة المفرطة التي يقود بها سيارته (الموستنج) التي يدللها أكثر مما دلل إنساناً في حياته.. وقد تحول للرماية التي استهوته كثيراً، وبالفعل حصل فيها على بضع جوائز في مسابقاتٍ محليةٍ و دوليةٍ....

«**تبدو مشغول البال هذا الصباح يا سيد نادر..**»

أراد أن يرد على السائق الذي جاهد ليتذكر اسمه ولكنه عجز تماماً، وقد شعر بدوارٍ مفاجئٍ والسائق يستدير بالسيارة في دوران حاد، فأغمض عينيه بقوةٍ ثم فتحهما ليجد السائق الشاب يحملق فيه من خلال المرآة الأمامية وقد ارتبك حين التقت عيناه بعيني نادر فقال بتلعثمٍ:

«سيدي، أنت لا تبدو بخير.. أتحب أن أستدير لأرجعك إلى البيت؟ فلون وجه حضرتك شاحبٌ جداً..»

تمكن نادر من الكلام أخيرا قائلاً بهدوءٍ: **«أنا بخيرٍ، فقط لم أحظ بنومٍ كافٍ ليلة أمس.. لا تشغل بالك ..»**

لم يوقفه رد نادرٍ عن المتابعة: **«أوَتظن يا سيدي أن قلة النوم هذه أمرٌ بسيطٌ؟! إن والدتي دائماً ما تقول لي (يا سيد يا بني، إن من لا يحظى بنومٍ كافٍ لا يحظى بذهنٍ صافٍ)»**

ابتسم نادر رغما عنه لبساطة الكلام و علق مجاملاً:

« تبدو والدتك امرأةً حكيمةً و تهتم لأمرك كثيراً يا سيد... اعتنِ بها جيداً»

وصلا وجهتهما وهَمَّ نادر بالنزول إلا أن سيد تابع وكأنه يتحدث إلى صديقٍ قديمٍ في جلسةِ ودٍّ بإحدى المقاهي: **«طبعاً حكيمة، أتعلم أن أمي لم تتزوج بعد وفاة والدي لتربيني أنا وأخواتي البنات الأربعة دون أن تدخل علينا رجلاً غريباً..؟ إنها يا سيد نادر من ذاك النوع الذي..»**

لم يكن نادر فعلاً بحاجة إلى مثل هذه الثرثرة، خاصةً وهو مقبلٌ على العديد من الاجتماعات، بالإضافة إلى الصداع البشع الذي أخذ ينهش في تركيزه وقدرته على التحمل، فقاطع السائق بأن فتح باب السيارة وغادرها بسرعةٍ وهو يحل عقدة ربطة عنقه قليلاً.. وما أن فَتح باب الشركة الخارجي حتى بادر أول من قابله دون أن يتحقق ممن يتحدث إليه:

«حقيبة الأوراق في السيارة، فليحضرها أحدهم.»

توجه فوراً إلى المصعد الخاص الذي أوصله إلى مكتبه مباشرة، أو لتحري الدقة، مكتب الاستقبال والسكريتاريا الخاص به، فمر بسرعةٍ مشيراً بيده لنهلة حتى تتبعه إلى مكتبه.. جلس خلف مكتبه وما أن رآها على عتبة الباب حتى قال:

«**ائتني بفنجان قهوةٍ فوراً ولا تدخلي أحداً حتى أخبركِ.**»

أومأت نهلة برأسها وانطلقت تطلب القهوة فيما اعتدل هو ليشغل الحاسب، أخذ يضرب على أزراره بسرعةٍ وتلقائيةٍ دون تركيز والكلمات تتراقص أمامه على الشاشة .استسلم أخيراً، فرجع بظهره إلى الوراء وأخذ يفرك عينيه ويضغط على أعلى عظمة أنفه بقوة، عَلَّ هذا يقلل من وطأة الصداع العنيف الذي لم يختبره من قبل... طرقٌ خفيفٌ على الباب جعله يعتدل ليرد إلا أن دواراً شديداً ضرب رأسه بقوةٍ لم تمكنه من الكلام، فعاد ببطء لوضعيته السابقة فيما تعالت الطرقات هذه المرة قبل أن تدخل نهلة حاملةً صينية القهوة وقدمتها بهدوء إلى نادر، فمن خبرتها بالعمل معه للسنوات الخمس الماضية أدركت بأنه لا يريد أن يتحدث أو أن يسمع كلمة واحدة مهما بلغت أهميتها... لم تر نادر بهذه الحال مراتٍ عديدةٍ، ولكن في الأيام التي كان يدلف بها إلى مكتبه دون المرور على بعض مكاتب الشركة ودون الوقوف عند مكاتب السكريتاريا ليتحدث في أمورٍ بسيطةٍ وخفيفةٍ متواصلاً مع موظفيه ومطمئناً على حالهم، كان دائماً هناك حادثاً أو أمراً سيئاً يكون قد أصاب أحداً ممن يهتم لأمرهم.. ولأنها تعرف جوابه مسبقاً دون أن تسأل، فهي لن تسأله عم يضايقه وستكتفي بتنفيذ ما يطلب منها بهدوء... رفعت نحوه طبقاً صغيراً يحوي قرصين من ال (البانادول) لتسكين صداعه، فتناولهما معاً ثم رجع إلى الوراء مغمضاً عينيه قائلاً بصوتٍ خافتٍ جداً: «**لا تدخلي أحداً حتى موعد الاجتماع.**»، فأجابت بخفوتٍ بدورها: «**أمرك.. أتحب أن أغلق الستائر؟**». اكتفت بإيماءة الإيجاب الخفيفة، فانطلقت تظلم الغرفة قبل أن تستدير لتغادرها بهدوءٍ تام إلا أنه استوقفها قائلاً بوهنٍ: « **اتصلي بالسيد حسَّاب و اطلبي منه أن يأتي في أقربِ وقت،**

كذلك اطلبي فؤاد أو اتركي له رسالة بأن يحضر فوراً.»، فردت تلقائياً: «**أمرك**».
همت بالمغادرة و لكنها عادت لتقول بقلق: « **بإمكاننا تأجيل الاجتماع إن كنت تشعر بأنك لست على ما يرام يا سيد نادر.**». اكتفى بالإشارة لها بأن تنصرف....
الآن، حتى تحريك أكتافه صار يمثل عبئا عليه!.. لم يعرف ماذا به، كما لم يشعر بالوقت الذي مر بسرعةٍ إلا حين فُتح الباب الجانبي الذي يصل مكتبه بقاعة الاجتماعات الملحقة به وظهرت نهلة على أعتابه قائلة بابتسامة رزينة : «**اللجنة مجتمعةٌ وبانتظارك يا سيد نادر**».....

٢

غاصت مهرة في الكرسي المريح الذي يقبع في ركن غرفة المعيشة، ملتحفةً بشالٍ قرمزيٍّ قاتمٍ مَثَّلَ كل إرثها عن والدتها. جلست ساكنةً تطالع التلفاز مستمتعةً بعطلتها الأسبوعية بتكاسلٍ لذيذٍ. لم تتجاوز الساعة العاشرة من عمر ذاك الصباح البارد الهادئ، إلا أنها كانت معتادةً على الاستيقاظ باكراً حتى في أيام راحتها، فقمة استجمامها كان في احتساء كوب شاي - حرمها منها اليوم صيامُ أول أيام الشهر الكريم- في جوٍّ هادئٍ قلَّما يتوفرُ لها، حيث تسكن في منطقةٍ شعبيةٍ مزدحمةٍ بالورش والمقاهي والخلق، فكان صباح أيام الجُمَعِ أفضل الأوقات للراحة الحقيقية والاسترخاء و .. التغيير..... إن صح التعبيرِ... وسط خضم السعي على الرزق وتوفير تكاليف إخوتها ولهاثها وراء محاولات التوفيق بين عدم التقصير مع إخوتها وتفكيرها الدائم في كيفية تدبير مبلغ تدخره لزواج أختها وقتما يحين وقته، وبين تجهيزها لنفسها كأي فتاة في سنها. تذكرت في هذه اللحظة طارق وابتسمت، فهي تحبه من كل قلبها وتنتظر بكل شوقٍ اليوم الذي سيجمعهما فيه بيتٌ واحدٌ. تذكرت كيف كان طارق يسرح معها بأفكاره وخيالاته عن حياتهما معاً، حتى أنه كان يفترض اختلافات على أسماء أطفالهما وأساليب تربيتهم وكيف أنه سيفسدهم بتدليله لهم وكانت هي تجاريه كثيراً ويتماديان حتى ينتبه لصوتهما الناس من حولهما... لكم تفتقد

طارق، وكم هي غاضبةٌ منه.. لا تفهم كيف يستطيع ألا يكلمها كل هذه المدة؟ فقد كانا فعلاً لا يفترقان، فكيف يستطيع الآن أن يذهب إلى عمله كل يوم وأن ينام أو يأكل أو حتى يتنفس دون أن يسمع صوتها كما كان يفعل من قبلً؟!!! ألا يشعر في صدره بفراغ كبيرٍ كما تشعر؟ فطارق ليس فقط خطيبها وإنما هو العالم الحاني الوحيد الذيً تعرفه، فلم تجد سوى كتفه لتبكي عليها حين مات والداها في ذاك الحادث الأليم منذ ثلاث سنوات، و هو الذي فتح أمامها أبواباً لم تكن لتطرقها حين ضاق الحال كثيراً وعجزت عن تحمل أعباء إخوتها براتبها الزهيد كمدرسة رياض أطفال، فحينها رشحها كمدرسة خصوصية لابن إحدى عميلات المكتب حيث يعمل والتي بدورها رشحتها لصديقة أخرى لها حين أثبتت جدارتها وأحبها الصبي... كذلك كان درعها في مواجهة قذائف أمه الكلامية التي ما ادخرت ذخراً لتشعرها بعدم رضاها عنها كزوجةٍ لابنها الوحيد، حتى أنها سمعتها ذات مرة و هي تعاتب طارق قائلةً:

«**لا أدري ما الذي يجذبك لها يا بني؟ لا مالٌ ولا حالٌ ولا جمالٌ..**»

وقاطعها طارق حينها بسرعةٍ: «**توقفي يا أمي... أنا أحبها وسأتزوجها فلا تعكري الأجواء أرجوكِ بلا داعٍ.**»

وكذلك كانت هي واحته الظليلة من قسوة أمه وجفائها وعمليتها الزائده معه، كما اعتاد أن يشتكي..

واليوم بالذات، افتقدته أكثر من أي يومٍ آخر، فاليوم يوافق عيد مولدها وقد توقعت اتصاله بها بعد أذان الفجر ككلً عام، إلا أنه لم يتصل حتى الآن، وهذا ما جعل قلبها ينقبض في قلقٍ.. فماذا لو كاًن سوءاً قد حل به؟.. هزت رأسها تنفض عنها هذه الأفكار السوداوية، فعلى الأقل لو حدث أمرٌ ما لعرفت والدته، ولأخبرتها -على ما تظن-... تنهدت بصوتٍ عالٍ..

«**فيم يفكر الجميل؟**»

انتفضت ثم أغمضت عينها ضاحكةً فيما اقترب ماجد منها ليطبع قبلةً طويلةً تعمد إطالتها أكثر من المعتاد ما أضحكها أكثر فدفعته برفقٍ ليجلس على الأريكة بحركةٍ جعلته يبدو وكأنه يسقط وقال وهو يستوي في جلسته: «**كل عام وأنتِ بخيرٍ يا أجمل أختٍ في الدنيا**». ردت بسرور: «**وأنت طيبٌ يا حبيبي.**» أشار برأسه إلى هاتفها المحمول وغمز قائلاً: «**طبعاً جاءت المعايدة التي تغطي على كل المعايدات.**» لم ترد أن تشعره بخيبة أملها حتى لا تضايقه فاكتفت بالابتسام واكتفى هو بها جواباً. قال بعد لحظاتٍ: «**لابد أن نحتفل بعيد مولدك، دعينا نقضي اليوم خارجاً... فليس من الذوق أن تُعِدِّي الطعام في يوم عيد ميلادك.**» فردت ممازحةً: «**ولكن من الذوق أن أتحمل أنا تكاليف هذه النزهة.**»

ضحك ماجد وانتقل ليجلس على ذراع الكرسي حيث تجلس مهرة واحتضنها بحبٍ قائلاً برقةٍ: «**ليتني كنت أعمل وأحصل على المال الكافي الذي به أستطيع أن أقيم أجمل حفل عيد ميلادٍ لأجمل وأرق أختٍ في الدنيا.**» تأثرت مهرة بكلماته الرقيقة وحين لاحظ الدموع في عينيها أكمل ممازحاً: «**ولكن الحمد لله جاءت سليمةٌ وستدفعين أنت اليوم.**» دفعته وضحكا وهَمَّ هو بأن يكمل مزاحه حين قاطعه رنين هاتفها المحمول فالتقطته بلهفةٍ وردت بسرعةٍ: «**لن يشفع لك شيءٌ أياً كان ومهما قلت يا طارق... فأنا أنتظر اتصالك منذ الفجر..**» هَمَّ ماجد بمغادرة الغرفة حين لاحظ أن أخته توقفت عن الكلام فجأةً فتراجع ليجلس على الأريكة متكئاً بكوعيه على ركبتيه يتابعها بترقبٍ وقد تغيرت ملامحها وهي تستمع إلى مُحَدِّثها، انتظر لحظاتٍ ثم لم يستطع إلا أن يسأل: «**ما الأمر؟**»، أشارت له بأن ينتظر وهي تستمع باهتمام ثم سألت: «**اليوم؟! ما بكِ يا كريمة؟ ما الأمر؟**». استمعت لمحدثتها وقد قطبت حاجبيها ثم ردت بعد لحظاتٍ: «**لا بأس، سأكون عندك، مسافة الطريق..**» صمتت لتسمع كريمة تعتذر لها عن اتصالها وطلبها غير المناسب من مهرة في يوم عطلتها، إلا أنها قاطعتها وهي تنهض وتتجه إلى غرفتها لتغير ثيابها: «**لا بأس يا عزيزتي، صدقيني لم يكن لدي أي نيةٍ لفعل أي شيءٍ اليوم... سأبدل ثيابي في لحظاتٍ و آتي فوراً... مع**

السلامة.» ألقت الهاتف على الفراش وشرعت تبدل ثيابها. سمعت ماجد يطرق على باب غرفتها فقالت بسرعةٍ: «**لا تدخل يا ماجد فأنا أبدل ثيابي.**»

رد ماجد بضيق: «**أعرف، فقد تركتني في الغرفة كبلاص العسل وقمت لتبدلي ثيابك دون أن تهتمي بأن تشرحي لي ما الأمر أو مع من تحدثتِ.**»

ردت ببساطة: «**كنت لا أزال على الهاتف ألم استطع أن أقطع المكالمة لأشرح لك.**»

سألها ونبرة الضيق لم تغادر صوته بعد: «**حسنٌ؟ والآن؟ ما الأمر؟ سمعتك تقولين كريمة... من هي كريمة تلك وماذا تريد ؟**»

ابتسمت وهي تسمع شقيقها. لم تتضايق من تدخله، فقد لاحظت أنه منذ فترةٍ قصيرةٍ بدأ يهتم بتفاصيلَ صغيرةٍ ويسأل عن مواعيد خروجها وعودتها ويُعلِّق على ملابس مي إن لاحظ فيها ما لا يعجبه، وقد أسعدها هذا وأشعرها بأن أخاها كبر ويريد أن يثبت وجوده في البيت كرجلٍ ولكن بأسلوبٍ لا زال متلوناً بصبغةٍ صبيانيةٍ... فتحت الباب بعدما انتهت من تبديل ثيابها فوجدت ماجداً لا يزال واقفاً بالباب مكتفاً ذراعيه في وقفةٍ عنيدةٍ، فقالت مبتسمةً: «**كريمة هي مدبرة منزلٍ لدى إحدى الأسر التي أدرس لابنتها، وقد طلبت مني الذهاب إليهم اليوم لأنه، وكما فهمت، يبدو وأن أحداً ما قد أصابه مكروهٌ والصغيرة حالتها النفسية سيئةٌ للغاية... أيمكنني المرور يا حضرة الضابط ؟**» ابتعد ماجد من طريقها فتابعت وهو يتبعها نحو الباب: «**لا توقظ مي، دعها ترتَح، فقد نامت بعد السحور.**» ضرب ماجد رأسه بكفه قائلاً: « **ياه!! لقد نسيت أن اليوم أول أيام رمضان! الحمد لله أنك ذكرتني وإلا كنت سأعد لنفسي كوباً من الشاي حالاً..**» ردت بهدوءٍ وهي تفتح الباب: «**كل عام وأنتَ بخيرٍ يا حبيبي.**»، ردَّ برقةٍ: «**وأنتِ بخيرٍ يا مهرة**» ولكنه استوقفها ثانيةً سائلاً: «**ولِمَ تطلبكِ أنتِ؟ لم لا ترعاها أمها؟**». ردت وهي تغلق باب الشقة وراءها: «**شهدٌ يتيمةٌ.**»



لم تستغرق الطريق طويلاً لخلوِّ الشوارعِ من المارة في صبيحة أول يوم في الشهر الكريم والذي وافق يوم جمعةٍ أيضاً ما يجعل هذا الصمت والفراغَ منطقياً....فتح لها حارس الأمن البوابة الحديدية الضخمة فوراً و كأنه كان بانتظار وصولها، فشعرت بقلقٍ حقيقيٍّ وقفزت إلى ذهنها فكرةٌ مقيتةٌ (ماذا لو أصاب مكروهٌ والدَ شهدٍ، يا للمسكينة الصغيرة..). أصابتها الفكرة بانزعاجٍ شديدٍ حتى أن قلبها أخذ يضرب بشدةٍ وقاومت رغبةً ملحةً راودتها بأن تستديرَ وتعود إلى بيتها هاربةً من ذكرياتٍ أليمةٍ وصوراً قديمةً لمنظر والديها-المتوفين إثر حادث سير أثناء عودتهما من عملهما بأحد مصانع الغزل قرب العاصمة- أقحمتها الأجواء الحزينة على خيالها، فأسرعت الخطى حتى وصلت إلى الباب الزجاجي وما أن قرعت الجرس حتى فُتح الباب وظهر في سدته آدم الذي حياها بأدب جَمٍّ، وتقدمها بعدما أغلق وراءها الباب حتى غرفة شهد. طرق باب الصغيرة برفقٍ ثم فتحه لها بهدوءٍ مفسحاً لها المجال لتدخل ثم أغلق وراءها الباب مغادراً دون أن ينبس ببنت شفةٍ، تلازمه ملامحٌ مشدودةٌ وعينان حزينتان تائهتان، ما هزَّ قلب مهرة وجعلها غير قادرة على إيقافه وسؤاله عَمَّ حدث. لا بأس، فقريبا ستأتي كريمة وستخبرها بكل شيء.

شهقاتٌ خافتةٌ نبهتها، فاقتربت من فراش الصغيرة الوثير لتجد شهد مكومةً كالجنين وسط الأغطية والوسائد الكثيرة حتى كادت تختفي تحتها بجسدها الضئيل. مدت يدها تملس بها شعر شهدٍ البني القصير بحنانٍ بالغٍ وقالت بصوتٍ خافتٍ رقيقٍ: «**حبيبتي شهد، هذه أنا، مس مهرة. لقد جئتُ لأجلك يا حبيبتي وسنقضي اليوم كله نلعب ونرسم سوياً.**» اعتدلت شهد جالسةً ومَسَّ مظهرها الحزين وعيناها العسليتان الغارقتان بالدموع شِغَافَ قلب مهرة فاحتضنتها وضمتها إليها بقوةٍ وهي تُهَدْهِدُهَا وتحاول طمأنتها بكلماتٍ لطيفةٍ ودمعت عيناها حين شعرت بجسد الصغيرة يهتز بين ذراعيها. (يا الله الطف بهذه المسكينة ولا تجعلها تمر بما مررت به.. هي لن تحتمله يا رب) كانت تناجي الله في سرها حين فُتح الباب ودخلت كريمة حاملةً صينيةً وضعتها على الطاولة البيضاء المجاورة للفراش، كان عليها بعض شرائح الخبز المحمص وقوالب

زبدةٍ ذهبيةٍ وبعض مكعبات المربى وكذلك طبقٌ من حلوى الجيلي. جلست في مقابلة مهرة عند طرف الفراش الآخر ومدت يدها تدلك بها قدم شهد الدقيقة قائلةً بصوتٍ بالغ الحنان: «**مس مهرة أتت لتقضي معكِ اليوم يا حبيبتي، ألن تأكلي شيئاً لأجل خاطرها؟ أتريدينها أن تشعر بأنك لا تحبينها؟**» ردت شهد بطفوليةٍ: «**لن آكل أي شيءٍ حتى تأخذوني إلى بابي نادر.**» كتفت ذراعيها حول ركبتيها وانكمشت على نفسها في علامةٍ على الرفض التام لأي طلبٍ دونما تحقيق ما تريد.. قالت كريمة محدثةً مهرة بأسىً: «**هي لم تتناول شيئاً منذ الأمس يا مس مهرة. تخيلي طفلةً في سنها تقضي يومين دون طعامٍ حتى أ...**» قاطعتها الصغيرة: «**أنا صائمةٌ**». ابتسمت مهرة وقالت للصغيرة: «**هذا يعني أنك ستفطرين معي، أليس كذلك يا شهد؟**»، ردت الصغيرة بعنادٍ: «**لن أفطر إلا مع بابي نادر حين يعود.**» اعتدلت مهرة وأشارت بعينها لكريمة حتى تحدثها بعيداً عن الصغيرة، وحين اطمأنت إلى أن شهد لن تسمعهما بوضوحٍ سألت بصراحة: «**أنا لا أفهم شيئاً يا كريمة!! ماذا حدث ؟ وأين والد شهد؟**».

تنهدت كريمة وردت بحزنٍ عميقٍ: «**السيد نادر مريضٌ جداً وفي المشفى منذ الأمس ولا ندري شيئاً عن حالته، فقد أنبأونا من الشركة بأنه انهار ونقلته سيارة الإسعاف إلى المشفى..**» توقفت لتبتلع ريقها ثم تابعت بغضبٍ: «**لا أحد يهتم بأن يخبرنا بما يجري، فحين عاد السيد حسَّاب من حيثما كان، والله وحده يعلم أين كان، انطلق إلى المشفى فوراً ولم يكلف خاطره بأن يطلبنا ليطمئنَّا على حال السيد نادر، وحتى حين طلبه آدم قال له باقتضاب أن السيد نادر حالته مستقرةٌ الآن.**» توقفت ثانيةً لالتقاط أنفاسها فسألتها مهرة: «**وأين والد شهد؟ أليس موجوداً في مصر؟**». ردت كريمة بابتسامةٍ ساخرةٍ كلها مرارة: «**السيد فؤاد موجودٌ وغيرُ موجودٍ... هه.. لم نستطع الاتصال به.. والآنسة أميرة في المشفى هي الأخرى وهاتفها مغلق .. وليس هنا سوى السيد سامر..**» صمتت لحظاتٍ وكأنها تحاول أن تزن ما ستقول، ثم قالت معتذرةً: «**أعتذر كثيراً لإقحامك في هذا الوضع يا مس مهرة ولكنك طرأتِ على بالي بعدما أعيتني الحيلة مع شهدٍ، فأنا أعرف كم تحبك وتثق بك وقد قلقت عليها ولم أجد من أستعن به سواكِ.**»

أجابت مهرة فوراً: «**الخيرَ فعلتِ، فليس لدي أي شيءٍ لأفعله يفوق وجودي هنا الآن أهميةً. لا تقلقي على شهدٍ فسأهتم لأمرها ولكن هدئي أنتِ من روعك يا كريمة وسيلطف الله بالسيد نادر إن شاء الله، وسنطمئن عليه قريباً بإذن الله.**» ربتت على كتف كريمة سائلة بأدب: «**هل تستطيعين البقاء مع شهد لدقيقةٍ، فعلي إجراء مكالمةٍ ضروريةٍ؟**»

«**بالطبع يا مس مهرة، تفضلي.**»

خرجت مهرة من الغرفة وبحثت في حقيبتها عن هاتفها المحمول، فعليها أن تخبر ماجد ومي بأن يتدبرا أمرهما اليوم فيما يخص الإفطار وبأنها لن تعود إلَّا متأخرةً.. لم تساعدها النوافذ العالية التي تنير الممر الفخم في أن ترى هاتفها فمدت يدها تحركها في جنبات الحقيبة، حين سمعت جلبةً في أسفل الدرج فاقتربت بهدوءٍ لتستكشف ما يحدث، فلربما كانت هناك أخبارٌ متعلقةٌ بحالة السيد نادر...

«**لِمَ لَمْ يتصل بي أحدكم؟ هل جننتم؟ كيف.. أجننتم؟ نادر مريض وتدَّعون أنكم (حاولتم) الاتصال بي؟!..**»

كان المتحدث يعنف شخصاً ما بمنتهى الحدة وصياحه كان يدل على غضبٍ بالغٍ.. سمعت همهمةً غير مفهومةٍ ميزت منها صوت آدم، فمالت إلى الأمام لتسمع ما يقول حين قاطعه صراخ محدثه الذي بدا مصعوقاً هذه المرة مما سمع: «**في المشفى؟!!! مُذْ أمس؟!!!! أي مشفى؟ ماذا به يا آدم، تحدث؟!!!**»، عاد صوت آدم الهادئ يهمهم بما لم تسمع وما هي إلا لحظاتٍ حتى سمعت صوت الباب الزجاجي الكبير يصفق بحدةٍ فتنهدت واستدارت لتعود لشهد إلا أنها انتفضت لدى رؤية شابٍ أنيقٍ يقف متكئاً باسترخاءٍ على إفريز باب غرفة شهد واضعاً يديه في جيبي سرواله وعلى وجهه ابتسامةٌ عريضةٌ. بادرها قائلاً: «**قبضتُّ عليكِ متلبسة بالجرم المشهود.**». لَعنَت فضولها الذي زَجَّها في هذا الموقف المحرج ولامت نفسها على تصرفها الطفولي الذي أعطى لهذا الشاب كل الحق في أن يسخر منها، أو ربما حتى قد يطلب منها مغادرة المنزل.. مررت

يدها في شعرها الداكن القصير، بحركةٍ لا شعوريةٍ وقالت معتذرةً: «**أعتذر يا سيد .**» قال معرفاً بنفسه كما توقعت أن يفعل: «**سامر.**»، تابعت: «**يا سيد سامر، لقد كنت أود أن أجري اتصالاً هاتفياً حين سمعت ضجةً في الأسفل، فظننت أن هناك أخباراً بخصوص حالة السيد نادر..**» .توقفت ولكنها لم تلق جواباً فتململت ومررت أصابعها ثانيةً في شعرها. كانت تنتظر أن يتقبل اعتذارها وأن يبتعد عن الباب ليسمح لها بالدخول لشهد، أو حتى ألا يتقبله وأن يؤنبها ويطلب منها الانصراف، إلا أنه ما فعل أياً من هذين الأمرين، وإنما اكتفى بالنظر إليها دون رد .. كان موقفاً محرجاً ومُذِلّاً لها وهو يرمقها بعمقٍ وكأنه يتفرج عليها، وهو يعلم هذا، ولكن هذا لم يمنعه من أن يستمر في التحديق بها... كان في موقفها الضعيف شيئاً مسلياً، ودفعه توترها الواضح في نظراتها المتطايرة في كل الاتجاهات وترتيبها لشعرها مراراً دون داعٍ إلى التمادي في الضغط عليها، فسألها: «**ومن تكونين؟**». تأوهت في سرها (غبيّة، كان يفترض بك أن تعرفيه بنفسك أولا) ردت بسرعة: «**أنا مس مهرة، معلمة شهد.**». كان يعلم من هي ولكنه تابع : «**لم أكن أعلم أن لشهدٍ معلمةً لطيفةً !!! كيف لم نلتقِ من قبل؟!**»

ظهر آدم أعلى الدرج فأنقذها من الرد على ملاطفة الرجل الغريب، وما أن رآهما حتى اقترب منهما قائلاً بكل أدبٍ: «**هل أُعِدُّ لكما شيئاً لتشرباه؟**»، **ابتسمت مهرة رادةً بأدبٍ مماثلٍ: «كل عامٍ وأنت بخيرٍ، فاليوم صيامٌ، أم تُراكَ نَسِيت؟»**

«**لَمْ أنسَ يا آنسة ولكن وَجَبَ أن أسال**»

قال سامر وهو يستدير لينزل الدرج: «**أعد لي فنجاناً من الشاي وأحضره إلي في الحديقة يا آدم.**»

«**أمرك**»

لم تتمالك ذهولها من جرأة المدعو السيد سامر فقالت بعدما اختفى عن ناظريها: «**أهو مريض؟!!!**»

تفادى آدم الرد على تعليقها محوِّلاً الكلام بأدبٍ إليها: «**أشكرك جزيلا يا مس مهرة على حضورك اليوم.**»

«**لا تشكرني أرجوك.. ولكن طمئني على صحة السيد نادر، هل حالته خطيرة؟ فأنا مشوشةٌ تماماً.. لقد تحدثت إليه صباح أمسٍ وبدا لي بخيرٍ، فماذا حدث؟**». تجاهلت ذكر شعورها تجاه الأسلوب الذي حدثها به نادر والذي أشعرها بإحراجٍ شديدٍ حين لم يتعرف عليها وسألها بحدةٍ: «**مهرة من؟ ومن أين لكِ بهذا الرقم؟**»، والأسوأ كان حين عرفته بنفسها وأوضحت له سبب اتصالها فقد أجابها مقاطعاً دون أن يعطيها فرصة لذكر تفاصيل حوارها مع أميرة: «**لا بأس يا آنسة مهرة، أنا واثقٌ من أن الآنسة أميرة لم تقصد مضايقتك، ومع هذا تقبلي اعتذاري بالنيابة عنها.. هل هناك أمرٌ آخر يا آنسة تودين التحدث بشأنه؟**»، فأجابت وقد احمرت وجنتاها وشعرت بسخونةٍ شديدةٍ تحرق أذنيها: «**كلا.**»، فَرَدَّ فوراً: «**إذا أستأذنكِ لأني وسط اجتماعٍ هام، وتقبلي اعتذاري مرةً ثانيةً وأعدك ألا يتكرر أياً كان ما ضايقك ثانيةً.. والانَ اسمحي لي**»، وأغلق فوراً الخط دون أن ينتظر ردها.. «**هل أنت بخير يا مس مهرة؟**»، سألها آدم وهو يلاحظ الاحمرار الذي زحف على خديها، ما أخرجها من شرودها فسألته: «**عفواً؟**»

«**لقد شردتِ بعيداً وأنا أحدثكِ وقد احمر وجهك كثيراً، فهل أحضر لك ما تشربيه؟ هل أنتِ بخيرٍ؟**»

أجابته بابتسامةٍ شاكرةٍ: «**أنت تعرف الصيام، أول يومٍ دائماً ما يكون متعباً جداً.... حسنٌ ، لقد تأخرت على شهد وما جئت إلا لأجلها، فقط سأكلم أخي ثم أدخل لها فوراً.**»

«**تفضلي يا آنسة**».



قاد فؤاد سيارته كالمجنون دون أن تفارق يده بوقها للحظةٍ، ولسانه يسابق بوق السيارة في قذف السباب والأوصاف لكل قائد سيارةٍ رماه سوءُ حظِّهَ في طريق فؤادٍ الآن... «**تحرك يا بني آدم!!!**»، ناور بالسيارة مناورةً شديدةَ الحدةِ و دار بها ماراً كالصاروخ مخالفاً لإشارةِ المرور الحمراء متجاهلاً صرير عجلات السيارات وراءه والتي كان يحاول سائقيها إيقافها قبل الاصطدام ببعضهم إثر انحرافها، وبرغم كل هذا، وبالرغم من كل الشتائم والسباب واللعنات التي انصبت عليه، لم يلتفت فؤاد وراءه ولو للحظةٍ، فلم يكن مدركاً لما يجري من الأساس. كان يقود السيارة بصورةٍ آليةٍ لا شعورياً فيما لم يشغل باله ولم يكن أمامه إلا صورة نادر... كان يعجز عن تخيله مريضاً! فكيف به أن يتصور ما يحدثونه عنه من أنه انهار وأنه يرقد حالياً في المشفى.. نادر؟!!!!! كيف؟ لِمَ؟؟؟ وهل يعقل أن ينهار نادر؟ لا يمكن أن يحدث هذا!! لا!!!! لا يمكن!!!!! إلا نادر...(يا رب يا رب يا رب ،أنقذ أخي يا رب.. أنت تعلم أن لا أحد لي سواه.. يا رب نَجِّه يا رب...سأتوب عن كل شيءٍ يغضبك يا رب، فقط أبقِ لي أخي يا رب .. أعلم أني أعصيك وبأني لا يحق لي أن اسألك شيئاً، ولكنك تعلم أن كل ما أفعل لا علاقة لنادر به، بل هو يرفضه ويحثني على ترك الشرب والعبث، فلا تعاقبني فيه وعاقبني في نفسي.. احفظه هو يا رب، فابنتي بحاجةٍ إليه وهو أكثر نفعاً لها مني).

كانت دموعه تنساب ساخنةً لتبلل شفتيه المرتعشتين وهو يناجي ربه... (يا رب أعده لي ولن أبتعد عنه دقيقةً واحدةً أو أتخلى عنه حين يحتاجني يا رب... سأكون إنساناً آخر إن انقذته يا رب...يا رب، أعطني الفرصة لكي أريه كيف أحبه وأقدره وأقدر كيف عاش لي ولابنتي... يا رب يا رب يا رب ارحمني، فلم أعد أستطِع تحمل المزيد...يا رب أنت تعلم أني كلما أصابتني مصيبةٌ لا ألجأ إلَّا إلى نادرٍ، فلا تأخذه مني وإلا من يكون لي بعد ذلك؟... يا رب، أعدك يا رب)..

كان في غضون ذلك قد وصل إلى المشفى وركن سيارته في أول مكانٍ شاغرٍ دون أن يلتفت لصلاحيته لركن سيارته فيه أم لا... وفي خطواتٍ، كان قد قطع موقف السيارات وبهو المشفى الواسع واصلاً إلى المصعد، الذي فُتح فورَ ما ضغط على زر استدعائه فدلف إليه واثباً وضغط على رقم طابق العناية المركزة، وبصعود المصعد تصاعدت دقات قلبه حتى كاد يسمعها وشعر بحوائط المصعد تكاد تطبق عليه واعتصرت حلقه ذكريات الساعات الأخيرة لشهيرة والتي قضتها بنفس القسم حيث يرقد نادر الآن... خرج بسرعة، ورغبةٌ شديدةٌ في القَيء تتملكه وصورة شهيرةٍ مضرجةٍ بدمائها تملأ ناظريه.. ندَّت جبينه قطرات العرق البارد وهو يسأل الممرضة المنشغلة وراء مكتب الاستقبال: « **في أي غرفة هو نادر حسين عزّ العرب؟** ».

سألته بدورها دون أن ترفع عينيها عن الملفات التي ترتبها: «**ومن تكون يا سيد؟**»

«**شقيقه...فؤاد عزّ العرب**»، مد يده في الجيب الخلفي لسرواله وأخرج بطاقته الشخصية واضعاً إياها أمامها فتناولتها وسجلت بياناتها على جهاز الكمبيوتر قبالتها فيما وقف فؤادٌ يراقبها وهو ينقل وزنه من قدمٍ لأخرى في نفاذ صبرٍ ظاهرٍ. قال حينما وضعت أمامه البطاقة مشيرةً بيدها إلى مجموعة مقاعدٍ في طلبٍ صامتٍ منه بأن ينتظر هناك: «**أين غرفته من فضلك؟**».. ردت دون أن تنظر إليه منشغلة بالتقارير الطبية التي ترتبها: «**انتظر هناك يا سيد ودكتور محمدٌ سيوافيكَ خلال دقائق.**». هنا لم يتمالك نفسه فمد يده وجذب من يدها الأوراق وألقاها بكل عنفٍ في ركن الردهة صارخاً فيها بحدةٍ: «**أمجنونةٌ أنتِ؟ حين أتحدثُ إليكِ عليكِ أن تردي بأدبٍ واحترامٍ وأن تنظري إلي حين تكلمينني، أتفهمين؟**»، لم يهزَّه مظهرها المصعوق ولا نظرة الهلع التي قفزت إلى عينيها هي تراه يستدير خلف مكتب الاستقبال مقترباً منها في تهديدٍ صريحٍ فتابع في نفس النبرة الحادة: «**أين هي غرفة نادر؟ انطِقي؟**» بقيت تحملق فيه بذهولٍ فيما استحثها ممسكاً بذراعها: «**تكلمي يا اب...**»

«هاي!! أنت!.. توقف!! ماذا تفعل؟!!»

استدار ليجد شاباً في مثل عمره أو أكبر ببضعة أعوام مرتدياً حلة الأطباء الزرقاء، يقترب منهما بسرعة، فترك الممرضة فوراً و استدار ليواجه الطبيب الذي بادره بغضبٍ شديدٍ: **«من أنت وأين تظن نفسك؟ سأطلب الأمن حالاً ليلقوك خارجاً.»**.

أدرك فؤاد أنه تجاوز حدوده فتكلم بسرعة: **«أنا شقيق نادر عز العرب وكنت أسأل عن غرفته»**، توقف الطبيب فأسرعت إليه الممرضة تتحدث بسرعة: **«لقد تهجم علي يا دكتور مُحمد، و لولا وصولك لكان اعتدى علي بالضرب أو ربما ...»**، قاطعها الطبيب: **«أنا واثقٌ من أن السيد لم يقصد يا سوسن.»** . نظر إلى فؤادٍ الذي فهم إشارةَ الطبيب فقال للممرضة معتذراً وإنما بنفاذ صبرٍ ظاهرٍ: **«آسف يا سيدة سوسن.»**

قاطعته **«آنسة»**... نظر إلى الطبيب متجاهلاً تعليقها وسأله: **«كيف هي حاله يا دكتور. رجاءً طمئنِّي. أين هو؟»**. قاطعه الطبيب الشاب مبتسماً: **«لا تقلق فحالته مستقرة وتحت المراقبة المستمرة.. أما ما فعلته مع الممرضة هناك.»** وأشار بإبهامه إلى الوراء من فوق كتفه فيما يسيران داخل الممرات الطويلة المتشعبة والمتلاقية فيما يشبه المتاهة متابعاً بسخريةٍ: **«فلو اشتكتك الآنسة سوسن، سيخرجك الأمن فوراً من المشفى.»**. استوقفه فؤاد ممسكاً بكوعه قائلاً برجاءٍ: **«من فضلك يا دكتور أدخلني إليه، دعني أتحدث معه حتى أطمئن.»**.. تنهد الطبيب وحكَّ عنقه بإصبعه قائلاً بتعاطفٍ: **«أنا لا أمنعك من رؤيته يا سيد فؤاد، فأنا بالفعل أقودك لغرفته.. ولكنك تدرك بالتأكيد أننا في قسم العناية المركزة، أليس كذلك.»**. وابتسم مشجعاً منتظراً حتى يتأكد من أن فؤاد قد فهم إشارته.. وفيما كان الطبيب يتحدث شارحاً حالة نادر، كان فؤاد في عالمٍ آخر لا يستمع إلى الطبيب إطلاقاً وإنما كانت نظراته تطير في أنحاء المكان وهو يشعر بالدم ينسحبُ من رأسه والعرق البارد يغزو جبهته فيما جف حلقه بشدة. لم يفهم لِمَ يشعر بيدٍ تضربه برفقٍ على وجهه ولا دَرَى لم ابتعد صوت الطبيب هكذا وهو يناديه!!! شعر بوخز إبرةٍ

وشيئاً فشيئاً بدأت الأصوات تتضِّح فيما حوله ووجه الطبيب الباسم، أبداً كما يبدو، يلوح قريباً، كما سمع صوت الممرضة وهي تقول بتأففٍ سمجٍ: «**ها قد أفاق، أتريد شيئاً آخر يا دكتور؟**».

«**لا، شكراً يا سوسن..**».. كان الآن قد استرد كامل وعيه، أو هكذا ظن، فما كاد يعتدل حتى شعر بدوارٍ يلف دماغه فعاجله الطبيب قائلاً وهو يساعده ليرقد ثانيةً: «**على رَسْلِكَ يا سيد فؤاد.. استرح دقائق حتى تستفق تماماً ثم تعالى لنتحدث قليلاً.**». ضحك ضحكةً قصيرةً وهو يتَنَدَّر: «**يبدو أن السقوط بلا مقدماتٍ هوايةٌ لديكم.**»...

لم يرُد فؤاد، وإنما اكتفى بالتحديق في سقف الحجرة العاجيّ وقد غصَّ حلقه بعَبْرَةٍ كافحت لتعبر حلقه بآهةٍ صاخبةٍ يُخرِجُ فيها كل ما يعتمل في نفسه من أسىً وألمٍ...أغمض عينيه بشدةٍ وهو يتذكر زوجته الشابة، راقدةً في الغرفة التي كانا قد توقفا أمامها هو والطبيب ليتحدثا. تذكر وجهها الشاحب الذي تمزقت ملامحه كلوحة شوهها راسمها بضربات فرشاةٍ حاقدةٍ.. تذكر ذراعيها الرقيقين وقد غَزَتْهُمَا الإبر في كل موضع متاح.. تذكر أنفاسها الضعيفة التي كانت ترتجف ولا تقوى حتى على تحريك بالونَ التنفس، وقلبها الطيب الذي وأده الحادث بلا رحمة وهو يناضل ليضخ آخر آمال الحياة في عروقٍ ازرقت وغَارت.. تذكر الأيام والليالي التي قضاها بجوارها يصلي لله حتى تفتح عينيها ولو للحظةٍ حتى يتسنى له أن يعتذر منها عن كل شيءٍ وأيِّ شيءٍ.. تمنى حينها لو أن شفتيها الشاحبتين تحركتا لتخبراه بألا يقلق، وبأن كلَّ شيءٍ سيكون على ما يرام ولو حتى كذباً كما اعتادت بأن تهدهده كطفل صغير... تذكر قبلته الأخيرة على شفتيها الباردتين المبللتين بدموعه التي امتزجت بالحسرة والندم، ذرفها قلبه عليها قبل عينيه حين توقف صوت الحياة عن كل شيء حولها وسكن صمتُ الموت أوصالها وقلبه إلى الأبد..

«**أتريد أن تشرب شيئاً يا سيد فؤاد.. كوبُ عصيرٍ سيكون مفيداً جداً لتستعيد نشاطك.**»

اعتدل ببطءٍ وقال وهو يعدل هندامه ويقف: «**لا شكراً، لا أريد..**». جلس على الكرسي المقابل لمكتب الطبيب ذو الابتسامة المستفزة من وجهة نظره قياساً بالظرف الحالي، وقال فوراً: «**أيمكن أن نتحدث عن نادر من فضلك؟ ماذا حل به؟ و إن كان بخيرٍ وحالته مستقرةٌ، فَلِمَ هو هنا حتى الآن؟**»

أرجع الطبيب ظهره مستنداً على ظهر كرسيه قائلاً بابتسامةٍ مطمئنةٍ: «**قد سبق وطمأنتك على السيد نادر، فلا تقلق. ما هي إلا مسألة وقتٍ ويعود إلى البيت في أتمِّ صحةٍ وعافيةٍ بإذن الله... ولكن ما حدث هنا يقلقني، عليك بالتأكيد يا سيد فؤاد أتحدث.. هل تتكرر هذه الحالة معك كثيراً؟**». كانت الشياطين تتلاعب برأس فؤادٍ وكان يشاورها أيقلب هذا المكتب في وجه الطبيب السمج أم يلكمه على فكه ذو الابتسامة المطرزة.. و استقر رأيه على أن يستعيذ منها، ففرك وجهه بكفيه وقال بهدوءٍ وبطءٍ وهو يعدُّ على أصابعه: «**لا نوم ولا طعام وقلقٌ بالغٌ على أخي... هذا كل شيء.**». هز الطبيب رأسه متفهماً وردَّ ببساطةٍ وبابتسامةٍ بدت لفؤاد أعرض من سابقاتها: «**وهذا بالضبط ما حدث مع السيد نادر.**»، وتابع، وإنما بجديةٍ هذه المرة: «**ولكن حدوثها معك أنت الآخر ستدفعني لأن أطلب إجراء تحاليل لاستكشاف إن كان هناك عاملٌ وراثيٌّ وراء انهياركما بهذا الشكل.. فأنتما شابان وافرا الصحة، وليس من المتوقع أبداً أن تنهارا بهذه البساطة.**» .. كان فؤاد يستمع إليه مذهولاً وردَّ فورَ ما توقف الطبيب عن الكلام: «**وهل ستحتجزني أنا الآخر؟!**»، وحين هز الطبيب رأسه نفيا بادره فؤاد بعصبيةٍ: «**إذاً لِمَ تُبْقِ على نادرٍ يا دكتور؟ لابد وأنك تخفي عني شيئاً!.. فكيف تطمئنني على نادر، ثم لا تصرح له بالخروج؟ أنت قلت أنه بخير. وأن ما حدث معه يشبه...**» توقف عن الكلام، فقد شعر بأن الأفكار تشابكت في ذهنه. ضغط بقوةٍ على أعلى أرنبة أنفه وهو يغمض عينيه بشدة... زفر بحدة ثم قال مستدعياً كل الهدوء والأدب المتبقيان لديه: «**هل يمكن أن أعرف تشخيِّص حالة أخي حتى أستطيع أن أخبرك إن كان هناك أي مرضٍ وراثيٍّ أم لا؟**»..

قال الطبيب ببساطة: « قصورٌ حادٌ في الدورة الدموية يصاحبه انخفاضٌ في مستوى السكر في الدم، ما أفقده وعيه.»

«وهل هذا وراثيّ؟»

«ليس بالضرورةِ، وإنما صغر سنه، وإغماءك منذ قليل قد يرجحان هذا، ولهذا أريد أن أتأكد ببعض التحاليل.. ولن يكلفك الأمر أكثر من شكة إبرةٍ، والإجابة على بعض الأسئلة.»

«هل يمكن أن نقوم بكل هذا بعدما أزور نادر.»

«بالطبع، ولكنك تدرك أنك لن تدخل الحجرة وإنما ستراه من خلف الشباك الزجاجيّ للحجرة.»

قطب فؤاد حاجبيه وسأل باستغرابٍ: «لِمَ؟ فلا مرضه معدٍ فتخشى علي، ولا مناعته ضعيفة فتخشى عليه؟ فما الداعي لهكذا إجراء؟!!»

أجابه الطبيب بابتسامة هادئة: «هكذا أفضل حتى نحدد بدقة سبب الغيبوبة.»

صُعِق فؤاد وقطر القلق والذهول ثقيلين من كلماته: «أي غيبوبة؟ ألم تقل أن حالته مستقرة وفي تحسن؟ أي تحسن هذا وهو في غيبوبة؟!!!»، وانتفض واقفاً فوقف الطبيب بدوره ومد ذراعه محاولاً تهدئة فؤاد: «يا سيد فؤاد نحن لدينا أفضل فريقٍ طبيٍّ في البلاد ولابد أن تتأكد بأننا نبذل قصارى جهدنا مع كل مرضانا.. ومما نرى، فلا داعي للقلق أبداً، وبمجرد أن يستفيق السيد نادر، أكاد أؤكد لك بأنك لن تصدق بأنه كان في المشفى أو أنه كان مريضاً من الأساس.. فكل قراءاته الحيوية مطمئنةٌ جداً...و...». قاطعه فؤاد: «ألم تقل بأنكم لم تحددوا بعد سبب الغيبوبة..؟»

مرر أصابعه في شعره مكملاً: «وأبقيتني ساعة هنا تحدثني عن ترهاتٍ وأمراضٍ وراثيةٍ!!!». ضرب سطح المكتب بيده بقوةٍ صائحاً: «أيُّ أمراضٍ وراثيةٍ وأنت لا تعرف أساساً ما به؟ هه!! أتسمون أنفسكم أفضل مشفىً في البلد؟..أنتم لستم إلا..».. قاطعه الطبيب بصوت حازم و هو يشير بإصبعه محذراً و قد لاحت على وجهه أمارات الغضب هو الآخر: «لا داعي للخطأ يا سيد فؤاد،

فالسيد نادر يشرف على حالته نخبةٌ من أفضل الأطباء المتخصصين في مصر.. والدكتور صاحب المشفى بنفسه أوصى بإبلاغه بأي تطوراتٍ تخص حالته... ولو عرضت حالته على أطباء من الخارج لأفادوا بنفس ما قلنا.. فلا داعي للصياح وافتعال مشاكل لن تجلب لك أو لشقيقك أي فائدةٍ..» (يا للمسكين، هذا الشاب يعاني من مشاكل نفسيةٍ وعصبيةٍ حادةٍ!). تابع حين لاحظ صمت فؤادٍ وتنفسه الذي هدأ: **«صدقني إجابتك عن بعض الأسئلة ستكون ذات فائدةٍ كبيرةٍ في التعامل مع حالة أخيك. أفضل بكثيرٍ من تضييع الوقت في الصياح ونقله من مكانٍ لآخر.. فلو جلستَ لدقائق فقط سأحصل على ما أحتاج وتنصرف أنتَ لرؤية شقيقك فوراً بعدما تكون قد قمت تجاهه بكل ما تستطيع.»** .

أخذ الطبيب يسأل فؤاداً عن عادات نادر في الأكل والنوم وممارسة الرياضة، وإن كان متزوجا أو له علاقات من هذا القبيل... كما سأله عن التدخين أو تعاطي مواداً مخدرةً، أو إن كان نادر يشرب مشروباتٍ كحوليةٍ... (إن كانت هذه أسباباً رئيسيةً للغيبوبةِ، فأنا مَيِّتٌ سريرياً مذ لا يقل عن العام!) فكر مستهزئا بنفسه...

«وهل يأخذ علاجاً منتظماً لأي مرضٍ مزمنٍ كالضغط أو السكر أو أي مرض آخر عضوياً كان أو نفسياً أو عصبياً...» كان دكتور مُحمد يسأل وهو يملأ تقريراً طبياً مليئاً بالخانات الضيقة دون أن يرفع عينيه عما بيده. أجاب فؤاد: **«لا.. لا شيء من هذا..»**.. تابع الطبيب بآليةٍ: **«أي إصاباتٍ أو جراحاتٍ قديمةٍ أو حديثةٍ بالرأس؟»**. هز فؤاد رأسه نفيا، فتابع الطبيب: **«أي تاريخ أمراضٍ مزمنةٍ في العائلة؟»** ورفع نظره إلى فؤاد موضحاً: **«الوالد، الوالدة، الجد، العم، الخال...هل كان أيٌّ من كان من الأقارب يعاني من أمراض الضغط أو السكر أو الاكتئاب، أو أصيب بجلطة خفيفة أو مرض بمرضٍ استلزم بقاءه بالمشفى.. ؟..»**

«لا.. ليس حسبما أعلم..»

« علمت أن الوالدين متوفيان، فما أسباب الوفاة وكم كان أعمارهما حينها؟»

«**مممم، توفيت والدتي أثناء ولادتها لي...نزيفٌ أو حمى أو ما شابه، لست متأكداً... أما أبي، فقد توفي منذ حوالي عشرة أعوامٍ وكان في السيتينيات ويتمتع بصحةٍ جيدةٍ.. وفاته كانت مفاجئة... نام ولم يستيقظ ، هكذا بكل بساطة.**»

« **وأسباب الوفاة؟**»

سحب فؤاد نفسا عميقا و قال: « **لِمَ أشعر و كأني في قسم الشرطة...؟**»

ضحك الطبيب بخفةٍ وقال: «**أعرف أنها أسئلةٌ كثيرةٌ ولكن إجاباتها مهمةٌ في تحديد خطة العلاج للحالة.**». رد فؤاد ببساطةٍ وكان قد هدأ قليلاً: «**التشخيص كان سكتةً قلبيةً.. هذا ما ذكر في شهادة الوفاة.**». قال و قد انهمك الطبيب في مَلءِ خاناتٍ كثيرةٍ دون الرجوع إليه: «**هل يمكن أن أرى نادراً الآن.**» أجاب دكتور مُحمد فوراً وهو مستمر بالكتابة: «**بالطبع، سأصطحبُك حالاً، فقط اعطني ثوانٍ ..**» ما كادت كلماته تنتهي حتى وقف وهو يعدل نظارته، فوقف فؤاد بدوره...

سارا جنباً إلى جنبٍ في الممر ذو الحوائط الزرقاء الفاتحة الطويل. سأل فؤادٌ: «**إن كان كل شيءٍ جيد، فلم لا يزال في الغيبوبة؟ ألا يمكن أن تعطوه أدويةً منشطةً أو ما شابه ليستفيق؟**». جاوبه الطبيب بابتسامته الهادئة: «**لا يستطيع أحدٌ أن يحدد متى تنتهي الغيبوبة أو كيف ينهيها... كل ما نفعله هو الحفاظ على، والتأكد من أن، وظائف المريض الحيوية في معدلاتها الطبيعية أو أقرب ما يكون إلى ذلك... ربما كان جسد السيد نادر، أو لنقل عقله، قد قرر أنه بحاجةٍ إلى فترة راحةٍ حتى يستطيع أن يواصل بذل المجهود العالي الذي علمت من خالك أنه يبذله.. قد يبدو كلامي سخيفاً و لكن صدقني هنا في العناية شاهدنا العجب ولم نعد نستغرب شيئا...**».

توقف عن الكلام والسير، فتوقف فؤاد. ربت الطبيب على كتفه قائلاً كمن يحدث طفلاً صغيراً: «**أرجوك أن تطمئن..**»، وأشار إلى باب الغرفة التي يوليها فؤاد ظهره قائلاً بجديةٍ: «**هذه هي الغرفة يا سيد فؤاد.**»، وكما توقع استدار فؤاد بسرعة ليفتحه إلا أنه استوقفه ممسكاً بمرفقه قائلا بسرعة: «**رويدك لحظة.. سأدخل أنا وأفتح الستائر لكي تتمكن من رؤيته من خلال هذا الحائط الزجاجي، كما اتفقنا.. أتذكر؟**»

أغمض فؤاد عينيه وهو يهز رأسه إيجاباً ساحباً نفساً عميقاً، فقد بلغ توتره مبلغه وغاص قلبه بين ضلوعه حتى لم يقوَ على الرد.. توجه ليقف أمام الحاجز الزجاجي الذي يفصله عن شقيقه متسائلاً إن كان هذا هو واقع الحال مؤخراً بينهما؟ كل منهما يرى الآخر، يحدثه، يقلق عليه... يتواصلان إلى حد معين ويتقاربان ولكن يبقى بينهما هذا الزجاج الشفاف، مهما بلغت رقته، حاجزاً؟.... و فيما كان نادرٌ يحاول بإصرارٍ وعزم اختراق هذا الحاجز، ما كان منه إلا أن دأب على رأب كل صدع أحدثه شقيقه المسكين فيه، فقد كان هذا ما يريده ويريحه، أن يتقوقع حول ألمه وأن يمضي حياته في عذابٍ.. أم ربما ليس الحاجز بينه وبين شقيقه فقط، بل هي كرةٌ زجاجيةٌ تحيطه وتعزله عمَّن حوله أجمعين، بل وتدحرجه متقلباً متخبطاً، فتارة يقف على رجليه وأخرى على رأسه، فإن بقيت، بقي معزولاً عن العالم دون خلاصٍ من سجن نفسه المشوهة، وإن تهشمت، اخترقت شظاياها جسده بلا رحمة ومزقته الحقيقةُ أشلاءً ...زفر للمرة الألف بنفاذ صبرٍ (سحقا!! لم تأخر الطبيب هكذا)... وضع يديه في جيبي سرواله الجينز وابتلع ريقه عدة مراتٍ ليرطب حلقه فيما شاهد الستائر تفتح ببطء.. (تمالك نفسك، تمالك نفسك.. يكفيك ما أحدثته من مشاهدٍ اليوم)..لا يدري لم أشاح بوجهه، ولكنه شعر بأنه يحتاج إلى بضع لحظاتٍ أخرى ليستعد .. نفث الهواء كمن يصفر دون صوتٍ مرتين قبل أن ينظر أمامه مباشرةً...

لم يدرِ كم مرَّ من الوقت وهو واقفٌ على هذه الحال من الجمود التام لا يأتي بحركةٍ ولا لفتةٍ ولا يحمل من ملامح الآدمية الحية إلا الدموع التي سالت على خديه في صمتٍ دون وعي، فلم يشعر بالطبيب حين غادر الحجرة، كما لم يشعر، في البداية، بالرجل الذي وقف بجانبه ملتزماً الصمت بدوره. تحدث فؤاد أخيراً دون أن يشيح ببصره عن جسد شقيقه الراقد بسكينةٍ وسط الأجهزة والمعدات والشاشات: «**ماذا كان نادر ليفعل لي لو كان مكاني يا خالي؟**».. لم يتلقَ الرد، وبصراحة لم يكن ينتظر واحداً على أي حال، إلا أنه التفت إلى خاله حين طال صمته سائلاً في توترٍ: «**أيجب أن ننقله إلى مشفىً آخر؟**». رد خاله

ببرودٍ وبنظرةٍ جامدةٍ: «**لِمَ لا تسأله ما التصرف الصحيح وماذا كان ليفعل لو كان مكانك حينما يفيق؟ هذا إن أفاق.**».. صُدم فؤاد من هجوم خاله عليه في مثل هكذا ظرف، كما ضايقته كثيراً كلماته قاتمة المعاني، فردَّ وهو ينظر مباشرةً في عيني خاله الضيقتين: «**لا تتحدث بهذا الأسلوب!! سيفيق بإذن الله، آسف لأنني سألتك، ولكن ظننت أن الظرف قد يجعلك..**»، قاطعه خاله منفعلاً: «**يجعلني ماذا؟!!! هه؟ ماذا ظننت؟ أنني سأربت على كتفك وأطيب خاطرك حتى تكف عن القلق؟ أكنتَ تظن هذا يا فؤاد بِكْ؟ انهار أخوك وسط أغرابٍ وهو يجاهد ليحافظ على مالك وابنتك وحياتك فيما أنت تسكر وتسهر، غير آبهٍ بمخلوقٍ غير نفسك، وتريدني أن أهدهد سيادتك وأن آسف لروحك المتألمة؟؟؟ حقاً يا أخي:(من اختشوا ماتوا) !!!**»... كان صوته الخافت العميق يحمل طبقات من الضيق والامتعاض والقرف. نعم، أراد أن يجرح فؤاد بكلامه وأن يجعله يعاني، فلم يكن يطيق الشاب باستهتاره ومشاكله وتواكله، لم يكن راضياً عنه شكلاً وموضوعاً ولطالما أخبر نادراً بهذا وكثيراً ما تباحثا في حاله وإلى أين يظن سيكون مآله، ولم يقتنع أبداً بتعليلات نادرٍ المتعاطفة، أو تهاونه في التعامل مع أخطاء فؤاد وعثراته، وكان نادر غالباً ما ينهي النقاش حين يشعر بعصبية خاله إزاء هذا الأمر بكلمةٍ أو دعابةٍ مفادها أن (لهذا خلق الأخ الأكبر، وأنت خير من يعرف يا خالي)،إذ كان حسَّاب الأخ الأصغر بين إخوته الأربعة وكان شقيقه الأكبر -الذي توفي شاباً فجأةً- كفيلهم ،إن صح التعبير، في كل شئون الحياة بعد وفاة والديه... تابع وهو يقرب وجهه من وجه ابن شقيقته وهو يضغط على أسنانه: «**أتستطيع أن تخبرني أين كنت فيما أخوك ينهار وينقله موظفوه إلى هنا؟ لا، بل هل تستطيع أن تخبرني أين كنت أمس، أو أول أمس؟ أو حتى الأسبوع الماضي؟ هل..**»، قاطعه فؤاد: «**و أين كنت أنت منذ أشهرٍ؟ أين تختفي كل فترة وأخرى؟ وكم غبت هذه المرة؟ أربعة أشهرٍ؟ أم...**»

« **بالله عليكما! ألا تخجلان من نفسيكما وأنتما تتشاجران ونادر ملقىً في الغرفة أمامكما بلا حراك؟!**»، التفتا ليجدا أميرة بعينيها المحمرتين وأنفها الزهري، تحدق فيهما بغضب، زامة شفتيها المختلجتين بشدةٍ، وتابعت: «**حتى في هذا**

الظرف لا تستطيعان أن تضعا خلافاتكما جانباً لنرى ماذا يمكن أن نفعل لنادرٍ؟ و الله حرامٌ عليكما ..»

نظر كل منهما للآخر ثم أشاح فؤاد بوجهه قائلاً لأميرة: «**متى جئتِ؟**»

«**أنا هنا منذ اتصل المكتب ليخبرنا بما حدث، واتصلت بك ولكن هاتفك كان مغلقاً طوال الوقت، وكذلك اتصلت بخالي فجاء بعد أربع ساعاتٍ كاملةٍ!!! لا أصدق هذا!! يعني حين يحدث مكروه لن نجد من نستجير به؟!**». نظر حساب إلى ابنة أخته وقال ممتعضاً: «**لا تكوني دراماتيكية، لقد جئت فور ما استطعت، ولو كنت جئت أبكرَ من هذا لما أحدث هذا فرقاً كبيراً، فاهدأي و دعينا نرى ماذا سنفعل الآن.**»

سألَت فؤاد: «**لم أفهم ما به يا فؤاد؟ هل تفكر في نقله لمشفىً آخر؟ ربما حتى، خارج مصر؟**»

ردَّ حسَّاب قبل أن يجيب فؤاد: «**وما الداعي لهذا؟ المشفى هنا على أعلى مستوىً، وصاحبها صديقٌ شخصيٌ لنادر.. كما أنه لم يمضِ عليه الكثير لنحكم بأنه لا يتحسن هنا، وبما أننا لا ندري بالتحديد ما به، فقد يكون في نقله خطرٌ عليه... لا، أنا أرى أن ننتظر قليلاً ونرى ما سيحدث خلال اليومين القادمين.**» مد يده في جيبه وأخرج علبة السجائر فقالت أميرة بسرعة: «**ألستَ صائماً؟**»، توقفت يده بالولاعة قبل أن تصل لطرف السيجارة المعلقة بشفته وقال ببساطةٍ : «**من في مثل سني لا يقوَ على الصيام يا عزيزتي.**»

علَّقت ساخرةً: «**ولكنه يقوَ على التدخين!! ألقِ السيجارة، فالتدخين ممنوعٌ هنا**». التفتت ثانيةً إلى فؤادٍ قائلةً قبل أن يرد خالها: «**هلا تأخذني للبيت يا فؤاد؟ لا أريد أن أطلب السائق فلن أحتمل ثرثرته، ولا أريد انتظاره حتى يأتي. أريد أن أغير ثيابي وأرتَاح قليلاً.**»، تابعت مشيرةً إلى نادر : «**مادامت حالته مستقرةً الآن، وخالي معه هنا، فلا داعي لبقائي طيلة الوقت.**»

رد خالها: «**ولكني لدي مصالحٌ ولن أبقى هنا .**»

قال فؤاد متنهداً وهو يمسك بمرفق أميرة: «**تعالي يا أميرة، سأعيدك إلى البيت وأعود مباشرةً.**»

تذكرت كلامها مع سامر، فابتلعت ريقها. إن كان هناك وقت مناسبٌ لتبديل الأدوار وإظهار اهتمامها بفؤاد، فلن يكون أنسب من الآن.. وقفت في مواجهته ووضعت يدها الصغيرة برقةٍ على ذراعه قائلةً برقةٍ: «**ولكني لا أريد أن أتركك وحدك هنا.. فأنت مرهقٌ للغاية وبحاجةٍ للراحة.. فإن بَقِيْتَ، فسأبقى أنا الأخرى. لن أدعك تُفطر وحدك يا فؤاد.**». رمقها حسَّاب بِحيرةٍ وقد انعقد حاجباه، بينما رد فؤاد ببساطةٍ: «**لا عليكِ، سأتصرف.. أصلاً لم أكن أدرك أننا في رمضان.**»«**بدأ اليوم يا فؤاد.**»

«**حقا؟ جيد جداً.. هيا لأُقِلَّكِ حتى ترتاحي قليلاً قبل المغرب.**»

استدار لخاله الذي كان منهمكاً في كتابة شيءٍ ما على شاشة هاتفه المحمول: «**أتحب أن أوصلك إلى مكان ما يا خالي؟**». رد حساب دون أن يرفع عينيه: «**لا شكراً، معي سيارتي.**».

«**حسنٌ، هيا بنا يا أميرة.**». صاحبهما الصمت المُثْقَل بالأفكار طوال طريقهما إلى السيارة وأكمل معهما قِطْعَاً لا بأس به من الرحلة إلى المنزل... كانت أفكار فؤادٍ تتخبط مترنحة بين جنبات عقله باحثةً عن أرضٍ صلبةٍ تستقر عليها لتخبره ما عليه أن يفعل الآن، وتحاول أن ترسم له بفرشاة مرتعشة صورة باهتة كئيبة عما سيكون عليه الحال فيما لو لم يُفِق نادر قريبا، أو أبداً.. زفر بحدةٍ وهو يضغط على دواسة البنزين، فيما ضغطت أميرة على جانبي كرسيها بقوةٍ مرتعدةٍ من السرعة التي يقود بها فؤاد سيارته، فقد كان لديها خوف قويٌّ من السرعة والسيارات عامةً، ولهذا فقد رفضت كل محاولات نادرٍ بإقناعها بتعلم القيادة وطلبت منه تعيين سائقٍ لها بدلاً من ذلك، وهذا ما نفذه هو بالطبع كعادته.. كانت تحاول أن تجد شيئاً تقوله لتخترق الشرنقة التي يحيط فؤاد بها نفسه، ولولا ذعرها الآن لأتت بألف فكرةٍ وفكرة...قالت أخيراً بأنفاسٍ متقطعةٍ: «**أيمكنك أن تهدئ السرعة قليلاً يا فؤاد؟**».

انتبه فؤاد من شروده ولاحظ شحوب وجهها، فخفف سرعته تدريجياً وقال معتذراً: «**آسف، فقد شردت قليلاً.**»

ردت بعذوبةٍ شديدةٍ: «**لا بأس، كان الله في عونك.. فألف أمرٍ وأمرٍ يشغلون بالك... ولكن لا تقلق على شهد، فلن أدعها تغيب عن نظري لحظةً واحدةً.. المسكينة، لابد أنها منهارةٌ الآن...يا حبيبتي..**»

كانت متأكدةٌ من أن الصغيرة لم تخطر لأبيها على بالٍ إطلاقاً، وأكد ظنَّها نظرةُ الضياعِ والدهشة التي لاحت في عيني فؤاد حين ذكرت ابنته، إلا أنه تدارك قائلاً بسرعةٍ: «**طبعاً بالتأكيد...**»، وتابع بمرارةٍ: «**فعلاً مسكينة، خسرت أمها العام الماضي، واليوم خسرت أباها، فلو مِتُّ أنا، فلن ينقصها شيءٌ في وجود نادر، أما لو أصاب نادراً مكروهٌ فستكون فعلاً يتيمةً..**»

هزتها كلماته وتأثرت من نبرته الحزينة وأفكاره ... لم تستطع تخيل فكرة موت نادرٍ، فسحبت عدة أنفاسٍ قصيرةٍ لتمنع دموع قلبها من أن تنهمر لنادرٍ أمام فؤاد، فلابد الآن أن تتعاطف مع فؤاد... أن تنجذب لفؤاد... أن تحب فؤاد.... أن تتزوج... فؤاد....أخذت نفساً آخر عميقاً وقالت وهي لا تبتدع التأثر الحي في صوتها فيما مدت يداً لتربت علي يده الممسكة بالمقود: «**لا تتكلم بمثل هذا يا فؤاد.. ابنتك تحبك ومهما كان ما يقدمه لها نادر، فستظل أنت أباها.**» صمتت لترى أن كلامها قد أثر به، فسحبت يدها ونظرت على يديها اللتين رقدتا بخفة في حجرها وتابعت بصوتٍ تعمدت ألا يسمع بعض حروفه لتجذب انتباهه: «**ثم من قال لك أن لا أحد يأبه إن أصابك مكروه؟**». لم يسمعها فؤاد فلم يعلق، تنهدت و بقيا صامتين حتى وصلا البيت....



لم يكن الأسبوع الأول من الشهر الكريم سهلاً على الإطلاق، وكان الجوع والعطش هما أرحم الأحاسيس بمهرةٍ وسط كل الضغوط والظروف الغريبة والمرهِقة المحيطة بها والتي تراوحت ما بين تركها لبيتها ولإخوتها

لفترات أطول مما اعتادت ما أدى لتذمرهما كثيراً، وبين اكتئاب شهدٍ وتوترها وارتباطها بها أكثرَ فأكثر، وبين تركِها لتلاميذها الآخرين وقلقها من فقدانهم لعدم التزامها معهم.... وبين الأوضاع والأجواء العجيبة لبيت الصغيرة، برغم حرصها على الابتعاد عن كل ما هو هناك، وتركيز كل طاقتها ومجهودها للاهتمام بشهدٍ والتخفيف عنها... وأخيراً، و فوق كل شيءٍ، قلقها على طارقٍ الذي لم يتصل بها أو يرد على اتصالاتها المتكررة منذ أكثر من شهرين..

كانت أعصابها على شفير تلك الهاوية التي اعتادتها، تدفعها إليها كل المشاعر السلبية المحيطة، وكان الوقت خصماً عتيداً، فمع مرور كل يومٍ دون تقدمٍ في حالة السيد نادر الصحية أو بزوغ أي بادرة أملٍ للتحسن كانتً حدة التوتّر في البيت تزداد وتيرتها.... كان بيتاً لم تفهم كيف يدار ومن المسئول وماذا يحدث ومَن خَيِّرٌ ومَن ليس كذلك... كان من الصعب جداً أن تفهم نوايا المحيطين وكلامهم وكأن الجميع شركاء في لعبة أحاجٍ سخيفةٍ، فكل عبارةٍ تحمل أكثر من معنىً، وكل كلمةٍ فحواها لا يتناسب مع تعبير وجه قائلها....ولكنَّ هذا لم يستطع أن يحول دون أن تُكوِّنَ مجموعةً من الانطباعات عن قاطنِيه.. فقد ارتابت من الرجل العجوز قليل الكلام والذي لم يتحدث إليها مطلقا، بل كان يكتفي بإيماءةٍ مهذبةٍ تعبيراً عن أي تحيةٍ لازمة علي شاكلة «إيماءة» صباح الخير و «إيماءة» مساء الخير.... كان الجميع يناديه بـ «**خالي**»، ولكنه كان يبدو دائماً ممتعضاً ويتحدث إليهم بضيقٍ ظاهرٍ... اعتادت على حواراته الصاخبة مع السيد فؤاد، والد شهد، والذي اعتبرته قصةً قائمةً بذاتها... فلم تره إلا وهو بصحبة أميرة حين مغادرتها لبيتها أو قبل ذلك بقليلٍ.. لم تضبطه يتحدث مع شهد أو عنها، ولم تره يداعب الصغيرة حتى وإن جمعتهما (الصدفة) في مكانٍ واحدٍ، فكان يتجاهل الصغيرة المسكينة تماماً وكأنه لا يعرفها أو يتعمد تجنبها!! والعجيب أن الصغيرة لم تأت على ذكره معها إلا عندما كانت تذكر والدتها، فكان ذكره لا يتعدى:(كُنَّا أنا ومامي وبابي نفعل كذا أو نذهب إلى ذاك المكان) ... لم تتحدث هي إليه إلا مرةً واحدةً التقته فيها صدفةً عند أسفل الدرج حين كانت تهم بالعودة إلى بيتها، فحَيته حينها ووجدت من الأدب أن تسأله عن

حال شقيقه، فكان رده ساخراً لاذعاً، بأن عليها أن تسأل السيد حسَّاب، فهو يعرف كل شيءٍ وهو عراب نادر الوحيد، ثم تركها وسط صدمتها وصعد الدرج وثباً.....

وبالطبع هناك أميرة، وانطباعها القديم عنها والذي لا يعد جيداً على الإطلاق مُذ ذاك الموقف في غرفة شهد.... وعلى الرغم من تعمد كلٍّ منهما تجنب الأخرى، إلا أنهما التقتا في مراتٍ عدةٍ تبادلتا خلالها نظرات التجاهل وكلتاهما تظاهرت وكأن الأخرى لا وجود لها...إلا أن هذا لم يحل دون رصدها، بعين الأنثى، اهتماماً زائداً من قِبَلِ أميرة بفؤاد، في المرات القليلة التي قابلتهم بها أو حين كانوا يدعونها لاحتساء الشاي معهم بعد الإفطار، رغم انصراف الأخير عنها، ما لم يمنع أميرة من التودد إليه بالسؤال عَمَّ تناول من طعامِ ليلة الأمس بالمشفى، أو الإشارة إلى مدى تعبه واحتياجه للراحة مترصدةً الفرصة لملامسته بطريقةٍ لا تفهمها إلا امرأة مثلها... وكل هذا تحت مرأىً ومسمعٍ من شقيقها سامر..... وهذا الأخير يُعَدُّ ظاهرةً كونيةً فريدةً بالنسبة إليها... ففي أسلوبه نعومةٌ واهتمامٌ يجعلان التحدث إليه يصيبها بقشعريرةٍ لا تدري لها سبباً، ولكنها وجدت في هدوئه وتركيزه ما يذكرها بنعومة الحَيَّة، وفي نظراته عمقٌ شديدٌ يخيفها ويشعرها بقدرته على اختراق روحها وسبر أغوارها بسهولةٍ بالغةٍ.... كان كل ما تبادلاه، عباراتٍ بسيطةٍ في مواضيع عامةٍ، ولكنها شعرت بعدم ارتياحٍ لا تدري من أين أتاها، جعلها تتجنب لقاءه وتتحاشى نظراتِه.....

ثم هناك آدم الذي ذكرها بحاجب الملك أو كاتم السر في الروايات التاريخية..... نحيلٌ طويلٌ أبيضَ الشعرِ، وذُو أدب جَمٍّ.. لا يتكلم أبداً إلا ليقول: «**نعم**»، «**أمرك**» أو «**حاضر**».... كان لديه موهبةٌ فذةٌ في ضبط زوجته كريمة، أو «**كيما**» كما اعتادت شهد مناداتها، وهي تثرثر فيما يراه لا يخصها.... كانا مختلفين طَبْعاً بقدر حبهما وارتباطهما ببعضهما البعض، وكانت تكتم ضحكتها كلما احمر وجه كريمة لدى زجر آدم لها لتقطع الحديث في شئون أهل البيت والتي كانت تغمر بها مهرة كلما لقيتها.....

جلست تقلب صفحات المجلة التي جلبتها لها كريمة حين وجدتها جالسةً لا تفعل شيئاً في غرفة الصغيرة التي كانت تحظى بقيلولةٍ هادئةٍ في جو غرفتها الوردي اللطيف حيث لوَّنت الستائرُ الوردية المنسدلة أشعةَ الشمس الحانية لتغمر الغرفة بظلال زهرية رومانسية سَكَّنَت أعصابها المتألمة وحملت خيالاتها لآفاق بعيدة... سرحت بفكرها إلى حيث تلك الأماكن التي تطالعها بين الصفحات اللامعة، فهناك تحت نخيل جوز الهند في أحضان الكاريبي، رأت نفسها مسترخيةً بتكاسلٍ على أحد الكراسي الخشبية، تمسك بيدها كأس عصيرٍ استوائي ترشفه باستمتاعٍ مرتديةً بكل ثقةٍ و اعتدادٍ قطعةً من القماش الملون.. ابتسمت لنفسها، فهي لَن تلبس مثل هذا أبداً، ولو بعد مائة عام، في مكانٍ مفتوحٍ... قلبت الصفحة، لتنتقل بهذه الحركة البسيطة من الهدوء التّام لأمواج الكاريبي الناعمة إلى صخب الأضواء والشهرة، فهنا ترتدي ثوباً من الأبيض و الأسود بخطوط حادة صريحة و تفصيلة دقيقة تبرز جمال تكوينها وهي تقف بخيلاء على درجاتٍ رخاميةٍ سوداء على جانبيها إفريزٌ عاجيٌّ ضخمٌ، تلفها الأضواء وتغمرها عدسات المصورين بومضاتها الخاطفة. ياله من إحساسٍ رائع بالقوةِ والجمالِ!! تنهدت وهي تقلب الصفحة لتتلقى الضربة الموجعة، فأمامها تقف عارضةٌ في أروع فستان زفافٍ رأته عيناها على الإطلاق...كان بسيطاً، وإنما ساحرٌ في كل تفاصيله: (يا إلهي!! ما أجمله!). تساءلت إن كانت سترتدي يوم عرسها شيئاً بمثل هذه الرقة والروعة... سخرت من نفسها، فمع انقطاع طارقٍ عنها باتت تشك في أنها سترتدي ثوبَ عرسٍ من الأساس...

غص حلقها وابتلعت ريقها وهي تحاول أن تداوي جرح كرامتها الغائر. إن كان طارقٌ قد قرر عدم الاستمرار معها، فعلى الأقل، كان امتلك من النزاهة والأدب ما يجعله يخبرها بذلك إن لم يكن وجهاً لوجهٍ، فعلى الهاتف... أليس من المفترض أن يراعي عشرتها وأن يحفظ لها كرامتها؟! أم ربما كان محرجاً منها لدرجة أنه لا يقوى على مواجهتها ولو عبر أسلاك الهاتف؟! تملكها إحساسٌ بالكآبةِ وهي تتخيل حياتها المقبلة بدون طارقٍ وخاتمه الذي يعانق إصبعها بتواضعٍ منذ سنواتٍ...كانت خلال أفكارها تلف خاتم خطبتها وتعبث به لا

شعورياً وقد فقدت تماماً الرغبة في مطالعة المجلة التي لازالت تتبجح أمامها بالثوب ذي القماش الناعم المخرم.. أغلقتها وألقتها إلى جانبها وهي تتساءل: (هل يجب أن أخلع خاتم طارق الآن أم أنتظر لمدةٍ أطول؟! وماذا سأجني إن خلعته؟ فلربما بقاؤه في إصبعي يمنحني أملاً للاستمرار. أو ربما إن خلعته حررت نفسي من وهمٍ يشدني إلى أعماق الحزن والكآبة، فبالتأكيد سأحزن وقد أنهار إن انفصلت عن طارق، ولكن ربما سأتمكن من تمالك نفسي وأستمر دون الشعور بالانتظار لشيءٍ يبدو وكأنه لن يحدث.. لا، ربما علي التريُّث قليلاً، فعلى كل الأحوال، إن وقع ما أخشى وفسخت خطبتي مع طارق فلن أفكر أبداً ثانيةً في الارتباط بأي شابٍ، فكفاني ألماً، لذا، فلا فائدة إذاً من خلع الخاتم؟ على الأقل يمكنني استخدامه لتفادي تقدم أحدهم لي. أوه، نعم، وكأن الخطاب يقفون بالطوابير على بابي.) .. لا تدري لم كانت تعذب نفسها وتتعمد تجريحها؟ .. أخيراً حسمت أمرها، أمسكت هاتفها المحمول واتصلت بالرقم الذي حدثها منه في أول أيام سفره، فإن لم تتمكن من التحدث إليه أو حتى الوصول إلى خيط يوصلها إليه فستخبر محدثها بإبلاغه قرار إنهاء ما بينهما.. رنين الجرس لدى الطرف الآخر جعلها تقطع الاتصال بسرعةٍ، فماذا إن كان هذا بالتحديد ما ينتظره طارق؟ وماذا إن كان؟ هل تقبل أن تبقى مرتبطةً برجلٍ يتحين الفرصة ليتركها؟ أين كرامتها؟ وهل هناك كرامةٌ في منحه فرصة تركها حتى دون توضيح؟ لا، إن كان محرجاً و متأزماً من كيفية إخبارها بانتهاء ما بينهما فلتدعه يتعذب أكثر...

كانت بلا وعي تمنح نفسها قليلاً من الأمل والدافع للاستمرار ربما لفترةٍ أطولَ ولو كان هذاً الأمل ساذجاً هزيلاً... تنهدت وهي تنظر إلى ساعة يدها ثم انتفضت واقفة، لقد جرفتها أفكارها بعيداً فلم تلحظ الوقت الذي مضى بسرعةٍ متجاوزاً وقت إيقاظِ شهدٍ..

أصواتٌ مبهمةٌ آتيةٌ من بعيدٍ... بردٌ شديدٌ يغمر الأوصال.. دقاتٌ منتظمةٌ كالساعة تضرب الأذن.. رائحة كرائحة الدواء وشيءٍ آخر نَفَّاذٍ تزكم الأنف..

ضوءٌ شديدٌ يُشع في الوجه... الهواء مُشَبَّعٌ بطعم غريبٍ... هناك لمساتٌ عديدةٌ، أحيانا خفيفةٍ كلمسة ريشةٍ تمر برقةٍ على باطّن قدميه، وأوقاتٌ أخرى مؤلمةٌ كخيط نارٍ يخترق ذراعيه.. أراد أن يبعد قدمه أو يسحب ذراعه بعيداً، أن يتأوه .. حاول أن يفتح فمه ليطلب من آدم غطاءً، إلا أن لسانه أبى أن يطيعه، وأطرافه رفضت الانصياع لرغباته.. كان حلقه جافاً وشعر بشفتيه منفرجتين وأسنانه تعض على شيءٍ بلاستيكيٍّ... لا يفهم شيئا مما يجري ولكنه غير مرتاح على الإطلاق... تعالت الأصوات من حوله ولمسات باردة على عنقه وجبينه وذراعيه نبهته بحدةٍ... صرخ بكل ما أوتي من قوة فخرجت صرخته وَهِنةً كقواه، لا تتعدى الأَنَّة الخافتة..

سمع اسمه يُنادى مراراً، وشعر بجفنيه يفتحان وضوءٌ قويٌ يضربهما ذهاباً وإياباً... كرر الصوت غير المألوف اسمه ثانية، ولكنه لم يستطع رداً رغم محاولاته... سمع كلماتٍ لم يستوعب منها شيئاً، فذهنه كان مشوشاً بشدةٍ وعقله يطن كالآلة دون فائدةٍ جناها.. شعر بالإعياء فتوقف عن المحاولة تماماً و استسلم لسُباتٍ عميقٍ..

« **ماذا الآن يا دكتور؟**» سألت الممرضة بهدوءٍ وهي تتمم على وضعية نادرٍ والأجهزة الموصلة بجسده. رد الطبيب: «**ما حدث إشارةً جيدةً جداً على تحسن حالته، و لكن دعينا ننتظر قليلاً قبل إخبار عائلته، فربما بقي على هذه الحال أسابيع.. ولا نريد أن نمنحهم أملاً قد يحبطون أو يثورون علينا إن خاب.. هم الآن يتوقعون الأسوأ.. فلننتظر ونرى كيف ستتطور الحالة خلال اليومين القادمين... فإن تابع التحسن أخبرناهم... تمام؟**»

« **نعم دكتور.. معك حق**»

قال ضاحكاً وهو يغادر الغرفة: «**بالطبع معي حق..**»

ضحكت بدورها وتبعته خارجاً مغلقةً باب الحجرة على نادرٍ النائم...



«**هل تريدين كوباً من الشاي يا مس مهرة قبل أن تغادري؟ تبدين مرهقةً، ولم يعجبني أنك تركت طعام إفطارك كما هو... ستتعبين بسرعة ولن تقدري على الصيام بهذه الطريقة.**»

كانتا أسفل الدرج الرخامي الضخم ومهرة تعدل وضع حقيبتها وتتأكد من حسن هندامها وإحكام أزرار معطفها الأخضر. همت بالانصراف وهي ترد بلطفٍ على كريمةٍ التي تطالعها بإشفاقٍ: «**لا يا كريمة، شكراً يا عزيزتي.. لقد تأخرت بالفعل على إخوتي الليلة.. لابد أن أعود بسرعةٍ..**».

ابتسمت كريمة بتعاطفٍ وهي تراقب الفتاة المسكينة التي تكدح على أخويها في مثل سنها الصغيرة.. لو كانت رزقت بابنةٍ، لتمنت لو كانت في دماثة أخلاق مهرةٍ وطيبتها، فالفترة التي قضتها هنا في الفيلا وفنجان الشاي الذي كان يجمعهما تقريباً كل يوم بعد الغروب، فيما الصغيرة تلهو بدُمَاها حولهما، جعلاها تتعرف إلى الفتاة الشابة أكثر فأكثر وإلى أسرتها وظروفها.. تعجبت لتصاريف الزمن، فهي وآدم لديهما ما يمكنهما من التكفل بأسرتين كأسرة مهرة وربما أكثر، فيما تجاهد شابةُ في مقتبل العمر لتعيل بالكاد فردين، دون أمٍّ أو أبٍ!!! تنهدت وحمدت الله في سرها على وجود نادرٍ وفؤاد في حياتها، فيما

لمحت بطرف عينيها ظل فؤادٍ يهبط الدرج مسرعاً فقالت رافعةً صوتها قليلاً: «**على الأقل دعي السائق يوصلك، فالظلام لا يرحم وأنا قلقةٌ عليكِ.**»

وصل فؤاد حيث هما، فتوقف ليحييهما قبل أن ينطلق إلى المشفى التي صار يقضي بها ليله ونهاره...

«مساء الخير يا كريمة، مساء الخير يا مس مهرة..» نظر حوله بسرعه مستطرداً: «**أين شهد، هل نامت؟**»

ردت مهرة بأدبٍ: « **نعم يا سيد فؤاد، في سابع نومةٍ... طفلةٌ رائعةٌ، بارك الله لك فيها.**». ابتسم وأومأ مستأذناً المرأتين. هَمَّ بالمغادرة فاستوقفته كريمة قائلةً بسرعةٍ: «**كنت أطلب من الآنسة مهرة أن تسمح للسائق بإيصالها لأ ..**» ، قاطعتها مهرة : «**صدقيني ليس الوقت متأخراً فعلاً.. لا داعي لإرسال سائقٍ مخصوصٍ معي، عن إذنكما .**»...

قال فؤاد ببساطة: «**السائق مع أميرة يا كريمة من بعد الإفطار.**»، استدار مكملاً وهو يوجه كلامه لمهرة بأدبٍ شديدٍ فرضته عليه تربيته الراقية التي تنتهز الفرصة لتطل برأسها بزهو وسحرٍ فَتِيٍّ يشع من عينيه حين تغيب غيوم الخمر عن رأسه: «**ولكن يسعدني كثيراً أن أوصل الآنسة في طريقي إذا سمحت لي.**».

ارتبكت مهرة كثيراً فيما ابتسمت كريمة بسعادةٍ شديدةٍ وهي تجيب حتى لا تُمَكِّنَ مهرة من الاعتراض: «**و الله حلٌ ممتازٌ يا سيد فؤاد، تصبحان على خير.**». تركتهما منصرفةً إلى المطبخ، فيما وقفت مهرة تلعب بأصابعها كالطفلة وفؤاد يراقبها في صمت.. قال بعد لحظاتٍ مشيراً بيده نحو الباب: «**هلا تفضلتِ يا آنسة.**»..

تقدمته بخطواتٍ مرتبكةٍ متعثرةٍ وفي رأسها ألف فكرةٍ وفكرةٍ.. لم تتحدث مع فؤاد لأكثر من دقيقتين من قبل، وليس انطباعها عنه، لنقل، في صفه، فانشغاله عن طفلته الوحيدة التي فقدت أمها و لم يعد لديها في الحياة ما تتمسك به سواه، بالإضافة إلى ما ذكرته لها كريمة عَرَضا أثناء ثرثرتها عن سهره

وسكره، كل هذا جعلها تقلل من شانه وربما تحتقره... والآن عليها أن تركب معه سيارته وحدهما ليوصلها إلى بيتها في ذلك الحي الشعبي الذي لن تنطفئ فيه نار الإشاعات عنها إن اشتعلت، وأي سببٍ أفضل قد تعطيه لجيرانها من عودتها مع ذلك الشاب الثري بسيارته الفاخرة بعد الكثير من الليالي التي تأخرت فيها عن ميعاد عودتها المعتاد.. ولأنها كانت كالكتاب المغلق مع أهل منطقتها، لتحابي على أخيها وأختها، وتقلل احتكاكهم بالخارج قدر الإمكان خوفاً عليهما ومن تدخل الغير في حياتها، فلن تجد من يمتنع من الثرثرة والتسامر بشأنها... لن تستطيع أن تسمح بهذا، لذا توقفت أسفل الدرجات الرخامية اللامعة خارج الفيلا قائلةً بأدب إنما بحزم، فيما كان فؤاد يدور حول سيارته السوداء المتوقفة بجلالٍ، لامعةٌ كالجوهرةِ برُقِيٍّ تحت ضوء القمر ليفتح لها الباب: «**متأسفةٌ يا سيد فؤاد، ولكني لن أستطيع ان أركب، فلدي الكثير من المشاوير التي علي أن أقضيها قبل العودة للبيت.**»

فتح باب السيارة وقال مبتسماً بهدوءٍ وهو يشير إلى المقعد بأناقةٍ: «**لا بأس، سأوصلك إلى أولها، و تَوَلّي أنتِ أمر الباقي.**»

لم تجد شيئاً معقولاً لتقول أو تفعل، إلا تقدمها بخطى مترددةٍ لتجلس بهدوءٍ حيث أشار، بينما بقي واقفاً ممسكاً بالباب حتى استوت على مقعدها فأغلق بابها برفقٍ واستدار ليجلس خلف المقود مديراً محرك السيارة الذي هدر بشموخٍ قبل أن ينطلق بها بسلاسةٍ وهدوءٍ مستديراً حول أحواض النباتات النادرةً التي أبدعت لوحةً فاتنةً تحت أضواء الحديقة الخافتة وضوء القمر الفضِّيّ النقي... و ما أن خرجا من البوابة حتى تطاير الهدوء وذهب أدراج الرياح والسيارة تطوي الطريق بسرعةٍ جنونيةٍ.... حسنٌ، ستضيف إلى قائمة مساوئه رعونته في القيادة.. مرت صفوف الأشجار كالأشباح سريعةً قاتمةً ما أصاب مهرة بقشعريرةٍ خفيفةٍ جعلتها تشيح ببصرها وتكف عن محاولة التمتع بالمناظر من حولها.. أخذت تتأمل السيارة وقائدها. لا تعرف الكثير عن السيارات ولكن هذه السيارة بدت لها ككابينة طائرة بكل عداداتها وأزرارها

ولوحاتها المضيئة على تابلوه أسودٍ لامعٍ أنيقٍ، وكذلك هذه الكراسي الأنيقة بدقةٍ وبساطةٍ وملمس جلدها الأسود و الأحمرَ الناعم تحت أصابعها والذي كان دافئاً بفعل تكييف السيارةِ الدافئ الذي جعلها بعد دقائق قليلة تفتح أزرار معطفها القديم لتشعر براحةٍ أكبرَ واسترخاءٍ لذيذٍ. كل هذا جعلها تدرك أن ركوبها اليوم مصادفة مع فؤاد هو من أهم الأحداث التي قد تحدث في حياتها، والتي بالقطع لن تتكرر أبداً.. لامست نظراتها الفاحصة، الشاردة تلقائياً، جانب وجه فؤادٍ الذي بدا مسترخياً هادئاً يحرك يديه على مقود السيارة وناقل السرعة بسلاسةٍ ونعومةٍ كمن يداعب هرةٍ ويدللها. ملامحه وسيمةٌ بشكلٍ معقولٍ والثراء الذي تتحدث به ساعته وأصابعه المنمقة الراقية، ومعطفه الملقى على حجره، ناسبه تماما، و كأن للعِزِّ أناساً خُلِقوا له وخُلِق لهم.....لا شعورياً قارنت بين صورة فؤاد التي تليق بصفحات المجلات العالمية، كتلك التي تركتها لها كريمة في غرفة شهد، وبين طارقٍ وهو يجاهد ليدير عجلة القيادة أو يزيح ناقل السرعة في سيارته اللادا الصفراء والتي يُكَوِّنُ الغبار جزءاً أساسياً من تكوينها وشخصيتها... تعلم أنها مقارنةٌ غير عادلةٍ على كل الأصعدة، ولكن هل عليها أن تكون عادلةً بعد كل ما مرت، ولازالت تمر، به من إحباطاتٍ وأزماتٍ.. التفاتة فؤادٍ المفاجئة إليها أجفلتها فحولت نظرها إلى الشباك لتبدو وكأنها منشغلةٌ بالمناظر حولها ولكنها أدركت بأن توقيتها كان متأخراً وبأنه لاحظ تحديقها الفج به فأغمضت عينيها بشدةٍ ثم ابتسمت له متنهدةً بحرجٍ شديدٍ واعتذارٍ صامتٍ...فتحت فاها لتقول أي شيءٍ لتلطيف اللحظة إلا أنه بادرها ببساطةٍ: «**أعتذر لشرودي، لابد أنك تحدثين نفسك الآن بأنني أكثر من قابلت قلة ذوقٍ ولياقة..**».

كذبت: «**لا، على الإطلاق يا سيد فؤاد، فيكفي أنك تكبدت عناء إيصالي لمنزلي فيما لديك من المشاغل ما يكفيك. في الواقع أنا شاكرةٌ لك جداً..**»

«**أنا من يجب أن يكون ممتناً لك كثيراً يا مس مهرة، فما تفعلينه مع شهد مجهودٌ كبيرٌ وأنا متأكدٌ من أن هذا قد أثر على حياتك الشخصية كثيراً. أليس كذلك؟**».

كذبت ثانية بأدب: «**إطلاقاً يا سيد فؤاد.**». ابتسم لها فتابعت: «**ليس لدي شيءٌ مهمٌ أكثر من تلاميذي، و بالأخص من شهد..**». نظر إليها بجانب عينه مطولاً هذه المرة فابتلعت ريقها ونظرت أمامها لتتفاجأ بأنهما قد وصلا وسط زحام القاهرة الخانق دون أن تشعر بالوقت أو الضجيج الذي يفيض في طرقات العاصمة في هذه الساعة المتأخرة من ليل شهر رمضان.. نظرت إلى ساعتها فوجدت أن الليل قد انتصف فرفعت رأسها بأسىً، إذ ستنتظرها حفلةٌ من عروض المآسي الكبرى، التي يجيدها أخواها إجادةً تامةً، وسينتهي الليل باعتذارها منهما وإرسالهما إلى فراشيهما ضجِرَين مع وعدٍ جديدٍ منها بتعويضهما عن هذا اليوم كيفما يُقرران... ولأنهما يدركان أن هذه الوعود جوفاء، فلا هما سيطلبان منها ما يفوق قدرتها، ولا هي ستتمكن من فعل أي شيءٍ جديدٍ مبهرٍ لهما وإن كان بسيطاً كنزهة أو ما شابه، لضيق وقتها حيث تعمل شتاءً وصيفاً لتغطي مصروفاتهم ثلاثتهم....

«**إلى أين؟**»

انتبهت فردَّت ببساطة: «**لا شيء، فقط شردت في أخوي.. لا شيء.**»

صمت فؤادٌ لحظاتٍ ولاحت على شفتيه ابتسامةٌ خفيفةٌ وهو يقول موضحاً: «**كنت أسأل عن المكان الذي تريدينني أن أوصلك إليه..**».

(بالطبع أيتها السخيفة، يالك من غبية) ردت وهي تخرج كل توترها في قبضتها التي كانت تعتصر أصابعها بشدة ليخرج صوتها متقطعاً تماماً عكس ما أرادت: «آآآآ...» هزت رأسها: «**أمممم..**» أخذت تفتح فمها وتغلقه كالسمكة دون أن تقول شيئاً.. (يا إلهي!!!!!) ابتلعت ريقها وهي تسمع الضحكة الخافتة التي خرجت من حلق فؤاد الذي سألها وهو يقف إلى جانب الطريق: «**هل نسيتِ المشاوير التي ستذهبين إليها؟ أم غيرتِ رأيكِ وتودِّين أن أُوْصِلَكِ للبيت؟**».. كان يرتكن بمرفقه إلى الباب وهو ينظر إليها بتركيز...قالت وعدم ارتياحٍ غريبٍ يدبُّ في أوصالها: «**لا لم أنسَ.. فقط كنتُ أرتب أولوياتي، فقد تأخر الوقتَ أكثر مما توقعت وسأضطر لتأجيل بعض المشاوير، ولهذا كنت فقط أفكر أين علي أن**

أذهب الآن.. هذا كل شيءٍ.».. تأهبت للرد بكل حزمٍ وَحِدَّةٍ إذْ توقعت أن يتسلى بإحراجها مثلما يفعل ابن خالته سامر كلما سنحتً له الفرصة، فيبدو أن أبناء هذه الطبقة يتخذون مثيلاتها دمىً لا قيمة لمشاعرهن ولا احترام لآدميتهن، ولكن لدهشتها اعتدل فؤاد في مقعده وعدَّل ناقل السرعة لتتحرك السيارة نحو نهر الشارع سائلاً بكل أدبٍ: «**إذاً إلى أين يا مس مهرة؟**».

قالت وهي تنظر إلى أظافرها: «**العتبة..**» صمتت وقد احمرت وجنتاها لتخيلها ما سيحدث به نفسه، فكيف سينزل بمثل هذه السيارة الفخمة إلى مكان شعبيٍّ فقيرٍ كهذا؟ هل سيخمن بأنها تقطن أحد تلك الأحياء الفقيرة وأنها تتكبد مشقة الطريق الطويل الذي يضاهي السفر مشقةً لترعى ابنته؟ انتظرت أن يعلق ولكنه لم يتفوه ببنت شفةٍ، فقط، قاد السيارة في صمتٍ وهدوءٍ.... بقيا على هذه الحال من الصمت المُحَبَّبِ، ما أرخى أعصابها ثانيةً وجعلها تسرح في الناس والمحال... تُرى كيف يراها المارة الآن وماذا يظنونها؟ ابتسمت لنفسها، فبالتأكيد سيحسدونها على كونها الأخت أو الزوجة الثرية...

تنفست بعمقٍ فنظر إليها فؤاد ثم عاد ونظر إلى الطريق أمامه، فهو لا يريد أن يزعجها كما حدث منذ قليل.. لم يدر ماذا فعل ليضايقها! ولكنه رأى أن من اللائق أن يتجنب استفزازها أو فعل أيا ما تظن أنه يحاول فعله...أشفق على هذه المسكينة في هذا الشتاء البارد أن تضطر للمشي مسافةٍ، بالتأكيد ليست بالقصيرة، لتعود لبيتها، فرغم الإضاءة الخافتة داخل السيارة والتي كان مصدرها أعمدة الإنارة وأضواء السيارات والمحال، فقد لاحظ احمرار وجنتيها لدى ذكر وجهتها ما أكد له بأنها تسكن قريباً من المنطقة حيث أرادته أن ينزلها.. أخذ يفكر كيف يعرض عليها أن يوصلها لباب بيتها دون أن يمس مشاعرها وكبرياءها.. ألقى الطرف نحوها فوجدها غارقة في أفكارها.. حسنٌ، سيعرض عليها إيصالها، فلن يستطيع أن يتركها–وهي التي تأخرت لأجل أن ترعى ابنته– لتكون عرضةً لأن تتأذى، فقال بتلقائيةٍ آملاً أن تتقبل عرضه ببساطةٍ: «**رجاءً دعيني أوصلكِ لبيتكِ يا مس مهرة، فالوقت متأخرٌ لشابةٍ**

مثلك لتجول وحدها، ولن آمن عليكِ ولن يهدأ بالي حتى أتأكد من وصولكِ لبيتكِ سالمةً.. فما رأيكِ؟ فلتنتظر المشاوي..»

قاطعه رنين هاتفه المحمول، فالتقطه من التابلوه بلهفة ونظر إلى رقم المتصل ثم رد فوراً: «**أميرة!! ما الأخبار؟ هل أنت في البيت أم لا زل....**»... صمت هو يستمع إليها فيما جفَّ حلق مهرةٍ بشدةٍ حتى بات ابتلاع ريقها مؤلماً وهي ترى الدموع تلمع في عيني فؤاد..(لابد أن شقيقه قد.. يا إلهي).

«**أنا في طريقي إليك.. مسافة الطريق.**»

سألت فور ما أغلق الخط: «**خيراً يا سيد فؤاد؟ هل السيد نادر بخير؟**»

كان أثناء ذلك قد توقف على جانب الطريق و استند برأسه على يديه اللتين أمسكتا بمقود السيارة بقوةٍ حتى ابيضت سُلَّمِيَّاتِهِمَا.. لم يرد فوراً، وإنما بعد لحظاتٍ استغرقها ليستجمع أنفاسه، ابتسم لها بإشراقٍ قائلاً بسعادةٍ غامرةٍ: «**أنت وجه الخير يا مس مهرة.. لقد أفاق نادر..**». أدار عينيه إلى الطريق وتحرك بالسيارة فقالت مهرة بسرعةٍ: «**سأنزل هنا يا سيد فؤاد، صدقني هذا قريبٌ جداً من وجهتي.. عليك أن تذهب حالاً إلى المشفى فلا تشغل بالك بي.**»

رد دون أن ينظر إليها أو يخفض من سرعته: «**بالطبع لن أدعكِ هكذا في منتصف الطريق.**». علقت بصدقٍ: «**لا يا سيد فؤاد، لست في منتصف الطريق، ولكن أرجوك فعلاً لديك ما هو أهم ولن أدعك تعطل نفسك عن الذهاب لشقيقك المريض لتوصلني.**». دارَ بالسيارة عائداً بشكلٍ حادٍ مخلفاً وراءه موجةً من الصياح والسباب ونفير أبواق السيارات، ودون مبالاةٍ بكل هذا قال ببساطةٍ وابتسامته لم تفارق وجهه: «**الحقُّ معكِ. ليس هناك من سببٍ لأتأخر، ستأتين معي ومن هناك سيوصلك السائق إلى بيتك.**». تجمد لسانها من المفاجأة، وأرادت أن تعترض، لكنه كان قد غير اتجاهه بالفعل، وبصراحةٍ لم تجد لا الظرف ولا الوقت مناسبَان للجدل، فما حدث قد حدث وقد تأخرت كثيراً بالفعل ولن تنفعها النصفُ ساعةٍ أو الساعةِ التي ستوفرها إن نزلت الآن على أي حال...

كان فؤاد ينطلق بسرعةٍ مرعبةٍ بعدما تحرر من زحام طرقات العاصمة، وكل ما كان يشغل فكره هو أن يكون إلى جوار نادرٍ في أقرب وقتٍ، فإن لم يكن متواجداً بجواره حين انهار، فعلى الأقل لابد أن يشعره بأنه لن يتركه ولو للحظة منذ الآن وصاعداً.. كان صوت ضربات قلبه عالٍ حتى ظن أن بإمكان مهرة سماعه.. (الحمد لله... يا لكرمك يا رب.. الحمد لله.. أجل، هذا هو نادر، لم ولن يتخلى عني أبداً... كنت أشعر والله.. الحمد لله.. هيا، هيا.. تباً! لمَ طال الطريق هكذا؟!!!).. داس بقوةٍ على دواسة البنزين فزمجرت السيارة وانطلقت بسرعةٍ أكبر منصاعةً لقائدها الذي تملكته موجة النشوة والفرح بحيث نسي تماماً أمر الشابة التي تجمدت بجواره، ليس من بردٍ، وإنما من الخوفِ الشديد.. لم تكن تتصور أبداً أن هناك من يقود سيارته بكل هذه الرعونة والسرعة.. ولم يطمئنها أبداً أن فؤاداً بدا مسيطراً ومتحكماً في السيارة بتَمَكُّنٍ تام. أرادت أن تطلب منه تخفيف السرعة ولو قليلاً، إلا أنها خافت إن كلمته أن يلتفت إليها وهو يقود بهذه السرعة فيحدث الأسوأ... قفزت صورة والديها إلى ذهنها وتذكرت كيف سحق موتهما في حادث انقلاب سيارة الميكروباص إخوتها الصغار ودمرها ومستقبلها تماماً.. ترى ما سيكون حال شقيقيها إن أصابها مكروهٌ اليوم؟ .. نظرت إلى فؤاد، ألم تمت زوجته كذلك في حادث سيارة؟ أيمكن أن يكون قدرها قد قادها اليوم لتلقى مصير والدة شهد بنفس الطريقة ومع نفس الشخص؟ أيمكن أن يكون قدر الصغيرة أن تفقد كل من تحب بشكل مأساوي مروع؟!!!!

لم تتمالك نفسها وقالت بصوتٍ خرج أعلى مما كانت تريد، وإنما بثباتٍ وحزم: «**ربما عليك أن تخفف سرعتك يا سيد فؤاد.. الطريق خالٍ ولن يعطلك شيء..**»

رد وهو يتناول هاتفه المحمول من على التابلوه ويطلب رقماً ثم أعاد الهاتف مكانه منتظراً أن ترد أميرة: «**لا تقلقي، فكما قلتِ تواً، الطريق خالٍ ولا خطر إطلاقا.**» كان يعلم أنها خائفةٌ، ويدرك أن سرعته مفرطةٌ، ولكنه لا

يستطيع إلا أن يكون هناك في أقرب وقت، ولو ذهب طائراً...كان يطلب أميرة ليعرف مستجدات الوضع لديها وقد شعر أن دهراً قد مر منذ أخبرها بأنه في الطريق... حين انقطع رنين الجرس في ساعته اللاسلكية دون أن يتلقى رداً شعر بقلقٍ بالغ فمد يده ثانية ليعيد الاتصال وقدمه تضغط بقوةٍ أكبر على دواسة البنزين... لابد أن خطباً ما قد حدث .. عادت غيمة القلق والاكتئاب تُحلِّق فوق رأسه بقوةٍ، حيث لم يخرجه منها إلا عنصر المفاجأة حين سحبت مهرة الهاتف من يده وأعادته حيث كان بحدةٍ وقالت وهي تُكَتِّف ذراعيها بعزم: «**إما أن تخفض سرعتك يا سيد فؤاد أو تنزلني فوراً.. بهذه الصورة سنرقد نحن في المشفى مكان أخيك أو ربما نموت.**» (سنموت يا فؤاد.. خفف السرعة.. أقول لك بأنَّا سنموت) أخذت كلمات شهيرة الأخيرة تتردد في جنبات عقله واحتلت صورةُ الحادث، الطريقَ أمامه، فضرب المكابح بقوةٍ كادت معها مهرة أن ترتطم بالزجاج الأمامي لولا ذراعه التي امتدت لتسندها إلى الوراء... وما أن توقفت السيارة، حتى أيقظته صيحة مهرة من ذكرياته فمسح وجهه بكفه وابتلع ريقه وهو يتنفس بعمقٍ محاولاً استعادة رباطة جأشه.. مرت دقيقة صمتٍ قبل أن يستدير لمهرةٍ التي تيبست على مقعدها غير مصدقةٍ أنها لازالت حيةٌ ترزق وعلى عكسه تماماً، كان تنفسها سطحياً سريعاً، وبالكاد تمكنت من أن تطرف بعينيها. قال بأسفٍ شديدٍ: «**أنا آسف.**»، وسحب نفساً عميقاً ثم قاد السيارة بهدوءٍ... (آسف؟!!!!! أهذا كل ما لديه ليقول بعدما كاد يقتلنا؟!!! آسف!!!!)

لم ترد بكلمةٍ وبقيا على هذا الحال حتى وصلا المشفى. ترجلا في صمتٍ وتقدمها صاعداً الدرجات الواسعة.. أمسك بمرفقها بالداخل وقادها نحو المقاعد الجلدية المصطفة بجوار إحدى الحوائط وانتظر حتى استقرت فسألها بحرجٍ شديدٍ: «**أَأَنتِ بخيرٍ يا مس مهرة؟ أتودين أن أطلب منهم أن يطمئنوا عليك بفحصٍ سريع؟**». كانت تهز رأسها بنعم ولا، وقد ثبتتها دون كلام، نظراتٌ حادةٌ تخطت كتف فؤادٍ لتستقر بدهشةٍ وغضبٍ على وجهها الشاحب.. كانت أميرة تقف هناك بالقرب من المصاعد، ناظرةً إليهما نظرة لن تنساها مهرة ما حيت!!

«**فؤاد!!!**» كلمةٌ واحدةٌ نطقتها أميرة حملت بين طيات حروفها ألف معنىً ومعنىً، وعشرات الأسئلة...التفت فوراً وركض نحوها متناسياً مهرة تماماً... كانا يتحدثان بصوتٍ لم يصلها منه شيئاً، إلا بضع نظراتٍ كانت ترمقها بها أميرة بين لحظةٍ وأخرى وكأنها كانت موضوع كلامهما..(حسنٌ، بإمكانك أن تطلب من الممرضة تفقدي الآن، فلابد أن نظرات هذه المرأة قد أصابتني في مكان ما). أشاحت بوجهها بعيداً وشغلت نفسها بتفقد المشفى الذي بدا لها كفندقٍ في كل شيءٍ أكثر منه كمشفىً، لولا وجود الممرضات والأطباء بأزيائهم المميزة...

«**سيوافيكِ السائق حالاً يا مس مهرة.**»

رفعت رأسها لتقابل ابتسامة أميرة الصفراءَ بابتسامةٍ خفيفةٍ: «**أشكرك يا آنسة أميرة. وأرجو أن تكون حالة السيد نادر قد تحسنت وأن يعود إلى البيت قريباً بإذن الله.**». ظلت أميرة ترمقها بنظراتٍ فاحصةٍ لم ترتَح لها مهرة إطلاقاً، فتململت في مقعدها ولم تعرف ماذا عليها أن تفعل الآن! «**اطمئني يا عزيزتي، سيكون بخيرٍ تماماً.**»، تحدثت أميرة بلطفٍ بالغ أثار قلق مهرة بشدةٍ وتساءلت لم تعاملها هذه الشابة بهذا الأسلوب الفظ كلما التقتا؟!!

تحركت أميرة أخيراً وقالت من فوق كتفها: «**لن يتأخر السائق. والآن لابد أن ألحق بفؤاد. سلام.**».. مشت كالهرَّة نحو المصعد في سروالها الجينز الضيق، الذي غطى جزءاً كبيراً منه حذاءُها الجلدي عالي الكعبين والرقبة، والذي تماشى لونه الجَمَليِّ مع لون الكنزة الصوفية السميكة ذات الياقة العريضة، ومهرة تتابعها بعينين فاحصتين.. (كل ما في هذه الفتاة يضايقني) فكرت الفتاتان كلٌّ في الأخرى .. كان المصعد قد أَغلق أبوابه المعدنية فاستندت أميرة بظهرها إلى المرآة خلفها متنهدة...تساءلت بغيظٍ عن سبب وجود مهرة في مثل هذا الظرف والوقت مع فؤاد!! لم عليها أن تكون دائماً عثرةً في طريقها إلى ما تصبو؟! بالطبع لاحظت خاتم خطبتها الدقيق جداً، ولكن هذا ما كان ليمنع أياً مَن كانت مِن أن تترصَّد لصيدٍ ثمينٍ كفؤاد، بل على العكس، ما أسهل أن

يكون هذا الخاتم الحقير وسيلةً للفت نظره وكسب اهتمامه وتعاطفه معها... يا لِكيد هذه الفتاة.. من أي حفرةٍ في الأرض خرجت لها؟!!!! وصل المصعد فخرجت فور ما فُتح الباب واتجهت إلى فؤاد الذي كان يتحدث مع الطبيب بسعادةٍ ظاهرةٍ.. (تباً لها.. أضاعت فرحتي بشفاء نادر وتهدد الآن علاقتي بفؤاد).. حسنٌ، ربما عليها الآن وقد تحسن نادر أن تدفعَ ألأمورَ إلى الأمام قليلاَ، وأن تتعجل في حثه على خطبتها وقد مهدت لهذا خلال الأيام الماضيةَ كثيراً فيما كان هو هشاً أضعفه القلق والحزن... لن تسمح لتلك السمراء ذات الفم العريض باعتراض ترتيباتها وطريقها إلى القمة...فليس هناك من هي أجدر منها لتكون صاحبة البيت وسيدته.. وهذا ما ستكونه.. رسمت أجمل ابتسامةٍ لديها على مبسمها وهي تمد يدها لتشبك أصابعها بأصابع فؤادٍ، فنظر إليها بودٍّ اعتاده معها في الأيام الماضيةِ، إذ لم يكن هناك من اهتم به بهذه الرقة والإخلاص بعد نادر إلا هي...

لم تلفت الحركة البسيطة نظر الطبيب الذي تابع مبتسماً و إنما بجدية: **«الراحة، ثم الراحة... لن أوصيكما.. لابد وأن يبتعد تماماً في الأيام القادمة عن أي سببٍ للتوتر أو الضيق.. هل هذا مفهوم؟»**

«تماماً، لا تقلق يا دكتور.. اطمئن.» وعده فؤاد بثقةٍ وهدوءٍ، وما أن استدار الطبيب مغادراً حتى التفت إلى أميرةٍ رافعاً يديهما المتشابكة الأصابع إلى شفتيه، ليُقَبِّل ظهر يدها بسعادةٍ، قائلاً: **«لقد رأيت نادر وتحدثت إليه وقد أجابني، إنما بوهنٍ.. ولكن الحمد لله، يبدو واعياً تماماً. والطبيب يقول أنه سيبقيه تحت الملاحظة للساعات الأربع والعشرين القادمة، ثم بإمكانه أن يعود بعدها إلى البيت.»**. تنهد بعمقٍ مغمضاً عينيه وهو يتابع: **«يااااااه، كابوس!!!! لا أصدق بأننا انتهينا منه.»**.. كانت ابتسامة أميرة لازالت محفورةً على وجهها.. بالطبع كان كابوساً.. ولكنه ما انتهى، إلا ليبدأ كابوسها هي، فعليها أن تتجاهل قلبها ولهفتها لتكون بجوار نادرٍ الآن في مثل هذا الظرف وأن تصب كل اهتمامها ومشاعرها على فؤادٍ، وبغزارة... ردت بدلالٍ: **«انتهى كابوس القلق على نادر، وبدأ كابوسك**

أنت يا بطل.. فالطبيب أكد على الراحة التامة لنادر، ما يعني أن السيد المحترم..»، ولمست صدره بأصابع رقيقةٍ كالريشة متابعةً: «**عليه أن يهتم بالشركات والأعمال الضخمة..**».. ضحكت للتعبير الطفولي الذي رسمه فؤاد على وجهه.. ومدت يدها الحرة تُعدِّل ياقة قميصه الناصعة البياض في حركةٍ جعلتها تبدو تلقائيةً وهي تقول: «**هيا الآن، أنت صرت ولداً كبيراً.. ولدٌ طيب.**»

ضحك بدوره. هو يدرك تماماً بأنها على حقٍ، ولو أن الأيام الماضية كان العمل بالشركات يدور كالساعةِ، فنادر كما يبدو قد أبدع نظاماً في الشركات واختار فريقاً، يستطيع معه العمل أن يدور كالتروس في الآلة دون خللٍ أو توقفٍ إن حدث عارض كالذي وقع، إلا أن هذا أيضاً لا يَصِحُّ الاعتماد عليه، وعليه في أقرب فرصةٍ أن يتابع بنفسه سير العمل، إيفاءً بالوعد الذي قطعه على نفسه بمساعدة شقيقه الوحيد وعدم التخلي عنه ثانية.. كانا يسيران في الممرات ويديهما لا زالتا متشابكتي الأصابع في حركةٍ بدت عاديةً لفؤاد فيما ارتياحه واسترخاؤه معها جعلا أميرة تدرك بأنها لربما طرقت باباً في عقل فؤاد أو ربما قلبه، ومشوار الألف ميلٍ يبدأ.. بلمسةٍ..

جلسا متقابلين في كافتيريا المشفى حول طاولةٍ مربعةٍ صغيرةٍ بعد أن سحب لها بلياقةٍ كرسيها لتجلس.. أخذا يتحدثان في أمورٍ متفرقةٍ وهما يحتسيان قهوتهما الأمريكية، والتي رفضت أميرة أن تأخذ معها أي شيء لتأكله كسحورٍ بالرغم من إلحاح فؤاد.. «**لن أنسى وقوفك بجانبي يا أميرة، صدقاً لا أدري كيف كنت سأتحمل هذه المحنة لولا وجودك بقربي.**». ابتسمت وقالت بخجلٍ مُصطنعٍ متقنٍ فات عيناً خبيرةً كعين فؤادٍ: «**لم أفعل شيئاً.. لقد كنت قلقةً عليك جداً وكنتُ أخشى أن تنهار تماماً ولم أحتمل الفكرة.**». ابتسم فؤادٌ وردَّ بصدقٍ: «**أنت إنسانةٌ رقيقةٌ وحساسةٌ يا عزيزتي، وآسف حقا إن كنت في يوم ما قد ضايقتك أو جرحتك بكلمةٍ أو تصرفٍ سخيفٍ.. فالفترة الماضية جعلتني أراجع نفسي وعلاقاتي واكتشفت بأنني بعد الحادث، بدلا من أن أرتمي في أحضان من يحبونني ويهتمون لأمري، زدت خسارتي بنفسي، وابتعدت عن كل ما هو جميلٌ وأصيلٌ في حياتي...**»

طرفت بعينيها (يا إلهي، هل هو ساذج إلى هذا الحد؟!! أمضت أعواماً وربما عِقداً من عمرها تلهث وراء نادر، ولم ينلها منه سوى ابتسامةٍ لا تزيد عن ابتسامته لكريمة إحساساً، وفؤاد هنا بعد عشرة أيام يُلْقِ تحت قدميها بمكنونات صدره، وربما حتى قد يتقدم لخطبتها... حقاً يا نادر، لا مثيل لك، ولا حتى شقيقك الذي من لحمك ودمك). ازداد حبها لنادرٍ في هذه اللحظة حتى كاد يخنقها وهي تسمع فؤاد دون أن تستمع إليه.. احمر وجهها رغماً عنها ودمعت عيناها، فظن فؤاد بأن كلامه هو ما حرك مشاعرها، وكان على حقٍ مع فارقٍ بسيطٍ، أنه حركها أكثر نحو شقيقه.. «**.... و كذلك مس مهرة.**».. كان الاسم كَدَلْوِ ماءٍ باردٍ أُرِيق على رأسها فانتبهت سائلةً: «**آسفة، ماذا قلت؟ ما بها مس مهرة؟**»

رد ببساطةٍ: «**كنت أقول أن مواقفاً كهذه تفرز الناس من حولك وتُظهر معادنهم.. فقد عرفتكِ عن قربٍ، وكذلك مس مهرةٍ ووقفتها المحترمة إلى جانب شهدٍ والتي لولاها لا أدري ماذا كان ليحل بابنتي ونحن منشغلون بنادرٍ هنا، فكريمة تقول بأن شهداً متعلقةٌ بها بطريقةٍ ربما فاقت تعلقها بنادرٍ نفسه.**» (كريمة اللعينة.. حسنٌ.. حسابك آتٍ وإنما ليس الآن).. مس مهرة!!! حتى في هذه اللحظة يقفز اسمها كالعقرب ليسمم لحظة انتصارها... يبدو أن الإيقاع بفؤادٍ لا يقتصر فقط على فؤاد، فبعد كل شيء، هناك كريمة وآدم، و.. مس مهرة... (ركزي يا أميرة)

قالت وهي تداعب كيس السكر الصغير بأصابعها ذات الأظافر اللؤلؤية: «**قلتَ أنك اقتربت مني وتعرفت عليّ.. فماذا وجدت؟ وهل أعجبك ما وجدت؟**»

أخذ يرمقها بنظراتٍ فاحصةٍ، هو بالفعل معجبٌ بها ولكن عليه أن يتأنى قليلاً في كلامه، فهي قريبته وتُقيم معه في نفس البيت ولو تهور بكلمةٍ الآن قد لا تكون في محلها، أو قطع وعداً ثم تراجع عنه لأي سببٍ، سيُحِيلُ البيت جحيماً ولن تنطفئ النار إلا برحيلها هي وسامر عن البيت... وبصراحةٍ، لقد اكتفى من دور المُخَرِّب صانعِ المشاكل.. ردَّ بعد لحظاتٍ وهو يختار كلماته

بعنايةٍ: «**وجدت إنسانةً رقيقةً تهتم بمن حولها، على عكس سامر تماماً... تصوري ذاك السخيف لم يأتِ إلى المشفى إلا مرتين أو ثلاثة...**»

جاء دورها لتنظر إليه بإمعانٍ، فربما ليس غبياً تماماً كما اعتقدت...(أتريد أن تلعب لعبة القِط والفأر يا فؤاد بِك...هه..) . ضحكت في سرها.. فليكن ولكنها، كقطها نابليون، حادةٌ سريعةٌ، وحين يسقط بين يديها لن يجد سوى مخالبها لتلتقفه بقوة...

نظرت إلى ساعة يدها وتثاءبت فقال: «**دعيني أعيدكِ إلى البيت.. فأنتِ تَعِبَة..**»

سألته: «**وهل ستعود بعدها إلى المشفى ثانيةً؟.**». أجاب ببساطةٍ: «**طبعا**».. **فردَّت فوراً وبثباتٍ**: «**إذاً سأنتظر معك.**».. ابتسم لها وبادلته الابتسامة...



جلس نادر بهدوءٍ في فراشه فيما كريمة تدور حوله في الغرفة الواسعة، التي غمرتها أشعة الشمس بنورها البراق فبدت دافئةً مريحةً، كانت ترتب الأزهار التي انتقاها آدم من الحديقة في مزهريةٍ زجاجيةٍ زرقاءَ طويلةٍ.. كان غريباً عليه أن يرى الأحوال في بيته في ضوء النهار، ومن زاوية أخرى، فبينما كلٌّ من في البيت يذهب ويجيء وكلٌّ لديه ما يفعله، وإن كان لهواً كما في حالة سامر، بقي هو في غرفته ملازماً فراشه لا يفعل شيئاً سوى التحدث إلى آدم الذي ما كان يترك جانبه إلا للضرورة، أو يستمع إلى ثرثرة كريمة وتأنيبها الدائم له على إهماله لصحته الذي أوصله وهو في زهوة رجولته وشبابه إلى حافة الانهيار، وبصراحةٍ، كان لديها كل الحق، فما انفكت يوماً تذكره بضرورة تناول الوجبات الثلاث يومياً وأخذ قسطٍ كافٍ من الراحة...كذلك كانت أميرة تطمئن عليه كثيراً، ليس كما كان يتوقع منها، وإنما كانت حريصةً على رؤيته أكثر من مرةٍ كل يومٍ. لَم يرَ سامراً إلا يوم عودته من المشفى وكان لقاؤهما مقتصراً على العباراتِ التقليدية في مثل هذه الظروف، وهو ما كان أكثر من مناسبٍ لنادرٍ، فهو وسامر ليسا على وفاقٍ على الإطلاق، وكثيراً ما تعجب من فؤادٍ حين كان

يجده يتسامر ويضحك مع سامر... ابتسم وتحولت نظراته تلقائيا إلى عمود الكتب الموضوعة على الطاولة بجوار فراشه والتي أحضرها فؤاد له حين طلب منه أن يحضر له الصحف ليتابع الأخبار وسوق العمل ليدرك ما فاته وما يجري في الدنيا، على حد تعبيره، فما كان من فؤادٍ إلا أن خرج وعاد بعد دقائق وهو يحمل هذه الزمرة من الكتب التي وضعها حيث هي الآن وهو يقول مازحاً: «**هذه الكتب بها أخبار الدنيا يا حبيبي.. الدنيا التي لم تعشها..**»، ثم أشار إلى قلب نادر بإصبعه متابعاً: «**و ستجد بداخلها كتالوج الاستخدام لهذا الشيء الراقد بسلام في صدرك.**». نظر بعدها بطرف عينه إلى آدم واقترب مكملاً بسخريةٍ وبصوتٍ خافتٍ، إنما بنبرةٍ مسموعةٍ كفاية لآدم الذي يقف على بعد خطواتٍ من الفراش يتابع حديثهما باهتمام: «**هنالك كتالوجٌ آخر للحياة أكثر تفصيلاً ولكن الطبيب منع عنك كل ما يثير.. أعصابك.. في هذه المرحلة..**» .. ضحك كلاهما فيما تنحنح آدم فغمزه فؤاد وقال وسط ضحكاته: «**لا يا آدم، لا نريد تعكير صفو حياتك مع كريمة... ليس من مصلحتك أن أفتح عينيك على هذا النوع من (العلوم) ..**»..

أفلتت ضحكةٌ من نادر وهو يتذكر آدم وقد ضحك مِلءَ فِيهِ بعد أن فشلت محاولاته في التظاهر بالضيق وعدم الارتياح لهذا النوع من الكلام...

التفتت كريمة التي كانت ترتب شيئاً ما في الخزانة، حين سمعت ضحكة نادر، وسألته مبتسمةً: «**أتحدثني يا نادر؟**». كانت هي وآدم معتادان على التحدث إلى نادر ببساطةٍ مادام وحده وكان هذا بناء على طلبه الذي يتجاهله آدم في كثيرٍ من الأحيان، فعلى الرغم من تكرار نادرٍ لهما بأنه يشعر بأنهما أهله وأنه لا يستسيغ مناداتهما له بالسيد بينما هما فعليا من رباه، إلا أن آدم يصر على استخدام هذا اللقب معلِّلا ذلك بأن رؤية نادرٍ وقد صار رجلاً ذا شأنٍ وهيبةٍ تسعده وتملؤه فخراً... كذلك فؤاد، لا يأبه إن نادته باسمه دون لقبٍ أو مسبوقاً به.. كانا شابين محبوبين، ابناها اللذان خرجت بهما من الدنيا، وكانت رؤية أحدهما يغادره عقله والآخر ربما يغادرهم تماماً، تَئِدُ جذوة الحياة بقلبها، حتى أنها في بعض الأيام ما كانت تشعر بساقيها تقويان على حملها من فراشها... ولم يكن

ابتعادها عن طريق فؤاد تماماً في الفترة الماضية إلا لأنه في سطوة غياب عقله كان يُعنِّفها وكانت تخشى أن يهينها في غمرة السُّكْرِ فتبقى ذكرى كلماته تؤلم قلبها الذي تلقفه وليداً ضعيفاً فأسكنه بين حجراته وأغلق عليه أبوابه ليحميه من ضَيْمِ اليُتْمِ وقسوة الأيام، ولم تتوقف يوماً عن الدعاء له ولشهدٍ، وكان كلما رآها آدم تَبكي خلسةً طمأنها بأن نادراً لن يدع شقيقه يضيع أبداً، فحين انهار نادر هو الآخر شعرت بأن عمرها وثمار سنينها يذهبون أدراج الرياح.. رأت عالم أمومتها ينهار معه وأصبحت تتحرك كالمنومة، أو كالآلة... ولكن الله لطف بالولدين وبها، وبآدم ،الذي كانت على يقينٍ بأنه كان سيلحق بنادر لو كان مكروهاً قد أصابه (لا سمح الله).. وتعجبت من تدابير القدر، فما ظنوا أنه كاد يقض أركان هذا البيت هو ما أعاد إليه اتزانه في النهاية وأعاد إليهم فؤاداً مشرقاً ودوداً من جديد....

«**لا شيء، فقط تذكرت أمراً.**» رد نادر مشيراً إليها أن تقترب مكملاً: «**ماذا تفعلين الآن يا كريمة؟ ألا ينتهي ما تفعلين أبداً؟ تعالي واجلسي لنتحدث قليلاً، فقد اشتقت لأحاديثك وحكاياتك.**»... اقتربت لتجلس على حافة فراشه مبتسمة وقالت مداعبةً وهي تربت على يده بلطفٍ: «**ألهذا الحد أنت يائسٌ؟!**» ضحكت متابعةً: «**منذ متى وثرثرتي تسليك ؟**». ضحك بدوره وتجاهل الرد لأنه لن يستطيع أن يكذب بأكثر مما فعل، فما كان هناك ما يخنقه أكثر من الثرثرة الفارغة ونقل الأخبار. سألها بجدية: «**كيف حالك يا كريمة؟ أعرف أني قصرت في الاهتمام بك في الفترة الماضية.. ولكن المشاغل ك...**». قاطعته: «**كان الله في عونك.. أنت تحمل مسئوليات تفوق سنك وقدرات الكثير... أنا أعلم ألا مفر منها، ولكن عِدني بأن تنتبه لصحتك أكثر يا نادر.. يكفينا ما حدث .. باللهِ عليك يا حبيبي.**»

ابتسم وربت على يدها المرتاحة على يده بدوره، وقبل أن يرد كان باب غرفته قد فتح على مصراعيه وانطلقت من خلاله شهد واثبةً على الفراش لترتمي في أحضان نادر الذي أخذ يداعبها وهي تتقافز حوله وتدور وتتقلب عن يمينه ويساره كالقطة السيامية وكريمة تراقبهما مغتبطةٌ. (لو سارت الأمور

كما أرتب لها يا شهد، فستحظين بأمٍ في أقرب فرصةٍ إن شاء الله) حدثت كريمة نفسها وهي تمنيها بأحلام عن أسرةٍ صغيرةٍ سعيدةٍ تنعم بظلالها هذه الطفلة المسكينة التي كتب عليها اليتم كما كتب على والدها من قبلها... ولعل، إن حدث ما تحاول السعي لتحقيقه فسيكون لدى نادر هو الآخر فرصةً ليتفرغ لحياته ومستقبله الشخصي فيتزوج وينجب وتتحرك عجلة الحياة أخيراً في هذا البيت الذي سكنته الكآبةُ أعواماً.. ضحكت وهي تسمع ضحكات نادر وشهد الرنانة تحلق في أرجاء الغرفة .(يا رب، أَدِم علينا هذه السعادة ولا تجعل الحزن يعرف لنا طريقاً من جديد... ووفقني فيما أسعى إليه يا رب العالمين.)..



وضع آدم صينية الشاي على الطاولة المستديرة البيضاء في الحديقة في صمتٍ وغادر مباشرةً... مد سامر يده ليلتقط فنجانه إلا أن صوت أميرة استوقفه وهي تقول مستهجنةً: «**إن لم تستحِ فافعل ما شئت.**».. تراجع في مقعده وهو يرتشف الشاي الساخن في تلذذٍ وهو يبادلها نظرات السخرية دون أن يرفَّ له جفن، كانت أميرة تداعب فراء نابليون الذي قبع في حضنها بخنوعٍ يتمطى بين الحين والآخر مُتثائباً في كسلٍ...رد بعد لحظاتٍ: «**لَم يوقظني أحدٌ لأتسحر . قد أسقط كصديقنا إن صُمْتُ دون سحورٍ**»، وأشار برأسه نحو شباك غرفة نادرٍ متابعاً وهو يرسم ملامح المسكنةِ على وجهه ساخراً: «**أتريدين لشقيقك الوحيد أن يمرض هو الآخر؟**». تأملته بملل وضيقٍ ولكنها حين تحدثت وجهت حديثها لخالها الجالس إلى يسارها يطالع باهتمام صحيفةً يوميةً شهيرةً دون أن يُلقيَ بالاً لما يتناوله الشقيقان، اللذَين يرعاهما منذ وفاة شقيقته الصغرى، من حديثٍ يجده فارغاً.. قالت بتساؤلٍ مستنكرٍ: «**البِك يظنني أتحدث عن الصيام!! أتدري يا خالي بأنه لم يَزُرْ نادراً منذ عودته من المشفى ولا مرةٍ واحدةٍ؟!! بالذمة، أليس في هذا الكثير من قلة الذوق واللياقة؟**». لم يرفع حسَّاب عينيه عن الجريدة وأجابها من خلفها: «**و كأن نادر ينتظر أو يتمنى أن يرى طلته البهية.**». اعترضت: «**ولكنها مبالغةٌ في التجاهل وقلة الأدب، فنادر ليس عائداً من نزهةٍ أو رحلة عملٍ!!! لقد**

كاد أن يموت وأبسط تصرفٍ طبيعيٍّ وتلقائيٍّ أن يطمئن عليه بين الحين والآخر.».
قال سامر ببرودٍ: «**ومَن قال أنّي لَم ازره.. لقد زرته يوم عاد، ثم كما قال خالي، لا هو يستمتع بصحبتي ولا أنا أتلهف للحديث إليه، فلا تحملي الأمور فوق طاقتها ودعيني وشأني.**».

ردت بشفةٍ ملتويةٍ بسخريةٍ بالغةٍ: «**الذي هو؟**». هنا ألقى حساب الجريدة من يده لتتطاير صفحاتها على مسافاتٍ هنا وهناك بفعل الهواء الذي بدأ يهبُّ بارداً لحظة غابت الشمس خلف موجةٍ من السُّحب الرمادية القاتمة وقال بحدةٍ: «**هيا، عكِّرا مزاجي كما اعتدتما كلما جلست إليكما.. هيا، لما توقفتما؟!**».. رفعت أميرة صوتها وهي ترد عليه بنزقٍ و بدت كالطفلة وهي تضرب قدمها بالأرض: «**ماذا قلتُ الآن؟!!**» . تابع حسَّاب وكأنه لم يسمع اعتراضها: «**طبعاً.. وماذا لديكما لتفعلاه غير هذا؟!.**»، وأشار إليهما بسبابته بحنقٍ واستنكارٍ ظاهرَين متابعاً: «**اثنان بمثل شبابكما و ذكائكما، ويمتلكان مفاتيح أبواب النجاح، لا يفعلان شيئاً بحياتيهما سوى الجلوس طيلة النهار ليتناوشا على كل شاردةٍ وواردةٍ، بدلاً من العمل وإيجاد مكانٍ لكما في الحياة، تجلسان مثرثرين كامرأتين عجوزتين.**»، ثم أشار من خلف ظهره إلى نافذة حجرة نادر قائلاً بصوتٍ خافتٍ: «**لقد كاد يموت! وماذا تظنان سوف يحلُّ بكما هنا إن حدث له مكروهٌ لا سمح الله؟!!! فالآخر ليس مثله على الإطلاق.. ما بكما عديما الفائدة والرجاء هكذا؟!!! أفيقا، وبسرعةٍ، فإن كانت الدنيا قد علمتني درساً، فهو أن دوام الحال من المحال.**». هزت أميرة كتفها الدقيق ببساطةٍ قائلةٍ وهي تداعب أذني هرها: «**لو أردت العمل لوجدت لنفسي أفضل عملٍ مع صباح الغد، ولكن لا تقلق علي، فأنا أُؤَمِّن نفسي جيداً وأحسب للمستقبل ألف حِسابٍ.. فقط انتظر وسترى.**». سألها خالها بسخريةٍ: «**وما الذي يمنعك إذاً؟**». قالت باستفزاز: «**فقط أني لا أريد أن أعمل.. هكذا.. ببساطة.**».. لوى شفتيه بابتسامةٍ ساخرةٍ معلقاً لسامرٍ: «**وإن لم تفعل، فهي امرأةٌ، وستلقي بهمها على أحدهم ذات يومٍ.. أما السيد المتبرم، فما خطته؟!!**».وقفت أميرة فجأةً وقد أزعجتها الطريقة التي يتحدث بها خالها عنها، وأنه يشبهها بسامرٍ الذي تراه بلا فائدةٍ ترجى منه في مطلق شيء، ولقد فزع نابليون لحركتها فقفز على

الأرض ووقف يراقبها بعينيه النحاسيتين اللتين برقتا بتناقض مع وبره الكثيف الرمادي القاتم.. التقفته أميرة بعصبيةٍ وقالت: «**لا تخف يا نابليون، الخطأ خطئي أنا إذ ظننت بأني أتحدث إلى آدميين من الأساس.**» واستدارت عائدةً إلى الفيلا وهي تسمع ضحكات سامرٍ حين علق خالها: «**شرفتنا يا حبيبتي، لا تقطعي الزيارات.**»..

مد حسَّاب يده يتناول قطعة بسكويتٍ من الطبق الصيني الصغير وتراجع في مقعده ليتأمل سامراً وهو يقضم البسكويت ببطءٍ.. تابع سامر ارتشاف الشاي ببرودٍ وهو يتشاغل عن خاله بالتأمل في الأشجار شبه العارية من أوراقها التي قلمتها أصابع الشتاء القاسية.. يعلم جيداً أنه على وشك تلقي لومٍ وتأنيبٍ وربما تأديبٍ أيضاً من خاله، فالوحيد الذي كان يهتم لأمره وينشغل بحاله هو هذا الرجلُ الجالس أمامه يتأمله في ضيقٍ.. إنه الوحيد الذي يستطيع ببساطةٍ لمس روح سامر برفقٍ وحساسيةٍ، فقد كان متأكداً من حب خاله له، وهو يحبه بدوره، إلا أنه لم يشعر اليوم بأنه في مزاجٍ لتقبل النقد أو التوجيه مهما كان مغلفاً باللين أو الحب، فمنذ عاد نادرٌ إلى البيتً، عادت الأرض لتدور في فلكه ورجع هو إلى خانة القريب الضيف الذي يستفز سيد الكون بكلامه أو تصرفاته اللا مسئولة كما اعتاد نادر أن ينعتها.. كان يتظاهر في غياب نادر بأن البيت بيته وحده وأن كل من هو فيه مسخرٌ لخدمته وإسعاده، وقد ساعده اختفاء الجميع في الفترة الماضية في تقمص هذا الخيال بصدقٍ ويتعايش معه حتى كاد يقتنع بعدم عودة نادرٍ وأن الأمور ستؤول إلى هذه النتيجة بالتبعية، ففؤاد سيزداد هروباً وتباعداً، وأميرة ستغرق في أحزان قلبها المكلوم، وخاله غائبٌ بطبيعة الحال أغلب الوقت، فلن يجد آدم وكريمة سيداً غيره يدير البيت وشئونه... أما الآن، وقد انزاحت الستائر الوردية عن عينيه لتسمح لنور الواقع الصارخ باختراق بصره وبصيرته، فالشعور بالاختناق والرغبة في الصراخ يتملكانه ولا يحتمل كلمة أو إشارة من أي مخلوق كان وإن كان حسَّاب نفسه...

«**ما بك يا سامر؟**» سأله حساب برفق، إلا أنه ردد بسخرية وهو يهز رأسه مقلداً خاله في نزقٍ: «**ما بك يا سامر؟!!!!!!**»، وتابع حين لم يعلق خاله على أسلوبه: «**إن كان شأني يهمك فعلاً ما كنت غبت عنا كل هذه المدة دون أن تترك لنا طريقاً للوصول إليك أو أن تتصل أنت بنا!! وأفاجأ الآن بأنك استثنيت نادراً من هذا وأعطيته رقمك الخاص؟!! عن أي شأنٍ تتحدث؟**».. تركه حسَّاب ينهي كلامه قبل أن ينتقل إلى المقعد المجاور له وما أن استقر به حتى استند بكوعيه على الطاولة قائلاً بصوتٍ هادئ: «**أتدرك أنك تتحدث كفتاةٍ مراهقةٍ؟ ما كل هذا ومن أين أتى؟ أنا لم أسمعك يوماً تتحدث بمرارةٍ كالآن! ماذا حدث؟ كن صريحا معي ولا تدعي أن أمراً تافهاً كإعطاء رقمي الخاص لنادر هو ما يسبب لك كل هذا القدر من الغضب. أنا أعرفك أكثر من نفسك ومتأكدٌ بأن هناك أمر آخر يضايقك، فتحدث مباشرة دون لفٍ أو دورانٍ، وكن متأكداً ألَّا أحد في هذه الدنيا سيفهمك و يعتني بك مثلي...**»

جاء دور سامر ليستند بكوعيه هو الآخر على الطاولة وهو يقول بهجوميةٍ واضحةٍ، وإنما بصوتٍ خافتٍ وهو ينقر على ذراع خاله بسبابته: «**لقد أخبرتك تواً ولكنك لا تستمع إلي.. أنت الأب الوحيد الذي أعرفه والوحيد الذي أتحدث إليه في هذا البيت اللعين وأنت تتركني رغم كل هذا وترحل دون إشعار، ولا يكون لدي حينها إلا أميرة وأنت تعلم كيف هي أميرة... ولم أكن معترضاً إطلاقاً، و لكني فعلاً صُدِمت حين توصلوا إليك يوم حادثة نادرٍ. ماذا يعني هذا؟ هل خُنتُ ثقتكَ يوماً حتى تأتمنه على رقمك ولا تأمَنِّي؟ هل ك..**» ، هنا اعتدل حسَّاب وقاطعه وهو يشير له بيده أن يتوقف عن الكلام: «**كفى، كفى. ما كل هذه الحساسية يا بني؟! أنا لم أُعطِ نادراً رقمي الخاص وإنما كان هو من طلبه.**». رفع سامر أحد حاجبيه ساخراً فأكمل حساب بجدية: «**نعم ، ببساطة أخبرني بأنه يكون شديد القلق علي وأنه يحتاج لأن يطمئن بأنه يستطيع الوصول إليّ وقتما يحتاج.. هذا كل شيءٍ.**». وضع يده على كتف سامرٍ الذي أدار رأسه إلى الجهة الأخرى وهو يهز أحد رجليه في حركةٍ عصبيةٍ ما جعل حساب يهز كتفه برفقٍ مكملاً: «**هيا الآن يا سامر، لا تكن دراماتيكياً يا بني، لو كنت أعلم أن موضوع الرقم الخاص هذا سيكون بهذه**

الأهمية لديك لكنت أعطيتك إياه.. ولكن بصراحةٍ أنا شبه متأكد بأن هناك أمراً آخر يضايقك وليس موضوع الرقم هذا، على الأقل، ليس هذا كل شيء....».

زفر سامر ونظر في عيني خاله للحظات قبل أن يقول وهو يلوح بيده: **«مللت.. مللتُ كل شيء في هذا المكان.. وعلى رأس كل هذا مللتُ البشر الذين يقيمون فيه.. كل شخصٍ، لا، بل كل تفصيلةٍ هنا، تخبرني بأن لا حاجة لي ولا نفع من وجودي.. مللتُ التسول والشعور بالدونية يا خالي...أَتَفْهمُ قصدي.. كل من في هذا البيت له صفةٌ، له حياة.. ولكن ما صفتي وأين حياتي؟ هه؟ أتفهمني؟»**.. كان حسَّاب يهز رأسه متفهماً وهو يستمع إلى سامر بشفقةٍ وتعاطفٍ. يفهم جيداً كيف يشعر الشاب المسكين، فردَّ بحنوٍ بالغ: **«ولكن حل هذه المشكلة بسيطٌ جداً يا سامر.. حتى أنها لا تكاد تكون مشكلة!.»**.. قال سامر بسرعةٍ: **«أن أعملَ، أليس كذلك؟ فعلاً ولا أسهل!!»**.. سأله حسَّاب بتعجبٍ: **«وما الصعوبة في هذا؟ باتصالٍ واحدٍ تستطيع أن تعمل أينما شئت.. لا أفهم أين تكمن المشكلة!»**. تنهد سامر ألقى بظهره على ظهر مقعده قائلاً وهو يقلب عينيه إلى السماء ويَعُدُّ على أصابعه: **«حسنٌ، دعني أرى ما (المشكلة) في هذا الحل.. أولاً، ماذا يمكن أن يعمل شابٌ مثلي دون مؤهلاتٍ سوى بكالوريوسٍ تافهٍ؟ ثانياً، من سيقوم بالاتصال الذي تتحدث عنه؟ وثالثاً،..»** نظر إلى خاله مستنكرا وهو يقول: **«أتريدني أن أعمل موظفاً لدى أحدهم؟!!»**. ضحك حسَّاب ورد مازحاً: **«و الله يا سامر أجد (ثالثاً) فعلاً صعبة، إذا ما أخذنا في الاعتبار (أولاً)...»**، ضحك ثانية متابعا: **«ومهما فعل (ثانياً).»**.. تضايق سامر من سخرية خاله من مشاكله فوقف ليدخل إلا أن حسَّاب أمسك برسغه وشدَّه ليجلس قائلا بجديةٍ: **«اسمعني جيداً يا سامر، إن أردت أن تقتل كل السلبيات التي تحدثت عنها فلا سبيل أمامك إلا العمل.. بغض النظر عن طبيعته فالعمل سيوفر لك ما تفتقده من استقلالٍ واحترامٍ للذات... أخبرني ماذا ستفعل إن أحببت امرأةً وأردت أن تتزوجها؟ هه؟ أستطلب من نادر أن يزوجك وأن يتكفل بمعيشتك وزوجتك؟...»**.. رد سامرٌ: **«يا خالي...»**، قاطعه حساب مشيراً بيده في وجهه ليتوقف عن الكلام وتابع هو بجديةٍ أكبر مقرباً وجهه أكثر من وجه سامر: **«أنا لم أتحدث إليك في هذا الشأن من قبل لأني كنت**

أراك سعيداً وكنت أقول لنفسي بأنك في يومٍ ما، حين تكتفي من اللهو، ستنتبه لحياتك ومستقبلك... أتعرف يا سامر ما الفرق الجوهري بينك وبين شخص كنادر؟..»، رد سامر رافعاً حاجبيه: «**أن أباه ترك له ما يجعله لا يحتاج للعمل طيلة حياته؟!**»... لم يعجب حسَّاب الرد، فهو يبتعد عن المغزى الذي يسعى لإيصاله للشاب ،و لكنه قرر استخدام حجته ضده، فقال مقلداً أسلوب سامر في الكلام: «**ورغم هذا لا ترى نادراً يتجول في البيت والحديقة مضيعاً وقته في اللهو والمتعة، بل على النقيض تماماً، لدرجةٍ أوصلته للانهيار حرفياً من شدة التعب.**»... صمتَ وصمتَ سامر بدوره...

رغم تقدم الساعة واقترابها من وقت الظهيرة إلا أن الجو ازداد برودة وتجمعت الغيوم القاتمة في السماء منذرةً بأمطارٍ وشيكةٍ ما جعل المنظر في الحديقة باعثاً على الاكتئاب ومثيراً لليأس في النفوس، خاصةً لشخصٍ في مثل مزاج سامرٍ الذي رفع رأسه إلى السماء مقطباً حين هبت دفعات من الهواء البارد الذي بدأ يحرك أغصان الأشجار محدثاً أصواتاً تزداد قوة بازدياد سرعة الرياح بتواترٍ سريعٍ.. قال أخيراً: «**يبدو أنها ستمطر، فلندخل قبل أن تصاب بالبرد يا خالي، فالجاكيت الذي ترتديه خفيف.**»، قالها وهَمَّ بالوقوف إلا أن حسَّاب رد وهو يمسك برسغِه ثانيةً: «**مادمنا قد فتحنا هذا الموضوع فلن أغلقه قبل أن أقول كل ما في ضميري، وأُفَضِّل ألا يسمعنا أحدٌ، فاجلس واسمعني جيداً..**». اعترض سامرٌ: «**فلنتحدث في غرفتي أو غرفتك، ستمرض إن لم ندخل ..!!**»..

قال حساب بصراحة: «**لا أضمن ألا تتطفل علينا أميرة أو حتى تسترق السمع.. وإن كنتَ حريصاً عليَّ فعلاً، فدعني أنهي كلامي لندخل ...**»

«**حسنٌ، أنا أسمعك..**»

سحب حساب نفساً عميقاً وقال بصراحةٍ: «**قل لي يا سامر ماذا تفعل هنا؟ كيف تخطط لحياتك؟ ماذا تفعل فعلاً لنفسك ومستقبلك؟ أتعلم ماذا أرى؟ أراك كما يرى الجميع، لا نفع منك ولا تفعل شيئاً في حياتك بنجاحٍ إلا إثارة المشاكل ومعاداة الشخص الوحيد الذي يستطيع مساعدتك، و الذي قد تستفيد كثيراً إن تقربت إليه،**

ومن خبراته وعلاقاته، وتفضل التسكع مع شخص عديم الفائدة كفؤادٍ، فقط لأنه انطلق معك في طريق اللعب والشرب... أراك تضرب رأسك في الحائط لتمر من خلاله بدلاً من الالتفاف من حوله..»، صمت لحظاتٍ ليلتقط أنفاسه ويتأمل سامراً الذي كان يَزُمُّ شفتيه وينظر إليه نظرةً جانبيةً غير راضٍ عما يسمع .. تخلل البرد ثيابه فقال وهو يفرك يديه ببعضهما: «أتدري ماذا كنت أقصد حين سألتك عن الفرق بينك وبين نادرٍ وسَخِرتَ من سؤالي؟ أنا أقصد بالضبط هذا الموقف، فأسلوب نادر في طلب ما يريد وطريقته في التعاطي مع مشاكله يتعارض تماماً مع أسلوبك، فمثلا قصة الرقم التي تتذمر بشأنها هذه، انظر إلى تصرف نادرٍ وتصرفِك، هو طلب مني الرقم مباشرة وبمنتهى الصراحة والحزم، قال لي ..» وأكمل وهو يشد قامته محاولاً تقليد صوت وأسلوب نادر: «صرتَ تتغيب فتراتٍ طويلةٍ يا خالي وهاتفك دائماً مغلق، أعطني رقمك الخاص لأطمئن عليك بين الحين والآخر و أَعدُك ألا يعلم أحدٌ بأنه معي.».. استرخى متابعاً: «بينما ماذا فعلت أنت؟ هه؟ لم تسأل عليه ولم تطلبه أبداً، ولكن حين علمت أن أحداً غيرك حصل عليه، تقوقعت على نفسك تأسى لها و تبكي الهجر والحرمان!! ما هذا؟ مشكلتك يا بني أنك دائماً ما تحكم على كل شيء من منظور مُعينٍ متدنٍ متشائم، لا أعرف لِمَ، ثم تنطلق لتصنف وتفسر كل قول أو فعل بناءً على هذا الحُكم... لم لا توسع نظرتك وتتقبل الأمور على واقعها البسيط... ربما لن تصبحا أنت ونادر صديقين، وهذا وارد، ولكن ليس عليكما أن تكونا عدوَّين لا يُطيق أحدكما التواجد مع الآخر للحظاتٍ.. ألا تعلم أن هذا يمزقني يا بني، فأنت الأهم لدي في هذه الدنيا وسأطمئن إن علمت بأنكما على وفاق بسيط، على الأقل حينها إن أصابني مكروه سأكون حينها مطمئناً عليك.».. تهدج صوته وهو ينهي عبارته فأغمض سامر عينيه وسحب نفساً عميقاً ثم قام من مقعده ليجثو قرب كرسي خاله قائلاً برفقٍ: «اهدأ يا خالي ولا تقلق، لسنا عدوَّين أو أيُّ شيءٍ من هذا القبيل.. كل ما هنالك أننا مختلفان حول أمورٍ معينةٍ وليس هذا بالشيء الغريب أو الخطير..».. وضع حسَّاب يده فوق يد سامرٍ التي ترتاح فوق ركبة خاله بلطفٍ وقال وهو يؤكد على حروف كلماته: «أعلم بأن كلامي لن يعجبك الآن، ولكني أريد الخير لك، نادرٌ على حقٍّ في اختلافه معك يا سامر، وعليك أن

تستفيق لنفسك وتقوم بأي شيءٍ ذو فائدة، والعمل على رأس قائمة الأولويات، فمنذ تخرجك لم تعمل ولو متطوعاً يا بني!!! وإن كنت ستعمل لدى أحد معارفنا أو حتى لدى نادرٍ فما المشكلة؟»

«**المشكلة أني لن أستطيع إلا أن أكون صاحب عملٍ، فلا تضغط علي يا خالي رجاءً.. فهذا لن يحدث أبداً. وحين أعمل، فلن يكون هذا إلا في مشروعي الخاص.**»، قالها ووقف يفرد ظهره فوقف حسَّاب بدوره وقال وهو يدفئ يديه في جيبي سرواله: «**جميل... ومن أين لك بالمال لفتح أي مشروع؟ سيؤول بكَ الأمر لتقترض من نادرٍ، وبالتالي، سيأخذ عليك ضماناتٍ كثيرةٍ، فأناً متأكدٌّ بأنه لن يمنحك المال هكذا لتعبث به، فالشابُّ في أمور العمل لا يعبث ولا يترك شيئاً ولا تفصيلةٍ للصدفةِ أو احتمالٍ ولو ضئيلٍ للفشل... وحتى إن أردت قرضاً من أحد البنوك، فلن تستطيع.. فماذا لديك ليضمنوه؟..**»...

صرخ سامر بقوةٍ: «**إذا ماذا تريدني أن أفعل؟!!**»، مرر أصابعه في شعره الذي عبثت به الرياح: «**يا الله!!! لقد كنت متضايقاً قليلاً، والآن أود أن ألقي بنفسي على شريط القطار!!**»، وفرد ذراعيه إلى جانبه متابعاً: «**شكراً على إغلاق كل الأبواب بوجهي!! هل هذا ما تدعوه مساعدةً؟!!**».. أطلق سباباً بذيئاً بالإنجليزية واستدار داخلاً إلى دفء الفيلا هارباً إلى أحضان غرفته ليلوذ بها ويلعق جراحه هناك بعيداً عن الأعين المتطفلة الشامتة...

كان يقفز درجات السلم الداخلي قفزاً والغضب يعمي عينيه حتى كاد يرتطم بكريمة التي كانت تنزل الدرجات بهدوء، فرفعت ذراعيها أمام وجهها في رد فعلٍ لا إراديٍّ وهي تطلق شهقةً عاليةً خرجت مباشرة في أذن سامر الذي توقفَ في الوقت المناسب ماداً يديه بسرعةٍ ليثبتها مكانها قبل أن تسقط.. سألها فوراً: «**هل أنت بخيرٍ يا كريمة؟ هل التوى كاحلك أو أصابك شيء؟**». ردت وهي تلتقط أنفاسها: «**أنا بخير يا سيد سامر، ولكن هل أنت بخير؟ لِمَ تركض بهذه السرعة؟ هل حدث شيءٌ لا سمح الله؟**».. حك أذنه وهو يغمز بإحدى عينيه ويهز رأسه نفياً قائلاً: «**لا، لا شيء، اطمئني..**» ، ثم تابع مازحاً بمرحٍ أحال التراب

على نار الغضب التي تنهش قلبه: «**أنا فقط ابن حظٍ، ولي في الطيب نصيبٌ لأرتطم بسيدة الحسن والجمال في هذا القصر.**»، و مد يده في حركة سريعة وكأنه يدغدغها فضربته برفق عليها وهي تضحك، وقالت وهي تتابع طريقها إلى الأسفل: «**لا تركض بهذه السرعة على الدرج حتى لا تؤذي نفسك يا بني.**»، فردَّ بنفس الأسلوب وهو يضع يده على قلبه في حركة مسرحية: «**لن أفعل إن منحتني قبلة.**»، ضحكت بصوت أعلى واستمرت في طريقها دون أن تلتفت إليه... كانت تستلطفه كثيراً، لا يعجبها أسلوب حياته ولكن كان في نظراته شيء يكسر قلبها ولا تدري ما هو. هو كثير المزاح والضحك، ويحرص كلما تسنى له على ملاطفتها بودٍ وظُرفٍ.. كانت تشعر بأنه يبحث عن شخص ما يكون معه على طبيعته، فبغياب حسَّاب وخلافاته مع نادر وتحكم أميرة الشديد وصعوبة معاشرتها، لم يتبق أمامه سوى فؤاد الذي اختار أن يعتزل الحياة والناس، وآدم زوجها والذي كان يتحدث بقدر ما تمطر السماء في أغسطس.. وبهذا، لم يكن لديه سواها، وبعفويةٍ تقبلته هي بأحضان الأم، فهو رغم كل عيوبه لا زال يفتقد لحنان الأم وراحة البال والطمأنينة التي توفرها العائلة، ولم يضايق هذا أياً من نادرٍ أو فؤاد، لذا، لم تُبعده وإنما على العكس شكرت الله على إرساله كل هؤلاء الأبناء لها، فمن الوارد جداً أن يكون لديك الابن الصالح واللعوب معا.. ولكن ما يقلقها بخصوصه أنه لا يلقي بالا لشيءٍ ولا يهتم بأحدٍ، وجُلَّ ما يشغل باله هو الإنفاق واللهو.. ابتسمت وهزت رأسها.. (شباب هذه الأيام)...



تعالت أصوات الثرثرة والضحكات من خلف باب غرفة نادر السميك حتى أن حسَّاب تمكن من أن يستبين تفاصيل الكلام وأصوات المتحدثين من الخارج، فكاد يتراجع عن الدخول حين تبين صوت أميرة و فؤاد، إذ بعد حديثه مع سامر لم يعد في مزاج يسمح له بتحمل أميرة ونظرات فؤاد وتعليقاته الحادة، ولكنه حين استدار ليغادر، فُتح الباب وظهر على عتبته الشخصان اللذان كاد يغادر تحاشياً للقائهما..

«**ها!! ها قد جاء الغالي حتى لا تبقى وحدك يا نادر.**»، ابتسم فؤاد ابتسامةً عريضةً صافيةً لخاله وهو يفسح له المجال ليدلف إلى الغرفة فدخل الأخير متجاهلاً التعليقَ والابتسامة وصاحبَهما نفسه، إلا أنه لم يفت عينه اللماحة أن ترصد تعلق أميرة بذراع فؤادٍ وهما ينزلان الدرج ويتحدثان بودٍّ عن الطقس وأشياء اخرى!! (ماذا يجري ؟! هل غبت طويلاً جداً إلى هذه الدرجة!!! أميرة و فؤاد؟!! كيف؟ متى؟؟؟!!!)..

ناداه نادر الذي كان مسترخياً على كرسيٍّ سماويّ اللون ضخم، بجوار الشباك الكبير الذي يملأ الحائط المجاور للفراش حيث كانت حبات المطر الغزيرة تضرب زجاجه كنقر الطائر الصغير، وقد بدا مرتاحاً مسترخياً متحرراً من القيود والرسمية والمشاغل في بيجامته البيضاء التي تظهر من تحت روبه الرمادي المفتوح: «**تعالى يا خالي، كنت أسأل عنك حالا، فقد اقترح الشباب أن نقضي فترة إجازة في مكانٍ دافئٍ، ولأنني كما ترى لا يسمح لي بالسفر والإرهاق فقد استبعدنا (نيس) لهذا العام، واقترحت أميرة رحلةً على ظهر (الأميرة) بشرم الشيخ.. فما رأيك؟**». كان حسَّاب قد جلس على الكرسي الوثير التوأم لكرسي نادر حيث لم يفصلهما إلا طاولةٍ كلاسيكيةٍ صغيرةٍ من خشب البلوط القاتم تعلوها مزهريةٌ زرقاءَ بسيطةٌ وعصريةٌ نسقت كريمة زهورها البيضاء بعناية.. كان يرتاح في غرفة نادر، ليس لمذاقها الرجولي البسيط، ولا لأن أميرة لم تفرض عليها لمساتها وروحها كباقي الفيلا، وإنما كان لصاحبها الدور الكبير في هذا، فبعد وفاة والده، ألقى نادرٌ بنفسه في أحضان حسَّاب بكل صدقٍ وحب، وتلقاه الأخير بكل سعادةٍ وترقبٍ، فهذا كان غاية ما يتمناه...نظر لنادر ملياً.. إنه على يقين من أن نادر يحبه بكلِّ ما تحمله الكلمة من معانٍ تشمل الثقة والصدق والإخلاص والارتياح، وحسَّاب يدرك جيداً أنه يُحكم قبضته على مشاعر ابن أخته الذي لم يجد غيره ملاذاً من برد الوحدة ومشقة المسئولية.. تعجب كثيراً لسير الأحداث في الأيام القليلة الماضية والتي توَّجت أعواماً من المآسي والكوارث التي حلت بهذا البيت!! كيف يمكن أن يتصور أن هذا الشاب الوافر الصحة كاد أن يقضى منذ أقل من أسبوعين؟!!! وتعجب، كيف يمكن

أن تقترب الحياة من حافتها إلى هذا الحد ثم تتراجع لتسير مختالةً ساخرةً في عكس الاتجاه وكأن شيئا لم يكن؟ أن تتجاهل شقاءهم ومعاناتهم وأن تُلوِّح بأحلامهم ومخاوفهم أمام أنوفهم ثم تحيل كل ذلك إلى ترابٍ يعصف به اليأس والخيبة والسخط!!.. أن ما كانوا قد اعتبروه واقعاً تعايشوا معه سواءً برضاهم أو رغماً عنهم صار ماضٍ تذروه الرياح وتخفي آثاره حتى ليظنوا بأنه لم يكن!!

رد بهدوء: «**والله أراها فكرةً ممتازةً، فمتى كانت آخر مرةٍ ابتعدت فيها عن العمل واستمتعت بوقتك كالآخرين..**».. فرك يديه الباردتين ثم مال ليصب لنفسه فنجاناً من الشاي الساخن من الإبريق الخزفي، الذي تركته كريمة على صينية فضية، يتوسط ثلاثة فناجين تستقر بأناقةٍ فوق صحونها البيضاء الفضية الحواف، ليدفِّئ أوصاله التي تجمدت من البرد في الحديقة، إذ لم تفلح التدفئة المركزية في الفيلا من تخليصها من عضةِ البرد القاسية.. قال وهو يبتسم لنادر الذي كان يتابعه بابتسامةٍ متحفظةٍ: «**أنتم جميعا بحاجةٍ لتغيير الجو والتواصل كعائلةٍ من جديد.**».. قال نادر ببساطةٍ: «**سنذهب جميعا.**»، وأشار بسبابته إلى حسَّاب مكملاً: «**وهذا يتضمَّنك أيضاً وبلا نقاشٍ يا خالي.**».. ضحك حين سعل حسَّاب بعدما احتسى رشفةً من فنجانه وقال موضحا: « **تُعِدُّ كريمة لي شاي البابونج والأعشاب بدلا من الشاي والقهوة .**».. أعاد حسَّاب الفنجان إلى الصينية بحرصٍ قائلاً: «**كان الله في عونك، إن طعمه لا يطاق..**»، ثم اعتدل ورجع بظهره إلى الوراء واضعاً ساقاً فوق الأخرى، وقال وهو يعدل ياقة قميصه: «**والله يا بني لو كان في مقدوري الذهاب لذهبت معكم ولكني لا أشعر برغبةٍ ولا قدرةٍ على السفر هذه الأيام.**»..

تأمله نادر بصمتٍ وتساءل مع نفسه عن سبب إصرار خاله على الابتعاد عن البيت ومن فيه بشكل صريح وواضح. في البداية كان يغيب أسبوعين على الأكثر، ولأن نادراً على علم تامٍّ بنزوات خاله وعلاقاته الكثيرة حتى من قبل أن ينتقل للمعيشة معهم، فلَم يشأ أن يشعر خاله بأن عليه أن يغير حياته أو أن يضحي بحريته ليرضيه، فامتنع عن السؤال عن وجهته كلما غاب واكتفى بأخذ الرقم الخاص ليطمئن عليه بين الحين والآخر.. إنما الحال قد تبدل الآن، فبدلاً

من أن يقضي معهم الرجل أغلب الوقت ولا يتغيب لأكثر من أسبوعين كل شهرين أو ربما كل ثلاثة أشهر، صار لا يتواجد في البيت لأكثر من أسبوع كل أربعة لستة أشهر، لا يربطه بهم سوى اتصال نادر المتقطع به والذي كان يتجنب خاله فيه ذكر مكانه، كما حرص نادر كذلك على عدم السؤال.. ولكن ما يحير نادر فعلاً هو سبب هذا النفور! فمَن هنا في البيت سوى ولدي أخته، اللذين تحت وصايته من الأساس، وهو وفؤاد؟! ولنقل أنه غير راضٍ عن تصرفات بعضهم، أوَليس من الأولى والأوقع من وجهة نظر العقل والمنطق أن يوجههم بدلاً من القفز من السفينة الغارقة وترك من بها وشأنهم أغرِقوا أم استطاعوا النجاة!! لقد طلب من خاله الانتقال للعيش معه وفؤاد، رغم تحفظ فؤاد على هذا، لخلاف والدهما القديم مع حساب والذي رأى فيه نادر بعض التعسف من قبل أبيه والتعنت من خاله بالرغم من أن الرجلين في نظره جيدين كل على طريقته، إلا أن الظروف وضعتهما في عربتين متقابلتين ، ولكنه على أي حال رأى أن في وجود خاله إلى جواره عوناً معنوياً وسنداً لمواصلة مسيرة والده وتحمل اعبائه.. والواقع أن هذا الوضع كان مناسبا للطرفين، فخاله سينعم بالحياة التي لطالما تمنَّعت عليه، فترك وظيفته الحكومية كموظفٍ في رعاية الشباب بجامعة المنصورة، واكتفى بالراتب الذي يتقاضاه من نادر، والذي يساوي أضعاف راتبه الحكومي، مقابل وظيفةٍ إسميةٍ لا صفة لها ابتدعها له نادر ليحفظ بها ماء وجهه، على أن يمنح هو نادر الشيء الوحيد الذي كان في أشد الحاجة إليه وقتها: الدعم... ولكنه بدلاً من ذلك ألقى بحمل سامر وأميرة على عاتقه و نطلق يطارد نساءه أو أياً كان ما يفعله.. في البداية، لم يعارض نادر ذلك، بل على النقيض، فقد شعر بأن حياته تمتلئ بالعائلة والعمل وشعر بقدرته على الخوض في خضم الحياة بثقةٍ أكبر، أما الآن، وقد مرت سنواتٌ طوالٌ من توليه إدارة هذا السيرك، فقد شعر بالإنهاك وبعدم الرغبة في الاستمرار، لا بل عدم القدرة على تصور الاستمرار على هذا النحو، بالرغم من أنه وعلى عكس خاله لن يستطيع أن يتنصل من مسئولياته لمجرد شعوره بالتعب أو الضيق... أيحبُّ خالَه؟ نعم،.. بالطبع! ولكنه غير متفهمٍ لأسلوبه وغير راضٍ عنه...

لم يلحظ حسَّاب صمت نادر وتأمله إياه، فهو بطبيعته قليل الكلام. تشاغل بتقليب إحدى مجلات السيارات التي بجوار صينية الشاي.. مرَّ الوقت صامتاً لا يقطعه إلا صوت صفحات المجلة التي يعبث حسَّاب بأوراقها فيما بقي نادر سارحاً بأفكاره بعيداً بين حبات المطر التي تنزلق على زجاج نافذته و قد شبك كفيه أمام وجهه مستندا بكوعيه على مسندي كرسيه الوثير.. كان كثير الصمت والتفكير إلا أنه لم يكن كثير التأمل، فحين كان يصمت، كان لأنه يفكر في أعماله وصفقاته، أو يغوص باحثاً عن حلولٍ لمشاكل أخيه وابنته.. ولكنه ما كان أبداً يتطرق للتفكير في حاله، ولا أتاحت له الظروف فرصة تأمل وحدته وكآبة مستقبله بعناصره القديمة من مالٍ وأعمالٍ وابتساماتٍ مدفوعةِ الأجرِ. حاول كثيراً مذ خرج من المشفى أن يهيل التراب على جذوة المشاعر التي تحاول أن تستيقظ بداخله، ولكنه كان كلما ازداد اصراراً على طمسها ازدادت توهجاً واشتعالاً لتذيب جليداً بَطَّن قلبه لأعوام، وتلقي بنورها على جوانب مظلمةٍ فيه لم يكن يدرك أنها موجودة لديه كباقيً البشر.. كم من مرة هنأ نفسه على صلابته وتعجب من قدرته على تجنب الوقوع أسيراً لقلبه، ولكم من مرة سخر من فؤاد وهو يشكو من لوعة الحب حين كان يسعى لخطبة شهيرة..(يبدو أن لا شيء في الدنيا يمكن أن يكشف البصر عن حقيقة الحياة أكثر من تذوق الموت).. تعجب لحاله، فسابقاً كان قلما بقي في البيت أو قابل أحد أفراد أسرته إلا أنه كان يعلم بأنه السيد صاحب الكلمة وبأن هذا البيت هو ومن ينتمون إليه لا يصيبهم من شيءٍ إلا وكان له به علمٌ .. أما اليوم، وقد أقام بالمنزل ليل نهار، فقد شعر بوحشةٍ وغربةٍ عجيبتين، ما أصابه بالسقم.. .. تَفَكَّرَ، كيف أن المشاعر التي يعانيها الناس مهما كان نوعها، ما هي إلا انعكاس لحياةٍ وتفاصيل يعيشونها ومشاقٍ يتكبدونها، فكل من هنا لديه حياة تشغله وَصِلَاتٌ خاصةٌ تربطه بآخرين، وذكريات مع أناسٍ اختاروا أن يكونوا جزءاً من حياة بعضهم البعض، فآدم وكريمة ثنائي متحابٌ وهادئٌ، يثق كل منهما بأن الآخر سيكون كالوتد يشد من أزره إن دارت عليه الدوائر.. خاله وحاله وما يفعل، والذي لا يستطيع أن يلومه عليه، بعد حياة الحرمان التي

يحكي له عنها كلما سنحت الفرصة، ويبدو بأنه وجد راحته في مكان ما، أو ربما تزوج!! حتى فؤاد، فبالرغم من أن الشقاء قد خط حروفه على صفحات حياته إلا أن لديه ذكرياتٍ سعيدةً مع أكثر مخلوقة أحبها في الوجود ولديه منها أجمل وأرق ذكرى .. شهد.. أميرة وسامر لا يفترقان، وبرغم اختلافهما فهما ملتصقان، وماضيهما الفقير وبؤس ذكرياتهما يربطهما برباطٍ خفي أقوى من أي خلاف... أما هو، فقد كان مرتاحاً للأرض الصلبة التي يوفرها له العمل ولم يرَ في يوم من الأيام حقيقةَ أن حياته تفتقر إلى الكثير من كل شيء وكل عاطفة.. وعْكته البسيطة وضعته في مواجهة جفاف واقعه، الذي كان يتشاغل عنه، ربما عمداً وربما دون أن يشعر، بالانخراط في حيوات أهل بيته، فلم يرى أمامه بعدما أدار ظهره للعمل إلا أجواءً باردةً بيضاء خاويةً من كل لونٍ، كاللوحة الباهتة التي تطالعه من نافذة غرفته.. أغمض عينيه برفقٍ يبحث في ظلمتهما عن ذكرى جميلة تنتشله من مَعِين الكآبة التي بدأت تزحف إلى قلبه وملامحه في الأيام الأخيرة. ارتسمت على جدران أجفانه صورةً باهتةً لطفلٍ يلعب بدراجةٍ بلاستيكيةٍ صغيرةٍ وطيف امرأةٍ يركض خلفه، لم يسمع في حياته صوتاً أعذب ولا أنقى من صوت ضحكة أمه، ولقلّما سمع هذه الضحكة!!.. جاهد ليقترب من الصورة حتى يستبِين تفاصيلها إلا أنها تبخرت كالسراب حين دنا منها.. فتح عينيه ليجد خاله الذي نسي تماماً وجوده لازال يقلب في صفحات المجلة، فضحك بخفةٍ إذ يعلم بأن خاله لا يقرأ ولا يتحدث الإنجليزية، وهي اللغة التي تصدر بها هذه المجلة.. رفع حسَّاب عينيه عن الصورة التي كان يحدق بها مستفهماً: «**أقُلتَ شيئاً يا حبيبي؟**»...

وقف نادر واتجه نحو خزانة الملابس الضخمة التي تغطيها المرايا بالكامل فلا تعرف عن وجودها إلا حين يفتحها نادر ليدلف إليها وقال وهو يسحب قميصاً مطوياً بعنايةٍ من على أحد الأرفف التي ملأت الجدران حاملة عدداً كبيراً جداً من القمصان والأحذية والألبسة الرياضية: «**لا شيء، سأنزل لأتمشى قليلا.**»..

جاءه صوت خاله عالياً: «**تنزل؟ أين؟ في هذا الطقس؟ أجننت يا بني؟ ستمرض حتماً!! ما الأمر؟ هل مللت من حديثي أم أن الجلوس إلي صار يضجرك؟**».. كان نادر يقفل أزرار سرواله الجينز ولكنه توقف للحظةٍ حين سمع سؤال خاله البسيط.. رفع عينيه إلى السماء وهو يهز رأسه بتعجبٍ (وهل تفوهتَ بكلمةٍ واحدةٍ مذ جلست!!)، ولكنه رد بأدبٍ وهو يكمل ارتداء ثيابه: «**وهل هذا كلام يا خالي؟!**»، خرج وهو يدخل ذراعيه في أكمام البلوفر الصوفيّ المفتوح مكملاً: «**أوَهناك شيء يريحني أكثر من الحديث إليك؟ ولكنني مللت كثيراً البقاء بين أربعة حوائط ولن يضيرني إن حركت قدماي قليلاً.**».. عاد جلس حيث كان مقابل حسَّاب الذي رد بسرعةٍ: «**أي أربعة حوائط يا نادر؟!! الغرفة، ما شاء الله، تتسع لملعب تنس يا بني، وبها كل شيء حرفياً حتى أنني أستطيع أن أقيم حفلة بها!!**».. لم يتجاوب وقد عرف ألا جدوى من الجدل مع خاله، فقال مغيراً الموضوع وهو يستند بكوعيه على ركبتيه المتباعدتين ويشير برأسه إلى المجلة التي ألقاها حسَّاب بإهمالٍ على الطاولة: «**هل أعجبتك المجلة؟ لاحظت أنها اجتذبت اهتمامك.**». ضحك حسَّاب وقال: «**لم أفهم كلمةً واحدةً مما هو مكتوب، وحتى لو كانت بالعربية لما فهمت شيئاً كذلك... لا تستهويني السيارات والمحركات وهذه التفاهات.**» رفع نادر حاجبه وعاد بظهره إلى الوراء مسترخياً يمد رجليه أمامه معلقاً: «**تافهة؟ هذه تجارة بالمليارات ورياضات السيارات من أكثر الرياضات شيوعا.!! مَن لا يحب السرعة والسيارات؟**». أجابه حسَّاب فوراً: «**أنا.**».. ضحك نادر بقوةٍ وسأله: «**ولكنك بقيت أكثر من نصف الساعة تقلب صفحات المجلة وتفحصها وكأنك تدرسها.. كل هذا وأنت غير مهتم بمحتواها؟!**» ثم قال وهو يمثل الخبث بتعابير مسرحية مقلداً صوت خاله: «**أم أنك مللت مجالستي وحديثي صار يضجرك أكثر من هذه المجلة السخيفة؟**»

اعتدل حساب وهو يضحك هو الآخر وقال معتذراً: «**آسف يا حبيبي، لقد شردت وأنا أقلب وأتفرج على السيارات... فبالي مشغول بموضوع ما، أريد أن أفاتحك فيه، ولكن في وقت آخر..**».. استوى نادر في جلسته وقال باهتمام حقيقي: «**خيراً يا خالي؟ تكلم فيما تشاء.. وهل تحتاج إلى إِذن لتحدثني؟!! هيا، فلَيس لدي**

أكثر من الوقت الآن».. اعتدل حساب مثله وقال وهو ينظر في عيني نادر ليقرأ فيهما ردة فعله بوضوح: «**الموضوع بخصوص سامر.**»، قالها وصمت ليرى وقع الاسم على نادر، إلا أن الأخير لم يطرف أو يحرك ساكناً و بقي منتظراً باقي الحديث، فابتلع حساب ريقه وتابع: «**الولد يريد أن يعتمد على نفسه.**»، أشار بسبابته مكملا: «**وأنا شجعته على هذه الفكرة.. ولكنه فقط يحتاج إلى دفعة صغيرة في البداية كأي شاب في مقتبل حياته..**».. علق نادر بهدوء مُقرّاً بواقع لا جدال فيه: «**سامر في السابعة والثلاثين من عمره وليس في مقتبل حياته.**». بقيا صامتين لحظات حتى قال حسَّاب: «**أياً يا نادر. المهم أنه أفاق ويريد أن يعمل فما رأيك؟**»..

فرد نادر كفيه و هو يهز رأسه برفق وقال رافعاً حاجبيه متظاهراً بعدم الفهم حتى يخرج كل ما لدى خاله: «**وماذا يمكن أن اقول؟!! تفكير مناسب وطبيعي.**».. قال حسَّاب بسرعة: «**ممتاز، لهذا كنت أطالع المجلة بدقة... ما رأيك في شركة بيع سيارات مثلاً كمشروع؟ هل تستطيع أن تموله له؟**»، ضحك مكملا : «**أعرف أنه سؤال سخيف، بالطبع تستطيع..**».

بقي نادر صامتاً فتابع حسَّاب وهو يلوح بيده يميناً ويساراً وإلى الأعلى الأسفل، شارحاً أفكاره وتصوراته: «**تخيل شركة ضخمة تضم أشهر وأكبر الماركات الأمريكية واليابانية والألمانية.. سيكون هذا عظيماً وسيفرح سامر كثيراً، صدقني أنا أعرفه جيداً.. سيسعد بالفكرة..**». استمر نادر في التحديق بحسَّاب في صمتٍ والأخير مسترسل في رسم صورةٍ فخمةٍ ضخمةٍ عن مشروع سامر وما يفترض أن يكون عليه. لم يعد يستمع إلى كلام خاله وإنما ركز كل تفكيره على أن يتمالك أعصابه حتى لا ينفعل على الرجل المسكين، فحسن نواياه وسعيه لمساعدة ابن شقيقته بالإضافة لجهله التام بعالم الأعمال يشفعان له اندفاعه وانبهاره بالأفكار الساذجة التي تخرج من فِيه. أمسك حسَّاب المجلة ذاتها وأخذ يشير إلى بعض صور السيارات ويقترح استيرادها لأنه لم ير مثيلاً لها في مصر.. انتظر نادر بصبر حتى توقف حساب تماماً منتظراً رده على السؤال الذي طرحه ببراءة: «**ها؟ متى يمكن أن يبدأ المشروع حتى أخبره ليجهز نفسه ويستعد؟**».

كان حساب قد أصبح على حافة كرسيه من شدة الحماسة، وينظر الآن إلى نادرٍ بمنتهى الترقب. خلع نادر الجاكيت الصوفي، فالجو في الغرفة دافئٌ جداً ووَضعَه برفق على مسند كرسيه ثم اعتدل قائلاً بجدية: **«بادِئاً ذِي بدءٍ، هناك سببٌ وجيه لعدم وجود مثل هذه السيارات في مصر، فالسوق يحكمه حسابات، والتجارة تتطلب إحصاءات ومواءمات مع متطلبات السوق، نظرية العرض والطلب.. والأهم بخصوص ما قلتَ، أن سامراً بنفسه هو المكلف بتحديد نوع النشاط الذي يريد ممارسته، لا أن تختار أنت له..»** وعدَّدَ على أصابعه: **«مَنوطٌ به اختيار طبيعة النشاط ونوع السلعة وشكل المشروع وتاريخ تقديري لموعد البدء وإطلاق المشروع!!..»**، فتح حسَّاب فمه ليرد إلا أن نادر تابع مستوقفاً إياه بحركةٍ من يده: **«لا، أرجوك، دعني أنهي كلامي..»**. تراجع حسَّاب في كرسيه وهو يرمق نادراً بنظرةٍ لم ترق للأخير كثيراً ولكنه تجاهلها وتابع: **«ذاك كان أولاً، وثانياً، ما خبرة سامر ليبدأ حياته المهنية بإدارة مشروع بهذا الحجم؟ كيف سيديره ويسيطر على نفقاته وإيراداته وتعاقداته؟..»**، قاطعه خاله: **«بالطبع سيحتاج لمساعدتك وعلاقاتك في البداية.»**.. أكمل نادر كلامه وكأن خاله لم يقل شيئاً: **«وثالثاً، في حال تم الأمر كما صورت، فأياً كان المشروع، طالما سأكون أنا من سيؤسسه لسامر، فسأكون شريكه في الملكية والإدارة.»**..

كان حسَّاب يهز رأسه بينما مط شفتيه وهو يستمع إلى شروط نادر وتحكماته. قال حين صمت الأخير: **«ولكن الفتى بهذه الصورة لن يحقق ما يريد من هكذا أمر..! فقد أراد أن يشعر بالاستقلال لا أن يعمل لديك.»**.. اعتدل نادر ووضع ساقاً فوق الأخرى وهو يرد ببساطة: **«ولكنه لن يعمل لديّ! سيصبح شريكي.»**.. استدار حسَّاب بجسده كله باتجاه نادر وهو يقول مضيقاً عينيه: **«ولكن سيفُك سيكون مسلطاً دائما فوق رقبته، وسيأتمر الجميع بأمرك متجاهلين الفتى تماماً!»**.. مط نادر شفتيه مجيبا ببساطة: **«طبيعي.. في البداية على الأقل، حتى يثبت وجوده بنفسه.»**.. **«و ماذا إن أراد أن يعمل وحده، خاصة وأنا أعلم، ولست غريبا عنكما، كيف أنكما لا تتفقان إطلاقاً!! لا تجعل مشاعرك تؤثر في قراراتك يا بني، خاصةً فيما يخص العائلة.. صدقني هذا أسوأ ما يمكن أن تفعله لنفسك ولِمن**

حولك.». ابتسم نادر قائلاً بمنتهى الصراحة: «**لو كنت أُحَكِّم مشاعري في عملي لما عرضت شراكتي عليه لنفس السبب الذي ذكرته، فأنا أعلم كيف يمكن أن تعود الشراكة بالخسائر إن لم يتفق الشركاء.. إلا أنني سأخاطر بهذا لأجل العائلة وكونه قريبي، بالطبع مع أخذ كل الاحتياطات اللازمة لمنع انهيار العمل في ظل أي أزمة أو اختلافٍ في الرأي، فلدي سمعة أحافظ عليها ومال لا أحب خسارته. وصدقني أنا أفعل هذا لمصلحته هو، فلا نفع عائدٌ عليَ من كل هذه القصة، بل على العكس، ستزيد من مسئولياتي ومشاكلي وستستهلك من وقتي الذي تعلم تماماً بأنني أنا نفسي لم أعد أملكه.**».. كان خاله يوافقه بهز رأسه برفقٍ، وفكر قليلاً قبل أن يقول: «**معك حق، ستزيد من مشاغلك دون داعٍ إطلاقاً بينما بعد ما حدث لك عليك أن تقلل من ساعات عملك.. لهذا أرى أن تساعده بالنصيحة والمتابعة المستمرة دون شراكة، وصدقني سيأتي هذا بنتائج أفضل لكليكما، بل وقد يوطد علاقتكما ويحسِّنها.. ثم كيف ستتحكم بالشراكة وتمنع المشاكل والاختلاف ما دمتما شريكين؟**»...

أسند نادر كوعه على الطاولة وأسند ذقنه على أصابعه المفرودة وهو يقول ناظراً في عيني خاله مترصداً رد فعله على ما سيقول: «**سأكون الشريك صاحب الحصة الأكبر..**».

تدافعت الكلمات إلى لسان حسَّاب ولكنه حبسها خلف شفتيه اللتين ضمهما بشدة حتى لا ينطق بما لن يستطيع التراجع عنه بينما بادل ابن أخته النظرات الفاحصة.. لم يعتد أن يحدثه نادر بهذا الشكل أو يجادله إلى هذا الحد، ولهذا كان يحتاج إلى الوقت ليستوعب هذا التغيير، فكثيراً ما تحدثا في شئون سامر وأمورٍ أخرى لا تعجب نادراً، و لكنه أبداً ما كان متعالياً متسلطاً بهذا الشكل، ولم يضِّن بماله في أي وقتٍ عن أي أحدٍ مهما استخف بالأسباب!! قال أخيراً: «**ما بِك يا نادر؟ أنت لست ابن أختي الذي أعرفه ككف يدي، وكأنني أتحدث إلى غريب!! هل هناك ما يضايقك؟ هل حدث شيء لا أدري عنه شيئا؟!!**»

لانت النظرة في عيني نادر وهو يشفق على خاله العزيز من الحدة والمباشرة التي تناول بها الموضوع ، فالرجل لم يعتد مناقشة نادر في عمله ولا يعرف عن

نادرٍ رجل الأعمال بأكثر من لون حلته التي يراه بها ولهذا قال ملطِّفاً الأجواء: «**يا خالي، هل تأخرت يوماً عن تحقيق طلبات وأحلام أيٍّ من كان هنا؟**». رد حسَّاب فوراً: «**أبداً..**»، فتابع نادر: «**هل تدخلت في أسلوب حياة أميرة أو فؤاد أو سامر إلا لحل مشاكلهم وتحمل نتائج طيشهم فقط؟**». كرر حسَّاب رده بصدق: «**أبداً.**».. قال نادر وهو يميل نحو خاله وقال بصوت أودع فيه ما يستطيع من الرفق حتى لا يبدو متسلطاً: «**كلٌّ يفعل ما يحلو له بطريقته.. ولكن حين نتحدث عن العمل، فأنا سأفعل هذا بطريقتي، أو لا أفعله على الإطلاق.. فالأعمال هي حياتي يا خالي، وسأكون فعلاً مقصراً إن تركت سامر يضارب أمواج هذا البحر الهادر وحده وأن أقف على الشاطئ مشيراً له ليذهب يمنة أو يسرة.. لابد أن أمسك بيده حتى يستطيع الوقوف على رجليه على أرضٍ صلبةٍ.. وربما هذا ما قد يُقرِّب فعلاً بيننا وليس العكس.. أولن يقلب سامر فشله، إن حدث، لا سمح الله ، عليّ وعلى تركي له دون عونٍ حقيقي؟**»..

«**بصراحة يا بني، كلامك معقول جداً..**» .. اعتدل نادر ونظر من النافذة خلف كتفه فوجد أن الأمطار قد توقفت وأن الشمس قد وجدت ثغرة وسط طبقات السحب لترسل شعاعاً رقيقاً بعث شعوراً مريحاً في نفس نادر الذي أخذ نفساً عميقاً وابتسم.. تعجب كيف أن نقاشاً مستفزاً كهذا أعاد إليه جزءاً من الشعور بالارتياح، فيبدو أن حياته تزحف عائدةً شيئاً فشيئاً إلى ما كانت عليه.. حياته التي يعرفها برغم مشاكلها، إلا أنه كان قد حفظ شِعابها ودرس كل ركن فيها فأصبح يسير في مجاهلها بلا مجهود أو صعوبة، وكأنه على وضعية الطيار الآلي... عاد لينظر إلى خاله وهَمَّ بأن يقترح عليه أن ينزلا الآن إلى الحديقة ولكنه وجد وجهه قد تجهم وغرق في تفكيرٍ عميقٍ.. أشفق عليه، ولكنه لا يستطيع أن يتجاهل كل ما يعرف وأن يلقي الملايين تحت قدمي سامر ليلهو بها، فقط ليرضي خاله مهما كان مقدار حبه وتقديره له.. استند إلى كرسيه هو الآخر وتناول مجلة رياضية من على الطاولة (حسنٌ، يبدو أنه لن يكون هناك تمشية في الحديقة في هذا النهار).. بحث عن شيءٍ ليقوله حتى يكسر حدة التوتر الذي عكر صفو علاقته بحسَّاب، فلم يشعر بالذنب، وإنما لم يحب أن

يفقد العلاقة الوحيدة التي يرتاح إليها مع رجل يعتبره كوالده، فقال أخيراً وهو يقلب صفحات المجلة: «**أتحب أن تشرب شيئاً يا خالي أو ربما تتناول شيئاً ما؟ لقد انتصف النهار وأظنك ربما قد تحتاج لتتناول شيئاً ما.. هل تناولت أدويتك اليوم؟ هل تنتظم عليها أم تهمل صحتك؟**»..

رد حسَّاب بضيقٍ، حيث كان لا يحب أن يذكر أحد موضوع الأدوية وتلك الأمور التي تذكره بتقدمه في السن: «**اطمئن، أواظب عليها.. ليس الأمر بالشيء المهم. ولكن قد تكون على حق، فقد جُعت بالفعل.. متى سيقدمون الغداء؟**».. صحح له نادر مبتسماً: «**الإفطار؟ غالباً بعد أذان المغرب.**»، وضحك متابعاً: «**إلا أن كريمة تعد شيئاً الآن إن أردت، فكل يوم تصعد لي بالغداء في وقت قريب من هذا.**»، كان ينظر إلى ساعة يده حين دق الباب قبل أن يُفتح برفق ليدخل آدم دافعاً عربة طعام فضيةً أنيقةً، فابتسم نادر قائلاً لخاله: «**ألم أقل لك.**»، ثم وجه كلامه لآدم وهو يعود إلى مقالٍ عن فريق كرة قدم إنجليزي كان في فترة ما من عشاقه: «**ضع الطعام أمام خالي يا آدم، فلست جائعاً.**».. اعتدل آدم واقفاً بعدما وضع الصينية على الطاولة وباشر بكشف الأطباق، واعترض بحزم: «**لهذا صعدت أنا بالطعام اليوم، فكريمة تشتكي بأنك تردها كل يوم دون أن تتناول غداءك.**». رفع نادر حاجبيه فأكمل آدم بإصرار، متجاهلاً للمرة الأولى معنى نظرة نادر إليه، فهو لن يحتمل تكرار ما حدث للشاب مرة أخرى: «**أنت مفطرٌ على كل حال، وسبب هذا أنك بحاجة للأدوية والغذاء حتى تتخطى هذه الفترة الحرجة، فبالله عليك لا تغتر بإحساسك بأنك بخير الآن حتى لا يقع ما نكره ثانيةً، لا سمح الله..**» رقَّق نبرته متوسلاً: «**تناول غداءك يا بني ولا تشعر بالحرج، فلسنا أغراباً..**»، أدار رأسه ليقول لحسَّاب: «**أقنعه يا سيد حسَّاب بالله عليك.. فما حدث قد حدث بسبب إهماله لصحته وقلة نومه..**».. قاطعه نادر مبتسماً ليقول مداعباً: «**يا إلهي! لابد أنك استنزفت قدراً كبيراً من روحك لتعدَّ هذا الخطاب وتلقيه على مسامعي!!**». ابتسم آدم محرجاً بينما ضحك حسَّاب وقال: «**فعلاً، هذه أول مرة من عشر سنين اسمعك تقول جملةً تتكون من أكثر من كلمتين.. لابد أنك تحب نادراً جداً.**». ضحك ثلاثتهم فتابع حسَّاب وهو يشرع في تناول الطعام بالفعل:

«**انصرف أنت يا آدم لتتابع ما وراءك من أعمالٍ ودعني أنا سأشجعه. سأتغدى معه.**»..

هز آدم رأسه بأدبٍ واستدار خارجاً إلا أن نادراً استوقفه سائلاً: «**أين هو فؤاد يا آدم؟**»، كان يريد أن يتحدث إلى أخيه على انفرادٍ بخصوص ما لاحظه من تطور ما يشبه العلاقة بينه وبين أميرة.. أراد أن يستوضح الأمر وأن ينبه أخاه، إن لم يكن في سبيله إلى صياغة شكلٍ رسميٍّ لهذه العلاقة، فعليه ألا يتمادى حتى لا يعطي إشاراتٍ مربكةً لأميرة أو انطباعاً خطأً قد يؤدي إلى خلق وضعٍ حرجٍ لا يطاق في البيت..

قال آدم بعدما اقترب منهما ثانيةً: «**خرج هو والآنسة أميرة منذ قليل.**».

توقف حسَّاب عن تناول الطعام ونظر إلى نادرٍ الذي رفع أحد حاجبيه دون تعليقٍ، فقال وهو يضحك حتى كاد يختنق من اللقمة التي فمه: «**يبدو أن هذا البيت ستمر عليه أياماً، الله وحده يعلم بها.**» ضحك كلاً من نادر وآدم.. عاد حسَّاب لطعام نادر يتناوله دون حرجٍ واستغل نادر انشغال خاله فأشار بعينه لآدم مستفهماً عمَّ يجري وأجابه الأخير بأن هز كتفيه ومط شفتيه مستغرباً هو الآخر، فشكره نادر مغمضاً عينيه بامتنانٍ فأومأ آدم واستدار لينصرف، إلا أنه تراجع هو هذه المرة وتنحنح ليلفت نظر نادرٍ الذي كان قد عاد إلى مجلته. قال بأدبٍ: «**عفواً يا سيد نادر.. كنت أريد أن أستأذنك في أمرٍ ما.**».. ترك نادر المجلة فوراً واعتدل مولياً آدم كل اهتمامه فنظر حسَّاب إليه للحظة بتمعن ثم نظر إلى آدم الذي تقدم بهدوء، وقال حين نظر إليه آدم: «**أتريدني أن أخرج يا آدم؟**».. رد آدم فوراً: «**لا يا سيد حسَّاب، العفو.. أرجوك، تفضل أكمل غداءك، فالأمر ليس شخصياً على الإطلاق..**».

سأل نادر: «**خيراً يا آدم؟**». قال آدم معتذراً: «**لم أكن أحب أن أشغلك بأمورٍ صغيرة كهذه ولكنني لم أعد أجد الفرصة للتحدث مع السيد فؤاد، فهو إما في الشركة وإما...**» وصمت لحظة باحثاً عن كلماتٍ مناسبةٍ ثم تابع: «**منشغل بأمورٍ أخرى..**». تفهم نادر وأدرك ما يتحدث عنه الرجل العجوز فقال ببساطة: «**أنت تتحدث بخصوص شهدٍ، أليس كذلك؟**»، وتابع حين

هـز آدم رأسـه: «**مـا الأمـر؟ فأنـا أراها سـعيدةً أكثر مـن أي وقت مـضى.!**»..

تنحنح آدم ثانيةً وقال وهو يرمق حسَّاب بطرف عينه وبداخله يغلي غيظاً من الرجل الذي قضى على غداء الفتى دون خجلٍ أو كياسةٍ: «**لا توجد مشكلة بفضل الله يا سيد نادر، وإنما فقط، لقد مرَّ أكثر من أسبوعين على انقطاع الصغيرة عن دراستها وكنت أرى، من بعد إذنك أنه آن الأوان لتعود إلى مدرستها وأن أتصل بمعلمتها لترجع إلى دروسها.**»..

علق حساب الذي شرع يقشر برتقالةً صغيرةً: « **أنت تتحدث وكأن الفتاة في الثانويةِ العامةِ أو في الكلية، إنها في الصف الأول الابتدائيّ فحسب..**».. لم يرُد آدم وإنما نظر إلى نادرٍ منتظراً رده فسأل الأخير: «**ولِمَ غابت عن مَدرَستها من الأساس؟**». أجابه آدم: «**غابت منذ دخلت أنت المشفى، وتوقفت المُدرِّسة عن زيارتها بعد عودتك بالسلامة، حتى يتاح لها قضاء وقتٍ كافٍ معك**». اعترض نادر: «**لم يكن هناك داعٍ لذلك.. فربما كان ذهابها إلى المدرسة خيراً لها من بقائها هنا في مثل هكذا ظروف.. مَن صاحب هذا القرار؟ فؤاد؟**»..

ظهر الاحمرار على خدي آدم بالرغم من بشرته السمراء وقال محرجاً: «**لقد انهارت شهد تماماً ولم يكن ممكناً إرسالها إلى المدرسة وهي في هذه الحالة، فآثرنا أنا وكريمة أن نبقيها في البيت، ولكننا طلبنا من معلمتها أن تبقى معها وألا تتركها وبذلك لن يفوتها الكثير دون أن نضغط على المسكينة... والشهادة لله، لم تقصر المدرِّسة معها إطلاقاً، وقد تعلقت بها شهد كثيراً وكان لهذا خيرُ الأثرِ على الصغيرة التي كانت قد أضربت عن الطعام والشراب وحتى عن النوم حتى تزورك.**». لمس تصرف الصغيرةِ أوتارَ قلبِ نادرٍ ولكنه أخفى تأثره وقال ببساطةٍ: «**لا أرى مشكلةً إذاً يا آدم، أرسلها إلى المدرَسةِ ثانيةً.**».. أوضح آدم: «**لم أتصرف من تلقاء نفسي إلا لغيابك.**» ..

قام حسَّاب واتجه إلى ممر مخفي يؤدي إلى الحمام الضخم ليغسل يديه قد ضايقه معنى كلام آدم الضمنيّ.. فما معنى أن يتخذ خادمٌ القرارَ مادام نادرٌ غائباً؟!!! ألهذا الحد يستهينون به هنا؟!!..

حين عاد كان نادر يستقي المعلومات من آدم عن أحوال الصغيرة في فترة غيابه في المشفى: «**بذلت كريمة معها كل ما تستطيع ولكن الصغيرة عنيدة جداً ولولا حبها لمس مهرة فلا أدري كيف كنا سنتصرف.**».. ابتسم له نادر ولكنه لم يقل شيئاً، فقال آدم بعد لحظة: «**لهذا أرجو أن تأذن لي بأن أطلب مس مهرة لتعاود العمل مع شهدٍ، فبينما أقرانها ما بين المَدرسة والبيت، لا تفعل شهد شيئاً سوى اللعب ليل نهار، وفي سنها الصغيرة هذه ستنسى كل ما تعلمته إن لم تُتَابَع باستمرار.**».. أشار حسَّاب بسبابته نحو آدم وهو يقول لنادرٍ: «**يبالغ جداً بصراحة، فهي طفلة، فلتلعب وتلهو كما تشاء، حتى وإن غابت هذا العام بأكمله فستنتقل تلقائياً للصف الثاني، فالنجاح في الصفِّ الأول الابتدائي إلزاميّ..**»..

هم آدم بأن يرد ولكنه أحجم لحظة لامست العبارات النارية طرف لسانه، فابتلعها ووقف صامتاً بانتظار أوامر نادر الذي لم يعجبه تعليق خاله بدوره، فالفتاة في سن التأسيس، والتعليم لا يقتصر على القفز والانتقال بين مراحل السلم الدراسي فقط.. وقف وشَرع يرتدي جاكيته ثانيةً في إشارة للرجلين على عزمه الخروج وهو يسأل: «**قلت لتوِّك أن معلمتها لها دورٌ كبيرٌ معها في الفترة الأخيرة، فما الذي منعها من الاستمرار في زيارتها؟**»..

أجاب آدم وهو يساعد نادر ممسكاً له الجاكيت خلف ظهره في لفتةٍ حانيةٍ لا شعوريةٍ، فهو لا يريده أن يبذل أدنى مجهود ولو كان ضئيلاً كالذي يستلزمه ارتداء جاكيت: «**السيد فؤاد أعطاها إجازةً مفتوحةً.**».. تعجب نادر، أولاً: مِن تولِّي فؤاد شأناً يخص ابنته، وثانياً: أن يكون تدخله الوحيد في شأن ابنته هو منعها من شخص تحبه وتثق به!! (ترى ماذا فعلت تلك المعلمة..)، وهل لا يعلم آدم شيئاً عن السبب، فإن كان هناك سبب مقنع لما كان واقفاً أمامه الآن طالباً عودة تلك المعلمة لعملها، ولهذا لابد أن يكون السبب غير مهم أو حتى لا يكون هناك سبب على الاطلاق وإنما فقط ربما أراد فؤاد أن يحظَى بكامل الوقت مع ابنته..

سأل مجدداً: «**هل خرجت شهد مع فؤاد؟**».. ولدهشته هز آدم رأسه نفياً فاستفسر: «**إذا لم طلب فؤاد من المعلمة ألا تأتي، هل اقترفت خطأً ما؟**».. رد آدم بسرعةٍ: «**لا، لا، لا، حاشَ لله، فمس مهرة آية في الأخلاق والذوق، إنما الآنسة أميرة اقترحت إعطاءها فترة راحة بعد قضائها الأيام بِطولِها تعتني بشهدٍ، وكذلك لتمنح شهداً الفرصة لتستمتع بصحبتك بعد غيبتك الطويلة عنها.. وقد اقتنع السيد فؤاد .. هذا كل شيء..**»..

ضرب حسَّاب كفاً بكفٍّ وهو يضحك ما أضحك نادر بدوره وهو يسمع خاله يقول من بين أنفاسه المتقطعة: «**ألم أقل لك أننا سنشهد أياماً لها العجب... استرها يا رب..**»..

أشار نادر لآدم بأن ينصرف بعدما أذن له بالاتصال بالمعلمة، ووقف واضعاً يديه في جيبي بنطاله رافعاً كتفيه ليتمطى كالهر.. قال وقد وقف حسَّاب هو الآخر: «**تحسَّن الجو. سأتمشى قليلاً، فهل سترافقني؟**».. تثاءب حسَّاب وقال بصوتٍ ممطوطٍ: «**لا، فأنا أشعر بالنعاس الشديد بعدما تناولت الطعام.. سأذهب لغرفتي لأرتاح..**».. أشار لصينية الطعام معترضاً: «**كان يجب أن تأكل يا نادر، ولا تخجل كما قال آدم، فلديك عذرٌ شرعيٌّ يا بني.**».. رماه نادر بنظرةٍ معاتبةٍ مازحةٍ لعلمه بقصد خاله من التلميح، فضحك الأخير وقال مبرراً: «**لم أقصد ما فهمت، أنتم شباب اليوم أدمغتكم ملتوية.**».. ضحك نادر ضحكةً مقتضبةً وقال ناصحاً: «**راجع نفسك وتعالَ تمشَّ معي قليلاً، فليس صحياً أن تنام مباشرةً بعد تناول الطعام، سيرفع هذا مستوى السكر في دمك.**».. فتح حسَّاب فمه ليرفض ولكن واتته فكرة بخصوص مشروع سامر فقرر أن يستغل انفراده بنادرٍ ليتابع مناقشة الموضوع، خاصةً وأن كلامهما لم ينته إلى ما قد يُرضي سامر بأي حالٍ من الأحوال، فقال وهو يربت على ذراع ابن أخته: «**معك حق، فلنتمشى قليلاً، فركبتاي تصلبتا من الجلوس كل هذه فترة.**»....

تأبط ذراع نادرٍ بمودةٍ وهما ينزلان الدرج برويةٍ وهو يقص على نادر بعض النكات التي كان يحفظ منها المئات... حين وصلا إلى الباب الزجاجي استدار حسَّاب يُعدِّل جاكيت نادر ويشده ليغلق أزراره الأمامية الكبيرة، فآدم لن يكون أكثر اهتماماً بنادر وصحته منه هو، ولكن نادر أمسك يده برفقٍ وقال برقة حتى لا يجرح مشاعر خاله: «**رويدك يا خالي، لا أحب أن أغلق هذه الأزرار، سأختنق إن فعلت.**».. قال هذا وفتح الباب ليخطو إلى الخارج خطوةً واحدةً، وقف بعدها على أعتاب الباب يستنشق الهواء البارد النقي بِنَهَم، فقد سئم جو غرفته المكيف والأبواب والنوافذ المغلقة.. هبت نسمة لاسعة البرودة فكتَّف حسَّاب ذراعيه بقوةٍ وهو ينزل بجوار الشاب الذي بدا في هذا البرد بثيابه الخفيفة كمن فقد عقله!!!.. مرَّا بجوار نافورة هي نموذج مصغر من نافورة الحب في روما، تناثرت حولها كراسٍ حجريةٍ صممت خصيصا لتتماشى مع سحر النافورة ونقوشها.. وبالرغم من قسوة الشتاء، إلا أن مخالب برودته لم تستطع أن تنل من جمال البساط الأخضر الذي امتد تحت قدميهما وافترش الحديقة مبرزاً جمال وتفاصيل كل منحوتةٍ أو نافورةٍ أو حتى بيت طيورٍ وُضِع بدقةٍ وتناسقٍ مميز، ليجعل كل هذا من هذه الحديقة متحفاً أخضرَ يضم نسخة عن أجمل وأشهر النافورات والمنحوتات العالمية... ورغم غياب أغلب الألوان التي تلمع على أرضه صيفاً تحت أشعة الشمس الذهبية، إلا أن بعض الأُصُص الهندسية الشكل أشرقت بألوان بعض الأزهار الشتوية التي جلبت من انجلترا وتراوحت أشكالها وألوانها ما بين البنفسجية ذات القلب الأصفر، والبرتقالية ذات الأوراق الصغيرة والتي تتجمع في شكل كروي بديع، وتلك البيضاء التي يشبه تراص بتلاتها تكوين عنقود العنب، وغيرهم الكثير مما أبدع الخالق وجمع نادر من هنا وهناك...

«**كنت محقاً في إصرارك على النزول للحديقة الآن.. فالمنظر ينعش القلب والروح.**»..

أومأ نادر لخاله وأخذ يدير عينيه في الجمال البريء الذي يلفه من كل جانبٍ.. رفع نظره إلى السماء متسائلاً (هل سيكون تأثير ما حدث له كتأثير الأمطارِ على الحديقة التي زهت ألوانها وتلألأت حبات المطر منعشة على أرضها وأوراقها بعد أن غسلت عنها كل الأتربة، لتتجلى له الحياة زاهيةً يافعةً ممتلئة بكل ألوان الاحتمالات؟!!)..

« **بالنسبة للموضوع الذي ناقشناه منذ قليل يا نادر.**». انتبه نادر لخاله فسأله: « **أيُّ موضوع؟**».. سأله حسَّاب بدوره: «**موضوع سامر!!! أنسيت؟!!**». امتعض نادر كثيراً لإثارة خاله للموضوع مجدداً، فقد قال ما لديه في هذا الصدد، كما أنه ما نزل إلى الحديقة إلا ليستجم ويجدد نشاطه، وليس ليدعَ كل ما يحيطه من روعة ليتحدث عن سامر ومغامرته الجديدة التي عليه أن يمولها كالعادة دون سؤالٍ، فلم يحاول كبت مشاعره التي أطلت بوضوح من حروف كلماته وهو يسأل بِسَأَم: «**وماذا هناك ليقال ثانيةً بهذا الخصوص يا خالي؟ لقد قلتُ كل ما لدي وما أستطيعُ أن أقدمه له بكل صراحةٍ ووضوحٍ!**».

امتص حسَّاب ضيقه وأخفاه بحنكةٍ وقدرة سنين خبرة اعتاد فيها أن يكبت ما يشعر به حتى اللحظة المناسبة، وقال بصوتٍ هادئٍ: «**أعرف يا حبيبي، فقط لدي سؤالٌ بسيطٌ..**» وأشار إلى صدره متابعاً: «**ألا تتحمل ثرثرة خالك العجوز يا نادر؟**».. (وضعك في خانة اليَك.) ابتسم نادر وهو يرد بلباقةٍ: «**ما هذا الكلام؟! لست عجوزاً ولم تثرثر يوماً! أنا فقط بالفعل قلت كل ما لدي.**». قال حسَّاب بنفس النبرة المهدئة: «**نعم، أعلم يا بني، ولكني أتساءل: ماذا لو أراد الولد أن يستقل بعد فترة؟ هل ستمانع؟ وكيف سيصبح الحال وقتها. فقط أسأل عن تصورك لأني كما تعلم لا أفقه شيئاً في شئون الأعمال، أتفهم قصدي يا بني؟**»..

رد نادر مقطباً حاجبيه وقد ارتفع حاجبه الأيسر قليلاً: «**أفهم قصدك بالطبع، أنت تعني ماذا إن أراد أن يفض الشراكة، أليس كذلك؟!**». صحح حسَّاب بسرعة: «**لا، لا سمح الله.. أنا أتحدث عن أمر واردٍ جداً وهو أن يطلب أن يكون هو الصاحب والمدير الوحيد للمشروع، بعد فترةِ خبرةٍ، ولْنَقُلْ عاماً مثلاً.. أفهمتني؟**».. صمت نادر للحظاتٍ ليقلِّب عبارة خاله على كل الوجوه ويتأكد من فهمه جيدا ثم رد سائلاً وهو يضيق عينيه: «**أوَتتصور بأن عاماً واحداً سيكون كافياً ليتعلم سامر كيف يدير رأس مالٍ ضخم أو حتى متوسط؟**»، تابع وهو يكتف ساعديه فوق صدره: «**فرضنا صحة هذا يا خالي، لِمَ لا تخبرني تصورك أنت حتى نختصر الطريق على أنفسنا؟**» فرد إحدى ذراعيه وهو يشير بها إلى الفيلا خلفهما، والتي اغتسلت بماء المطر فازدادت أعمدتها وجدرانها لمعاناً تحت أشعة الشمس التي أخذت تعيد للألوان من حولهما دفئها، قائلاً بغضبٍ قلَّما استطاع أن يظهر في نبرته: «**ما هي شروط سامر بِك ليسمح لي بتمويله.**»، وعاد ليعقد ساعديه ثانيةً مضيفاً: «**أتدري أن رجل الأعمال المزعوم، لا يستيقظ إلا بعد انتصاف النهار، ولا يخرج إلا للشرب أو اللهو مع مجموعة المتسكعين الذين اعترضت بنفسك عليهم بعدما قابلتهم؟ هل تعلم أن السيد سامر قام بأخذ قطعةٍ من مجوهرات..**» وأشار بأصابعه كعلامتي تنصيص في الهواء: « **شقيقته**»، وأكمل فاتحاً كفيه بيأسٍ: «**دون علمها لسببٍ لا يعلمه إلا الله، وكأن كل ما ينفقه الرجل لا يكفيه!!! إن تصرفاته غير مسئولةٍ، وإن صح القول واعذرني يا خالي ولكنها الحقيقة، إلا أني أراها لا أخلاقية على الإطلاق... ثم يأتي الآن ليطالب بأن أأتمنه على ملايين الجنيهات فقط لأنه قريبي!!! هل ترى هذا معقولاً يا خالي؟**»... كان حسَّاب يتابع حديث نادر بتعجبٍ، فلم يره يوماً بهذه العصبية والحِدَّة وبخاصة وهو يتناول شأناً عائلياً وبسيطاً كهذا! لم يستسغ الطريقة التي تحدث بها نادر عن سامر ولا أن يشعر نحوه بهذا القدر من الاحتقار والرفض، إلا أنه تمالك نفسه بقوةٍ وردَّ ببساطةٍ: «**أتفق معك في أن بعض تصرفات سامر لا تروق لي، ولكني بصراحة لا أراها تختلف كثيراً عن تصرفات فؤاد، بل في الواقع، هما غالباً ما يسهران معا؟ فلم كل هذا ..**» وصمَتَ وهو ينظر إلى الأرض باحثاً عن الكلمات المناسبة قبل أن يقول: «**الرفض؟!!**».. اقترب ليضع يده على كتف نادر قائلاً: «**ما بك يا نادر؟ لم أرك يوماً بهذه العصبية، وكذلك**

لم أظنك يوماً تَكِيل الأمور بمكيالَين.. لا أريد أن يبدو كلامي كتطْيِيب الخواطر، إلا أني أقسم لك بالله أن سامراً يحبك جداً ويعتبرك مثله الأعلى، فلِمَ عليك أن تكون صارماً حاداً معه بهذا الشكل فيما أنت على النقيض، تحنو على فؤاد وتتعاطف معه، بالرغم من إهماله وتجاهله للطفلة المعلقة برقبته؟»، أراد نادر أن يعترض، فشتَّان بين كل من فؤاد وسامر!! والمقاربة بين الشخصين والظرفين مجحفة وغير منطقية، فما به فؤاد، ما هو إلا عارضٌ بسبب المحنة الشديدة التي مر بها، ومن قبلها كان رجلاً عاملاً وربُّ أسرةٍ مخلص، كما أن المال ماله وإن أراد أن يفعل به شيئاً، فلا يملك نادر حينها إلا أن ينصحه!! ولكن حسَّاب فرد يده أمام وجه نادر في إشارة تطلب منه عدم مقاطعته فصمت واستمع إلى خاله الذي زحف الغضب إلى صوته هو الآخر وطَلَّ من عينيه وهو يقول: «**أعلم أن وفاة شهيرة مأساة هزت أركان هذا البيت ولكن لكلٍّ ما مر به، ولسامر أيضاً ذكرياتٌ ومآسٍ قديمةٌ هي ما تدفعه للتصرف بغرابةٍ أحياناً.. ولا أرى من الإنصاف أبداً أن تتجاهل هذا، لتحكم عليه بمنتهى التجرد والقسوة.. لم أَظنك يوماً ظالماً أو متحاملاً كما أنت اليوم!! ولكن الخطأ ربما ليس خطأك، وإنما خطئي أنا، بأن ظننت بأنَّا أصحاب بيتٍ وبأننا كلنا لديك سواء ولسنا الفرع الفقير الذي تحسن إليه.. عامةً، انس الموضوع تماماً وأنا آسف لإزعاجك جداً...**». أمام هذا الفيض من الكلمات الغاضبة، أدرك نادر أن صمته هو المفتاح لغلق هذا النقاش الذي لم يمر بمثل حِدته مع خاله من قبل.. لم يُرحه أبداً كلام حسَّاب ولم يعرف أيضاً لِمَ لَمْ يُرضِ عرضه خاله! فهو الحل الوحيد المنطقي والعقلاني، وسامر هو المستفيد الوحيد فيه!! سادت فترة صمت ليست بالقصيرة بينهما انشغل فيها نادر بالتأمل واستنشاق الهواء المنعش واضعا يديه في جيبي سرواله، وحذا خاله حذوه، إلا أنه بدلا من تأمل الجمال الطبيعي الذي يلفهما انشغل بمراقبته لتعابير جانب وجه نادر بملامحه التي أظهرت عناداً وعزماً لا يلينان بالرغم من استرخاءه وتظاهره بالاستمتاع بما حوله .. كان يعرف ماذا يعني أن يقرر نادر شيئاً، لهذا لم يجد جدوى من استمرار الجدل في قضيةٍ خاسرةٍ، وعلى سامر الآن أن يقرر إما أن يقبل عرضه فتكون لديه الفرصة الأولى، وربما الأخيرة، في أن يحقق شيئاً لذاته، أو أن يضرب بقدمه كل هذا ويبقى متخبطاً في ظلمات الحاجة والشفقة على

الذات... طائرٌ ما أطلق صيحةً عاليةً وهو يحلق فوقهما بسرعةٍ فرفع كلاهما بصره نحوه. (يا لحظك) غَبِطَه نادر.. يعزُّ عليه أن يُغضب خاله عليه للمرة الأولى بسبب (شيء) كسامر، ولكنه لا يستطيع أن يتجاهل سنوات خبرته بكل من عالم الأعمال وبسامرٍ على حد سواء. نظر حوله وقد فقد رغبته في التأمل والاسترخاء، وشعر بأن التوتر قد تملك منه فمد يده يمسك خاله من مرفقه برفقٍ وتحرك نحو المقاعد الحجرية ليجلسا، وما أن استقرا حتى مال إلى الأمام واضعاً يده برفقٍ على ركبة خاله وبادره بهدوءٍ ومودةٍ: «**أنا عاتب عليك يا خالي فيما قلت، أتشعر حقاً بأني أتعامل معك من ذاك المنطلق الذي ذكرته منذ قليل؟!! أنا أعتبرك كأبي، وأنت تعلم هذا، فلا تُدخل الأمور في بعضها وتسمح لأيٍّ كان بأن يتدخل في علاقتنا..**». لان حسَّاب ورأى ألا يتمادى في موقفه وخاصة بأنه ندم على ما قاله وشعر بأنه قال ما لم يكن يصح قوله، على الأقل الآن، فمد يده الحرة ليربت على يد نادر راداً بلينٍ: «**والله يا بني إني أحبك أكثر مما كنت سأحب ابني، لو كان الله رزقني بولدٍ.. لم أقصد ما قلتُ ولكنك تعلم أن الولد تعلق برقبتي مذ كان عمره سبعة أعوامٍ ومسألة مستقبله تشغلني بشكلٍ مؤرقٍ.**»..

اعتدل نادر ورجع إلى الوراء وهو يأخذ نفساً عميقاً فارداً ظهره قبل أن يقول وهو يعود لينظر إلى خاله بتفهم: «**حسنٌ، بدون حساسيات يا خالي، كنت تسأل عن الوضع في حالة ما إذا أراد أنْ يستقل بعد فترة..**»، قاطعه حساب: «**أن يصبح المشروع بالكامل له.**»، ابتسم نادر ورد بهدوء: «**من أبسط ما يكون، إن أراد ذلك بعدما يرى..**» وتوقف مشيراً بإبهامه إلى صدره متابعاً: «**وأرى.. بأنه صار أهلاً لإدارة المشروع ، فما عليه إلا أن يشتري نصيبي.**».. فتح حساب كفيه سائلاً وهو يرفع حاجبيه: «**من أين يا نادر؟!**».. «**مِن ماله، ألن تَؤول إليه حصةٌ من الأرباح؟ فليدخر ما يُمَكِّنه من شراء نصيبي، بتقدير حجمه حينها وليس بإعادة قدر ما وضعتُ في البداية، وهذا هو الوضع الطبيعي في ظرفٍ كهذا..**»..

فكر حسَّاب في منطق نادرٍ السليم.. ولكنه بمعرفته بسامر، يعلم بأنه لن يقبل لا بالشراكة ولا بطريقة حل الشراكة... مسح وجهه بكفه وهو يفكر في مخرج آخر لسامرٍ ونادر يتابعه بصمتٍ، وأخيراً قال: «**و إن أراد هو تركَ**

الشركة؟». ابتسم نادر ثانيةً لأنه في قرارة نفسه على يقينٍ من أن هذا ما ستؤول إليه الأمور مع سامرٍ الذي لم يتحمل يوماً مسئولية، ولم يلتزم بشيءٍ أو شخصٍ منذ جاء للإقامة هنا، فردَّ ببساطةٍ: «**وماذا يمكنني أن أفعل له؟ بالتأكيد لن أضربه على يده ليستمر معي، فإن أراد أن يترك الشركة فليتركها.**».

سأله حسَّاب بدهشة: «**ألن تشتري منه نصيبه في تلك الحالة؟!!**».. جاء دور نادر ليندهش من فكرة خاله، فرد دون أن يخفي ذهوله منها: «**أأشتري مالي يا خالي؟!!!! أنسيت أنني من سأمول الشركة بالكامل؟**». سأله حسَّاب :»وكيف ستساعده حينها، فبالتأكيد سيحتاج لأن يجرب في مجالٍ آخر، فهل ستتخلى عنه حينها؟».. لمح نادر فؤاد وأميرة يقتربان فنظر في ساعته وتعجب من سرعة مرور الوقت. وقف وقال وهو يعدل هندامه: «**مساعدتي ستكون بأني لن أطالبه بالأرباح التي أخذها مسبقاً عن أسهم لم يشترِها من الأساس، ولم تكن فعلياً من حقه..**».. وقف حسَّاب بدوره و أخذ يمعن النظر في ملامح نادر، الذي انفرجت أساريره وهو ينظر لشقيقه الذي لوح له من بعيدٍ فأجابه بإيماءةٍ وابتسامة عريضةٍ.. صرَّح قائلاً: «**و كأني أراك اليوم لأول مرة يا نادر!**»، رد نادر بابتسامةٍ حقيقيةٍ مازحاً: «**وماذا ترى؟**» ..

صمت حسَّاب ثانيةً وراقب فؤاد وأميرة بدوره يقتربان حتى باتا مسموعين لهما ثم قال وهو ينظر في عيني نادرٍ الذي استدار له مستفهماً حين لاحظ صمته: «**أراك تشبه والدك كثيراً.**».. قال هذا واستدار منصرفاً فيما سمع فؤاد من خلفه يصيح ضاحكاً: «**والله كنت أعلم أني سأعود لأجدكما لا زلتما معاً. لم أر في حياتي شخصين يستمتعان بصحبة بعضهما مثلكما.**»... سمع صوت مصافحتهما العالية وهو يتابع سيره نحو الفيلا مغاضباً... لم يَردّ نادر إلا بابتسامةٍ، بينما تابع حسَّابُ ابتعاده في عزوفٍ اعتاده فؤاد حتى لم يعد يلقي له بالاً وإنما على العكس، كان يرتاح لابتعاد خاله عن طريقه قدر ما استطاع.. ما استولى على تفكيره في هذه اللحظة هو ابتسامة نادر ووقوفه على قدميه بكامل صحته وهيئته، والذي كان من أجمل المشاهد التي وقعت عليها عينا فؤاد وأثارت بنفسه الكثير من المشاعر الإيجابية.... وكذلك فعلت رؤيةُ نادرٍ بأميرة....

٤

التعب والإرهاق والانتقال من أقصى القاهرة لأقصاها، و العمل فوق الإثني عشر ساعة يومياً كان الثمن الذي دفعته مهرة غالياً مقابل الأسبوعين اللذَين قضتهما في صحبة شهدٍ متخليةً عن واجباتها نحو تلاميذها الآخرين اللذِين تسعى الآن للحفاظ عليهم وعلى الراتب الذي يدفعه لها أهليهم، والذي بدونه لا تدري كيف ستتدبر شئونها..

«لقد أتعبناكِ كثيراً في الأيام الماضية يا مس مهرة ونحن نقدر تعبكِ مع شهدٍ ومجهودك، الذي ما كانت لتمر عليها الفترة الماضية بسلامٍ دونَه.. ولهذا أرى من واجبي ومن الأدب أن أدَعَكِ تتنفسين قليلاً بعيداً عن أجواءِ القلق وضجيج شهد.. أرجو أن تقبلي شكري وأن تأخذي من الوقت ما يكفيك لترتاحي وتعودي لحياتك التي اقتحمناها بمنتهى الجرأة..».. بتلك الكلمات الرقيقة أعادها فؤاد إلى عالمها وواقعها المرهق منهياً، على عكس ما يظن، فترة من الراحة وتناسي الهموم، فبانشغالها بشهد الرقيقة، انشغلت عن عذاب فراق خطيبها وشكوى أخويها وتذمرهما الدائم من تأخرها وإهمالها لهما ومن واقع قاسٍ يحتم عليها أن تبقى كالنحلة تنتقل بين البيوت لتجمع ما يعيلها وأخوتها ويلبي احتياجاتهما المتزايدة، إلا أن النحلة تحظى بخلية كاملة تدعمها ويعين أشقاءها بعضهم بعضاً على واجباتهم فيما هي تقاسي الأمَرَّيْن ليمر اليوم بيومه دون إخفاقٍ...

(الحمد لله) تنهدت وهي تهدئ نفسها، فلن يأتي السخطُ والإحباطُ بأي خيرٍ أو عون لها على كل حال..

«**فيم ينشغل الجميل؟**» اخترق صوت شقيقها الفتيّ حجب شرودها فأجابت بجديةٍ: «**لا شيء. هل أنهيت واجباتك ومذاكرة دروسك؟**». أجاب بنفس المزاج المرح وهو يؤدي التحية العسكرية: «**تمام يا فندم.**»، فردت بتلقائية: «**المذاكرة لا تنتهي.**».. لم يجبها، بل أعاد يديه إلى جيبيه وهو يستند إلى باب المطبخ الصغير حيث تحضر مهرة الإفطار وهو يراقبها مصفراً لحناً من الألحان الشعبية الشهيرةِ ورأسه يتحرك يمنة ويسرة مع أخته.. علقت بعد دقائق قليلة: «**أراك في مزاجٍ جيدٍ وكأنك لست صائماً، أما أنا فمتعبة للغاية ولا أقوى حتى على الكلام.**»، تقدم منها وأمسك بيدها التي تقطع السلطة بسرعة وآلية قائلاً وهو يسحب منها السكين ويباشر إتمام عملها: «**إذاً فلترتاحي يا حبيبتي، ودعيني أتولى الأمر من هنا.**». ابتعدت خارجةً من المطبخ وهي تلوح بيدها قائلةً باستسلام: «**لم يتبقَ سوى السلطة، ولقد أطفأت النار على البامية والأرز.. كل شيءٍ جاهز. سأرتاح للنصف ساعةٍ المتبقية فلديَّ عمل بعد المغرب وحتى وقتٍ متأخرٍ.**».. كانت تبذل ضعف المجهود الذي كانت تبذله مسبقاً مع الصغار، فبالرغم من أن أغلبهم في مراحل التعليم الابتدائي الأولى، إلا أن مناهجهم الدراسية متطورة جداً وباللغة الانجليزية ما كان يحتم عليها أن تَدْرُسَها بدورِها قبل أن تُدَرِّسَها لهم، ولأنها توقن أن أهالي الصغار قادرون على أن يُلحقوا أولادهم بأرقى مراكز الدروس الخصوصية أو أن يحضروا لهم مدرسين من مدارسهم الخاصة، ممن يفوق أجرهم أجرها بعدة أضعافٍ، ولو من باب التباهي، فقد استغلت هذه الفترة باستماتةٍ لتثبت لهم كم يستجيب لها أولادهم وكم تُخلص لهم وتحرص على تحصيلهم أعلى الدرجات، ولكم استنزف هذا من قواها النفسية والجسدية، إلا أنها على الأقل تشعر على الصعيد المهني بأنها تحقق ذاتها وتثبت لنفسها بأن قدراتها التدريسية وإرادتها لن تخذلاها، وبأنها تسيطر على جانب من حياتها، ولو كان بسيطاً.. ارتمت على فراشها وأغمضت عينيها إلا أن صوتاً غريباً خافتاً دفعها لتفتح عينيها وتنظر إلى ركن الغرفة في الضوء الخافت لآخر خيوط

النهار، وتجمدت دون حراكٍ وقد جف حلقها والتصق لسانها بسقف فمها مما رأت، فهناك بجوار الحائط، أسفل علّاقَة الثيابِ الخشبيةِ، يزحف ببطء وحذرٍ ثعبانٌ أسودٌ كبيرٌ يتحسس الحائط والحذاء القديم الملقى بإهمالٍ في الركن المظلم بصمتٍ مخيفٍ. منعت نفسها بقوةٍ من أن تصرخ حتى لا يهرع شقيقها إليها فيلدغه الثعبان الذي صار بمحاذاة الباب الآن. كانت تفكر بسرعةٍ وكلُّ ذرةٍ في جسدها ترتعش خوفاً وهي تراقب الثعبان يقترب شيئاً فشيئاً من فراشها بينما بقيت جامدةً دون حراكٍ ظنّاً منها بأنه لن يلتفت إليها إن بقيت كالصنم دون أن تستفزه بحركةٍ يهاجمها على إثْرِها، إلا أنها انتفضت بشدةٍ والتقطت هاتفها المحمول بسرعة حين تعالى رنينه لترد وهي تتنفس بصعوبةٍ والعرق يغرق شعرها وثيابها، فيما غرقت الغرفة في ظلام دامس عجزت معه عن رؤية تفاصيل تلك الأركان المظلمة، فقالت بصوتٍ يخنقه الرعب: «**ألو؟ نعم؟**». أتاها صوت فؤاد من الجهة الأخرى هادئاً رزيناً يحمل نبرة اعتذارٍ واضحةٍ: «**أنا فؤاد والد شهد يا مس مهرة، أرجو ألا أكون قد أيقظتك من النوم فقد تعمدت الاتصال بعد الإفطار تفاديا لهذا ولكن يبدو أنه مقدر لكِ بأن نزعجكِ دائماً..**».. كانت في غضون ذلك قد هدأت، وأدركت بأن ما حدث لم يكن سوى كابوسٍ سخيفٍ، فمسحت وجهها بكفها وقامت لتشعل ضوء حجرتها وهي تجيب بأدبٍ جَمٍ: «**لا، على الإطلاق يا سيد فؤاد، أنا يسعدني اتصالك لأطمئن على شهد. كيف هي؟ لقد اشتقت إليها كثيراً.**». ذُهلت حين وجدت الساعة قد قاربت التاسعة! (يا إلهي! لقد تأخرت كثيراً على موعد زياد! كيف تركني ماجد ومي نائمةً إلى الآن؟!!).. تحركت في سرعةٍ لتخرج ثيابها من الخزانة التي أصدر بابها صريراً عالياً جعلها تزم شفتيها بامتعاضٍ و حرجٍ مِن مُحَدِّثِها الذي كان يقول بهدوءٍ شديدٍ يتعارض مع العجلة التي كانت فيها: «**وهي كذلك افتقدتك كثيراً، وأرى أنه من غير اللازم أن تتعطل عن دراستها أكثر من هذا، فأنتِ تعلمين بأنه بالإضافة إلى الانقطاع عن دروسك فقد تغيبت عن المدرسة طوال الفترة المنصرمة، ولهذا أتمنى بألا تمانعي مباشرةَ العمل معها ثانيةً في أقرب وقتٍ إن كان هذا يلائمكِ.**».. ردت وهي تعدل هندامها وتمشط شعرها أمام المرآة المثبتة على باب خزانة الثياب

من الداخل: «**بالطبع، لا مشكلة على الإطلاق.. فقط سأرتب أموري، ولا أدري، هل سيناسبكم موعدنا القديم أم سأحتاج لتغييره؟**». قال فؤاد ببساطةٍ: «**أياً كان ما يلائمك فهو مناسبُ لنا، طالما أنه بعيدٌ عن موعد دوام المدرسة.. شكراً يا مس مهرة.**».. (أحتاج للاستحمام بشدة بعد كل هذا العرق، سامحك الله يا ماجد) حدثت نفسها وهي تفتح باب حجرتها وتندفع نحو الحوض المثبت على الحائط المطلي بالزيت الأخضر الفاتح في مدخل الحمام وردت آملةً أن تنهي المكالمة: «**بالتأكيد.. حسنٌ إذاً، سأتصل بكريمة لأعلمها متى سنبدأ...**»، أبعدت الهاتف خلف ظهرها حتى لا يسمع صوت المياه التي اندفعت من الصنبور باردةً كالثلج، فغسلت وجهها بيدها الحرة وجففته بسرعةٍ بالمنشفة المعلقة بجوار المرآة المثبتة فوق الحوض الصغير.. تذكرت بأنها لم تسأله عن صحة شقيقه فقالت: «**أتمنى أن تكون صحة السيد نادر قد تحسنت.**». «**الحمد لله، لقد تحسن كثيراً.. شكرا لسؤالك. بالمناسبة، هذا رقمي، بإمكانك الاتصال عليّ في أي وقتٍ لأي شأنٍ يخص شهد.. سيسعدني ذلك جداً.**».. أبعدت الهاتف ثانيةً عن أذنها ولكن لتنظر إليه بتعجبٍ هذه المرة، ثم أعادته إلى أذنها لتقول بمنتهى الحزم والجدية: «**شكراً يا سيد فؤاد. ولكني لا أريد أن أزعجك.. سأرتب كل شيء مع كريمة كالمعتاد.**». جاءها رده ببساطةٍ أحرجتها، إذ ربما حملت كلامه فوق معناه (سخيفة): «**لا بأس.. أشكركِ وأعتذرُ مجدداً، وأرجو أن تستطيعي العودة للنوم بعدما أزعجتكِ.. تصبحين على خير.**». ضحكت في سرها على تعليقه البريء ونظرته الوردية للأمور، ولكنها أجابت بلباقةٍ: «**وأنت بخيرٍ يا سيد فؤاد. مع السلامة..**». انتظرت حتى قطع الاتصال ثم صرخت بصوتٍ عالٍ وهي تنتعل حذاءها الأسود والذي ذكرتها رؤيته بذاك الثعبان المخيف في حلمها: «**ألا تعلمان بأن لدي جدول حصصٍ بعض الإفطار أنتما الإثنين؟! ألا يمكنني الاعتماد عليكما حتى في أمرٍ بسيطٍ كهذا؟!**». خرج ماجد من غرفته، أو بالأحرى من الشرفة التي جُهِّزت وأقفلت بألواح من الخشب لتصبح مناسبةً للنوم والدراسة، وقال بتعجب: «**ما هذا؟ متى استيقظتِ؟ أستخرجين دون أن تُفطري؟.**». فتحت باب الشقة دون أن ترد عليه. كانت في قمة غضبها، فمهما فعلت الآن لن تستطيع

أن تلحق بموعدها الأول، الذي يَبعُدُ مكانه قرابة الساعة والربع من منزلها. شدت الباب وراءها لتغلقه ولكن ماجد أمسك به بسرعة ومدَّ يده ليمسك بمعصم شقيقته قائلاً بصدقٍ: «**لِمَ أنتِ غاضبة هكذا يا مهرة؟ لقد أيقظتكِ أكثر من مرة وكذلك فعلت مي ولكنك كنت تطلبين منا أن ندعك لترتاحي، وبصراحة أشفقنا عليكِ فقد كنتِ منهكةٌ تماماً، وأعلم أنك تحتاجين لفترة نوم كافيةٍ أكثر من الطعام، فالأكل سينتظرك حتى تستيقظي، ولكن أن نوقظكِ وقد استغرقتِ في النوم بعد يومٍ مرهقٍ، كان يبدو تعذيباً وليس حرصاً عليكِ..**». ربتت على كتفه برفقٍ وقد هدأتْ قليلاً وقالت بصدقٍ: «**لا بأس، فربما كوني حلمت بكابوسٍ مريعٍ وكذلك كوني فوَّت حصةً على أحد تلاميذي دون اعتذار مسبق، وفوق كل هذا إرهاق يومٍ بالكامل، قد جعلني كل هذا عصبية أكثر من اللازم. ادخل الآن وحاول أنت ومي ألَّا تتشاجرا حتى عودتي.**»، استدارت لتنزل الدرج إلا أن صوت مي الذي ارتفع من الداخل استوقفها وهي تناديها مكررةً بسرعةٍ: «**مهرة، مهرة، مهرة...، لحظة، لحظة..**».. ابتعد ماجد وفتح الباب ليفسح المجال لمي التي قالت ما أن وصلت عند عتبة الباب وهي تضع يدها على صدرها في حركة مسرحية وتنهج وكأنها أتت راكضةً من بعيدٍ وليس من غرفتها التي تبعد خطوات عن باب الشقة: «**أريد نقوداً.**» . لمس ماجد مؤخرة رأسها وكأنه يضربها معلقاً: «**على الأقل حييها، فأنت لم تريها مُذ أمس.**».. ضحكت مهرة وفتحت حقيبتها وهي تسأل مي: «**كم تريدين، ولِمَ؟**».. هزت مي كتفيها قائلةً وهي تلوي شفتيها بامتعاضٍ: «**مستر مصطفى، مدرس الأحياء الذي يدرس سحر، أعطاهم مذكرة أسئلة بعشرين جنيهاً، وقلت لسحر بأن تشتري لي واحدة .**»... تنهدت مهرة ووضعت بيد أختها ورقتين من فئة العشر جنيهاتٍ واستدارت دون تعليقٍ لتهبط الدرجات بسرعةٍ.. (ينقصني فعلاً مستر مصطفى ومذكراته)..

سمعت صوت باب شقتها من خلفها يغلق برفق فتنهدت وتابعت طريقها بوجهٍ جامدٍ وقلبٍ باردٍ.. ومالٍ نَقُصَ عشرون جنيهاً..



«قاربنا الشهر ولا خبر عنكِ وفؤاد بعد! إذا كان هذا هو الحال مع من نراه تائهاً، فمتى بالتحديد كنت تنوين الزواج من نادر؟ القرنَ القادم؟!!». كان سامر ينفث دخان سيجاره بهدوءٍ ويتحدث بسخريةٍ حادةٍ ماطاً شفتيه وهو يرفع قدميه متمدداً فوق الأريكة الرمادية التي تمتد لتحتل أحد أركان غرفته التي لولا ضوء النهار وبعض الأزهار الملونةِ لبدت كصورة من أفلام الأبيض والأسود.. فلسببٍ ما رفض سامر تماماً جميع محاولات شقيقته في إضفاء أي لون للحياة على ما اعتبره مساحته الخاصة، فاختار كل قطعة أثاث أو زينة فيها إما بيضاء أو سوداء أو رمادية حتى بدت فعلا ملفتةً بشكلٍ مستفز، على حد تعبير أميرة. حتى اللوحات والحوائط اكتست باللا لون، ما جعل ثوب أميرة المزهر يبدو وكأنه غلطة وسط هذا الفيض المتناقض الباعث على الكآبة.. وضعت ساقاً فوق الأخرى وهي تجلس على حافة فراشه مادة ذراعيها إلى الوراء لترتكن عليهما و ردت ببرود: «**ربما كان تائهاً، ولكنه ليس غبياً.. لا يعمد الجميع إلى اتخاذ قرارات مصيرية بين يومٍ وليلة، وشهرٌ واحدٌ لا يُعد فترةً زمنيةً طويلةً في العلاقات الإنسانية.**»، رفعت يدها لتتأمل طلاء أظافرها الشفاف مكملةً بتعالٍ: «**ولكن لا أتوقع أن تعلم عمَّ أتحدث، فأنت لا تعرف سوى علاقات الليلة الواحدة وأقصى مدة أمضيتها للإيقاع بإحداهن وجرها إلى فراشك هي نصف ساعة..**». اعتدلت مرتكزة بكوعها على ركبتها لتسأله بسخريةٍ: «**أو ربما أقل.. كم تحتاج لتبرز محفظة نقودك على الطاولة أمام ساقطاتك..**». اعتدل بحدةٍ فضحكت وقامت تقف أمام النافذة تتأمل الحديقة البديعة التي لم ينل الشتاء من جمالها إلا من بعض الأوراق والأشجار... (لم يكن عليه أن يذكرني بنادر.. ما كان عليه ذلك إطلاقا..) كانت تسمع طنين الدم في أذنيها من شدة الغضب فلم تنتبه لرد شقيقها ولم تر أمامها إلا مستقبلاً يقف فيه فؤاد إلى جوارها فيما نادر أمامها كحلم يزداد بعداً كلما حثَّت الخطى لتبلغه.. كثيراً ما حاولت أن تتخيل كيف سيكُون الوضع بعد ما تتزوج من فؤاد، وكيف ستتعامل مع واقع استحالة أن يكون نادرٌ لها بعد ذلك. لا تدري ما الدافع الذي سيبقيها تتنفس وتأكل وتسير وتتحدث! إن لم يكن نادر، فمن؟ وكيف؟ ولماذا؟ أَمِنْ أجل المال فقط يمكن أن تحيا؟

أحقا تستطيع أن تفعل ذلك؟ لم تفصح يوماً، ولن تفعل أبداً، عن عدم ثقتها في قدرتها على الاستمرار في الطريق الذي سلكته بناء على خطة سامر اللا إنسانية، والتي وضعت مشاعرها وطموحاتها كفتاةٍ تحت أقدام الحاجة والسعي خلف الأمان وتثبيت الأقدام.. كان صوت سامر لا يزال يصِلها وكأنه آتٍ من بعيد ولكن أفكارها كانت تحدثها بصخبٍ، والفتاة بداخلها تقاومها بعنفٍ وهي تجرها على درب الاستقرار والثراء.. تعالت صرخات ذاتها الذبيحة لِتصم أذنيها عن صوت العقل وتضعف من عزيمتها ورغبتها في التقدم خطوة أخرى إلى الأمام.. مواء نابليون وهو يتمطى ويرقد فوق قدميها أيقظها من حلمها الصباحي فانحنت تلتقطه برفقٍ وتعجبت حين استدارت لتجد الغرفة خاوية بعد أن غادرها سامر دون أن تشعر! (أين ذهب الآن؟) حدثت نفسها بغضبٍ (ألم نكن نتحدث؟!! ذلك السمج!!!)..خرجت بسرعة من الغرفة وقد احمر وجهها وأحرق الغضب وجنتيها، ولكنها ما أن خطت خطوة واحدة إلى الخارج حتى بدلت جميع تعابير وجهها وزينته بابتسامة عذبة وهي تتقدم نحو فؤاد الذي كان واقفاً على بعد خطواتٍ من باب الغرفة يتحدث بود إلى سامر الذي كان يضحك وهو يضع يده على صدر ابن خالته، فقالت وهي تداعب أذني نابليون الرماديتين بدلال : «**أنت هنا وأنا أبحث عنك منذ استيقظت.**». ابتسم فؤاد معلقاً وهو يشير إلى سامر مازحاً: «**في غرفة هذا الشخص؟ اعذريني فبالرغم من كوني مدخناً إلا أني لا أستطيع التنفس لأكثر من خمس دقائق داخل منجم الفحم ذاك.**».. رد سامر مدافعاً: «**ليس هذا صحيحاً. أنا لا أدخن بهذه الشراهة. كلاكما يفتري علي بهذا الشأن.**». سأل فؤاد رافعاً حاجبيه في دهشةٍ مصطنعةٍ: «**حقا؟ إذا ما الذي غير ألوان حجرتك كلها إلى الأسود؟!**».. قلَّد سامر صوت الضحك ساخراً: «**هاهاها، ظريفٌ جداً.**». همَّ فؤاد بقول شيءٍ ما إلا أن أميرة تأبطت ذراعه قائلةً برقةٍ: «**هيا يا فؤاد، دعنا ننزل إلى الحديقة قليلاً فالشمس رائعةٌ هذا الصباح.**».. قال سامر مؤكداً: «**نعم، صحيح.. فنجان شاي سيكون ممتازاً في هذا الطقس المُشمس..**». صحَّح فؤاد ببساطة وهو يصطحب اميرة برفق نحو الدرجات الواسعة: «**سيكون رائعاً بالفعل، لو لم نكن صائمين يا سامر بك. ألا**

تنوي الصيام حتى في هذه الأيام الأخيرة؟!». ردت أميرة: «**عندما يكبر سيصوم يا فؤاد، دعك منه..**».. نزلا الدرج يتحدثان بودٍّ وسامر يتابعهما بعينين شبه مغمضتين عاقداً ساعديه أمام صدره. التفت فؤاد متسائلاً من فوق كتفه حين لاحظ تخلفه عنهما: «**ألن تأتي؟**». هز سامر كتفيه وفكَّ ذراعيه ليضع يديه في جيبيه قائلاً: «**لدي أعمال تنقيب في المنجم، فلا تدعاني أؤخركما عن الاستمتاع بالهواء النظيف.**».. لم يرد عليه فؤاد وإنما قال باستنكارٍ ساخرٍ لأميرة: «**صار حساساً مؤخراً..**»، فردت ببساطة: «**دعك منه.**» وتابعت وهي تطلق سراح نابليون لتتعلق بذراعه بكلتا يديها سائلةً: «**أخبرني هل سنذهب إلى الحفل الليلة أم لا؟**».. ردَّ بسرعةٍ: «**وهل يمكن أن أرفض لك طلب، ولكن علينا أن نذهب الآن لنشتري بعض الأغراض...**»، قاطعته مستفهمةً: «**أغراض؟**».. فأجاب وقد وصلا أسفل الدرج: «**نعم، وستأتين معي لأن رأيك يهمني كثيراً.**».. كان كلامهما مسموعاً لسامر الذي كان لا يزال واقفاً مكانه يتابعهما في صمتٍ وهما يبتعدان شيئاً فشيئاً عن مجال رؤيته.

بقي واقفاً للحظاتٍ، ينظر حيث اختفيا ثم استدار عائداً إلى حجرته، ولكنَّ حركةً في آخر الرواق الواسع استرعت انتباهه فاستدار ليستكشف ماهيتها، وما لبث أن ندم ولام نفسه على فضولها حين وجد نادر يغلق خلفه باب حجرته ويتوجه نحو الدرج على مهلٍ، على عكس عادته.. ولأن الأوانَ كان قد فات لكليهما ليتجاهل أحدهما الآخر ويتظاهر بأنه لم يره، فقد تقدما من بعضهما وكلاهما يريح يديه في جيبيه متبادلَين ابتساماتٍ متكلفةً. بادر نادر ابن خالته: «**صباح الخير يا سامر. كيف أنت هذا الصباح؟**». رد سامر: «**صباح النور، أنا بخير.. عليَّ أنا أن أسألك كيف تشعر اليوم؟**»، وضَمَّ إحدى يديه ليوضح ما يقصد وهو يتابع: «**قلبك تمام؟**».. هز نادر رأسه إيجاباً وقال ببساطةٍ: «**أكنتَ عائداً إلى غرفتك؟ هل أعطِّلك عن أمرٍ ما؟**». هز سامر رأسه بنعم مرةً ثم بلا، فرفع نادر أحد حاجبيه سائلاً بابتسامةٍ مستفهمةٍ: «**بمعنى؟!!**». رد سامر وهو يهز كتفيه بلا مبالاة: «**نعم، كنت عائداً إلى حجرتي، ولا، ليس لدي ما تعطلني عنه.**».. قلد نادر حركته ثم رفع إبهامه علامة إعجابٍ قبل أن يقول بجديةٍ

وبدون مواربةٍ: «**تحدث إليَّ خالك منذ يومين بخصوص مشروعٍ ما تريد البدء به و..**»، أوقفه سامر بحركةٍ من يده دفعت نادراً ليرفع حاجبيه مستنكراً وسامر يقول بسرعةٍ: «**أخبَرَني وأعلم تماماً رأيك في الموضوع فلا تزعج نفسك بتكرار ما قلت له.. ولعلمك لقد تحدثَ من تلقاء نفسه، فلم أطلب منه شيئاً، أو بالأحرى منك.. فلا تقلق..**»..

انتظر نادرٌ حتى يفرغ سامر ما لديه من حنق على ما يبدو ثم رفع ذقنه وهو يقول وعلى طرف فمه شبه ابتسامةٍ أفلحت في أن تخفي ضيقه من الطريقة التي حدَّثه بها سامر: «**قلقي عليك وليس منك يا سامر.**»، وضع يده على كتف سامر وتابع وهو ينظر في عينيه: «**وعلى كل الأحوال، إن فكرت يوماً بشيء من هذا القبيل فتحدث إلي مباشرة، فليس بيننا وسائط يا سامر أيا كان ما تظن.. اتفقنا؟ أنا في مكتبي بالأسفل، إن غيرتَ رأيك فوافني هناك، فسأبقى به حتى موعد الإفطار.**». لم يرُدّ سامر ولم يأت بأي حركة تدل على رفضٍ أو إيجاب، ولكن هذا لم يمنع نادر من الدوران على كعبه ونزول الدرجات بسرعةٍ مخلفا وراءه عاصفةً من الحنق والحقد تجتاح ابن خالته الذي استدار بدوره ودخل حجرته صافقاً الباب بنزقٍ. أشعل سيجاراً ونفث دخانها في حدَّةٍ، فقد شعر برغبة قوية لرؤية شيءٍ ما يحترق.. ارتمى على الأريكة مجدداً تاركاً لونها يزحف ببطءٍ إلى عقله وروحه..



أشعة الشمس التي غسلت برد الطرقات بدفئها، ألقت ببريقٍ زاهٍ على نفسية مهرة فشعرت بخفةٍ في روحها وخطواتها وهي تقطع الطريق المزهر نحو الفيلا بعدما أدخلها حارس أمن البوابة الذي استقبلها بترحابٍ وابتسامةٍ واسعةٍ قائلاً بتفاؤلٍ: «**صباح الخير يا مس مهرة.. عيدٌ سعيدٌ إن شاء الله.. تفضلي.**».. ردت تحيته بابتسامةٍ عريضةٍ وأقبلت نحو الفيلا بسعادة. لم تكن تدرك قبلاً بأنها قد تعلقت بشهدٍ إلى هذه الدرجة، ولم تتصور بأنها ستفتقدها كثيراً هكذا.. ساعدها كثيرا أن حظيت بنومٍ هادئٍ طويلٍ ليلةَ أمسٍ حيث اعتذر أهل بعض الطلبة عن

الأيام القليلة القادمة والتي تسبق العيد لسفرهم لقضاء إجازة العيد خارج البلاد، إلا أن الأفضل، كان حصولها على أجرها كاملاً عن جميع تلاميذها مقدماً وتقريبا في نفس الوقت، ما جعل ليلةَ أمسٍ بالنسبة لها ولأخويها ليلةَ عيدٍ مبكرةٍ..

مرت بجوار أصيص أزهارٍ يطوف حوله النحل والفراشات. كانت تمر بجواره في كل مرة تأتي فيها هنا، ولكنها لا تذكر بأنها رأته بهذه الروعة من قبل..

لاطفتها نسمةٌ باردةٌ جعلتها تضم ياقة معطفها الأخضر وهي تبتسم لفؤادٍ الذي أقبل مبتسماً وقد بدا في بنطاله الجينز الفاتح ومعطفه الصوفي البني القاتم والكوفية الصوفية يدوية الصنع المقلمة بخطوطٍ زرقاءَ قاتمةً ورمادية وبنية، وبطوله الفارع، كأحد عارضي الأزياء، إلا أن ابتسامتها ما لبثت أن اختفت حين لمحت خلفه أميرة تتقدم نحوهما كالهرة، تتمايل في فستانٍ طويل الأكمام عاجي، تناثرت عليه وحدات وردٍ ناعمةٍ صغيرةٍ، بتناسقٍ بديعٍ في التصميم والألوان، ومن فوقه لفت جسمها بشالٍ ورديٍّ ناعمٍ رقيقٍ احتضن كتفيها وقدَّها بأناقة، ما جعل معطف مهرة الصوفي الأخضر القديم يبدو كخرقةٍ باليةٍ. نال التناقض من معنوياتها ونزل بثقتها بنفسها إلى الحضيض فردَّت بحرجٍ على تحية فؤادٍ الصباحية: «**صباح الخير يا سيد فؤاد.**». مدت يدها لتسلم عليه فأمسك يدها بلطفٍ قائلاً دون أن يتركها وإنما كان يربت عليها برقة: «**بالطبع صباح خير.**»، وأشار إلى النافورة والحديقة ثم إليها مكملاً: «**حين يجتمع الماء والخضرة والوجه الحسن، يتفاءل المرء حتماً ويستشعر بأنه صباح خيرٍ بإذن الله.**».. سحبت مهرة يدها بحرجٍ ووضعتها داخل جيب معطفها لتتجنب لمسة أميرة التي وقفت بجوار فؤادٍ لوحةً تجسد معنى الثراء والأناقة والتكلف بتصفيفة شعرها المرفوعة إلا من بعض خُصَلٍ انسابت بنعومة على رقبتها التي زينتها سلسلةٌ ذهبيةٌ رفيعةٌ تدلت منها حليةٌ دقيقةٌ على شكل فراشةٍ مائلةٍ يشكل جناحيها الكبيرين خيطاً من الذهب الذي التوى بنعومة ليرسم قلباً، بينما شَكَّل قلبٌ مقلوبٌ من الأحجار الدقيقة جناحيها الصغيرين.. (يا للرقة).. «**مس مهرة؟!**

ظننتك في إجازة!». كان صوتها لطيفاً لدرجة أربكت مهرة ولكنها ردت بأدب: «**لكل إجازة نهاية. ولو تُرِكَ الطفل عاماً فلن يسأل عن الدراسة، أليس كذلك؟**». كانت تتحدث بلطفٍ هي الأخرى إلا أن أميرة باغتتها بنفس اللطف وذات الابتسامة قائلةً وهي توجه كلامها لفؤاد: «**الحق معها فيما تقول يا فؤاد، تخيل أن شهداً لم تسأل عنها ولو لمرةٍ واحدةٍ طيلة فترة غيابها، مع أنني كنت أظنها ستقلب الدنيا على رؤوسنا صخباً لنطلبها لها...**» تابعت وهي تضحك موجهةً باقي تعليقها السام لضحيتها: «**ولكن لا شيء من هذا حدث.. الحمد لله، وإلا كُنَّا سنُضطر لقطعِ إجازتكِ عليكِ بعدما أرهقناكِ وحمَّلناكِ فوق طاقتكِ يا عزيزتي..**».. فتحت مهرة فاها لترد إلا أن أميرة أدارت لها ظهرها لتقف بينها وبين فؤادٍ قائلةً لابن خالتها بعفويةٍ احترفت تمثيلها: «**هيا يا فؤاد، لا نريد أن نضيع وقت مس مهرة، فلابد أن لديها مواعيد أخرى بعد موعد شهد..**».. تحرك فؤاد خطوة إلى يمينه ومد يده مصافحاً مهرة وهو يقول بصدقٍ: «**أنا سعيدٌ فعلاً بعودتك يا مس مهرة، فقد تركتِ فراغاً بالبيت وسَتَسْعَد شهد جداً برؤيتك.. شكراً على استجابتكِ لاتصالي وأعتذر مجدداً إن كنت قد أزعجتك تلك الليلة باتصالي المتأخر.**».. شعرت بجانب وجهها يُكوَى بنظرات أميرة التي انصبت عليها دون مواربةٍ فردت بسرعة حتى تهرب من الجو الذي أصبح خانقا: «**لا تقلق يا سيد فؤاد، فأنا لا أنام مبكراً أبدا.**».. انتفضت حين سمعت ضحكة أميرة العالية وتعليقها السافر: «**محظوظ من يبقيك ساهرةً.**»، ثم تابعت وهي تشد ذراع فؤاد والغضب يتآكلها من وقاحة هذه المدرسة التي توحي لفؤاد بأن يتصل بها في ساعة متأخرةٍ مساءً: «**هل نذهب؟**». «**اعذراني**»، كلمة واحدة هي كل ما استطاعتً مهرة أن ترد بها على ضربات أميرة، فقالتها بصوتٍ خافتٍ وأسرعت الخطى نحو الفيلا وقد تغير مزاجها وانتابتها رغبةٌ شديدةٌ في البكاء.. من أين، لأي كان، الحق في إتلاف صباح إنسانٍ لم يقترف ذنباً سوى أنه وُجِدَ عرَضاً دون اختيار في حياته؟! لم تشعر بهكذا مهانة في حياتها ولم يعاملها أي مخلوق بهذا الازدراء من قبل.. ابتلعت ريقها ومهانتها وتقدمت نحو الفيلا بخطوات عريضة..

كانت الغصة ترتفع في حلقها مع كل خطوةٍ تخطوها نحو الفيلا حتى أنها فكرت في أن تعود أدراجها وتؤجل الموعد إلى أجلٍ غير مسمىً، أو حتى أن تعتذر تماماً عن التزامها مع شهد، فهي لا تدري سبباً لتحفز أميرة الدائم وانقضاضها عليها في كل مرةٍ يلتقيان بها.. و بالرغم من لطف فؤاد الشديد معها والذي أظهر لها جانباً لم تظنه موجوداً لديه قبلاً من الاهتمام والأدب، وبالرغم أيضاً من حب كريمة واحترام آدم لها، إلا أن كل هذا لم يكن كافياً ليحميها من سهام أميرة المسمومةَ، كما لم يكن يكفيها حتى لتتحمل عبئاً نفسياً آخر فوق ما تحتمله بالفعل..

توقفت لتستدير و تنفذ قرارها، إلا أنها تذكرت الراتب الذي حددت جهة صرفه مسبقاً مع أخويها حتى قبل أن تقبضه.. فثياب العيد وفسحة العيد وكحك العيد و.... (آه، ويسمونه عيداً!!!).. حسنٌ، إن كانت ستعمل هنا فعلى الأقل ستفعل ذلك برأسٍ مرفوع وإن اضطُّرَّت لترد على أميرة في المرة المقبلة وليحدث بعدها ما يحدث. هزت رأسها تنفض عنها الفكرة غير المنطقية، فلا هي قادرةٌ على تنفيذها، ولا تتحمل تصور أميرة تطردها كالخدم.. إذاً، فلتتحمل فقط هذه الأيام القليلة، فطبيعة الحال لن يكون هناك حصص في إجازة العيد، وتستطيع بعدها أن تعتذر بأي شيء بعد أن تكون قد قبضت راتبها الذي استحقته بجدارة.. أراحتها الفكرة وأعادت لها بعضاً من ثقتها بنفسها، فعدلت شعرها بأصابع باردة ومسحت وجهها بكفيها لتمحو أي أثر للدمعات التي انحدرت على خديها رغماً عنها. عدَّلت ياقة معطفها ووضع حقيبة يدها السوداء ثم أخفت كفيها في جيبي المعطف وشدت قامتها ساحبةً نفساً عميقاً من الهواء البارد المنعش وتقدمت ثانيةً بخطىً ثابتةٍ سريعةٍ. لم تكن تدرك أن آدم كان يرقب الموقف بأكمله منذ البداية، وبالرغم من أنه لم يستطع بالتأكيد أن يسمع كلمةً واحدةً من الحوار الذي دار بين الثلاثة في الحديقة، إلا أن وجه مهرة الذي كان كالمرآة الصافية للمشاعر بنظراتها الشاردة الحزينة ومعرفته الجيدة بأميرة، أخبراه بكنه ما حدث.. تنهد وهو يراقبها تقترب

مـن البـاب الأمامـي وابتسـم وهو يتذكـر مـا دار بينه وبـين كريمة مـن حوارٍ تضمن شـئون هـذه الشـابة الرقيقة.

«**آهٍ لو حدث ما أفكر فيه يا آدم، سأكون أسعد إنسانةٍ على وجه الأرض وسأعلم أن الله لا زال يحب فؤاد.**»، كانت كريمة تتحدث بصوتٍ هادئٍ ليلة أمس وهي تضع أطباق السحور على الطاولة أمام آدم الذي انشغل في تقليب قنوات التلفاز باحثاً عن قناة تذيع نشرة أخبارٍ متأخرةٍ، إلا أن عبارتها استرعت انتباهه فترك الريموت وقام ليحضر معها إبريق الشاي معلقا: «**وما ذاك؟**». جلست بجواره وأخذت تَصُفُّ أمامه الأطباق وتقربها بحبٍ واهتمامٍ، وقالت وهي تصب الشاي في كأسه الزجاجية الصغيرة: «**أتحدث عن فؤاد ومهرة.**»، وابتسمت حين رفع إحدى حاجبيه فأكملت: «**لا تقل بأن الفكرة لم تراودك أنت الآخر، فأنا أعلم أنك معجب بمهرة كثيراً. والشهادة لله، هذه الفتاة تخترق القلب فوراً مع أول ابتسامة.**». صمتت وهي ترتشف رشفةً صغيرةٍ من الشاي ثم تابعت حين لم يعلق زوجها: «**تخيل حياة شهد وفؤاد، لو تزوج الأخير مهرة، فالفتاة تعشق مهرة بجنون وهي الأخرى تحبها بشدة.. ومن كلامي مع مهرة لمست فيها طيبةً و انكساراً يفطران القلب.. تخيل بأنها تعول أخاً و أختاً في المرحلة الثانوية!.**». استغرقت لدقائق في وصف معاناة مهرة وأسلوب حياتها المرهق وآدم يستمع لها في صمتٍ تامٍّ.. صمتت ثانيةً لترى أثر كلامها على آدم الذي قال ببساطة: «**نعم، أعلم، فقد أخبرتني من قبل.**». قالت بدهشة: «**أنا؟ حسنٌ، ربما.. عامةً، ما أقصده هو أن فتاةً كهذه سترغب بأن تعيش وستتحمل قليلاً طِباع فؤادٍ الحادة، كما أنها سترعى شهد بإخلاصٍ كأمٍّ وليست كزوجة أبٍ.. أتفهم ما أعني؟**». كان آدم منشغلاً بتناول سحوره في صمتٍ، فهز رأسه قائلاً بهدوءٍ: «**أفهم.**»، ثم قام حاملاً الكؤوس الفارغة وهو يسألها: «**ألم تخبريني من قبل بأنها مخطوبة!.**». ردت وهي تتبعه إلى المطبخ الصغير: «**نعم، ولكنها لا تعرف شيئاً عنه منذ سافر إلى دبي، فهو لا يتصل بها ولا يرد على اتصالاتها.**». قال وهو يمر بجانبها حاملاً صحون البيض والفول والجبن بمهارةٍ: «**ولكنها لازالت مخطوبة يا كريمة.**».. قالت وهي تمسح الطاولة الخشبية المستديرة من بقايا الخبز وهي تضحك:

«**مع إيقاف التنفيذ. دعِ الأمر لي وسأتدبر الأمر وأَصِلُ لما أريد إن شاء الله.**».. سألته حين لم تتلق رداً أو تعليقاً يؤيدها: «**أعلم بأن الفكرة راقت لك، فلم لا ترد علي.**». قال ببساطةٍ وهو يفتح الجريدة التي كانت على جانب الطاولة وهو يتمدد على الأريكةِ البرتقاليةِ الأنيقة التي تقبع في صدارةِ غرفة المعيشة بملحق السكن الذي يشغلانه منذ عقود: « **ألا يجعلها هذا انتهازيةً؟ أن تترك رجلاً سافر ليكافح من أجلها، وهو يعلم بأنها تنتظره، لتتزوج رجلاً لا يربطها به سوى حلمها بحياة رغدة.**».. أثار تعليقه كريمة، فمهرة أبعد ما تكون عما وصفها به، لذا قالت بقوةٍ وهي تدفع قدميه عن مسند الأريكة وتجلس بجواره: «**وهل على المرأة أن تنتظر إلى ما شاء الله رجلاً لم يكلف خاطره بأن يطمئنها حتى على نفسه؟! وبرأيك كم عليها أن تنتظر حتى لا تصير خائنة أو انتهازية حين تقرر التفكير في حياتها ومستقبلها؟ هه؟ إن المتزوجة، وليست المخطوبة، إن تغيب عنها زوجها عدة أشهرٍ دون خبرٍ، يصبح من حقها أن تطلب الطلاق وتُطَلَّق غيابياً.. فما بالك بشابةٍ في ظروف مهرة غاب خطيبها فوق الثلاثة أشهر أو الأربعة، لا ادري؟ أإن كانت هذه ابنتنا كنت ستفكر بنفس الأسلوب يا آدم؟!.**». ابتلع آدم ريقه وقال برفقٍ: «**أنا لم أكن أحكم عليها لا سمح الله، ولكني فقط أفكر في الموضوع من زاوية أخرى، لا أكثر.. ثم، فِيمَ يُهِمُّ رأيي؟ على أي حالٍ، الموضوع برمته يعني فؤاد ومهرة...**» وضحك مداعباً زوجته ذات القلب الطيب وهو يمد ذراعه ليحتويها بحنانٍ: «**ويعنيكِ بالطبع على ما يبدو.**». قالت وهي تستكين على صدره: «**رأيك يهمني يا آدم، وبالأخص لأن فؤاداً في مرحلة ما سيسألك رأيك، ولا أريدك أن تعبث بأفكاره بأشياء كالتي قلتها منذ قليل.**».. اعتدل وقد علا أذان الفجر فقام ليتوضأ وهو يقول: «**لن يسألني فؤاد رأيي، وإن فعل فلن يتعدى ذلك مجرد استشارة من باب الأدب، فلو قرر الزواج بها فلن يغير رأيي شيئاً حينها..**» عقب مستدركاً: «**ولا يعني هذا بأني أراها فكرةً سيئةً، فقط كنت أفكرُ معكِ بصوتٍ عالٍ.. فأنتِ من طلبتِ رأيي يا كريمة.**». قامت تناوله المنشفة قائلةً: «**نعم، أعلم. ربما عليك أن تحافظ على صمتك يا آدم.**»..

ضحك آدم وهو يتذكر تلك المحادثة الصغيرة وتقدم نحو الباب الزجاجي، الذي تركه فؤاد مفتوحاً، ليستقبل الضيفة الشابة بابتسامةٍ أبويةٍ

مبادراً إياها بأدبٍ: «**أهلاً يا مس مهرة.. تفضلي.**».. دلفت مبتسمة بإشراقٍ وهي تحيي آدم بسعادةٍ حقيقيةٍ لرؤيته مجدداً، وكأنها غابت لأشهرٍ وليس ما يقارب الأسبوعين فقط: «**أهلاً يا آدم.. كيف حالك، وكيف حال كريمة؟ لقد افتقدتكما كثيرا.**». مد يده مشيراً إلى الداخل قائلاً بودٍّ: «**وكذلك نحن افتقدناكِ يا آنسة.**».. تبعته بهدوءٍ وتعجبت حين وجدته يقودها إلى ردهة واسعةٍ لم تدخلها مطلقاً من قبل فسألته: «**ألن تأخذ شهد حصتها في غرفتها كالعادةَّ؟**».. أجاب وقد وصلا إلى المقاعد المخملية الوثيرة التي تراصَّت أزواجاً بجوار الجدران الزجاجية التي تشرف على الحديقة الخلفية للفيلا والتي لم ترها مهرة من قبل، لا هي، ولا هذا الجزء من الفيلا إطلاقاً برغم بقائها بها شبه مقيمةٍ لما قارَب الأسبوعين، لحرصها لزوم غرفةِ شهدٍ، تجنباً للوقوع في المشاكل.. جلست برفقٍ على حافة إحدى الكراَسي وآدم يقول بأدبٍ: «**شهد تأخذ حماماً الآن وستكون معكِ بعد دقائق.**».. قالت بسرعةٍ: «**إذاً أنتظرُها في غرفتِها أفضل.**».. ابتسم آدم مجيباً: «**للأسف، كريمة قلبت الغرفة رأساً على عقبٍ لتنظفها ولن تنهيها إلا بعد وهلةٍ.. ارتاحي وستوافيك شهد حالاً على ما أظن..**». أحنَى رأسه بحركةٍ خفيفةٍ وهو يتابع: «**أرجو أن تأذني لي، فلديَّ بعض الأشغال الضرورية. لكن رجاءً لا ترددي في الضغط على هذا الزر إن احتجتِ أيَّ شيء.**».. نظرت إلى حيث أشار فوجدت ما يشبه الميدالية موضوعاً على الطاولة الزجاجية المجاورة لها. هزت رأسها بالإيجاب فانسحب آدمُ بهدوءٍ تاركاً إياها تتأمل المكان حولها في إعجابٍ وذهولٍ وفتحت فمها رغماً عنها وهي تقترب من الزجاج لتحدق في أروع حوض سباحةٍ رأته في حياتها، فلكم شاهدت في الأفلام وفي صفحات المجلات من إبداعات في أحواض السباحة، إنما بهذه الروعة لم ترَ!!! كان يحتلُّ أغلب المساحة الضخمةِ خلف الفيلا محاطاً بصخور رماديةٍ بنيةٍ ضخمةٍ تخللتها باقاتٌ من الأزهار التي وُزِّعَت عشوائياً وسط حشائش متفاوتة الخضرة والطول لتعطي انطباعاً بمنظرٍ جبليٍّ طبيعي يحتضن بحيرةً كبيرةً. وفي الجهةِ الأخرى المواجهة لها، ارتفعت الصخور لتشكل حائطاً تعلوه الخضرة وينهمر من فوقها شلال مياهٍ بدا لإتقان صنعته طبيعياً بصورةٍ مذهلةٍ وهو يصبُّ مياهه فوق الحوض الأزرق الكبير،

وأعجبها الحوض الجانبي الصغير الضحل الذي شكلته بعض الصخور مكوِّنَةً دائرةً ليست بالصغيرةِ.. ومع كل هذا الإبداع والجمال خطف بصرها الكوخ الخشبي ومِنصةُ الشرابِ الخشبيةِ التي استبدلت أحد جدرانه، فيما رفع سقفه المكون من القشِّ الطويلِ أربعةُ أعمدةٍ . توسط الكوخُ الحوضَ الضخم وقد امتد منه جسرٌ خشبيٌّ مكوَّن من قطعِ خشبيةٍ مستديرةٍ متراصة ترتاح نهايته بانسيابية على أرض الحديقة العشبية .. تنهدت وهي تعود لتجلس حيث كانت والبسمة الحالمة تعلو وجهها (ما أحلى العزّ! من يكونُ لديه منظرٌ كهذا يطل عليه من نافذته ولو حتى دون أن يمتلكه، ويشعر بالكآبة أو يطرُقُ الضيقُ بابَ صدرِه؟!)..



«أهذا هو كل ما لديك لتقوليه؟! لا أصدق ما يحدث يا نهلة؟ أبعد كل هذه السنوات الخبرة والعمل معي ترددين وتؤجلين خطوة هامة كهذه بانتظار قراري؟!!»
... صمت نادر لحظاتٍ ليستمع إلى محدثته على الجانب الآخر وهو يقلب بضع أوراق أمامه على المكتب ويدون بيده ملحوظةً قصيرةً. اغتاظ أكثر فأكثر من مبررات سكرتيرته ولكنه جاهد ليسيطر على نفسه، فلن يفيده الصراخ حتى الصباح في شيءٍ الآن، فعليه أن يتمالك نفسه ويجري بعض الاتصالات الهامة ليعيد الأمور إلى نصابها.. أغمض عينيه وهز رأسه معترضاً برفقٍ وهو يستمع للاعتذار المائة قبل أن يأخذ نفساً عميقاً ويقول بصوتٍ هادئٍ لم يُخفِ استياءَه بالكامل: **«تمام، كفى أعذاراً وأرسلي لي جميع المعاملات وبيانات الأرباح للثلاثة أسابيع الماضية، وسآتي غداً إلى الشركة ل...»**..قاطعته فاستمع بضيق لاعتراضاتها وقاطعها بالمثل قائلاً بهدوء: **«صدقي أو لا تفعلي ولكني لم أعد قادراً على الاستماع لشخصٍ آخرَ يخبرني بما علي أن أفعل أو لا أفعل. أنا بخيرٍ وسآتي غداً.. مع السلامة.»**.
أنهى الاتصال وألقى الهاتف المحمول بإهمالٍ فوق الملفات التي افترشت مكتبه واستدار ليواجه المنظر الذي يطالعه بعينين أعمتهما المشاكل عن روعته.. كان ينظر إلى حوض السباحة الضخمِ والأفكارِ والأرقام تنهمر أمامَ عينيه كالشلال

الاصطناعي الذي ينهمر أمامه، فلم ينتبه للطَّرَقات الخفيفةِ على الباب ولا لآدم الذي اقترب بهدوءٍ من المكتب..

«**عفواً يا سيد نادر**» .استدار بسرعة رافعاً حاجبيه في دهشةٍ فاعتذر آدم فوراً: «**آسف، هل أجفلتك؟ لقد طرقتُ الباب.**».. قال بجديةٍ وهو يعود ليجلس خلف مكتبه: «**لا تشغل بالك، كنت شارداً فلم انتبه لوجودك.. ما الأمر؟**».. قال آدم بأدب: «**أود أن أطلب منك أن تترك المكتب لدقائق.**». رفع نادر رأسه عن الأوراق التي كان يطالعها قائلاً بنفاذ صبرٍ وهو يُرجع ظهره في كرسيه إلى الوراء: «**آآ، هيا يا آدم، لا تبدأ أرجوك، فالفوضى تعم الدنيا ولن يقتلني أن أعمل بضع ساعاتٍ في البيت.**». استمع آدم بأدبٍ لاحتجاج نادرٍ ثم أجاب مبتسماً: «**بالتأكيد لن يفعل، بل على العكس، أنا متأكد من أن العمل سيجعلك تتحسن.**». أمال نادر رأسه جانبا وهو يضيق أحد عينيه ثم أرجع رأسه إلى الوراء وهو يلوي شفتيه بابتسامةٍ مؤيدةٍ قائلاً بامتنانٍ: «**جيد، إذاً ستدعني وشأني .. رائع، فلدي الكثير لأفعله..**». قال آدم بنفس الهدوء: «**أحتاج لأن تترك المكتب لفترةٍ قصيرةٍ، فقد رأت كريمة شيئا صغيرا يتحرك، لم تكتشف كنهه إذ اختبأ بسرعةٍ، وأريد أن أفتش الحجرة وأرشها بالمبيد..**»، رفع يده التي تحمل مبيداً حشرياً وفوطة زرقاء صغيرة ليريهما لنادرٍ مؤكداً كلامه. ابتسم نادرٌ لسخافةِ الموضوع، فقال وهو يعود إلى الأوراق ثانيةً: «**لم أرَ شيئاً مُذْ دَخلْتُ هنا. مؤكد بأن ذاك الشيء قد خرج من الغرفة..**». رد آدم بإصرارٍ: «**لقد قلبت الفيلا خارجاً و لم يبقَ سوى المكتب.**». قال نادر وقد رفع حاجبه دون أن يرفع نظره عن الرسم البياني الذي انهمك في تفحصه: «**ربما خرج من الفيلا.. اسمع، إن كنت مصراً، فَعُد في المساءِ يا آدم ولا تعطلني أكثر من هذا، أرجوك.**».. ولكن لدهشته أصرَّ آدم بعنادٍ: «**لا أظنه سيبقى قابعاً في مكانه حتى المساء، ولن أتحمل عناء البحث في الفيلا بأكملها مجدداً.. تخيل لو رأت شهد ذاك الشيء وكان عنكبوتاً كبيراً أو صرصوراً، ستُحدث فضيحةً.. كما أنِّي لم أعُد أرَ بوضوحٍ في الضوء الاصطناعي.**».. أرجع نادر ظهره ليستند إلى الوراء بعدما انتهى آدمٌ من مرافعته وفرد كفيه وهو يقول هازّاً رأسه باستخفافٍ: «**صرصور؟!**» .. أومأ آدم برأسه دون أن يرد، فوقف نادر قائلاً: «**سأنتظر في**

الحديقة. فقط أعلمني حين تنتهي.».. ضحك حين سمع آدم يقول وهو يشير إلى الحديقة من خلال النافذة: «**أصبح الطقس غائماً قليلاً و بارداً في الخارج، ولا أظنك تود الإصابة بالبرد والبقاء في الفراش مجدداً، فلِمَ لا تنتظر في الردهة الزجاجية حيث أشعلتُ جهاز التدفئة منذ فترةٍ وسيكون جوُّها مناسباً جداً.**».. رفع نادر ذراعيه في الهواء ملوحاً باستسلام، وخرج مغلقاً الباب وراءه تاركاً آدم الذي عَلَتْ وجهه ابتسامةٌ عريضةٌ...



الغرفةُ مضاءةٌ بشكلٍ رائعٍ بفعل الحوائط الزجاجية التي أسدلت على بعضها ستائر بيضاء رقيقةَ النسيج سمحت لضوء الشمسِ ودفئها بأن يغمرا الردهة بقوةٍ، ما جعل مهرة تشعر بالعرق ينساب على ظهرها إلا أنها لم تفكر حتى في خلع معطفها، فهذا المعطف هو أرقى وأغلى ما تمتلك، والبلوزة التي ترتديها تحته، لا تناسب أبداً مكاناً كهذا، وبالطبع لن تساعدها في استعادة ثقتها بنفسها، فاكتفت بتحريك يدها كالمروحة أمام وجهها .كانت تتمسك بمعطفها حتى في غرفة شهد، إلا أن غرفة الصغيرة لم تكن مرتفعة الحرارة لهذه الدرجة.. بحثت بعينيها عن مقبض أو مكان تستطيع أن تفتح منه الباب الزجاجي، ولكنها توجهت بابتسامة مستبشرة نحو مدخل الردهة العريض وهي تسمع وقع خطواتٍ تقترب. تجمدت ابتسامتها على حالها وابتلعت ريقها حين ظهر رجلٌ غريبٌ يقترب نحوها بخطواتٍ قويةٍ واضعاً يديه في جيبي بنطاله.. (ومن هذا هو الآخر؟!) تساءلت وهي تتشبث بابتسامتها (لا يحتاج الأمر إلى ذكاء فذ، فبالتأكيد هذا نادر شقيق السيد فؤاد. ألا يفترض أن يبدو أكبر سناً بكثير؟) ، وقفت حين أصبح قبالتها.. وقد شدت شفتيها على اتساعهما في ابتسامةٍ مرتبكةٍ.

ارتبك نادرٌ بدوره للحظةٍ، حين لحظ وجودَ شخصٍ غريبٍ ببيته، فلم يكن يعلم بأن لديهم ضيفاً اليوم، ولكنه تقدم نحو الشابة بثباتٍ، وما أن وقف

قبالتها حتى رسم ابتسامةً رسميةً على وجهه وهو يمد يده ليصافحها قائلا بأدب جَمٍّ: «**نادر عز العرب، أهلاً بك يا آنسة. اعذريني لترددي فلم أتوقع أن أقابل أحداً هنا.**» . كانت لا تزال تبتسم وهي تهز رأسها (توقفي عن الابتسام كالبلهاء وقولي شيئاً! ردي على الرجل بالله عليك) . ابتلعت ريقها وهي تسحب يدها برفقٍ من يده وتعود إلى كرسيها حيث أشار لها قائلةً بصوت بدا له خافتاً قليلاً: «**آسفة إن كنت فاجأتك. أنا مس مهرة، معلمة شهد، ولدينا موعدٌ، إلا أنها على ما يبدو تأخذ حماماً.**» .

دهش نادر وعبر عن دهشته برفع حاجبيه ليقول بصراحةٍ: «**أنتِ مس مهرة؟!!**»، خلع البلوفر الأسود المفتوح بأزرارٍ عريضة من الأمام، ليظهر تحته قميصاً بلون السماء الصافية وهو يتابع: «**بصراحة لقد توقعت امرأةً اكبرَ سناً بعدما سمعت عن خبرتك ومهارتك في التعامل مع شهد، وكذلك لتفرغك لها بالصورة التي أخبرتني بها كريمة.**».. جلس على الكرسيِّ العاجيِّ اللون القريبِ منها قائلاً باعتذارٍ: «**يا إلهي، لابد بأننا أربكناكِ وبعثنا الفوضى في حياتكِ بشكلٍ سخيفٍ.. أعتذر لكِ بصدقٍ..**».. تراجع ليرتاح في كرسيه ويضع ساقاً فوق الأُخرى وهو يراقب تصرفاتها المتحفظة والعرق الذي ندَّى جبينها، ربما بفعل حرارة الغرفة وبقائها مرتديةً معطفها الثقيل. ابتسم لها وهي تقول ما يتوقع منها أن تقوله في موقفٍ كهذا: « **لا مشكلة على الإطلاق، على العكس، أسعدني أن أكون بجوار شهدٍ في ظرفٍ كهذا، فالله يعلم لكَمْ أُحب هذه الطفلة.. بالمناسبة، كيف هي صحتك الآن يا سيد نادر، أرجو أن تكون في حالٍ أفضلَ.**». ضحك معلقاً: «**بالتأكيد أنا الآن أفضلُ من حالي في الغيبوبة..**». شعرت بالحرجِ من سخافةِ سؤالها ولكنها أُحرِجَت أكثرَ حين قال: «**الجو في الغرفة دافئٌ جداً، فربما تشعرين براحةٍ أكبرَ إن خلعتِ معطفك.**» واعتدل مكملاً: «**اسمحي لي بأن أساعدك.**»، ولكنها مدت يدها تستوقفه قبل أن يقف قائلةً بسرعةٍ: «**لا بأس، شكراً.. لا أشعر بالحرَّ بسهولةٍ على أي حال، وسأصعد إلى شهد بعد دقائق، فلا داعي لذلك. حقاً.**». تراجع حين شعر بعدم ارتياحها وبقيا صامتَين لدقائق. (ما الذي أخَّر شهد هكذا؟! هل سيكون لائقاً إن استأذنته للخروج والانتظار بالحديقة؟!). مدت يدها تعدل

خصلة من شعرها التصقت بجبينها في حركةٍ لم تَفُتْ نادراً، الذي مدَّ يده ليلتقط جهاز تحكم أبيضٍ صغيرٍ من على الطاولة الزجاجية التي تفصلهما، وضغط فيه على الزر الكبير لتسمع رنةً صغيرةً قبل أن يعيده حيث كان..

قالت ببساطةٍ وهي تشير بإبهامها إلى الحديقة خلفهما: «**أعجبني حوض السباحة..**». هز نادر رأسه مبتسماً ورد بصراحةٍ: «**شكراً، وأنا كذلك أحبه. يؤسفني بأني لا أستغل وجوده كما يجب.**».. سألته بدهشةٍ: «**حقا؟ خَسَارة! وهل يُقاوَم؟! لو كان لديَّ لما قمتُ من أمامِه أبداً.**»..

«**إنه حمامُ سباحةٍ وليس تلفازاً، الناس تسبح فيه، لا تجلس أمامه..**»، لم يكن التعليق البارد الذي أحرجها لنادرٍ، وإنما كان من الشاب الطويل الواقف بعيداً في مدخل الردهة، والذي تقدم نحوهما ليجلس في الكرسي المجاور لها من الناحية الأخرى وهو يتابع فارداً جسده على الكرسي: «**السيد نادر يقصد بأنه ليس لديه الوقت للعب الأطفال الذي نمارسه، فلديه عالمٌ يحافظ على اتزانه وأشخاص أهم يحظى بصحبتهم.**». لم يحرِّك نادر ساكناً ولم يبدُ الضيق على محياه أو حركاته إلا من نَفَسٍ عميقٍ رفع صدره ببطء وقال بهدوءٍ شديدٍ وهو يثبِّت نظره على وجه سامرٍ: «**أظنكِ التقيتِ بسامرٍ مِن قبلٍ يا مس مهرة.**». ردَّت وقد كرهت اقحامها فيما يبدو خلافاً بين الرجُلَين: «**نعم، بالطبع.. أكثر من مرة.**».. تابَع وهو لا يزال يحدِّق بابن خالته: «**إذاً فقد اعتَدْتِ حِسَّ دُعابَتِه المُميَّز.**».. لم ترد، وإنما أطْرَقَت تحدق في أصابعها التي تشابكت بقوةٍ في حضنها، فتابع: «**أم ربما عليكَ أن تتوقف حتى لا تُشعر ضيفتَنا بعدمِ الارتياح يا صاحبي.**». (لعل الاستئذان الآن سيكون مناسباً جداً، ومقبولاً.). هَمَّت بفتح فمها إلا أن كلام سامرٍ التالي أخرسها تماما، فقد قال وهو يميل إلى الأمام ليرتكن بكوعيه على ركبتيه المتباعدتين ويحدق بدوره في نادرٍ: «**تهتم كثيراً لأمر ضيفتك، أليس كذلك؟ إذاً، هل كافأتها بصورةٍ مجزيةٍ عن تحمل ظروفك في الفترةِ الماضيةِ؟ أم اكتفيتَ بالتعبيرِ عن امتنانك؟ لعلَّك لم تنسَ حتى أن تعطيها أجرها من الأساس؟..**».. شبك أصابع كفيه وارتكن على ذقنه مبتسماً بتحدٍّ صارخٍ.. أراد نادر أن يضربه في وجهه بالمطفأة الكريستال

الثقيلة القريبة من يده قرباً مغرياً، ولكنه اختار أن يوجه انتباهه للإنسانة التي، وبلا شكٍّ، قد جرحها كلام سامر غير المراعِ والمُجرَّدِ تماماً من الأدب، فنظر إلى مهرة معتذراً بصدقٍ والأسفُ يطلُّ من عينيه قائلاً: «**آسف.**» هزت رأسها وأرادت أن ترد، ولكنها لم تجد شيئاً يمكنها أن تقوله لتعبر عن قبولها اعتذاره أو أن تكذب مجاملةً وتدَّعي بأن كلام سامرٍ لم يحرجها، فصمتت تماما. شعرت ببردٍ يلامس أناملها وشعرت بعدم ارتياح وسْط هذين الغريبين الأنيقين في حربهما الصامتة، وهي وسطهما تتقوقع داخل ملابسها القديمة كدودةٍ تختبئ وراء ورقة خسٍّ، وكرامتها الجريحة تئن وتتعذب، فوقفت دون أن تقرر إلى أين ستذهب، فوقف نادر فوراً، ولم تدرك كم كان قريباً منها إلا بعدما ابتعد خطوةً إلى الوراء قائلاً بأدبٍ وضيافةٍ: «**أصاعدةٌ إلى شهد؟**». ردت فوراً: «**سأنتظرها في الحديقة.**». تعمدت أن توجه حديثها لنادرٍ وحده متابعةً: «**عن إذنك يا سيد نادر.**». ابتعد مُفسِحاً لها المجال، فتجاوزته دون أن تنظر لأحدهما، إلا أن نادراً، الذي لم يعجبه أن تهان ضيفته في بيته وبوجوده دون أن يردأ عنها هجوم ابن خالته السافر ليحافظ على الشكل العائلي والصورة العامة أمامها، قد فاجأ مهرة بأن مشى إلى جوارها في صمتٍ حتى وصلا الباب الزجاجي الأمامي فوقف ليقول وهو ينظر في عينيها بطريقةٍ أربكتها: «**حقاً يا مس مهرة، أنا عاجز عن التعبير عن مدى أسفي وضيقي مما قال قريبي، وغضبي من إحراجك بهذه الصورة.**». قالت وهي تنظر إلى قدميها وتحرك رأسها بحركاتٍ لم يفهمها نادرٌ تماماً: «**لا تضايق نفسك. فكما قلتَ سابقاً، أنا صرتُ أعرف السيد سامر وليس جديداً على مزاحه.**».. طأطأ لينظر حيث تنظر ما جعلها تلوم نفسها بشدة للفت نظره إلى حذائها الأسود البالي ولكنه رفع رأسه بسرعةٍ متابعاً: «**لم يخطئ حين قال بأننا لم نقدر مجهودك كفايةً. وصدقيني فأنا لا أتحدث عن التقدير الماديّ، لأن ما فعلته، ومما سمعت من كل فردٍ في هذا البيت، لا يقدر بمال.. أنتِ إنسانةٌ عظيمةٌ يا مس مهرة لتتركي حياتك.**»، وأشار إليها بيده مكملاً: «**وأنت شابة وبالتأكيد لديكِ ما يشغلك في حياتك وتستمتعين به أكثر من مجالسةِ طفلةٍ صغيرةٍ في ظروف ليست بالجيدة وفي شهر رمضان.. ما فعلتِه كبير فعلاً، وأعلم أن كلامي قد يبدو**

مجاملةً أو بدافع الحرج بسبب ما قال سامر، ولكني كنت فعلاً أفكر كيف، ولن أقول أكافئكِ، وإنما أعوضكِ عما أحدثناه من إرباكٍ لكِ ولعائلتك.».. كان صوته وأسلوبه يحملان الكثير من الصدق، أو هكذا شعرت مهرة.. وبالرغم من أن ما قاله لم يزد عن عبارات اعتذارٍ ومجاملةٍ سيقولها أياً من كان في مكانه، إلا أنها شعرت بتحسنٍ شديدٍ وراحة كبيرة انعكست على لغة جسدها تلقائياً، فقد رفعت رأسها وشدت قامتها وهي تفرد كتفيها وترد بابتسامةٍ حقيقيةٍ: «**صدقني يا سيد نادر، لقد نسيت الموضوع.. كما أرجو ألا تعطي الأمر أكبر من حجمه، فما فعلتُه لا يزيد عما كانت ستفعله أي معلمةٍ أخرى فيما لو كانت مكاني.**»..

«**مس مهرة..!!!!! هاااااي...**»..التفت نادر وأشرقت ملامحه بسعادةٍ وهو يرقب شهد تقفز درجات السلم وثباً وكريمة تتبعها صارخة خوفاً عليها من أن تسقط.. وبالرغم من اشتياقها لشهدٍ إلا أنها أخذت ترمق الرجل الواقف في سدة الباب إلى جوارها وتتمعن في جانب وجهه.. لم يكن وسيماً كشقيقه، كما لم يكن فارع الطول مثله، وإن كان لا يزال طويلاً نسبياً بالنسبة إليها، إنما في عينيه البنيتين شيء شدها بقوة، ليس كامرأة، وإنما كإنسانة.. كانت عيناه تنظران إلى الشخص ولكن بصره يخترق إلى أبعاد أخرى، وكأن في داخله يعتمل أمر ما أو يرى بعينيه خلف ما يرى الناس.. كان يعتذر منها وفي عينيه أسف حقيقي، ولكنها شعرت بأن أسفه لم يكن عليها بقدر ما هو عليه، وكأنه يريد أن يخبرها بشيء لم يستطع أن يسمح له بتخطى عينيه. (نعم، طبعا سيد هذا القصر يحتاج إليكِ ليروي مأساته ويلقي بمشاكله تحت قدميك، فوق حذائك البالي.. منتهى السخافة.. دعكِ من خيالاتكِ وانتبهي للطفلة ولقمة عيشك.).. فتحت ذراعيها بحبٍ والتقفت الطفلة التي قفزت في حضنها بسعادةٍ وشوقٍ صارخةً بطفولةٍ: «**أرأيتَ مس مهرة يا بابي؟ هذه هي التي كنت أكلمك عنها؟ هل أعجبتك؟**».. انفجر نادر ضاحكاً وكذلك مهرة وكريمة من التعليق البريء، وقال وهو يثني ركبتيه ليقترب من وجه ابنة أخيه الحبيبة ويداعب طرف أنفها بإصبعه: «**نعم قابلتها، و لكنكِ تأخرتِ عليها! وماذا قلنا عن الالتزام بالمواعيد؟.**».. ردت كريمة بدلاً من شهد وهي تلتقط أنفاسها بعد نزولها السلم ركضاً لتلحق

بالصغيرة: «**أنا من أخَّرتها يا سيد نادر.**»، ثم التفتت إلى مهرة قائلة بحنوٍ: «**أوحشتنا يا مس مهرة، لا تتصوري كم اشتقت إليك.**». تقدمت مهرة لتعانقها فاحتضنتها وأخذت تربت على ظهرها مكملةً: «**لم يكن للبيت طعمٌ بدونِك يا عزيزتي.**».. انشغل نادر عن هذه اللحظةِ العاطفية بالصغيرة التي كانت تتقافز حوله وهو يداعبها ويتظاهر بعدم القدرة على الإمساك بها.. استدارت نحوهما مهرة بعدما أفلتتها كريمة وقالت برقةٍ: «**ألم يحن الوقت بعد لنبدأ الدرس يا حبيبتي؟**»، التفتت تسأل كريمة: «**أين يمكننا ان نجلس؟**».. أجابت كريمة بحاجبين مرفوعين: «**في غرفة شهد يا عزيزتي، أنسيتِ؟**».. ردت مهرة: «**ولكن..**» ثم عادت وصمتت وشهد تسحبها من يدها لتصعدا السلم وشهد تخبرها عن أحداث فيلم أطفالٍ شاهدته في السينما مع والدها..

بقي نادر يتابعهما ويداه في جيبي بنطاله في صمتٍ، ووقفت كريمة هي الأخرى عاقدةً كفيها براحة، تنظر إلى الشابة والطفلة، وتحلم بتحقيق ما حدثت آدم عنه.. اتسعت ابتسامتها وهي تتخيل طفلاً وليداً بين ذراعيّ مهرة وشهد تتراقص حولهما وفؤاد يراقبهم جميعاً بسعادة.. «**يا رب.**». خرج الدعاء من فمها رغماً عنها فنظر نادر إليها مستفهماً، فقالت ضاحكة وهي تشير بيدها أن لا شيء مهم: «**دعك مني، فقد صرت أحدث نفسي كثيراً هذه الأيام، يبدو أنها أعراض الشيخوخة.**» ثم التفتت إليه قائلة باهتمام وضيقٍ: «**أنت تقف هنا بقميصك الخفيف دون أن تلقيَ بالاً للبرد وتيار الهواء الشّديد الذي يدخل من الباب.**». قال ببساطةٍ وهو يهز كتفيه ويراقبها وهي تغلق الباب: «**الطقس اليوم معقول ولا أشعر بالبرد فعلا. ثم إنني كنت في مكتبي حتى أخرجني آدم منه بإصرار ليبحث عن صرصور.**».

(أي صرصور؟) تساءلت بصمتٍ بينما توجهت للمطبخ لتباشر تجهيزها للإفطار، وانصرف نادر ليرى (ماذا حدث بين آدم والكائن المجهول)...

وبقي سامر في الردهةِ الزجاجيةِ وحيداً يرقب حمام السباحة بكآبةٍ وحنقٍ...

«**حسنٌ، هل يمكن أن أسأل عمَّ حدث منذ قليلٍ بالفيلا؟**»، سأل فؤاد بخفةٍ وهو يدير عجلة القيادة بهدوء، وقد حرص على القيادة برويةٍ احتراماً لرغبة أميرةٍ التي جلست بجواره براحةٍ أكبر داخل سيارة نادرٍ البي إم دابليو والتي كانت تعجبها أكثر من سيارات فؤادٍ الرياضيةِ.. سألته بتعجبٍ: «**متى؟ عمَّ تتحدث؟!**».. رمقها بنظرةٍ سريعةٍ وقال بنفس البساطةِ: «**لقد تَعمدتِ إحراج مدرسة شهدٍ والسخرية منها بشكل صارخ! لِمَ؟!**». رفعت رأسها وأرجعتها لتنفض خصلة من شعرها انسابت على جبينها بعصبيةٍ وقالت وقد أثارها أن يحاسبها فؤادٌ في المقام الأول، فَلَمْ تتقبل من أحدٍ لوماً أو عتباً يوماً، وثانياً، أن تكون تلك المدرِّسة موضوعاً يختار فؤاد أن يتحدث فيه معها، وأن تطغى سيرتها على وجودها هي: «**حقا؟ لا، لم أنتبه لهكذا أمر.**».. صمتت وتوقعت أن ينتهي الكلام بهذا الشأن عند إجابتها اللامبالية، إلا أن فؤاداً قال مُقِرّاً بهدوءٍ: «**بلى يا أميرة، أنتِ .. أهنتها عمداً، وقد كان يتوجب عليكِ أن تراعي أنها في موقفٍ لا يسمح لها بالردِّ عليك وخاصة بوجودي.. أو ربما حتى تَوَقَّعَتْ بأن أردَّ أنا عنها باعتبارها في ضيافتي.. أنتِ لم تحرجيها وحدها بكلامك، وإنما وضعتني أيضاً في موقفٍ حرجٍ.. و أنا لم أحب هذا ولا يعجبني أن تتصرفي بهذا المستوى.**». حاولت أن تقاطعه ولكنه لم يمنحها الفرصة وتابع كلامه حتى أنهاه، ثم صمت لحظةً قبل أن يقول بنفس الهدوء، وكأنه لم يوبخها أو يقل ما يعكر مزاجها لباقي اليوم: «**كنت تقولين؟**».. سألته أميرة ببرودٍ يناقضُ ما عليه أعصابها من ثورة: «**وما الذي أغضبك تحديداً حتى أستطيع أن أوضح لك؟ هل أنني سخرت منها بغض النظرِ عمن تكون في وجودِك؟ أم أنني سخرت منها هي شخصياً على وجه التحديد؟**».. رد ببساطةٍ وهو ينعطف بالسيارة بحدةٍ جعلتها تتمسك بمقبض الباب وتستند بكفها على التابلوه أمامها: «**كِلا الأمرين.. كذلك لَم يعجبني أن أراكِ تنقضِّين على شخصٍ ما مستغلةً ألا حول له ولا قوةٍ أمام جاهك يا أميرة.. أنا أكره الاستضعاف، فمن جهةٍ، هي ضيفةٌ غريبةٌ تقف بين قريبَين، ومن جهة أخرى، فهي، كما يبدو عليها ..**». صمت لينتقي كلماته باحثاً عن كلمة يستبدل بها (فقيرة معدمة تخشى سلطاننا)، فقد وجد أن هذه الكلمات فيها تباهٍ وعجرفةٍ، فقال

أخيراً: «**تبدو إنسانةً بسيطةً من طبقة متواضعةٍ، لقد شَعُرْتُ وكأنها سمكة سردينٍ وسط أسماك قرش، إن فهمتِ ما أعني.**».. «**بالطبع فهمت، فأنت تشفق عليها من غولٍ مثلي.. جميلٌ جداً، أشكرك على تصويري بهذه الصورة.**»..

لم يرُد فؤاد بغير أنه زاد من سرعته. بقيا صامتين حتى وصلا وجهتهما فأوقف السيارة في موقف السيارات الخاص ودار حولها بخطواتٍ متأنيةٍ ليفتح لأميرة الباب.. أنزلت قدميها برقةٍ ونزلت بخيلاء وعطرها يملأ الهواء حولهما بقوة. انتظرت أن يفسح لها المجال لتتحرك ولكنه بدلاً من ذلك أمسك معصمها بحزمٍ واقترب منها قائلاً بهدوءٍ وهو يؤكد على معنى كلماته: «**اسمعي يا أميرة، ما منعني من الرد عن مس مهرة هناك، بالرغم من أهميتها لدى ابنتي، هو أنني رفضت أن أحرجكِ أمامها، وكذلك أنِّي لا أريد لأيِ كان أن يُتلف مزاجكِ، بخاصة ونحن بصدد هذا المشوار بالذات.**»، قال هذا وتركها فوراً ليبتعد إلا أنها شدته من كمه بحركةٍ خفيفةٍ فوقف متسائلاً، ليستمع لها تقول برفق: «**وهل تظن بأنك لم تضايقني بكلامك ؟ عموماً، صدقني لم أنتبه للحجم الكبير الذي قد تحمله كلمةً أو اثنتين ألقيهما للفتاة، فهي لم تصنع من زجاجٍ، وعلى عكسك أجدها أكثر من قادرة على الرد ولكني أنا من لم تقل شيئاً يستدعيٍ ذلك، فقد فهمتني هي على النحو السليم بعكسك أنت..**».. ابتسم فؤاد، فهو يعلم بأنها لن تعترف بخطئها وهذا هو العيب الوحيد لديها والذي تقبله بصدرٍ رحْبٍ، فمَن كاملٌ على أي حال؟ كما أنه لا يريد أن يعطي موضوعاً كهذا حجماً أكبرَ من حجمه، خصوصاً وأنها لم تقصد أن تحرجه أو تضايقه وإلا لاتخذ موقفاً مختلفاً تماماً.. ابتعد خطوتين وأشار بيده لها كي تتقدمه، فتأبطت ذراعه بدلالٍ واستكانة وهي تسير بجواره نحو مبنى الفندق العالمي الضخم دون أن تنبس ببنت شفة. كان اعتزاز فؤاد وانتصاره لنفسه وكرامته ولو من إشارة بسيطة غير مقصودة هو سبب الكثير من خلافاته مع شهيرة، لهذا قررت ترك الأمر عند هذا الحد حتى لا تثير عصبيته التي يفقد خلالها كل حس بالخطأ والصواب.. كما أنها ارتأت بألا تعطي مهرة مساحة أكبر في حديثهما ووقتهما معا.. سألته حين وجدته يقود خطواتها نحو المول التجاري الضخم الذي يحتل بضع طوابق أسفل الفندق

الذي ارتفع شامخاً متكبراً وسط مساحة خضراء أنيقة كبيرة: «**إلى أين تأخذني؟**»، فرد مبتسماً: «**لحظاتٌ وتعرفين، فقط اصبري.**».. صمتت مبتلعة تعليقها اللاذع الذي كاد يقفز من بين شفتيها. لم تكن سعيدة بقيادته لها كالبلهاء ولكنها قررت أن تمنحه الإحساس بالسيطرة والتحكم حتى تصل لمأربها هي.. (هذا هو السكير التائه الضعيف الذي ستتحكم به ؟! فيم ألقيت نفسي وماذا سأفعل إن تزوجته فعلا؟!!)..

لم تعرف لِما توقفا، ولكن ابتسامة فؤاد العريضة جعلتها تستدير لتنظر بدهشة إلى واجهة عرض محل الألماس الشهير خلفها، وارتفعت معنوياتها كثيراً وفؤادٌ يمسك بيدها ليقودها إلى الداخل حيث وقف كل من به تحيةً واحتراماً، وتقدم صاحبه ليصافح فؤاد ويرحب به بقوةٍ وسعادةٍ واضحين.. (حسنٌ، لن يكون سيئاً أبداً أن يبدأ نهاري بهدية من الألماس. لست سيئاً جداً يا سيد فؤاد، فشقيقك لم يفعلها دون سببٍ قبلاً.)..

«**ماذا تحبين أن تشربي مودموازيل**» سألها صاحب المحل مبتسماً ابتسامةً وجدتها عريضةً جداً، وأشفقت على ظهره الذي أبقاه شبه منحنٍ منتظراً جوابها بصبرٍ وأدبٍ، فخلعت الشال من حول كتفيها وسارع هو بتناوله منها فيما قالت برقي: «**شكراً مسيو، ولكني صائمة.**». التفت إلى فؤاد الذي أومأ موافقاً فاعتدل الرجل وسأله بنبرة محترفةٍ: «**كيف يمكنني أن أخدمك يا مسيو فؤاد؟**» . رمق فؤاد أميرة بنظرةٍ جانبيةٍ سريعةٍ قبل أن يرد وهو يتكئ براحةٍ إلى الوراء على الأريكة المخملية البيضاء: «**وماذا تظن يا مسيو ألبير؟**»، وابتسم متابعاً: «**أنا لم أذهب إلى غيرك لأني أعلم أني لن أجد خاتم الزواج الذي بخيالي إلا لديك.**».. انتفضت أميرة تنظر إليه بصدمةٍ بينما سمعت ألبير يقول: «**الصوابُ فعلتَ يا سيد فؤاد.. وأنت أعزُّ زبون لدي، لذلك أمهلني دقيقةً كي أحضر لك المجموعة الخاصة التي لا أعرضها إلا للزبائن الغالين أمثالك.**». أومأ برأسه وانصرف مسرعاً فالتفت فؤاد لأميرة التي باغتته قائلةً: «**هل جننت يا فؤاد؟ أتسحبني من البيت وتجرني إلى هنا وأنا أظن بأننا سنحضر فيلماً أو ما شابه، ثم ظننت بأنك ستشتري لي هدية، فقط هدية، لا**

خاتم خطوبة.». رد ماطاً شفتيه بابتسامةٍ ساخرةٍ: «**ولهذا قلت لكِ بأنها مفاجأة.**»، ثم مال نحوها قائلاً بتساؤلٍ: «**وأظنها مفاجئةً سعيدةً، أليس كذلك؟**».. قالت من بين أسنانها: «**كنت سأسعد أكثر لو تنازلتَ وسألتني عن رأيي، فلستُ شيئاً تحصل عليه وقتما تريد يا فؤاد. عليك أن تعلم بأنّي لا أحب هذا الأسلوب، خاصةً في الأمور المصيرية..**». كانت عصبيتها وثورتها واضحين في لمعة عينيها وخديها اللذين توردا بشدةٍ، فوقف فؤاد شاداً إياها من ذراعها لتقف بدورها في حركةٍ مفاجئةٍ لفتت نظر بعض العاملين في المحل، وكذلك ألبير الذي كان يقترب منهما ولكنه تراجع بضع خطواتٍ حين لاحظ تعكُّر صفو الخطيبين، فانتظر في الخلف وسط موظفيه الذين صرفهم عن مراقبة زبونه المهم، والذي كان يقول بصوتٍ لم يرفعه كثيراً ولكنه لم يهتم كذلك بأن يجعله غير مسموعٍ كفايةٍ: «**ولِمَ كل هذه المأساة؟!! انسِ الموضوع تماماً وتقبلي اعتذاري!!! آسف لأني فهمت تقربكِ منِّي على أنه شيءٌ ذا معنىً، قررت أن أتجاوب معكِ، فأنا أساساً لم أكن أفكر في الزواج مجدداً.**». (يا إلهي!! هل أتعرض فعلاً لهذه الفضيحة والإهانات؟!!! أيمكن أن يتحول شخص ما من النقيض إلى النقيض في ثوانٍ، فتجد نفسك وكأنك أمام إنسانٍ آخر؟؟؟!!! كيف كانت تتصرف شهيرة في هذا الظرف؟ يا إلهي!! ليت الأرض تنشق وتبتلعني، أو تبتلعه هو ويختفي هذا السافل إلى الأبد). كانت تنتفض كالهرِّ المبتل ولكنها قالت بصوتٍ منخفضٍ وهي تحرص بألا تزيد الطين بِلَّة: «**الناس تراقبنا يا فؤاد!**» . أبقت نظرها معلّقاً بنظره، فزفر بعد لحظةٍ وهو يمسح وجهه بكفه ويضع إحدى يديه في جيب بنطاله، وقال مشيراً إلى المقعد الوثير خلفهما حيث كانا يجلسان: «**أستغفر الله العظيم، اجلسي..**». ردت ويدها ترتعش خوفاً من أن يصيحَ مجدداً: «**الجميع ينظر إلينا، دعنا ننصرف أرجوك.**». لم يرد وإنما وقف وخرج من المحل بسرعةٍ تاركاً إياها يسمِّرها ذهولها بالأرض، وتمنعها الصدمة والحرج من الالتفاتِ حولها لتواجه عيون الموظفين الفضولية. أخيراً تمكنت من تحريك قدميها فخطت ببطءٍ خارجةً من المحل غير متأكدةٍ إن كانت ستجد فؤاداً بانتظارها عند السيارة أم ستجده قد غادر تاركاً إياها لتتدبر أمر عودتها وحدها! (أنا؟! أنا يفعل بي هذا؟! أنا؟!

أين ذهب مجهودي وتعبي في التقرب إليه طوال الفترة الماضية وأنا أعصِر على نفسي ليمونة لتقبُّل فكرة زواجي منه؟!! أيقول لي أنا بأني ألقي بنفسي عليه؟!! السافل!!). «**مودموازيل! مودموازيل!**».. استدارت وهي تعض على شفتها بقوةٍ حتى لا تبكي فتُهين نفسها أكثر، لتجد ألبير يقترب منها مسرعاً وفي يده شالها الذي نسيته من هَولِ صدمتها. قدمه لها بأدبٍ فأخذته مبتسمة دون أن تستطيع أن تفتح فمها بكلمةٍ، فمن اللياقة وحفظ ماء الوجه أن تعتذر عن إحداث فضيحةٍ في محله، ولكنَّ صوتها أبى أن يخرج، فأومأت برأسها شاكرةً بابتسامةٍ مصطنعةٍ.. كان ألبير يلاحظ كم زبونته المستقبلية مجروحة ومحرجة فقال بطيبةٍ: «**لا بأس يا مودموازيل.. مثل هذه المواقف تحدث كثيراً أمامنا، ففكرة الزواج تجعل الرجل، أياً كان، يشعر بأنه أصبح فأراً بعدما كان قطاً..**» ابتسمت لتشبيهه وقالت بصدقٍ: «**ميرسي مسيو ألبير.**»، فهز رأسه متابعاً بصراحةٍ: «**صدقيني مودموازيل، نحن ننسى تماماً هذه المواقف من كثرتها، فلا تقلقي ولا ترددي أبداً في زيارتنا مجدداً. المحل محلك في أي وقتٍ تشرفيننا فيه..**»، ابتسمت له مجدداً قائلةً: «**بالتأكيد.. أرجو أن تقبل اعتذاري عما..**». قاطعها الرجل بقوةٍ: «**لا، لا، لا تعتذري يا مودموازيل... مسيو فؤاد صاحب محلٍ ونحن ضيوفه.. صدقيني لا مشكلة إطلاقاً..**»، ثم تابع بنبرةٍ معينةٍ وكأنه ينبهها: «**وهو رجلٌ كريمٌ جداً، لا يبخل على امرأته بأي شيء.. فأنا أذكر كيف كان يغدق المجوهرات والهدايا من محلي على مدام شهيرة - رحمها الله-.. إنه رجلٌ يحب تدليل زوجته.**».. هدأت أميرة وهي تنظر إلى ألبير بصمتٍ، فابتسم لها وانحنى قبل أن يتركها وقد أفاقت وأدركت حجم الضرر الذي أحدثته بتكتيكاتها وخطتها.. سارت نحو المخرج وهي تفكر، عليها الآن أن تدوس على كرامتها وأن تتناسى إهانتها، وتحاول أن تدفع الأمور إلى الأمام مجدداً مع فؤاد. لا تدري ماذا أصابها! فبالرغم من أن هذه الخطوة كانت لتتوج جهدها وتنهي بها المرحلة الأهم في طريقها لتصبح سيدة هذه العائلة البائسة، إلا أنها فزعت حين وجدت الأمور تأخذ منحنىً جدياً، وبأن زواجها من فؤاد سيصبح واقعاً تعيشه، وليس خيالاً وترتيباً تجاهد لتقبله.. بللت شفتيها بطرف لسانها ودلكت شفتيها ببعضهما وهي ترى سيارة فؤاد متوقفةً أمام المخرج

مباشرة بانتظارها، وفؤاد بداخلها يستند إلى المسند عن يمينه بكوعه بينما يطرق بأصابع يده الأخرى على المقود الجلدي.. لفحها الهواء البارد حين خرجت وعبث بشعرها وثوبها الذي التصق بجسمها فتوقفت تعدل وضع شالها وتعدل خصلات شعرها بأصابع أكثر ثباتاً من ذي قبل.. كان فؤاد يطالعها في صمتٍ وقد هدأ قليلاً، فأخذ يلوم نفسه على ما قال من كلامٍ سيصعب عليه التراجع عنه أو الاعتذار منها عليه. كان يكره نوبات غضبه، ولكنه يلومها في ذات الوقت على استفزازه، فقد كان بإمكانها أن تصمت ثم ترفض الخطبة وهما وحدهما فيعيد الخاتم للمحل دون أن تحرجه بهذه الصورة.. لا يعرف كيف التبس عليه الأمر وظنَّ بأنها تميل إليه!!! ولكن اهتمامها المفاجئ به في الآونةِ الأخيرةِ، لم يكن تعاطفاً أو مجرد موقفٍ إنساني، فقد كانت حريصةً على إرسال رسائلٍ بعينيها ولمساتها، لا تَخفى معانيها على رجلٍ مثله، ويكاد يقسم بأنها لم تكن أَخوية على الإطلاق.. ولأنه يعرف أميرة جيداً، وبالرغم من رفضه لبعض طباعها، إلا أنها لم تكن يوماً سيئة الخلق أو السمعة، بل على العكس، كانت تبتعد عن كل من تحيط بها الشائعات في مجتمع أغلبه لا يعبأ كثيراً لمثل هذه الأمور، ولهذا فقد احترم مشاعر ابنة خالته، وبخاصة وقد بدأ ينتبه لرقتها ويستمتع باهتمامها الأنثوي به، ولهذا قرر أن يُقدِم على الخطوة الرسمية، فكلُّ لبيبٍ بالإشارةِ يفهمُ.. والآن، وقد قال ما قال، وبعد أن هدأ، أدرك بأنه أهانها ليس فقط كامرأةٍ، وإنما كقريبةٍ أيضاً.. زفر (أفففففففف، سيكون وضعاً مستحيلاً، وبخاصةٍ مع امرأةٍ كأميرة، لم تدَع حقها يضيع من قبل أبداً.. أنا أعرفها جيداً.)..

راقبها تقترب بثباتٍ، ثم نزل وفتح باب السيارة لها فدلفت إلى كرسيها بهدوءٍ وانتظرته ليجلس هو الآخر قبل أن تستدير إليه بجسدها كله سائلةً برقةٍ وهي تريح يدها على يده التي كانت تمسك بناقل السرعة: «**هل هدأت أم لازلت غاضباً يا فؤاد؟**».. تفاجأ بردة فعلها وتناقضها التام مع شخصيتها وأسلوبها وما توقعه، ما أخرسه، ولكنه نظر إليها وهو يطرف بعينه في حيرة وقد قطب حاجبيه، فاعتدلت وأغمضت عينيها بقوة وهو يحرك السيارة حيث ارتفع بوق

السيارة المتوقفة خلفه.. استجمعت كل طاقتها لتقول بهدوءٍ وسكينةِ الموتِ: «**أنا أحبك يا فؤاد.**».. صُدم فؤادٌ بقوةٍ من تصريحها وعرف بأن عليه أن يتوقف وأن يرد بكلماتٍ أقوى من كلماتها ليحفظ لها بعضاً من كبريائها التي أهدرها منذ قليل، فاختار بقعة ًقريبةً جداً وتوقف مجدداً ليستدير هو نحوها هذه المرة، وأمسك بيدها ليقبلها بكل رقةٍ قائلاً بكل صدقٍ: «**أنا آسف، فعلاً آسف يا أميرة.. أنا لا أدري كيف أمكنني أن أتصرف على هذا النحو معكِ**.. **صدقيني أنا شديد الندم على كل كلمةٍ قلتها، ولم أعنِ من كل هذا شيئاً.. هذه آفتي، ولا أعرف كيف أتخلص منها.. أرجوكِ قولي بأنك سامحتني.. أرجوكِ .**». استدارت هي الأخرى قائلة بهدوءٍ و قلبها يكاد ينفجر ويصرخ ألماً: «**ألم تسمعني؟ لقد قلت لك أكثر من سامحتك... أنا أحبك يا فؤاد، ولهذا تحملت هذا الموقف بالرغم من أني لا أفهم حتى الآن ما حدث بالداخل!!**».. قبَّل باطنَ كفِّها هذه المرة وقال بأسفٍ: «**ظننتك ترفضين طلبي، بعد أن اعتقدتُّ بأننا متفاهمَين.**». (أيها الحقير، لقد أخبرتك بأنِّي أحبك مرتين وأنت لا زلت تثرثر بكلام فارغ).. ابتسمت له برقةٍ وهي تضغط على أسنانها بقوةٍ آلمتها، بينما سحبت يدها من يده واعتدلت في كرسيها فشد يدها ثانيةً ليقبلها من جديدٍ قائلاً برقةٍ شديدةٍ: «**لم أكن لأنفعل هكذا لولا أنني تعلقت بك يا أميرة ولم أتصور أن ترفضيني وألا تبادليني مشاعري.**». (إذا فقد جرحت كبرياءك؟ حسنٌ، فقط انتظر لترى ماذا سيحدث لك أنت وشقيقك السيد نادر صعبُ المنال.)..

همَّ بالتحرك بالسيارةِ إلا أنها أمسكت مرفقه سائلةً بكل رقةٍ وبراءةٍ: «**إلى أين؟**»، فتوقف قائلاً: «**إلى البيت؟ لِمَ؟ أتريدين الذهاب إلى مكان ما؟**».

ردت مبتسمةً بهدوءٍ: «**دون أن تشتري ما جئت لأجله؟!**».. حدق بها للحظاتٍ، محاولا فهم ما تقصد، و ابتسم بارتباكٍ سائلاً: «**الآن؟.**». أجابته بابتسامةٍ مشرقةٍ: «**نحن هنا، اليس كذلك؟**». كان يدرك، بالرغم من تصريحهما لبعضهما بمشاعرهما، أنه قد أفسد اللحظة، ولن يكون مناسباً أن يطلب منها العودة للداخل، حيث جعل الخلق يشهدون فضيحتها، ليشتري خاتماً، ولو كان

مصنوعاً من القمر، فاحتمال هذا سيكون فوق طاقة البشر.. لذا، أطفأ المحرك ونزل من السيارة بسرعةٍ ليفتح لها الباب وهو لا يزال مذهولاً من طلبها. سارا يداً بيدٍ، عائدَين إلى المحل الذي وقف صاحبه لدى رؤيتهما مبتسمين قائلاً وكأنه يراهما لأول مرة بأدبٍ ومهنيةٍ عاليةٍ: «**مودموازيل، مسيو فؤاد.. شرفتما المحل.. تفضلا..**».. أجلسهما بلباقةٍ وحنكةٍ في ركنٍ آخر غير الذي احتلاه سابقاً وانحنى برفقٍ قبل أن ينصرف ليحضر مجموعته الخاصة فأمسك فؤاد بيد قريبته برفقٍ وابتسمت هي له ناظرة إليه دون أن تراه..

عاد ألبير ليصحبهما إلى مكتبه ومنح أميرةً، زبونته الجديدة، أعرض ابتسامةٍ رأتها في حياتها...



«**هذا المسلسل سخيف، حوِّلي القناة يا مي.**» تأفف ماجدٌ وهو يحاول الوصول إلى جهاز التحكم الصغير الملقى على الكرسي بجوار ميٍّ التي التقطته بسرعةٍ وأبعدته عن يد أخيها قائلةً بحدةٍ: «**توقف! أنا أتابع هذا المسلسل، وكل ليلةٍ لا تدعني أستمتع به. لن أغير القناة حتى تنتهي الحلقة، و إن لم أستطع متابعتها جيداً فسأشاهد الإعادة أيضاً.**».

قال ماجدٌ بضيقٍ: «**فلتتابعي الإعادة إذاً ودعيني أشاهد المباراة، فعلى كل حالٍ، سأنزل للذهاب للمراجعة بعد نصفِ ساعة.. فكفى سخافةً بالله عليكِ.**»، نظر إلى مهرة التي انشغلت بتصفح جريدةٍ قديمةٍ كانت قد احتَفظت بها لاحتوائها على بعض صور فساتين الزفاف الجميلة، وقال مستعيناً بها: «**أخبريها بأن تعطني الريموت يا مهرة.**».. رفعت رأسها محدِّثة مي: «**دعيه يشاهد المباراة يا مي، ألم تشاهدي هذه الحلقة قبل الإفطار؟**».. صرخ ماجدٌ بصبيانيةٍ: «**ماذا؟!! وشاهدتِها من قبل بَعد؟!!**» أقبل نحو مي التي قفزت صارخةً بدورها وهي تخبئ الجهاز خلف ظهرها: «**ما بكِ يا مهرة؟ لم أشاهدها بأكملها!! اجعليه يبتعد.**».. كانا يدوران حول الطاولة المنخفضة في منتصف الغرفة الضيقة حتى ارتطمت

ساق ماجدٍ بحافتها الحادة فصرخ وارتمى على الأريكة بجوار مهرة متألماً فربتت على كتفه قائلةً: «**لا بأس يا ماجد، فأنت لن تستطيع إكمال المباراة كما قلت، فما أهمية نصف ساعةٍ إن لم تشاهدها حتى النهاية؟.**».. وقف غاضباً وقال وهو يشير إلى ميٍّ التي جلست ببساطةٍ تتابع المسلسل: «**أهميته أن تعتاد احترامَ رغبات الآخرين وألا أكون في البيت كالكرسي، لا كلمةَ لي..**». اندفع مغادراً الغرفةَ فوضعت مهرة الصحيفة برفقٍ على الطاولة وتبعته بسرعةٍ إلى حجرته. وقفت على عتبة الباب قبل أن يغلقه قائلةً بطيبةٍ: «**لا تغضب يا ماجد، ولا تضخم الحكاية.. أنت تعرف كم أنت مهم لي وبأنِّي أعتمد عليك، ومن دونك لن أستطيع أن أدبر شئوننا.**».. رد بضيقٍ وصبيانيةٍ وهو يخلع التي شيرت ليرتدي قميصاً أصفرَ نظيفاً ماداً ذراعيه داخل أكمامه بحدةٍ: «**حقا؟!! رائع، أنا الآن أفضل حالاً بكثير..**»، توقف قائلاً: «**استديري إذا سمحتِ.**».. ابتسمت وهي تضم ذراعيها على صدرها موليةً إياه ظهرها ليبدل سرواله (الأيام تجري بسرعةٍ، فقد صار ماجدٌ رجلاً، يستحي مني)..سألته بعد لحظاتٍ وهي تسمعه يتحرك داخل الحجرة: «**ماذا تريدني أن أفعل؟ ماذا يمكنني أن أفعل لتهدأ يا ماجد؟!**»..استدارت تواجهه مكملةً: «**أنتما لم تعودا صغيرين لتحتاجا إليَّ لأحل خلافاتكما الصغيرة هذه.**».. كان قد جمع بعض الكتب والملازم من على الطاولة الصغيرة في ركن غرفته وتقدم نحو مهرة ليغادر، إلا أنها سدَّت الطريق بذراعها رافعة حاجبيها قائلةً بتصميم: «**لن تنزل قبل أن نشرب كوباً من الشاي ونستمع سويا إلى الرؤيا، فلا زال لديك وقت.**».. شدته من كمه ليتبعها إلى المطبخ ووقفت تُعد الشاي بسرعةٍ حتى لا تعطل شقيقها.. كانت معتادة على هذه المناوشات بين ماجدٍ ومي، وكانت تحرص دوماً على الحفاظ على رباطة جأشها وهي تتعامل معها فلا تُظهر ضيقها وتذمرها من كونهما لا يقدِّران أن برأسها ما يكفي ليشغلها حتى الشتاء القادم..

لم تتحدث، ولم يقل ماجد شيئا بعدما هدأ إذ أنه كان يشعر بالخجل من نفسه بعد كل شجار مع مي، وبخاصة حين تتعامل مهرة مع الأمر على أنه شجارٌ بين طفلين ويبدو عليها خيبة الأمل من تصرفاتهما كما هو الحال الآن.. ربما لديها الحق لتتجاهلهما، فهو يرى كذلك سُخف هذه المشكلات بالمقارنة مع

ما تتحمله لأجلهما ويُقدر جداً بأنها لم تشتكِ يوماً، إلا أنه في كل مرةٍ تتصرف فيها مي بطفولةٍ وأنانيةٍ، لا يستطيع أن يتمالك أعصابه ولا يجد سوى شقيقته الكبرى ليلجأ إليها بغض النظر عن كونها غالبا ما تأخذ صف مي، مثلما فعلت أمس لما اعترض على مقاس بنطال مي الجينز وأراد أن يمنعها من الخروج من باب البيت به، إلا أن صوتيهما المرتفعين دفع مهرة إلى الخروج من حجرتها لتقرر بأن مثل هكذا أمورٍ ليست من اختصاصه وأن ما عليه سوى تقديم النصح وإبداء الرأي فقط، وبالرغم من أن الكلام لم يأت على هواه إلا أنه ابتلع لسانه وصمت حين لاحظ عينيها المحمرتين المتورمتين من كثرة البكاء، وكان قد اعتاد رؤيتها على هذه الحال كثيراً مؤخراً.. (سامحك الله يا طارق. فقط لو أقابلك ولو لمرةٍ واحدةٍ لأخبرك رأيي فيكَ بكل صراحةٍ رجلاً لرجلٍ.. هه، وكنت تقوم معي بدور الواعظ وصاحب الرأي!! انظر ماذا فعلت بأختي!!)..

مدت مهرة له كوب الشاي بابتسامةٍ، قابلها هو الآخر بابتسامةٍ ساخرةٍ وهو يشير برأسه إلى مي التي كانت تمسح دمعةً سالت على خدها تأثراً بأحداث المسلسل وقد استحوذ التلفاز على كل حواسها، فلم تسمعهما ينفجران ضاحكَين ولا سمعت تعليق مهرة اللطيف: «**من يرى رومنس..**»، قاطعها رنين هاتفها المحمول فالتقطته بسرعةٍ وقطبت وهي تتعرف على شخصية الطالب.. «**ما الأمر؟ من المتصل؟**» سألها ماجدٌ وقد لحظ التعجب على وجهها ثم استدرك بسرعةٍ رافعاً حاجبيه: «**حماتك؟**».. هزت رأسها نفياً ومطت شفتيها قائلةً بدهشةٍ: «**لا، إنه السيد فؤاد.. والد شهد..**». فتح فمه ليعترض، فبصراحةٍ تغيب مهرةٍ لترافق طفلتهم لم يعجبه، فهي ليست جليسةَ أطفالٍ، كما أنها أهملتهما تماماً في تلك الفترة، وبالرغم من انشغالها الشديد مع تلاميذها بعدما انتهت أزمة شهد، إلا أن الحال في نظره كان أفضل، حيث رتبت مهرة أمورها لتعود قبل الإفطار بساعةٍ وتخرج بعده بحوالي الساعة والنصف وبهذا يتسنى لهم ثلاثتهم قضاء بعض الوقت معاً كعائلةٍ على عكس ما كان عليه الحال حين كانت ترعى شهد فتخرج منذ الصباح الباكر و لا تعود إلا مساءً، بل وفي بعض الليالي كانت تعود قرب الفجر. وما كان يتحفظ عليه أكثر، ولكن دون أن يجرؤ على البوحِ

لمهرة به، هو والد الصغيرة الأرمل، فلم يستسغ أن تقضي أخته الشابة العزباء كل هذا الوقت في بيت رجلٍ غريبٍ أعزبٍ، وبخاصةٍ حين يكون بالثراء الذي وصفته له شقيقته..

أشارت له مهرة بيدها أن يصمت حين همَّ بقول شيء ما وردت بسرعةٍ وهي تجلس على الأريكة: «**ألو، مساء الخير يا سيد فؤاد؟**»..

رد فؤاد وصوته يحمل نبرة ابتسامةٍ: «**مساء النور يا مس مهرة، كيف حالك؟ أرجو ألا أكون قد اتصلت في وقتٍ غير مناسبٍ.**».. تنفست مهرة الصعداء حين لاحظت الارتياح في صوته، فاتصاله بها في إجازتها التي بدأت منذ يومين فقط أقلقها كثيراً وخافت أن يكون شقيقه قد أصابه مكروهٌ ثانيةً، فردت بترحابٍ وهي ترجع لترتكن إلى الوراء على الأريكة القديمة: «**لا، على الاطلاق.. أهلاً بك في أي وقتٍ.. كيف هي شهد؟ أهي بخير؟**»..

رن هاتف ماجدٍ، ولكنه تجاهل اتصال صديقه الذي ينتظره في الشارع ليذهبا معاً إلى الدرس، وهو يراقب أخته بتحفزٍ والحرارة ترتفع في رأسه وتغمر أذنيه ملاحظاً ابتسامة مهرة وأصابعها التي أخذت تداعب طرف شالها وهي تقول ضاحكةً: «**أنا لا يمكن أن أنسى شهد، لقد اشتقت لها كثيراً أنا الأخرى. أرجو أن تخبرها بأني أقول لها: كل عامٍ وهي بخير. ولك بالطبع يا سيد فؤاد.**».. قال بصراحةٍ: «**و أنتِ بخيرٍ.. ولهذا طلبتُك يا مس مهرة، فشهد تفتقدك كثيراً وترفض الذهاب في رحلة العيد بدونك.. وأنتِ تعرفينها وتعرفين عنادها.. فما قولُكِ؟**».. صمت ولكنها لم تقل شيئا إذ لَم تفهم تماماً مَقصِده فتابع: «**مس مهرة، يسعدنا ويشرفنا، أن تأتي معنا في الرحلة التي سنقوم بها خلال العيد.. وأتمنى بكل صدقٍ أن توافقي.**».. صمت ثانيةً وانتظر ردها الذي تأخر ثوانٍ قبل أن تستوعب مهرة بأنها فغرت فاها دونَ تعليق، بينما زحف ماجد ليجلس على حافة الأريكة مقطباً ما جعلها تقول بسرعةٍ: «**أنا شاكرةٌ جداً هذه اللفتةَ اللطيفةَ يا سيد فؤاد، ولكن لا داعي أبداً لذلك.. وكذلك فأنا لا أستطيع، فلدي ارتباطٌ آخر.**». اعتقدت بأنها بهذا قد أنهت الموضوع بأدبٍ ولكن سؤال فؤادٍ الذي وجدت فيه الكثير

من الحشرية صدمها: «**أي ارتباطاتٍ؟ أين ستقضين العيد يا مس مهرة.**». ردت بعفويةٍ: «**مع شقيقاي يا سيد فؤاد، فلدي عائلةٌ كما أظنك تعلم.**». قال ببساطةٍ: «**شقيقاكِ ماجد ومي؟ أهلاً بهما، فالدعوة من الأساس تشملهما بالطبع.. وقبل أن تعترضي يا مس مهرة، أرجو أن تفكري بالأمر وتري ماذا يرى إخوتك أيضاً، فأنا أعدكِ برحلةٍ سيستمتعان بها كثيراً..**». قالت بأدبٍ: «**أنا واثقةٌ من هذا ولكن..**»، ولكنه قاطعها بلطفٍ شديدٍ: «**لن أقبل ردكِ إنْ كان رفضاً، على الأقل الآن.. فقط فكري وسأطلبك نحو العاشرةِ لأعرف جوابك.. صدقيني حين أخبركِ بأن شهداً تريد هذا بقوةٍ.. اتفقنا؟**».. نظرت إلى كلٍ من أخيها وأختها وهي تسأل: «**أين هي وِجهة الرحلة؟**».. تنهد فؤاد في صمتٍ مبتسماً وقال: «**البحر.**».. قالت بذهولٍ: «**في هذا البرد!!!!**».. ضحك معلقاً: «**ليس الأمر كما يبدو.. فقط وافقي وأعدك بأنها ستكون رحلةٍ لن ينساها الأولادُ أبداً.**»..

عادت لتنظر إلى أخويها وقد استرعت انتباههما حين سمعا كلمة رحلة، فقفزت مي لتجلس على مسند الأريكة المجاور لها وتقدم ماجد أكثرَ وقد انعقد حاجباه الآن بشدةٍ.. كانت مي تصفق بدون صوت وهي تتوسل إلى مهرة بحركاتٍ مسرحيةٍ صامتةٍ وتومئ لها بأن توافق، بينما ظل ماجدٌ يتفحص ملامح مهرة ليستشف شعورها نحو عرض فؤادٍ.. قالت بعد لحظةٍ: «**حسنٌ يا سيد فؤاد، سأرى إن كنت سأستطيع أم لا، مع أخي وأختي، وسأتصل أنا بك لإعلامِك.. بالمناسبة، متى ستذهبون؟.**» رد فوراً: «**حسبما يتفق، فلو كان غداً أول أيام العيد، إذا فسنذهب غداً، و إن كان بعد غد، فبعد غدٍ هي الرحلة إذاً.**». قالت بأدبٍ : «**فهمت.. أشكرك على أي حالٍ ورحلة سعيدة بإذن الله..**». أخذت مي تقفز وهي تستمع إلى كلمات أختها التي ظنت بأنها ترفض بها العرض، وقالت فور ما أن وضعت مهرة الهاتف بجوارها: «**لماذا يا مهرة؟ كنت أريد أن أذهب!! دعينا نرى الدنيا من حيث يراها الأغنياء مرةً واحدةً، لقد كانت فرصة..**».. رفعت مهرة صوتها لتجبر شقيقتها على الاستماع لها قائلةً: «**لَم أرفض، لقد قلت له بأنني سأفكر.. فاهدئي يا مي.**».

«**فِيمَ ستفكرين؟!!!**».. كان صوت ماجد غريباً على أذني مهرة وهو يسألها باقتضابٍ واعتراضٍ، فسألته بتعجبٍ: «**ماذا تقصد؟ لقد سمعتَ المكالمة.**».. هز رأسه إيجاباً وقال وهو يجمع كتبه ويقف ليغادر: «**نعم، نعم، سمعت، وكنت أتمنى لو كنتِ أكثر حزماً مع هذا الرجل وأن ترفضي عرضه تماماً..**».. لم تستوعب مهرة بعد سبب غضبه وتساءلت وهي تسمع مي تقول لماجدٍ بغضبٍ: «**ترفض؟ هل جننت؟ قد تكون هذه الرحلة الوحيدة ذات المعنى في حياتنا كلها وتريدها أن ترفضها؟ هل أدمنت الفقر وحياته لدرجةٍ أن ترفض الفكاك منه ولو ليوم واحدٍ؟.**».. كان قد تقدم نحو الباب ولكن كلام مي الأخير استفزه فعاد ليجلس بجوار مهرةٍ ونظر في عينيها راجياً إياها أن تفهمه وهو يرد على كلام مي دونما النظر إليها: «**ما الذي يجعل رجلاً أعزباً يطلب من معلمة ابنته الشابة العزباء أن تذهب معه في رحلةٍ في العيد؟! بل ما الذي يمنحه الجرأة ليطلب منكِ مثل هذا الطلب؟ ماله وسطوته؟ وماذا سيجعلانه يطلب أيضاً يا مهرة؟ أرجوكِ افهمي قصدي .. لا تسمحي له بأن يتلاعب بنا بماله..**»..

تعجبت مهرة (متى كبُرتَ إلى هذه الدرجة وصرت رجلا غيورا؟ وليس هذا فحسب، بل ولك منطقٌ ومنظورٌ).. احترمت مهرة وجهة نظرة بالرغم من عدم قدرتها على تطبيقها على فؤاد، فماجد معذورٌ تماماً في تفكيره لولا أنها اختبرت لطف فؤادٍ ودماثة خلقه في الآونة الأخيرة، وهذا ما لا يعرفه شقيقها عنه...

قالت برفقٍ: «**هذا الرجل محترم جداً يا ماجد ومن عائلةٍ محترمةٍ أيضاً، وربما كان طلبه غريباً بعض الشيء فعلاً، وإنما أنا أعلم بأنهم يريدون أن يشكرونني على مساندتي لهم حين مرض أخوه، لا أكثر.. فاهدأ ولا تقلق علي، فلو كنت قد لاحظتُ شيئاً غير مريح في أخلاقه هو أو غيره فما كنت لأتابع عملي مع ابنتهم ولو بمال الدنيا... هناك حدودٌ لكل شيء..**».

أنصت لها بكل حواسه آملا أن يريحه كلامها، ولكنه لم يستطع إسكات ذلك الصوت الصغير الذي كان يطن في مؤخرة رأسه بأن هناك خطباً ما، ولم يستطع أن يمنع نفسه من قول هذا لها معلِّلاً: «**ليس منطقياً أو صحيحاً أن نقضي معه يوماً كاملاً..**». قاطعته: «**لن يكون وحده.**».

«حقاً؟ ومن سيكون معه؟ ابنته ذات السنوات الخمس؟».. تجاهلت نبرته الساخرة وقالت وهي تعدُّ على أصابعها ومي تتابعها متمنية أن ينتهي هذا النقاش لصالح الرحلة: **«سيكون معه شقيقه وابن خالته وابنة خالته، ولست متأكدة من ذهاب آدم وكريمة كذلك.»**. سألها: **«وهل جميعهم متزوجون؟.»**.. صمتت فألحَّ عليها: **«وهل فؤادٌ هذا هو الأعزب الوحيد يا مهرة؟»**.. هزت رأسها نفياً وقالت ببساطةٍ: **«ليس منهم من هو متزوجٌ .. اسمع، لن أخوض جدالاً بلا جدوى، فأنا أنوي الرفض فق..»**.. قاطعتهما ميٍ: **«وكأنني غير موجودةٍ.. أنا أريد الذهاب يا مهرة.»**، التفتت نحو ماجدٍ متابعةً: **«ما الأمر يا ماجد؟ ستكون موجوداً! ودعني أذكرك بأنك أصغرنا سناً ولا يجوز أن تتحكم بنا بهذا الشكل لمجرد أنك الولد الوحيد هنا..»**.. قامت من على المسند لتدور حول الطاولة المستطيلة التي تتوسط الغرفة وتجلس بجوار ماجدٍ لتمسك يده بكفَّيْها في محاولةٍ لاستمالته إذ أنها تعلم بأن مهرة ستنصفه كما تفعل في كل مرة يختلفان فيها، وآخرهم بالأمسِ حين اعترض فيه على ارتدائها لبنطالها الضيق، وبعد أن ظنت أن مهرة انتصرت لها عليه وتركهما ليدخل حجرته، أخبرتها بأنها لن تنزل من البيت بهذا اللباس، وكان أمراً غير قابلٍ للنقاش، أولاً لأنه بالفعل صار ضيقاً أكثر من اللازم، وثانياً لأنهما لابد وأنْ تحترما وجهات نظر ماجدٍ فيما يختص ببعض الأمور التي قد يراها، من وجهة نظر الرجال اللذين يغارون على بيوتهم و نسائهم، غير مقبولة، فقالت بتوسلٍ: **«بالله عليكَ لا تكن سبباً في تعاستنا بالعيد .. اسمع، سأترك لك الريموت مدى الحياة لو تركت لي هذا اليوم فقط لأعيشه خارج هذه الجدران الصفراء وأرى دنيا ربما لن تتسنى لي الفرصة لأقترب منها ثانيةً... بالله عليك يا ماجد.. إنه يومٌ واحدٌ.. واحدٌ فقط.»**.. كادت مهرة أن تنفجر ضاحكةً لمقايضة أختها يوماً من حياتها بجهاز التحكم الصغير وتذللها لماجدٍ بهذا الشكل المسرحي، ولكنها كذلك أسِفت وامتعضت وهي تسمعها تعبِّر عن اختناقها من حياتهم وظروفهم.. رقَّت لها حيث شعرت بأنها ربما لو لم تكن قد اعتادت الذهاب إلى الفيلات الفخمة، لكانت تتمنى مثل أختها لمحةً من ذاك العالم الخيالي الذي تراه في مسلسلاتها..

«يا مي، يا حبيبتي، فكري معي.. كانت كريمة هي من تتصل بمهرة لتتفق معها على كل ما يخص شهد.. أما الآن، فهذا الرجل يتصل بها باستمرارٍ. والليلة يدعوها للخروج برفقته.. صدقيني هذا ليس صواباً..». كان حديث ماجد متوسلاً هو الآخر، فلم يكن يريد أن يبدو متسلطاً كئيباً أو مفسداً لبهجة العيد.. إلا أن مهرة اعترضت: **«لا يا ماجد، لم يطلبني السيد فؤاد إلا بعد ما حدث لأخيه.. من باب التقدير والاحترام لموقفي معهم..»**..

استدار يسألها بمنطقٍ عجيبٍ: **«احترام بصفتك ماذا؟ معلمة ابنته؟ أولم يكونوا يحترمونك قبلاً يا مهرة، أم أن هناك صفة أخرى لك هناك بعد مرض أخيه غير أنك معلمة شهد؟»**.. للحق، أعجبها منطقه فصمتت، ولكن مي قلبت الموازين بفرضٍ صريحٍ: **«وماذا لو كان معجباً بك يا مهرة، وربما يود الارتباط بك، وبالتالي أراد أن يراك خارج إطار رب العمل والمدرسة الخصوصية؟!!!»**..

أرجع ماجد ظهره إلى الوراء في دهشةٍ بينما تململت مهرة وشعرت بالدم يدفئ خديها وهي ترد على فرضية أختها السخيفة: **«هل جُننتِ يا مي؟!!!! كيف تفكرين بهذه الطريقة وترينها شيئاً منطقياً؟!!! بالتأكيد هو يعلم بأنني مخطوبة.. كذلك إن فرضنا صحة فرضك، لكان هذا سبب كافٍ جداً لأرفض طلبه..»**.. فتح ماجد فمه ليتحدث إلا أنها استوقفته مشيحة بيدها وهي تصيح فيهما: **«والآن أضعت أنت دروسك وأنتِ أضعتِ علينا الاستماع للرؤية.. هيا اذهبا لتدرسا أو لتفعلا أي شيء، واتركاني وشأني.. أما بخصوص الرحلة، فأنا لن أتصل به من الأساس وسأغلق هاتفي طوال فترة العيد.. هيا، قوما ولا تضيعا مزيداً من الوقت في كلامٍ فارغٍ..»** ..

غادر ماجد ودخلت مي حجرتها متأففةً، تاركَين مهرة وحيدة مع جريدتها القديمة بصور عرائسها السعيدات، والتعاسة ترسم خطوطها على ملامحها السمراء..

نسيت كل ما يتعلق برؤية الهلال والعيد والرحلة وأخويها، وبقيت صورةٌ واحدةٌ تملأ مجال الرؤية وتحتل عينيها وعقلها، صورة طارقٍ وهو

يضع في إصبعها تلك الحلقة الذهبية الرفيعة التي تقبع الآن كالثقل على قلبها مذكرة إياها بالرجل الوحيد الذي نذرت قلبها وروحها لأجله، فتخلى عنها وهجرها..

لم تتوقف عن التذكر والتفكر والتحقيق في كل لحظةٍ قضتها معه، وكل تفصيلة خاصة بشخصيته وتصرفاته. كانت تبحث عن سببٍ يجعله يتعامل مع علاقتهما بهذه القسوة!!! هل يعتمد على ثقته بها وبقوة الرباط بينهما؟ وهل هذا يبرر عدم اتصاله وإهانته لها بهذه الصورة؟!! حسمت أمرها، فهي لن تتحمل هذا الوضع والضغط النفسي والعصبي لفترة أطول.. لقد طفح الكيل ولم تعد قادرة على مواصلة التظاهر بأن كل شيءٍ على ما يرام بينهما تقفز أعصابها ويضيق صدرها كلما أتت إحدى من زميلاتها بالمدرسة على ذكر طارق أو حتى الزواج بوجهٍ عام.. كانت رومانسية وإن بدت عقلانية، وكانت المسلسلات والأفلام والروايات الرومانسية تمثل لها العالم الخيالي الخاص بها وطارق، فكانت تعيش كل رواية بمشاعر غضةٍ خصبةٍ وقلبٍ منفتحٍ على المستقبل، أما الآن فلم تعد تشاهد أو تقرأ شيئاً مما كانت تحب حتى لا تغلبها دموعها وتأثرها، وهي لا تملك رفاهية الوقت لتتفرغ لمشاعر الإحباط والشفقة على الذات.. (حسنٌ يا طارق، فلنضع حداً لهذه المهزلة الآن).. التقطت هاتفها المحمول واتصلت بالرقم المسجل لديها في قائمة الأرقام المفضلة واستمعت إلى الرنين بتوترٍ بالغٍ ازدادت وتيرته مع استمرار الرنين دون إجابة.. رفعت عينيها إلى ساعة الحائط السوداء لتجد أن الساعة قد قاربت العاشرة والنصف، ما يعني بأنها تخطت الواحدة بعد منتصف الليل بنصف الساعة تقريبا في دبي، إلا أن هذا لم يقلل من عزمها وإصرارها على التحدث مع خطيبها الذي كان ينام على صوتها ويستيقظ عليه، في ما بدا لها وكأنه ذكرى منذ زمن بعيد مضى.. رنينٌ مستمرٌ ثم انقطاع الخطِ ثم معاودةُ الاتصال، كان الروتين الذي استمر مدة النصف ساعة، ومهرة تضغط أزرار هاتفها بعنفٍ وإصرار متعاظمَيْنِ.. عليه أن يرد، على الأقل عليه أن يقلق من إصرارها!! ألا يمكن أن تكون في حاجةٍ ملحةٍ إليه لتتصل في مثل هذه الساعة وتلح عليه بهذه الطريقة؟!! أم ربما فعلا أصابه

مكروه ما؟!! فزعت للحظات وضغطت الهاتف على أذنها بحركةٍ لا إراديةٍ وكأن هذا سيقلص المسافة بينهما، ثم استدركت سخافة الفكرة، فلو كان خطباً ما قد أصابه لكانت علمت من أمه وجيرانها أو حتى من أصدقائه.. تذكرت كيف كانت والدته باردة متماسكة وهي تخبرها بشماتة بأن طارق كان يحدثها على الإنترنت.. أرادت أن تثير حفيظة مهرة، ولكنها دون أن تقصد طمأنتْها، وإن كانت أحزنتها، ولكن ارتياحها لمعرفة أن طارقاً بخيرٍ كان أكبر..

فزعت حين سمعت صوت طارقٍ الناعس يردُّ بضجرٍ: «**ألو، نعم؟**» وتسمرت كالتمثال للحظاتٍ، وُفيض من الكلمات ينهمر بداخلها دون أن تستطيع أن تنطق بكلمةٍ واحدةٍ منها.. «**ألو!!**». أغمضت عينيها مستمتعة بنبرة صوته وهي تروي ظمأ أذنيها إليها وقالت بصوت مبحوح: « **ألو..**».. (ماذا؟!!! فقط؟!!!) عنَّفت نفسها بقوةٍ، ولكن صمته أخبرها بأنه تعرف على صوتها. قالت بعد وهلةٍ: «**سينتهي الرصيد ونحن صامتَين.. كيف حالك يا طارق؟**».. (يا إلهي!!! حقا!!!!) كادت تضرب نفسها بجهاز التحكم وهي تستمع لكلماتها الجوفاء.. لاحظت أن صمتَه طال وظنت بأن رصيدها نفذ، أو الأسوأ، بأن يكون قد أغلق الخط بوجهها! فقالت بلهفةٍ: «**ألو؟ طارق؟ أنت معي؟**».. جاءها صوته متثائباً ناعساً وإنما لم تفتها لمحة المفاجأة والدهشة فيه وهو يرد: «**نعم ، أنا معكِ.. كيف حالكِ يا مهرة؟**»..

لم تعرف متى خرجت مي من غرفتها، أو في أي مرحلة من صراخها فقدت سيطرتها على أعصابها وانهارت باكيةً، فقد كانت الدموع تغرق وجهها ورقبتها وسمعت نفسها تصيح بشدةٍ حتى بُحَّ صوتها وتألمت أذناها: «**كيف أنتِ يا مهرة!!! هكذا وبكل برودٍ؟!!!! أخبرني أنت كيف أنا وكيف تظنني سأكون؟! كيف تفعل بي هذا يا طارق؟! أهذا ما وعدتني به؟ أنت حتى لم تتصل أو ترسل رسالة تهنئةٍ برمضان، ولم تحاول الاطمئنان علينا ولو لمرةٍ واحدةٍ، وتسألني كيف أنا؟ ما معنى هذا السؤال الأجوف؟ وبِمَ تظنني سأرد عليك؟ لم أكن أتصور أبداً أن تكون بهذه الصورة!!! لم لا ترد؟ قلبي كان يخبرني بأن هذا السفر لن يأتي بخيرٍ.. كنت أشعر**

بهذا ولكنك جعلتني أبدو كالبلهاء ولكن صدق حدسي... كيف أنا؟ لا، لا يفوتك الواجب ولا الذوق...» ثم صرخت حين لم تتلق رداً: «**ألو؟!! إياكَ أن تكون قد أغلقت الخط بوجهي.. ألو.. طارق!!.**».. رد بصوتٍ خافتٍ: «**ماذا تريدينني أن أقول يا مهرة؟.**». صمت ثانيةً وعلى ما بدا، بدون نيةٍ لإضافة المزيد.. قالت بصوتٍ مخنوقٍ: «**مم.. ماذا؟!! أهذا هو ما قدَّرك الله على قوله؟!! أليس لديكَ ما تقوله لي بعد ما فعلت؟! ألا تخجل من نفسك..**».

لم تره وهو يدعك عينه ويعتدل على حافة فراشه الوثير.. كان يتوقع ردة فعلها للقائه أولَ مرةٍ، ولكنه لم يظن أن هذا سيكون قريباً، أو عبر الهاتف.. إلا أنه وجد هذا الوضع أفضل.. قال بلطفٍ: «**اهدأي يا مهرة إذا سمحت.. أنا أقدر غضبك وصدقيني لم أكن أتمنى أن تنتهي الأمور بهذا الشكل.. أنا آسف..**»..

تحدث صمتها عن صدمتها لمضمون كلامه، وحين همت بالرد فاجأتها اسطوانة شركة المحمول المسجلة تفيدها بأن رصيدها قد نفذ، فجن جنونها وحاولت أن تعاود الاتصال بلا تفكيرٍ ولكنها استسلمت في النهاية وأرخت ذراعها إلى جانبها. كانت مي تحتضنها وتربت على شعرها وظهرها وتهمس في أذنها بكلماتٍ رقيقةٍ، بينما لم تشعر مهرة إلا ببرودة البلاط الذي ارتاحت عليه يدها..

رفعت الهاتف تنظر إليه لتتأكد من شحن بطاريته.... فلعلَّ طارقاً سيعيد النظر في موقفه وسيطلبها لاحقاً...



تنقلت عينا فؤاد بين شهدٍ التي ترنمت بأغنية إنجليزية عن الحيوانات وأصواتها وهي تقفز يميناً ويساراً فوق قدمه الحافية المتمددة باسترخاءٍ وبين أميرة التي تتابعها بابتسامةٍ لطيفةٍ، كان جواً عائليا محبباً لم ينقصه إلا وجود إنسانة بعينها....(شهيرة)..

لم تتوقف أميرة لحظةً واحدةً عن مصاحبته منذ اشترى الخاتم مُذ بضعة أيامٍ، كما لم تكف عن سؤاله عن متى كيف سيعلن خطبتها، ولأنه لم يكن يريد

إثارتها فقد كان يكتفي في كل مرةٍ تطرح عليه فيها هذه الأسئلة بأن يبتسم ويقبِّل يدها قائلاً برقةٍ: «**ثقي بي، ستكون مفاجأةً وأعلم بأنها ستعجبك.. فقط أمهليني بعض الوقت..**». وبالفعل كان يحتاج إلى الوقت وأن يتريث قليلاً، فبالرغم من شرائه لخاتم الخطبةِ، إلا أنه رأى، بعد أن طرأت بعض الأمور الجديدة، أن الوقت لم يعد مناسباً وربما مبكرٌ جداً على إعلان خطبتهما. حديثه المستفيض مع نادر بالأمس والذي كان من القلب للقلب لأول مرةٍ مذ فترةٍ طويلةٍ، جعل فؤاد يقرر بلا تراجع تأجيل إعلان خطبته على أميرةٍ لأجلٍ غير بعيدٍ..

تأوَّه بقوةٍ حين داست شهد على أصابع قدمه دون قصدٍ فصاحت بها أميرة: «**انتبهي لقدم بابي يا شهد.. ستسقطين وتصيبين نفسك إن بقيتِ تقفزين بهذه الطريقة...**». توقفت شهد وضحكت لوالدها الذي كان يمثل بحركاتٍ طفوليةٍ أنه يعاني ألماً شديداً، فأمسك قدمه وأخذ يئن بمسكنة جعلتها ترتمي في حضنه وتقبله على خده. اغتنم الفرصة وأخذ يقبلها قبلاتٍ سريعةٍ متتابعةٍ متجاهلاً صيحاتها الضاحكة: «**بابي، ذقنك تجرح خدي.. بابي توقف.**»

« **أين كريمة؟ لم ليست شهد في فراشها حتى الآن؟ لقد تأخر الوقت ومضى الكثير على موعد نومها.. لن تستطيع الاستيقاظ باكراً غداً يا فؤاد.**»..

قال من بين ضحكاته وهو يلف جسد شهد ويقلبها رأساً على عقبٍ ثم يعيدها إلى الأرض بتمكنٍ: «**يئِسَت كريمة منها منذ أكثرِ من ثلاث ساعاتٍ فأخبرتها بأن تذهب هي إلى الفراش وسأضع أنا بنفسي هذه الآنسة المشاغبة في فراشها..**».. دلكت أميرة رقبتها بتعبٍ وسألت بتكاسلٍ: «**متى؟ لقد قاربت الساعة الثانية عشرة.. إنه منتصف الليل ويجب أن ننام..**».. اعتدل فؤاد ونظر بدهشةٍ إلى ساعةِ يده ليجد أن الوقت قد مضى سريعاً فقال بجديةٍ: «**لابد أن أجريَ اتصالاً هاماً..**»، حاولت شهد الركض بعيداً عن والدها ولكنه أمسكها بسرعةٍ ورفعها برفقٍ قائلاً بحنوٍ وإقناع: «**لابد أن تنامي جيداً يا حبيبتي حتى تستمتعي بالرحلة كلها منذ بدايتها غداً وإلا نمتِ في الطريق.. هيا وستكونين أول واحدةٍ أوقظها في البيت...**».. لم تذعن الصغيرة تماماً وبقيت تموء كالقطةِ رافضةً الانصياع، ولكنه كان قد

وصل بها حتى باب حجرته فقال قبل أن يفتحه: «**هيا قولي لأميرة: تصبحين على خير.**» امتثلت ابنته وردت أميرةٌ بلطفٍ، ثم اعتدلت حينما أغلق الباب وراءه وقفزت أمام المرآة الطويلةِ ذات الإطارِ الخشبيِّ المزخرفِ عاجيِّ اللون، والتي وقفت باعتدادٍ بجوار الستائر العاجية التي انسدلت بانسيابيةٍ وأناقةٍ لتغطي الباب الزجاجي للشرفةِ الواسعةِ المطلةِ على الحديقةِ الخلفيةِ للفيلا والذي شغل الحائط بأكمله .. عدَّلت من حالة شعرها الكستنائي الذي تركته مُنسدلاً بنعومةٍ على كتفيها وتحققت من وضع حليتها بدقة لتتوسط المساحة المكشوفة من شق قميصها لافتة النظر إلى صفاء ونعومة بشرتها الشمعية البيضاء التي تفتخر بها بشدة.. نظرت إلى نفسها برضاً وهي تستدير نصفَ استدارةٍ لتتأمل قوامها الممشوق والذي لم يُخف الجينز الممزق في بعض مواضع فوق وتحت الركبة روعته ورشاقته.. (لم يكن لدى المسكين فرصة للمقاومة) ضحكت مع نفسها، ثم استدارت تواجه الغرفة التي يفترض أن تسكنها قريباً.. لم يكن لها تحفُّظٌ على أثاث الحجرة ولا ديكوراتها، فقد أجادت شهيرة اختيار كل القطع والمرايا، وأحسنت توزيعها بذوقٍ عالٍ، كما أنها لم تترك تفاصيل صغيرةٍ كمقابض الأبواب والأنتيكات متناهية الصغرِ دون اختيارٍ دقيقٍ.. أعجبها أن جعلت الحائطين المجاورين للباب بلون الرمل الناعم القاتم يحفهما من الأعلى والأسفل إطاران من الجبس العاجي البسيط جدا، وزينت السقف الذي بدا امتدادا لأُطُرِ الحائطين بأنوارٍ دقيقة مخفية باحترافٍ ورقة لتضفي إضاءةً ناعمةً إذا ما أنير جزء منها ولتسطع الغرفة كالنهار إن أضيئت كلها.. ولكن أكثر ما كان يعجبها في الغرفة هو الفراش الذي احتل الحائط المقابل للشرفة والديكور الرائع الذي أبدعته شهيرة بأسلوبِ السهلِ الممتنع، فرغم بساطته إلا أنه كان خلاباً ويدل على الترف والثراء.. كان الحائط بالكامل خلف الفراش عبارة عن مرآةٍ من قطعةٍ واحدةٍ باللون البيج الرمادي، ترتسم في وسطها فوق الفراش مباشرة نقوشٌ انسيابية شرقية بخطوطٍ متعرجةٍ رفيعةٍ متقاطعةٍ بجمالٍ لتشكل تاجاً يكلل رأس الفراش العريض الذي استند على الجزء السفلي من الحائط وامتد بمحاذاته وبعرض الحائط تنجيدٌ بالجلد العاجي المقسم بالطول، وبنفس

الجلد المنجد زُيِّن الطرف الآخر من الفراش.. ارتكن على جانبي الفراش طاولاتٍ عاجيةٍ نصف مكتملة في حركة فنية حديثةٍ وأنيقةٍ، تعلوهما أضواءٌ بسيطةٌ ذات معدن مطليٍّ باللون العاجي الفاتح، بينما قبع عند قدم الفراشِ مقعدٌ جلديٌّ يشبه الصندوق الضخم الذي ارتفع ليكون بمستوى الفراش وقد غُلِّف بالجلد العاجي المقسم هو الآخر.. أما وسَط السقف فقد تزين بثريا لامعةٍ رقيقةٍ تدلت لتتوسط الحجرة وبُسِطَت تحتها مباشرة سجادةٌ حديثةٌ مفرغةٌ تحمل نفس النقوش التي على المرآة خلف الفراش وقد اختلطت بها كل ألوان الحجرة ما بين العاجي والبيج والرمادي الفاتح، لتبرز جمال الأرض الخشبية الرائعة اللامعة... وهناك في الركن البعيد حيث تقف، تجاورت أريكتان جميلتان تناقضتا بلونهما الفاتح مع الحائط خلفهما... كانت غرفة بسيطة جميلة رائعة ومريحة، إلا أن هذا لم يغير من واقع أنها ستبدل كل هذا إلى شيءٍ مختلفٍ تماماً ، فلن تأخذ بقايا الرجل الذي خلفته شهيرة وراءها وتنام على أثاثها المستعمل أيضاً!..

طرق فؤاد الباب برفقٍ متمنياً لو كانت أميرة تهمّ بالمغادرة. فتح الباب حين سمعها تأذن له بذلك، ولخيبته وجدها متمددة على إحدى الأرائك فبادرها قائلاً: «**آسف إن تأخرتُ عليك، ولكن شهداً أتعبتني حتى استسلمت للنوم..**»..

ردت بلطفٍ وهو تشير إليه ليجلس بجوارها: «**ليس عليكَ أن تبقى إلى جوارها حتى تنام، لا تدللها كثيراً يا فؤاد، هذا ليس لمصلحتها..**».. تجاهل إشارة يدها وجلس على الأريكة الأخرى وهو يرد بهدوءٍ: «**أحاول أن أعوضها عما حرمتها منه العام الماضي يا أميرة.. لقد ظلمت هذه الفتاة كثيراً دون أن أنتبه إلى أنها خَسِرَت أكثرَ مما خَسِرْت..**».. توقف حين لاحظ تململ أميرة فقال فوراً: «**ربما هناك شيءٌ أو شيئان لابد من إيضاحهما حتى لا يكون هناك لبسٌ أو سوء تفاهم فيما بعد إذا ما تزوجنا يا أميرة..**». اعتدلت ببطءٍ و استمعت له وهو يكمل، بينما كلمة (إذا ما تزوجنا) قد انزلقت عبر أذنيها بنغمة لم ترقها إلا أنها آثرت عدم التعليق عليها حالياً: «**أولاً، شهيرة جزء من حياتي ومن حياة ابنتي، وسواءٌ كان هذا مريحاً**

أو غير مريح، فسنأتي على ذكرها في مناسبات عدة، وسيكون هذا بكل خير وأسف واشتياق.. شهيرة حبي الأول أم شهد ولي معها ذكرياتٌ وماضٍ، وما رأيتُ منها إلا كل حبٍ وتحملٍ.. فلا تتوقعي أبداً أن ننساها مهما كانت المرأة التي ستحتل مكانها رائعةً أو محُبةً.. أرجو أن تُقدِّري هذا وتحترميه يا عزيزي..» صمت ليسمح لها بالحديث، فقالت بابتسامةٍ لطيفةٍ: «إذا كنت لم تنسَها فلِمَ تريد الزواج يا فؤاد؟ لِمَ لا تُعطِ نفسك فرصةً كافيةً حتى تصبح مستعداً للمضي قدماً في حياتك دون أن تُدخل نفسك في علاقةٍ جديدةٍ قد تندم عليها فيما بعد؟».. رد بصراحةٍ وهو يمرر يده في شعره: «هذا هو ثانياً يا أميرة، ففكرة الزواج لم تكن لتخطر أبداً ببالي، ولو بعد عشر سنوات، ولكن ما حدث لنادر كشف لي أشياءَ كثيرةً وجعلني أفكر بوضوحٍ أكثر..»، انتقلت لتستقر بجواره، وصدمت حين رأت عيناه دامعتان، إلا أن صدمتها لم تكن لأجله، وإنما كانت من نفسها، فقد شعرت بالشفقة عليه إذ اكتشفت بأنهما يتشاركان نفس الألم، فكلاهما يحبُّ من لم يعد في متناوله، وبينما هو قد دفن حب حياته تحت الثرى، فقد دفنت هي حب حياتها في قلبها وأخرسته الآلام إلى الأبد.. لذا قالت برقةٍ وصدقٍ، في بادرةٍ نادرةٍ من نوعها حتى عليها، وهي تربت على كتفه: «لا يمكن أن ننسى من أحببنا يا فؤاد، أنا أعذرك وأتفهم جيداً ما تقول، ولكن علينا ألا ندع حزننا يسحبنا إلى الأسفل، فلا أحد يُدفن مع مَن فَقد.. وأنت أضعت من عمرك وشبابك ما يكفي، ورغبت أم لم ترغب، فستستمر الحياة، وعليك أن تعيشها.. ولهذا لابد أن تختار جيداً كيف ستكمل حياتك ومع مَن.. على الأقل حتى لا تخذل من يعتمد عليك، فلا تُعرِّضه هو الآخر لخسارةٍ كبيرةٍ كخسارتك. أتفهمني يا فؤاد..».. كانت تحدثه وهي تستوعب كلماتها، وشعرت بأنها تقولها لنفسها وليس له.. تماسك فؤاد وقال وهو يمسك يدها: «ولهذا قررت الزواج، لأستمر قُدُماً ولكي أجد لابنتي أمّاً تحبها وترعاها دون أحقاد.. ومن أجل هذا بالذات اخترت من أعلم يقيناً بأنها تحب ابنتي وتعرفها وتعرف ظروفنا حق المعرفة يا أميرة...».. كانا ينظران في عيني أحدهما الآخر دون كلام. (لست سيئاً تماماً يا فؤاد، لا بأس، ربما سينجح زواجنا رغم كل شيء) فكرت أميرة برضاً وغلبتها مشاعرها فاقتربت لتطبع قبلة على خدِّه، ولكنه وقف بسرعةٍ متظاهراً بالتمطي،

حتى لا يسمح للحظة ضعفٍ أن تجرفهما لأمر سيعكر علاقتهما حتماً، ثم نظر في ساعته فوقفت بدورها قائلةً: «**تأخر الوقت، سأذهب لأنام وأراك في الصباح.**». لوَّحت بيدها قائلةً: «**تصبح على خير يا حبيبي.**».. قال بلطفٍ: «**وأنتِ بخير..**»..

تابعها حتى أغلقت الباب وراءها. لم يكن متعباً فعلاً، فهو معتادٌ على السهر، أو كائنٌ ليليٌّ كما تحب كريمة أن تُلَقِّبه، ولكنه رغم ذلك مشى إلى فراشه ليلقيَ بجسده عليه، والتقط هاتفه المحمول من جيبه ممتعضاً وهو يجري الاتصال الذي كان من المفترض أن يجريه قبل ساعات.. استمع إلى الرنين المتصل ثم اعتدل حين فُتِح الخط وجاءه صوت محدثته ناعساً ملهوفاً: «**طارق؟!**».

قطب حاجبيه بشدةٍ وهو يجيب: «**فؤاد..**» وصمت لحظةً قبل أن يتابعَ بحاجبٍ مرفوعٍ: «**آسف إن كنت أتصل في وقتٍ غيرِ مناسبٍ، فيبدو أنكِ بانتظارِ اتصالٍ هامٍ..**».

رفعت الهاتف عن أذنها لتعرف الوقت ثم ردت وقد تيقظت تماماً فجلست بتحفزٍ سائلةٍ بدهشةٍ: «**سيد فؤاد؟!!! خيراً إن شاء الله؟ هل الجميعُ بخيرٍ؟!!**».. كان فمُ فؤادٍ لا يزال مزموماً بقوةٍ وحاجبه مرتفعٌ باستهجانٍ فلم يرد فوراً محاولاً انتقاء كلماته، ويبدو أنه تأخر قليلاً لأنها قالت بتساؤلٍ: «**ألو؟!..**»، رد حينها بهدوءٍ مهذَّبٍ: «**جميعنا بخير، ولكن يبدو بأن لديكِ أنتِ ما يقلقكِ، خيراً إن شاء الله..**» ولم يستطع أن يمنع نفسه فسألها بصراحةٍ: «**مَن طارق؟!**».. كانت قد نسيت أمر الرحلة فتعجبت كثيراً مما بدا لها اتصالاً أجوَفاً منه في قلب الليل، وليس هذا فحسب، بل بلغت به الجرأة حد التدخل والسؤال عن طارقٍ ما جعلها ترد باقتضابٍ: «**لا أحد..**». ولدهشتها أصر قائلاً: «**لا يتوقع المرء اتصالاً من (لا أحد) بعد منتصف الليل، وينتظره بهذه اللهفة.**». اعتدلت لترد بحزم: «**أوافقُكَ الرأي، هذا وقتٌ متأخرٌ لتلقي الاتصالات، فهل هناك سبب معين لاتصالكَ يا سيد فؤاد.**». ردَّ فوراً: «**العيد!! الرحلة!! لقد انتظرت اتصالكِ كما قلت.**».. انتبهت للسهو الذي سقطت فيه، وأنها نسيت كذلك أن تعرف إن كان غداً،

أو اليوم حسبما تخبرها الساعة التي أشارت إلى الواحدة والنصفصباحاً، متمّماً للشهر الكريم أم سيكون أول أيام العيد!!! ضربت جبهتها برفق وهي تطوي ساقيها تحتها و تذكرت كيف أدخلَتها مي إلى الفراش لترتاح وتهدأ، كما تذكرت سماعها للهمهمة التي لم تفهم فحواها بين مي وماجدٍ حين عاد متأخراً، ولكنها لا تتذكر متى أُطْفِئَتْ أنوار الصالة الصغيرة والممر، ولا متى أو كيف غَفَت.. قالت بصدقٍ: «**آسفة، لقد نسيتُ تماماً، ولكنِّي كنت سأتذكر غداً بالتأكيد وكنت سأتصل بك يا سيد فؤاد..**». قال مُستنتجاً: «**معنى هذا أنك سترفضين!.**». قالت بسرعةٍ: «**ماذا؟ آآآ، نعم، بالفعل سأعتذر منك، أشكرك كثيراً على أي حالٍ لعرضك الكريم.. تصبح على خير..**».. انتظرت لتسمعه يبادلها التحية وتعود للنوم، ولكنه تجاهل ردها سائلاً وكأنه صديقٌ قديمٌ، ولديهما كل الوقت ليتحدثا حتى الصباح: «**أخبريني يا مس مهرة، أين ستقضون العيد هذه السنة؟**».

الآن بدا كلام مي منطقياً، فما الذي يدعو رجلاً مثله ليحدث معلمة ابنته بشكل شخصي هكذا إن لم يكن لأجل الارتباط بها أو التقرب منها؟ أو ربما بالرجوع إلى خلفيته وثرائه، قد يجد أن من حقه مصاحبة مدرسة ابنته أو ربما أكثر - على عكس ما تحب أن تعتقد- !!!! كبحت رغبتها في الرد بحدةٍ تتناسب وطبيعتها في مثل هذه المواقف، وردت باقتضابٍ وفكرة أختها تُلِحُّ عليها وتعرض نفسها بقوةٍ أكثرَ فأكثر: «**كَكُلِّ عام، نقضي النهار في حديقةٍ عامةٍ وفي المساء ربما نذهب في نزهةٍ نيليةٍ أو نشاهد فيلماً في السينما.. لم نقرر بعد بالتحديد.**» ثم انتبهت لأمرٍ ما فسألته بسرعةٍ: « **أغداً رمضان أم العيد..**»...

ابتسم فؤاد وهو يرد عليها: «**كل عام وأنتِ بخير.**».. أغمضت عينيها وأرجعت رأسها إلى الوراء وهي تؤنب نفسها على جوِّ التعاسة الذي أشاعته بين أخويها الصغيرين ليلة العيد، فقد كان بإمكانها أن تؤجل اتصالها الفَذ بطارقٍ إلى يومٍ آخر تحسباً لكل الاحتمالات. أرادت أن تُحَمِّلَ فؤاداً وعَرضَهُ مسئوليةَ النتيجةً التي وصلت إليها والحالة المزرية التي صارت بها، ولكن المنطق خالفها الرأي فوجدت نفسها ممتنةً لفؤاد الذي لولا مكالمته المبكرة ودعوته لها، ربما

ما كانت اتخذت تلك الخطوة ولَظَلَّت مخطوبةً إلى السراب، إلى الأبد.. أم أن فرضية ميٍّ هي التي شجعتها لا شعورياً، إذ شعرت بأن حياتها لن تنتهي بخروج طارقٍ وإنما ستبدأ بدخول رجلٍ كفؤاد إليها.. مطت شفتها رافضة فكرة أن طارقاً لم يكن سوى طوقُ نجاةٍ لها وأنها بمجرد أن لمحت اقتراب قاربٍ كبيرٍ، حتى ألقت بالطوق بعيداً دون تردُّدٍ، فلم تكن تلك أخلاقها ولا مُثُلِها. لهذا، ولتؤكد لنفسها خطأ هذا التفكير قررت بأن تنهي هذا الاتصال العجيب وتترك العمل مع ابنته أيضاً .. قالت بعد لحظاتِ الصمت التي منحها إياها فؤاد لتستوعب الخبر: «**كل عامٍ وأنت بخيرٍ يا سيد فؤاد.. شكراً على ذوقك، واسمح لي أن أستأذن لأني لابد وأن أستيقظ باكراً.. وبالطبع بما أننا لم نُعِدَّ أنفسنا، فلن نستطيع أن نصحَبَكم في هذه الرحلة.. شكراً مرةً أخرى وتصبح على خير.**».. وقف فؤادٌ وتمشى حتى فتح الباب الزجاجي للشرفة وتقدم إليها وهو يضع يده في جيبه، فلم يكن معتاداً على مثل هذا الصَّدِّ، لهذا أصرَّ قائلاً والهواء البارد يحرك خصلات شعره برفقٍ: «**لستِ بحاجةٍ إلى أيِّ استعدادٍ، فقط احضري في الموعد وأكرر وعدي لك، بأنك والصغيرين لن تندموا.. ولكني أتساءل، كيف لم تعلمي بأن غداً العيد؟ ألم تتلقي تهنئة من أي أحدٍ على الأقل، هذا على افتراض أنه من الطبيعي ألا تتابعي الأخبار أو تسألي أياً كان، قريباً أو صديقاً، إن فاتتك مشاهدة الرؤية وشريط التهنئة بالعيد على كل قنوات التلفاز؟!!!!!**». (آه! السيد في مزاج للدردشة، بل ويحاسبني أيضاً لأني لم أشاهد الرؤية!!!!). ردت ببرودٍ: «**انشغلت قليلاً ثم نمتُ باكراً جداً..**»..

لم يقنعه ردها، كما أن لهجتها جعلت ابتسامته تتسع وهو يسأل ببساطةٍ، وكأنه لا يلاحظ أنه يتدخل ربما في أدق شئونها الخاصةِ: «**طارق؟**».. انتفضت واعتدلت في جلستها بحدةٍ وهي ترد بعنفٍ: «**من؟ أرى أنك بدأت تتجاوز حدودك قليلاً يا سيد فؤاد.. اسمح لي سأنهي هذه المكالمة حالاً وم..**».. قاطعها بهدوءٍ وقد تأكد من أنه قد لمس وتراً حساساً: « **بالطبع لم أقصد التطفل أو أي إساءةٍ، ولكننا صرنا نعتبرك أحد أفراد العائلةِ، هذه حقيقةٌ وليست مجاملةً، واستشعاري بأنكِ واقعةٌ في مشكلةٍ ما أو تشعرين بالضيقِ بسبب شخصٍ بعينِه يدفعانني لمحاولةِ مساعدتكِ**

قدر ما أستطيع، و لو كان هذا عن طريق تحسين مزاجكِ فقط.. وصدقيني، أستطيع أن أفعل كثر من هذا.. فقط إن سمحت لي.. صدقيني يا مس مهرة، فأنا أُكِنُّ لكِ كل الاحترامِ والتقدير و.. والكثير من المشاعر الإيجابية .. أرجو أن تعتبرينني صديقاً وألْقِي علي باَلحمل الذي يُثقِلك..» ..... أثرت بها كلماته كثيراً ودمعت عيناها وقد تحركت بداخلها مشاعر الشفقة على الذات وافتقار الحنان والصديق والحبيب والإنسان القوي الذي قد يهتم لأمرها ويشعر بألمها دون أن تشعر بالذنب لتحميله همومها، كما يحدث حين تفضفض مع شقيقيها الصغيرين. لكم تفتقد لعلاقةٍ ناضجةٍ، تكون هي فيها الطرفَ الأضعفَ!! جعلها صدق كلماته ونبرته الثابتة تهدأ وتتراجع لتستند ثانيةً على ظهر الفراش وهي تحدق في الظلام بصمتٍ تام، واستمع فؤادُ لصمتها باحترامِ و إجلالٍ، فهو يعلم جيداً معنى الصمت حيِن يسمعُه .. الصمت الذي تحدَّث إليه لساعاتٍ وساعاتٍ حتى باتا يفهمان بعضهما كالقصيدة الشجيَّة وكاتبها.. الصمت، جليسه في وَحدةِ كل يومٍ، إذ يتذكران زوجته الحبيبة الشابة التي انتقلت من بين ذراعيه عُنوة، إلى عالم الصمت القاتم دون كلمة وداعٍ واحدةٍ.. نعم، يتقن لغة الصمتِ، بحروفها وكلماتها وعباراتها الصاخبةِ حيناً والهامسةِ أحياناً.. أدرك بأن الصمتَ ما هو إلا صوتُ القلوبِ الموجوعةِ فصار يعشقه ويأنس به... ولأن كريمة قد ألمحت له من قريب حيناً ومن بعيدٍ أحياناً عن أحوال مهرة الماديةِ و العائليةِ، وتذكر دهشته حين علم بأنها تتقاضى مقابل عملها مع شهد أربعمائة جنيهاً فقط، ولم يقتنع بالمبلغ على الرغم من أن كريمة أكدت له بأنه راتب متعارف عليه وأن مهرة هي من حددته لا هُم، وبالتأكيد مع مسئولياتها، يُعد احتياجها لهذا المبلغ الزهيد دليلاً دامغاً ومؤشراً قوياً لوجود ما يكفي من مشاكل الحياة، التي لن ترحم فتاة هشةً مثلها، وتثقل كاهل هذه المسكينة وتفطر قلبها إن لم يكن لديها من تهرع إليه ليعينها، والذي يبدو بأنه غير موجود فعلا فيمن تعرف، وإلا كان على الأقل قد هنأها بالعيد!...... تعاطف معها كثيراً واحترمها أكثر، وأصرَّ أكثر فأكثر على ألا يقبل رفضها للذهابِ معهم...

(و لم لا؟! ربما هذه هي فرصتي لأبوح بمكنون قلبي ...لأرتاح..... لأتحدث وأتحدث وأتحدث حتى أموت من التعب، أو تموت الكلمات) .. وما الذي يمكن أن يحدث وقد قَرَّرَت مسبقاً أنها ستترك العمل مع شهد و لن ترى فؤاداً ثانيةً. ربما التحدث مع شخصٍ في مثل سلطته وقوته، وكذلك لطفه واهتمامه، قد يرفع من معنوياتها ويبعث فيها روح الصمود من جديدٍ، بعد أن استسلمت وتركت الحياة تمر أمامها سريعةً صاخبةً وباردةً كالنهر الهادر، يجرف أحلامها ويحطمها تحت أقدام شلالات الواقع بينما تقف هي على ضفته تراقبه في عجزٍ وسكونٍ ...

حين فتحت فاها، لم تجد تعبيراً يصف بدقةٍ تعبها وإرهاقها الجسدي والنفسي فأغمضت عينيها وأخذت نفساً عميقاً مسموعاً لتعود وتلوذ بالصمت مجدداً... و بالرغم من أن أحدهما لم ينبس ببنت شفةٍ للحظاتٍ أو ربما لدقائق، إلا أنهما تواصلا بعمق..

قال فؤادٌ أخيراً: «**دعيني أقترح عليك أمراً.. أحضِري أخويك اليوم قبل التاسعة وحاولي أن تستمتعي بوقتك، فلربما تجلب الحياة لك شيئاً جميلاً إذا منحتها الفرصة.. فقط تعالَي وانسَي كل شيءٍ آخر لهذه الفترة الوجيزة، وصدقيني ستُبهرين حين ترَيْن كيف يمكن أن تُفاجئك الأيام بحلولٍ لم تكن على بالك.. ما رأيك؟ أننتظرك.**».. كان يدرك بأنه يبدو ملحاً ولكنه كان يريدها أن تأتيَ بأي شكلٍ، وسيفعل ويقول كل ما يلزم لتوافق، ولو أبقاها مستيقظة حتى موعد الرحلةً..

قالت أخيراً: «**حسنٌ، ربما أنت على حق.. ربما بعض التغيير قد يفيد.. ماذا على أن أحضر معي، أعني أين سنذهب..**»..

رد مبتسماً: «**دعيها مفاجأة ولكن أحضري معطفاً للمساء وشيئاً خفيفا للنهار.. تمام؟.. أراك غداً إذاً، تصبحين على خيرٍ يا مس مهرة..**».. أنهى الاتصال وابتسامة ظافرةٌ عريضةٌ تعلو وجهه... الآن سيخلد للنوم سعيداً بسير الأمور، حتى هذه اللحظة، كما يشاء.. ارتمى على الفراش ثم انتفض متألما من شيء وَخَزَهُ في جنبه، فمد يده في جيبه ليُخرِج العلبة الجلدية الصغيرة الأنيقة التي يقبع بها

خاتم خطبة أميرة بقلبه الماسي الأسود.. ألقاه في الهواء والتقفه بكفه مبتسماً قبل أن يضعه على الطاولة الصغيرة المجاورة لفراشه وهو يحدثه بسرورٍ: «**يبدو أنك ستنتظر قليلاً يا صاحبي..**».. استلقى وأغمض عينيه ليغرق فوراً في نومٍ عميقٍ و ابتسامةٌ مرتاحةٌ ترتسم برفق على محياه...

أما مهرة التي ردت تحيته بهدوءٍ وتعجبٍ من نفسها: «**وأنت بخيرٍ.**» فقد أغلقت الهاتف تماماً بعدها وبقيت تحدق في الظلامِ الدامسِ الذي لف عقلها وهي تتساءل عمَّ تفعل وإلى أين ستقودها خطوتها غَير المتوقعة هذه.. تساءلت كيف ستكون ردة فعل أخويها وبخاصةٍ ماجد، فميّ لن تكون مشكلة على الإطلاق.. فزعت حين شعرت بأنها ليست وحدها في الغرفة فجلست على حافة الفراش وأمعنت النظر جهة الحائط محاولة رؤية من تسلل إلى حجرتها مِن أخويها دون إذنها.. لم تكن غاضبة جداً، فربما أراد ماجدٌ أن يطمئن عليها بعد ما اخبرته مي بالتأكيد بما حدث بينها وبين طارقٍ بالأمسِ، ولكن وَجَبَ عليه أن يخرج حين استيقظت لترد على اتصال فؤاد.. والآن وقد تمادى، يصعب عليه أن يخرج من الظلام ويعتذر عن التلصص عليها.. تسلل مبتعداً في صمتٍ فقالت بهدوءٍ: «**انتهى يا ماجد، كُشف أمرك فهيا اخرج من هنا ودعني أنام..**».. عادت واستلقت على جنبها متوقعة أن تسمع صوت الباب يفتح ويغلق، ولكنها لم تسمع سوى صوت تحركه في الغرفة.. اغتاظت وقلقت معاً، فقامت تدفع اللحاف بعيداً وقفزت نحو مفتاح النور لتسبح الغرفة في الإضاءة الصفراء للمبة المتدلية من وسط السقف، وعلى ضوئها رأت لذهولها ما لم تتوقعه أبداً.. فهناك بجوار الحائط المجاور لفراشها يقبع أكبر وأبشع أفعى رأتها في حياتها! كانت متمددة بطول الحائط تتحرك ببطء إلا أنها التفتت إليها بحدة حين سمعت صرختها.. أغمضت مهرة عينيها بقوة وتجمدت وهي تشعر بالجسم العضلي الضخم يلتف حول قدميها ويثبتها في مكانها..

فُتح باب غرفتها فجأة فاعتدلت في الفراش والعرق يغرق جبهتها ورقبتها وأعلى ثوبها.. «**مهرة!! ما بكِ؟!!**»، دخل ماجدٌ بسرعةٍ ليجلس بجوارها على

الفراش ويمسح جبينها بيده فيما تنفست هي بعمق وقوة... أمسك بيدها المرتعشة وأخذ يقرأ بضع آياتٍ من القرآن حتى هدأت قليلاً.. نظرت إليه ممتنةً وربتت على كتفه قائلةً: «**إنه مجرد كابوسٍ سخيفٍ صِرْتُ أراه كثيرا مؤخراً.**».

انتبهت حينها إلى أن ماجداً يرتدي جلبابه الأبيض فتذكرت أنه نهار العيد واستنتجت بأن شقيقها العزيز لابد وأنه قد رجع توا بعد تأدية صلاة العيد مع أصدقائه، فاحتضنته بحبٍ وهي تقول بنبرةٍ نادمةٍ: «**كل عامٍ وأنت بخيرٍ يا حبيبي.. آسفة لأنني أفسدت عليكما ليلةَ العيد.**».. احتضنها بقوةٍ وهو يقبل كتفها قائلاً بصدقٍ: «**لم تفسدي شيئاً.. كل ما حدث أننا قلقنا عليك ولم نعرف ماذا علينا أن نفعل.**».. أبعدها لينظر في عينيها ويقول بجديةٍ: «**أعلم أن الأمرَ مؤلمٌ يا مهرة إلى درجةٍ ربما لا أستطيع تصورها، ولكن ، وبناء على ما بدر من طارقٍ، فأنا أرى أن الخير كل الخيرِ في ما حدث، وفي تخلُّصِنا من شخصٍ مثله قبل أن تتورطي معه أكثر في زواجٍ وأطفالٍ.. فليس كل من لبس بنطالًا يُعَدُّ رجلاً، على أي حال.**».. ضحكت للتشبيه وقالت: «**أنا أرتدي بنطالاً.**»، فرد فوراً وهو يشير إليها بكفه المبسوطة رافعاً حاجبيه: «**أرأيتِ، أنا على حق..**». ضحك وقبَّل يدها قائلاً بصدقٍ: «**لقد عانيتِ الكثير يا مهرة، ولا زلتِ تعانين بسببنا.. وكل ما أريد أن أقوله هو أنك تستحقين رجلاً حقيقياً تستطيعين أن تطمئني له وترتاحين لوجوده إلى جوارك مهما كانت الظروف.**».. نبهها كلامه فانتفضت لتشغل هاتفها المحمول وتنظر إلى ساعته. صُعقت حين وجدتها قد قاربت الثامنة والنصف فصرخت بحدةٍ وهي تنفض عنها اللحاف الثقيل وتقف بسرعةٍ ما جعلها تتعثر بطرف غطائها الذي التف حول قدمها فكادت تسقط لولا أن توازنت بسرعة وقالت وهي تركض خارج الغرفة تاركةً خلفها ماجداً مذهولاً لا يدري ماذا أصاب مهرة أو معنى ما تقول (أيُمكن أن تكون الصدمة قد أثرت على عقلها!!). هز رأسه و هو يسمعها تصيح وهي تغلق باب الحمام خلفها: «**أسرع وارتدي ثيابك حالاً، وأيقظ مي وأخبرها بأن أمامها عشرَ دقائقَ... عشرُ دقائقَ على الأكثر، لتستعد، هيا فقد تأخرنّا كثيراً.**»...

أغلقت الباب وبقي ماجدٌ مكانه يحدق في الباب من حيث غادرت مهرة تواً، إلا أن صوت مهرة الذي جاءه من خلف باب الحمام: «**تحرك يا ماجد، تحرك.**» جعله يقفز من على الفراش ويتجه لحجرة مي وهو يتساءل بتحفزٍّ عما تعني أخته الكبرى بكلامها..



لم يختلف الوضع في البيتين كثيراً.. فقد قضت كل من أميرة ومي الوقت بأكمله تستعدان أمام المرآة وتهتمان بأدق تفاصيل مظهرهما البسيط، حتى أن تعديل موضع خصلة شعرٍ قد يستغرق منهما دهراً، بينما أخويهما جالسَين خلفهما على الفراش يتذمران من تضييع الوقت وإطالة الوقوف أمام المرآة دون داع وهما يراقبان أختيهما تلقيان كل ما طالته أيديهما فوق التسريحة في الحقيبة الصغيرة التي ستحملها كل منهما على كتفها.. لم ولن يفهما أبداً كل تلك التعقيدات والإجراءات التي يتابعاها بضجرٍ، فالرحلةُ تستدعي بساطةً وتحرُّرَاً، ولهذا اكتفى كلاهما بارتداء سروالٍ من الجينز البسيط مع تي شيرت قطنيٍّ قصير الأكمام فوقه بلوفر صوفي بسيط، وانتعلا حذاءين رياضيين مريحين، فلم يختلفا إلا في قيمة الثياب وماركتها..... كانت مهرة تضرب قدمها بإيقاع عصبيٍّ جداً مثلما كان يفعل فؤاد وهو يجلس في غرفته ينظر إلى ساعته تارةً وإلى الهاتف المحمول تارةً أخرى.. بينما قضى نادر وشهد ساعات الصباح الباكرة يلعبان في الحديقة ويركضان بخفةٍ هنا وهناك.. الوحيد الذي لم يتوتر ولم يستعد بأكثر من الجلوس بهدوءٍ على الأريكة الواسعة في الردهة المفضية إلى باب الفيلا يراقب مجموعة المجانين الذين يجيئون ويذهبون بتعجلٍ هو نابليون..

كانت الحقائب قد رصت بعناية في حقائب السيارات الثلاث المستعدة أمام السلم خارج الفيلا بانتظار الجميع ليبدأوا رحلتهم...

أشارت عقارب الساعة إلى التاسعة إلا خمس دقائق فزفر فؤادٌ بحدةٍ والتقط هاتفه. كاد حاجباه أن يتلاقيا حين لم يتلقَّ رداً على اتصاله، ولكنه لن يدع

الأمر عند هذا الحد، فإن قَبِل أن يُرفض طلبه بمثل هذه البساطة، فلن يقبل أن تستخف به مهرة بهذه الطريقة، وإن كانت تنوي أن ترفض عرضه، فالأولى لو اعتذرت عن الذهاب بدلاً من أن تُعطي وعداً يخرجها من الحرج وهي لا تنوي الالتزام به... ولكنه، ولرغبته الشديدة في حضورها، ابتلع إحساسه بالمهانة من تصرفها وأعاد الاتصال. انتظر ردها وهو يجوب غرفته جيئةً وذهاباً.. توقف ليتابع كيف يلاعب شقيقُه شهداً وكيف أنه لم يعبأ بأن تعبث بتأنقه وهندامه وهي تلقيه أرضاً وتجلس فوقه وكأنه أريكةً وثيرةً وضحكاتها تملأ الأرجاء....

أخذ نفسا عميقا حين انقطع الاتصال دون ردٍّ للمرةِ الثانيةِ، وبدأ الدمُّ الحار ينبض بعنفٍ في وجنتيه وهو يطلب الرقم للمرة الثالثة وقد زم شفتيه بغيظٍ منتظراً بنفاذ صبرٍ ردَّ مهرة، والذي جاءه لاهثاً معتذراً في سيلٍ من الكلمات التي نَسِيَت أن تبدأها بالتحيةِ لشدةِ ارتباكها وأسفها: «**متأسفةٌ جداً يا سيد فؤاد، والله لقد تعطلنا لظرفٍ ما ونحن الآن في الطريق، ولكنني أدرك بأننا تأخرنا كثيراً، ولهذا أرجو أن تنطلقوا أنتم إن كان موعد الباص سيفوتكم أو شيءٌ من هذا القبيل.. آسفةٌ بحقٍّ..**».. ابتسم فؤاد ورد بارتياحٍ وقد زال عنه الغضب الآن: «**لا بأس، سننتظركم فلا تقلقي ولا تحملي هماً فلن يفوتنا شيء.. فقط اهدئي واسترخي.. ولنقل أنه منذ هذه اللحظة، قد بدأت الرحلة، فلتستمتعي بوقتك دون قلق.. ولو كنتِ في مكان تصعب فيه المواصلات فبإمكاني أن أرسل سيارة لإحضارك.. ..**»، قالت بسرعةٍ: «**لا، لا داعي لهذا فنحن في الطريق بالفعل.**».. ارتفع لحنُ وكلماتُ أغنيةٍ شعبيةٍ أدارها سائق السيارة الميكروباص التي تستقلها هي وإخوتها بشكلٍ عجزت معه عن سماع رد فؤادٍ الذي أبعد السماعةَ عن أذنه للحظةٍ متفاجئاً، وسمع مهرة تصيح بالسائق ليخفض الصوت قليلاً ثم تعود لتعتذر له: «**آسفة يا سيد فؤاد.**».. هز فؤاد رأسه وهو يقول: «**لا داعي للأسف، بل أنا من عليه أن يعتذر فقد كان من واجبي أن أرسل سيارة لإحضاركم هذا الصباح، ولا أدري كيف فاتني هذا الأمر!**»، فقالت بمودةٍ: «**لا بأس، فأنا معتادة على الطريق ومواصلاته، ولكننا سنتأخر بفعل الزحام الشديد، فالطريق شبه متوقف، أنت تعلم كيف يكون الأمر في نهار العيد..**». قال بتفهمٍ: «**أعلم، أعلم.. نحن في انتظاركم على أية حال،**

ولا تقلقي فنحن في بيتنا ولسنا في الشارع، لذا فلن نُضَارَّ إن تأخرتِ علينا قليلاً.. أتمنى أن تصلوا بالسلامة.. أراكِ قريباً إذاً..».. أغلق الخط وتنهد بعمقٍ وراحةٍ شديدةٍ... خرج إلى الشرفة يتنشق الهواء النقي ويبتسم ابتسامةً عريضةً وعيناه متعلقتين بشهدٍ، وبشقيقه....

لامس بأطراف أصابعه مجدداً العلبة الجلدية المكعبة في جيب معطفه المفتوح وقفز اسمٌ واحدٌ إلى باله و انزلق من شفتيه دون وعيٍ وهو يسرح بفكره بعيداً: «**طارق.. ترى من أنت يا سيد طارق؟!!**»... أشار له نادرٌ حين لمحه كي ينزل ليلحق بهما فلوح لشقيقه واستدار خارجاً من غرفته بهدوء . نزل الدرج ويديه في جيبي سرواله وبالأسفل وجد كلاً من سامرٍ وأميرة يتحدثان بصوت خافتٍ وقد بدا الضيق على أميرةٍ كعادتها كلما تحدثت إلى أخيها.. اقترب منهما في ثقةٍ ولاحظ توقفهما عن الحديث وكل منهما يشيح بنظره عن الآخر فقال ممازحاً: «**عيدٌ سعيدٌ وصباحٌ لطيفٌ.. كما أرى.**».. تأبطت أميرة ذراعه فوراً، فالتفت إليها سامر وقد لوى شفتيه دون أن يقول شيئاً، ما جعل فؤاد يحرر ذراعة بلباقةٍ من ذراعها. لَكَمَ ساعد سامرٍ برفقٍ ومد ذراعه لتلتف حول كتفِ الأخير قائلاً وهم يتجهون نحو الحديقة: «**ما هذه التقطيبة التي تعلو وجهك في هذا النهار الجميل.؟!! أهكذا تستعد للإجازة يا رجل؟!!**».. رد سامرٌ وهو يضع يديه في جيبي سرواله: «**وماذا أفعل إن كانت لا تتوانى عن استفزازي وإثارة مواضيع مستفزةٍ جداً حتى في يوم كهذا؟!!**»، همت أميرة بالرد ولكن فؤاداً قاطعها وهو يضع يديه في جيبي معطفه حين شعر بلسعة البرد التي ميزت هذا الصباح وقال مديراً ظهره لسامرٍ وعلى وجهه نظرةٌ فهمت منها أنه يريدها أن تصمت: «**لقد نسيت شيئاً في غرفتي يا أميرة.. لم لا تلحقي أنت بشهدٍ ونادرٍ هناك..**» وأشار برأسه إلى الحديقة مكملاً: «**وأخبري نادراً بأننا سنتأخر قليلا، سأصعد وسامرٍ لأحضر غرضي ونلحق بكم فوراً..**». دلكت شفتيها ببعضهما وردت ببطءٍ: «**حسن، لا تتأخرا.**»، فردَّ فوراً: «**حالاً..**»...

استدارا عائدَين إلى الداخل وما أن تخطيا عتبة الباب حتى توقف فؤادٌ وسأل سامراً بصراحةٍ: «**والآن ما الذي سيعكر عليك وعلي وعلى الجميع هذه الرحلة؟ ما الأمر؟**».. رد سامر بسرعةٍ وهو يشير بسبابته إلى الخارج باسطاً ذراعه على امتدادها وساعته تهتز في معصمه مع حركته العصبية: «**أصحو بلا مشاكل وأذهب لأُعيِّد عليها فتقابلني بوجهٍ خشبي ودون حتى أن ترد تحيَّتي تأمرني الهانم بأن أذهب لأعتذر لنادرٍ وأتصالح معه!!! أخبرني ماذا فعلتُ له لأعتذر منه؟ وما دخلها هي أصلاً بالموضوع.**»..

لم يغير فؤاد وضعيته ولكنه هز كتفيه وقال بصراحةٍ: «**ربما كان أسلوبها غير مناسبٍ ولكن توقيت طلبها جيدٌ بلا شكٍ، فنحن بصدد السفر للاستمتاع والاحتفال، ولأول مرةٍ منذ فترةٍ طويلةٍ يصحبنا نادر، وستكون الأجواء ثقيلةً متوترةً إن بقي بينكما خلافٌ، وبخاصةٍ لنا، لأننا نهتم لأمركما.. ثم أنا أريد أن أفهم ما بكما؟ لم لا تستطيعان التواصل دون أن تثيرا مشكلة؟!!**».. كان يقصد سامراً وأميرة بكلامه، ولكن يبدو أن سامراً ظنه يعنيه ونادراً فعلق بضيقٍ وهو لا يزال يلوح بذراعه: «**لا أدري، لم لا تسأل أخاك ما مشكلته معي؟!!**».. رد فؤادٌ بهدوءٍ: «**واثق ألا مشكلة لنادر معك، وإنما ربما قلقه على صالحنا واهتمامه بشئوننا يجعلانه عصبياً متوتراً أحياناً..**». نظر نحو الحديقة ثم اقترب من سامرٍ قليلاً وقال بجديةٍ استرعت انتباه سامر لما يقول: «**دعكَ من أميرة واسمعني يا سامر.. هل أستطيع أن أطلب منك خدمة؟**».. جاراه سامر في جديته وردَّ بثقةٍ وهو يهز كتفيه: «**بالتأكيد..**».. قال فؤادٌ بصراحةٍ: «**هذه الرحلة مهمةٌ جداً جداً، إلى أبعد الحدود، وأريدها أن تُوَفِّر أجواءً جيدةً ولْنَقُلْ مناسِبةً لما يدور برأسي .. ولهذا، وبعيداً عن الخوض في تفاصيل خلافاتكَ مع نادرٍ، أريدك، وهذا من أجلي، أن تدَعَ خلافاتكما جانباً، فقط حتى تنتهي هذه الرحلة، وأن تساعدني في جعل جوِّها ظريفاً وسعيداً قدر الإمكان... افعل هذا المعروف معي وسأكون ممتناً لك مدى الحياة..**». استوعب سامر كلامَ فؤادٍ وفهم مغزاه، بل وتنبأ بأنه ربما كان العقبة التي تقف دون مباركة نادرٍ لخطبة أخته من فؤاد، ولهذا قال باقتناعٍ تام: «**أعدك بأن اتجنبه طوال الرحلة وأ...**»، قاطعه فؤادٌ مبتسماً: «**لا أريدك أن تتجنبه، أريدكما أن تتقاربا وتتحادثا وألا يبدو بينكما خلافٌ**

مهما صَغُر... هذا في غاية الأهمية يا سامر.. صدقني..». ضاقت عينا سامرٍ وهو ينظر حيث وقف نادرٌ يتحدث مع أميرة بهدوءٍ وثقة (إذا كان هذا ما يتطلبه كسر أنفكِ يا نادر بِك، فلا بأس .. أستطيع أن أتحملك. نعم أستطيع).. أومأ إيجاباً، فربَتَ فؤادٌ على ساعده وتركه، لينزل الدرج سريعا ويلتحق بشقيقه الذي بادره ما أن دنا منه: «**ما الذي أخرك إلى الآن يا فؤاد؟ أكل شيءٍ على ما يرام؟**».. نظر فؤاد إلى أعماق عيني أخيه القاتمتين قائلاً بلهجةٍ ذات مغزىً: «**الأمر كلُّه تمام، كان هناك عقبة ما ولكني اهتممت بها..**».. بادله نادر نظرته بمثلها وهو يؤكد على حروف كلماته: «**فعلاً؟**».. أومأ فؤادٌ وهو يغمز بعينه لشقيقه الذي اتسعت ابتسامته وهو ينظر إلى البعيد مديراً ظهره لفؤادٍ الذي طلب من أميرة أن يحدِّثها على انفرادٍ للحظاتٍ...

أعاد نظره إلى الفيلا ليجد خاله يهبط درجاتها بانشراح ويُحيِّي كلاً من سامرٍ وفؤادٍ وأميرةٍ بإقبال قلَّما بدا عليه، ورغم ذلك لم يتقدم نادر نحوه لتحيته، فقد كان مستاءً من تجنُّب خاله له بعد نقاشهما الأخير بخصوص سامرٍ، حتى أنه ترك مائدة الطعام ذات مرةٍ حين أقبل نادر .. وعلى هذا فقد قرر نادرٌ أن يدعه على راحته حتى يتراجع عن موقفه ويدرك بأن هذا الأسلوب لن يمثل ضغطاً على نادرٍ ليغير رأيه...

أقبل خاله عليه بذراعين مفتوحين وهو يرفع صوته ليتخطى المسافة غير القصيرة بينهما: «**أليس صباحاً رائعاً!!! لم أتصور أن أتحمس هكذا لرحلةٍ برفقتكم.**».. ضحك نادر وهو يهز رأسه يمنة ويسرة، فلخاله أسلوبٌ في التظاهر بأن شيئاً لم يكن، واعتماد المزاح والسخرية طريقةً للتعبيرِ عن أسفه وتراجعه عن موقفه، وعلى الرغم من أن هذا الأسلوب لم يَرُقْ لنادر كثيراً، أو على الأقل لا يجده مناسبا لكل المناسبات والمواقف، إلا أنه كان مضطراً لِتَقَبُّلِهِ مراعاةً للوضع الحرج والحساس لأقاربه...

دنا حسَّاب كثيراً من نادر حتى عانقه أخيراً، فربت نادرٌ على ظهره بمودةٍ واستبَقَهُ بالقول: «**كل عامٍ وأنت بخيرٍ يا خالي.. أنا سعيدٌ بأنك غيَّرت رأيكَ،**

ومتأكدٌ بأنَّك لن تندم وستستمتع كثيراً بهذه النزهة.».. رد حسَّاب وهو لا يزال يضُمُّ ابنَ أختِه في رسالةِ أسفٍ عن تجاهله له خلال الأيام الماضية متناسيا حالته الصحية: «**وأنت بخيرٍ يا حبيبي، أنا سعيدٌ لأنني سأقضي معك بعض الوقت بعيداً عن الضغوط..**».. ابتعد ومسح بوضوح عن طرف عينه دمعة لم يرها نادرٌ وأكمل بصراحةٍ: «**لا أدري ماذا أصابني حينها، ولكن واقع انهيارك وشعوري بأنه لو لا قدر الله قد أصابك مكروه، أبعد الله عنكَ الشر، فإن هذين الطفلين سيضيعا إلى الأبد ولهذا كنت أود أن أطمئن وأن أُؤَمِّن للفتى مستقبله ليرتاح بالي.. أتفهم قصدي؟**». (طفلين!! فتى!!) اكتفى نادر بالابتسام وتجاهل محاولة خاله طرح الموضوع بطريقة جديدة، وركز تفكيره على الساعة التي تخطت العاشرة ولم يصل ضيوفه بعد...

استمر خاله يثرثر ويهذر وحاول نادر أن يركز في كلامه ويرد عليه ردوداً مقتضبة، بينما لم يستطِع إلا أن يُلقِي بصره نحو بوابة الفيلا بين الحين والآخر... اقترب سامرٌ منهما بهدوءٍ وقال حين أدركهما: «**صباح الخير يا خالي، صباح الخير يا نادر، كل عام وأنتما بخير.**» عانقه خاله وهو يرد عليه بينما ردَّ نادرٌ بنفس اللهجة الحياديةً التي انتهجها سامر: «**صباح النور.. كل عام وأنت بخير.. يبدو مزاجك على ما يرام هذا الصباح يا سامر.. أتمنى أن يستمر على هذا الحال طوال الرحلة.**». ابتسم سامر ابتسامةً عريضةً وقال بوداعةٍ: «**لا تخف، سأكون ولداً طيباً ولن أفسد عليك ...**» وصمت وهو يشير بأصابعه كعلامتي تنصيص في الهواء: «**رحلتك.**».. ضحك فيما قطب نادرٌ حاجبيه ووضع يديه في جيبي سرواله مستأذناً خاله الذي بدت عليه الحيرة وهو يراقب نادر الذي يبتعد في خطوات سريعة حتى اختفى داخل الفيلا، فالتفت إلى سامرٍ سائلاً بتعجبٍ وهو يشير بيده حيث اختفى نادر: «**ما بِه؟**» ، ثم انتبه لابتسامة سامرٍ الساخرةِ فقال مقطباً: «**اسمع يا سامر، أنا لا أدري ماذا دار بينكما تواً، ولكن اعلم بأنني لن أسمح بأي شجار أو مشاكل في هذه الإجازة.. وتحديداً مع نادرٍ كي أتمكن من مفاتحته مجدداً في مشروعك..**». لم يرد سامرٍ واكتفى بهز كتفيه في لا مبالاة ورأسه يتحرك بوتيرة ثابتة على أنغام لحن أخذ يردده داخل رأسه في صمت

وابتسامةٌ ساخرةٌ تشد حرف فمه للأعلى، فما أخبرته به أميرة تواً عن ضيوف نادرٍ وما يرنو إليه من وراء هذه الرحلة سيكون مجالاً للاستمتاع بالتفرج على أميرة ونادرٍ وهما يدوران في دوائر حول نداءات قلبيهما... (يااااه يا نادر!!! لو بقيت أخطط أعواماً لأثير حقد وكُره أميرة ضدكَ، لما استطعت أن أجعلها تكرهك بمثل هذه السرعة... على أن أشكرك على هذه الهدية)... انتبه لخاله حين ضربه على كتفه قائلاً بحدةٍ: «**أتسمعني يا سامر؟**».. قال بتلقائيةٍ: «**نعم، نعم سمعتك.. وسأنفذ كل ما تطلب.. فقط لا تقلق، فلا أنوي أبداً أن أضايق نادر... صدقني، يكفيه ما سيلاقي على يد أميرة..**» وانفجر ضاحكا وهو يبتعد ليجلس على الكرسيّ الحجريّ خلفهما وتبعه حسَّاب الذي قال بعد أن جلسا: «**اسمعني جيدا.. أنا لن أجلس كالأصَمِّ في الزفَّة وأنت تُلمِّح بكلامٍ غير مفهوم.. اشرح لي الوضع بالتفصيل ولتبدأ بسبب ضيق نادر من كلامك.. تفضّل.. هات ما لديك.**».. اعتدل سامر واقترب من خاله ليقول بصوت خافت على الرغم من عدم احتمال استماع أحد لهما، وإنما ليُضفي أهميةً وتشويقاً على كلامه: «**مدرسة شهد ستصحبنا في رحلتنا بناءً على طلب السيد.**».. تراجع حساب مصدوما، ما أرضى سامراً لحصوله على رد الفعل الذي كان ينتظره وتابع: «**سأخبرك بكل ما أعلم حتى الآن..**»...

تحدث سامر وفيما هو يغوص في التحليل وشرح رؤيته ،أخذت عينا خاله تتسعان ...

٥

كان الحلم قوياً مهيمناً حقيقياً لحدٍّ أجبر مهرة على أن تقنع عقلها بأن هذا هو الواقع وأن تترك نفسها تنساب مع أحداثه دون مقاومةٍ، فغضت البصر عن أحاسيسها المشوشة والتي خدرها النوم العميق الذي ابتلعها داخل جوفه الساكن المريح...

رأت نفسها تطفو فوق مياه البحر الزرقاء التركوازية التي امتدت أمام ناظريها صافيةً شفافةً، وهناك من بعيدٍ، لاحت لها الجبال الصخرية تتمايل كلما داعبت الأمواج قاع اليخت الذي يبدو وكأنها تسترخي على سطحه في حلمها المشرق..

كانت الشمس تدفئ وجنتيها بلطفٍ بينما الهواء اللطيف يعبث بطرف ثوبها الأصفر الطويل الذي داعب طرفه قدمها شبه الحافيةِ بحذائها الذي لم يكن سوى بعض السيور الذهبية التي التفت حوله برقةٍ وبساطةٍ... أغمضت عينيها وهي تحاول جاهدةً أن تحدِّدَ الخط الدقيق الفاصل بين الحقيقة والخيال. تألمت ذاكرتها من كثرة ما أجهدتها في البحث في جنباتها عن اللحظة الفارقة بين النوم واليقظة، ولكنها لم تعرف متى نامت ولا من أي تربة نَبَتَ هذا الحلم؟!!! هل يمكن أن يكون صدىً يتردد في رأسها للرحلة البحرية الوحيدة التي ارتادتها

منذ ستة أشهرٍ؟ نعم، كانت رحلة العمر بالنسبة لها ولأخويها على الرغم من الصدمةِ التي شعرت بها حين أدركت بأن وجهتهم ستكون مطار القاهرة، ومنه لمطار شرم الشيخ على متن طائرةٍ خاصةٍ صغيرةٍ، ليقضوا بقية الأسبوع على متن يخت (الأميرة).. كان الوقت قد فات على الاعتراض حين أخبرها نادر وهي تجلس إلى جواره في سيارته التي كان يقودها بنفسه لمَّا سألته عن وجهتهم، ولكن هذا لم يمنعها من المحاولة، فأخبرته بأنها كانت تظنها رحلةَ يوم واحدٍ ربما إلى الإسكندرية أو حتى الساحل الشمالي، ولهذا لم تأخذ في الحسبان إحضار ملابس تكفي لرحلةٍ طويلةٍ كهذه، كذلك فإنها لن تستطيع أخذ بقيةَ الأسبوع إجازة من المدرسة أو الطلَّاب الذين تعمل معهم.. واكتفى نادرٌ وقتها بأنَ ابتسم وطمأنها بألَّا تقلق بخصوص الثياب وأن بإمكانها الاعتذار عن يوم أو اثنين فقط من العمل.. (وما أفهمَ شخصاً مثله كيف يمكن أن يكون هذا صعباً أو ربما مستحيلاً لمن يعمل في وظيفتين، مثلي).. اكتفت حينها بما قالت وقال، حيث لم تكن حتى وقتها قد اعتادت على وجود نادرٍ أو ارتاحت للحديث معه، بعكس فؤادٍ الذي أبدى كل اللطف والأدب في استقبالها وأخويها، كما أصر أن يصاحباه في سيارته مع أميرةٍ وشهدٍ، ما أربكها وقتها كثيراً إذ ظنت بأنه سيتحين الفرصة لتكون بقربه قدر ما استطاع.. وبناءً عليه، لم يكن لديها اختيار سوى الركوب مع نادرٍ أو سامرٍ وخاله ، وبالطبع كان هذا اختياراً مرفوضاً لديها تماما، ولهذا قفزت في سيارة نادرٍ فوراً حين فتح لها الباب قبل أن تتيح لسامرٍ فرصة العرض من الأساس..

تحدثا في أمورٍ سطحيةٍ كعملها والجو الذي كان يومها بارداً قليلاً وإنما بسماءٍ صافيةٍ كعيني طفل.. وصلا إلى المطار فقالت بسذاجةٍ: «**ليس لدي وأخويَّ جوازات سفر.**»، ما جعل نادراً يضحك بلطفٍ ويخبرها بأنهم لن يحتاجوا إليها..

وبدأت رحلتها الأسطورية، كما وصفتها مي لاحقاً، ابتداءً من القاعة المترفة في المطار والتي كانت مخصصةً كما فهمت لرجال الأعمال والمشاهير من أصحاب الطائرات الخاصة.. وكانت تلك حكايةً قائمةً بذاتها، فعلى الرغم من

أنها لم تركب طائرةً بحياتها إلا مرةً واحدةً حين كان عمرها أربعةَ أعوام، يوم عادت أسرتها من الكويت إبَّان الغزو حيث عمل والدها هناك كأمينٍ مخزنٍ لمدة لم تزد عن الخمسةِ أعوام، تزوج بوالدتها وأنجباها خلالها، إلا أن ما رأته لم يتفق وما تتصوره عن داخل أي طائرة، فمما رأت في الأفلام فالطائرة لا تتعدى عدداً من صفوف الكراسي، وممراتٍ ضيقةٍ تؤدي إلى أبوابها، بينما ما ركباه ذكرها بإحدى ردهات الفيلا بلا مبالغة.. فالكراسي وثيرة من الجلد الأبيض رُصَّت في الأركان بنظام، ويتوسط كل كرسيين طاولةٌ منخفضةٌ فوق كل منها باقةُ وردٍ زهريٍّ وأبيضَ في رقةٍ وجمالٍ يخطفان الأنفاس.. امتدت في الجهة المقابلة للكراسي أريكةٌ مخمليةٌ بيضاء امتلأت بالوسائد الصغيرة باللونين الأبيض والبني القاتم.. وكانت الحوائط مطعمةً بالخشب القاتم أيضاً، وكذلك الطاولات والثلاجة الصغيرة التي اكتظت بزجاجات الماء البارد والمشروبات والعصائر المستوردة.. اكتشفت لاحقاً بأن هذه ما هي إلا إحدى (قاعات) الطائرة، فهناك كما قيل لها، أسرَّةٌ وقاعةٌ لتناول الطعام..

لم تستغرق الرحلة طويلاً، وجلست خلالها في كرسيٍّ مواجهٍ لأميرة التي بدت متكلفة حتى في بنطالها الجينز الزهري وقميصها الكحليّ الخفيف الضيق ... حاولت أن تبدو طبيعية تحت وابل النظرات الحادة التي أمطرتها بها أميرة وتشاغلت بالنظر من النافذة الصغيرة إلى جوارها...

«**أنا سعيدةٌ بأن فؤاداً استجاب لطلبي ودعاكِ لمرافقتنا يا مس مهرة.. فهذا أقل تقديرٍ يمكننا منحك إياه بعد المجهود الخارق الذي بذلته مع شهد أثناء مرض نادر**».. لم تستوعب مهرة كلام المرأة للحظات، ففكرة أن تكون أميرة هي صاحبة الدعوة مستبعدةٌ وغير منطقيةٍ على الإطلاق، فلا هي التي دعتها عبر الهاتف، ولا هي تطيق صحبتها أبداً، كما حرِصت على إظهار هذا من قبل مراتٍ عدة.. كذلك فقد بدا عليها الجمود وهي تحييها حين وصلت الفيلا هذا الصباح.. فلماذا تحاول الأخيرة الادعاء بأنها فكرتها؟!! وعلى الرغم من اقتناعها باستحالة هذا، ردت بأدب جَمٍّ: «**لطفٌ منكِ يا آنسة أميرة أن تفكري في**

دعوتي بالرغم من أنني أشعر بأنني لم أفعل سوى واجبي..».. ألقت أميرة نظرةً على شقيقي مهرة، اللذين لم يخفيا انبهارهما وإعجابهما الشديد بما يرون وبما يحدث لهما، كما لم يأبها إطلاقا للتفكير فيما يقولان، فكانا مثارَ اهتمام الرجال الثلاثة بلطفهما وتلقائيتهما المهذبة، بينما تجاهل حسَّابٌ الجميع وأبقى عينيه أسيرتي جريدة الأهرام التي كانت ضمن مجموعة كبيرة من الصحف بمختلف اللغات ..قالت بصراحةٍ: «**لا أستطيع أن أخبرك لكم اندهشت حين علمتُ بأنكِ تنشئين أخويك وحدك.. مجهودٌ كبيرٌ على شابةٍ صغيرةٍ ضعيفةٍ مثلُك.**». تجاهلت تلميح أميرة بضعفها وأجابت ببساطة وهي تهز كتفيها: «**أظن أن المرحلة الأصعب قد ولَّت، فقد كبرا ولا يحتاجانني كما كانا سابقاً.**». ابتسمت أميرة معقبةً: «**أي مرحلةٍ صعبةٍ تلك التي مرت؟؟ ألا تدركين كمَّ المسئولية التي أنتِ مقبلةٌ عليها؟ نعم، ربما لا يحتاجانك لتطعميهما وتلبسيهما ثيابهما، ولكن ألن يحتاجا إلى أضعاف مصاريفهما في الجامعة. هذا بدون ذكرِ أن لديكِ عروسٌ لتجهزيها..**». ردت مهرة بنفس البساطة: «**أعلم، ولكنني سأتدبر أمري كما تدبرته من قبل إن شاء الله..**».. وضعت أميرة ساقاً فوق الأخرى وهي تقول بابتسامةٍ ليس فيها من الابتسام إلا رسمتها: «**لكي تستطيعي أن تتدبري مثل كل تلك التكاليف عليك أن تجدي مصدراً آخر بالإضافة للتدريس، أليس كذلك؟.. أخبريني يا مس مهرة، ما المهارات الأخرى التي لديك، والتي ستمكنك من توفير متطلباتكم المستقبلية؟!....ولكنك ذكية كفاية، وأرى أنكِ تدبرتِ أمركِ بالفعل.**».. (هل تقصد بتدبري أمري سابقاً أم ماذا؟ ابتسامتها وتلميحها غير مريحان؟)، وجدت أن خير وسيلةٍ لإنهاء هذا الحوار هو أن تنظر إلى الشباك مجدداً، إلا أن هذا لم يمنع أميرة من سؤالها مباشرةً: «**أليس غريباً أن تقبلي هذه الدعوة وأن تقضي العيد مع أناسٍ غرباءَ بعيداً عن عائلتك؟ أم أنكِ بلا عائلةٍ من الأساس يا مس مهرة؟**».. احمرت أذنا مهرة بشدة وشعرت بوجنتيها تحترقان من وقاحة تعبير أميرة. أرادت أن ترد بحدةٍ ولكن العبرات خنقتها فأشاحت بوجهها نحو الشباك وهي تجاهد باستماتةٍ حتى لا تدع دموعها تنهمر لترضيَ غرورَ محدِّثَتها التي قامت لتتفحص رفَّ الكتب الذي احتوى على مجموعةٍ لا تقل عن مائة كتاب من كل حجمٍ ولونٍ ولغةٍ...

نظرت إلى أخويها اللذين بديا في قمة سعادتهما وهما يداعبان شهداً ويتحدثان إلى فؤادٍ ونادرٍ وسامرٍ الذي كان لطيفاً جداً على غير عادته... شعرت بالفخر الشديد وهي تلاحظ كم كبرا وأصبحا شابين رائعين، كما اعتزَّت بنفسها لمظهرهما اللائق وثيابهما الجديدة التي كانت تبدو مناسبةً تماماً، فلا فرق بين ما يرتدون وما يرتديه الآخرون...

كان المفترض بأن ينطلقوا إلى الميناء مباشرةً حيث يرسو اليخت فور وصولهم، إلا أن مسار رحلتهم قد تغير جزئياً ليقضيا اليوم والليلة الأولى بمنتجع يتشارك الأخَّان ملكيته مع شريك ثالثٍ، لتتمكن مهرة وشقيقيها من شراءِ ثيابٍ تكفيهم لبقية الأسبوع... كانت مهرة في قمة الإحراج، كما خافت أن يقترح فؤادٌ أن تصحبهم أميرة في هذه الجولة، إلا أن نادراً بادر باصطحابهم إلى المول وانطلق هو وماجد، الذي تعلق بنادرٍ وفؤادٍ كثيراً الآن، بينما تركها هي ومي عند أحد المحال، الذي تبينت لاحقاً أنه لماركةٍ عالميةٍ، بعدما تحدث لدقائق مع من بدت لها مديرةً بالمكان والتي استقبلته بثغرٍ باسم ووجهٍ طَلْق، جعل مي تهمس في أذنها: «**يبدو أنه معروف هنا!.**»، فردت عليها بسخرية: «**بالطبع معروف، فهو صاحب المكان!!!**»، واكتفت بشهقة مي المكتومة رداً.. ولم ينسَ نادرٌ أن يضع بيدها بطاقةً الكترونيةً أطلعها على رقمها السري وانصرف وسط دهشتها، فعلى الرغم من عدم امتلاكها لإحدى هذه البطاقات إلا أنها تعلم أن لا أحد يتركها مع غريبٍ مع إعطائه أرقامها السرية هكذا بكل بساطة..

كانت مي حرفياً تقفز من الإثارة، وتثرثر بلا انقطاع وهي تتنقل بين أرفُفِ وحوامل العرض التي رصت بها الثياب بأناقةٍ ودقةٍ ملحوظتين.. تبعت هي أختها من جانب لآخر وهي تشعر بالخجلِ الشديدِ من النظرات الفضولية للبائعات الأنيقات اللاتي حاولن إخفاءها مكتفياتٍ بابتسامات مقتضبةٍ مهذبةٍ كلما تلاقت نظراتها مع إحداهن..

«**أقسم بالله أن ما يحدث لي يشبه ما شاهدته في أحد الأفلام!!! كنت أظن أن هذه الأماكن لا توجد إلا في الأفلام، وعلى فرض أنها حقيقية، فلن تكون في مصر**

طبعاً!!»، استدارت تواجه أختها لتسألها بدهشةٍ وهي تشير بإصبعها نحو باب المحل: «**أكنت تعلمين أن هؤلاء البشر بهذا الثراء؟**»، أكملت وهي تضع يدها على صدرها وكأنها تهدئ نفسها: «**يا إلهي!!! إنهم يمتلكون طائرة يا مهرة!!! طائرة!!! ويخت و ...**». قاطعتها مهرة وهي تمسك بيدها تضغطها برفقٍ كي تجبرها على أن تتبعها خارج المحل، مجيبةً الابتسامات المتكلفة التي لاقتها بإيماءاتٍ مقتضبةٍ، ولم تتوقف حتى ابتعدت مسافةً مناسبةً عن الباب الزجاجي المنمق فقالت بصوتٍ أودعته كل ضيقها وحرجها، وإنما بغير أن يرتفع ليرتقي لأذني أحدٍ غير شقيقتها: «**أثرياء؟ نعم.. ما يحدث يفوق الخيال؟ نعم... ولكنه لا يعجبني ولست مرتاحة للوضع برمته.**».. قالت مي فوراً مستهجنةً بصبيانيةٍ: «**لا يعجبك؟ وماذا يعجبك؟ محل حماده وشوشو بالعتبة؟!! أو ربما تفضلين ميكروباص مكتوب عليه (الحلوة شقية أصلها من المطرية) أكثر من الطائرة الوهمية التي ركبناها؟! أو ربما..**». قاطعتها مهرة مجدداً بصوتٍ هادئٍ وهي تشير لها بيدها كي تهدأ: «**افهميني يا مي، كل ما يجري غير طبيعيٍّ وليس له أكثر من معنى..**»، صمتت لحظة ونظرت حولها وكأنها تبحث عن الكلمات المناسبة، عضت شفتها العليا لحظات ثم أفلتتها لتقول بمنتهى الصراحة: «**لقد وافقت على هذه الرحلة مقتنعة بأن فرضيتك ربما كانت صحيحة فيما يخص فؤاداً ورغبته بالارتباط بي، ومكالمتي مع طارق أضعفتني وجعلتني لا أمنح الموضوع حقه من التفكير فاندفعت ووافقت، ولكن منذ تقابلنا هذا الصباح وفؤادٌ يصب كل اهتمامه على أميرة كما لاحظتِ أنت بالتأكيد، فهي لم تتركه لحظةً واحدةً ليبتعد عن جانبها، فهل يمكن أن تخبريني أين يضعني هذا بالتحديد؟**». توقفت لتمنح أختها المراهقة مهلةً لتستوعب ما تقصد، ولاحظت حركتها العصبية في إرجاع شعرها البني القاتم الأملس الطويل إلى الوراء، ثم وضعت يديها في جيبي بنطالها الجينز مشيحة بوجهها عن عيني أختها.. كانت مي تقاوم الشعور بالغضب الذي بدأ يسيطر عليها لتوريطها أختها بهكذا موقف وهي التي لم تتعاف بعد من صدمتها مما فعله بها طارق، كما أدركت أنه في أفضل الظروف وبكل الاحتمالات التي يمكن أن تنتهي إليها هذه الرحلة فلن تستطيع مهرة العمل مع شهد مجدداً، وهذا

أيضا سيزيد من ضيق مهرة واكتئابها، ليس فقط من أجل المال الذي ستخسره بتركها عملها لديهم، ولكن أيضاً للطريقة التي ستترك بها العمل، وربما حتى السمعة التي قد تلحق بها جراء ذهابها في رحلةٍ كهذه .. قالت أخيراً: «**وما العمل الآن؟**».. هزت مهرة كتفيها وهي تضع يديها في جيبي معطفها الأخضر الذي فتحت أزراره ليظهر تحته بلوزة قاتمة مزركشة بورود دقيقة ملونة وبنطال جينز أزرق قديم، وقالت ببساطةٍ: «**لا أدري، ولكني لا أحب إنفاق مال السيد نادر على ثيابي..**».. صمتتا لبرهة وكلتاهما تنظر حولها. تقدمت مهرة لتتأبط ذراع مي التي كانت تفوقها طولاً ونحافةً لتسيرا معاً بعيداً عن المحل وقالت مفكرةً: «**ربما الموضوع أكثر بساطةً مما أتصور.**». توقفت مي لتسألها فجأة: «**وكيف سنقضي الأسبوع كاملاً بنفس الثياب وبدون ملابس للنوم؟ أظننا مضطرين لاستخدام بطاقة السيد نادر ولو على سبيل الدَيْن..**».. ردت مهرة باستنكارٍ هادئٍ: «**أيُّ دَيْنٍ؟**»، واشارت إلى المحل الذي تركاه خلفهما مكملةً: «**أرأيتِ سعرَ الفستان هناً؟**». أجابتها أختها بانفعالٍ: «**نعم، أسعارٌ عاليةٌ ولكنني لن أقضي العطلة كلها بنفس الثياب، هذا غير منطقيٍّ أو عمليٍّ. سيكون تصرفاً لا معنى له!!**».. اعترفت مهرة لنفسها بأن مي على حقٍ، ولكن عقلها استمر في البحث جاهداً عن مخرج من الورطة التي أوقعت نفسها فيها بقبولها طلب فؤادٍ.. هل يمكن أن تدع مي تشتري ما تشاء بينما تحجم هي عن الشراء؟ وهل سيكون هذا عملاً يبعث بالمعنى الذي تريده؟ أم أن جُل ما سيحدث أنها ستكون مزرية المظهر وسط الجميع وبعقلياتهم المادية ستفوتهم ملاحظةُ المعنى الضمنيِّ لرفضها أموالهم بعدما وافقت مسبقاً على قبول السفر والإقامة على حسابهم؟.. شعرت بصداع خفيف يضرب جانبي جبهتها، ونظرت إلى مي فوجدتها تتخذ وضعيةً متحفزةً مُنتظرةً قرارها.. تنهدت باستسلامٍ وأشارت إلى المحل ثانيةً وهي تستدير لتعود إلى حيث كانتا، فقفزت مي واحتضنتها من ظهرها بقوةٍ ثم طبعت قبلةً سريعةً على وجنتها، وقد تبخر كل قلقها على أختها من توابع هذه الرحلة، وقالت بسعادة: «**هذا هو الكلام... فلنعش يومان ما دمنا نستطيع، ولندع الهمَّ والقلق لوقته، فهما لن يهربا وسنجدهما على عتبةِ بابنا حين نعود..**»... ابتسمت مهرة ولم ترد..

تنقلت مي في المحل كالفراشةِ، تنتقي وتقيس وتضع ما أعجبها على كرسي مخمليٍّ أحمرَ حتى اختفى الكرسي تماماً تحت كومة الملابس التي كانت ترتفع بسرعةٍ ومهرة تؤنبها كلما أضافت إلى الكومة قطعةً جديدةً: «**كفى يا مي، هيا قرري ماذا ستختارين فلقد تأخرنا وأنا أشعر بتعبٍ شديدٍ وأريد ان أرتاح... صدقيني قدماي ما عادتا تحتملا الحذاء لدقيقةٍ أخرى..**»..

«**حسنٌ، ما رأيك؟ أي الفستانين أختار؟.**» رفعت مي ثلاثة فساتين ما جعل ضحكة عالية تفلت من فم مهرة قبل أن تكتمها بيدها وهي تقر مبتسمةً: «**لن ننتهيَ قريباً، أليس كذلك؟**». أحنت مي رأسها وأحنت كتفيها قائلة بحيرةٍ: «**لا أعلم ماذا على أن أختار يا مهرة، فجميعهم يعجبونني جداً!**»..

«**إذا ستأخذينهم جميعاً.**».. وقفت مهرة فوراً حال سماعها صوت نادرٍ الهادئ من خلفها ونظرت تلقائياً في ساعةِ يدها لتجد أن الساعة تخطت السادسة فرفعت عينيها قائلةً بشيءٍ من الدهشة موجهةً حديثها لمضيفها: «**هل تأخرنا إلى هذا الحد؟!! صدقني لم ألحظ مرور الوقت.**».. أشار نادر إلى إحدى الفتيات العاملات بالمحل لتحمل كومة الملابس وهو يقول ببساطة ليبعد عنها الحرج: «**تأخرتم على ماذا يا آنسة؟! نحن في عطلة وليس لدينا جدول مواعيد.. فضيِّعي ما شئت من الوقت على أي شيء ولا تعتذري أبداً.**».. سمعته وعيناها معلقتان بالفتاة التي أخذت ترتب الثياب فوق حاملة ثياب متنقلة قطعةً بقطعةٍ مستعدة لتدفعها برفقٍ إلى حيث يفترض أن يدفع الحساب، وأمسكت ببعض الحقائب التي لم تذكر متى أحضرتها مي، إذ دُفِنَت تحت الثياب، ولكنها لم تتمالك نفسها حين سمعت الشابة تسأل نادرٍ بأدب إن كان هذا كل شيء والأخير يومئ لها إيجابا، فمدت يدها بسرعة وأوقفت الفتاة لتتناول من يدها الحقائب وتضعها على الكرسي أمام عيني مي الممتعضتين قائلةً بحزم: «**بالطبع لن تأخذ كل هذه الثياب، كل ما تحتاجه فستان أو بنطال وبلوزة أو حتى الإثنين معاً، ولكن ليس أكثر من هذا.. ثم إن بعض هذه الثياب لم يناسبها تماماً.**».. أشار نادر للفتاة كي تأخذ الثياب ثانيةً قائلاً بهدوءٍ: «**لا بأس، بإمكان مي أن تقيس الثياب في غرفتها على**

راحتها وتعيد ما لن يناسبها لاحقاً..».. فتحت مهرة فاها لتعترض، ولكن كان الأوان قد فات، فقد ذهب نادرٌ ليدفع الحساب تاركاً إياها ومي وماجد خلفه..

قال ماجد بصوتٍ خافتٍ ليتأكد من أن نادراً لن يسمعه: **«إما أن هذا الرجل مجنونٌ بالشراء أو أنه حقا أحبني جداً.»**.. ضحك وضحكت أختاه، إلا أن مهرة توقفت فجأة حين فاجأتها فكرة مجنونة.. (أيعقل أن يكون ما أفكر فيه؟!! كيف؟) نظرت إلى نادر الذي خطا نحوهم بابتسامة عريضةٍ وخطواتٍ واسعة، ومع كل خطوة ترددت كلمة واحدة فقط داخل رأسها (مستحيل.. مستحيل.. مستحيل.. مستحيل.)...



لازالت الجبال تتأرجح والأمواج تعزف لحناً مهدئاً عذباً، تطفو فوقها الذكريات القريبةَ بعيدةً عن المنطق في شدٍّ وجذبٍ بين الإنكار والتصديق...

تذكرت مهرة شمس يوم كهذا حين كانت تقف على سطح الأميرة وقد أطلقت لشعرها الذي يرتاح برقة على أعلى كتفيها العنان ليتراقص على هبات الهواء اللطيفة وقد اعتزلت المجموعة الصاخبة تماما كما فعل السيد حسَّاب، إلا أنها كان لديها أسبابها المختلفة، فقد أرادت أن تتأكد من صحة حدسها.. وهو ما حصلت عليه، إذ وجدت بأن كل ما فعله فؤاد كان مجرد وَساطةٍ لإتاحة الفرصة لشقيقه الأكبر كي يتقرب إليها.. إنما هدف نادرٍ شخصياً من تودده إليها ، فهو ما حيرها وسرق النوم من عينيها...

لم تزل في دهشة من حقيقة أن نادراً لا يكبر فؤاد ذو السبع والثلاثون عاماً، إلا بأربعةِ أعوام فقط، فبعد ما عرفته عنهم وعن أحوالهم وتولي نادر كافة مسئولياتهم، ظنت بأنه سيكون رجلاً في أوائل الخمسينيات من عمره، ترسم الخبرة والمسئولية خطوطها على وجهه، وأن صوره القليلة التي رأت بعضها في الردهة تعود لفترةِ شبابه وهو يتفاخر بركوبه الخيل مع رفاقه أو برحلات الصيد على ظهر يخت ما.. اليومين الماضيين كانا من أجمل أيام حياتها،

ليس فقط لأنها في ما تظنه جنة الله على الأرض، وإنما كذلك لخلو الأجواء بين الجميع من أي مشاحناتٍ أو تلميحاتٍ مُرهقةٍ، فجميعهم سعداء يتحدثون ببساطةٍ وتعلو ضحكاتهم حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل، وأحيانا حتى الساعاتِ الأولى من الصباح، ما ساعدها على الاسترخاء وأن تطلق لراحة البالِ الحبيسة العنانَ لتتنفس الصعداء قليلاً، وأن تستمتع هي الأخرى بكل الرفاهيات والمتعِ المتاحة... لم يتسن لها شراء ثيابٍ ذاك اليوم حيث ضاع الوقت في انتقاء ملابس مي، وهذا ما علق عليه نادرٌ مساء أمس حين لاحظ أنها لم ترتد سوى البلوزة والبنطال الذين حضرت بهما، فقال وهو يميل برأسه نحوها خافضا صوته بينما كانا متكئين براحةٍ على سور اليخت وهما يراقبان فؤاداً وماجداً وسامراً وهم يسبحون في بحيرةِ الضوء الذي أرسلته كشافات ضخمة على قمة اليخت، وبعد أن تحدثا عن جمال المساء وعن زيارتهم بالصباح لمحمية رأس مُحمد حيث انبهر أخويها وكذلك هي بكل ما وقعت عليه عيونهم، وعلى الرغم من أن الجزء الأهم والخاص بالغوص أو الطفو لرؤية الجمال الساكن تحت الماء قد فاتها لأنها لم تنزل الماء إطلاقاً، إلا أن هذا لم يمنعها من أن تقضي وقتاً رائعاً.. «**أعتذر عن عدم توفيقي في اختيار المكان المناسب لشراء الملابس، فقد ظننت أن ذاك المكان قد يعجبك ويناسب ذوقك الرقيق..**».. لم تفهم للحظاتٍ عمَّ يعتذر بالضبط، ثم استنتجت أنه لابد وقد ظن أن عدم شرائها للثياب ذاك اليوم سببه أن المحل لم يعجبها، فنفت بصدقٍ وعيناها متسعتين من غرابة الفكرة: «**بالطبع أعجبني جداً!! لقد كان وهمياً وكل ما وقعت عليه عينايَ كان جميلاً جداً..**». مط نادر شفتيه وهو يومئ برأسه فتابعت مبتسمةً: «**لقد سرقنا الوقت ومي تجوب المكان وتختار... تعرف المراهقين وترددهم.. ولم أشأ أن أتعجلها.. ولهذا لم أشتر شيئاً، وليس لأن المحل لم يعجبني أو شيئا من هذا القبيل..**». تنهد نادر وأدار ظهره للبحر الواسع واتكأ بأحد كوعيه على السور ما جعل جسده يميل ويقترب أكثر منها، وقال وهو يبحث عن عينيها اللوزيتين اللتين أبعدتهما لتنظر في الجهة الأخرى محاولة اختراق الظلمة التي لفت البحر الممتد فبدا كالحائط الأسود المهيب: «**ظننتك ترفضين هديتي..**»..

«**ما سبب كل هذا؟**» أفلت من فمها السؤال و هي تلتفت إليه بحدةٍ، فاعتدل ليضع يديه في جيبي سرواله القصير ويواجهها معتدلاً، وقال بهدوءٍ بعد أن أخذ نفساً عميقاً: «**أتعرفين أكثر ما لفت نظري إليك يا مس مهرة؟**»، لم ينتظر جوابها وتابع: «**تلك الحيرة والترقب في عينيكِ، فيوم قابلتك أول مرةٍ لاحظت حرصكِ على عدم النظر إلي مباشرةً وكذلك إلى سامرٍ... حتى حين أتت كريمة، لم أجدك تنظرين مباشرةً في عينيها، وكأنك تخفين في هاتين العينين سراً كبيراً، أو شيئاً ثميناً لا تأتمنين عليه أحداً.**».. أشاحت بوجهها مجدداً (حسنٌ، على الأقل فقد أعلن عن إعجابه بي.. أم أن الانجذاب شيء آخر؟!).. لم يشأ نادر أن يكسر اللحظة الهشة بتعليقٍ أو سؤالٍ فالتزم الصمت منتظراً ردها على تصريحه بإعجابه بها..

قالت أخيراً: «**اسمع يا سيد نادر.**».. فقاطعها: «**أسمعك بكل كياني، فتفضلي.**»... ارتبكت واحمرت وجنتاها فطأطأت للحظةٍ وشعرها يتطاير يميناً ويساراً بفعل الهواء القوي ليغطي وجهها، ثم استجمعت نفسها وقالت بصوتٍ خافتٍ: «**ما تظن أنه غموضٌ أو سرٌ أو ما شابه، ليس إلا تفكيرٌ مستمرٌ في ما على أن أفعله بعد هذه اللحظة، وهذا عادة يكون في كل لحظة من اليوم... لست لغزاً، بل أنا إنسانةٌ عاديةٌ جداً، معلمةُ رياض أطفالٍ كما تعرف، وحياتي أبسط مما يمكن أن تتخيل... ليس لدي أموراً كبيرةً أقوم بها ولا يدور عالمي إلا حول توفير الطعام والملبس والتعليم لهذين الطفلين..**»، كانت تشير إلى اللا مكان وكأن أخويها يقفان هناك..

أنهت كلامها وانتظرت رده، ولكنه بدا لها شارداً فانزعجت قليلاً ولم تدر ماذا عليها أن تفعل.. هل تنبهه؟ هل تتركه وتعود إلى غرفتها الدافئة هروباً من الجو الذي أصبح بارداً قليلاً مع تقدم المساء؟ أم ربما ستكتفي بالمكوث صامتةً لتتابع أخاها ثانيةً.. ولكنها حين قررت أن تنزل إلى غرفتها، لم تطاوعها قدماها على المسير فاستندت على السور كما فعل رفيقها وبقيا صامتين لفترةٍ ليست بالقصيرة... أخيراً تحدث نادر ليبدو صوته عميقاً قاتماً بشكلٍ غريبٍ وهو يقول: «**ما يثير دهشتي هو إحساسي بأننا متشابهان لدرجة كبيرة، وهذا ما يثير**

فضولي لكي أعرفكِ أكثر مع يقينٍ عجيبٍ بأنني سأحبُّ ما سأجد..».. التفت إليها واعتدل فوقفت بدورها مستقيمةً لتقابله وشدتها نظراته بقوةٍ وهو يكمل: «**أخبريني يا مهرة، أأنا على صواب؟ هل سأحب ما سأجد؟**».. لا تدري لم تذكرت مشهد الفراشة وهي عالقة في شبكة العنكبوت الذي يقترب منها ببطءٍ وثقةٍ، فهزت رأسها نفياً لتطرد الصورة المخيفة وتركز على رفيقها والجو الخيالي الذي يلفها، إلا أنه يبدو وأن نادراً قد فهم حركتها على محملٍ مختلفٍ فتراجع ضاحكاً وقال بخفةٍ: «**ما هذه الصراحة؟!**.. «..**قالت وقد أراحها أن غير الأجواء الحميمة إلى جو أخفَّ وأقل خصوصيةٍ**: «**لم أقصد، ولكني فقط لا أرى أي تشابه كما تقول.. صدقني يا سيد نادر، لست سوى فتاةً بسيطةً .. بسيطةٌ جداً، بل وربما أقل من ذلك إلى حدِّ الملل، فلا تشغل بالك بي..**»..

«**وهل علي أن أصنف هذا تواضعاً أم بخساً للذات؟ ألا تدركين قيمة ما تفعلين؟ إن تنشئة شابين ليس بالأمر السهل على الأبوين فما بالك بفتاةٍ هشةٍ وصغيرةٍ مثلكِ؟!! ورغم كل ما يجلبه هذا عليكِ من تعب، أراك تدللينهما وتقدمين لهما كل ما تستطيعين حتى ليصعب على من يراهما أن يصدق أنك تقومين بكل ذلك وحدكِ، بالإضافة إلى عملك..**»، تنهد ثم تابع: «**أتصدقين بأنني أتفق معك بأن تشابهنا الذي تحدثت عنه منذ قليل يبدو لي الآن بعيداً، فقد كنت أرى بأنني وإياك نتشابه في تحملنا لجميع مسئوليات عملنا وعائلتينا دون الانتباه لحياتنا الخاصة، ولكنني أرى أن ما تقومين به أعمق وأكثر...... ما الكلمة المناسبة؟....**» كان يبحث في عينيها وقد اضيقت عيناه كثيراً ثم ابتسم قبل أن يقول: «**قدسية.. نعم، فالقديسين فقط هم من يفنون حياتهم في سبيل حبِّ وسعادة الآخرين مستغلين جميع طاقاتهم التي قد تكون بسيطةً فقط لهدفٍ واحدٍ، وهو صالح من حولهم.**»..

(حسنٌ، الآن أحببتُ نفسي، فقط من الطريقة التي تحدثت بها عني).. فتحت فمها ثم أغلقته لتنتقي كلماتها دون أن تبدو كمن تطلب المزيد من المديح: «**أولاً، أنت تفعل المِثل؟ بالتأكيد أنت تعتني بأسرتك جيداً، كما أنه ليس من العدل أن تقيس مسئولياتي بمسئولياتك.. فإطعام ثلاثة أشخاص لا يعادل في صعوبته**

التكفل بفتح آلاف البيوت والتعامل مع صفقات بالملايين مع الاهتمام بأسرة ليست بالصغيرة أو ... لنقل.. ليسوا جميعا على نفس الطبع.. أتفهم قصدي؟..».. أجابها ضاحكاً: «**بالطبع ... ولكن دعيني أسألكِ سؤالاً.. حين ترين نملةً تحمل حبة أرز أو عدسٍ، بم تشعرين تجاها وأنتِ ترينها تحاول مراراً ومراراً سحبها ودفعها تظل تدور حولها تحركها من كل جانب؟ هل تحتقرين جهدها لأنك ترين حجم حبة الأرز صغيراً بالنسبة إليكِ؟ أم تحترمين نضالها وتقدرين مثابرتها وعزمها الحثيث على الرغم من صغرها أمام حملها؟..**»...

تعجبت كيف أنه شبهها بحشرةٍ ضعيفةٍ كما تصورت نفسها منذ دقيقة، فقالت مبتسمةً: «**إذا تراني نملةً؟..**».. قال ببساطةٍ غير مكترثٍ بالتصحيح، إذ شعر بأن تعليقها ليس سوى مزاحاً: «**كل ما أقصده هو أن حجم الجهد والمسئولية يقاسان تبعاً لمن هو مُوَكَّلٌ بالاضطلاع بهما وليس بصورةٍ مجردةٍ من كل الاعتبارات.. ولهذا، بالنسبة إليكِ أرى أن ما تقومين به أصعب بكثير مما أفعل بكل ما أملك من أدواتٍ وإمكانياتٍ تسهل علي حياتي، من الناحيةِ العمليةِ على الأقل..**».. كانت مهرة تجاهد حتى لا تفتح فمها أمام عباراته المنمقة واختياره لكلماته وصعقت وهي تسمع نفسها تسأله بسذاجةٍ: «**من أي كلية تخرجت يا سيد نادر؟..**» (حسنٌ، فات الأوان وقفز السؤال، الذي لا محل له من الإعراب، من فمك، لذا فكري بسرعةٍ في شيء يربطه بنقاشكم.. هيا يا مهرة، فكري.)»..

«**اقتصاد وعلوم سياسية، شعبة اقتصاد.. لمَ؟**» أجابها ببساطةٍ وانتظر مبتسما، ولأن عقلها خذلها في إيجاد جوابٍ مناسبٍ فقد هزت كتفيها والتفتت إلى حيث ماجدٍ والشابين يمرحان بشكلٍ صاخبٍ الآن، وقد انتابها الهلع حين رأت سامر وفؤادٍ يرفعان ماجداً عاليا وهو يقف منتصباً على أكفهما قبل أن يلقياه عالياً فيرتفع ثم يهوي في الماء بقوة وسط ضحكه وصيحاته العالية جداً، ثم يهجم عليه رفيقاه وكأنهما يحاولان إغراقه وهو يتملص منهما بمهارة، فمالت بشدة على السور ورفعت صوتها ليعلو فوق ضحكاتهم قائلةً: «**ماجد!!! ألم يحن الوقت لتخرج من الماء؟ لقد برد الجو وأخشى أن تصاب بالبرد..**» لم تشأ أن تبدي

خوفها من الماء ومن خطورة ما يفعلوه حتى لا تحرجه وسط صحبته.. وعلى الرغم من حرصها، فقد بدا ماجدٌ محرجاً ومتضايقاً وهو يشير لها بيده بأنه باق بالماء.. مالت لتقول شيئاً إلا أن لمسةً خفيفةً على مرفقِها جعلتها تتراجع وهي تسمع نادراً يقول بهدوءٍ: «**دعيه، فهو بأمان معهما، فهما سباحان ماهران، وعاقلان بالماء جداً، فإن استشعرا خطأً أو خطراً ما عليه فسيخرجون فوراً من المياه.. لا تقلقي ودعيه يستمتع بوقته..**».

ردت بعصبيةٍ وعينها متعلقة بماجدٍ الذي كان الآن يقف رأسا على عقبٍ في الماء هو وسامر، بينما ينظر فؤاد بساعته التي أضاءت ذاتياً وكأنه يوقت سباقهما وقد هوى قلبها: «**اجعله يتوقف بالله عليك اجعله يتوقف، فهو غير معتاد على السباحة لفتراتٍ طويلةٍ كما هو الحال مع أقاربك.. أريده خارج الماء الآن..**».. كانت تتحدث بشبه هستيريةٍ أقلقت نادراً، فطلب منها أن تهدأ ومال على السور، وصفَّر بطريقةٍ معينةٍ لفؤادٍ الذي اقترب برشاقة من اليخت. قال حين تأكد من أنه يستطيع سماعه بوضوح: «**سنطلب تقديم العشاء الآن، وأظن أنكم جائعون مثلنا، فمتى ستصعدون؟**.» ردّ فؤادٌ وهو ينظر إلى ساعته: «**ما دمتم جعتم فسنصعد حالاً.. على الرغم من أن الوقت لايزال باكراً على العشاء.. دقائق ونلحق بكم..**».. ابتسم نادرٌ وقال: « **سننتظركم بغرفة الطعام فلا تتأخروا..**».. أشار فؤاد بإبهامه لأعلى وانطلق عائداً كالسمكة إلى حيث ينتظره رفيقاه...

التفت لمهرة التي وقفت ضامةً ذراعيها حول جسمها ولم يدر إن كانت تشعر بالبرد أم أنها لسبب لا يفهمه ارتعبت فجأة.. قال وهو يمسك بمرفقها ليقودها إلى الأسفل ويشير لأحد أفراد طاقم اليخت – والذي كان واقفاً قرب السلم الخشبي لا يفعل شيئا سوى ترقب أي لفتةٍ تبدر من نادرٍ له ليسرع منفذاً أوامره– أن يتبعه: «**أعدوا العشاء، وأيقظوا الآنسة أميرة والآنسة مي ..**».. أومأ الشاب وانطلق لينفذ الأمر إلا أن نادراً استوقفه سائلاً: «**أين السيد حسَّاب؟**».. رد الشاب: «**في غرفته على ما أظن يا سيد نادر.. سأخبره أن العشاء سيُقدم..**».. شكره نادر وقاد مهرة بهدوء إلى غرفة الطعام التي اكتست بالخشب القاتم

من الأرض وحتى السقف... ترك مرفقها ليدعها تجلس على أحد الأرائك التي شغلت الحوائط، تحت نوافذ واسعةٍ منخفضةٍ وقال بعدما استقرت: «**هل هدأتِ؟ أتحتاجين لأن تشربي شيئاً؟ كوباً من الماء ربما؟..**».. هزت رأسها نفياً وقد كرهت نفسها للمشهد الذي افتعلته وأسئلتها الغبية، وكرهت نفسها أكثر لاهتمامها برأيه فيها، ليس لشيءٍ إلا لأنها كانت قد قررت ألا تدع أي رجلٍ يؤثر عليها ثانيةً بعدما غدر بها طارق.. قفز الاسم أمامها كالعفريت فانتفضت... هل كان اتصالها به منذ ثلاثةِ أيام فقط؟!!! وهل يمكن أن يحتل أي مخلوق مكان طارق في قلبها وحياتها.. انتفضت واقفةً تنفض عنها أفكارها فوقف نادرٌ بدوره مستفهماً: «**ما الأمر؟**».. ردت بصوتٍ جافٍ: «**سأعود لغرفتي، فأنا أشعر بالنعاس..**».. اعترض برفقٍ: «**ولكن الوقتَ لا يزالُ باكراً.. أمتأكدةٌ أنك بخير؟ أتحبين أن يعاينك الطبيب؟ بإمكاننا العودة إلى البر فوراً**».. ردت وهي تنظر إليه بغضب لم يفهم من أين نبع: «**جيد.. وحينها يمكنك أن تعيدنا إلى القاهرة إذا سمحت..**». دُهش نادرٌ ولم يُخْفِ دهشته التي غمرت صوته: «**القاهرة؟!! ظننتنا اتفقنا على قضاء إجازة العيد بأكملها هنا، فلِمَ غيرتِ رأيكِ الآن؟**».. قالت بواقعيةٍ: «**لم نتفق على شيءٍ يا سيد نادر، فقد فوجئت بخط سير هذه الرحلة وكل ما فعلته كان أن استسلمت للأمر الواقع.. ولكني لم أعد أرى أن استمرارها أمرٌ صائبٌ وأشعر أنه يجب أن نعود أنا وأخوي إلى القاهرة... وليس عليكم أن تصحبونا، بل يكفي أن تعيدنا إلى البر وسنستقل الحافلة للعودة.. والآن اسمح لي.**».. استدارت ولكنه أمسك رسغها بسرعةٍ سائلاً بصدقٍ: «**إن كان كلامي قد أزعجكِ فاقبلي اعتذاري، ولكن لا تصبي جام غضبكِ على الآخرين، فرحيلكم هكذا سيضايق الجميع ويجعلهم يتساءلون عن السبب.. كذلك فأنتِ تعاقبين كلاً من ميٍّ وماجدٍ وشهدٍ بينما الخطأُ خطئي.. فهلّا راجعتِ نفسك رجاءً؟ وأعدك أن أبقى بعيداً عنكِ لما تبقى من الرحلة.. فقبل كل شيء أنت ضيفتي وراحتك اهتمامي الأول..**»..

(عنكبوت.. يشبه العنكبوت فعلاً.. ينسج شباكه شفافةً رقيقةً جميلةً.. وما علي سوى أن أسقط بها و أنا أفرد جناحي سعادة..)..

قالت بعد لحظاتٍ: «**يا سيد نادر، قد ترى النملةَ مثابرةً مجتهدةً حين تحمل حبة أرز، ولكنك بالتأكيد ستراها حمقاءَ أو مجنونةٍ إن راقَصَت عنكبوتاً..**»..

سحبت يدها من يده و اندفعت خارج الغرفة حيث اصطدم كتفها بكتف أميرة التي ابتعدت تلقائياً لتفسح لها الطريق، ودخلت حجرة الطعام لتجد نادراً واقفاً هناك مقطباً، ينظر إليها وكأنه لا يراها، فسألته بفضولٍ وهي تشير بإصبعها من فوق كتفها إلى الوراء: «**ما بها؟**»... هز نادر كتفيه ورد شارداً: «**رأت عنكبوتاً..**»...



«**الرحلات والفسح، ومن يريدون أن يذهبوا إليها.. لم أعد أعرف ماذا حل بهذا البيت؟!! يذهبون ليقضوا العيد في البحر ويعودون وكأنهم كانوا في مأتم؟!! الطعام بأكمله!! لم يمَسُّ أحدهم صحنه!! لِمَ أرهق نفسي إذاً؟!!**».. هكذا أخذَت كريمة تحدث نفسها وهي تجمع الطعام وأطباق الغداء عن المائدة وآدم يساعدها ويسمع ما تقول دون أن يعلق.. كان يتفق معها ويشاركها القلق، فمذ عاد الجميع قبل أسبوعين، وهو يستشعر أمراً غير مريح، وعلى الرغم من أن تفاصيل حياتهم اليومية عادت تقريباً إلى ما كانت عليه قبلً أن تصيب نادراً تلك الوعكة الصحية، فقد عاد الأخير إلى الانخراط في العمل تماماً والغرق فيه حتى أذنيه، وعاد فؤادٌ وسامرٌ إلى السهر حتى الساعات الأولى من الصباح، إلا أنهما، وتحديداً فؤاداً، قد قللا من الشرب فلم يعد الأخير يعود مترنحاً حزيناً كما كان.. أما أميرة، فعادت إلى صديقاتها واستغراقها في التبضع.. العامل الوحيد المشترك بين الجميع كان الوجومُ وتلك النظرة التي تخبرك بأن هناك خطبٌ ما يعتمل بداخل كل منهم... وقد حاول آدم أن يستفهم تارة من فؤادٍ وأخرى من نادرٍ عما حدث وعن السبب الذي نصب هذه الخيمة من الكآبة فوق رؤوسهم، إلا أنه لم يُخرج من جعبتهما ما يفيد، فقط، ابتسامة مصطنعة من نادرٍ على أعتاب الفيلا وهو يشير بيده ألَّا شيء قد حدث، بينما اكتفى فؤادٌ بهز كتفيه بلا معنىً وتابع قراءة

الجريدة باهتمام.. الوحيدة التي لم يبد عليها أنها متأثرة بهذه الأجواء هي شهد، فمرحها وضحكاتها العالية هي ملمح الحياة الطبيعية الوحيد في هذه الأيام..

«**حتى سامر؟!!! سامر؟!!! الذي لم يكن يتوقف عن المزاح، الآن صار صامتاً شارداً طوال الوقت!!! ماذا حل بهذا البيت؟ لعنة؟!!!!**»، كانت كريمة لا تزال تتمتم بغضبٍ وقد ارتفعت أصوات الصحون والملاعق وهي ترتطم ببعضها بحدة، فأمسك آدم يدها برفقٍ بينما قال بحزم: «**حذارِ يا كريمة.. اهدئي.. اذهبي لتشربي فنجان شايٍ وسأكمل أنا ما تفعلينه، فقد تعبتِ اليوم..**».. ترك يدها فتراجعت تسحب كرسياً وجلست وقد أسندت إحدى قبضتيها على وسطها بينما ركنت كوعها على طرف الطاولة لتسند رأسها على كفها بيأسٍ قائلةً بقلقٍ: «**حين علمت بأن مهرة ستذهب معهم، قلت لنفسي بأنها ستفرج، وأنَّ الحال أخيراً سينصلح، وخصوصاً أني لاحظت أن أميرة تلف حبالها حول فؤاد.. ترى ماذا حدث؟ البنت كذلك لم تعد تأتي لشهد، ولم ترد على اتصالاتي مطلقاً منذ عادوا؟..**» تنهدت وهي تراقب آدم وهو يصُفُّ الأطباق على الطاولة الفضية المتحركة والعبوس الذي يعتلي ملامحه يخبرها بأنه يشاركها إحساسها بالقلق، فأنزلت يدها عن رأسها وتنهدت سائلة للمرة المائة: «**ترى ماذا حدث؟**».. استدار آدم لينقل الأواني إلى المطبخ بينما بقيت هي مكانها تضرب أخماساً في أسداسٍ.. عاد ليجدها لازالت مقطبة الحاجبين و بادرته : «**ماذا لو أن نادراً مالَ لمهرةٍ فغضب فؤادُ وتشاجرا؟**».. زوى آدم ما بين حاجبيه ساخراً من الفكرة بكل تفاصيلها، وحتى كريمة نفسها نفضتها فوراً عن رأسها، فمن جهةٍ لا يمكن أن يحدث هذا بين الأخوين، ومن جهةٍ أخرى لا يوجد دلائل خلافٍ بينهما بل على العكس، فكثيرا ما اختليا ببعضهما في مكتب نادرٍ مساءً إن تصادف وجودهما في البيت في نفس الوقت. كذلك، هو لا يبرر وجوم سامرٍ وشروده... شهقت فجأة ففزع آدم وكاد يسقط الكأس الكريستال من يده وهو يسألها: «**ما بكِ؟ ما الأمر؟!**»..كانت تضع يدها على فمها وقد رفعت حاجبيها من الصدمة، ففي رأسها دار أبشع مشهدٍ قد تتصوره يوماً.. ترك آدم ما بيده وأمسك بيدها بقلقٍ فقالت بفزعٍ: «**ماذا لو أن سامراً تعرض لمهرة بطريقة..**» وأشارت بيدها لتصور

حركات لملامسة أحدهم لجسد المرأة وتابعت: «**هذا هو السبب الوحيد الذي يجعل الجميع على هذه الحالة، ويمنع مهرة من المجيء.. يا إلهي!!! تصور حدوث هذا للفتاةِ المسكينةِ!!**».. صُدم آدم وبقي صامتاً ولكن في صدره كان القلق يصرخ عالياً، فلو صح ما افترضت كريمة حدوثه، وهو افتراض ليس ببعيد، لقلب هذا كل المعايير والتقديرات... أخيراً قال بعدما قلَّب الأمر على كل الوجوه: «**ألا ترينَ أنك انجرفت الآن قليلاً وراء خيالك يا كريمة؟.**». نظرت إليه مستفهمة ثم استدركت: «**بالطبع لا، فلو حدث هذا لطرد نادرُ سامراً من البيت.**».. عقب آدم: «**ليس من أجل امرأةٍ غريبةٍ..**». تبعته إلى المطبخ لتسمع ما سيقول ولكن بدا وأنه قد قال ما لديه فتنهدت ووقفت تشطف الأطباق وتصفها في غسالة الصحون وهي تعود لتمتمتها الغاضبة....



ركن فؤاد سيارته بهدوءٍ في الموقف المحدد لصاحب الشركة. ترجل ووقف ليعدِّل هندامه ويرتدي جاكيت الحلة الرمادية مقفلاً أحد أزرارها بيده وهو يخطو خطواتٍ واسعةٍ واثقةٍ داخل المبنى الضخم لشركته وعبر ممراتها.. تلك الثقة التي اكتسبها على مدار الأيام التي أجبر فيها على القيام بأعمالٍ كان يظن أنه لن يستطيع يوماً فهما، وعلى الرغم من أنه أبقى التعقيدات والتفاصيل الدقيقة مُجَنَّبَةٍ حتى يتعاطى شقيقه معها، إلا أن قدرته على إبقاء الشركة متماسكة وإبقاء أمر مرض نادر سراً قدر المستطاع، حتى لا يضر بسمعة أعمالهم و يثير قلق شركاه في مشاريعهم المتعددة، كل هذا أعطاه الحق في أن يمنح نفسه بعض التقدير وأن يستعيد بقوة الكثير من ثقته بنفسه واعتزازه بشخصه بعدما كان على شفير هاويةٍ سحيقةٍ...

كان سعيداً جداً بعودته لابنته أباً مهتماً ومُحباً، وبتعافي نادرٍ تماماً... لم يشعر يوماً بسعادة كتلك التي اجتاحته يوم تحدث إليه نادرٌ وفتح قلبه ليطلب منه أن يدعو مهرة إلى الرحلة.. كان هذا مفاجئاً جداً، ولمعرفته بطبع شقيقه وأنه

لن يطلب شيئاً كهذا إلا إن كان جاداً، كما أنه يعلم بأن نادراً لن يستطيع أن يبوح بالكثير لسببين، أولهما طبعه الكتوم خاصةً فيما يتعلق بمشاعره ومشاكله، وثانيهما أنه لا يتحدث عن أمر بالتفصيل إلا إن كان متأكداً تماماً من دقةِ وصحةِ ما يقول، وفيما يتعلق بمهرة، فهو لم يلتقيها إلا مرةً واحدةً قصيرةَ الأمدِ، وإنما – على حد تعبيره– شعر بشيءٍ غريبٍ يشده إليها ويثير انتباهه، لهذا أراد فرصةً ليتعرف عليها أكثر ويتسنى له أن يكتشف ويتحقق مما يشعر به.. كاد قلب فؤادٍ يومها يطير من الفرح وعزم على تأجيل خطبته لأميرة، وربما حتى تأجيل الزفاف، فلنادرٍ الحقُّ، بعد كل هذه الأعوام التي أفناها في رعايته والجميع، في أن يحظى بلحظاته المميزة التي لا يقاسمه بريقها أحد...

ولكن سارت الرياح بما لا تشتهي السفن، وانقلبت الرحلة إلى –أقل ما يوصف به الوضع– كابوس، فمع مرور الوقت، صارت مهرة أكثر انطواءً عما كانت، بينما التزم نادرٌ حجرته أغلب الأوقات خلال الأيام الثلاثة الأخيرة للرحلة، وكان حين يغادرها، يتجنب تماما الجلوس إليهم وقد ارتسمت على وجهه أمارات التباعد والجمود... كان هذا كافياً ليعكر مزاج فؤاد، هذا دون التطرق إلى سلوك أميرة معه مذ عرفت بمجيء مهرة وأخواها معهم ذاك اليوم، وبالطبع لم يمر إعلامها بنيَّتِه تأجيل خطبتهما على خيرٍ ولكنه استطاع أن يسيطر على الأمور وألا يدعها تخرج عن دائرتهما...

مر من أمام مكتبه وتجاوزه وقد رد الكثير من تحيات الصباح آليا دون أن ينتبه لمن ألقاها عليه، حتى وصل مكتب نادر ففتح الباب ودلف مباشرة، ليجد نادراً في خضَمِّ اجتماع عبر الفيديو مع أحد أهم شركائه الجدد في شركة مقاولات ضخمةٍ حديثةَ المنشأ في الإمارات.. ما أن رآه نادر حتى أشار إليه بأنه سيكون معه خلال دقائق، فجلس مسترخياً مسترخياً على الأريكة الجلدية الضخمة التي شغلت أغلب الحائط المجاور للمكتب والتي تناسقت بلونها البني الفاتح مع لون الحائط القرمزي القاتم وقد اعتلتها لوحةٌ عريضةٌ لسفينةٍ شراعيةٍ قديمةٍ – من تلك التي كانت تستخدم لغرض الاستكشاف في عصر

النهضة- وهي تضارب الأمواج وسط عاصفةٍ هائجةٍ رفعت أمواجَ البحر حولها من كل جانبٍ وجعلت الزبد الأبيض يتطايرُ عالياً في ثورةٍ وفوضى... لطالما كره فؤادٌ هذه الصور التي تظهر الجانب القاسي من الطبيعة، فمن وجهة نظره، كل ما حولهم في الحياة قاسٍ وجاف، فلتكن الطبيعة والفن بجمالهما هما حيث يستريح العقل والقلب، لا العكس...

انضم نادرٌ إليه بعد ما يزيد عن النصف ساعة، والتي لم يشعر فؤادٌ بمرورها وهو يراقبه، دون أن يتمالك نفسه من أن يبدي إعجابه بأسلوبه في تناول الأعمال والتعاطي مع المشكلات، ما جعل نادر يربت على ركبةَ شقيقه وهو يجلس إلى جواره ويرخي عقدة ربطة عنقه قليلاً فاتحاً الزر الأعلى من قميصه ويقول ببساطةٍ: «**تستطيع أن تقدم أفضل من هذا لو اهتممت بأن تتولى الأمر.**».. ابتسم فؤاد ونظر لحظاتٍ إلى نادر... لا يستطيع القول بأنه يبدو بائساً، ولكنه يستطيع أن يجزم بأنه ليس سعيداً على الإطلاق... فقد عاد نادر، ليكون نادر!! وليس ذاك الشخص المبتسم ببساطةٍ وشرودٍ، وقد أشرق وجهه بوضوحٍ قُبَيل الرحلة الأخيرة.. إن أخاه يستحق أفضل من هذا، لهذا قرر أن يدخل في صلب الموضوع مباشرة، فاعتدل وقال بجديةٍ: «**سأتحدث دون مواربةٍ في موضوع مهرة، وسأفترض أنك ستكون صريحاً معي... هل صرفت نظر عن الموضوع برمته؟ أعني، هل كشفت لك الفترة التي قضيتماها معاً بأنك كنت مخطئاً بشأن ما شعُرت به نحوها، وأنه لم يتعد كونه فضولاً، لا أكثر؟**»..

زفر نادرٌ وأرجع رأسه إلى الوراء ليسندها على ظهر الأريكة العالي مغمضاً عينيه لدقيقةٍ وهو يتذكر مهرة بوجهها الأسمر الشاحب المرتعب في آخر مرةٍ تحدثا فيها معاً.. لم يكن يشأ أن يتحدث عنها أو عن الرحلة أو أياً كان مما يتعلق بها، ولكن فؤاداً وضعه في موقفٍ لا يستطيع أن يتجنبه فقال بصوتٍ لم يحمل شيئا مما يعتمل بداخله وهو يعيد رأسه إلى الأمام: «**لم تسِر الأمور كما توقعت، لا أكثر.**».. قال فؤاد وهو يميل إلى الأمام: «**أعرف كيف سارت الأمور، لقد رأيت هذا بعيني..**»، أشار إلى صدر نادر مكملا: «**أنا أسأل عن هذا؟ هل فعلاً تُكِن لها أي**

مشاعر أم أن اهتمامك بها لم يكن له مبرر.».. أبقى نادر عينيه معلقتان بعيني أخيه دون أن ينطق، ولكن بالنسبة لفؤاد فقد سمع أكثر مما يكفي من تلك النظرة...

قال نادر بعد لحظاتٍ: «**كيف هي؟**».. رفع فؤادٌ كتفيه ومط شفتيه قائلاً وهو يرفع أحد حاجبيه: «**لا أدري.. لم أقابلها أو أتحدث إليها مذ عدنا.. لم تعد تأت من أجل شهد من الأساس..**». مط نادر شفتيه بدوره دون تعليق..

طرقٌ خفيفٌ على الباب شتت انتباههما عن الموضوع، وتابعا بهدوء نهلة وهي تقترب حاملةً ملفاً ضخماً، و ما أن اقتربت من نادرٍ حتى قال فؤادٌ بابتسامةٍ عريضةٍ: «**كلما رأيتك يا نهلة أسأل نفسي نفس السؤال.**».. ابتسمت لعلمها بأنه على وشك مداعبتها بإحدى مغازلاته المازحة، فسألته مجارية مزاجه: «**وما هو هذا السؤال الصعب؟**».. كان نادر يقرأ بعض الملاحظات التي دونتها بخطها الدقيق المميز، غير مهتم بما يدور بينها وبين فؤاد، فيما تعلقت عيناها بقمة رأسه ترقب أي إشارة تبدر منه لتمتثل لطلبه فوراً، فكفاءتها وقدرتها على أداء ما يوكل إليها من مهام بدقة وسرعة كانت ميزة يحسدها عليها كل موظفي الشركة، وهي التي أهلتها لتكون في أقرب موقع لربِّ عملها.. كما تدرك أيضاً بأن مظهرها وجمالها جزءٌ لا يتجزأ من الصورة الكاملة لشخصيتها، ولا تنكر أبداً بأنها تعيرُهما نفس الاهتمام الذي تعيره لصقل مهاراتها الوظيفية... ارتدت اليوم فستاناً أصفرَ ضيقاً فاتح اللون يغطي ركبتيها منقوشاً بخطوطٍ رماديةٍ فاتحةٍ تتقاطع لترسم مربعاتٍ دقيقة وضم خصرَها حزامٌ عريضٌ رماديّ، وقد تركت الجاكيت الأصفر القصير ذو الإطار الرمادي على كرسي مكتبها في الخارج، فكشفت عن ذراعين رشيقتين ورقبة عاجية زادها شعرها المرفوع على شكل ذيل حصانٍ طولاً.. بدت جميلةً بسيطة، ومحترفة... كانت ملتزمة بالأسود والأبيض والرمادي كألوانٍ رسمية، إلا أن تعليق نادرٍ المقتضب على اختياراتها: «**ألوانٌ يا نهلة، اجلبي بعض اللون إلى الشركة، فهي ليست مأتماً..**»، جعلها تعتمد الألوان في زيها منذ ذاك اليوم، مع حرصها على إبقاء زيها في حدود المعقول باختيار ألوانٍ فاتحةٍ حياديةٍ غالباً.. كانت تحب هذا الفستان،

فهو هدية من نادر اشتراه لها حين كانا في روما العام الماضي لحضور افتتاح شركة أحد أصدقائه...

انتبهت من أفكارها لفؤادٍ وهو يرد على سؤالها: «**أتساءل ما الذي يجعل فاتنةً مثلك تدفن نفسها تحت أكوام الورق فيما تستحقين أن تكوني عارضة أزياءٍ، أو نجمةٍ سينمائيةٍ... تعلمين أن بإمكاني أن أتحدث إلى بعض معارفي، وبغمضة عينٍ ستملأ صورك الميادين واللافتات العملاقة..**».. ضحكت وقال نادر وهو يغلق الملف ويسلمها إياه بعدما كتب بعض الملاحظات بدوره: «**ومَن قال لك بأنني سأسمح لك بأن تسرق مني أفضل موظفة لدي في الشركة.. إن رؤيتها كل صباح هي الشيء الوحيد الذي يمنحني الصبر والقدرة على البقاء بالمكتب طوال اليوم..**». أشار لها برأسه أن تنصرف وبعدما أغلقت الباب وراءها وقف فؤادٌ بدوره وقال وهو يغلق زر الجاكيت: «**سأذهب الآن، فهل تريد شيئا مني؟**».. قام نادرٌ وسار بجوار شقيقه وقد وضع يديه في جيبي سرواله الأزرق وهو يهز رأسه نفياً...

أغلق الباب وراء فؤادٍ و عاد ليجلس خلف مكتبه ويفتح درجه السفلي بمفتاحٍ صغيرٍ أخرجه من جيبه.. أخرج صورة مهرة وأخويها وطالعها في صمتٍ. كان يتساءل في كل لحظةٍ إن كان قد أخطأ في عدم الإفصاح لها عن نواياه، ووضع الأمور بوضوح أمام عينيها، فعلى الأقل كان سيقف الآن على أرضٍ ثابتةٍ حتى وإن ردت عليه بالرفض.. هو لا يعرف ما حدث ولا كيف أفسد الأمر، كما لا يعرف كذلك لمَ امتلكت عليه عقله، بل والأكثر، قلبه، تلك الفتاة البسيطة؟!! فليست أجمل من رأت عيناه ولا أكثرهن تشويقاً، ولكن بها جاذبيةٌ كجاذبيةِ القمرِ حين يعبث بموج البحر.. لم يدر إن كان ما يشعر به في صدره هو ألم يرجع إلى إصابته السابقة، أم أن قلبه يحاول أن يخبره امراً! ليس معتاداً على عدم فهم نفسه وتحديد رغباته، ولكنه لدهشته لم يكره هذا الإحساس، بل على النقيض، كلما ازدادت حيرته، كان يشعر بأن تعلقه بها يزداد.. و كلما مرت الأيام ، كلما برزت ملامحها في خياله بوضوح أكبر بقامتها القصيرة وبشرتها السمراء الجميلة وتلك النظرة التائهة الحزينة التي تطفو فوق

عينين بنيتين متسعتين دائما حيرة و ترقباً... أحب تفاصيل وجهها، وملامح شخصيتها وكلامها المتلعثم.. أحب حدتها وخوفها، وأراد أن يُطمئنها، وأن يحمل عن أكتافها الدقيقة، ذاك الحمل الثقيل الذي ترزح تحت ثقله... تمنى لو استطاع أن يضع تحت قدميها كل امكانياته وأن يقدم لها كل ما يمتلك من ترفٍ لتعيش كما تستحق أن تعيش فتاةً بمثل هشاشتها وطيبتها... وكثيراً ما تساءل، أويمكن أن يكون ما يشعر به تجاهها ليس سوى شفقةٍ أو شعورٍ بالذنب لرؤيته إياها تُكوَى بلهيب الحياة التي لا ترحم فيما يتنعم هو، وهو الرجل القوي، بكل هذه الرفاهية؟ وإن كان هذا صحيحاً، فلِم مهرة بالذات؟! فقد قابل الكثيرين والكثيرات ممن طحنتهم الحياة بين شقيّ رحاها ولم تتعد مشاركته بمشكلاتهم أكثر من بضع كلماتٍ رقيقةٍ ونفحةٍ ماديةٍ كريمةٍ!! لا.. ما يشعر به نحوها مختلف، ولكنه لا يدري ما العمل الآن بعدما سدت بوجهه باب الوصال فلم يعد، وفقاً لما هو عليه الحال الآن، قادراً على أن يفعل شيئاً...

حسنٌ، ربما الحل الوحيد هو أن يعود لعزلته وانغماسه في العمل كما اعتاد، وستتكفل الأيام بمحوها وذكرى الأيام السبعة من ذاكرته كما يمسح الموج أثر الأقدام عن الرمال، فبعد كل شيء، لم تزد علاقتهما عن بضع كلماتٍ في سبع أيام...

تنهد بعمقٍ وهو يستند إلى الوراء ويتأمل مهرة بابتسامتها الواسعة وهي تحتضن ماجداً وميّ بسعادةٍ قائلاً بصوتٍ مسموعٍ: «**وياها من أيامٍ سبع!!**»..

أعاد الصورة حيث كانت وأغلق الدرج ثانية بالمفتاح، ليعيده إلى جيبه... ذاك الذي بجوار قلبه....



لا زال كل شيء يتمايل ويتهادى كمهد طفلٍ صغيرٍ، برفقٍ وحنانٍ، والحلم الدافئ يلاطف أجفانها المفتوحةً بنعومةٍ... كما لا تزال الذكريات تنساب كالموج، واحدة تلو الأخرى، بتتابع رتيب هادئ..

تذكرت فنجان الشاي الساخن الضخم الذي كانت تحدق به لتتهرب من نظرة فؤاد الثاقبة وهو يحدق بها وبكفيها المتشابكتين حول الفنجان بتوترٍ.. تذكرت بالتفصيل هذا اللقاء الذي تبع اتصاله بها وطلبه لقائها ودعوتها على الغداء، وحين رفضت طَلَبَ مِنها أن توافق على احتساء كوباً من الشاي بصحبته حيث لديه أمرٌ هام يرغب بمناقشته معها، وإن كان حتى ببيتها، ما أفزعها فأخبرته بأنها ستلقاه بشارع عباس العقاد حيث انتظرها في سيارته ثم صحبها إلى مقهىً فخماً بأحد المولات القريبة...

اكتفت بطلب كوب من الشاي بينما طلب لنفسه فنجاناً من القهوة التي يسمونها إسبريسو وسألها وهما ينتظران طلبهما عن مي وماجد، وأوضح إعجابه الشديد بهما، فشكرته بابتسامةٍ مقتضبةٍ... انتظرت حتى فرغ النادل من وضع طلباتهما أمامهما وانصرف لتقول معتذرةً: «**أنا آسفة يا سيد فؤاد، ما كان يجدر بي أن أختفيَ هكذا دون كلمة شكرٍ على الرحلة الرائعة التي تكرمت بدعوتي وأخوي إليها.. فأرجو أن تقبل اعتذاري..**».. أشار بيده لها لتتوقف وقال بعفويةٍ: «**أرجوك يا مس مهرة، لا داعي للشكر.. وجودك كان مبعث سرورٍ لنا.. على الرغم من أنني أظن بأننا ضايقناكِ بشكلٍ أو بآخر، دون قصد بالتأكيد.. ولهذا يبدو لي أن من واجبي أنا أن أعتذر منكِ..**»..

أحرجها أدبه فمررت يدها بشعرها بتوترٍ، وثبتته خلف أذنها وهي تهز رأسها نفياً... سألته: «**كيف هي شهد؟ لقد تعلق بها الأولاد جداً، حماها الله، طفلةٌ رائعةٌ بحقٍّ..**». رد مازحاً: «**ولهذا تركتِها؟..**». همت بالرد ولكنه تابع وهو يميل إلى الأمام: «**حقاً يا مس مهرة، ما الذي حدث ليغير الأجواء هكذا؟.**»... سكتت وحدقت في فنجانها...

عبثها بحافة كُمِّ بلوزتها البنية الذي ظهر من تحت معطفها الأخضر أبلغَ فؤاداً كم هي محرجةٌ وعاجزةٌ عن التعبير.. تأمل حركة أناملها العصبية، ولم يفته أن يلمح أثر خاتمِ خِطبةٍ حيث كان جلدها مكانه أفتح من باقي بشرتها... رقّق صوته ليشجعها على الحديث وهو يقول: «**أيمكن أن أطلب منك خدمة؟.**»،

لم ترد، فلم يبدو وكأنه يسألها بالفعل، وتأكدت حين تابع دون أن ينتظر ردها: «**اعتبريني صديقاً.. أو أخاً أكبرَ.. صدقيني، مهما كان ما ستقولينه فلن أخبر به أحداً أياً كان.. كما أعدك أن تجديني متفهماً جداً.. أرجو أن تريحيني من هذا القلق، فإحساسي بأن هناك من أو ما أساء إليك بعدما دعوتك بنفسي للقدوم معنا يصيبني بالغضب وتأنيب الضمير وأشعر بالاستياء الشديد لأجلكِ.. فهل يمكنك أن تثقي بي؟.**».. ردت فوراً: «**بالطبع يا سيد فؤاد.. أنا بالفعل أعتبرك أخاً، وأحترمك، وبالتأكيد أثق بك، وإلا لما اصطحبت أخواي للذهاب معكم في الرحلة..**».. فسألها بسرعة: «**إذا ما الأمر؟ ماذا حدث؟**». قالت بعفويةٍ: «**لا شيء.. فقط شعرت بأن.. أنا....**». لعقت شفتها السفلى ثم عضتها بقوة، فكيف يمكن أن تصيغ بأسلوبٍ مهذبٍ أنها شعرت بأنه وشقيقه يتلاعبان بها؟!! لم تدرِ كيف تُكمِل جملتها فهزت كتفيها يأساً ونظرت إليه مبتسمةً وهي تقول: «**صدقني لم يضايقني أي شيءٍ من أي شخصٍ.. فقط أشياءَ وأفكارَ لا معنى لها، تدور ببالي.. هذا كل شيء.**».. رد متفهماً حرجها: «**حسنٌ، يبدو أنك لن تخبريني..**». أرادت أن تعترض ولكنه أشار لها بأن تنتظر وتابع وهو يرفع فنجانه: «**ربما إن سألتكِ بطريقة أخرى قد أشجعكِ على البوح بما لديكِ. ولكن أولاً فلتشربي شايَكِ قبل أن يبرد.. أمتأكدة من أنك لا تريدين شيئاً مع الشاي؟..**».. «**نعم، شكراً..**» ردت بأدب وهي تتناول فنجانها.. فاجأها: «**من هو طارق؟.**». سقط فكها السفلي للحظةٍ ثم تمالكت نفسها فاعتدلت وأرجعت شعرها خلف أذنها ثانيةً قائلةً بصراحةً: «**اسمح لي أن أهنئك على ذاكرتك يا سيد فؤاد، وعلى الرغم من أنني لا أرى سبباً يجعلك تهتم بهذا الأمر تحديداً، كما لا أرى أن له علاقةً بالرحلة، إلا أنني سأخبرك لأنه موضوعٌ تافهٌ وحتى تدع هذا الأمر جانباً، طارق خطيبي، أو بالأصح، كان خطيبي وانتهى كل شيءٍ مؤخراً..**».. انتبه فؤاد كثيراً واقترب من الطاولة أكثر وهو يسألها باهتمام: «**هل تحبينه؟.**»... (نعم، أحببته بكل ذرة من كياني... وأحتقر نفسي لهذا..).. ردت بعصبيةٍ: «**هذا سؤالٌ شخصيٌّ جداً ولا أظن أنه من المناسب أن تسألني إياه، على الأقل دون أن توضح السبب.**». ألحَّ متجاهلاً استنكارها: «**ولكن هل تحبينه..**». لا تدر لِمَ كذبت، ولكن شيئاً ما دفعها لتقول باقتضابٍ: «**بالطبع لا، وإلا لما**

تركته.»، ليس كبرياؤها وإنما شيءٌ آخر أخبرها بأن هذا هو الرد المتعقل الذكي ترقباً لما سيتبعه..

«**ولهذا كنتِ متلهفةً لاستقبال اتصاله ليلة العيد؟ ولهذا أيضا تضايقت حين وجدت أنني المتصل وليس هو؟ أخبريني يا مس مهرة، متى تركتِه تحديداً؟**».. ردت بعصبيةٍ وغضبٍ شديدين وهي تعدل وضع حقيبتها وتهم بالوقوف: «**لم أكن أعلم بأني هنا في مجلس تأديبٍ! اعذرني ولكن لدي عملٍ ومضطرةٌ للانصراف..**». توقفت لتقول دون أن تعرف أو تتذكر الآن سبباً لهذه المبالغة من قِبَلِها: «**واعلم يا سيد فؤاد بأن استهتاركم وتلاعبكم بمشاعر الناس لمجرد أنكم أثرياء هو أمرٌ مشينٌ ولا يليق بأناسٍ محترمين.**». ندمت فوراً على ما قالت ولكن الأوان كان قد فات على التراجع، ونظرة فؤاد المشتعلة غضباً لم تترك لها خياراً سوى الهرب منها، فأسرعت تغادر المقهى دون أن تنظر خلفها. تعجبت من أين أتتها هذه الجرأة!!.. وقفت على الرصيف العريض تنتظر كي تعبر الشارع وعقلها مشغولٌ بالألم الذي سببته كلمات فؤاد. كانت سيارات الأجرة تبطئ السير حين تمر من أمامها، وهي تتجاهلها وتكتفي بالتحديق يمنةً ويسرةً. لمسةٌ خفيفةٌ لكوعها جعلتها تلتفت بسرعةٍ لتقع عيناها على كتف فؤادٍ الذي وقف قريباً جداً منها، فرفعت نظرها لتلتقي عيناه التي تفاجأت بها وقد غادرها بريق الغضب الذي اتَّقد إزاء كلماتها الهجومية وتعليقها الجارح بشأنه هو وعائلته.. كان يبتسم بهدوءٍ وقال لما لاحظ أن رشدها قد عاد: «**اسمحي لي أن أوصلك يا مس مهرة، ليس من باب التباهي، وإنما من باب الأصول.**»، غمز بعينه مُمَازحاً فخجلت إذ ذكَّرها بكلماتها التي لم يكن لها أي داع أو محلٍ من الإعراب في الحوار الذي دار بينهما، لذا ردت بصدق: «**آسفة.**». لم تجد ما تضيفه فصمتت. كان الجو رمادياً و الهواء خفيفاً بارداً، وبدت أمام فؤادٍ بقامتها الضئيلةِ ضعيفةً خائفةً. فهم ما لفت نظر أخيه إليها في المقام الأول، فمجرد تخيل هذه المخلوقة الصغيرة بشبابها وضعفها تدفع جبلَ الحياة في مواجهةِ الريح لتدرأ عن إخوتِها برودتها وبأسها، لهو مشهدٌ يخلب الألباب، وكأنها لوحةٌ خرجت من إحدى روايات الأدب الروسيِّ الحزين..

قال ببساطةٍ: «**انسَي الأمر.**».. سار وسارت بجواره إلى حيث أوقف سيارته، ودلفت إلى مقعدها برفقٍ بعدما فتح لها الباب بكياسةٍ.. تبعته بعينيها وهو يدور حول السيارة ليجلس خلف المقود وينطلق بالسيارة وسط سيل السيارات المندفعة، منتظرةً أن يتحدث ليسألها عمَّ قصدت بتعليقها الحاد، ولكنه بدلاً من ذلك سألها عن وجهتها ثم بقي صامتاً لفترةٍ ليست بقصيرةٍ قبل أن يقول ببساطةٍ: «**أترينَ هذا الجمال؟ مهما سافر المرء، لا يشعر في أي مكان بالعالم كما يشعر وهو يسير في شوارع قاهرة المعز.. أتصدقين هذا؟**».. نظرت إلى خارج السيارة الدافئة علَّها ترى ما يقصده من جمالٍ، فلربما قد فاتها شيءٌ، لانشغالها وجريها هنا وهناك، فلم تجد سوى ما أَلِفته عيناها من أرصفةٍ اختفت تحت أقدام آلاف المارةِ العابسين، وشوارع تغطت مناطق منها إما بِبِرَكٍ من ماء المطر الراكد منذ يومين أو ماء ماسورة مياهٍ أو صرفٍ منفجرةٍ، ناهيكَ عن الزحام الشديد للسيارات، والمرور المتعسِّر، عادت إليه بنظرةٍ مستغربةٍ قائلةً دون مجاملةٍ: «**بصراحةٍ؟ لا..**».. ضحك ولم يعلِّق. بعد دقيقة أو اثنتين قال بلطفٍ ليعود بهما إلى موضوعهما وإنما من بابٍ جديدٍ: «**طيِّب وما ذنبُ ابنتي أنا في كل هذا؟**». قالت بحرجٍ: «**والله إنني أحبُّ شهداً بلا مُبالغة، كما أحب مي وماجد.. ولكنِّي أشعر بأن وجودي بعدما حدث سيكون فيه حرجٌ كبير.. كما ..**»، قاطعها بسرعةٍ: «**والذي هو؟**». تنهدت وأجابت بتردُّدٍ وهي تختار كلماتها: «**حدث سوء تفاهم بيني وبين السيد نادر، ومذ ذاك الحين وخلال باقي الرحلة، تجنبنا التحدث معاً.**». بدا عليه الاستماع باهتمامٍ على الرغم من أنه لم يحوِّل نظره عن الطريق، وحين وجد أنها لن تضيف شيئاً قال هازاً رأسه ببطءٍ: «**أها، أها... مُلفِتٌ جداً أن اعتبرته سوء تفاهم. عمَّ كان سوء التفاهم ذاك؟**».. رفعت حاجبيها قائلةً بصدقٍ: «**بصراحةٍ، لا أدري ما حدث.. كان كلاماً عادياً ثم.. أنا.. هه.. تحدَّثتُ بعصبيةٍ وانفعلتُ وقلتُ أشياءً غريبةً..**».. سأل فوراً: «**كتلكَ التي قلتِها منذ قليل؟**»، فردَّت مُحرجةً: «**تقريباً..**».. سأل مؤكداً: «**فقط؟!**»، أجابته: «**أجل.**» التفتت لترى ردةَ فعله فلمحت شبحَ ابتسامةٍ عند طرفِ فمه لذا أعادت عينيها إلى الطريق تتأمل الجمالَ المزعومَ لشوارع (قاهرة المعز). قال فؤادٌ شيئاً فالتفتت تسأله: «**نعم؟**»..

ظنَّها تستهجن استنتاجه فرفع حاجبه قائلا: «**لم أقصد سوءاً، فقط كنت أحاول أن أربط الأمور ببعضها. ل..**»، ولكنها قاطعته موضحةً: «**لا، لم أسمع ما قلتَ يا سيد فؤاد، فكنتُ أسألك عنه**»... فكرَّر ببساطةٍ: «**أنتِ ألمحتِ لشعورك بأننا نتلاعب بكِ وأشياء من هذا القبيل.**».. هزت رأسها بصمت ولم يعلق، ولكنها وجدته ينحرف بالسيارة إلى طريق جانبي، مغيراً وجهتهم إلى حيث لا تدري فقالت لتنبهه: «**ليس هذا هو الطريق.**».. «**أعلم.**».. كلمة واحدةٍ بصوتٍ هادئٍ أسكتتها تماماً.. أوقف السيارة بعد قرابةِ الساعة، أمام مبنىً ضخم، ظنته في البداية مولاً تجارياً أو فندقاً ما ليجلسا بأحد المقاهي ويُكملا حديثهما، إلا أنه استدار إليها وأشار برأسه إلى المبنى وهو يستند بكوعه على المقود وبيده اليمنى على ظهر مقعدها مقترباً ليسألها بلهجةِ من يُحدِّث طفلةً صغيرةً: «**أتعرفين أين نحن؟**»، قال حين هزت رأسها نفياً: «**هذا مقرُّ عملي، تركت شيئاً هاماً، سأحضره وننصرف بعدها.. فهل يمكن أن تنتظريني لدقائقَ قليلةٍ في مكتبي وأعدك ألا أتأخر.**». قالت وهو تضيق عينيها: «**والله لا أحاول أن أكون فظةً يا سيد فؤاد، ولكن لدي موعد مع تلميذٍ وبالفعل تأخرت عليه.. كان يمكن أن تنزلني في..**». استخدمت تعبيرات وجهها ويديها لتكمل عبارتها مشيرة إلى أنها لا تستطيع التأخر أكثر وصعقت حين قال قبل أن يترجل من السيارة ويستدير حولها ليفتح لها الباب لتنزل: «**إذاً لا داعي للاستعجال، فقد تأخرت بالفعل ولن تصلي في الموعد مع الزحام المتزايد الآن، أقترح أن تتصلي لتلغيه.**»..

نزلت متظاهرةً بأنها لم تلحظ يده الممدودة ليساعدها ووقفت تنظر إلى الأعلى.. رأت حروفاً لم تمثل لها شيئا فسألته بأدبٍ: «**ما اسم هذه الجريدة؟ هل هي أجنبية؟.**».. رد مبتسماً: «**ليست جريدة يا عزيزتي.. ليست جريدة.**».

رافقها عبر الممراتِ بصمتٍ، وعقله يوازن أموراً عدةً من جوانبَ عدةٍ أيضاً.. لم يكن واثقاً تماماً مما يفعل ولا من صحته أو نتائجه.. ولكنه اعتاد أن يفعل ما يراه صحيحاً في لحظتها بمثل هذه المواقف وليترك القدر يقرر ما إن كان مُصيباً أو مُخطئاً..



أضاءت ممرات الشركة بأضواءٍ باهرةٍ أحالت داخلها إلى نهارٍ منيرٍ، على عكس الخارج الغائم المعتم.. سار فؤادٌ ويديه بجيبي سرواله مُصفِّراً وقد أشرق وجهه ابتهاجاً واستبشاراً.. استقبلته السكرتيرات في مكتب السكرتاريا الملحق بمكتب نادرٍ بابتساماتٍ عريضةٍ وقالت أصغرهن سناً: «**مساءُ الخير يا سيد فؤاد، السيد نادرٍ باجتماع الآن..**». أومأ وأكمل طريقه إلى قاعة الاجتماعات حيث وَجَد نادراً واقفاً يراجعُ بعضَ الأوراقِ وبجواره نهلة تشيرُ بقلمِها إلى بعض النقاط وقد خلَع عنه جاكيت البذلة البني وأرخى ربطةَ العنقِ قليلاً، فتَبَسَّم قائلاً وهو يتكئ بكتفه على جانب الباب: «**أمتفرغ؟**».

رفع نادر حاجبيه للحظةٍ وكأنه يستوعب وجود فؤادٍ المفاجئ، ثم أجاب وهو يبسُطُ يده مشيراً إلى الجالسين: «**أكيد.. كالعادة..**». عاد إلى الأوراق مشيراً لفؤادٍ بأن يدخل والذي بالفعل كان قد تقدم مختالاً تحت نظرات نهلة الضاحكةِ..

اتكأ وكأنه يجلس على حافة الطاولة مواجها لنادرٍ ومولياً الباقين ظهره بعدما سلم عليهم، فيما عقد ساعديه أمام صدره وهو يميل على أذن نادرٍ هامساً: «**مهرة بمكتبي.**».. رفع أخوه رأسه بحدةٍ ونظر إليه مستفهماً فكرَّرَ مبتسماً: «**نعم، بالضبط كما سمعت.. مهرة بمكتبي الآن.**».

مال نادر نحوه قائلاً بعصبيةٍ دون أن يرفع صوته: «**عمَّ تتحدث؟ أتتصرف من دماغك؟ لِمَ فعلت هذا؟ ما المفترض أن يحدث الآن؟**»..

رد فؤاد بسماجةٍ واستخفافٍ: «**بالطبع أتصرف من دماغي! وهل هناك أفضل منها هنا؟! أما ما المفترض أن يحدث الآن، فهو مَنوطٌ بكَ أنت يا حبيبي وليس بي. أنا أحضرتها حتى بابك، حرفياً، وليس عليَّ أن أفعل أكثر من هذا، فإلى هنا وينتهي دوري.**».. أمسك نادرٌ بيدِه وقاده إلى حجرة المكتب ليقول فور ما دخلاها: «**أنت تمزح يا فؤاد، ماذا تفعل؟**». «**أحاول أن أساعدك يا نادر، مالك متردِّدٌ هكذا؟ تقدَّم، خذ قرارك، ما بك؟**»..

عقد أخوه ساعديه أمام صدره سائلاً باستهجانٍ: «**وهل من الطبيعي أن أطلب الزواج من إحداهن بعد لقائها مرةً أو اثنتين؟**».. ردَّ فؤادٌ بهزةٍ خفيفةٍ من كتفيه معقباً: «**طبيعيٌّ لمن؟ لما؟ بالتأكيد، فالفتيات يعشقن فكرةَ أن تقع بهواهن من النظرة الأولى، وأكثر أكذوبةٍ يمِلن لتصديقها هي أنك عرفت بأنها امرأتك لحظةَ وقعت عيناكَ عليها... لك؟ لا، ليس طبيعياً، بل ليس طبيعياً أن تتقدم لإحداهن على الإطلاق، ولكن لما تشعر به نحوها من اهتمام وارتباك، أرى أن من الطبيعي أن تمنح نفسك الفرصة علَّك تجد سعادتك معها، فلَم أركَ تنجذب لأيٍّ كانت كما أراكَ الآن... لي؟ ومنذ متى وأنا أتصرف بطبيعية؟.. ثم ما هو طبيعي وما ليس طبيعياً، منوط بالأشخاص والمواقف.. ليس هناك قاعدةٌ لقياس الخطأ والصواب هنا.. أتفهمني يا حبيبي.**»..

كان نادر يحكُّ ذقنَهُ وهو يستمع إلى فؤادٍ وعقله يميل لتقبل كلامه . نظر إلى الخارج ولكنه رأى انعكاس صورته على الزجاج حيث أظلمت السماء في الخارجِ تماماً فتأمل صورته للحظاتٍ ثم سار نحو البابِ قائلاً لفؤادٍ من خلفه: «**أكملَ أنت الاجتماع بدلاً عني..**».

تحرك فؤادٌ بعدما أغلق أخوه الباب وراءه، فقال ساخراً: «**بالتوفيق يا شقيقي العزيز.**»، ثم عاد إلى قاعة الاجتماعات حيث تعلقت به عيون الجميع وهو يسير بهدوءٍ ليجلس على قمة الطاولة قائلاً وهو يهز كرسيه يمنةً ويسرةً: «**سأتابع أنا الاجتماع، فقد طرأ أمرٌ ما واضطر نادرٌ للمغادرة..**».. سمع همهماتٍ و رأى بعض الموجودين يميل على زميله هامساً، فقال بالانجليزية ممازحاً ما أضحك الحضور: «**هذا ليس عدلاً.. ما هذا السلوك!!.. هيا الآن، فقد تحسنت في العمل كثيراً، حتى أني صرت أجيد استخدام الآلة الحاسبة.**»..

مالت نهلة على أذنه من خلفه هامسةً: «**هل كل شيء على ما يرام يا سيد فؤاد؟ أرجو ألا يكون هناك سوء..**»..

رد بابتسامةٍ عريضةٍ: «**اقرئي وجهي يا عزيزتي.. هل ترينَ ما يُقلق؟.**»، وأكمل حين هزت رأسها نفياً: «**فقط أمرٌ خاصٌ استدعى وجوده شخصياً... أمرٌ سارٌ بإذن الله..**». تركها واستدار ليتابع العمل بينما وقفت هي تضرب أخماساً في أسداسٍ، وفي قلبِها دق ناقوس الحذر.

٦

دوارٌ لطيف لف رأسها فتمسكت بالحافة المعدنية برفقٍ وأغمضت عينيها رافعةٍ رأسها لتغسل وجهها بضوء شمس الشتاء الحانية.. شعرها المتطاير لامس وجهها بخفة ذكرتها بلمسة القماش الأبيض الرقيق على بشرتها قبل ليلتين.. رجعت خطوةً إلى الوراءِ ليصطدم جسدها بالواقع الذي أثبت لها أن ما عاشته وما كانت تتذكره، لم يكن حلماً.. وأن الجسم القوي الذي أسندها كيلا تتعثر حقيقيٌ أكثرَ من أي حقيقة أخرى في حياتها.. التفتت بسرعة لتلتقي عينيها بعيني زوجها ذوات النظرة الأكثر حنواً في العالم، وابتسامته الدافئة تلامس خدها بقبلةٍ متأنيةٍ أودعها أكثر مما تحتمل الكلمات من حبٍ ورغبةٍ، فأراحت كفيها على صدره وانتظرت لحظاتٍ قبل أن تبعده برفقٍ وخجلٍ، إذ استحت من العامل الشاب الذي لم يكن يقف ببعيدٍ عن مرمى بصرها، وقالت بخفوتٍ: «**لسنا وحدنا يا نادر.**».. قال وهو يميل ليطبع قبلة سريعة على طرفِ أنفها: «**أنت من رفضت السفر للخارج واخترت الخروج باليخت، ولَّو كنت استمعت إلى لكنا الآن على شواطئ مالاجا أو ابيزا نستمتع دون أن نُلقي بالا لمن حولنا.**».. استدارت لتهبط قبلته على قمة رأسها وهي تبتعد مبررةً للمرة الألف سبب رفضها السفر خارج مصر: «**قلت لك مراراً بأنني لم أبتعد عن إخوتي أبداً، فكيف لي أن أتركهما وأغادر البلاد تماماً؟ لا، لا أستطيع تصور هذه الفكرة ولا يمكنكَ تصور حجم قلقي**

عليهما الآن..». ابتعد هو الآخر ليجلس على المقعد المثبت بجوار الإفريز ومدَّ ساقيه باسترخاءٍ قائلاً بكسلٍ: «**تتحدثين وكأنهما طفلان صغيران لا يستطيعان تدبر أمرهما إطلاقاً.. أو كما لو أنك تركتهما وحدهما وسط الصحراء وليس مع عائلتهما.**»..
وقع كلمة (عائلة) كان غريبا على أذنيها، لكنها لم تعلق، واكتفت بالتحديق في الفراغ... أمسك بيدها وشدها لتجلس فوق رجليه مكملاً وهو يبعد شعرها الذي تطاير حول وجهها: «**عليك أن تهدئي قليلاً يا حبيبتي. ألقِ كل حملكِ وما يقلقك فوق أكتافي.. أريدكِ أن تنسَي كل ما فات وأن تستغلي كل ما لدي كيفما تشائين يا حبيبتي.. لا أريد أن تفارق البسمة وجهك أبداً ثانية.. كفاكِ تعباً وشقاءً.. هل تسمحين لي بهذا الشرف؟ أن أكون صديقك وحبيبك الذي تنسين معه كل ألمٍ وهمٍّ، والذي تلجئين إليه في أصغر الأمور قبل كبيرها؟.**»... (وهل أكرر ذاتً الخطأ مرتين؟) ..أحنقها أن تذكرت طارقاً الآن، والوجع الي أسكنه قلبها، فدفعت شعرها خلف أذنها وهي تلقي الطرف نحو الشاب فوجدته قد غادر سطح اليخت. عادت تنظر إلى نادرٍ الذي ارتسمت على وجهه تقطيبة خفيفة، لم تدر إن كان سببها الشمس التي غمرت وجهه أم لسبب آخر لم يفصح لها عنه، و لكنه لم يتركها في حيرتها كثيراً إذ قال ببطءٍ: «**يااااه؟! وهل يحتاج الردُّ لكل هذا التفكير؟!**».. ردت بسرعةٍ: «**لم أظنُّك تنتظر رداً على سؤالك، فجوابه بديهي..**».

اضيقت عيناه وهو يتأملها للحظاتٍ أربكتها كثيراً، وبدا هذا واضحاً من تلاعبها بأصابعها.. أرادت أن تقوم من حضنه إلا أنه شبك أصابعه محكما ذراعيه حولها فاستسلمت باستكانةٍ. ضحكت وهو يداعب رقبتها بأصابعه وقالت بدلالٍ: «**توقف يا نادر، إنِّي أغار..**»..

تعجب من تقلب مزاجها فقال بشرودٍ: «**أنتِ كعلامةِ استفهامٍ كبيرةٍ، وكلما اقتربت منكِ وظننت بأني على وشك حل لغزك، وجدتك تتجزأين لعلامات استفهام أصغر وأدق..وأعقد!.**»، تابع مبتسماً وهو يعتدل و يقربها منه دون عناء وكأنها طفلةً صغيرةً: «**ولكنكِ تعجبينني، ويعجبني كل ما يخصكِ.. غموضكِ، ضعفكِ، رقتك، دلالكِ... وحتى غضبكِ يروقُ لي..**». أراحت ذراعها على كتفه وعبثت

بخصلات شعره القصيرة عند مؤخرة عنقه قائلة بغنج: «**وماذا أيضاً؟.**».. حركتها البسيطة أشعلت به ناراً أراد أن يطفئها بأن يغرقَ في أحضانها البريئةِ العذبةِ ولكنه صار مدركاً لأن زوجته حساسةٌ جداً، وأن أبسط تغييرٍ لا تتوقعه قد يثير أعصابها لأقصى حدٍ. كان يشفق عليها من هذا الكمِّ من التوترِ والتحفز الذي اضطرت أن تتبناه كدرع حمايةٍ لها ولشقيقيها، لذا، ابتلع شوقه وأجابها بابتسامةٍ عريضةٍ: «**أنت تذكرينني بزهرةٍ اسمها (كادابول) تنمو في إندونيسيا.. زهرةٌ نادرةٌ بيضاءَ وأريجها يخلب الألباب.. لكن أتعرفين ما أكثر ما يميزها؟.**». هزت رأسها نفياً وقد تعلقت عيناها بسواد عينيه وهو يميل نحوها ليقول في أذنها بصوتٍ أجشٍ: «**أنها لا تتفتح إلا عند منتصف الليل، ولهذا يسمونها (ملكة الليل).**» قبل عنقها مكملاً: «**تماما كحبيبتي.**»..

مالت برأسها جانباً لا إراديا.. كان نادر يؤثر بها، وبالرغم من خجلها منه وعدم اعتيادها بعدُ العلاقةَ الحميمةَ بينهما إلا أنها كانت تستمتع كثيراً بالمشاعر التي كانت تغمرها إزائها، وكذلك بالكلمات المثيرةِ والمحفزةِ التي كان يغمر بها أذنيها.. كانت متأكدة من أنها ليست بهذا القدر من الجمال الذي يصفها به، كما أنها لا يمكن أن تكون مثيرةً في نظره إلى الحد الذي يشعرها به، ولكنها في اليومين الماضيين طبقت نصيحةَ ميٍّ الصغيرة بأن أرسلت عقلها في إجازةٍ مفتوحةٍ وأن تستمتع بما حولها قدر المستطاع..

ومع احتضان نادر لها بقوة وازدياد لمساته جرأةً وحميمية، فكرت مبتسمة (يا إلهي!!! يبدو أن نادر يعشق زهرة الكاب .. دو.. تلك الزهرة كثيراً.. و بشكل خاص!!!)..

ضحكت بخفةٍ، وذابت في أحضان موجةٍ جديدةٍ... لذيذةٍ.... وهي لا تدرك أنه أغفل ذِكرَ حقيقة أن هذه الزهرة تموتُ بعد أن تتفتح لليلةٍ واحدةٍ في العام..



«هذا جحيم.. أقسم بالله أن هذا جحيم..!! لا يمكن أن يكون لدى أي مخلوقٍ، أياً من كان، هذه القدرة على الإلحاحِ والتبكيت... وأنا لم أعد أحتمل.. سأترك لك البيت حتى ترتاحي ولْتُفرغي سخطَكِ على الحيطان... أففففف!!!.»..

عقدت أميرة ساعديها وهي تشاهد فؤاداً يلتقط الجاكيت ويخرج مسرعاً من غرفته صافعاً الباب وراءه..

بقيت على حالها شاردةٌ ترمق الباب بنظراتٍ ناريةٍ حيث اختفى... كانت النار بداخلها تتآكلها وتشتد لتعميَ عينيها... لم يكن لصراخ فؤادٍ ومغادرته دخلٌ بما تشعر، فهذه حريق أشعلتها مهرة منذ أشهر... منذ أعلن نادرٌ خطبتهما في ذاك اليوم الكئيب .. منذ دخلت الفيلا لتؤسس غرفة نادرٍ من جديدٍ... منذ ليلة عرسهما التي مات فيها قلبها واختالت مهرة داخل كفنه الأبيض سعيدةً..

و كأن رؤية من نزعت حلمها من جذوره يومياً ليست كافيةً، وإنما بلغت بنادرٍ الصفاقة بأن يترك شقيقي غريمتها في عهدتها متعلِّلاً بثقته في قدرته على الاعتماد عليها!!! وليكتمل مسلسل إذلالها، فقد قرر فؤادٌ تأجيل إعلان خطبتهما حتى ينتهي شهر عسل نادرٍ، ولم يكلف نفسه عناء سؤالها عن رأيها، وإنما اكتفى بإبلاغها بقراره بكل صفاقةٍ..

أمسكت رأسها بكفيها وضغطتها بقوةٍ (يا الله!!!! لو رأيتُ هؤلاء الناس يحترقون أحياءً لما شفى هذا غليلي).. بكت كما لم تبكِ من قبل حتى أفرغت روحها، وملأ الفراغ صدرها... بكت حتى شعرت بالألم يضرب قلبها مع كل نبضة.. بكت وبكت حتى أغرقت دموعها أحزانها وغاصت بحبها إلى قاع النسيان.... صوت نشيجِها أيقظها من غفلتها فاعتدلت واتجهت نحو المرآة حيث عدلت من زينتها مستخدمة أدوات شهيرة التي حافظ فؤادٌ عليها وعلى ترتيبها كما تركتها.. نظرت بعدما انتهت إلى انعكاس صورتها طويلاً... جميلةٌ، شابةٌ، وقوية كالعادة... لكنَّها اليوم رأت هالةً جديدةً تُحيط بها أضفت على النظرة في عينيها بُعداً جديداً وعمقاً مخيفاً... عمقاً حفرهُ الشيطان بشوكته وغرز فيه بذرته التي ستثمر مُراً ستذيقه لهذه العائلة ببطءٍ ورويةٍ حتى تستمتع بكل لحظةِ أَلَمٍ يختبرونها..

رفعت حاجبيها وغادرت الحجرة، وعلى بعد خطواتٍ فقط التقت ماجداً الذي بادرها بأدب: «**صباح الخير يا آنسة أميرة.**».. لا تدري كيف وجدت الابتسامة طريقها لوجهها ولكنها منحته ابتسامةً عريضةً وهي ترد تحيته بودٍّ بالغ: «**أهلاً، صباح الخير يا ماجد.. كيف أنت اليوم، كنت تشكو بالأمس من احتقانٍ في الحلق.. أتشعر بأنك أفضل حالاً، أم تودُّ أن أصطحبك للطبيب؟ أو ربما أتصل بالطبيب ليأتي كي أطمئن عليك على أي حالٍ يا حبيبي..**»..

تحرَّج ماجدٌ من أسلوبها ومعاملتها له الآن وكأنه طفل صغير، على الرغم من أنها كانت لطيفة جداً معه قبل ذلك وأبدت إعجابها بشخصيته ورجاحة عقله، ولكنه تجاهل مشاعره إذ ربما كانت هذه طريقتها في إظهار تعاطفها معه لمرضه، فقال ببساطةٍ: «**لا، صدقاً أنا بخير، ولا يحتاج الأمرُ إلى طبيبٍ على الإطلاق.. فبعدما شربت بضعَ أكوابٍ من الشاي الدافئ بالأمس، شعرت بارتياحٍ كبيرٍ، واليوم لا أشعر بأي سوءٍ على الإطلاق.. ولكن شكراً يا آنسة على..**»..

قاطعته وهي تتأبط ذراعه وتسير به نحو الدرج: «**أميرة... ناديني أميرة، فقد صرنا أهلاً وأنا كمهرة بالضبط.. ألا تناديها باسمها..**».. هز رأسه إيجاباً فتابعت وهي تبعثر غرته بأناملها مبتسمةً: «**أرأيت..**».. تركته أسفل الدرج وهمَّت بالانصراف ثم تذكرت شيئاً فعادت لتسأله: «**ماذا كنت تفعل عند غرفة فؤاد؟ أكنت تريد شيئا؟.**»..

رد وهو يهز كتفيه: «**لا شيء. فقط كنت أبحث عن.. (أبيه) فؤاد..**».. لاحظت تردده وعدم ارتياحه لاستخدام كلمة (أبيه) بعد، فتظاهرت بعدم السمع متسائلةً: «مَن؟».. رفع صوته وهو يضع يديه في جيبي سرواله الجينز الرمادي مكرراً وقد احمرت أذناه: «**(أبيه) فؤاد، كنت أظنه لا يغادر قبل العاشرة، ولهذا فكرت بأن أمر وأشرب معه الشاي قبل أن يذهب إلى عمله.**»...

بدأت تشعر بالتسليةِ لفكرة أن يجالس فؤادٌ، الذي بالكاد يطيق صغار السنِّ، أخوي السيدة مهرة إكراماً لشقيقه! سألت بعفويةٍ: «**وأين مي؟.**».. رد مازحاً: «**مي تنام طيلة النهارِ وتستيقظ طوال الليل.. صارت مخلوقاً ليلياً بحجةِ**

الثانويةِ العامةِ..».. اقتربت منه وهي تلوي شفتيها بتعاطفٍ قائلةً بصوتٍ حانٍ: «**يا للمسكين! لابد وأنك تشعر بالملل وحدك وقد تركك الجميع بهذه الصورة!!..**».. صارت في مواجهته تماماً فأمسكت ذقنه بإصبعيها ما جعله يتسمر من الذهول وهو يسمعها تكمل بنفس الأسلوب الذي بدا له ساخراً الآن: «**ماذا يمكن أن يفعل ولدٌ صغيرٌ مثلك طوال النهار في بيتٍ كهذا؟ بالتأكيد تفتقد لمهرة واهتمامها ورعايتها.. أليس كذلك؟..**»..

انتفض قائلاً بعصبيةٍ وهو يبعد وجهه عن أظافرها الزهرية: «**لستُ طفلاً لأحتاج للرعاية والمراقبة، ولعلمك فقد كانت مهرة تعتمد علي وتترك البيت ومي التي تكبرني في رعايتي وليس العكس.. كل ما هنالك أنني فكرت بأن ألقي تحية الصباح على .. السيد فؤاد.. لا أكثر.**».

تراجعت متظاهرةً بالصدمةِ من غضبه وقالت وهي تبسط يديها علامة الاستسلام: «**أوكي، أوكي. لا بأس، لا أريدك أن تغضب مني، فلست أنا من أتصل بكل من في البيت لأطمئن عليك وأوصي الناس برعايتك .. وليس عليك أن تلوم أختك كذلك، فرعايتها لكما وبلباسكما وطعامكما يجعلها لا شعورياً تراكما صغاراً وتقلق عليكما كما تقلق الأم على أطفالها..**».

عض شفته السفلى وعزم على التوجه إلى الردهة التي تضم الشاشة الكبيرة، علَّه يجد ما يشغله حتى يعود فؤادٌ أو يستيقظ سامرٌ، إلا أن أميرة شدته من ذراعه وسارت به نحو غرفة الطعام قائلةً بلطفٍ ووداعةٍ: «**لا تلفاز قبل تناول الفطور.. فأنت على لحم بطنك وأنا أتضور جوعاً وكلانا يشعر بالملل، فما رأيك بأن نذهب للتسوق ومشاهدة فيلم بالسينما بعدما نتناول فطورنا؟.**». توقفت لتسأله متظاهرةً بأنها تذكرت أمراً هاماً: «**هل تستطيع القيادة؟ فأنا لا أقود السيارات..**».. ابتسم ابتسامة عريضةً وهو يرد وقد أعجبه البرنامج الذي اقترحته وبدَّل مزاجه كثيراً: «**تعلمت القيادة على سيارة والد أحد أصدقائي، ولكني لم أقد واحدة أبداً ..**». لوت شفتها وقالت بأسفٍ: «**ياللخسارة، كنا سنستمتع أكثر لو لم نصطحب السائق معنا، فهو ثرثارٌ جداً..**»..

« **أنتَ هنا وأنا أبحث عنكَ في كل مكانٍ؟!!**». دخلت كريمة لاهثةً وهي تضع صينية الشاي على الطاولةِ مستدركةً بلطفٍ وهي توجه كلامها لأميرة: «**صباح الخير يا عزيزتي.. أأصب لك الشاي؟ أم أعد لك شطيرةً قبله؟ اعذريني فقد انشغلت بتنظيف وترتيب الحديقة مع آدم وصالح.. هؤلاء القوم منعدمي الضمير تماماً وعلى الرغم من كل ما يتقاضون مقابل أعمالهم فقد تركوا الحديقة ملآى ببقايا الطعام والأزهار الذابلة.**».. كانت تصب الشاي وهي تثرثر وتشتكي إهمال موظفي الشركة المتعهدة التي نظمت حفل الزفاف دون أن تنتظر رداً من أميرةٍ التي تجاهلتها تماماً وأخذت تقلب صفحات مجلةٍ وجدتها على طرف المائدة بينما يتابع ماجدٌ الموقف بفضول..

انتبه لكريمة التي كانت قد بدأت تحدثه وتساءَل هل عليه أن يرد عليها أم أنها ستعتبرها مقاطعة وتتضايق على إثرها!! أخيراً رد حين وجدها قد صمتت بعدما سألته لم لا يدرس بغرفته: «**كنتُ سأفعل بعدما أحتسي الشاي مع.. السيد فؤاد.. ولكني وجدته قد..**».. قاطعته بقوةٍ: «**نبهتني مهرة إلى ألاعيبك وتهربك من الدراسة.. تفضل يا أستاذ، سأحضر لك فطورك وشايَك إلى غرفتك.. هيا يا بني.. لا تحرجني مع أختك، فقد أوصتني بكما كثيراً.. و بخاصة بك.**».

تنحنحت أميرة كما لو أنها تكتم ضحكةً كادت تفلت رغماً عنها وأخفت وجهها بفنجان الشاي فاحمرت أذنا ماجدٍ وهز رجله بحركةٍ عصبيةٍ وهو يرد بتذمرٍ وأمارات التمرُّد والعنادِ باديةً على وجهه: «**سأصعد بعدما أنتهي من تناول الشاي هنا يا.. م.. سأصعدُ بعد قليلٍ.**».. انتبهت كريمة لابتلاعه كلمة (ماما كريمة) التي اتفقت معه ومع ميٍّ على أن ينادياها بها، كما لم تفتها عصبيته، فقالت برفقٍ: «**لا بأس يا بني، افعل كما تحب، ولكن أرجوك ألا تهمل دراستك.**»..

استدارت لتغادر حين استوقفتها أميرة لتسألها إن كان سامرٌ قد استيقظ أم لا، فأجابتها باستفاضةٍ: «**استيقظ باكراً جداً وتناول فطوره ثم جلس يتحدث قرابة الساعةِ مع ميٍّ.**»، ونظرت موجهة كلامها لماجِد: «**وبالمناسبة، أسلوبُ حياةِ هذه الفتاة الصغيرة سيدمِّر أعصابها، فهي لا تحصل على قدرٍ كافٍ من النوم.**»، ثم

عادت تكمل سردها لخط سير سامرٍ لأميرة: «**ومنذ قليلٍ كان بالحديقة، ثم غادر المنزل مع فؤادٍ.. وهذا الأخير خرج دون أن يشرب حتى شربة ماءٍ.. و إنما بصراحة، أرى أن مزاج سامرٍ قد تحسن كثيراً مؤخراً وهذا ما ي...**».. قاطعتها أميرة: «**حسنٌ يا كريمة.. شكراً..**»، وعادت إلى مجلتها ببرودٍ دون أن تأبه للحرج الذي سببته لكريمة أمام الفتى الصغير..

غادرت كريمة الحجرة فوراً فاستدارت أميرة نحو ماجدٍ قائلةً: «**يبدو أنني سأذهب وحدي اليوم.. فلا نريد أن نخيب ظنَّ مهرة بِك وبنا..**». قالت هذا ووقفت، فوقف ماجدٌ بقامته الطويلةِ النحيلةِ وقال بعزمٍ: «**أنا آتٍ معك.. لحظاتٌ لأحضر معطفي..**»، أوقفته أميرة ممسكةً بذراعه معترضةً: «**أرجوك يا ماجد، لا تسبب لِيَ الحرج وتجعلني أبدو وكأنني أشجعك على أن تتحدى أوامر شقيقتك.. اذهب وادرس.. هيا..**»..

تركته وخرجت مبتسمةً، واتسعت ابتسامتها وهي تسمع من خلفها صوت ارتطامٍ أحبت أن تعتقد بأنه صوت قدم الفتى وهي تركل المائدة...



انشغل حسَّاب بهاتفه محاولاً الاتصال مراراً بسامرٍ الذي لم يرد على أي من اتصالاته المتتالية مُذ عُرس نادرٍ.. لقد أقلقته حالة الفتى النفسية المتدهورةِ منذ إجازة العيد وكأن هناك ما يثقل كاهله ويسرق النوم من عينيه، فذابتا في الهالتين القاتمتين اللتان أحاطتا بهما وسط شحوب وجههِ الملفت وشروده الدائم..

كان معتاداً على تقلبات مزاج سامرٍ لأسبابٍ عدةٍ، وأهمها خلافاته ومناوشاته المستمرة مع نادرٍ، ولكن لم يكن يتصور أبداً أن يبلغ به الكرهُ حدَّ المرضِ حين وجد نادراً سعيداً أو يتقدم في حياته الخاصة!! وعلى الرُّغم من تبدل حاله كثيراً يوم العرس، إلا أن قلقه عليه لم يغادره، لذا حاول الاتصال بفتاه عدة مراتٍ دون كللٍ، ودونما ردٍّ من جانب سامر.. كان أمامه خياران، إما أن يتصل بأميرةٍ أو أن يتصل بفؤادٍ، وكِلا الأمرين أزعجاه، فهو يعلم مسبقاً بأن حصيلة

اتصاله بأي منهما لن تزيد عن بضع عباراتٍ ساخرةٍ وحفنة من الكلام المستفز، ولهذا فقد أغلق الهاتف وألقاه بعيداً في ركن الغرفة الواسعة، المؤثثة بفراشٍ واسعٍ وثيرٍ توسط الغرفة وملأ الحائط حيث يستقر بحليته الخشبية التقليدية، واصطف عن يمينه وعن يساره طاولتين صغيرتين بنفس اللون والتصميم، ازدانت بمفرشين مطرزين من الأورجانزا وفوقهما مصباحين مذهبين يتناسبان والثريا المُذهبة المتدلية من وسط السقف لترسل بقعة ضوء صفراء قوية فوق سجادة عجمية ذات نقوشٍ صفراءَ وأرضية ذات لون أحمر قاتمٍ كلون حيطان الغرفة. لم يدخر مالاً في تأثيث هذه الشقة على ذوقه، وعلى الرغم من أن ذوقه لم يكن براقا أو حديثا، ولا يليق للمقارنة بأناقة الفيلا وفخامتها، ولكنها كانت تروق له ويشعر فيها بكينونته وسيطرته. إنها بيته الحقيقي والوحيد حيث يقضي معظم أيام العام...

أخذ يحك جبينه وهو يفكر بسامرٍ..

زفر بحدةٍ وقام ليلتقط هاتفه من جديد.. أجرى الاتصال للمرة المائة تقريباً، ولكن الرد جاءه مباشرة هذه المرة على شكل قطع الاتصال من جهة سامر، فرمى الهاتف مجدداً صائحاً بغضبٍ: «**يوه، يا ابن الك....**»...

رنين الهاتف جعله يقفز نحوه ويلتقطه قائلاً بغضبٍ عارم: «**أقسم بالله أنكَ معدوم التربية وأنا المخط...**». قاطعه محدثه فقال وقد عقد حاجبيه مرتبكاً: «**من المتحدث؟!**». استمع للحظاتٍ ثم قال وقد استعاد رباطة جأشه: «**لا، سأوافيكم في الموعد... لا تؤجل شيئاً، فهذه فرصةٌ نادرةٌ لن تتاح لنا مجدداً.. أعطني ساعةَ زمنٍ لا أكثر.. مع السلامة.**»..

بدل ثيابه على عجلٍ وغادر وقد ابتعد تفكيره تماماً عن سامرٍ.. فربما كان ما يصبو هو إليه قد صار قابَ قوسَين أو أدنى بعد كل هذه السنوات الطوال.. ركب سيارته البي إم دبليو البيضاء -هدية نادرٍ له في عيد مولده الأخير- وأدار محركها محدثاً نفسه (ها أنت تنطلق يا حسَّاب. تنطلق ولن يوقفك مخلوقٌ على وجه هذه الأرض.)..



مع مرور الأيام، ازدادت روابط، وتفككت أخرى، ووَضع الجميع بالفيلا روتيناً يقوم عَلى الفوضى العارمة والسهر دون اكتراثٍ لاحتجاجات كريمةٍ ونظرات آدم المؤنبة... أما فؤادٌ، فقد استنزفت الشركات كل وقته حتى وجد يومه في النهاية نسخة متطابقة من أيام نادر، فقط مع فارق مواعيد مغادرة كل منهما للبيت والعودة إليه، حيث كان الأخير يغادر بُعَيْدَ السادسة صباحاً كل يوم، ولا يعود إلا بعد منتصف الليل بساعات، أو ربما يبيت خارجاً إن كان في خِضَم صفقةٍ جديدةٍ أو تدشين مؤسسةٍ حديثةٍ أو أفرعٍ أخرى، على عكس فؤادٍ الذي كان يغادر قُرابةَ العاشرةِ صباحاً، ويعود مع انتصاف الليل.. إلا أن فؤاداً حرص على تقديم كل ما لديه وبذْل كل طاقته في رعاية الأعمال أثناء سفر شقيقه لقضاء شهر العسل، أو بالأحرى الأيام العشرة التي استطاع أن يقتطعها قبل أن يعود لجدول أعماله وسفرياته، والتي أدرك فؤادٌ بأنه مهما حاول أن يتقنها فلن يستطيع أن يكون مُلمَاً بكل ما يلزم، أو يدنوَ من حنكةِ شقيقه وسيطرته على كل الأعمال هنا وهناك...

طرأت الكثير من الأمور التي كاد بسببها أن يتصل بنادرٍ، إلا أن مهارةَ نهلة وخبرتها في مساعدة نادرٍ لسنواتٍ أَهَّلَتها لتعينه على تدبر أمره، وإن كان هذا بتأجيل المشكلة دون حدوث خسائرٍ على الأقل....

حتى شهدٌ، أبدت تمرداً واندماجاً مذهلاً مع عالم الفوضى واللا التزام، بطفولتها وضحكاتها التي كانت تغمر المنزل وهي تركض صعوداً و نزولاً خلف المراهقَين اللذين كانا في بعض الأحيان أكثر ضجيجٍ منها..

أشفق آدم على كريمةٍ التي كانت أعصابها على وشك الانفلات وهي تحاول الحفاظ على النظام والنظافة ومواعيد نوم الصغيرة على الأقل، والليلة، كادت تبكي وهي تتمدد على الفراش وتلقي على صدره ورقةً صغيرةً، التقطها

ليجد أنها جواب استدعاءٍ لولي أمر شهدٍ بسبب إهمالها لدروسها وعدم حل واجباتها المدرسية.. قالت بأسىً: «**يعني ماذا يمكنني أن أفعل؟ حتى ولو كنت لا أزال قادرة على التدريس والمذاكرة، فلن أستطيع أن أتعامل مع المناهج التي تدرسها شهد، فكلها بالإنجليزية وأنا آخر معرفتي به هي الحروف و(جود مورنينج) و(سانك يوو).. البنت مُهمَلَة تمامًا وكلما أرسلوا لنا بأن نهتم أكثر بخطِّها أو واجبها، يخبرني فؤادُ بأن أخبر أميرة، والأخيرة لا تفعل سوى تأنيب شهدٍ وكأنها بالجامعة وتستطيع الدراسة وحدها!!! إذا كان الكبار قد أهملا دراستها تماماً وكأننا في إجازة الصيف، فماذا يفترض بشهدٍ أن تفعل؟!!! هه؟! بل ماذا يمكنني أنا أن أفعل؟ لقد كبُرت وكبُر عليَّ البيت..**».. استدارت فوجدته يحملق في السقف فلكزته برفقٍ سائلةً: «**فيمَ أنت شارد؟ لم لا تردّ علي؟.**».. تنهد آدم وناولها الورقة قائلاً بهدوءٍ: «**أطفئي المصباح وحاولي أن تنامي يا عزيزتي وسيصبح كلُّ شيءٍ على ما يرام.. لم يتبقَ سوى يومان وتنقضي إجازةُ نادرٍ.. وسيعود المسكين إلى الصراع هنا وهناك.. فقط اهدئي وستعود الأمور إلى نصابها الصحيح بعد يومين اثنين إن شاء الله..**»..

أطفأت المصباح وهي تقول: «**أولم نكن سنصبح في حالٍ أفضل إن تزوج فؤادُ بمهرةٍ لتهتم بشهدٍ المسكينة، أو على الأقل كان سيذهب هو لقضاء شهر العسل ويبقى نادر هنا!.**»..

تنهد آدم ثانيةً وأولاها ظهره ممتعضاً مما قالت، ولكن خبرته الزوجية عصمته من الوقوع في خطأ الانتقاد أو تفنيد أقوال زوجته، وعلى الأخص، وهي في مثل هذا المزاج والتعب، فعلى كل حالٍ، لا أهمية لما قالت، ولن يضير أحداً أن يترك تعليقها طافياً فوق رأسيهما دون رد...

أغمض عينيه وهو يسأل الله أن يمر اليومان القادمان بسرعة، دون أن يدرك أن الصباح يحمل لهم مفاجأةً كبيرةً..



دلف آدم حجرة فؤادٍ بهدوءٍ بعدما طرق الباب عدة مراتٍ دون جوابٍ، وتقدم بخفةٍ من الفراش الواسع حيث تمدد فؤادٌ مستغرقاً في نوم عميقٍ بعد سهرةٍ عملٍ طويلةٍ استنزفت طاقته تماماً، وهو يناضل ليتابع ترابط الأمور وألا يبدو مغفلاً أمام الجميع، فقد أعدَّ نادرٌ لهذا الاجتماع منذ فترةٍ ليست بقصيرةٍ وحدد موعد زفافه بحيث يتمكن من حضوره، إلا أن العضو المنتدب للشركة الأوروبية التي يفترض أن يدور هذا الاجتماع حول ضمها ودمجها مع شركتهم اتصل ليُقدِّم الموعد، وبالطبع لم يكن الاعتراض أو التأجيل اختياراً متاحاً، فالمنافسة على ضمِّ هذه الشركة منافسةٌ شرسةٌ ضاريةٌ إلى حدودٍ لم يكن ليتخيلها مهما وَصف له أخوه، لولا أن رأى بعينيه..

لم يستطع النوم إلا بعدما آتت الأقراص المسكنة التي أعطته إياها أميرة ثمارها وزال الزخم المقيت للأرقام والقوانين من رأسه، فنامَ كالطفل..

هزةٌ خفيفةٌ في كتفه أفزعته إذ يعلم ألا أحد يفترض أن يكون معه في حجرته، فجلس فجأةً وهو يسأل تلقائياً: «**ماذا؟ ما الأمر؟**».. رد آدم الذي التقط كأس الماء من على الطاولة المجاورة للفراش وناوله إياها قائلاً: «**آسف يا بني إن أفزعتك، ولكني طرقت الباب وناديتك أكثر من مرةٍ فلم ترد.. وهناك أمرٌ هامٌ علي إطلاعك عليه.**».. كان فؤاد يستمع إلى آدم بنصف إدراكٍ وقد غفا النصفُ الآخر في سباتٍ عميقٍ، و يبدو أن هذا كان جلياً إذ انتفض حين سأله آدم: «**فؤاد!!! هل سمعتني؟.**». هز رأسه ومط شفتيه قائلاً بنعاسٍ: «**لا، لم أسمع كلمةً مما قلت..**».. قطَّب وهو يلتقط هاتفه المحمول لينظر إلى الساعة وآدم يتابع: «**أخبرك بأنه عاد فجراً.. وأنا قلقٌ لرجوعه المفاجئ وعدم اتصاله بنا لإعلامنا..**».. تيقظت حواس الشابِّ قليلاً وهو يستوعب كلمات آدم ببطءٍ، فسأله مستوضحاً: «**عمَّن تتحدث؟ نادر؟.. أتقول بأنه هنا الآن؟.**».. هزةُ رأس آدم جعلته يقف بسرعة ويغادر حجرته دون الاكتراث لمظهره الأشعث، وما أن وصل إلى حجرة نادرٍ ووضع يده على مقبض الباب، حتى توقف لحظاتٍ ليهدأ، وتذكر بأنه لم يعد يستطيع أن يدخل غرفةَ أخيه هكذا دونما استئذانٍ بعد

الآن، فطرق الباب طرقاً خفيفاً ووقف آدم خلفه صامتاً يعلم بأن الوقت مبكرٌ جداً ليوقظا الزوجين الجديدين، ولكنَّ الأوان كان قد فات لتنبيه فؤادٍ، الذي أعاد الكرةَ الآن وهو يحك رأسه ويفرك عينيه، ما ذكَّره به وهو طفلٌ صغيرٌ يطرق باب أخاه في الليل لينام بجواره.(ما أشبه اليوم بالأمس! وما أسرع مرور الأيام!!)..

فُتح البابُ أخيراً وفغر كل من آدم وفؤاد فاه، فعلى عتبةِ البابِ وقفَ نادرٌ بكامل حلته وأناقته حاملاً معطفه مطوياً بيدٍ وحقيبة أوراقه باليد الأخرى.. مال فؤادٌ فوراً ليعانق أخيه الذي ضمه بحبٍ، ثم عانق آدمَ الذي قال بهدوءٍ أخفى ما يعتمل في نفسه من قلقٍ وتساؤلٍ: «**حمداً لله على سلامتكما، ستطير كريمة من الفرح حين تعلم بعودتك.**».. وتابع بعدما ابتعد قليلاً: «**أأُخبرها بأن تعدَ الفطور لكما الآن، أم أن الآنسة.. السيدة مهرة لا تزال نائمة..؟**».. هز نادر رأسه وهو ينظر إلى الساعة في معصمه ليردَ وكأنه أمرٌ عاديٌّ: «**لا وقت لدي يا آدم، فسأغادر حالاً، ونعم، مهرة لا تزال نائمة.**».. تقدم وأغلق الباب ليسير بجوار فؤادٍ نزولاً وآدم يتبعهما بصمتٍ.. وأخيراً لم يستطع فؤادٌ أن يتمالك نفسه وينتظر أن يصبحا وحدهما فوقف في منتصف الدرج سائلاً وهو يمسك بمرفق أخاه: «**حسنٌ، يبدو بأنك لن تقول شيئاً إن لم أسأل.. نادر.. ما الذي عاد بك قبل انتهاء إجازتك ؟!!.**».. نظر نادر نحو آدم الذي لم يتكبد عناء التظاهر كعادته بأنه لا يتابع أو يتدخل، وإنما على العكس، أشار لنادر بأن يجيب على سؤالِ فؤادٍ، فتنهد وردَّ ببساطة وهو يتابع هبوطَ الدرجِ مجدداً: «**ببساطةٍ، جاءني اتصالٌ بخصوصِ العمل وكان عليَ العودة فوراً..**».. ربتَ على كتف فؤادٍ مكملاً عندما وصلوا أسفل الدرج: «**لا تقلق يا فؤاد، فكل ما اختصرته من إجازتي هما يومان لا أكثر..**». ردَّ فؤادٌ: «**من أصلِ عشرةِ أيامٍ..**»، ثمَّ سأل مقطبا: «**ما سبب اتصالهم بِك؟ ما هو ذاك الأمر الطارئ الذي يجعلهم يتصلون بك متجاهلين إعلامي به، وتعليماتي بهذا الخصوص؟!!.**» ثم استدرك وهو يغطي فمه بيده مفزوعاً: «**هل أخفقتُ بالأمس؟**»، وتابع وهو يمسك رأسه بكفَّيه: «**يا إلهي!! ماذا حدث؟..**»..

لم يفهم نادرٌ كلمةً مما قال أخوه ولا عَمَّ يتحدث، لكنه طمأنه وهو يربت على كتفه قائلاً: «**أتحدث عن شركةِ السياحةِ فلا تقلق، لم يتخط أحدٌ أوامرك. ولكن ماذا عن الأمس؟ لمِ يُقلقُك على وجه الخصوص؟**». رفع فؤادٌ كتفيه والتقط نفساً عميقاً أبقاه حبيساً لحظاتٍ وهو يحاول ألا يتفوه بما يفزع نادراً أو يزعجه فقال بالإنجليزية: «**أتعرف؟ انتظرني دقيقة، سأبدل ثيابي وأصحبك..**». أوقفه نادرٌ بسرعةٍ: «**بإمكانك اللحاق بي، فقد تأخرت..**». اعترض فؤادٌ: «**لن أستغرق أكثر من دقيقتا.....**»، ولكن نادراً قاطعه بعصبيةٍ: «**لن أنتظر، سأكون بالشركةِ حين تصل.. سلام.**»..

راقبه فؤادٌ مقطباً حتى خرج وأغلق باب الفيلا الزجاجي وراءه فاستدار لآدم، الذي لم تقِل تقطيبة حاجبيه تساؤلاً عن تلك التي تعلو وجه فؤادٍ، وقال وهو يمط شفتيه للأسفل: «**لستُ مقتنعاً بقصةِ اتصال شركة السياحة تلك.. لابد وأنني أفسدت الأمر ولم يشأ أن يضايقني، عصبيته تؤكد هذا، أليس كذلك؟**».. بسط آدم كفيه دلالة عدم المعرفة ولكنه علق: «**جُلَّ ما أرجو ألا يسبب هذا ضيقا لدى عروسه.**». صعد فؤادٌ الدرجات قائلاً: «**وماذا عليه أن يفعل؟ أيتجاهل عمله من أجل خاطرها؟! الرجل لديه مسئوليات وبالفعل تركها لمدةٍ أسبوع، لأجلها؟**».. قطب آدم مصححاً: «**ترك العمل لأجله هو أيضاً!! أنسيت بأنه عريس ويريد أن يستمتع بحياته؟!**». وصلا غرفة فؤادٍ فقال له آدم قبل أن يفتح بابها: «**أيمكن أن أطلب منك معروفاً؟.**»، ولأن أسلوب آدم وطلبه أدهشه، رفع حاجبيه وردَّ دون تردُّدٍ: «**طبعاً يا آدم..**». أخذ آدم نفساً عميقاً وقال دفعةً واحدةً: «**أبقِ أفكارك لنفسِك يا فؤاد، خاصةً تلك التي تتعلق برأيك في المرأة. هذا كل شيء.**».. استدار ليغادر ولكنه عاد ليسأل فؤاداً ما إن كان يريده أن يحضر له فطوره إلى غرفته أم سيتناوله بالأسفل، فرد الأخيرُ بابتسامةٍ خفيفةٍ: «**سأتناول فطوري مع نادرٍ في المكتب.. و..**»، صمت لحظاتٍ ليسترعي انتباه آدم ثم تابع وهو يضيِّق عينيه: «**أبقِ أفكارك لنفسك يا آدم.**».. أحنى آدم رأسه بأدبٍ قائلاً بابتسامةٍ حقيقيةٍ: «**نصيحةٌ حكيمةٌ، سأعمل بها حتماً..**».. ضحك كلاهما بلا صوتٍ وانصرف آدم ليباشر أعماله بينما أسرع فؤادٌ في أخذ حمامه وارتداء ثيابه، والقلق يفترسه، فهو

يعلم تماماً أهمية هذه الصفقة لشركتهم وكيف أن نادراً استغرق الكثير من الجهد والوقت والاتصالات ليرتب لهذا الاجتماع التمهيدي، والذي بناء عليه سيتقرر ما إن كان سيعقد سلسلة من الاجتماعات التحضيرية وما إلى ذلك من الهراء الاقتصادي الذي تيقن بعدما اضطر للتعامل معه من أنه اتخذ القرار الصحيح بالابتعاد عنه وعن عالم الأعمال والتجارة...

سحب قميصاً من على الرفِّ فانزلقت علبةٌ صغيرةٌ وتدحرجت على الأرض. تجاهلها حتى أكمل ارتداء ثيابه ثم مال ليلتقطها ويلقيها في جيب معطفه الذي تركه مفتوحاً ونزل إلى الدور السفلي راكضاً.. قابلته كريمة بابتسامةٍ مشرقةٍ وحيته بعفويةٍ: «**صباح الخير يا حبيبي، الفطور جاهز.. دقائق وأحضره لك.**»، فرد وهو يربت على كتفها ماراً بها في طريقه إلى الخارج: «**ليس لدي وقت، سأتناول أي شيءٍ في المكتب.**».. فتحت فمها لتعترض ولكنه كان قد خرج بالفعل ملوحا لها من خلف ظهره وهو يقول: «**أخبرتك ألا وقت لدي**» . هزت رأسها ووافت زوجها إلى الردهة التي يعدونها غرفةَ معيشةٍ حيث كان منشغلا بتوضيبها وتغيير الزهور في المزهريات الكريستال التي توزعت في أرجائها وقالت فور ما اقتربت: «**خرج فؤادٌ باكراً اليوم! أتمنى ألا يكونَ هناك مشكلةٌ بالعمل، فلم أعد قادرة على تلقي أي صدمةٍ.. لقد كبرنا يا آدم.. كبرنا على هذه المسئوليات والصدمات.. أليس كذلك؟**».. شرعت تلمِّع الطاولات وتنفض الغبار الخفيف عن المقاعد وتعدل وضع الوسائد والمساند دون انتظار ردٍّ منه، ولكنها تذكرت شيئاً آخر فتابعت: «**أتدري بأن شهدٍ امتنعت عن الذهاب للمدرسة اليوم لأنها لم تحل واجباتها وتخشى أن تعاقبها معلمتها؟ الفتاة في الصف الأول!! هل تصدق كيف يتعاملون في هذه المدرسة وكأنها في الجامعة؟!! وهنا في البيت، لا حياةَ لمن تنادي، وفؤادٌ المسكين تائهٌ ما بين العمل وال... تلك الأمور التي تشغل باله.**»، ومالت على زوجها لتهمس: «**أقصد موضوعه مع أميرة.. والله لا أدري كيف يظن أن الأمر سينجح؟! سأُجَن، فقد كانت أمامه مهرة برقتها ولطفها وحبها لابنته، فيتركها ليختار أميرة؟!! البنت لا تطيق رعاية الصغيرةِ إطلاقاً؟!!..**».. اعتدلت لتتابع ما تفعل وما تقول: «**هيييه.. ولكن ماذا عسانا نقول؟ النصيب..**».. حافظ

آدم على صمته وتمالك أعصابه التي كانت تُستفزُّ كثيراً مؤخراً من مثل هذه التعليقات، فإن كان من حق أحدٍ ما في هذا البيت أن يحظى بالراحة والسعادة فهو نادرٌ بعد كل ما عاناه، وما فعل ولا يزال يفعل من أجلهم.. بالطبعِ هو يحبُّ فؤاداً، ويرى المنطق في رأي زوجته، ولكن، أين العقل والمنطق في هذه الدنيا؟ ولم على نادرٍ، ونادر فقط، أن يخضع لحسابات العقل فيما يخص قلبه؟.. كان متأكداً، لمعرفته الدقيقة بالشاب، من أنه سيلتفت إلى مهرة بعين الاهتمام يوم أرسله لمقابلتها بتلك الحجة السخيفة، فهي إنسانةٌ رقيقةٌ وحساسةٌ، وهو ما يحتاجه نادرٌ تماماً.. وعلى الرغم من أن فرصَه للزواجِ من نساءٍ من ألمع وأرقى الطبقات كانت، ولا تزال، مفتوحةً، ولديه الكثيرَ من الصديقات اللواتي يناسبنه من وجهة نظر كريمة، إلا أنه على يقين من أن نادراً لن يرتاح في زيجةٍ رتبتها المصالح والآلات الحاسبة أبداً، ليس بعد كل ما مرت به زيجات أفراد هذه العائلة..

«... **فلن أسمح بهذا، واليوم سأضع حداً لهذه الفوضى وليحدث ما يحدث، وليغضب من يغضب.. حين تعود أختها فليفعلا ما يشاءان إن كانت ترضى بهذا الانفلات..**». انتبه آدم إلى أن كريمةً لا زالت تتحدث فقاطعها: «**لقد عادا فجراً..**».. وقفت متسائلة: «**ماذا؟ من؟**».. كان قد انتهى مما يفعل فاعتدل وتقدم نحو المدخل مجيبا ببساطةٍ: «**نادر ومهرة، عادا فجراً، وقد قابلت نادراً منذ قليل قبل أن ينصرف إلى عمله.. واستعجال فؤادٍ سببه رغبته في اللحاق به**».. فغرت زوجته فاها وتركها ليخرج إلى الحديقة قبل أن تمطره بوابلٍ من الأسئلة والاستنتاجات التي لابد وأن عقلها يذخر بها في هذه اللحظة، لذاً خرج إلى الهواء الطلق البارد ليروح عن نفسه ويطلق لها العنان قليلاً.. فأن تحدث مشاكل بالعمل تستغرق نادراً بالكامل ليحلها لم يكن أمراً جديداً، ولكن أن يراه بهذه العصبية، وليس هذا فحسب، بل ولا يكترث بأن يخفيها عن أعينهم، فهذا ما يقلقه بحق... ولكن ليس كل ما يدور ببال المرء يمكنه التعبير عنه، وخاصة حين يتعلق بعلاقة رجلٍ بزوجته، حتى وإن كان هذا الرجل ابنه..

(لطفك يا رب.. استرها مع نادرٍ ومعنا... لقد كبرنا ولم نعد نحتمل يا رب... الطف يا الله..)



جلست مهرة على فراشها الواسع بعدما غادر نادرٌ وابتعدت الأصوات عن باب الغرفة، فقد فزعت حين سمعت الطرقات المتتابعةِ على الباب حين كان نادر يستحم، فتجاهلتها متظاهرةً بالنوم، على الرغم من كونها وحدها بالغرفة حالياً، حتى خرج نادرٌ من الحمام، ولذهولها وجدته قد ارتدى كامل حلته ونزل دون حتى أن يكلف نفسه عناء إخبارها بأنه سيرحل، ما استفزها كثيرا وجعل الدماء تغلي في عروقها.. وتساءلت، ما الذي طور الأمور إلى هذا الحد، وكيف يمكن أن تهون عليه بهذه البساطة فيتركها وهما متخاصمان دون أن يحاول الاعتذار أو إصلاح الوضع بينهما.. ضيقت عينيها وهي تحسب الفترة التي تخاصما فيها لتجد أنهما مذ خرجا من غرفتهما في الفندق بُعَيدَ منتصف ليلةِ أمسٍ وحتى هذه اللحظة لم يتبادلا كلمةً واحدةً طبيعيةً، اللهم إلا حين فتح بابَ الغرفة لما وصلا قائلاً ببرودٍ: «تفضلي.»، وحين أيقظته ساعة أشرقت شمس هذا الصباح، حيث لم يغمض لها جفنٌ طيلةَ الليل منتظرةً أن ينتقل من على الكرسي الكبير الذي أمضى الليل عليه ماداً ساقيه أمامه وقد ركن رأسه على كفه في وضعٍ غير مريحٍ فيما تظاهرت هي بالنومِ حتى يعود إلى الفراش، فربما كان ينتظر نومها ليلحق بها في الفراش. قالت وهي تلمس أنامله التي غطت عينيه برفقٍ: «**نادر، قُم لتُرِح جسدك على الفراش، هيا، لقد أشرقت الشمس وسيتفقدنا الجميع بعد قليلٍ.. بالكاد ستستطيع أن ترتاح..**».. ولكنه لم يرد عليها واكتفى بأن نظر إلى ساعةِ معصمه بنعاسٍ ثم عاد إلى وضعه السابق فجرجرت خجلها وكرامتها معها إلى الفراش ، وما أن استقرت به حتى قام واغتسل ثم غادر دون أن ينبس ببنت شفةٍ، تاركاً إياها وسط حيرتها، لا تدري ماذا ستقول للجميع عن سبب عودتهما المفاجئة ولا عن انصراف نادرٍ عنها وهي لازالت عروساً جديدةً إلى عمله... تخيلت نظراتُ أميرةٍ الشامتةَ وتساؤلات كريمة

الفضولية، كما لم تعلم بأي قناعٍ ستقابل أخويها لتخفي به ألمها وخيبة أملها... لفت ذراعيها حولها وهي تحتضن نفسها بقوة ثم تنهدت ونفضت عنها الغطاء، الذي ما عادت تطيقه، ووقفت أمام المرآة تطالع صورتها وكأنها تشاهد إنسانةً غريبةً عليها ترتدي ثياباً غريبةً عليها هي الأخرى وسط مكانٍ غريبٍ.. بالأمس انتقت من بين موديلات (اللانجيري) الكثيرة التي أهداها إياها زوجها من كل شكلٍ ولونٍ، واحداً أبيضَ قصيراً من أكثر ما اشترى جرأةً وإغراءً، وهي لا تدري إن كانت قد فعلت ذلك لتدعوه فتنهي خلافهما بلا كلمات، أم لتتحداه بأن يقترب منها وهما على حالهما من الخصام بعد ما تبادلاه من كلمات جارحة.. لم تكن واثقة من طبيعة ردة فعلها إن استجاب لإشارتها تلك مفترضاً حسن النية!.. ولكن ما هو مؤكدٌ الآن، هو أنها لن تتحدث إليه أو تسمح له بأن يلمسها مجدداً إلا بعد أن يعتذر منها كما يجب ويرضيها كما تحب...

نعم، تعترف بأنها ربما بالغت في ردة فعلها قليلاً بالأمس، ولكن يفترض به أن يتفهم قلقها وغضبها، لا أن يجرحها و يخاصمها!! ففي الأخير هي عروسه.. امرأة.. وعليه أن يستوعبها لا أن يعاملها نداً بِنِدٍّ!!..

أرادت أن تبدل ثيابها وتذهب إلى عملها كما اعتادت لسنواتٍ، وأرادت أن تركض لتحتضن أخويها بشوقٍ وحُبٍّ، كما أرادت أن ترتمي في أحضان أمها وتشكو لها وأن تتصرف بطفوليةٍ كما تفعل كل فتاةٍ حديثة العهد بالزواج... ولكنها بدلاً من كل هذا، عادت إلى فراشها وسحبت الغطاء الحريري النحاسي اللون، ذو العروق والأفرع الفضيةِ، فوق رأسها لتختبئ من الغربة التي اجتاحتها، ولتصنع لنفسها عالماً من الظلام تطليه بألوان حجرتها القديمة وترسم أثاثها على حيطانه... حلمت بأن تنام، ولكن الصداع أخذ يضرب رأسها ورقبتها بقوةٍ فتقلبت يمنةً ويسرةً علها تجد لعنقها وضعاً مريحاً...

فُتح الباب برفقٍ بالغ فتظاهرت فوراً بالنوم، فأما إن كان القادم أختها أو كريمة فستقوم لتسلم عليها، وأما لو كان نادراً، فستتجاهله تماما وستكمل تمثيليتها الصغيرة، بل وربما يحالفها الحظ وتستغرق في النوم فعلاً... ما هي إلا

لحظاتٍ حتى شعرت بجسمه يتمدد إلى جوارها واقترب بنعومةٍ حتى التصق بظهرها.. تعجبت من السرعة التي خلع بها ثيابه وهي تشعر بجذعه الدافئ يلتف حولها يلامس أعلى ساقها ويتلمَّس رقبتها وشعرها بنعومةٍ شديدةٍ.. احتارت فيما عليها أن تفعل.. فلم تكن تريد أن تضخِّم المشكلة برفضه، وكذلك لا تريده أن يعتاد تجاهل مشاعرِها وأخطاءه وأن يعتبر النوم معها حلاً لكلِّ مشكلةٍ تعترضهما... كرهت جبنها وهي تتابع التظاهر بالنوم.. استدار الآن وشعرت به يتحرك فوقها فلم تعد قادرة على الاستمرار في التظاهر، ففتحت عينيها لتوقفه وهي تقاوم رغبةً عارمةً في التجاوب وإذابة الخلاف، تحت نار لمساته الواثقة: «**أريد أن نتحدث أولاً يا نادر.**». أصابتها الصدمة بالخرس حين لاحظت في الظلام، الذي فرضته الستائر القاتمة، أن من يتحرك فوقها ويلامسها ليس زوجها! والجذع القاتم المرن مستمر في التلوي ببطءٍ فوقها.. تسمرت للحظات قبل أن تنفض عنها الغطاءَ صارخةً بقوةٍ... كان صدرها يعلو ويهبط تحت وشاحٍ من قطرات العرق، ووجهها ساخن ومبتل بمزيج من العرق والدموع التي انهمرت على خديها لا إراديا.. (يا الله!! متى سيتوقف هذا الكابوس؟!!)... تناولت كأس الماء من على الطاولةِ الصغيرةِ بجوار فراشها وشربتها دفعةً واحدةً ثم مسحت وجهها بكفها وهي تتمتم وقد استعادت جزئياً رباطةَ جأشها: «**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم.**».. رددت هذه العبارات مراراً حتى هدأت تماماً، فالتقطت جهاز التحكم الصغير من على الطاولة الصغيرة لتفتح الستائر ويغمر الغرفة ضوء النهار، علَّه يبدد ذكرى الكابوس الخانقة. نظرت إلى ساعة الحائط المستديرة ذات الإطار الخشبي الذي كان يمثِّل أفرعاً دقيقةً وأخرى عريضة تتناسب تموجات لونها مع لون خشب الحجرة وأثاثها الجديد ذو اللون الفضي المؤكسد الداكن بنقوشٍ محفورةٍ كتموجات جذوع الأشجار بأخاديد قاتمةً تميل إلى اللون الأسود، وذهلت حين وجدت أن الساعة قد تعدت الثالثة عصراً!! وضعت الجهاز الصغير وتناولت هاتفها النقال الحديث لتطلب نادراً متجاهلةً خصامهما وهي تبحث عن أي حجة لتبرر اتصالها، فهي الآن بأمسِّ

الحاجة لتسمع صوتاً يطمئنها، وعلَّه يقرر العودة إلى البيت باكراً إن طلبته الآن، وينتهي كل هذا الضغط العصبي.. دعت الله أن يجيبها بلطفٍ وهي تنتظر رده مغمضةَ العينين... قالت حين سمعت صوت زوجها الهادئ أولَ شيءٍ خطر ببالها: «**مساء الخير يا نادر، أين أنت؟ لم أشعر بك وأنت تغادر؟ متى استيقظت؟.**»..



استقبل نادر العمل كصديق قديم طال غيابه، فقد شعر وهو بين الأوراق والبيانات والحواسيب بالراحة والهدوء وكأنه في بيئته الطبيعية حيث ينتمي، وساعده إقبال موظفيه على إعلامه بكل المستجدات وطلب رأيه وقراراته، على نسيان شجاره مع مهرة والحالة المزرية التي غادر عليها البيت هذا الصباح، فاسترخت عضلاته المتصلبة إثر الليلة غير المريحةِ التي قضاها على الكرسي وهو يرى زوجته تتقلب في فراشهما شبه عارية في تحدٍ واستفزاز... لأول مرة في حياته يشعر بأنه لا يعرف كيف يرضي امرأة، فهي دائماً متوترةٌ وغاضبةٌ، وتُحَمِّل كل كلمة يقولها آلاف المعاني التي تُضمر في مكنونها، جميعها، سوءاً!!!

استقرت نهلة وفؤاد فوق الأريكة في ركن الغرفة يتناقشان بخصوص إحدى المشاريع التي تتكفل بها شركتهم العقارية حيث كانت نهلة، بحرفيةٍ وطول بالٍ منقطع النظير، تجوب خلال تفاصيله بدقةٍ وصبرٍ ليتمكن فؤادٌ من إدراك كل ما يلزم لمتابعته بنفسه لاحقاً، بينما جلس هو إلى مكتبه يراجع ويدقق في كل رقمٍ ارتبط بالاجتماع الأخير الذي تغيب عنه..

رنين هاتفه أخرجه من عالمه فالتقطه بسرعةٍ ليلغي الاتصال، إلا أن إبهامه توقف قبل أن يفعل حين وجد صورة مهرة في زفافهما تحمل باقة الورد الطويلة وبدت بسمارها الأخاذ الذي تألق تحت الثوب الأبيض الرقيق الذي لف جسدها بأناقةٍ وبهاءٍ، كالملكات بابتسامتها التي تشرق كنور الشمس، فقال بصوتٍ عالٍ: «**اطلبي لي فنجان قهوةٍ يا نهلة.**»..

رد فؤادٌ بدلاً منها: «**هذا رابع فنجانٍ قهوةٍ يا نادر!! على الأقل دعنا نتغدى أولاً، فأنا اتضور جوعاً.. و أنت لم تتناول فطورك..**». رد أخوه بسرعةٍ: «**سأُجيب على هذا الاتصال الخاص أولاً إذاً..**»..

وقفا عن الأريكة، وقال فؤادُ: «**سأتمشى قليلاً فظهري يؤلمني من طول الجلوس.**».. خرجا وتركاه فأجاب بسرعةٍ قبل أن ينقطع الاتصال حتى لا تستنبط مهرة أمراً من عدم رده: «**آلو..**».. استمع لزوجته لحظاتٍ ثم أجاب عن تساؤلاتها ببطءٍ: «**أنا في الشركة وقد خرجت باكراً، حوالى الساعة السابعة صباحاً، لذا لم أشأ أن أقلقك.. كيف أنتِ اليوم؟.**».. ردت وهي تعض شفتها: «**لستُ بخيرٍ. حلمت بكابوسٍ رهيبٍ وأشعر بضيقٍ شديدٍ..**».. فرك جبينه وقال مغمض العينين: «**تمشي قليلاً في الحديقة أو اقرئي بعض القرآن وستشعرين بتحسنٍ، اسألي آدم عن مصحفٍ أو اذهبي إلى مكتبي وستجديه هناك على أحد الأرفف..**»... قالت وهي تلعب بطرف ثوبها: «**كنت أفكر بالذهاب لبيتنا.**»، قالتها وأغمضت إحدى عينيها ومطت شفتيها منتظرةً رده الذي جاءها بتعجبٍ: «**بيتنا؟ أين أنتِ؟.**». صحَّحت له بسرعةٍ: «**أتحدث عن بيتنا أنا وإخوتي.. أنا هنا، في الفيلا..**»..

سألها بحيرةٍ: «**ولِمَ؟..**».. لم يكن لديها سببٌ واضحٌ، حتى لها، ولكنها شعرت برغبةٍ قويةٍ في العودة إلى هناك لتحتمي بدفء الحوائط القديمة ورائحة الذكريات التي يعبق بها الأثاث المتهالك، فقالت كاذبةً: «**أريد أن أحضر بعض الأغراض من هناك.. لن يستغرق الأمر طويلاً وقد أعود قبل أذان العشاء.**»..

رد بتلقائيةٍ: «**خذي راحتك وعودي وقتما تشائين، فسأتأخر هنا... أخبري آدم ليعلم السائق واعتبريه رهن إشارتك من هذه اللحظة.**». قالت محتجَّةً: «**سأتدبر أمري كالعادة ولن أحتاج إلى السيارة..**»، إلا أنه قاطعها بحزمٍ: «**لن تركبي المواصلات يا مهرة، لا داعي لأقول السبب.. ثم كيف ستعودين بحاجياتك؟..**». قالت: «**سآخذ ماجداً ومي معي..**».. تعجب: «**وما الداعي لقلة القيمة والتعب والمهانة في المواصلات وتحت يدك أسطول سيارات؟!!!**». صمتت لا تدري بِمَ ترد، كل ما كان يجول ببالها هو أنها لا تريد أن يعرف أحدٌ من العاملين أَو

المقيمين هنا كيف كانت حياتها وحال بيتها، ولكنه على حقٍّ فيما يقول، ولا يلام على قلقه عليها واهتمامه بتوفير سبل الراحة لها، لا سبب آخر يدعوه للإصرار بهذه الصورة على اصطحاب السائق معها... همت لترد بلطف موافقة إلا أنها صدمت لما اتضحت لها الصورةُ فجأةً فقالت بحدةٍ: «**أهو فرض حراسةٍ يا سيد نادر؟!! أأنا موضوعةٌ تحت المراقبة؟.**». «م.. ما..» لم يستطع الرد فنظر إلى السماء وكأنه يستجديها الصبر ثم قال باستسلام: «**اذهبي يا مهرة كيفما شئتِ وعودي وقتما تشائين..**» ثم تابع بصوتٍ أعلى: «**ولوْ أردتِ قضاء الليل هناك فلن أمنعكِ.. هل ارتحتِ الآن؟ أبهذه الطريقةِ أثبت لك ثقتي بكِ؟!!**».. رفعت صوتها هي الأخرى قائلةً بحدةٍ: «**وهل تظن أنني أتحدث عن ثقةٍ وعدم ثقةٍ؟ لا يا محترم، فلو شككت لحظةً بأنك تفكر بي بتلك الصورة، سيكون هذا آخر يوم لي معك..**»..(ماذا تفعلين؟!!!!!!!) اتسعت فتحتا أنفه وهو يتنفس بحدة وقد زمَّ شفتيه وأغمض عينيه بقوةٍ محاولاً ألا يرفع صوته أكثرَ حتى لا يسمعه موظفيه وفي رأسه حلق سربٌ من الكلمات الحادة التي بذل جهداً فوق طاقته ليكبح جماحها، وانتهى به الحال سائلاً بغضبٍ مكتوم: «**إذا ما المشكلة؟ ما مشكلتك؟ ما هذا النكد؟ أنا ..**».. قاطعته: «**المشكلة أنك تشعرُ بأني إحدى ممتلكاتك وتريد التحكم بي.. مثلي مثلُ أي شيء آخر في مكتبك أوفيلتك.. ها!! علمتَ الآن أين المشكلة؟..**».

وقف بحدةٍ، فابتعد الكرسي إلى الوراء ليرتطم بالحائط الزجاجي الصلب خلفه وضرب سطح المكتب بحدةٍ صائحاً: «**فليكن يا مهرة، كما ترين، وتحكم بتحكم، لا، لن تذهبي إلى هناك من الأساس.. والآن، أنا لدي عمل ولابد أنْ أباشره... مع السلامة..**».. أراد أن يغلق الخط، ولكنه تجمد إثر الصورة الكئيبة التي قفزت من خزانة ذكرياته العتيقة، لترتسم قبيحة في مخيلته، فقال باقتضابٍ بعد لحظاتِ صمتٍ طويلةٍ: «**ألا زلتِ على الخط؟**».. ردت بصوتٍ خافتٍ: «**ممم.**». قال بصوتٍ حاول أن يجعله هادئاً بقدر ما استطاع: «**أيمكن أن نتحدث حين أعود مساء؟**».. هزت رأسها في صمتٍ ناسيةً بأنه لا يراها وسألته وهي تبلل شفتيها بطرف لسانها: «**وماذا تقترح أن أفعل حتى تعود.... متأخراً؟**». تنهد وسحب كرسيه ليجلس مجدداً قائلاً برفقٍ: «**اذهبي إلى حيث شئتِ يا مهرة، ولكن،**

خذي السائق حتى أطمئن عليك.. اتفقنا؟.»... تنهدت بدورها وهي توافق... سألها إن كانت تريد شيئاً آخر وحين ردت بالنفي أنهى الاتصال بعد أن وعدها بأن يجلسا ليحلا مشاكلهما وينهيا تلك الخلافات السخيفة، على حد تعبيره..

انتقل نادرٌ إلى الكرسي الضخم المجاور للأريكة الجلدية حيث كان فؤادٌ منذ قليل، وتمدد مسنداً رأسه إلى الوراء وهو يغمض عينيه بقوةٍ من الضغط الشديد الذي تمكن من جبهته. حاول أن يفكر في مهرةٍ وكيف يتوجب عليه أن يتعامل معها. شعر بأنه يسير معها على جليدٍ هشٍّ، حيث لا يعرف بالضبط كيف ومتى سيخطو الخطوة التي سيتحطم على إثرها كل شيءٍ، وهذا ما أبقاه مستيقظا طوال الليل محاولاً سبر أغوار مهرة وفهم مشكلتها في تقبل أبسط الأمور بتلقائية وحسن نيةٍ.. قد يكون تحفزها وقلقها الدائم طبيعيين لمن يعيش حياةً ملآى بالمآسي وعدم الأمان، ولكن لم على هذه المشاعر أن تستمر بعدما أصبحت الدنيا بين يديها ورهن إشارتها؟!!!..

«**أأنت نائمٌ يا عريس؟..**».. أجفلته الهزة الخفيفة لركبته فأخذ يطرف بعينيه للحظاتٍ ليستوعب السؤال.. فرك عينيه وجلس معتدلاً وهو يمسد وجهه بكفيه بقوة راداً بنعاسٍ: «**تَصَوَّر؟!.. لم أشعر بنفسي؟.**».. نظر إلى ساعةِ معصمه ودهش لمرور الوقت فقال لفؤادٍ الذي أخذ يراقبه باهتمام: «**أنا نائمٌ منذ نصف ساعةٍ على الأقل!!.**». علق فؤادٌ بتفهمٍ: «**طبيعي يا أخي، أنت هنا منذ السادسة والنصف أو السابعة!! ولا أدري متى عدتما بالأمس، ولكني متأكدٌ من أن الوقت كان قد تجاوز الثانية والنصف صباحاً، فقد كنت مستيقظاً حتى ذلك الحين. عد إلى البيت وخذ قسطاً من الراحة، هيا، عُد إلى عروسِك ولا تأتِ إلى الشركةِ مساءً.. أنا موجودٌ هنا، فلا تقلق.. نهلة تبقيني على المسار، ولا تسمح لي بالخطأ..**». أشار نحو الباب مكملاً: «**لديك ماكينةٌ ألمانيةُ هنا.. أستغرب كيف تركتها تفلت من يديك!!!.**». أمسك نادر ضحكته بصعوبةٍ وهو يحاول القول بجديةٍ: «**لا تتحدث هكذا يا فؤاد، فأنا أنظر لها باحترام ومهنيةٍ.. وأعتمد عليها كثيراً، فلا تفسد الأمر..**».. أصدر أخوه صوتاً مستهجناً من فمه مردداً: «**مهنية!!.. أنا لم أنتبه لها**

من قبل، ولكن هذه الفترة من التقارب أظهرت لي الكثير من جوانب شخصيتها.. أعني، انظر إليها، الفتاة صاروخٌ يا رجل.. ذكيةٌ ولبقةٌ وخفيفةُ الظل..».. قاطع نادر خطبته الانفعالية بهدوءٍ: «**ولهذا أجدها ممتازة كسكرتيرةٍ..**»، ثم سأل بجدية: «**إلى أين يصل بنا هذا الكلام بالضبط؟! أنسيت بأنك خطبت ابنة خالتك، ولو بشكل غيرِ رسميٍّ، أم ماذا؟!**».. تنهد فؤادٌ وهو يضع يده على قلبه ويرتمي إلى الوراء قائلاً بميلودراميةٍ: «**المسكين يريد أن يحظى بفرصةٍ للمرح قبل أن يدخل القفص ثانية..**».. هز نادر رأسه بقوة وقال بجديةٍ شديدةٍ وهو يميل إلى الأمام مشيراً بإصبعه: «**اسمع يا فؤاد، أنا لا أمزح.. لا مجال هنا للهو ولا للمغامرات.. ونهلة بالذات، خطٌ أحمرَ ولن أدعك تؤذيها أو تتلاعب بها.. أرجوك أن تتعقل، فلم تعد صغيراً لتقوم بتصرفاتٍ غير مسئولةٍ.. على الأقل هنا في الشركة..**».. ضحك فؤاد مؤكداً: «**نعم، هنا محل أكل عيشٍ.. أعلم.. اطمئن.. فقط كنت أتعجب كيف لم تُلفت انتباهك قبل ظهور مهرةٍ في حياتك؟..**».. عاد نادر ليسترخي قائلا ببساطةٍ: «**النصيب.. والقلب وما يريد.**»..

سكتا وكلٌّ شاردٌ يتأمل في حاله حتى قال فؤادٌ أخيراً، وهو ينقر بإصبعه على ركبة أخيه: «**هيا يا هذا، عد إلى زوجتك ولا تضيع أجمل أيام العمر في هذه المغارة.. لا تخف، فستعود لتجدها لا زالت هنا.. هيا..**»..

هز نادرٌ كتفه وهو يقوم ليجلس خلف مكتبه وفؤادٌ يلحق به: «**مهرة ليست بالبيت..**».. توقف فؤادٌ مصعوقاً ليسأل بدهشةٍ: «**تركتها في شرم؟!!!**».. قطب نادرٌ حاجبيه وأغلق عينيه مستهجناً وهو يرد على سؤال شقيقه غير المنطقي: «**أمعتوهٌ أنت؟ بالطبع عادت معي..**»، ثم تابع مشيحاً بيده وكأن الأمر لا يعنيه: «**لديها شيءٌ ما وستخرج لتفعل أياً كان ما تريد..**».. جلس فؤادٌ في الكرسي المقابل لنادرٍ سائلاً بصراحةٍ: «**وأين ستذهب في توقيتٍ كهذا؟**». رد أخوه ببساطةٍ وهو يعاود النظر إلى الأوراق أمامه: «**وهل سأحقق معها؟ إن قالت أنها بحاجةٍ للذهاب إلى مكان ما فلتذهب.. لن أحبسها، فهي ليست صغيرة..**». مال فؤادٌ برأسه قليلاً قائلاً وقد امتعض من رد أخيه: «**رائع.. أخبرها بما قلتَ تواً، وستجدها بعد فترةٍ**

تخرج حتى دون علمك..».. لم يرد نادر واكتفى بهز رأسه بأسىً فتابع فؤادٌ: «**ماذا؟ هذا حقك الشرعي بالمناسبة، ولا يسير الزواج بهذه الطريقة، صدقني..**».. رفع نادر كفه وقال دون أن يرفع عينيه عن الملف الذي بين يديه: «**لن أدخل معك في هذا الجدل الآن.. وأنا كزوج، راضٍ جداً، على الأقل حالياً، عن هذا الوضع ولا مشكلة لدي.. مهرة اعتادت أن تكون حرةً وأن تتحرك وتذهب هنا وهناك، وسيكون صعباً جداً عليها ملازمة البيت ليل نهار، خاصة وقد تركت عملها، بالإضافة إلى عدم وجودي هناك طوال اليوم، فليس من المعقول إذاً أن أطلب منها أن تتصل بي كلما أرادت أن تفعل شيئاً أو إن أرادت أن تذهب إلى مكانٍ ما.. ستكون مبالغةً لا معنى لها.. وسيعرقل هذا عملي وحياتها..**»..

راقب فؤادٌ أخاه بتمعنٍ وهو يستغرب هذا الانفتاح من شخصٍ اعتاد السيطرة على جوانب الحياة والتحكم بمئات أو ربما آلاف البشر، وشعر بفضولٍ شديدٍ وهو يكتشف جانباً جديداً من أخيه لم يره من قبل، فسأله مبتسماً وهو يستند بذقنه على كفه: «**وماذا لو أرادت العودة إلى العمل؟ هل سيكون هذا قرارها وحدها أيضا؟.**».. نظر إليه نادرٌ للحظة ثم هز رأسه قائلاً: «**أستبعد أن تفكر بالعودة للعمل بعد ما لاقته من تعبٍ..**»..

ضحك فؤادٌ قائلاً وقد زوى ما بين حاجبيه: «**أنت لا تعرف النساء حقاً يا نادر!! لن يستغرقها الأمر شهوراً أو ربما أسابيع قبل أن تشتكي الملل والرتابة وتفكر بالعودة للعمل.. فماذا ستفعل حينها؟.**».. رفع نادر كتفه وهو يجيب: «**إن أرادت أن تعمل فلتعمل.. ما المشكلة.**»، وأشار إلى الباب حيث يقبع خلفه مكتب السكريتاريا مكملاً: «**منذ دقائق كنت تُمَجِّدَ قدرات امرأةٍ عاملةٍ..!**».. اعتدل فؤادٌ سائلاً بجديةٍ: «**ستسمح لها بأن تعود للَّفِ على منازل التلاميذ؟**».. ضحك نادرٌ وكأن الفكرة لم تخطر بباله ورد ببساطةٍ: «**بالطبع لا، وهي أيضاً لن تحب هذا، على الرغم من أنك صغت الكلام وكأنها كانت تفعل شيئاً سيئاً لا سمح الله.. ولكن، إن أرادت، فبمكالمةٍ واحدةٍ تستطيع أن تعمل في إحدى مدارس أصدقائنا، أو ربما في مدرسة شهدٍ... أفهمتني؟.. هذا إن أرادت العمل..**».. قال فؤادٌ ساخراً: «**أو ربما**

تفتح لها مدرسة، وتصبح أنت مديرها..». . صورته كمدير مدرسةٍ يقف وسط تلاميذ صغار جعلته يضحك من قلبه: **«نعم، هذا ما كان ينقصني.. ولكنها فكرةٌ جيدةٌ، إن تسلمت أنت مسئولية الناظر وتولت كريمة الكنتين..».** . صحح فؤادٌ: **«لا، الكنتين سيكون مسئولية خالك حسَّاب.. كريمة ستتولى الإذاعة المدرسية.. أما سامر فسيكون الأخصائي الاجتماعي...».** . **«و ماذا عن آدم؟.».** . **«طبعا في الكشافة أو الشرطة المدرسية.».** .

تغير الجو وشعرا بخفةٍ وارتياح بعد مزاحهما الصبيانيّ، فتراجع نادرٌ في مقعده مسترخياً... قال بعد دقائقٍ: **«عليكَ أن تجعل الأمر رسمياً، فلن يصبر خالك على هذا الوضع كثيراً..».** .

اكتفى فؤادٌ بالربت على جيبه، حيث علبةُ الخاتمِ قابعةٌ، وأشار بإبهامه للأعلى..

صمتا ثانيةً وإنما للحظاتٍ قصيرةٍ قبل أن يقطع نادرٌ الصمت ويقول وهو يبعد كرسيه ليقف: **«ألست جائعاً؟..»**. رد فؤادٌ وهو يقف بدوره: **«أتضور جوعاً..».** .

غادرا المكتب تاركين ملاحظةً بعدم الإزعاج، مهما كانت الظروف، فكلاهما بحاجةٍ لوقت يقضيه مع الآخر ولو لم يستطيعا البوح بكل ما يقلقهما لبعضٍ، إلا أن الشعور بأن هناك من يشعر بك ويساندك، دون أن تطلب أو تسأل، كان كل ما يحتاجانه في هذا الوقت...

٧

لَم تدرك مهرة من قبل أن خزانتها القديمةَ المحدودةَ المُحتوى كانت بمثابة إعفاءٍ لها من عناء التفكير في ما عليها أن ترتدي، وهل سيتناسب مع بعضه البعض، وهل سيتناسب مع المناسبة كذلك... وقفت حافيةَ القدمين داخل الغرفة الواسعةِ التي يسميها نادرٌ خزانةً، واحتارت وعينيها تطوفان بين الرفوف والشَماعات، تتجاذبها الألوان والموديلات، وتسأل نفسها بِحَيرةٍ عن الزي المناسب لوجهتها، فبالتأكيد لن تستطيع أن ترتدي أحد تلك المعاطف الباهظة أو الأحذية المتكلفة، لأنها تريد أن تدخل وتخرج من شارعها دون أن ينتبه لها أحدٌ من جيرانها القُدامى الذين تجاهلت دعوتهم إلى عرسها، بل ولم تخبرهم عن زواجها من الأساس.. ولم يكن هذا صعبا، فقد غلقت دون العالم المحيط بأسرتها الصغيرة الأبوابَ، واكتفت بالتحيات والتهاني المختصرةِ، رباطاً واهياً بينها وبين أهل منطقتها، ساعدها على هذا غيابها الدائم واكتفائها بعالمها المحدود الذي ضم طارقاً وزملائها في المدرسة فقط... لم يكن الفارق الاجتماعي هو السبب الوحيد الذي دفعها لعدم دعوتهم إلى الزفاف المترف، ولكنها بالفعل لم تشعر يوماً بأنهم أهلها أو سندها، ومع ذلك لم تكن مستاءة منهم أو تشعر بتقصيرهم، إذ أنهم جميعاً يرزحون تحت أحمالٍ ربما تفوق أحمالها ولم يكن لديهم الكثير ليقدموه لها، حتى أن الدعم المعنوي بات يشكل عبئاً لم

يعد يرغب أحدٌ في تحمله.. وربما لو احتاج أحدهم لها أو طلب عونها وقتها ما قدمت له أكثر مما قدم لها العالم، لذا لم تجد فائدةً من دعوتهم ولا حرجاً من مواجهتهم بعد تجاهلهم، فقط كل ما عليها فعله، هو أن تتلقى نظراتهم الفضولية المتسائلة عن غيابها هي وأخويها كل هذه الفترة وعودتها الآن دونهما، ببساطةٍ.. نعم، تستطيع أن تتحمل نظراتهم، ولكنها لا تشعر بالرغبة في ذلك اليوم، ولهذا أرادت ألا تلفت النظر قد المستطاع..

وقع اختيارها أخيراً على جينز أسودَ وبلوزة من الصوف الناعم سوداء هي الأخرى ذات رقبة عالية، وفوقهما شالٌ كبيرٌ أو ما يسمونه بال(بانشو) من الكاروه العريض الزهري والرمادي للماركة الشهيرة (بيربيري).. كان هذا النقش منتشراً في المحال البسيطة ولن ينتبه أحدٍ أن هذا الرداء البسيط يتعدى سعره الألفي دولار، ولربما حتى لا يدركون بأن هناك ماركةً عالميةً تحتكر هذه التقسيمة.. ارتدت حذاءً عالي الكعب زاد طولها بضع سنتيمترات، ثم تراجعت واختارت واحدا دون كعبٍ، عاليَ الرقبة أسودَ هو الآخر.. لم تُضف أي حليٍّ لزيها أو زينةٍ إلى وجهها، واكتفت بربط شعرها إلى الوراء على شكل ذيل حصانٍ قصيرٍ.. تراجعت لتنظر إلى نفسها في المرآة العريضة.. أعجبها ما رأت برغم بساطة مظهرها، فقد غادر الشحوب والإرهاق محياها، وتوردت شفتاها ولم تعودا جافتين مشققتين من البرد وإهمالها لنفسها ولبشرتها التي صارت ناعمةً لامعةً بفضل الأسبوعين الذين قضتهما مع أخويها في الفندق الفخم حيث أنزلهما نادرٌ بعدما عقدا قرانهما قبل الزفاف، وقد تلقت في هذه الفترة القصيرة عنايةً لبشرتها وشعرها آمنت بعدها بأن المال ربما لا يشتري السعادة، ولكنه بالتأكيد يشتري كل مقوماتها من صحةٍ وجمالٍ وزَهوٍ وراحةٍ، وما عليك حينها إلا أن تستمتع و تنسى أي همٍّ يثقل قلبك.. لم يكن الحال ليكون مشابهاً فيما لو تزوجت طارقاً، تعلم هذا بالتأكيد، ولكنها تعلم أيضاً بأنها إن تزوجته لما وقفت في مثل هذا الوقت وحيدةً في غرفتها، ولن تشعر بهذا الفراغ الثقيل يملأ صدرها...

كرهت المقارنة وأفكارها التي تفرض نفسها عليها في أهم لحظات حياتها وأكثرها دقةً وحميميةً، فكثيراً ما تنهدت بضيقٍ لتبعد صورة طارقٍ وخياله عن عينيها وهي بين أحضان زوجها.. وأسوأ وأصعب يوم مر عليها كان يوم العرس.. ليلة الزفاف.. وهي تلبس ثوباً غير ما تخيلته طيلة حياتها.. وتقف بجوار رجلٍ غريبٍ تماماً، ليصير أقرب الناس إليها، بدلاً ممن حلمت به طوال شبابها، وبين أناس لا يشبهون في أزيائهم وكلامهم أحداً ممن عرفت طيلة سنواتها الثمانية والعشرون، في حفل نهاريٍّ وليليٍّ معاً، أهدأ وأبرد مما رتبت في قلبها طيلة خطبتها لطارقٍ، وأخيراً أُغلقت عليها أبواب غرفةٍ لم تختر فيها قشة على الرغم من منح نادر لها كافة الإمكانات والصلاحيات لتفعل بالمكان ما تريد، وعرض أميرة بأن تتولى المهمة عنها بحجة ألا ترهق العروس نفسها، ولكنها اختارت أن يتولى المهمة مكتب ديكور رشحه فؤادٌ، والذي لسبب غريب اختار ألواناً قاتمةً ما بين الرمادي والفضي والنحاسي للأثاث و التحف، على أرضيةٍ خشبيةٍ قاتمةٍ، ليضفي على الغرفة وَجْدَاً وحزناً لم تتنبأ بأنهما سيشاركانها مخدعها منذ الليلة الأولى.. تذكرت كل هذه المشاعر والأفكار، وشعرت بمعنوياتها تنهار، فتقدمت إلى طاولة الزينة تضيف بعض الألوان إلى صفحة وجهها التي كساها الشحوب الآن.. أخذت نفساً عميقاً وهي تلقي نظرةً أخيرةً على مظهرها العام، ثم غادرت وهي تفكر في رد فعل أقاربها الجدد على عودتهما المبكرة وما عليها أن تقول أو تفعل.. أَلْفَتْ نابليون أعلى الدرج، فتذكرت أميرة، وامتعضت من مظهرها البسيط وادةً لو تعود لتبدل ثيابها وترتدي شيئاً أكثر أناقةٍ وتكليفٍ، إلا أن صوت آدم الذي جاء من خلفها استوقفها قائلاً: «**مساء الخير يا عروسنا.**».. فاستدارت مبتسمةً برقةٍ وهي ترد تحيته المهذبة: «**مساء الخير يا آدم.. كيف حالك أنت وكريمة.. لقد اشتقت إليكما كثيراً.**».. رد مبتسماً: «**ونحن اشتقنا إليكما كثيرا، فالبيت لم يكن له طعم بدونكما.**». قالت ضاحكةً: «**البيت عامرٌ بكم.. كيف حال الجميع؟ والأولاد؟ كيف كانوا؟ هل أتعبوكم؟**».. ضحك آدم بأبوةٍ قائلاً: «**حالا ستقابلين كريمة وستخبرك بأدق وكل التفاصيل والأحداث التي تريدين معرفتها وحتى التي لا تريدينها يا آن.. سيدة**

مهرة.. **إن كنت تح..**».. قاطعته وهي تمد يدها لتلمس ذراعه: «**نادني مهرة يا آدم، فقد حكى لي نادرٌ عن حياته وعن دورك ومكانتك لديه، فهو يعتبرك كوالده، فإن كنت تعتبرني أنا الأخرى ابنتك ولا تريد أن تشعرني بأنّي غريبةٌ، فنادني باسمي كما تفعل مع زوجي.. اتفقنا؟.**».. أومأ آدم وقد تأثر بذكر نادرٍ له بهذه الصورة لعروسه..

سألته عن أخويها وشعرت بالإحباط حين علمت بأنهما بالخارج يلاحقان دروسهما وقد تاقت لعناقهما ووجودهما في أول لقاء لها بأهل البيت..

حين وصلت أسفل الدرج استقبلتها صيحاتٌ وتصفيقٌ صادرين عن التلفاز الذي علا صوته بصورةٍ مزعجةٍ في الردهة عن يسارها.. فكرت في الخروج مباشرة دون أن يشعر بها أيٌ من كان يشاهد المباراة، والذي غالبا لن يكون سوى سامرٍ، ولكنها ارتأت ألا ترتكب موقفاً سخيفاً كهذا، فتقدمت لتجد سامراً مندمجاً جداً في متابعة مباراة كرة قدمٍ ما، بينما استلقت أميرة على الأريكة تتحدث على هاتفها النقال وتضحك.. تنحنحت حين لم يلحظا وجودها في المدخل وقالت بصوتٍ خافتٍ: «**مساء الخير.**».. ولمّا لم تتلق جواباً شدت قامتها وأعادت ما قالت بصوت قصدته مسموعاً ولكنه خرج حاداً عالياً، فالتفت الأخوان إليها بدهشةٍ ووقف سامرٌ فوراً وهو يطفئ التلفاز بينما اكتفت أميرة بأن أشارت لها بيدها بتحيةٍ سريعةٍ وإلى الهاتف لتنتظرها كي تنهي اتصالها.. تقدم سامرٌ إليها بابتسامةٍ عريضةٍ وقال بودٍّ مفاجئٍ: «**مهرة!! ما هذه المفاجأة السارة؟!! متى عدتما؟!!**».. ردت وهي تخطو إلى القاعة الواسعة: «**كيف حالك يا سامر؟.. عدنا فجراً.. وكنت سأخرج حالاً لولا أن سمعت صوت التلفاز فأردت أن ألقي التحية وأغادر فوراً حتى لا أتأخر.**».. في هذه الأثناء كانت أميرة قد أنهت اتصالها فتقدمت منها تمسك يدها وتطبع قبلةً خفيفةً على خدها بادلتها إياها مهرة بتلقائيةٍ وهي تسمعها تقول: «**حمدا لله على سلامتك يا حبيبتي.. مفاجأة سارة فعلاً.. تعالي.. اجلسي..**». قالت بسرعةٍ: «**لا، فلدي مشوارٌ علي أن أنجزه.. وحين أعود سنجلس معاً ونتحدث طويلاً.**». ونظرت إلى أميرةٍ نظرةً ذات مغزى مكملةً: «**فلدينا الكثير لنتحدث عنه، أليس كذلك؟**».. عادت أميرة لتستلقي

كما كانت وهي تبدو كالعارضات ببنطالها القطيفة المضلعة الزيتوني الضيق وبلوزتها الصوفية الواسعة بلون القش وقد أهالت شعرها الكستنائي الطويل فوقها لينساب بعفويةٍ جميلةٍ على ظهرها وحول رقبتها التي زانتها مجموعةٌ العقود الذهبية الطويلة، وقالت بابتسامةٍ لطيفةٍ: «**بالطبع يا عزيزتي، بالطبع..**»..

همت بالخروج ولكن سامراً قفز أمامها قائلاً: «**أستذهبين مع نادر؟**».. تعجبت من موقفه ولكنها ردت دون أن تبدي دهشتها: «**لا، هو بالشركة.. سآخذ السائق..**»، ثم استدركت: «**آه، بالمناسبة، أين أجد السائق؟.**»..

قالت أميرة وهي تُرجع شعرها إل الوراء و تشعل السيجارة التي تعلقت بين شفتيها الزهريتين المطليتين بأناقة: «**ستجدينه إما في الملحق أو جالساً مع الحارس يثرثران.. يمكنكِ أن تستدعيه عبر جهاز الاتصال الداخلي بجوار الباب. ذاك الذي يشبه الريموت، أمامك**»..

«**شكراً.**». قالتها واستدارت ثانية فاستوقفها سامرٌ مجدداً قائلاً بإلحاح: «**وما الداعي للسائق وأنا ليس لدي ما يشغلني؟ دقيقة لأحضر مفتاح سيارتي والمعطف وأوافيكِ..**».. رفعت أميرةٌ حاجبها دون تعليقٍ ولكنَّ مهرة اعترضت بقوةٍ: «**لا، لا يا سامر، لا داعي إطلاقاً لتتعب نفسك.. فلدي مشاوير عديدةٍ وسأمُرُّ بعدها على البيت لأحضر بعض الأغراض.. ولكن شكراً على عرضك وعلى ذوقك.. مع السلامة.**»..

«**لا والله، لن تذهبي وحدكِ.. فقط انتظري هنا دقيقةً..**».. لم يعطها فرصةً للرد وانطلق ليحضر أغراضه تاركاً إياها غارقةً في ذهولها وحرجها وورطتها... تقدمت لتجلس على أحد المقاعد الوثيرة المجاورة لأميرةٍ، التي كانت ترمقها بصمتٍ من وراء ستارة من الدخان الشفاف بعينين ضيقتين مبتسمتين. حاولت أن تجد شيئاً ذا معنىً لتقوله ولكنها لم تجد، فآثرت الصمت.. ابتسمت لأميرةٍ ثم قامت لتسير نحو الواجهة الزجاجية لتتأمل حوض السباحة الجميل وهي تشعر بعيني أميرة ونظراتها التي كادت تخترق ظهرها.. أخيراً قالت الأخيرة: «**أرجو ألا يكون كلامي بالأمس هو السبب في عودتكما.**». كذبت قائلةً دون أن

تلتفت: «**لا، لا تقلقي.. فقد كان اتصال نادرٍ بفؤادٍ ليخبره بأننا عائدَان لأنه تلقى اتصالاً من الشركة يستدعونه فيه لأمرٍ طارئٍ.. لا تقلقي.. خيراً منكِ أن أعلمتِني بالوضع..**».. استدارت لتجلس على أقرب كرسيٍّ إليها، وأبعدهم عن أميرة، وهي تجد صعوبةً في التركيز في حوارها معها وعقلها مشغولٌ بالبحث عن طريقة تتهرب بها من سامر.. لم تطلع أحداً أبداً، وحتى هذه اللحظة، عن مكان بيتها بالتحديد وقد احترم نادرٌ رغبتها في عدم زيارته لها بمنزلها وأبقى لقاءاتهما بالمطاعم والمولات الفخمة والأماكن التي كان يحددها هو.. حتى أنه قرر عنها بأن تنتقل بعد عقد القران مباشرةً إلى جناحٍ ضخمٍ بأحد الفنادق العالمية المطلة على النيل حتى يتسنى له زيارتها وقتما يشاء.. لم تفهم في البداية ما الفارق قبل وبعد عقد القران في أن يلتقيا بالخارج فقال ببساطةٍ: «**أنتِ الآن زوجتي، وأريد أن تحظي بأفضل ما يمكنني تقديمه من تدليلٍ، وأن ترتاحي وتسترخي تماماً قبل الزفاف.. كما أنني لست مضطراً للقائك بالأماكن العامة بعد الآن..**»، وبالفعل زارها يومياً واعتنى بها، كما أظهر لها كذلك جانباً حميماً مريحاً، حين كان أخواها يخرجان ليدعاهما على راحتهما...

والآن، يريد سامرٌ أن يوصلها، وهو ليس بذوق وكياسة نادرٍ، لذا تعلمُ بأنها ستجد صعوبةً في التخلص من رفقته.. ومن أسئلته..

كانت أميرة تتحدث عن حفلةٍ ما وبدا وأنها تنتظر ردها على سؤالٍ ما، فارتبكت وأرجعت شعرها خلف أذنها قائلةً: «**أها.. نعم.**».. عادت أميرة تتمدد وتقول وهي تتلاعب بسلاسلها الذهبية وتلفها حول إصبعها: «**سنستمتع كثيراً..**»..

عاد سامرٌ وأشار لمهرةٍ فتبعته إلى الخارج ولكن صوت أميرة الحاد وهي تناديه استوقفهما فقال لمهرةٍ بأدبٍ بالغٍ وهو يناولها مفتاح السيارة: «**انتظريني بالسيارة، سأرى ما تريد وأعود فوراً.**»..

عاد بسرعةٍ ليجد أخته تنتظره بالقرب من مدخل القاعة، وشدته من معصمه فور ما اقترب، قائلةً بصوتٍ خافتٍ غاضبٍ: «**اسمع يا سامر، أنا لا**

آبه لما تفعل ولا لمحاولاتك الساذجة الواضحة في التودد لمهرة التي لم تستطع إخفاء مشاعرك نحوها منذ الزفاف.. ولست قلقة على حياة نادرٍ الزوجيةَ بالتأكيد، ولكن أياً كان ما تنوي فعله فافعله بعدما أتزوج فؤاداً.. أسمعت؟»، وكررت ببطءٍ: «**بعد.. الزواج.. وليس الخطبة.. مفهوم؟**».. لم يتفوه بكلمةٍ وانتظر حتى انتهت تماماً من قول ما تريد ثم سحب يده من قبضتها وغادر في صمتٍ تامٍ.. لقد تأخر على مهرة ولا يريدها أن تنتظره أكثر...



أظلمت الشقة لحلول المساء، ولكن مهرة لم تُحَمِّل نفسها عناء إشعال الأضواء وبقيت قابعةً على فراشها الضيق القديم تحدق في خزانتها المفتوحة، وأغراضها القديمة تطالعها بتساؤلٍ وشوقٍ.. تحملت بثبات، وربما بلا مبالاة، نظرات الفضول والتساؤل في عيون جيرانها والحاج سعيد صاحب البقالة الصغيرة عند الزاوية، وتجاوزت عن بعض الهمسات والافتراءات التي لامست أذنيها.. لم تشعر لا بالغضب ولا بالاهتمام بما حولها، وسارت بعزمٍ وسرعةٍ إلى شقتها.. لا تعرف ما الذي انتابها، فما أن فتحت باب الشقة المتهالك حتى اجتاحها فيضان من المشاعر الجياشة وهي تقف على عتبة المكان الذي أمضت به حياتها وشَهِدَ على مآسيها واحتضن أحلامها، فتقدمت تفتح الأدراج والخزائن تتلمس ذكرياتها وتشم رائحة ذاتها التي ما عادت تعرفها.. لم تعبأ بالفوضى التي أحدثتها ولا كبدت نفسها شقاء إغلاق ما فتحت من أبوابٍ وأدراجٍ، فبدت الشقة بعد دقائق، وكأن إعصاراً اجتاحها .. قادتها قدماها، التي كانت تعرف الطريق وحدها، إلى غرفتها التي بدت ضيقة جداً، أكثر مما تتذكر، وفتحت خزانة الثياب ثم تراجعت لتجلس على الفراش وتحدق في الرف العلوي الذي احتوى على جهازها الذي اشترته قطعةً بقطعةٍ، وقسَّطت سعر بعض مكوناته لأشهرٍ، كطقم النوم الأبيض ذو القطعتين والذي اختارته ليكون لليلة الزفاف، وها هو لا يزال ملفوفاً في كيسه البلاستيكي منتظراً العرس الذي لن يتم أبداً...

لم تحمل معها إلى حياتها الجديدة شيئاً من القديمة، ولا حتى الثياب.. بل بالكاد أخذت نفسها.. وقد أوضحت لها مي سخافة أن تأخذ الملاءات والمفارش التي جهزت بها نفسها إلى الفيلا، وكيف سيجعلها هذا محل سخريةٍ واستصغارٍ لذوقها الشعبي ورخصها، وعموما، لم تكن بحاجة لإقناعها، فلم تنو مهرة أخذها معها لنفس السبب، ولأن لكل قطعة منهم قصةً كتبتها وعاشتها في خيالها، ولن تستطيع أن تعيش حياةً أخرى فوق رفات أحلامها...

الظلام الذي لفها جعلها تشعر بالبرد، فارتعشت أطرافها وهي تتكوم فوق الفراش لتحتضن جسمها علها تدفئ أوصالها تحت الغطاء الذي شدته ليضمها كما اعتاد على مر السنين، متسائلة أكانت الشقة دائماً شديدة البرودة هكذا، أم أن تغيير جلدها بآخر جديدٍ رقيقٍ هو السبب؟!..

طارق... طارق.. طارق... كلمة واحدة ترددت كدقات القلب بين جوانب هذه الحجرة لسنواتٍ وسنواتٍ.. الاسم الوحيد الذي سكن قلبها وهيمن على كيانها وداعب خيالها كلما نظرت إلى خزانتها كما تفعل الآن... ونفس الاسم هو الذي دك حصونها وأضعف همتها ودفاعاتها في مواجهة الحياة القاسية... بكلمةٍ واحدةٍ أنهى كل شيءٍ... لا، بل بلا كلمات.. نجحت حتى الآن في حماية نادرٍ من خيانة القلب مع الذكريات القوية ولكن إلى متى يجب أن يستمر هذا الشقاء؟!! متى سيعتاد القلب ألا ينبض وتعتاد العين ألا تبكي؟!! متى ستقول لزوجها بأنها تحبه، وتصدقها أذنيها؟؟!!

لقد ظنت بأنها بزواجها المحسوب، ستُطلق رصاصة الرحمة على قلبها المكلوم ليرقد أخيراً بسلام.. ولكنه أبداً ما هدأ ولا ارتاح!! اعتقدت بأنها بزواجها من رجلٍ محترم، يحبها ويقبل على حياتها المهشمة لينقذها من بين أنقاضها، سوف تشعر بالأمان والراحة وستنسى كل آلامها، ولكن الأحاسيس المتضاربة الآن تكاد تقتلها، وتشعر بعواطفها تدور كالأفعوانية، حتى أنها كثيرا ما شعرت بالغثيان من التحول المفاجئ بين الارتفاع الشاهق والانخفاض السحيق لمزاجها...

أراحها نادرٌ برفضه للتعرف على تفاصيل خطبتها وكيف انتهت، ولم تلح عليه ليعرف، حتى أنه لم يشأ أن يعرف اسم خطيبها السابق معلِّلا ذلك بأنه جزء من الحياة التي يريدها أن تلقيها خلف ظهرها، ولا يريد اسمه، ولو على سبيل الذكر، أن يعبر بالها أو يلامس شفتيها..

أرجعت رأسها إلى الوراء وصورة نادر تملأ عينيها... رجلٌ محترمٌ عطوفٌ شغوفٌ، ولكنها تشعر بأن هناك شيءٌ ما يخيفها منه... ربما طريقته المسيطرة في تولي الأمور وأسلوب كلامه وإصراره على تنفيذ ما يريد، إن لم يكن باللين فبالقوة، والتي لم يضطر لاستخدامها معها حتى الآن!! نمط حياته وطبيعة عمله ومكانته تلقي بظلالٍ ثقيلةٍ على شخصيته، ما سبَّبَ وسيُسبب بينهما صداماتٍ كثيرةٍ..

تأوهت وهي تمسك بقلبها..

دق جرس الباب فانتفضت وقطبت متسائلةً عمَّن يمكن أن يكون الزائر؟ (هل يمكن أن يكون ماجد؟ لا، فماجد معه المفتاح.. يا إلهي، ربما كان نادرٌ مع أخي يتفقدونني لتأخري...).. ألقت عنها الغطاء وهي تنظر إلى ساعتها.. سارت في الظلام ببطءٍ وأفزعها تكرار رنين الجرس فحثت الخطى وفتحت الباب بسرعةٍ... وهناك أمامها، على بعد خطوةٍ و احدةٍ، وقف طارقٌ في حلةٍ كاملةٍ جديدةٍ عاجيةٍ وقميصٍ أزرقَ سماوي وتتدلى حول رقبته كوفيةً زرقاءَ مماثلة، وقد ارتسمت على محياه ابتسامةٌ مترددةٌ.. فغرت فاها لتتحدث، ولكن فاها تصلب مفتوحا وهو يطالعها بنظراتٍ متفحصةٍ من قمة رأسها إلى أخمص قدميها على ضوء اللمبة الصفراء الشاحب الذي تسلل من ورائه.. مال برأسه لينظر وراءها ثم عاد لينظر إليها قائلاً بتساؤلٍ: «**مهرة!! م.. أنت.. لم المكان مظلم هكذا؟**». أشار إليها متابعاً: «**و.. هذه الملابس؟!! ما..!!**».. تنفست بصعوبةٍ وقد استوعبت الموقف وترددت فيما عليها أن تفعل.. هل تدعوه إلى الدخول؟ أم تتحدث معه على عتبة الباب تحت سمع أذن جارتها الفضولية، والتي وبلا شك،

لابـد وأنهـا ملتصقـة الآن بباب شـقتها لتسـترق السـمع وتنشر الأخبـار؟... ولكـن البديـل صعـب، فهي امـرأةٌ متزوجـةٌ ولا يمكـن أن تخاطر بـأن يُعرف عنهـا أنها اسـتقبلت رجـلاً بشـقتها وحدهـا .. حتـى هـي لم تستسـغ وقـع الكلـمات عـلى أذنيهـا، لهـذا حزمـت أمرها وقالـت بصـوتٍ خافـتٍ: «**دقيقة، سـأحضر حقيبتـي و ..**».. توقفت حـين تخطاها ودخل إلى وسـط الردهةِ بعدما أغلـق البـاب وراءه فغضبـت وقالـت بصوتٍ عـالٍ نسـبياً: «**ماذا تظن نفسـك فاعـلاً؟! أنـا هنـا وحـدي ولا يصـح أن تقتحـم البيـت هكذا دونـما اسـتئذان.. من فضلـك دعنـا نذهب إلى حيـث يمكننا أن نتحـدث.**».. جلس ووضع سـاقاً فوق الأخـرى قائلاً باسـتفزازٍ وهو يشـير إلى الفـوضى حوله وإلى ثيابهـا: «**ليس قبل أن تشرحـي لي كل هـذا.. رأسي يدور في اتجاهاتٍ ليسـت بجيدةٍ، ومـا أراه يثبتها لي، فلـم لا تخبرينـي لم يغطـي الغبـار كل شيء؟ لم ترتديـن ملابسـاً جديـدةً غاليـةً؟ أيـن ماجـدٌ ومـي؟ لم أخـبرني كل مـن قابلتـه في طريقي إليـك أنني محظوظ لأني سـأجدك هنـا بعـد غيابـك طويلاً؟.. مـاذا يحدث هنا يـا مهرة؟ أرجـوكِ توقفي عـن التحديق بي هكـذا وردي قبـل أن أجـن.**».. بقيـت واقفـةً قـرب البـاب عاقـدةً سـاعديها أمـام صدرهـا، وهي تقضـم أظافرهـا المنمقة مفكرة بـما عليهـا أن تقول... في رأسـها، عاشـت هذه اللحظـة مئات المـرات، بمئات السـيناريوهات.. ورغـم هـذا، هـا هـي تقـف كالصنـم تتدافـع الـردود إلى عقلهـا ولا يعـبر أحدهـا شـفتيها، يشـتتها تفكيرهـا بـضرورة خروجه مـن بيتها فـوراً...

عقدت عزمها أخيراً، ففتحت باب الشقة وعادت تعقد ذراعيها أمام صدرها وقد سكن العناد نظراتها، فوقف بحدةٍ وتقدم ليصفق الباب وقد احتجزها بينهما مقترباً منها بطريقة لم يفعلها من قبل، ورغم صدمتها فقد دفعته بقوةٍ ما جعله يتراجع بسرعةٍ رافعاً ذراعيه ليقول مُوضحاً: «**اهدئي، ما بكِ يا مهرة؟ أعلم بأنكِ غاضبةً مني ولكنك قاسيةٌ جداً، وحكمت علي دون أن تسمعي دفاعاتي!!**».. ردت باقتضاب: «**لا فرق سيحدث الآن.. من فضلك غادر حالاً.**».. صرخ بقوةٍ: «**توقفي.. من أنتِ؟! ما كل هذا البرود؟!! أغيب قرابةَ عام واحدٍ فقط لأعودَ وأجد امرأةً غريبةً حقودةً بدلاً من خطيبتي الرقيقة التي كانت تَحمرُّ خجلاً**

حين أبتسم لها؟!! ماذا حل بكِ؟ هل..؟ لا أعرف كيف أقولها بكلماتٍ أكثر تهذيباً، ولكني أخشى أن تكوني..».. صاحت به وهي تحاول السيطرة على مشاعرها وأعصابها: «**ولا كلمةٍ واحدةٍ زائدةٍ، وإلا أقسم بالله، سأجعلك تندم حتى الموت.. لا أريد أن أسمعك، ولا أن أراك..**».. فتحت الباب مجدداً قائلةً بقوةٍ هذه المرة: «**لآخر مرةٍ سأطلب منك بأدبٍ أن تغادر.. ولا تحاول الاتصال بي أو زيارتي مجدداً.. أتمنى أن يكون كلامي واضحاً..**».. تقدم منها بعينين محمرتين وقد غلى الدم في عروقه من قسوة ظنونه فقال بصوتٍ أودعه غضبه وشكوكه: «**هذا يثبت ظنوني.. عملك معلمةً في بيوت الأثرياء فتح لك أبواباً أخرى، أليس كذلك؟ أكثر إمتاعاً وأقل مجهوداً، وبعوائدٍ تفوق الخيال، كما يبدو..**».. ضربته على صدره بكفيها صارخةً: «**اخرس.. أتجرؤ.. أنت .. حسنٌ.. قل وافعل ما شئت.. اضرب رأسك بالحائط..**». شدته من كمه بقوةٍ وهي تكمل بصوتٍ أعلى : «**فقط لا تدعني أراكَ مرةً أخرى.**». توقف ينظر إليها بذهولٍ وكأنه يراها لأول مرةٍ، وراقها قليلاً تعبير الصدمة الذي ارتسم على وجهه فتمادت عاقدةً ذراعيها أمام صدرها لتقول وهي تميل برأسها بتحدٍ: «**ونعم، عملي في بيوت الأثرياء فتح لي أبواباً أخرى.**»..

تسمرت وهي ترى كفَّه تطير في الهواءِ لتحط فوق خدِّها بقوةٍ أفقدتها توازنها ولكنه أمسكها من مرفقها قبل أن تسقط ليقربها صارخاً: «**هل جننتِ؟ تكلمي، أين ماجد ومي؟ أخبريني... تحدثي.**».. كانت الصدمة عنيفةً ولم تستطع أن تنطق ولا أن تمنع العَبرة التي انسابت على خدها المتألم... قربها أكثر مردداً: «**تكلمي يا مهرة، لا تثيري جنوني أكثر وإلا ارتكبت جنايةً..**»..

«**أأنت بخيرٍ يا مهرة؟**».. نظرا إلى جارتها، أم أحمد، صاحبة كشك السجائرِ والمناديل، فقالت مهرة وقد حمدت الله على حشرية جارتها في هذه اللحظة: «**تعالي يا أم أحمد لأسلم عليك، فسأغادر الآن..**».. تقدمت منها المرأة العجوز فاقتربت بدورها وعانقتها بقوة فاجأت جارتها وهي تهمس في أذنها: «**لا تذهبي.**». وردت العجوز هامسةً بدورها وهي تربت على ظهرها بتفهم وخبرةٍ: «**اطمئني.**».. تركتها مهرة وهمت بالتحدث إلى طارقٍ حين رن هاتفها

المحمول الذي تركته بجوار حقيبتها على السرير فدخلت لتحضره تاركةً طارق يقاوم رغبته في اللحاق بها أمام نظرات السيدة الفضولية، التي كانت تحاول أن تفهم ما يجري، فمنذ فترةٍ طويلةٍ لم يعد أحد يرى طارقاً، ثم حديثا، اختفت مهرة وأخواها .. واليوم يعودان ويملآ العمارة بصراخهما.. طفق خيالها ينسج الأحداث والتصورات وعينيها تبحثان في كل ملمحٍ عن الأدلة على صحة القصة التي ألفتها...

وَأخيرا أقدم طارقٌ على اللحاق بمهرةٍ ولكن يد العجوز النحيفة أمسكت بمعصمه بقوةٍ مجبرةً إياه على النظر إليها وهي تقول بصوتٍ خافتٍ جادٍّ: «**اسمع يا هذا، حين قبلتُ منذ بضعةِ أيامٍ أن أطلبك حين أرى مهرة، لم أكن أدري بأنك تنوي إيذاءها.. البنت ابنة حلالٍ ومسكينةٌ ولم نرَ منها أو من إخوتها سوءاً طيلة السنين الماضية.. فأقسم بالله، لو مددت يدك عليها ثانيةً، فسأصرخ وأنادي لك رجال الشارع يجروك على السلم جراً ويعطونك ما فيه النصيب.. مفهوم؟**».. هز رأسه إيجاباً فتركته ليلحق بمهرة.. وجدها جالسةً على حرف الفراش والهاتف في قبضتها تنظر إليه دون أن تأتي بحركةٍ والدموع تنساب على خديها بصمتٍ.. تقدم وقد نبهها صوت حذاءه على البلاط العاري فوقفت بتحفز وهي تقبض على هاتفها بقوة.. قال بصوتٍ هادئٍ: «**أنا آسف يا مهرة.. لم يكن من المفروض أن أجرحك بكلامي ولا أن أمد يدي عليكِ مهما كان السبب.. آسف..**»..

سحبت حقيبتها وأخذت تغلق الأدراج والأبواب المفتوحة وهي تقول ببرودٍ: «**لا أدري لم لا زلتَ هنا؟ عامةً، ابقَ ما شئت، فأنا مغادرةٌ ولكن تأكد من إغلاق الباب جيداً وراءك.**» دفعته برفقٍ لتفسح لنفسها الطريق فاستسلم هو لدفعتها حتى يتجنب تطوير الموقف أمام عيني الجارة الحشرية وتبعها إلى الردهة وسمعها تقول لأم أحمد: «**سأنصرف الآن يا أم أحمد، فقد تأخرت**». ردت العجوز وهي تُقبّلها: «**بالسلامة يا حبيبتي.**». سألتها مهرةٌ بأدب: «**هل تريدين شيئاً مني قبل أن أنصرف؟.**» ثم مدت يدها في حقيبتها وأخرجت قلماً ومنديلاً ورقياً مطوياً، بعدما فشلت في

إيجاد ورقةٍ بداخلها، ودونت على المنديل شيئاً ثم ناولته للمرأة التي كانت عينيها تتفحصانها دون إغفال أدق التفاصيل من رأسها وحتى أخمصِ قدميها. قالت وهي تعيد القلم وتتوجه نحو الباب: «**اطلبيني متى احتجتِ شيئاً أو إذا طرأ أمرٌ ما بخصوص البيت.. حسنٌ؟.. مع السلامة..**». سمعت أم أحمد ترد تحيتها وهي تغادر الشقة، وهمت مهرة بدورها بالمغادرة، ثم توقفت على العتبة لتقولَ لطارقٍ الذي تبعها كظلِّها: «**اسمع يا طارق، لا أدري فيمَ تفكر، ولكنك بالتأكيد لا تتصور بأنك ستعود لتجد الأمور كما تركتها، أليس كذلك؟.**» فتح فاه لِيَرُدَّ لكنها تابعت: «**واطمئن، أنت لم تجرحني بصفعتكِ يا طارق فلقد ذبحتني سابقاً ولن تفعل شيئا بعد الآن بإمكانه أن يؤذيني.. مفهوم؟.. والآن دعني أنصرف و ا تتبعني، ولنقفل الباب على هذا الوضع للأبد..**».. نزلت أولُ درجةٍ ولكنه سبقها ووقف ليواجهها قائلاً: «**اسمعي يا مهرة، أعلم والله بأن ما فعلته لا يغتفر وبأنني أسأت إليكِ وأحرجتكِ أمام الناس ولكنني كنت أبحث عن فُرصٍ أفضل وظروفي لم تكن كما تخيلت.. وعموماً أنا الآن نادمٌ وأريد أن أعوِّضك، فَمُريني بما ترين بأنه سيَرُدُّ لك اعتبارك ويعيد المياه إلى مجاريها..**».. كان قلبها ينبض بقوةٍ وهي تسمع صوته وتراه على بعد خطوةٍ واحدةٍ منها وعينيه متعلقتين بعينيها يرجوها ويستعطفها.. هذا القرب الذي لطالما حلمت به، وهذه الكلمات التي تاقت لسماعها على مر الشهور الماضية، اتضح لها الآن أنها لن تعالج جرحاً ولن تسكن ألما، وإنما استفزتها لأقصى حدٍ، حتى أنها أرادت أن تقذفه بشيءٍ لتؤذيه، واختارت أن يكون هذا الشيء هو كلماته وكلماتها فقالت وهي ترفع أحد حاجبيها: «**أحرجتني أمام الناس!!**». لكزته بإصبعها برفقٍ على صدره مكملةً: «**أنت كنت الناس يا طارق، لم يكن لي أحدٌ سواك!!.. أي مياه تلك التي ترجع إلى مجاريها؟ آه نسيت أن أخبرك بأمرٍ بسيطٍ.. ربما سيساعدك على أن تتخطى مسألة المياه والمجاري هذه.. أنا الآن متزوجةٌ..**». توقفت تستمتع بالصدمةِ التي ارتسمت على محياه وفمه الذي أخذ يفتحه ويغلقه كالسمكة التي خرجت تواً من البحر.. قال أخيراً:

«كيف؟ من؟ ما الذي تقولينه يا مهرة؟!!».. ردت هي تعقد ذراعيها حول صدرها: «مثلما يفعل الناس؟ أمَّا بالنسبة لِمَنْ، فهو رجلٌ محترمٌ جداً ومعروفٌ.. وما أقوله، أن كل شيءٍ أخيراً أصبح في نصابه الصحيح.. أنا متزوجةٌ كما كنت أخطط الآن وأنت حرٌّ لتبحث عن الوضع المثالي لك... الفرق الوحيد هو أن كل منا فعل ما يريد بعيداً عن الآخر، فيما يبدو لي الآن، الوضع الأمثلَ والأفضل..» تقدمت خطوةً مكملةً: «والآن أفسح لي الطريق لأني تأخرت بالفعل ولا أريد أن يقلق علي زوجي أو أخويّ..».. مد يده ليمسك معصمها فأفلتته منه ودفعته بقوةٍ، تعجبت هي نفسها كيف واتتها، وقالت بنفس القدر من العزم والقوةِ: «إياك أن تلمسني..». أشارت إليه بسبابتها محذرةً: « أتفهم؟!! زوجي يستطيع أن يسحقك بإصبع قدمه الصغير دون أن يرف له جفنٌ ولا أن يجرؤ أحدٌ على محاسبته.. فابق بعيداً عني يا طارق، وإلا أقسم بالله، سأجعلك تدفع ثمن كل لحظة ألم سببتها لي..».. تركته وانصرفت ودقات قلبها تصمُّ أذنيها وحلقها جافٌّ كالصحراءِ، وعلى الرغم من الهواء البارد الذي لطَمها لحظةَ غادرت العمارة القديمة إلا أنها شعرت بأذنيها تحترقان والدم يغلي في رأسها.. سارت بخطواتٍ واسعةٍ سريعةٍ متعثرةٍ وقد لف الضعف قدميها... لم تواجه يوماً طارقاً بهذه الطريقة!! بل لم تواجه يوماً مخلوقاً بهذه الطريقة!!!!!! ولم تتحدث بهذه القوة مع أي إنسانٍ على وجه الأرض، كما لم تهدد ولا حتى قِطَّةً بالطريق!! فكيف تمكنت من قول ما قالت في وجه خطيبها.. السابق...؟!!! هل هذه هي السلطة وسطوة المال التي لطالما سمعت الناس تلعنها؟!! هل يمكن لتوقيع مختصرٍ على ورقةٍ واحدةٍ أن يحولها ممن كانت إلى ما صارت عليه، تتحدث بإصبعها وتهدد... بالسحق؟!!!!! تُرى هل تبعها طارقٌ؟.. التفتت حين وصلت إلى بحر الشارع الواسع فلم تجد له أثراً... أوقفت تاكسياً أبيضاً وأخبرته عن وجهتها باقتضابٍ... نظرت مرةً أخيرةً من النافذة نحو الشارع حيث أتت، فوجدته هناك.. واقفاً.. يراقبها وأدار وجهه حين تلاقت نظراتهما... تحركت بها السيارة فتبعت طارقاً بعينيها حتى التوى جسدها تماماً إلى الخلف إلى أن اختفى في الزحام بين أفواج العباد...

اعتدلت وأخرجت منديلاً لتجفف عينيها متجاهلةً نظرات السائق المتسائلة.. حسنٌ.. ما حدث قد حدث.. فلتركز الآن في الحياة التي تأخذها إليها هذه السيارة المؤجرة، ولتعُدْ للاستغراق في تنشئة أخويها علَّها تنسى ما كان، أو تحب ما سيكون...



شهقت مهرة في صمتٍ وهي تتفحص ذقنها وشفتها المجروحة إثر صفعة طارقٍ.. كان قرار حكيماً منها أن أوقفت السيارة المؤجرة على جانب الطريق الخاص المؤدي إلى الفيلا لتتأكد من مظهرها أولاً، فما رأت سيكون ذا أثرٍ كارثيٍّ وبخاصة وأن وصولها سيسترعي انتباه الجميع... فكت شعرها وفردته وهي تجرب أكثر من وضعٍ له لتواري الكدمة الخفيفة أعلى ذقنها، واستعملت أحمرَ شفاهٍ قاتماً لتغطي الشّق الصغير في جانب شفتها السفلى، كما لم تنس أن ترسم عينيها العاريتين المحمرتين بقلم الكحل الرفيع..

كان عقلها يتقلب قَلِقَاً باحثاً عن سببٍ منطقيٍّ تقوله لزوجها يبرر هذه الإصابة، فلو أفللت من عيون جميع أهل البيت، فلن تستطيع أن تخفيها عن الرجل الذي ستستيقظ إلى جواره في الصباح دون مساحيق تجميل....

على باب الفيلا، وقفت تأخذ عدة أنفاسٍ عميقةٍ وتحاول بجهدٍ رسمَ ابتسامةٍ واسعةٍ على شفتيها، والتي أدركت بأنها مؤلمةٌ موضعياً بقدر ما هي مؤلمة نفسياً، فخففتها قليلاً... وكما توقعت، فما أن فتحت الباب الزجاجي حتى خفَّ إليها أخواها من حيث لا تدري يعانقانها ويثرثران بلا توقفٍ، حيث يخبرها ماجدٌ عن تجربةِ قيادة سيارة سامرٍ وكيف أنه أظهر براعةً فيها، بينما عبارات ميٍّ كانت مزيجاً من الأسئلة والجمل الإخبارية، وهي وسطها تضحك دون توقفٍ... ودون إنذارٍ، شهقت مي وهي تمد يدها لتلمس ذقن شقيقتها، فحدقت لها مهرة بأن تصمت الآن، و لكن بعد فوات الأوان، فقد أفلتت من أختها صرخة صغيرة وهي تقول صائحةً:

«**ما هـذا؟ مـاذا حدث؟ من فعـل بكِ هـذا؟**».. توقفـت حين تلقت نظـرة أختها ولكـن ماجـداً أمسـك وجهها وقد انتفض عـرق في جانب وجهه وهو يسـألها بغضـبٍ وإنـما بصـوتٍ خافـتٍ: «**مـا هـذا يا مهـرة؟ هو مـن فعـل بكِ هـذا؟**».. هـزت رأسـها نفيـاً وقالـت متوسـلةً بصـوتٍ خافـتٍ وهـي تـرى زوجهـا وشـقيقه يتقدمـان نحوهمـا: «**لا والله.. أرجوكما، فقط دعا الأمر الآن وسـأخبركما بـكل شيءٍ فيـما بعـد..**».. لم يـردَّا واعتـبرت صمتهما موافقـةً، فأعادت شـعرها إلى الأمـام كـما كان وتقدمـت لتقابـل زوجهـا الذي قبـل خدها بخفـةٍ وابتعد ليسـمح لشـقيقه بـأن يرحب بها... سـلم فـؤادٌ عليهـا ولكنه بعينيـه الخبيرتين رصـد مـا أصـاب وجههـا، فحجـب بجسـمه مهرةً عـن زوجهـا قائـلاً وهو يشـير بعينيـه إلى ذقنهـا: «**كيـف حالـك؟**».. قالـت بصـدقٍ وهـي تتهـرب من نظرتـه الفاحصـة: «**بخـيرٍ والله.. لقـد اشـتقت إليكـم جميعـاً.. أيـن شـهد؟ لقـد اشـتقت إليهـا فـوق مـا تتصـور**».. تـرك يدها وهو يجيـب بهـدوءٍ زائـدٍ: «**نائمةٌ، فلـم تتوقـف عـن القفز والركـض طيلـة النهار مـذ عرفـت بعودتكـما.**»، ولم ينتظر ردهـا وإنـما ابتعـد ليجلـس في الردهـة والضيـق يعلو وجهـه ويخنق أنفاسـه، مفكـراً في السـبب الـذي يمكـن أن يجعـل أخوه يؤذي عروسـه بهـذه الصورةِ في شـهر العسل!..

لم تدخـل مهـرة إلى الردهـة كـما توقعـوا وإنما سـارت نحـو الـدرجِ قائلةً بلطـفٍ: «**سـأصعد لأبـدل ثيـابي وأسـتلقي قليـلاً، فأنا أشـعر بصـداعٍ فظيـعٍ..**».. سـألها نادرٌ وهـو يدنو لينظـر إليها بإمعـانٍ: «**ما بك؟ هـل أسـتدعي الطبيبَ؟**». ضحكـت وهـي تريـح كفهـا على يـده التي أمسـكت بيدهـا مجيبةً بخفـةٍ: «**أي طبيـب؟ لا، بالطبـع لا، الموضـوع ليـس أكثر مـن بعض الصـداع، فلم أتناول شـيئاً منـذ الصبـاح... سأسـتريح حتـى موعد العشـاء وسـأكون بأفضـل حـالٍ حينها إن شـاء الله.**». قـال وهـو يصعـد الـدرج إلى جوارهـا تحـت نظـرات ماجـدٍ ومي الغاضبـة: «**سـأرافقكِ لأطمئـن عليـك.**»، ولكنها اسـتوقفته لتقـول برجاءٍ: «**لا تُكَـبِّر الحكايـة يـا نـادر... ابـقَ مـع الباقـين، فـلا تجعلنـي مركز اهتـمام الجميـع.. لا أشـعر بالارتيـاح لهذا الشـعور، كما أني سـأتضايق لإحسـاسي بأنني غـيرت الأجواء**

المرحـة بمجـرد وصـولي..». أومـأ دون أن يعلق، وتركهـا ليعود إلى شـقيقه بينما وقـف أخواهـا مكانهـما لا يدريـان ما عليهـما فعله، حتـى تقدمت مـيّ بسرعةٍ تقفـز الدرجـات لتصاحبها في صمـتٍ وتبعهما ماجـدٌ دون مزيدٍ مـن التردد..



استرخى نادرٌ على الأريكة بجوار فؤادٍ وعينا الأخير تحاولان سبر أغواره دون أن يفصح عن قلقه بكلماتٍ قد يصدها شقيقه بحزمٍ أو حتى بضيقٍ... انتظر لحظاتٍ ليدع نادر يبدأ هو الكلام، ولم يطل انتظارَه حيث قال أخوه بابتسامةٍ عريضةٍ: «**لا يمكن أن أصف لك سعادتي اليوم.. أخيراً بدأت الأمور تنصلح في البيت وعادت إليه الحياة كما كانت..**» ثم ربت على ركبةِ فؤادٍ متابعاً: «**والأهم، أنك عدت كما كنت... شقيقي عاد لي ولابنته..**».. بادله فؤادٌ الصمت ثم تنحنح ومال إلى الأمام ليشبك أصابعه ببعضهم قائلاً وعيناه متعلقتان بعيني نادرٍ: «**أفكر بتأجيل موضوع الخطبة هذا إلى ما بعد... أظن أن الوقت ليس مناسباً بعد.**».. رفع نادرٌ حاجبيه وقد دهش لتغير حال أخيه الذي تفانى في إقناعه ليترك الشركة ويعود باكراً لسببٍ هام، والذي أفصح عنه مضطراً بأنه سيعلن خطبته على أميرةٍ الليلةَ ويريد أن يكون الجميع موجودين عندها.... فقال متعجباً: «**أي ظروفٍ؟ لمَ غيرت رأيك؟ لقد كنا منذ قليلٍ نحدد موعداً للزفاف!!!! ما الذي جد؟**».. فتح فؤادٌ فمه ولكن أخاه الكبير استوقفه قائلاً بجديةٍ: «**اسمع يا فؤاد، الليلةَ ستعلن خطبتك و ننتهي من هذه المرحلة، أولاً، لأن الأمر طال على أميرة وأي امرأةٍ مكانها لن تطيق كل هذا التأجيل دون داعٍ.. وثانياً، الحياة لن تتوقف عن دفع الأحداث والظروف غير المناسبة أمامنا كل يوم، وعلينا فقط أن نعيش أيامنا وأفراحنا بالرغم من هذا.. وثالثاً... ما هو الظرف غيرُ المناسب الآن؟ لقد كنتُ تواً أخبرك بأن الأحوال صارت إلى ما نحب والحمد لله كلنا بخير!**»..

لم يتمالك فؤادٌ نفسه فسأله بحيرةٍ: «**لِمَ عدتما باكراً يا نادر؟ هل حدث بينكما أمرٌ ما؟ أتشاجرتما؟!**».. تمكن نادرٌ من الحفاظ على ملامحه طبيعيةً مخفياً حيرته

من أمره... فيوم سفره ومهرة، أخبره فؤادٌ بانه لن يتصل به وسيدعه هو ليتصل به وقتما يتاح له، وهذا ما حدث، إلا أنه كان كلما اتصل بشقيقه، كانت أميرة هي من تجيب على الهاتف، وفي المرتين لم يتحدث إلى فؤادٍ إذ كان الأخير إما في الحمام أو يحاسب على مشترياتها وقد ترك هاتفه معها لسببٍ غير مفهوم... وفي المرة الأخيرة، ليلة عاد هو ومهرة، تحدثت أميرة مع عروسه عن مدىً تسيب أخويها وكيف أنهما أهملا دراستهما تماماً وأقسمت بأنها لم تكن لتخبرها لولا أنها وجدت أن الأمور قد خرجت تماماً عن السيطرة وتخاف من تحمل مسئولية عدم إبلاغها، وبالطبع ألحت عليها بألا تعود باكراً حين أخبرتها مهرة عن عزمها العودة في لحظتها، وحاولت إقناعها بأنها فقط تريح ضميرها وبأن ليلتين أخريين لن تُحدثا فرقاً كبيراً، إلا أن مهرة أقامت الدنيا ولم تقعدها ليلتها وأثارته حتى صرخ بوجهها وترك غرفتهما وحين عاد وجدها قد حزمت أمتعتهما، ولأن ما دار بينهما من كلام وما قذفته مهرة في وجهه من تعليقات حادة قد استنفذ طاقته على الاحتمال، فلم يكن أمامه إلا خياران وقد اختار أسلمهما لزواجه، ولها تحديدا... و لكن هل من الحكمة أن يخبر فؤاداً عما يبدو أنه يجهله وما حرصت أميرة على إخفائه عنه؟ فلو كانت أخبرته عن اتصال نادر به لكان اتصل به بدوره على الأقل، فما بالك بأنها سبب عودتهما وخلافهما؟!!! قال وهو يمط شفتيه ببساطةٍ: «**ألم أخبرك بأنه العمل؟**». رد فؤادٌ: «**وبالطبع تشاجرتما لأنها لا تريد أن تقطع شهر العسل من أجل العمل؟ أليس كذلك؟**».. ضحك نادُر ملءَ فيه على هذا التناقض ولكنه قال وسط ضحكاته: «**والله إننا بخير، فلا تقلق.. ودعنا نفرح لله يا أخي دون منغصاتٍ..**». لم يكن أمام فؤادٌ سوى الخضوع متجاهلاً ما يشعر به وما رأى من علامات على وجه مهرة، والاكتفاء بما قال أخوه، فأرجع ظهره إلى الوراء وهو يبسط يديه قائلاً باستسلامٍ: «**إذاً فهو الزواج، والأمر لله من قبل ومن بعد...**»..



« **لن ننزل ولن تذهبي إلى أي مكانٍ قبل أن أعرف ماذا حدث ومن فعل بك هذا...**»، قال ماجدٌ بعصبيةٍ وعزم وهو يغلق الباب خلفه هو وأختيه بينما تقدمت الاثنتان لتجلسا على حافة الفراش الواسع والتوتر يخيم عليهما.. ردت مهرة وهي تستريح على الوسائد الكبيرة وتشير لماجدٍ كي ينضم إليهما حيث تجلسان: «**تعالَ واجلس، وحاول أن تهدأ، فليس الأمر كما يبدو إطلاقاً.**»، ولكنه لم يجلس واكتفى بالوقوف عاقداً ساعديه عند قدم السرير معلقاً بغضبٍ: «**أقسم بالله لو كان نادرٌ هو..**».. اعتدلت مهرة لتصيح به بحزم: «**اسمه(أبيه) نادر يا ماجد.. عَيب، لا تنسى أنه أكبرُ منك وزوجُ أختك الكبيرةً.. وقلتُ لك بأن..**».. صمتت لتفكر في سببٍ مقنع ومنطقيٍّ آخر لا يتضمن ذكر الحقيقة، ويُرضي ماجداً، فلم تجد، فمَن مِن المفترض أن يتطاول عليها هكذا دون أن يثير حفيظة شقيقها؟!!!! تأففت وشعرت بتأنيب الضمير وهي تلصق التهمةَ بزوجها، مع حرصها على أن تبدو هي المذنبة، وأنها تستحق ما فعله بها، فتنهدت موضحةً: «**بصراحة، أنا مَن استفززته مِن البداية..**». أراد ماجدٌ أن يعترض ولكنها استوقفته مكملةً: «**لا تعلق حتى أنتهي مما أقول..**»، ونقلت نظرها بين الاثنين وهي تعجبُ من صمت ميٍّ التام، ثم قالت حين اطمأنت لاستجابتهما: «**لقد نعتُّه بألفاظٍ لا يجوز أن تنعت بها زوجةٌ زوجَها، ففقد أعصابه ولهذا عدنا..**».. سألها ماجدٌ وهو لا يزال على وضعيته المتحفزة: «**وما سبب الخلاف الذي يجعلك تفقدين صوابك كي تسبي زوجك، وتقطعي شهر العسل؟!!**».. ردت بهدوءٍ: «**ليس من المفترض أن أبوح لكما بكل ما يدور بيني وبين زوجي يا ماجد!. ثم أنت تتحدث وكأننا أبكرنا بالعودة أسبوعاً مثلاً، إنهما فقط يومين!!**». تحدثت ميّ للمرةِ الأولى منذ دخلوا الغرفة: «**يومين من عشرة، وليس من شهر..**».. زفرت مهرة بقوةٍ قائلةً بعصبيةٍ وهي تقف: «**هل هو تحقيق؟ هذا ما حدث.. انتهينا.**».. أشارت إليهما بسبابتها محذرةً: «**إياكما وأن يبدو عليكما أنكما تعرفان شيئاً، أو تتعاملا مع نادرٍ بطريقةٍ غيرِ لائقةٍ.. لا يجوز لكما أن تتدخلا بأي شكلٍ من الأشكال في علاقتي بزوجي.. مفهوم؟ لا تزيدا المشكلة بأن تجعلاني أبدو كمن تُفشي أسرار علاقتها بزوجها.. هل تفهماني؟!..**».. هزا رأسيهما باستسلامٍ ووقفا ليغادرا، وعند الباب استدارت

مي لتمس وجه مهرة وقالت بعدما تأكدت من ابتعاد ماجدٍ: «**علامات الأصابع لا تزال موجودةً يا مهرة، لقد حدث ما حدث أياً ما كان، منذ قليلٍ، وليس (أبيه) نادر هو من فعل بكِ هذا..**». قطبت مهرة دون أن ترد، فتابعت مي: «**لن أخبر ماجداً، ولكن أرجو ألا يكون قد حدث ما في بالي اليوم.. لا تتأخري على العشاء وحاولي أن تضعي مساحيق تجميلٍ أكثرَ.. من حسن الحظ أن (أبيه) نادر لم يلحظ شيئاً..**»، واستدارت لتغادر، إلا أنها تذكرت شيئاً آخر فعادت لتقول لأختها التي وقفت مشدوهةً مما تسمع: «**لقد خرجتِ منذ العصر وقضيتِ اليوم بطوله في البيت لتحضري أغراضاً هامةً، ومع ذلك عدتِ خاليةَ اليدين تماماً!!! ألن يتساءل (أبيه) نادر؟!!**».. ردت مهرةٌ وهي تؤكد على حروف كلماتها: «**لقد كنتُ في بيتنا يا مي، وبالفعل أردت أن أحضر بعض الأغراض، ولكني لاحظت بعدما رتبت الأشياء في أكياسٍ، بأنني لن أستطيع إحضارها وحدي، لذا استمريت في ترتيب الشقةِ وفرز باقي الأغراض على أن أعود معكما في يومٍ آخر لإحضارهم.. هل اكتفيت بهذا التفسير؟! أم تحبين أن تعودي لترفعي البصمات؟!!.**».. هزت مي كتفيها وقالت بصبيانيةٍ: «**المهم أن يكتفي (أبيه) نادر به.. عموماً، لا تنسي أن تغطي هذه العلامات جيداً.. فالثعلب العجوز سيكون هنا بعد قليل.. طلبوه منذ الصباح وأخبرهم بأنه سيكون هنا قبل العشاء.. يعني، هو على وصولٍ..**»..

لمحت مهرة حركةً في آخر الرواق الواسع وحسبتها أميرةً تخرج من غرفتها، ولكن الظل الطويل الذي لاح عندما فتح الباب كان لشخصٍ آخر، ولأنها في غنىً عن أي تمثيلٍ أو تفكيرٍ أو افتعالٍ، فقد رأت أن التصرف الأمثل هو التظاهر بعدم ملاحظة ذاك الشخص الذي اتضح أنه سامرٌ وهو يقترب منهما، لهذا تصرفت بسرعة، فشدت أختها إلى الداخل وأغلقت الباب معلقةً بعدما ابتعدتا عن الباب مسافةً كافيةً: «**لستُ في مزاجٍ مناسبٍ لألاعيبِكَ وأختَك في هذه اللحظة.**».. اعترضت ميّ: «**ولكنه طيب جداً ولطيفٌ معنا لأبعدِ الحدود... وحتى أخته، ليست بشعةً كما صورتها لنا يا مهرة.. ربما لو منحتِ لنفسكِ الفرصة كي تعرفينها جيداً، ستفهمين قصدي.**». ردت مهرة بإعياءٍ: «**حسنٌ، ربما كنتِ على حق.. ولكن ليس الآن، سأتعرف عليهما أكثر وأنا في مزاجٍ أفضل وثيابٍ مريحةٍ وبعدما**

أتناول شيئا يقيم أوَدي.. أشعر بأنني سأفقد وعيي إن تحدثت أكثر قبل أن أتناول شيئاً، أو على الأقل ،أحتسي كوباً من الشاي الساخن. اسبقيني أنتِ إلى الأسفل، وسألحق بكِ بعد قليل، وإن سألوكِ عني فقولي بأنني أرتاح قليلاً من الصداع كما قلتُ، حتى لا يتطفل عليّ أحدٌ.. اتفقنا؟».. قالت مي وهي تغادر: «**تمام..**».. أغلقت الباب وراءها بعدما خرجت وبقيت مهرةٌ وحيدةٌ تفكر فيما قالت أختها... فعلاً، لن يكتفي نادرٌ بالتفسير الساذج الذي ابتكرته لتسكت أختها الصغيرة.. ثم، ماذا لو اقترح أن يعود بها متطوعاً ليساعدها في جلب ما تريد...(ربما أدَّعي بأنها بعض الأوراق الشخصية والشهادات الخاصة بأخوي..)، ولكنها تراجعت عن هذه الفكرة أيضاً، فما الضرورة الملحة لتذهب اليوم بالتحديد دون أن تلتقي حتى بأخويها؟!! حارت وتملكها الصداعُ بالفعل وهي تفكر فيما ستقول لزوجها حين يسألها عمَّ أحضرت اليوم، هذا إن لم يلحظ أثر اللطمة الذي ازداد قتامةً ووضوحاً واستفهم عنها هي الأخرى، فبالتأكيد لن تستخدم معه العذر الذي ابتدعته للصغيرين.. ابتسمت وهي تتصور نفسها تخبره بأنها صفْعَتُهُ هو.. تلك التي لم تحدث أبداً... اتسعت ابتسامتها وهي تتذكر بعض تعليقات نادرٍ الساخرة على نوبات غضبها.. حسنٌ، حتماً لن يكون في مزاجٍ للمزاح اليوم، مع غيابها طوال اليوم وانسحابها الآن وبخاصة وهما في الأساسً متخاصمين منذ الأمس... «**أففففف**».. حمَّلت زفرتها كل توترها وتكومت على الفراش كما فعلت على فراشها القديم منذ ساعاتٍ، وأخيراً، استقرت على أن تكون صريحةً مع نادرٍ، وستخبره بالحقيقة، أو بنصفها على الأقل، وبأنها كانت غاضبةً وأرادت أن تقضي اليوم في مكانٍ بعيدٍ عن الناس حيث لا تضطر إلى التمثيل ولتصفي ذهنها... راقتها الفكرة إذ لن تخالف طبيعتها وتضطر للكذب، وكذلك فهي ستضع ركيزةً مهمةً في علاقتها بنادرٍ، وهي أنها تستطيع الذهاب حيثما تريد حين يتشاجرا وأن لها حرية التصرف واتخاذ القرار في البقاء في هذا البيت أو لا... نعم... هي حرة... حرة....

رددت لنفسها هذه الكلمة وهي تبدل ثيابها ببنطال جينزٍ أزرقَ وقميصٍ مقلَّم بالبنفسجي والتركواز، ذو قَصةٍ تفصِّل قليلاً ملامح قدها الصغير نسبياً..

(أنا حرة..) .. وقفت أمام المرآة تحاول التلاعب بالمساحيق على صفحة وجهها حتى باتت راضيةً عن النتيجة، فقد تمكنت من إخفاء آثار الأصابع بكريم أساسٍ كثيفٍ وأحمر خدودٍ قاتمٍ، كما تلاشى الشق الدقيق على شفتها تحت أحمر الشفاه البنفسجي وتركت شعرها المموج القصير يقوم بالبقية من إلقاء الظلال المموهةِ حول وجهها... رجعت إلى الوراء لتتفحص صورتها وطالعتها صورة فتاةٍ في المرحلة الثانوية ذاهبةٌ لأخذ درسها ووجهها مغطى بالمساحيق.. (هل سيعجب مظهري هذا نادراً؟ أم ربما علي أن أختار ثوباً رسمياً؟).. ثم قالت بصوتٍ عالٍ وكأنها تذكر نفسها: (إن كنتُ مرتاحةً في هذه الملابس، فهي ما سأرتديه إذاً... فأنا حرة...)..

نظرت إلى انعكاسها مجدداً للحظاتٍ، ووجدت بأن كلماتها لم تقوِّ عزيمتها كثيراً، ولكنها كانت بالفعل قد تأخرت، ولو بدلت ثيابها مجدداً فلربما سيتفقدها نادرٌ، وهي لن تستعجل أبداً نقاشهما القادم... تناولت زجاجة عطرٍ بدا لها مميزاً ورشت منه القليل على معصمها لتختبره، وحين ملأ عبقه أنفها واستحسنته، رشت منه على ثيابها بسخاء...

أخذت نفساً عميقاً.. ونزلت....



كان الجميع في انتظار مهرةٍ وسكتوا حين لاحت عند مدخل غرفة الطعام المشعة بالأنوار والكريستالات، ما ذكرها بحفل عرسها... كانوا جميعاً مجتمعين في ركن الحجرة بجوار الزجاج العريض المطل على الحديقة والنافورة الفخمة بأضوائها التي حولت سلاسل المياه إلى خيوط ملونة براقة بديعة المنظر.. تقدمت تحت نظراتهم في خطوات جاهدت لتجعلها تبدو ثابتة في مواجهة نظرات أميرة المتفحصة.. ندمت على قرارها فور ما رأت كم تبدو أميرة جميلةٌ في ثوبها الأزرق الضيق وشعرها المنساب على أحد جانبي عنقها الذي تزين بعقدٍ، ماسيٍّ بلا شكٍّ، يرتاح برقةٍ وزهوٍ أعلى فتحة الفستان العالية التي لم

تكشف هذه المرة سوى عن عنقها وجزءٍ غير كبير من أعلى صدرها، فيما يعد احتشاماً بالنسبة لما اعتادت مهرة أن تراها ترتديه في الحفلات، خاصة الثوب الذي ارتدته في عرسها.... واجهها زوجها بحلتة البسيطة الأنيقة وبدا أنه قد نال قسطاً من الراحة قبل عودتها، وقد بدت جلية على محياه... كذلك فؤادٌ وسامرٌ كان لباسهما رسمياً أنيقاً وحذا أخواها حذو الجميع فارتدت مي فستاناً زهرياً قاتماً، طويل الأكمام ضيقاً من الأعلى وحتى الخصر ثم يتسع ليغطي ساقيها بقماشٍ ناعمٍ واسعٍ، بينما رفعت شعرها في ذيل حصانٍ طويلٍ جميلٍ. أما ماجدٌ، فقد بدا في نظرها خلاباً في قميصه وسرواله الرماديين الرسميين وقد اكتفى بربطة عنقٍ رماديةٍ، أرخاها قليلا ليعطي لمحة من شخصيته المنطلقة، ما أراحها نسبياً وأشعرها بأنها لا تزال تعرف أخويها جيداً... مد نادرٌ يده وهو يتقدم نحوها بنظرة مُرحِّبة لم تقرأ ما فيها، إن كان استحساناً أم لا. ابتسمت وهي تتلقى عبارات الترحيب من سامرٍ وفؤادٍ والأخيرُ يتقدم بدوره ليسلم عليها ثانيةً في لفتةٍ لطيفةٍ، وهي واحدة من تصرفاتٍ كثيرة حرص فؤادٌ أن يظهر لها من خلالها أنه يعد نفسه أخاً كبيراً لها وأنها مرحبٌ بها جداً بينهم كفردٍ من العائلة، وقد قدَّرت له ذلك كثيراً، بل وتستطيع أن تقول بأن فؤاداً صار الشخصَ الأكثرَ قُرباً لها في هذا البيت.. همس زوجُها في أذنها برقةٍ: «**كيف حال رأسك الآن؟ هل زال الصداع؟**». ردت بخفوتٍ وهي تطأطئ رأسها لتخفي وجهها: «**بخيرٍ.. أفضل، الحمد لله..**».. لم تدرِ هل عليها أن تبادر هي للسلام على أميرةٍ أم تنتظر الأخيرةَ لتقترب، ولعجبها تقدمت أميرة بترحابٍ شديدٍ وقبلتها على وجنتها وهي تنحني كثيراً لارتدائها حذاءٍ ذو كعبٍ عالٍ جداً أضاف إلى طولها الطبيعي بضعة سنتيمتراتٍ جعلوها تدنو طولاً من طول شقيقها، ما أحرج مهرة، التي اكتفت بارتداء حذاءً مريحاً من القماش... اكتفى سامرٌ بأن لوح لها بمودةٍ وهزت رأسها له برفقٍ، قبل أن ينتقلوا جميعاً إلى طاولة الطعام..

قالت بحرجٍ وهي تجلس عن يمين نادرٍ في مقابلة فؤاد: «**يبدو أن هناك مناسبةً رسميةً، وأخشى بأنِّي لم أعرف وإلا لكنتُ ارتديت شيئاً مناسباً أكثر.**». رد نادرٌ: «**بالفعل هناك مناسبةٌ سعيدةٌ، ولكنك تناسبين أي مناسبة بغض النظر عما ترتدين**

يا حبيبتي..».. أكد فؤادٌ كلامه قائلاً بأريحيةٍ: «**لا تسمحي بالشكليات السطحية بأن تتمكن منكِ يا مهرة، كوني على راحتكِ، فالطبيعيةُ أجمل من التصنع والافتعال، وتضفي عليكِ لمسة مميزة.**»، ربت على كتف نادرٍ مكملاً: «**ونادرٌ محظوظ بأن عثر على زوجةٍ رائعةٍ مثلك.**». رد نادرٌ بابتسامةٍ صادقةٍ: «**أتفق معه يا مهرة، أجمل ما فيكِ أنكِ على طبيعتكِ... و بالطبع أتفق معه أكثر في كوني محظوظاً..**». ثم رفع رأسه منتبها ليقول لأميرةٍ التي تعلقت عيناها به بقوةٍ: «**للجمال صور كثيرة، ولكل امرأةٍ طابعها ورونقها الخاص.**»، ثم أكمل مشيراً إلى فؤادٍ: «**أرى بأنك لست أقل حظاً، فلديك أميرةٌ من أجمل الأميرات.. أليس كذلك؟!**».. وافق فؤادٌ وهو يمد يده ليمسك بيد أميرة ويقبلها بابتسامةٍ واسعةٍ ، فنظرت مهرة نحو سامرٍ لترى ردة فعله إزاء الغزل الصريح لأخته من ابن خالتها دون ارتباطٍ أو حياءٍ، ولكنها وجدته يحملق فيها بقوةٍ وعلامات الغضب بدأت ترتسم على وجهه دون أن تفهم لها سبباً...

انتشلتها عبارة أميرة من شِباك نظراتِ شقيقها، وهي تقول ببساطةٍ دون أن ترفع عينيها عن الطبق: «**قلقت عليكِ كثيراً يا مهرة حين عاد سامرٌ وحده باكراً!! وصدقيني لقد عاتبته على تركه إياك دون سيارةٍ لتعيدك، فلو كان ينوي تركك هكذا لكان من الأفضل أن يدعك تأخذي السائق بدلاً منه..**»... طعنةٌ في الصميم.... تلقتها مهرة مغمضة العينين وهمت بالرد ولكن كف نادرٍ الدافئةِ التي ارتاحت على يدها أسكتتها وسمعته يرد عنها ببساطةٍ: «**من الجميل أن يوصلها سامر..**» واستدار إلى سامرٍ الذي جلس بجوار أميرة مكملاً: «**أتعبت نفسك يا سامر، لم يكن هناك داعٍ حقاً لتتكبد مثل هذا العناء... وبالتأكيد لم يكن خطأً أن تتركها وتنصرف، فلابدَّ من أن لديك أعمالاً هامةً كانت بانتظارك...**».. طعنةٌ مرتدةٌ احمرت لها أذنا سامرٍ ولكنه لم يرد.. ابتلعت مهرة اللقمةَ دون أن تشعر بطعمها ثم أبعدت كرسيها إلى الوراء وهمت بالوقوف إلا أن نادراً سألها بنظرةٍ جانبيةٍ: «**إلى أين؟**».. ردت بصدقٍ: «**لست جائعةً يا نادر، وفكرت بأن أتمشى قليلاً بالحديقة حتى تنتهوا من طعامكم.**». رد نادرٌ باقتضابٍ وحزمٍ: «**أكملي طعامك يا حبيبتي لو سمحتِ.**».. لم تناقشه تجنباً لزيادة الخلافِ بينهما، مستأنسةً بألقاب التدليل

والتقريب التي يلاطفها بها نادرٌ أمام الجميع على الرغم من شجارهما الكامن، واكتفت بالجلوس وتحريك الطعام في صحنها دون أن تتذوق منه شيئاً.. تمنت أن يستمر الصمت القائم حالياً حتى انتهاء العشاء، ولكن لصدمتها سمعت شقيقها يقول بسخريةٍ واضحةٍ: «**أخبرتني بأن لديكَ عشرات الشركات والمصانع والمزارع، فبِكَمْ مخلوقٍ تتحكمُ يا..** (أبيه)؟».. ابتسم فؤادٌ بينما أجاب نادرٌ بهدوءٍ: «**لو اعتبرنا بأنك (بالمخلوق) تعني العاملين بشركاتي فقط، دون الكائنات التي تربى في المزارع والاصطبلات، ولو أضفنا المزارعين والبنائين وعمال المصانع إلى موظفي الشركات في الدول الأخرى، فبإمكاني التخمين بأن العدد سيتجاوز الخمسة آلاف أو الستة،، أم ربما أكثر؟!..**».. فرد ماجدٌ باستهزاءٍ: «**لابد وأن لديكَ عصا طويلةً جداً.**».. مالت مهرة على أخيها سائلةً بابتسامةٍ أخفت بها خوفها من أن ينفعل أخاها ويذكر شيئاً مما قالته له سابقاً، فحدجته بقوةٍ متمتمةً: «**ما هذا الكلام يا ماجد؟**».. قال نادرٌ ببساطةٍ: «**لا، دعيه يسأل ما يشاء..**»، وتابع ضاحكاً: «**أنا رجلٌ ديموقراطيٌّ، أرحب بالنقاش الحر والرأي الآخر.**».. وتابع موجهاً حديثه لماجدٍ ببساطةٍ: «**انظر.. ببساطةٍ، لكي تقودَ وتسيطرَ على جموعٍ من الناس، وبخاصةٍ حين تكون مجموعةً كبيرةً مختلفة الخلفيات والأهداف والمطامع، ويكون لديك هدف معين عليك تحقيقه دون مجال للخطأ أو التقاعس، فلابد وأن يكون لديك قوةٌ وسلطةٌ عليهم، وذلك لصالحهم، وصالحك أنت بالتأكيد.. لابد، وأعلم أن كلامي قد يكون صادماً، أو غير مستساغٍ، لكني سأقولها لك بصراحةٍ، لابد حين تحكم الظروف وتصل الأمور لحدٍ معينٍ، بأن يخافوك و يرهبوا جانبك.**»... قطب ماجدٌ وقال معانداً: «**لو أحبوك لأطاعوك.**»... تململت مهرة في جلستها وهمَّت بأن تعترض على كلام ماجدٍ، ولكن نادراً سبقها مجيباً بجديةٍ: «**ما يأتي بالحبِّ هو العشم ومراعاة الخواطر، وهذا لن ينفع حين تشتد الحاجة وتصير الأمور للحظاتٍ مصيريةٍ حرجةٍ لا يجوز أن تكون الطاعة فيها اختيارية. أنا لا أتحدث هنا على وجه العموم، وإنما أخص الشخص الذي تنتهي في يده كل الخيوط ويتحكم في حياة ومصائر أفراد مجموعةٍ، صغُرت أو كبُرت.**»، هنا قاطعه ماجدٌ بحدةٍ جعلت أحد حاجبيه يرتفع للحظةٍ: «**أنا أرفض السلطةَ المطلقةَ بحجةِ المصلحةِ العامةِ، وعامة إن كنا نتحدث**

عن الحياة العملية، فلا دخل للعلاقات الخاصة والخواطر بها، ولكني أناقش مبدأ احترام الآخر.. أتفهم قصدي؟»..

أومأ نادرٌ موافقاً، ثم قال برفقٍ: «**أنت بهذا أوجزت فأنجزت، أجدك تفهم قصدي إذاً، فلا خواطر ولا هدهدة في العمل.**». شرب رشفة من كأس الماء البارد خاصته وعكف على طعامه دون أن يضيف شيئاً، علَّ سكوته يهدئ الشاب المتوتر أمامه، إلا أن ماجداً أبى إلا أن تكون له الغلبة في هذا النقاش بالذات، فقال بجرأةٍ وبصوتٍ أعلى نسبياً من المعتاد: «**أوجزت ماذا يا (أبيه)؟! أترى حقا بأنك، ولأنك تجمع كل الخيوط في يدك، فمن حقك إذا أن تلف تلك الخيوط حول رقاب العباد؟!! ألم يساورك يوماً الشك، ولو قليلا، بأنك ربما أخطأت وكان غيرك هو من صاحبه الصواب وإن كان أقل منك قُدرةً أو مكانةً؟! أليس للناس أيضاً عقول؟ أليس ظلماً أن تلغي الجميع وكأنهم ... ؟!!**»..

«**ماجد؟!!**».. صيحة مهرة جعلته يتوقف، ولكنها لم تستطع منع نادرٍ من الرد بهدوءٍ وقد رسم ابتسامةً خفيفةً على شفتيه علها تخفف من وطأة كلماته الصريحة: «**لا أدري من أين جاء كل هذا يا ماجد؟!! وعموماً، يا سيدي، من حكم في ماله ما ظلم.. ولو أن الصالح العام اقتضى أن يلجأ المرء لبعض الشدة أو القرارات القاسية، فسأكون أنا الآخر مضطراً غير مختار... تماماً مثلهم.**». عقب ماجدٌ بسخريةٍ: «**يظل الظلم ظلماً مهما أتينا له بمبرراتٍ..**»، وتابع وقد انحرف الحوار إلى سياقٍ غير الذي ابتدأ به: «**وهل امتلاك أقوات الناس يجعلك تمتلكهم بدورهم؟ وماذا عمن يحكم فيما ومن لا يملك؟!**».. قطَّب نادرٌ متسائلاً: «**لم أفهم!**». جلس ماجدٌ على حافة كرسيه قائلاً بحماسٍ: «**أعني.. ولأستخدم مثالا حيا للسلطة المطلقة، ألا يعكس المجتمع الصورة التي تنتج عن سلوكيات وقرارات آلاف أرباب الأسر؟ فإن شاع عرفٌ خاطئ أو تقليد معيوب، ألن ينعكس هذا على شكل المجتمع ومصيره؟.**».

«**مثل ماذا؟**» ، كان نادرٌ قد توقف عن النظر لماجدٍ متشاغلاً بتقطيع قطعة لحم في صحنه ،حين استشعر هجومه يتشخصن ولم يعجبه ما صار إليه الحديث والتلميحات، بل والتصريحات، التي يرميها الشاب الصغير في وجهه، واستمع

له بصبرٍ وهو يقول: «مثلا، ألم ينعكس موضوع كليات القمة هذا على المجتمع بأن صار لدينا خريجين من تخصصاتٍ هامةٍ ولكن غير متخصصين ولا مخلصين؟! ألم يكن من الأفضل لو لان الآباء قليلاً واستمعوا لرغبات أبنائهم، فالتحق كلٌّ بالكلية التي حلم بها ليبدع ويلمع؟! أليس ضياع الأحلام وسقوط مستوى المجتمع نتيجةَ اختيار صاحب السلطةِ ومعتقداته التي أكل عليها الدهر وشرب والتزامه بقراراتٍ رآها في مصلحةِ ابنه بينما هي ضد كل مصلحةٍ على الإطلاق؟! ربما وجب وجود هيئة أو لجنةٍ لتقييم الطلاب ورغباتهم ولتحديد سلطة الأب في تحديد مصير ابنه.».

ضاقت عينا نادرٌ، وإن لم يضق صدره تماماً بعد، وقال بعدما ترك أدوات الطعام من يده واستند بظهره إلى الوراء: «على الرغم من موافقتي إياك الرأي بما يخص موضوع كليات القمة هذا، مع عدم فهمي تماماً لقصة الهيئة تلك.. وكذلك أرى أن التشبيه بعيدٌ قليلاً عن الوضع في شركاتي، إذ أني لست مسئولا عن تحقيق أحلام ومستقبل العاملين، وإنما هم بالفعل قد حققوا جزءاً هاماً من طموحهم بعملهم لدي. و دوري وعملهم لدي هدفه الأول مصلحة الشركة.. هذا عقد مكتوبٌ بيني وبينهم.. ولكن رجوعاً للمثل الذي ضربته.. لنكن منصفين، ولنفكر برؤية الأب.. ألن يلوم الإبن أباه إن تركه بعدما حصَّل أعلى الدرجات، أن يلتحق بكليةٍ لا عمل ولا مستقبل لها فيما بعد؟ ألن يسأله لِمَ لَمْ ينصحه، بل لم لم يصفعه ويجبره على تغيير اختياره، حين يجد نفسه بلا عمل ولا مستقبل ولا مكانة؟ خاصة أننا مجتمعات بطبيعتها تواكلية ميالة لإلقاء اللوم على الآخر في حال الفشل!! و إن كان إسقاطك على سوق العمل، بأن تفرض الحكومات على رجال الأعمال خريطة لاتخاذ القرارات وتسيير شئون شركاتهم ومؤسساتهم وعمالهم؟!! بالطبع هذا مستحيل، ولا توجد حكومةٌ واحدةٌ قادرةٌ على التدخل في شئون رجل الأعمال بهذه الصورة.. الحكومات تسن القوانين والتشريعات وتفرض الضرائب بما يحفظ لها حقوقها المادية والقانونية.. تضع خطوطاً عريضةً، ولكن أن تتدخل في تفاصيل سياستي ومعاملاتي وعلاقاتي بموظفيي وشركائي وكيف أتخذ قراراتي، فهذا هو المستحيل بعينه، وإن حدث، فإن

هذه الحكومة تكون قد كتبت شهادة وفاتها، أو وفاة الاستثمار في بلادها إلى أجل غير مسمى.. ولن يستطيع أحد أن يلوم صاحب المال على نفوره واتجاهه لدولة أخرى تسمح لنشاطاته وأعماله بالاتساع أفقياً ورأسيا، دون فرض الوصاية عليه من قِبَلِ موظفيه..»..

«هي إذاً، إما الرأسمالية المتوحشة أو الانهيار الاقتصادي؟!! وفي كلاهما يطحن الإنسان البسيط وينجو أصحاب القبعات الحريرية. وتنتصر فكرة مراكز القوى وسطوة المال، و صاحبه الذي يظن أن بإمكانه إيذاء أي مخلوق دون محاسبةٍ من أحد»، علّق ماجدٌ بأسى و مرارة.. هنا تدخل فؤادٌ مازحاً: «وحِّدوا الله يا جماعة.» وتابع محدثا مهرة مشيراً بسكين الطعام نحو ماجدٍ: «ألا تقولين شيئاً يا مهرة؟! لدينا هنا اشتراكيٌّ صغيرٌ أم ماذا؟!..».. ضحكوا وبدا أن النقاش انتهى عند هذا الحد ولكن ماجداً قال لفؤاد بعصبيةٍ: «هي جريمةٌ لا أنكرها، وشرفٌ لا أدعيه.. ولكن، هل كل من يتحدث عن تكافؤ الفرص والعدالة المجتمعية اشتراكي؟».. رد نادرٌ بسرعةٍ: «بالطبع لا يا عزيزي، نحن نمزح فحسب.». وسأل مهرةً ممازحاً وهو يشير إلى نفسه: «ماذا عنك يا مهرة، أأنت مع الرأسمالية المتوحشة، أم الاشتراكية؟». ردت دون ابتسامٍ و قد بدا عليها عدم الارتياح والضيق: «أنا مع ما يريح الناس، ولا أعرف ما يسمى هذا.. ولكني لا أحب الخوض في أمور لا أفقه فيها شيئاً.».. أومأ زوجها دون تعليقٍ، ثم استدار لماجدٍ قائلاً بابتسامةٍ متسامحةٍ: «وعودة إلى سؤالك الأول، الذي حدنا عنه كثيراً، فصدقني فيما يتعلق بالعصا، فلست أملك واحدةً.. وأنا في هذا جادٌّ تماماً.». رد ماجدٌ: «أتريد أن تخبرني بأنك لم تستخدم عصا السلطة يوماً ضد من يعترض عليك وعلى قراراتك؟ ألم تؤذ مخلوقاً اختلفت معه قط؟ اسمح لي، ولكن هذا يبدو مستحيلاً..».. رفع نادر حاجبه مستغرباً.. استغرب تكذيب الفتى الصريح له، استغرب أسلوبه الهجومي غير المبرر، استغرب ركله لمحاولته تهدئة الأمور وتلطيف الجو، وتساءل عن سبب تحول ماجدٍ الذي كان يستمتع بنقاشاته ومجادلاته الصبيانية في الاقتصاد والسياسة دون أن يتطرق إلى شخصنة الأمور كما

فعـل الآن.. فتـح فمـه ليرد، ولكن سـامراً سـبقه قائلاً بـبرودٍ لماجـدٍ: «**بالطبع عليـك أن تصدقـه! ولم عليـه أن يسـتخدم العصـا؟ كل مـا عليـه هـو أن يخـرج مـن يضايقـه مـن رحمتـه، دون أن يكلف نفسـه عناء رفع العصـا والضرب بهـا، ليتخَطَّفَهُ الفقـر والحاجـة... أفهمـت؟**».. قـال ماجدٌ وهو يهـز كتفيه: «**إذا فهـي عصا لقمة العيـش..**».. قـال فؤادٌ ببسـاطةٍ وقـد مط شـفتيه امتعاضـاً: «**وما المانـع؟ العصا لمـن عـصى..**».. رد نادرٌ على شـقيقه وعينـاه معلقتـان بعيني سـامرٍ المتحديتين: «**ولكنـي لم أطـرد أحـداً من رحمتي من قبـل يا فؤاد.. حتـى وإن كان كل مـا يفعله في حياتـه هـو أنه يخالفنـي.. وأسـتطيع أن أتذكر مثـلاً أو اثنـين..**».. تململت أميرة في مقعدهـا وتراجـع فؤادٌ في كرسـيه حـين رد سـامر بصفاقـةٍ: «**مثلُ من يـا نادر؟ هـل يمكـن أن تخبرنـا؟**».. لم تعُـد مهـرة تحتمـل، فدفعـت كرسـيها إلى الـوراء بحـدةٍ وقالـت لنـادرٍ بعـزمٍ: «**سأتمشـى في الحديقـة يـا نـادر، فهل سـتصحبني، أم سـتكمل طعامـك؟**».. وقـفَ نادرٌ بـدوره وقـال بـأدبٍ: «**بالطبع سـأرافقك**»..

وقف كل من فؤادٍ وسامرٍ تحية لمهرة...

غادرت وزوجها بسرعةٍ الغرفة ولم تبطئ الخطى تجاه الباب الزجاجي، وما أن فتحته حتى لفحها الهواء البارد فقالت وهي تضم جسدها بذراعيها: «**دقيقة، سأحضر معطفي.**»، خلع نادر جاكيته ووضعه على كتفيها قائلا برفقٍ: «**ارتدي هذا.**».. اعترضت: «**ولكنك ستبرد وقد تصاب بالزكام.**».. هز كتفيه وهو يضع يديه في جيبي سرواله قائلاً ببساطةٍ وهما ينزلان الدرجات الرخامية: «**ليس البرد قارساً إلى هذا الحد.**».. اعترضت ثانيةً: «**إذا فسأحتمله أن..**». قاطعها بضيقٍ: «**لا تجادلي في هذا أيضاً يا مهرة، فقط دعينا نسير بهدوء..**».. أذعنت وسارت إلى جانبه بصمتٍ.. توجها نحو المقاعد الحجرية وظنت بأنهما سيجلسان ولكنه تابع السير وهو ينظر إلى الأشجار ويتوقف ليتفحص زهرة بين الحين والآخر.. قال بعد دقائقٍ: «**أتعرفين أي جزءٍ هو المفضل لدي في هذه الحديقة.**»، وأشار بعيداً مكملاً: «**ذاك البعيد عن الفيلا والأضواء، حيث تشكِّل الأشجار ملجأً مُظَلَّلاً نهاراً ومظلماً ليلاً بعيداً عن مرأى من بالبيت.. فكرت في أن أبني هناك تعريشةً خشبيةً،**

ولكني تراجعت، إذ شعرت بأنني سأجعله مقصداً للجميع.. وبصراحةٍ، أنا أحتاج إلى بعض العزلة في بعض الأحيان... أتريدين أن تريه عن قرب؟».. هزت رأسها موافقةً، فتقدما وقد أعاد يده إلى جيبه ولاحظت هي تباعده وحرصه على عدم لمسها مدركةً ضيقه من أن يعلم بأمر خروجها مع سامرٍ من أميرة بهذه الصورة، وأرادت أن تسوي هذا الخلاف، فانتظرت حتى وصلا مكانه المحبب وقالت بصدقٍ: «**بالفعل يبدو حميماً ومريحاً..**»، ثم استدارت تواجهه قائلةً بخفوتٍ: «**أعتذر عما بَدَرَ من ماجدٍ الليلة.. أنا لا أدري ما حل به..**»، ابتسم بلطفٍ قائلاً: «**لا تشغلي بالكِ، اندفاعه وتحفزه طبيعيان في سنه.. لا بأس، لا تقلقي، فلم أتضايق.**».. صمتا يتأملان الجمال الساكن في جوف الليل ويستمتعان بأصوات حياة الليل الصغيرة التي تدب في الخفاء تحت أقدامهما أو تحلق بأجنحة دقيقة بين الأغصان، وعبير النباتات يلاطف حواسهما بعذوبة، حتى قالت برفقٍ: «**بالنسبة لخروجي برفقةِ سامرٍ اليوم، فأنا كن..**». قاطعها قائلاً بوضوحٍ: «**أمرٌ لن يتكرر، كما أني أريد أن أعلم عن أي نشاطٍ تقومين به، تحديداً حين يتضمن سامر.**» وأشار نحو الفيلا مكملاً: «**وأظن أنَّ السببَ واضحٌ.. كما أظنني لا أطلب الكثير..**».. ابتلعت ريقها وهي تحاول أن تبتلع الغضب الذي تصاعد بداخلها وهي ترد بسخريةٍ: «**لا بالطبع، ليس بالكثير، فسأطلبك إذا أردت أن أتمشى ووجدت سامراً بالحديقة، أو جلسنا لتناول الغداء وسامرٌ معنا، أو إذا قرر الجميع الخروج لأي مكان وكان سامرٌ ضمن المجموعة... عادي جداً..**».. قال وهو يتمالك أعصابه: «**أنتِ لن تستطيعي تحمل سامرٍ إن أراد مضايقتك!.. أنا فقط أحاول أن أجنبك الضيقَ والوقوعَ في المشاكل.**». قالت ببساطةٍ: «**إذاً، فلنسكن في مكانٍ آخر، ولنبتعد تماماً عن المشاكل.**».. رد بتعجبٍ وهو يشير بيده نحو الأرض: «**هذا بيتي!!! إنهم ضيوفٌ عندي!! أأترك بيتي الذي نشأت به لهم؟!!! ماذا تقولين؟ أجننت؟**».. ردت بسرعةٍ: «**إذا كيف تقترح أن تتجنب زوجتك شاباً لا شغل له سوى التسكع في البيت طيلة النهار بينما أنت في عملك طوال هذا الوقت؟ هل تحب أن أبقى سجينةَ حجرتي حتى تعود قرب الفجر؟!! ثم إنك تعظِّم الأمور، فالرجل لم يفعل شيئاً غير طبيعيٍّ، فقد سمعني أسأل عن السائق، وعرض علي إيصالي وأصر كأي رجلٍ مهذبٍ، كما**

أنه كان بالغ اللطف والأدب معي حتى أنه اعتذر عن معاملته السابقة لي باستهتارٍ واستهزاءٍ وطلب أن نفتح صفحةً جديدةً... ولم يرد أن يضايقني ويشعرني بأني مراقبةٌ حين طلبت منه الانصراف، ففعل ذلك بكل ذوقٍ!!!! أين المشكلة هنا، لا أدري؟ في أنني لم أخبرك؟ لم أجد الفرصة لأن كل شيءٍ حدث بسرعةٍ، وبصراحة يا نادر أنا بدأت أشعر بأنك تبالغ في تحديد تصرفاتي والتعليق عليها...». توقفت لترى أثر كلامها عليه وخافت من النظرةِ الغاضبةِ في عينيه حين قرب وجهه من وجهها، ولكنها تمالكت نفسها ووقفت بتحدٍّ وعينيها تقابلان عينيه بصمودٍ تحت الظلال السوداء المتحركةِ على ملامحه، وأتاها صوته خافتاً مهدداً: **«لا يا مهرة، ستنفذين ما أطلب منكِ فيما يخصُّ هذا الشأن بالتحديد، ونعم، إن استلزم هذا بقاؤكِ في غرفتكِ طيلة النهار... وبصراحةٍ، أتعجب في أنكِ أعيتكِ الحيلةَ في التملُّصِ من عرضه الكريم، بينما تمكنتِ دائماً من ردعي في أن أوصلك أو حتى أن أعرف عنوانك!.. بل وفي التملص مني في أوقات أخرى أدق، وأظنك تفهمين تماماً ما أقصِد... كما أنني أضع تحت تصرفك كل المال والإمكانات التي تستطيع أن تشغلك وتذهب بك هنا وهناك دون أن تحتكي به... فأنا لا أطلب المستحيل، وأنت كزوجةٍ تعرف واجباتها نحو زوجها ستبتعدين عمن أطلب منك الابتعاد عنه... اتفقنا؟»...** ردت بعد لحظة صمت وتأمُّلٍ في لهجته ومضمون ما قاله: **«و إلا؟..»**.. هز كتفيه ورأسه باستهتارٍ دوًن أنً يرد فردت هي نيابةً عنه: **«نعم، أعلم... العصا لمن عصى.»**.. خلعت الجاكيت وألقته إليه وانطلقت عائدة إلى الفيلا.... وفي رأسها ترددت عبارةٌ واحدةٌ مع كل خطوة تقربها إلى وجهتها.. (لا، لست حرة.. لست حرة....)...

٨

تقدمت السهرة حتى شاخ الليل وخط الشفق الفضي أطراف السماء.. تمنت مهرة لو استطاعت أن تعتذر وتصعد إلى غرفتها على غرار ما فعل آدم و كريمة منذ ساعات، ولكنها كلما ألمحت لنادر برغبتها، همس لها بأن هذا سيبدو غير مناسبٍ، ولكون رأسها كان أثقل من الحجارة وقد تحملت من المزاح والتلميحاتِ الجريئة وسخافات الخال ما لا يطيق بشر، فاكتفت بالجلوس في ركن الردهة متكومة مع كوب شايٍ دافئٍ وهي تتابع بعينين غائبتين أخويها وقد فارقهما القلق ونسيا غضبهما ليندمجا مع فؤادٍ و سامرٍ وأميرة في جدلٍ مازحٍ طويلٍ عن نكد المرأة المصرية وغلظة وعدم تعاون الرجل المصري، وزوجها يتابع مثلها بلا مشاركةٍ إلا بعباراتٍ قصيرةٍ يتبادلها مع خاله تعليقاً على ما يسمعون... لم تفهم سبب امتداد السهرة بعد إعلان فؤادٍ خطبته على أميرة، والتي أوضحت تماماً بأن هذا الإعلان ليس رسمياً وبأن الحفل الذي ستقيمه بهذه المناسبة سيكون خلال هذا الشهر في أحد أفخم الفنادق والذي لم تسمع مهرة باسمه من قبل، ولكنها أيَّدت الفكرة كما فعل نادرٌ بابتسامةٍ عريضةٍ مرحبةٍ وتكرار المباركة والأمنيات بإتمام الزواج على خير...

أخيراً جاءها الخلاص حين قال نادرٌ وهو يقف ويمد جسده وذراعيه إلى الأعلى: «**سأضطر لتركِكم الآن.**».. وقفت بدورها ولكنَّ نادراً أخبرها برفقٍ:

«**بإمكانكِ البقاء قليلاً إن شئتِ، فسأذهب للمكتب لمراجعة وتوقيع بعض الأوراق قبل أن أصعد.**».. ردت فوراً بابتسامةٍ متكاسلةٍ: «**لا، أنا فعلاً أشعر بالإرهاق وأقاوم النعاس منذ ساعاتٍ.**».. **عادت لتقول مخاطبةً كُلًّا من فؤادٍ وأميرةٍ**: «**ألف مبروكٍ يا جماعة..**» ، والتفتت لأخويها قائلةً بحزم: «**وأنتما يا باشاوات لابد وأن تناما قليلاً قبل أن تذهبا إلى دروسكما غداً.. هيا..**».. استسلم الشابين دون نقاشٍ، إلا أن ماجداً لم ينس أن يحييها بحركةٍ مسرحيةٍ ساخرةٍ وانحناءةٍ قويةٍ قبل أن يتسابق وأخته على الدرج صعوداً... تقدم نادرٌ من مهرة وطبع قبلةً خفيفةً على خدها قائلاً: «**تصبحين على خيرٍ يا حبيبتي.**». ردت ممتنة لبادرة التجاوز عن خلافهما: «**وأنت بخير.. حاول ألا تطيل البقاء بالمكتب، وإلا فلن تحصل على أي قدرٍ من النوم.**».. ضحك حسَّاب معلقاً: «**والله شباب هذه الأيام معدومي الدم والإحساس، أتترك عروسك الجميلة وتذهب لتدفن نفسك وسط الأرقام وبرودة الورق بدلا من التنعم بفراشٍ دافيءٍ؟!!! ماذا حدث للرجولة؟!!**».. ابتلعت ريقها وقالت لنادرٍ متجاهلةً التعليق السخيف متعمدةً عدم الردِّ: «**أتحب أن أحضر لك الشاي أو فنجان قهوةٍ إلى المكتب قبل أن أصعد؟**». هز نادر رأسه نفياً وقد تجاوز هو الآخر عن تعليق خاله هذه المرة... حياها فؤادٌ بلباقةٍ واكتفت أميرة بابتسامةٍ خفيفةٍ وتحريك أصابعها تحيةً. استدارت وابتعدت خطوةً أو اثنتين قبل أن تتوقف حين سمعت سامراً يناديها وأوضح أمام نظرتها المتسائلة وتحت أنظار زوجها الذي وقف بدوره وقد وضع يديه في جيبي بنطاله: «**أشعر بالتعب أنا الآخر.. سأصعد لغرفتي، انتظري لنصعد معاً.**».. وقال بإشارةٍ من فوق كتفه: «**تصبحون على خيرٍ.**»... طرفت مهرة بعينيها نحو زوجها ثم ابتسمت بترددٍ مرددةً: «**تصبح على خير.**»..

صعدا الدرج بترويةٍ ونظرات زوجها الحانقة تحرق ظهرها، ولم تسترخ قليلاً إلا بعد أن سمعت وقع خطواته الهادئة تبتعد وصوت باب المكتب يغلق خلفه برفق.. كان سامرٌ يصفر لحناً من ألحان كوكب الشرق باحترافٍ حتى أنها استمتعت بأدائه وابتسمت قليلاً حين وصلا أعلى الدرج فاستدارت لتقول برقةٍ: «**تصبح على خيرٍ يا سامر، وشكراً على إيصالي هذا الصباح وعلى اعتذارك**

ومبادرتك لأنك، ودون أن تشعر، أزحت عن صدري حملاً ثقيلاً، لهذا أنا ممتنةٌ جداً..».. اكتست ملامحه بالجدية فجأةً وقال دون مقدماتٍ: «**اسمعي يا مهرة، أنا لم أصعد معكِ لأنني أنوي النوم كما ادعيت.. أنا أود أن أعلم كيف حدث هذا لوجهك ومتى؟ لم تكن هذه الإصابة لديك هذا النهار.. لا، لا تتهربي ولا تخفي الأمر فهو واضحٌ مهما حاولتِ أن تُخفيه بالماكياج.. هل ضربكِ لأنكِ تأخرتِ؟**».. فغرت فاها دون أن تجد ما تقول وتعجبت لم يفترض أهل البيت أن زوجها يمكن أن يفعل بها هذا ببساطة؟ في البداية فؤادُ، ثم كريمة وتعليقها المصدوم: «**فعل بكِ هذا وأنتما لا زلتما عريسين جديدين!؟**».. وكأنه من الطبيعي أن يفعل بها هذا ولكن بعد حين!!!!!

ردت بصدقٍ: «**لم يفعل.. أتساءل يا سامرٍ، أنت شخصٌ لطيف، ونادرٌ، ولا أقول هذا لأنه زوجي، وإنما هذا ما يقوله عنه الجميع، شخصٌ طيبٌ ولطيفٌ هو الآخر، ومع ذلك أجدكما لا تتفقان أبداً!!! لِمَ؟ لا أريد التطفل، ولكن الوضع غريبٌ علي.**».. اقترب قائلاً بصوتٍ خافتٍ: «**نادرٌ أبعد ما يكون عن كونه طيباً أو لطيفاً.. ولكنه ليس خطأه، إنها وراثةٌ تجري في العائلة للأسف.**». لم تشعر بالراحة لوقوفها هنا مع سامرٍ لتسمعه يهين زوجها ويخيفها منه، ولكن مُثُلِها ضعفت أمام فضولها والتقمت الطُعم الذي ألقاه سائلةً بخفوتٍ: «**ماذا تعني بأنها وراثة؟ وماذا عن أميرة إن كان هذا هو الحال؟ ألا تخاف عليها؟.**». رد مبتسماً: «**أميرة؟! لا، لا أخشى عليها من شيءٍ، هي كفءٌ للتصدي لمثل هذه الممارسات..**». كررت سؤالها: «**وماذا عنيت بكونها وراثة؟**».. مرر يده في شعره وهو يعض على شفته السفلى قبل أن يقول بوضوح: «**سأقول هذا مرةً واحدةً ولن أكرره ثانية، لذا اسمعيني جيداً.. كان أبو نادرٍ رجلاً عنيفاً، ولم يكن يضرب خالتي ضرباً عادياً، بل كان ضربه يؤدي إلى دخولها المشفى أحياناً، بالطبع هم يدعون بأنها لم تكن متزنةً نفسياً وخرافاتٍ أخرى من هذا القبيل، ولكن كلها أكاذيب.. أتعلمين أنها ماتت وهي تضع فؤاد؟.**». هزت رأسها إيجاباً، فتابع: «**ولكنكِ بالطبع لا تعلمين بأنها وضعته في بداية الشهر السابع وأن الولادة المبكرة سببها أنه ضربها حتى سقطت من أعلى هذا الدرج بالتحديد، وبأنها خرجت يومها إلى المشفى ولم تعد... وكذلك شهيرة، رحمها**

الله، ذاقت الأمرَّين على يديّ فؤادٍ.. وعلى الرغم من حبه لها، إلا أنه كان شديد العنف والقسوة معها... حتى أهلها لم يستطيعوا الانتصار لها أمام سلطته، أو بالأحرى سلطة أخيه... زوجك..».. أشفق عليها حين شحب وجهها فقال محاولاً التخفيف من وقعِ ما قال: «**أنا لا أجزم بأن نادراً سيكون صورةً طبق الأصل منهما، ولكنه أيضا معروفٌ بقسوته في عمله وعلى الرغم من قدرته على السيطرة على انفعالاته أكثر بكثيرٍ من والده ومن فؤادٍ، إلا أنِّي فقط أريدك أن تكوني حذرةً معه، ولا تدعيه يتخطى هذا الخط معك.. وإن فعل، فأخبريني وسوف نرى ماذا يمكن أن نفعل.. اتفقنا؟ كما قلت لك، اعتبريني منذ اليوم.. لنقل صديقكِ وقريبكِ.. تمام؟**»... هزت رأسها ثانيةً وشعرت بالأرض تميد بها فارتكزت على الحائط بكفها وقالت بعدما وجدت صوتها: «**لم.. لم يفعل نادر.. فقط.. تصبح على خيرٍ..**».. ردَّ: «**وأنتِ بخيرٍ..**».. استدارت ودخلت حجرتها وساقاها بالكاد تحملانها... نعم، لم يضربها نادرٌ ولكن ما سمعته تواً تركها في حالة صدمةٍ ونُكرانٍ وكأنه قد فعل!... بدلت ثيابها بقميص نوم ناعمٍ أسودَ طويلٍ، ولم تتكبد عناء الاختيار لأن الساعة قاربت الخامسة والنصفَ، وحين يعودُ نادرٌ إلى هنا سيكون هذا فقط لكي يبدل ثيابه ويعود إلى عمله... ألقت رأسها على الوسادة الوثيرة التي تلقته بحنانٍ وهي تحملق في الظلام وأشباح الماضي التي استحضرها لها سامرٌ تطوف وتصرخ حولها على ضوء الشمس الباهت الذي بدأ يتسلل عبر الستائر الخفيفة ليبدد العتمة شيئاً فشيئاً...

سمعت أصواتاً أمام باب حجرتها فرفعت الغطاء ليغطيها حتى أذنيها وتظاهرت بالنعاس.. أرعبتها فكرة أن يسألها نادرٌ الآن عن وجهها وما حل به، وليس الأمر بأنها ما كانت تخشى تساؤله مسبقاً، وإنما الوضع الآن اختلف، بعدما عرفت تاريخ أسرته المخيف.. لا تعرف ولا تريد أن تعرف أبداً كيف سيكون رد فعل زوجها حين يعلم بأنها قابلت في بيتها رجلاً غريباً، وأن هذا الرجل صفعها ... أغمضت عينيها بقوةٍ لتطرد صورة طارقٍ التي ارتسمت أمام عينيها ما أن استرجعت الحدث، فليس هذا وقت الذكريات... وإن كان يمكن للغضب بأن يجعل رجلاً حليماً سهل المعشر كطارقٍ يخرجُ عن

طوره ويصفعها، فكيف سيكون الحال مع نادرٍ بخلفيته؟!!! (ليتني انتظرتك يا طارق... ليتني لم أضعف أمام الضغوط ...غلبتني الحياة يا طارق.. نعم، ضعفت.. يا رب، امنحني القوة واحمني من سلطان أيٍّ كان يا الله.. فليس لنا سواك... يا رب..)..



دلف نادر بهدوء وبقدر ما استطاع حاول ألا يحدث جلبةً حتى لا يوقظ زوجته، فهي بدت اليوم منهكةً حزينةً، وقد أشفق عليها من كل ما مرت به، وقدَّر أحاسيسها وغربتها في بيتها الجديد، كما أدرك أن الخلافات التي تنشب بينهما منذ تزوجا ربما أضافت لغربتها وحشةً وخيبة أملٍ... تمنَّى أن تستيقظ في حالٍ أفضل، ولم ينس أن ينبه آدم وكريمة اللذان استيقظا بالفعل بأن يدعاها نائمةً حتى تستيقظ وحدها...

أخذ حماماً سريعاً وبدل ثيابه بسرعةٍ وغادر... كان يشعر هو الآخر بالغربة في حجرته، فانطلق إلى العالم الذي يعرفه ككف يده، حيث الأرقام المتوقعة والنتائج المحسوبة والعبارات الواضحة... أغلق الباب، كما فتحه، برفقٍ بعدما غادر الحجرة وأسفل الدرج استقبله آدم بابتسامةٍ وفنجان قهوةٍ مع قطعتي بسكويت تجاهلهما نادرٌ والتقط الفنجان كمن وجد ضالته وهو يستنشق عبق القهوة الغنية باستمتاعٍ.. علق آدم معترضاً و هو يتبع الأخير ليأخذ الفنجان بعدما ينتهي منه: «**قطعتي بسكويت ليستا بالشيء الكثير يا سيد نادر، ولكن الطبيب أصر على أن تتناول شيئا مع القهوة...**».. انتهى نادرٌ من قهوته وقال وهو يضع الفنجان فوق الصينية التي يحملها آدم: «**تناول البسكويت مع القهوة، انتهاكٌ لقدسيتها واحترامها يا آدم..**»، وتابع ليقاطع آدم قبل أن يعترض: «**سأتناول شيئا حين أصل إلى المكتب.. أعدك..**».. أغلق الباب وراءه تاركاً آدم وقد اختفت ابتسامته والقلق مما أخبرته به كريمة يقتله...(إلا نادراً، مستحيل...)... تنهد حين جاءه صوت كريمة تناديه

مـن المطبـخ وقـال بصـوتٍ خافتٍ وهـو يتجـه إليهـا: «**اللهم سـترك ورضاك و لطفـك في قضاك يـا أرحم الراحمـين.**»....



تحولت الأشهر التالية لتلك الليلة، إلى ماراثون مُرهقٍ تمكنت فيه أميرة من تحويلِ كل من بالبيت إلى عبيدٍ، حرفياً، حتى شهد الصغيرة -التي لم تكن تفهم تماماً لم كل هذه النزهات والأشياء الكثيرة التي يتم شراءها ولا من هؤلاء العمال الذين يخرجون ويدخلون طيلة اليوم ليكسروا ويزيلوا كل شيء من غرفة أبيها عابثين بذكرى أمها- كانت تسعى لتقديم كلِ ما تستطيع من عونٍ تحسبه مفيداً متنقلة بين أرجلِ الكبارِ تحمل مع هذا غرضاً أو تأخذ آخرَ إلى أحدهم... وبالطبع انهمك كل من ماجدٍ ومي كذلك مع البقية يسارعون لتلبية رغبات أميرة المُعجِزة في بعض الأحيان -وقد ازداد مزاج الأخيرة حدةً وتحفزاً حتى بات مجرد الاستفسار منها عن أي أمرٍ ولو بسيطٍ، ولو كان بدون قصدٍ للنقاش، يضع السائلَ المسكينَ في مواجهة غضبٍ عارمٍ وصراخٍ مهينٍ- فقضيا الوقت الأعظم من الأيام يتنقلان مع سامرٍ في سيارته ما بين المَحال تاركَين دراستهما وراء ظهريهما دونما اكتراثٍ لنظرات مهرة المؤنبة وتوبيخها الخافتِ لهما من حينٍ لآخر إذا ما تسنت لها الفرصة للانفراد بهما وقد بدا لها أن هذه الأجواء تروقهما كلٌّ لسببٍ، فماجدٌ مستمتعٌ بكون سامر يدعه يقود السيارة الآن طوال الوقت، فيما تستمتع مي بكل تفاصيل الجهاز وشراء الأغراض التي ربما لم تعلم يوما بأنها تلزم العروس لزفافها، فأين ما كانت تشتريه مهرة لنفسها قبلاً من كل هذا البذخ والإسراف... إلا أن مهرة، والتي كانت تجاري الوضع، كانت تشعر بالارتياح لسبب آخر تماماً، حيث تمكنت هذه الاستعدادات من صرف نظر الجميع عنها وإخراجها من تحت عدسة المجهر تماماً، فانصرف انتباه الجميع عنها وبخاصة أميرة، ما أزاح عن صدرها عبء التكلف والحرص، وشعرت مع مرور الوقت بأنها على راحتها، فما كانت تتحدث معهم إلا في الترتيبات التي نظمتها أميرة بالقلم والمسطرة كما يقولون.

الوحيد الذي كان متباعداً ولا يبدو مسروراً من الطريقة التي تجري بها الأمور، بل وربما أيضاً توقف عن المساعدة ،هو فؤادٌ، فعصبية أميرة كانت دائماً تقودهما إلى صدامٍ عنيفٍ ينتهي بها دائماً باكيةً لدى نادرٍ، الذي يبادر دون ترددٍ في الشروع لتنفيذٍ رغبتها بغض النظر عن مدى كونها متطرفةً أو شديدةَ السَّفَهِ، مسترضياً إيَّاها بطَيِّب الكلمات حتى تهدأ وتعود إلى ما كانت عليه من تسلطٍ... وهنا ينتهي دور نادرٍ وهو جُل ما كان يسمح به وقته.

ارتشفت مهرة رشفةً من فنجان الشاي الدافئ الذي غمر بخاره الدافئ وجهها بحنانٍ فأغمضت عينيها باستمتاعٍ ثم فتحتهما وابتسامة الرضا ترتاح على محياها، فبالرغم من أن الجو قد بدأ يَعتدل وخفت برودته بدرجةٍ كبيرةٍ إلا أن نسمات الصباح الباكر كانت لا تزال تحتفظ بأنفاسها اللاسعة، ما جعلها تلتف في شالٍ خفيفٍ فوق ثيابها الخريفية من بنطالٍ قطنيٍّ أخضرَ وبلوزة طويلة الأكمام من الصوف الكريميّ الخفيف...

تنهدت وهي تضع الكوب على الطاولة المستديرة التي جلست حولها هي وكريمة في المطبخ المستدير لتحتسيا شاي الصباح، في ما أصبح يشبه العادةَ اليوميةَ لديها، إذ دائماً ما تستيقظ مع نادرٍ باكراً وتنزل معه لتودعه قبل أن تقصد الممر الطويل المختفي خلف السلم العريض والذي يقود إلى الملحق المؤدي إلى سكن آدم وكريمة عبر المطبخ المستدير ذو النوافذ التي تحتل جميع حوائطه ما جعله يطل على منظر رائع للحديقة الخلفية من كل ناحية... وعلى الرغم من اعتراض كريمة في البداية، إلا أنها رضخت لرغبة مهرة في الجلوس والاستئناس بصحبتها والتي كانت هي بدورها بحاجةٍ إليها، بل وصارت تنتظر هذه الساعة، من النهار إلى النهار، بحبٍّ وشوقٍ..

سألت بقلقٍ وتمنٍ حين أغمضت مهرة عينيها مجدداً: «**ما بكِ يا حبيبتي؟ أتشعرين بدوار؟ أتشعرين برغبة في القيء أو ما شابه؟**».. أجابتها مهرة بابتسامةٍ خفيفةٍ: «**ومن لا يشعر بالدوار مع كل ما يجري والسرعة التي تَمَّتْ وتتم بها الأمور؟!! بصراحةٍ، أشعر بدوار وكأني في قلب دوامة، إنما ليس للسبب الذي يدور ببالك؟**»..

وضعت كريمة كوب الشاي نصف الفارغ برفقٍ ومدت يدها لتربت على ذراع مهرة سائلةً بحنانٍ: «**لِمَ يا حبيبتي؟ لقد مرت شهورٌ على زواجكما! أكلُّ شيءٍ على ما يرام بينكما؟**»، وترددت لحظةً قبل أن تتابع بحرج: «**أعني، ألستما.. على وفاقٍ.. يعني..**».. كانت تحرك يدها بلا معنىً إلا أن مقصدها كان واضحاً لمهرة كالشمس فقاطعتها: «**النصيب يا كريمة، لم يُرد الله بعد.. وأنا لا أفكر بالأمر بقلقٍ، إذ لم يمر على زواجنا إلا مدةً قصيرةً جداً.**». عادت ترتشف الشاي آملة أن يكون ردها كافياً لإنهاء الكلام في هذا الموضوع الذي صار يقلقها ويلح عليها مؤخراً بقوةٍ وبخاصةٍ مع تباعدها ونادر، وتذكرت رده حين عرضت عليه أن يذهبا ليفحصهما الطبيب كي يطمئنا أنهما طبيعيين وأن الإنجاب بالنسبة إليهما مسألة وقتٍ لا أكثر، فرنت عبارته في أذنها مراراً: «**لا مانع عندي من زيارة الطبيب يا حبيبتي، لكن ليس نحن نسير على سطرٍ ونترك عشرةً.**» مشيرا بسخرية إلى تذرعها بحججٍ كثيرةٍ في الآونة الأخيرة لتتنصل من دعواته الحميمة ..

شرودها أثار قلق كريمة أكثر، ولا سيما وأن موضوع الإنجاب بالنسبة إليها له بُعدٌ خاص، فانتقلت إلى الكرسي المجاور لمهرة قائلةً بصوتٍ خافتٍ وكأن هذا سيقلل من جرأة ما تقول ويراعي حساسية الموضوع: «**أتعلمين؟ هناك بعض النصائح والطرق التي يقال أنها تساعد على حدوث الحمل.. أخبريني، هل تبقين مستلقية بع.. هل ترفعين قدميك لأعلى عندما تنت..**» وضعت كفها على فمها لا تدري كيف تُفهم الفتاة ما تريد دون أن تتخطى حدوداً معينةً في الكلام، تنهدت حين أعيتها الحيلة وقالت برفقٍ وهي تمسك بيد مهرة التي اتسعت عيناها، ووقفت قائلةً كمن عزم أمره على قرارٍ هامٍ: «**تعالي معي إلى حجرتي وسنتحدث على راحتنا أكثر..**».. تبعتها مهرة في صمتٍ وعلى شفتيها شبح ابتسامةٍ (حسنٌ، ربما حمل هذا الصباح بعض التسلية من باب التغيير)..

«**كريمة؟!**».. كلمةٌ واحدةٌ نطقها آدم بمنتهى الهدوء وحسن النية متسائلاً ليفهم لم تصطحب زوجته السيدة إلى داخل مسكنهما.. كلمةٌ واحدةٌ جعلت وجه كريمة يحمرُّ بشدةٍ وترتبك وهي تتمتم بكلماتٍ مبهمةٍ، فانفجرت مهرة

ضاحكةً بقوةٍ (أقسم بالله، هذا البيت عجَبُ العُجَاب..).. ابتسم آدم لشدة ضحكها الذي بات هستيرياً الآن واكتفت كريمة بأن حملقت بالشابة للحظات قبل أن تضحك بدورها بينما انتظر آدم بصبرٍ وأدبٍ أن تهدآ، ثم قال موجهاً كلامه لمهرة: «**السيد نادر بالأعلى يستعد للسفر، وطلب مني إعلامك بعودته، فهاتفك مغلقٌ على ما يبدو..**».. تذكرت مهرة أن هذا هو موعد رحلته الشهرية إلى لندن حيث يشرف بنفسه على إدارة فرع لشركةٍ ما هناك، وبأنه أخبرها بأنه سيعود إلى البيت قبل أن يغادر إلى المطار بعكس عادته في الأشهر الستة الماضية، فشكرت آدم وتجاوزته في الممر مسرعة إلى غرفتها حيث وجدت زوجها، بحلته الفاتحة الراقية التي يزينها بكوفية خفيفةٍ مقلمةٍ قاتمةٍ، جالساً على حافة الفراش يرتب بعض الأوراق ويضعها في حقيبة عمل رماديةٍ مفتوحةٍ إلى جواره.. تقدمت بهدوءٍ حين ابتسم لها محييا وجلست على الحافة الأخرى بخفةٍ.. تابعت حركات زوجها وهو يدقق ويفرز الأوراق بعضها من بعضٍ وتأملت ملامحه الهادئة وانعكاس أشعة الشمس على جانب وجهه وشعره الذي تألق بظل ذهبي ما جعله يبدو جذاباً، فقالت مبتسمةً: «**أستُطِيل البقاء كالشهرِّ الماضي؟**». قال وهو يغلق الحقيبة ويقف مستعداً للمغادرة: «**تمني لي الحظ يا حبيبتي ولن أتأخر عن أسبوع هذه المرة.**». دار حول الفراش ومال ليطبع قبلةً خفيفةً على فمها فرفعت وجهها صوبه تلقائياً، وحين هم بالوقوف أمسكت بطرفي كوفيته قائلةً: «**بدأتُ أشكُّ في أنك متزوجٌ في لندن.**». رد مبتسماً: «**أولاً، أنت من ترفضين مرافقتي إلى هناك في كل مرة.. وثانياً، وهو الأهم، لو أنني متزوجٌ من أخرى، فأؤكد لك بأنها لن تكتفي مني في أسبوع.. فقط أنت من تترفعين عن هذه النعمة.**» وأشار إلى نفسه بحركةٍ استعراضيةٍ جعلتها تضحك بصوتٍ خافتٍ وقالت ضاحكة وهي تشد الكوفية أكثر لتقربه إليها: «**ليس ترفعاً، لا سمح الله، إنه فقط توقيتك الذي يكون غالباً في غير موعده.**». قال ببراءةٍ مصطنعةٍ: «**لم يوزع على أحدٌ جدول الحصص.**»، ثم تابع بابتسامةٍ عريضةٍ: «**اختاري أنت فقط الزمان والمكان، وشبيك لبيك نادرٌ بين يديك يا سيدتي.**».. رفعت حاجبها وأمالت رأسها قليلاً في دلالٍ وتحدٍّ، فزوى بينَ حاجبيه ثم رفعهما متسائلاً بإيماءة بطيئة.. هزت كتفيها وتراجعت

إلى الوراء قائلةً بأسفٍ مصطنع: «**للأسف، لا يمكنك تأخير رحلتك.**».. اتسعت ابتسامته وهو يخلع الجاكيت ليلقيه على السرير ويقترب منها وهو يفك أزرار قميصه قائلاً بشوقٍ: «**أنا لن أؤخر الرحلة فقط، بل سأؤخر الحرب العالمية الثالثة نفسها.**»... ضحكت وضمته بين ذراعيها مغمضة العينين تستمتع بدفء شفاه على بشرتها الباردة وقوة ذراعيه اللتان ضمتاها إليه بحزم.. استمتعت بلحظة صفاءٍ بينها وبين زوجها، كثيراً ما يعجزهما إيجادها.. ضمته بقوةٍ أكبر وكأنها تلوذ به من الأفكار التي تجاهدها كي لا تجتاح عقلها الآن.. (هذه الدقائق لي، لنادرٍ، لزواجنا... لا فكرة ولا قلق ولا أي شخص، أياً كان، هو أقرب إلي من هذا الرجل الذي يغمرني حباً واهتماماً مذ وقعت علي عيناه... ولا حتى طارق).. لم تلحظ تسمرها حتى ناداها نادرٌ وهو يحدق في عينيها بتعجبٍ سائلاً بقلقٍ: «**ما بك يا حبيبتي؟! هل هناك خطب ما؟ آآذيتك؟**».. استندت بكفيها على الفراش لترفع نفسها وتعتدل جالسة وهي تهز رأسها نفياً وتقول وهي تشد الأغطية الدافئة حولها لتداري رعشة أطرافها: «**لا، فقط تذكرت سفرك و.. لا أريدك أن تتأخر..**».. تأملها للحظات قبل أن ينفض الغطاء عنه ويهب واقفاً ليلتقط ثيابه في عصبيةٍ قائلاً بثورةٍ: «**أنا لا أفهم ما الذي تحاولين فعله بالضبط يا مهرة!**»، فسألت بنبرةٍ خجلةٍ وهي تتمنى لو تستطيع تخفيف غضبه وقول ما يريحه ولو قليلاً، ولكنها لم تجد صيغةً مناسبةً قد يتقبلها أيُّ رجل، لتخبر بها الزوجة زوجها بأنها لم تستطع أن تكون في أحضانه وهي تحبه وتحترمه، بينما عقلها يستدعي صورةَ رجلٍ آخر من الماضي القريب: «**م.. ماذا فعلت؟ صدقني انشغل بالي فقط بسفرك وبال..**». قاطعها بصوت عالٍ وهو يتجه إلى الحمام وفي عينيه نظرة تشبه تلك التي اعتادت رؤيتها في عيني فؤادٍ مؤخراً كلما استفزته أميرة، و لأول مرة لاحظت الشبه الكبير بين الشقيقين ما أخافها، إذ دائما ما أعقب تلك النظرة لدى فؤادٍ تصرفاتٌ وكلماتٌ شديدةُ الحدةِ والغضبِ قد تصل لحد التهجم، واستدعت ذكرى حديث سامرٍ المخيف إليها عن والده فارتعشت وهي تسمعه يهدر: «**لا تعرفين ما فعلتِ؟!! لقد كنا.. أنتِ دف.... أنتِ بالتأكيد لستِ طبيعيةً، وأنا لم أعد أحتمل تقلباتكِ هذه.. أتريدين أن تذهبي للطبيب**

لتعلمي لِمَ لَمْ ننجب حتى الآن؟ لا مانع لدي، ولكن سنذهب إلى طبيب نفسيٍّ وليس طبيب نساء.. أنا لا ينقصني مجانين في حياتي..»..

أنهى فيض كلماته الغاضبة وانتظر ردها الذي لم يأته، وإنما لاحظ انكماشها ونظرة الخوف التي سكنت مقلتيها وللحظةٍ غزت خياله ملامح امرأةٍ أخرى تحمل نفس النظرة وتحدق إليه في لومٍ، فزفر بقوةٍ وهو يستدير مستغفراً، ليصفق باب الحمام خلفه بقوةٍ..

جاهدت مهرة وهي تغالب عبراتها وتفكر في كلمات تسترضي بها نادراً، فهو لم يرتكب ذنباً سوى أنه استجاب لدعوتها ليغادر متضايقاً بهذه الصورة... شدتها فكرة أن تدخل إليه وتحدثه برفقٍ، فبالتأكيد سيضعف هذا الوضع رفضه وستخفف اللحظة من حدة الكلمات، ليس لأنها لحظة حسية، وإنما لكونه موقف غريب(فمن بإمكانه أن يقف عارياً ويرشق زوجته بعباراتٍ غاضبةٍ؟!).. لملمت ثيابها من هنا وهناك، وارتدتها في لحظات، ثم سارت تقدم خطوة وترجع أخرى غير واثقة من نتيجة كلامها في هذا التوقيت، ولا ما عليها أن تقول... طرقت الباب برفقٍ، وحين لم تتلق رداً فتحته ببطءٍ ودلفت بهدوءٍ.. كان الرخام الخشن البني الفاتح دافئاً تحت قدميها والبخار وصوت المياه المندفعة خلف الزجاج المزركش، مهدئان للأعصاب وجعلاها تتنفس بعمقٍ وهي تدنو برفقٍ من حيث يأخذ زوجها دشاً سريعاً.. طرقت على الزجاج بظفرها فاستدار نادرٌ بسرعةٍ متفاجئاً، إذ لم يشعر بدخولها إطلاقاً.. ابتسمت وهمت بالكلام من خلف الزجاج الذي أحست بأنه يخفي حرجها بأكثر مما يخفي ملامح زوجها وجسده، ولكن لدهشتها، فتح نادرٌ الزجاج ووقف بعيدا عن سيل المياه سائلاً باستفهام وقد رفع أحد حاجبيه: «**نعم؟**».. قالت وهي تلتقط المنشفة وتناوله إياها: «**هل يمكن أن نتحدث؟ أنا..**».. التقط المنشفة من يدها بحدةٍ وألقاها في أقصى ركنٍ قرب الباب، برميةٍ أودع فيها كل غضبه، راداً بهدوءٍ كاذبٍ: «**الآن؟! وعمَّ ستتحدثين؟ لا يوجد ما يقال يا مهرة..**»، ثم تابع بسخريةٍ: «**ولكن بما أنك تكبدت عناء القدوم إلى هنا وتجاهلتِ كل قواعدك**

وقناعاتك، فتفضلي، هاتِ ما لديكِ.. نعم؟».. كتَّف ذراعيه أمام صدره وهو ينتظر ردها وصوت الماء بدا له يزداد ارتفاعاً مع استمرار صمتها وهي تحدق في عينيه بلا حيلة.. تعرف تماماً معنى سخريته، ولامت نفسها على هذه الفكرة الغبية، فهو على حق.. لكم من مرة دعاها لمشاركته أو كما كان يدعي حينها مساعدته، لأخذ حمام يساعده على الاسترخاء، فكانت تجيبه بعصبيةٍ في كثير من الأحيان حين يزداد إلحاحاً، بأنها لا تحب التعري التام هكذا، أو أن المكان مضيء جداً، ولا تستطيع أن تشاركه حمامه، على الأقل في بداية زواجهما، هكذا دون أن تعتاد عليه... طارت الكلمات الخائنة من رأسها وحلت محلها دموع لم تدر من أين أطلت.. فتحت فمها عدة مرات لتتكلم وسط شهقاتها وتمنت أن يشفق نادرٌ على حالها فيضمها ويهدهدها كما اعتاد أن يفعل كلما استيقظت مفزوعةً من كوابيسها المقيتة، أو ألفاها كئيبةً حزينةً دون أن يعرف السبب، ولكنه بدلاً من ذلك زفر بحدةٍ وتخطاها ملتقطاً المنشفة عن الأرض ليلف وسطه بها ويتوارى في حجرتهما ليرتدي ثيابه بسرعةٍ.. أغلقت محبس المياه بيدٍ مرتعشةٍ ولم يعد الموقف لديها يحتمل التأجيل، فما دامت قد أقدمت على هذه خطوة، فستكمل حتى النهاية وإن وصل الأمر إلى إخباره الحقيقة وربما وضع حدٍّ لزواجهما، أو بالأصحِّ لعذابه وعذابها، لذا فقد تبعته بسرعةٍ هي الأخرى وتفاجأت بأنه أنهى ارتداء حلة أخرى قاتمةً غير تلك التي كان يرتديها والتي يبدو وأنها تجعدت حين ألقاها أرضاً فقالت بسرعة وهي ترفعها وتضعها برفقٍ على طرف الفراش: **«أنا آسفة يا نادر.. جدياً، وبمنتهى الصدق، آسفة.. لم يكن سفرك هو السبب.. إنها أفكاري.. رغما عني... أنا... يا نادر، هناك أموراً أنت لا تعلمها ولو علمتها فلربما قدَّرت أعذاري...»**.. كان قد أنهى تصفيف شعره فالتفت إليها وقد هدأ جداً بشكلٍ عجيبٍ وهو ينظر إليها بإمعانٍ، وقابلت هي نظرته بثبات دون أن تخفض رأسها... (يا الله!! سأحطم كرامته بكلمةٍ واحدةٍ. كيف سيتلقى الأمر؟.. ماذا سيفعل بي..! هل سيصرخ ويفضحني؟ أم ربما سيضربني؟ وفي كلتا الحالتين، بالتأكيد، سيطلقني.. يا الله؟ هل هذه هي اللحظة التي دارت كل هذه الأحداث لتقودني إليها؟ فضيحة؟ ولكن لِمَ؟

ما الذنب الذي اقترفته لكي أدفع ثمناً غالياً كهذا؟ ألا يكفي ما مررت به يا الله؟ هل سيتحمل أخوي أن يفضحا هكذا وسط هذه العائلة الجديدة؟...).. بلل العرق جبينها وصورٌ كثيرةٌ قبيحةٌ ترتسم أمام عينيها لسيناريوهاتٍ كلها مؤلمة... (ولكنه يستحق أن يعرف، وإن كان هناك من يستحق أن يُعذَّب أو يدفع ثمناً غالياً فهو أنا.. ولكن..).. انتفضت حين سأل رافعاً إحدى حاجبيه بتعجب: «**هل ستقولين شيئاً آخر، أم أنكِ انتهيتِ؟!!**».. شعرت بضعفٍ في ركبتيها، فابتلعت ريقها، وأخيراً، ارتمت بين ذراعيه باكيةً بحرقةٍ... كانت تشعر بالوحدة، وتفتقد الأم والصديقة والقريبة.. فمَيٌّ الصغيرة، كيف لها أن تحدثها بهذا؟؟.. توقعت أن يدفعها وبالفعل أبعدها قليلاً ولكن ليس ليتخلص من ذراعيها، وإنما لينظر في عينيها محاولاً سبر أغوارها وهو يقول بصوتٍ خافتٍ نسبياً: «**ما الأمر يا مهرة؟ لا تبكِ هكذا! حسنٌ، ربما بالغتُ في ردةِ فعلي، ولكني سأفهم أكثر لو تحدثتِ إلي عما يدور ببالك.**».. عاد يضمها ويُمَلِّس على شعرها فاقتربت أكثر منه.. لا، لن تبيع هذا الأمان بكل الذكريات والآمال الضائعة التي في الدنيا!.... انزلقت الكلمات من بين شفتيها دون ترتيب: «**أنا يا نادر.. طيلة عمري.. لسنوات.. أفكر في كل كبيرةٍ وصغيرةٍ وأحمل هم كل شاردةٍ وواردةٍ، أغالب الدنيا وتغالبني.. لم أرتح مُذ مات والداي.. منذ سنواتٍ طوالٍ.. صار القلق أسلوب حياة عندي وليس اختياراً.. الخوف كان ونيسي في الليل وجليسي وأنا أحتسي شاي الصباح.. رأسي اعتاد أن يدور كالآلة أربعاً وعشرين ساعة.. حتى النوم الهادئ، وأنت بالتأكيد صرت تعرف هذا، ليس أحد رفاهيات حياتي.. ولم أعترض ولم أمل، ولكني فقط تعبت.. والله تعبت.. وعلى الرغم من ذلك لا أستطيع التوقف عن التفكير والقلق.. حتى بعد زواجنا، وبعدما أزحت عن كتفي أعبائي، إلا أن رأسي يأبى إلا أن يقتلني فكراً وقلقاً..**».. توقفت لتلتقط أنفاسها فاستغل سكوتها القصير ليسأل وهو لا يدري إلى أين سيؤدي كلامها الذي لم يجد فيه مبرراً لم حدث بينهما منذ قليلٍ: «**علام؟ ما الذي يمكن أن تظني بأني لا أستطيع أن أساعدكِ وأريحكِ به؟!.. يا حبيبتي، لقد أخبرتك من قبل مراراً وأعيد الآن.. أنا أبوكِ وأخوكِ وزوجكِ.. ولَدَيَّ القدرة على تحمل ما لا تتصورين، ولن يعجزني**

أن أحمل عنكِ كل ما يؤرقك.. كما أنك تعرفين كيف يمكن أن أحل لك أي مشكلة أياً كانت.. أنا أضع بين يديك كل نفوذي ومالي يا مهرة.. وفوقهم كلهم حبي.. فاستغليهم، وكُلِّي رضاً.. ولكن لا تتركي زواجنا يتحول إلى كابوس، ولا تدمري نفسكِ وتحطميني بهذه الصورة!!.. فأخبريني دون ترددٍ ودعينا كما يقولون، نقطع عرقاً ونُرِقْ دمه.. ما الذي يقض مضجعك هكذا يا حبيبتي؟ وأعدكِ بأن كل شيء سينتهي قبل حتى أن أعود من لندن..».. ذِكْرُ لندن جعله ينظر في ساعته بسرعةٍ فقالت وقد لاحظت ذلك: «**لا شيء أكثر مما قلت..**»، وتابعت بابتسامةٍ، مشيرةً إلى رأسها: «**كيف ستريحني من هذه؟**».. عرفت بأنه أدرك كذبتها وبأنها لا تزال تخفي شيئاً من نظرة خيبة الأمل التي أطلت للحظةٍ من عينيه ولكنه بدلاً من الاعتراض، طبع قبلةً طويلةً على جبينها حيث أشارت منذ لحظةٍ وقال برقةٍ: «**سنكمل حديثنا حين أعود.**».. ردت: «**إن شاء الله.. ولكنك لم تعد غاضباً مني، أليس كذلك؟**».. ابتسم برقةٍ وتركها مغادراً دون كلمة أخرى...

مسحت وجهها بكفيها بعدما أغلق الباب وراءه وجلست على حافة الفراش حيث كانت ممدة بين ذراعيه منذ أقل من ساعة وهي تحمد الله على إمساكها عليها لسانها..

نظرت إلى فراشهما والأغطية التي كانت تضمهما منذ قليلٍ ومدت يدها لتلامسها بأناملها... لا شيء يبقى على حاله..!... حتى الأغطية، صارت باردةً!!!....



لاقت نهلةٌ نادراً بابتسامةٍ عريضةٍ وهو يدنو منها بخطواتٍ واسعةٍ وحذاؤه يطرق الأرض بقوةٍ ويتردد صداه في قاعة المطار الخاصة.. «**صباح الخير يا سيد نادر.**».. بادرته والبسمة لم تفارق محياها.. لقد قضت ما يزيد عن الساعة تختار ما سترتدي وترسم ملامحها بدقةٍ وأناقة محسوبةٍ، وقد حرصت على أن تبدو محترفةً بقدر ما تبدو جميلةً، مع الحفاظ على وجود الألوان في ثيابها بناءً على

توصية نادر... فاجأها حين ردَّ بنزقٍ واضحٍ وهو يمر بجوارها ويتخطاها لتلحقه بخطواتٍ سريعةٍ: «**ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟ لِمَ لستِ في الشركة؟**».. ردت بسرعةٍ وهي تمد إليه ملفاً رفيعاً وتتبعه صاعدةً سلم الطائرة: «**لقد طلبت مني أن أرسل لك موازنة العام لشركةِ..**».. قاطعها وهو يلتقط الملف ويجلس على الكرسي المريح في الطائرة التي كانت تنتظره: «**بالفعل، قلتُ أرسليه.. أرسليه، لا أن تجلبيه وتتركي عملك!.. عودي فوراً.. ولا تدعي الأمور تخرج عن إطارها يا نهلة.**». وتابع وهو يفتح الملف ليطمئن أن به كل ما يريد ثم يغلقه ثانيةً: «**أقصد في العمل..**».. هزت رأسها في صمتٍ وهي تبتلع ريقها وقالت بثباتٍ ومهنيةٍ عاليةٍ: «**حاضر يا سيد نادر.. أعتذر.. فقط أردت أن.. لقد اتصلوا بالمكتب ليسألوا عليك حين تأخرت فأردت أن أطمئن بنفسي أنكَ بخير.**»، وأكملت بابتسامةٍ: «**رحلةٌ سعيدةٌ يا فندم.. تصل وترجع بالسلامة إن شاء الله..**».. استدارت وغادرت الطائرة دون كلمةٍ واحدةٍ إضافيةٍ...

أخذ نادرٌ نفساً عميقاً وهو يرجع رأسه إلى الوراء مغمض العينين متطلعاً إلى بعض الوقت الذي يقضيه منفرداً بعيداً عن عيني آدم الخبيرة ووجع الرأس الذي تجلبه تجهيزات زفاف أخيه حيث يشعر بأنه يسير على قشر بيضٍ في محاولاتٍ لمنع حدوث كارثةٍ إن قرر فؤاد كعادته اتخاذ قرارٍ من شأنه أن يقيم القيامةَ في الفيلا دون أن يكترث بالعواقب ويتركه هو غارقاً حتى أذنيه في حل مشاكله وحده دون عونٍ، حتى من خاله، الذي لن يكتفي، إن حدث هذا، بموقف المتفرج عن بعدٍ كما هو الآن، بل سيكون هو نفسه مشكلةً قائمةً بحد ذاتها...

كان يتصور أن أكبر مسئولياته وأكثر ما يشغل باله شهدٌ، ولكنه اكتشف، بعد حل مشكلتها وعودة فؤاد إلى صوابه واهتمامه بها، بالإضافة لاندماجها في الجو الجديد بسعادةٍ وبراءةٍ، أنها أخفُّ وأهوَنُ المشاكل... ابتسم حين ارتسم وجهها الطفولي بضحكته المحببة خلف جفنيه وتمنى أن يرزق بفتاةٍ تتمتع ولو بنصف خفتها وجمالها وذكائها الذي يقفز قفزاً من عينيها الساحرتين..

شعر بثقلٍ في صدره وهو يتذكر ما حدث هذا الصباح، وشعر بقبضةٍ باردةٍ تعتصر قلبه بلا رحمةٍ.... زفر مجدداً وهو يقول بصوتٍ خافتٍ: «**آهٍ يا مهرة..**».. تقدمت منه المضيفة بابتسامةٍ سائلةً بأدبٍ وهي تناوله منشفةً بيضاءَ يتصاعدُ منها بخاراً خفيفاً وتضع بجواره كأس عصيرٍ: «**أتحب أن أحضر لك الإفطار الآن يا سيد نادر.**».. ابتسم نادرٌ وردَّ بهدوءٍ: «**لا، خذي هذا العصير وأحضري لي فنجان قهوةٍ من فضلك.**»..

أومأت بأدبٍ وانصرفت حاملة كأس العصير أمام ناظري نادرٍ الذي ذكرته ابتسامتها وهدوءها بنهلة.. تلك المسكينة التي لا تألو جهداً في إرضائه وتتحمل منه ما لا يحتمل بشر. شعر بالأسف للطريقة التي أحرجها بها هذا الصباح وفكر بأن يتصل بها متحججاً بالاستفسار عن أي شيءٍ وأن يُضَمن اعتذاره في طيات الكلام، ولكنه تراجع.. (سيكون أكثر من كافٍ أن أبالغ قليلاً في هديتي لها هذه المرة.)..

«القهوة يا فندم.».. وضعتها المضيفة برقةٍ بالغةٍ وانحنت قبل أن تنصرف بعدما تأكدت منه بأنه ليس بحاجةٍ إلى شيء آخر حالياً...

ذكرته رائحة القهوة الغنية النفاذة بوالده الذي كان يتشارك معه عشقه للقهوة، وكان فنجان الصباح في الشركة مع تعليماتٍ صارمةٍ من والده للسكريتاريا بعدم الإزعاج، طقساً مقدساً لا يحيدان عنه...

استنشق عبقها وهو يمرر الفنجان أمام أنفه بتلذذٍ... ارتشف رشفةً صغيرةً وتراجع في مقعده متنهداً وقد أرجعته القهوة إلى أجواء العمل وذكرته بسبب زيارته للندن، فالتقط حقيبته وأخرج منها ملفاً يحتفظ به في خزنةٍ خاصةٍ بغرفته وفتحه ليقرأه للمرة العاشرة...

(يا رب.. اجعل هذا الشهر يمر على خيرٍ..)



٩

«**ولكنك تعشق الفيراري على ما أظن.. أليس كذلك؟ أظنني رأيت اثنتين في الجراج..**». رد سامرٌ عِوضاً عن فؤادٍ وهو يضحكُ مؤكداً: «**إنه مجنون فيراري، ولديه ثلاثةٌ لا اثنتين، أتدري بأنه اشترى العام الماضي ال إف ١٢ تي آر إس بأربعة ملايينٍ ومائتي ألف دولارٍ على الرغم من أنه اشترى العام الذي يسبقه تيستاروسا موديل ٩٦ من مزاد علنيٍّ بباريس بمليون وسبعمائةٍ وخمسون ألف دولارٍ؟!!! ولمعلوماتك فإن ال إف ١٢ تعد إحياءً للتيستاروسا!!..**»، ضحك بشدةٍ للتعبير الذي اعتلى وجه ماجدٍ وتراجع يضرب فؤاداً على كتفه فقال الأخير مدافعاً: «**هل سمعت صوت محرك التيستاروسا؟**».. أغمض هو وسامرٌ عينيهما وكأنهما يستمعان ويستمتعان بموسيقى حالمةٍ، ثم تابع فؤادٌ: «**هناك فرقٌ بين كلٍّ منهما، وكذلك بين كل سيارةٍ اشتريتها وما تظنها شبيهتها، فلديك مثلاً ...**»...... كان يمكن لفؤادٍ أن يستمر لساعاتٍ، دون توقفٍ أو كللٍ، في الحديث عن السيارات عامةً، والسريعةِ الرياضيةِ منها بخاصةٍ، وقد استهوى هذا ماجداً كثيراً، فظل يسأل ويتقصى عن تفاصيلَ، أدهش مهرةٍ لإلمامه بها، فلم تعرف متى وكيف أتيح له معرفة كل هذا عن السيارات!...

«**وقد تظن أن ال (إس إل إس) أقوى من ال (سبايدر) لأن لها قوة أحصنة أعلى، ولكن الفرق في الواقع هو حصان واحد فقط تتفوق به ال (إس إل إس) عنها، مقابل ضعفٍ في الإطارات و.....**»

«**ما رأيكم أن ندخل السينما؟**».. اقترحت ميّ فجأةً، وهي تعتدل على كرسيها في المطعم المزدحم، مقاطعةً فؤادٍ الذي كان يشرح بحماسٍ ودقةٍ الفرق بين المرسيدس إس إل إس وسيارته الفيراري ٤٥٨ سبايدر لهم جميعاً، حيث أولاه ماجدٌ كامل اهتمامه واستمر في الاستفسار عن أشياء دقيقة لم تفهم منها مي شيئاً، وإنما بدا على فؤادٍ وسامرٍ أن أسئلة شقيقها كانت مميزة وبادرا يجيبانه بشغفٍ متناسيين وجود مهرة ومي اللتان لم تشاركا ولا حتى فهمتا عمَّ يتحدث الآخرون فيما بدا لهما كلاماً مُعاداً وتكراراً لمقارنة الأمس وأول أمس، وأول أول أمس!!!، بينما بدا على أميرة عدم الانتباه لما حولها وعقلها غائبٌ في مكانٍ آخر بعيدٍ وهي تطالع إحدى المجلات باهتمام... وعلى عكس مهرة التي بدت راضيةً بالوضع كعادتها حين لا تكون موضع اهتمام من حولها، فقد ضايق هذا الأمر مي إلى أبعد الحدود، ما دفعها للتحدث دون تفكيرٍ أو حتى انتظارٍ لأن يفرغ فؤاد من كلامه..

ردت أميرة ببرودٍ: «**وهل أتينا اليوم لننزهك يا مي؟.**».. لم تدع مهرة أختها تجيب وإنما قالت بدلاً منها متناسية توصية نادرٍ الدائمةِ لها بالصبرِ وتحمل أسلوب أميرة بحجةِ أنها هي سيدة المنزل الآن وأن أميرة بالرغم من كل شيءٍ، لا تزال ضيفةً لديها: «**وما المانع من أن يمرح الشباب قليلاً بينما نركض نحن لننتهي من شراء متطلباتكِ؟ يكفي بأنهما تركا دراستهما اليوم كي يساعدانا، فعلى الأقل ندعهما يروِّحا عن أنفسهما قليلاً.**». ثم أتبعت كلامها بإيماءةِ موافقةٍ لمي مكملةً بهدوءٍ: «**اختارا الفيلم الذي تحبانه.**»..

لم ترد أميرة بكلمةٍ واكتفت بنظرةٍ طويلةٍ إلى مهرة التي تشاغلت بتقليب السكر في فنجانها وقد احمر خداها بقوةٍ.. قالت أميرة بعد لحظاتٍ بابتسامةٍ متسامحةٍ، رسمتها تحت نظرات خطيبها وأخيها، اللذان اعتادا اتخاذ موقف المتفرج من مناوشات المرأتين: «**معك حقٌّ هذه المرة، أظنني انجرفت قليلاً في التجهيزات ولم أنتبه للضيق الذي قد أسببه للجميع..**»، ثم نظرت إلى شهدٍ التي كانت تغرق أصابع البطاطا المقلية في صحنها بالكاتشب، غير منتبهة ولا

مهتمة بما يدور حولها، وقد توقفت ابنة السنوات الستِّ عن محاولة لفت أنظار أهلها، وبخاصةٍ والدها، وكأنها أدركت ببراءتها الطفولية أن شيئا مما تفعل لن يجذب حب والدها وشغفه القديم، والذي يبدو وكأنه صعد مع أمها إلى السماء، وابتسمت سائلةً: «**ما رأيك يا شاهي أن تدخلي مع مامي مهرة فيلماً بالسينما؟ سمعت أن فيلم سندريلا جديد قد نزل السينما بالفعل..**».. قفزت شهد من كرسيها إلى ساقي مهرة في لحظةٍ واحتضنتها قائلةً بسعادةٍ وإثارةٍ بالغتَين: «**نعم نعم نعم، أريد أن أدخل سندريلا مع مامي مهرة ومي ... وماجد أيضاً ...**».. احتضنتها مهرة وربتت على ظهرها برقةٍ كي تفلت رقبتها التي كانت تحتضنها بقوةٍ.. على الرغم من أن هذه الفرصة التي تمنتها منذ تقرر هذا المشوار، إلا أنها اغتاظت من طريقة أميرة في صرفها وكأنها خادمةٌ لديها، وأكمل المهزلة اعتراض ميٍّ الطفولي وهي تضرب قدمها بالأرض قائلةً بنزقٍ: «**ماذا؟! بالطبع لا!! كرتون؟!! أنا أريد أن أدخل فيلم براد بيت الجديد..**». تراجع فؤادٌ في مقعده ومد ذراعيه ليلتقط صغيرته من بين ذراعي مهرة، ويجلسها فوق أحد ساقيه قائلاً بضحكةٍ خفيفةٍ: «**تعالي هنا أيتها الشيطانة الصغيرة.. أشعلت الدنيا بكلمةٍ صغيرةٍ.. أتدرين شيئا؟ أنا حزين لأنك لا تريدين بابي أن يدخل معك الفيلم؟ ها؟!**».. مالت أميرة على كتفه قائلة وهي تداعب أصابع شهدٍ الرفيعةَ: «**بإمكاننا أن ندخل جميعاً الفيلم بعدما ننتهي من شراء حاجياتنا يا شاهي؟ ما رأيك؟ ستقضين وقتاً لطيفاً في البحث معنا عن أشياء لبابي ولي..**».. «**لا..**» وقفت الصغيرة عاقدةً ذراعيها مكملةً بإصرارٍ: «**لا أريد شراء أشياء.. قدمي تؤلمني.. أريد الفيلم فقط.**». هم فؤادٌ بالتعليق ولكن مهرة قالت له بهدوءٍ: «**لا بأس يا فؤاد، أنا الأخرى تؤلمني قدماي، وفكرة الجلوس والاستمتاع بفيلم مع شهد تريحني وتسعدني.. حقاً..**».. رد شاكراً بابتسامةٍ عريضةٍ: «**لا أدري كيفَ أشكرك يا عزيزتي.. لقد أتعبناك مؤخراً.**» ورفع كتفيه وهو يبسط كفيه قائلاً: «**ولكن هذه ضريبة أن تكوني أخت العريس، أليس كذلك؟**».. اكتفت بالابتسام وعادت لتكمل طعامها، فمالت مي على أذنها قائلةً: «**مهرة! أنا لن أدخل فيلم كرتون!! هذا ظلم!! إنها الفسحة الوحيدة المتاحة لي وسط الدراسة ولن أضيعها على فيلمٍ للأطفال!!**».. ردت على أختها بصبرٍ هامسةً:

«**هذه الأفلام يشاهدها الكبار والصغار. أنا نفسي أنجذب إليها حين تشغل شهدٌ أحدها في غرفتها.. ثم عن أي دراسةٍ تتحدثين؟ أنت تخرجين أكثر من أي شخصٍ آخر من زميلاتك، ويذهلني حقاً أنكِ لا زلتِ تتذكرين كونكِ ما زلتِ طالبةً.**».. ردت مي هامسةً بحدةٍ: «**قولي ما شئتِ، ولكني لن أدخل ذاك الفيلم السخيف.. أُفضل العودةً إلى البيت.**».. هزت مهرة كتفيها رادةً بهدوءٍ: «**إذاً عودي.**».. تراجعت مي وهي تشبك ذراعيها وتزفر بقوةٍ، ثم عادت تقول حين واتتها فكرةٌ: «**لا مشكلة من الأساس، ادخلي أنت مع شهدٍ وأنا وماجد سندخل فيلم براد.**».. لما رفض ماجدٌ دخول الفيلم الذي اختارته أخته وأعرب عن رغبته في دخول فيلم آخر عن السيارات والسباقات، قررت مهرة أن الأمر حسم وأن ميّ ستدخل معها هي وشهد الفيلم الذي تريده الصغيرة، وهنا تدخل سامرٌ قائلاً ببساطةٍ: «**بإمكانكما حضور العرضين، حفلةٌ تلو الأخرى، فلن ننتهي من مشوارنا هذا باكراً.. ولكن إن كان ماجدٌ سيدخل فيلماً آخر، فلا أظن أني أتركُكما وحدكما لتدخلا فيلماً دون صحبة رجلٍ.**»، واستدار ليقول لأخته التي كانت تقلب صوراً على شاشة هاتفها لتريها لفؤادٍ: «**هل هناك مشكلةٌ لو بقيتُ أنا مع مهرة والبنات؟ أظن أنكِ وفؤاداً تستطيعان تدبر أمركما وحدكما فيما تبقى من قائمة اليوم.**».. أمعنت النظر إليه ثم قالت وهي تشيح بوجهها ملوحةً بيدها لتعود إلى هاتفها: «**لن يُحدِث الأمرُ فرقاً.. افعل ما شئت.**».. ولكنه لم يأبه لإهانتها، إذ تركز كل تفكيره على الوقت الذي سيقضيه تالياً في السينما..

وقفت مهرة بعدما انتهت من وجبتها ومدت يدها لشهدٍ كي تنطلقا لحجز تذاكر العروض حتى ينتهي أخويها من تناول طعامهما تاركةً الجمع لتبتعد بخطواتٍ سريعةٍ والصغيرة في ثوبها الوردي القصير الضيق تقفز على إيقاع أغنية تدندنها بصوتٍ عالٍ وهي تحرك شعرها يمنةً ويسرةً بفرحٍ...

كانت مهرة تفتقد وجود نادرٍ وتعجبت أنه أطال زيارته للندن هذا الشهر، حيث سيتزوج أخوه بعد أيام!. وكلما سألته عن السبب، رد عليها باقتضابٍ بأنه سيعود قريباً إن شاء اللهً. ولكن ما أقلقها أنها شعرت مؤخراً في صوته بضيقٍ شديدٍ فيما بدا وكأن الأعمال التي سافر لأجلها لم تسر كما يَجب أو يُحب...

قطعت التذاكر وعرضت على شهدٍ أن تتمشيا في محال الألعاب قليلاً حتى يحين موعد العرض، وما أن ابتعدتا عن الزحام حتى رن هاتفها المحمول فالتقطته لترد على زوجها بسرعةٍ..



لم يزل ملمس تلك القبلة الندية يداعب شفتي سامرٍ، ولم يغادر طعمها طرف لسانه، فبقي مستلقياً يحدق في ظلام غرفته وهو يتعجب من أمره.. لم تكن أول مرةٍ يقبل فيها امرأةً، وليست هذه هي الفتاة التي ظن أنه يمكن يوماً أن يقع في غرامها رأساً على عقبٍ كالغِرِّ الساذج بحيث صارت مجرد الالتفاتة أو الابتسامة التي تمنحه إياها مناسبةً سعيدةً تستحق الاحتفال، أو أن تمثل قبلةً خاطفةً في السينما حدثاً عظيماً كما لو كان مراهقاً غِراً!.. فاليوم مثلاً، إذ لم يظن أن نهاره سيكافئه بهذه الجائزة في قلب ظلمةِ قاعة السينما.. تذكره للحظتها جعل قلبه يخفق بقوةٍ فابتلع ريقه وتقلب مغمضاً عينيه يحاول الاحتفاظ بأثرها حتى لا تضيع وسط تفاهات الحياة.. انتفض حين رن هاتفه المحمول وأضاءت شاشته الحجرة بسخافةٍ مبددةً خيالاته الحميمة وأحلامه فالتقطه ليطفئه بسرعةٍ ظناً منه أن المتصل هي أخته ولكنه تسمر لثوانٍ حين أدرك أنها من كانت تداعب مشاعره منذ لحظاتٍ بنظراتها المترددة وأهدابها المنسدلة على خديها خجلاً!.. ردَّ و قد نقلت نبرته البسمة العريضة عبر نغمات صوته: «**حبيبتي.. كنت أفكر فيكِ تواً.. لم أستطع النوم ولم يغمض لي جفن م...**».. قاطعته بتلعثم: «**اسمعني جيداً يا سامر.. ما حدث اليوم خطأٌ كبيرٌ، لم أقترف مثله من قبل.. وأنا أطلبك الآن لأخبرك بأن تنساه تماماً وكأنه لم يحدث، وأعدك بأنه لن يتكرر أبداً..**».. اعتدل مقطباً ليقاطعها بضيقٍ: «**ولكن لِمَ؟ ممن أنتِ خائفة؟ من أخويكِ؟ أم من نادرٍ؟ أستطيع أن أحميكِ من أي مخلوق! أنا اليوم تأكدت من أنك تبادلينني مشاعري، وليس..**».. قاطعته مجدداً: «**كانت لحظةُ ضعفٍ لا أكثر، نظراً للضغط والتوتر الذي أمر به.. ولا دخل للمشاعر فيها..**»، تنهدت متابعةً: «**يا سامر، افهمني، ما حدث عيبٌ وحرام وخارجٌ عن الأصول، ووضعي ووضعنا هنا...**».. قاطعها ثانيةً: «**كعبيد**

إحسانٍ لنادر باشا؟!».. استقبل صمتها باستحسانٍ وصبرٍ، فلما طال سكوتها تابع بصوتٍ حانٍ رقيقٍ: «**اسمعيني يا حبيبتي، أنا لا أدري لم تكبرين الموضوع فهي مجرد قبلةٍ خاطفةٍ لا أكثر، وما حدث لم يكن خطأً ولا مقصوداً، ولكن المقصود فعلاً هو تدبير القدر لكلينا حتى نلتقي ونتقارب، واليوم كان تأكيداً لي بأن هذا هو ما قُسم لنا.. صدقيني، فقد عرفت الكثير من النساء ولم أشعر تجاه أيٍّ منهن بما أشعر به نحوكِ منذ ذهبنا في تلك الرحلةِ إلى شرم.. لقد قلبت كياني وأعدتني مراهقاً يترجى النظرة ويهيم أياماً في ذكرى ابتسامةٍ..**».. سمع تنفسها الثقيل وتنهيدتها المترددة فتابع: «**اسمعي.. مثلُ هذا الكلام لا يقال على الهاتف، سأنتظرك في الحديقة بعد دقائقٍ، وافيني قرب النافورة الكبيرة في الحديقة الأمامية.. اتفقنا؟**».. اعترضت: «**لا يا سامر، لن أنساقَ لمثل هذا النوع من التصرفاتِ ولن ألتقيك خلسةً.. أجُننت؟ أخبرتك بأنني أشعر بذنبٍ رهيب... ثم، ماذا إن رآنا أحد ما، كيف سنبرر موقفنا؟ ألم تسمع ما قلته لك منذ لحظاتٍ بأن ما حدث لن يتكرر وبأنن..**».. قاطعها بسرعةٍ: «**فقط سنناقش ما تعتبرينه مشكلةً، ولكن وجهاً لوجهٍ.. ثم أن غرف النوم أغلبها تطل على المسبح بالخلف، والجميع الآن نيامٌ، فلا تقلقي... فقط التقيني هناك وسنتفاهم، وأعدك بأني لن أرتكب أي حماقة تضايقك.**»، توقف ليلتقط أنفاسه ثم تابع معقباً على عبارته الأخيرة: «**ولو أنني أرفض أن أسمي ما حدث خطأً أو حماقةً.. ها؟ اتفقنا؟ سأنتظرك فلا تتركيني واقفاً في البرد طويلاً.**».. ردت بخفوتٍ بعد تفكيرٍ قصيرٍ: «**حسنٌ، ولكن لن نطيل الكلام.. فقط سأطاوعك كي أضع حداً لهذا الهراء..**»..

أغلق الخط واستلقى مجدداً والابتسامة تملأ وجهه ... فرغم كل ما تبديه من اعتراضٍ ومقاومةٍ، إلا أنها هي من اتصلت به، ولم تنتظر اتصاله أو محاولة توددٍ جديدة إليها حتى تصده حينها.. والأهم، فقد وافقت على لقائه... وحدهما.. سراً... تحت ضوء القمر...



ألقت مهرة رأسها على الوسادةِ باسطةً ذراعيها على امتدادهما لتسمح لهاتفها بأن ينزلق من يدها وهي تحدق في سقف حجرتها في ضوء المصباح الجانبي الصغير والحيرة والقلق يقرضان أطراف أعصابها بقسوة... لم تفهم ما معنى ما يحدث معها، ولا ما هي مقدمةٌ عليه.. لقد فقدت تماماً قدرتها على تحديد اتجاهات الخطأ والصواب وشعرت بأن الشعرة التي تفصل فعل الواجب وفعل ما تحب تلاشت وتركتها وسط غيمة أفكارها تستقرئ الطريق وسط النجوم دون دليلٍ أو علم.. تداخلت الإشارات أمامها وتخبط عقلها في متاهةٍ لا فكاك منها.. كان غريباً أن تجري مكالمتين محيرتين معها في ذات اليوم... تنهدت وقامت تبدل ثيابها بسرعةٍ وهي تدخل جسدها في أول ما وصلت إليه يداها ما صدف أنه بنطالاً من الجينز الأسود وقميصاً فضفاضاً أحمر اللون من النوع ذي القصة الرجالية، فقد كانت تجد راحتها في ارتدائه، لذا جعلته دائماً قريباً من متناول يدها.. انتعلت حذاءً رياضياً حتى لا تحدث صوتاً أثناء نزولها وأملت ألا تقابل كريمةً أو آدم اللذان اقترب موعد استيقاظهما... تراجعت بعدما وصلت إلى باب الحجرة ووضعت الروب الطويل فوق ملابسها حتى تمنح نفسها المجال لتجد عذراً إن حدث والتقت أحدهم بالأسفل..

نزلت وكلمات المكالمة التي تلقتها قبيل عرض السينما تتردد في أذنيها كالاسطوانة التي ما أن تنتهي حتى تبدأ من جديد.. حين ردت هذه الظهيرة على هاتفها دون تفكير ظناً منها أن المتصل هو زوجها، فاجأها الصوت المألوف كسيراً، قائلاً على عجل حتى لا يمنحها فرصةً للرفض: «**مهرة، هذا أنا، طارق.. أرجوكِ ألا تغلقي الخط واعطني الفرصة لأقول ما لدي، ثم افعلي بعدها ما ترينه صحيحاً، ولكن على الأقل امنحيني فرصةً أخيرة لتوضيح الأمور.**». ردت مصدومةً: «**من أين لك الرقم الجديد؟!**». ثم تذكرت جارتها فتابعت: «**عليك أن تصدق كل كلمة أخبرتك بها.. حتى هذه المكالمة تعد خارجةً عن الأصول يا طارق!**».. رد بسرعةٍ: «**أنا لا أريد خرق أي عهدٍ أو أصولٍ.. فقط اسمعيني الآن، وربما بعدها سأكف عن مضايقتك.. هيا يا مهرة، لأجل أيامنا الخوالي.. لأجل العشرة والعيش والمِلح.. والحب الذي بيننا، أو كان بيننا يوماً.**».. أضعفت كلماته دفاعاتها

ولكنها قالت متظاهرةً بالصلابة: «**هاتِ ما لديك بسرعةٍ، فلستُ وحدي.**».. قال وقد لاحظ تعمُّدها التعالي عليه: «**في البداية، أود أن أعتذر عما فعلتُ بكِ ذاك اليوم في بيتك.. أنتِ لا يمكنك تخيل مقدار الندم الذي أشعر به بسبب ما فعلت.. أرجوكِ سامحيني.**».. انتظر ردها الذي ما جاءه، فتابع مصراً ألّا يضيع هذه الفرصة: «**أتعلمين؟ وكأن الله أراد أن يعاقبني عليها! فقد تعقدت ظروفي بشكلٍ سيءٍ ولن تصدقي بأنني فقدت وظيفتي، ولولا بعض الأصدقاء، أولاد الحلال، أوجدوا لي عملاً مؤقتاً كمحاسبٍ بشركة استيرادٍ بأبوظبي، لكنت الآن أتسول عملاً في مصر..**». شهقت رغماً عنها والتقطت أذنه شهقتها الخافتةَ فتابع مطْمئنا لاسترداده تعاطفها: «**علمت وقتها أن هذا ذنبك واستقبلت العقاب برضاً تامٍ يا مهرة.. أردت أن أخبركِ كم أنا آسفٌ.. آسفٌ لتركي لكِ وسفري دون خبرٍ أو كلمةٍ واحدةٍ في البداية، ثم لتخلِّيَ عنك دون سابق إنذار.. وعن..**». قاطعته: «**وماذا الآن يا طارق؟ ما المفترض بي أن أفعل؟ ها؟ ماذا تتوقع مني؟ دموعاً وتسامحاً وأن أخبرك بأنني.. لازلت.. أنتظرك.**».. تراجعت عن قول كلمة (أحبك) في اللحظة الأخيرة. قال بإلحاحٍ: «**سأزور القاهرة بعد شهرين، فلم لا نتقابل لننقي الأجواء ولأتأكد من صفحك عنّي؟.. لقاءٌ نصفِّي فيه النفوس ونفتح فيه صفحةً جديدةً كصديقين..**».. «**لا.**». كلمةٌ واحدةٌ ردت بها عليه قبل أن تغلق الخط وتطفئ الهاتف تماماً..

«**مهرة؟! ما الذي أيقظك بهذه الساعة؟ إلى أين أنت ذاهبةٌ؟!!**».. تساؤل ميٍّ المفاجئ جعلها تنتفض وهي تستدير لتجد أختها تنظر إليها بتعجبٍ. قالت ببساطةٍ: «**شعرت بالأرق فنزلت لأعد كوباً من الحليب الدافئ عله يساعدني على الاسترخاء.. أخبريني أنتِ، لم لازلت مستيقظة حتى الآن؟ كيف ستستيقظين بعد قليلٍ للمدرسة؟.**» ، تبعت كلامها بأن نظرت إلى ساعتها وابتلعت ريقها حين لاحظت بأنها تأخرت على عكس ما طُلب منها.. أجابتها مي بتلكؤٍ وهي تعقد ساعديها وتستند بجذعها النحيف على الدرابزين العريض: «**كانت الواجبات كثيرةً جداً اليوم وبالكاد استطعت إنهائها واستغرقت الأحياء مني وقتاً طويلاً وأنا أحفظ رسوماتها.. ولما شعرت بالملل والارهاق، قررت أن أنعش نفسي قليلاً بالتمشي في الحديقة.**».. قالت مهرة بثباتٍ: «**لا، لو خرجتِ الآن إلى الحديقة ستصابين بالبرد**

يا حبيبتي.. عودي إلى فراشك وسأُعِد لك شيئاً دافئاً معي..».. اعتدلت مي وقالت وهي تهز كتفها بلا مبالاةٍ: «**لا، أتعرفين؟ سأذهب فعلاً لأنام... تصبحين على خيرٍ.**».. ابتسمت لها مهرة وانتظرت حتى أغلقت أختها باب حجرتها خلفها، لتهرع نازلة الدرجات قفزاً.. ركضت حتى أوشكت أن تتعثر وتلوي كاحلها، وفي طريقها إلى الخارج خلعت الروب و ألقته في حقيبة يدها...

تقدمت تحثُّ الخطى لتطوي أرضَ الحديقة بسرعةٍ وقد بدأت أنفاسها تتقطع... وتحت الضوء الفضي للقمر، المحتجب بحياءٍ خلف الغيوم الرقيقة التي بدت كوشاح العروس المخرم المطرز بماسات صغيرةٍ تتلألأ بزهوٍ، وقف سامرٌ مستتراً بالظل الأسود لشجرةٍ ضخمةٍ يرقبها في صمتٍ وعينيه يغطيهما طيف من المشاعر المتضاربةِ.. وبسمةٌ عريضةٌ تعلو وجهه وتتسع كلما اقتربت مهرة أكثر فأكثر..



كان حجم الاحتفال مهيبا، ما أذهل مهرة وأشعرها بالرهبة وبالعجب من موقف نادرٍ إذ وافقها على زفاف محدود قياساً بقدرته وشهرته ومعارفه، و قياسا بهذا الحفل، و هي تقف وسط القاعة الضخمة المزدهية بالورود والكريستالات والفضيات، وقد تدلت الثريات كالجواهر الضخمة من سقفها العالي المنمق بنقوشٍ ورسوماتٍ شديدة الدقةِ والرقةِ، وامتلأت بوجوهٍ كان مجرد سماع اسماء أصحابها يصيبها بالدوار.. شعرت بضعفٍ في قدميها وهي تسلم على من عرفها إليها زوجها باسم أسبقه بلقب (الأميرة)!.. كانت الابتسامة الرسمية تعلو جميع الوجوه وقد حذت هي حذو الجميع حتى باتت تشعر بشدٍّ في عضلات وجهها ورقبتها المطوَّقة بعقدٍ ماسي باردٍ ثقيلٍ..

خفتت الأضواء الآن ليرقص الحضور رقصةً هادئةً على أنغام الموسيقى الحالمة التي صدحت بنعومةٍ في أرجاء القاعة، وجواهر النساء تتلألأ تحت أشعة الأضواء الرقيقة لتبدو القاعة كقبة السماء بليلةٍ صافية تملؤها النجوم مضفيةً جواً خياليا ساحراً..

التفتت حيث يقف زوجها مع مجموعةٍ صغيرةٍ تتضمن شيخاً كبيراً وامرأتين طاعنتين في السن يغطي وجهيهما طبقات من المكياج المتقن، وبدوا جميعا منهمكين في حوارٍ جادٍ عزلهما عن الأجواء المحيطةِ بهم.. ولكن ما استحوذ على انتباهها هو نادرٌ، بثباته وتمالكه لنفسه وكأن شيئاً لم يكن.. كان أنيقاً في حلته وقميصه وربطة عنقه شديدي السواد وقد قلدته فارتدت فستاناً أسود بالكامل متماشيةٍ مع مزاجهما والظرف الذي لا يعلمه سواهما.. قال الشيخ شيئاً في أذن زوجها ما بدا أنه مزحةٌ ما، إذ استجاب زوجها بضحكةٍ عاليةٍ اعتصرت قلبها... كرهت الشعور بالتمثيل والمجاملات التي تفرض على المرء أن يُبدي عكس ما يشعر به، واشتدت وطأة الموقف حين تقدمت إحدى سيدات الأعمال من نادرٍ وهمست شيئاً في أذنه فانحنى برفقٍ مبتسماً ورافقها إلى وسط الجمع الراقص ليلف ذراعه حولها مراقصاً بأناقةٍ، دون أن تفارق البسمة المجاملة محياه..

تنهدت وهي تدور بعينيها بعيداً لتصطدم بمشهدٍ جفف حلقها، ففي أحد أطراف القاعة كان سامرٌ يلف ذراعه بقوة حول جذع مي ويرقصان بودٍّ بالغ وقد قرَّب شفتيه من أذنها محدثاً .. لم تفكر كثيراً، وإنما أمسكت بطرف ثوبها الطويل ترفعه قليلاً وحثت الخطى حتى وصلت إليهما فقالت فوراً: «**مي!! أريدك.**». أبعدها سامرٌ على الفور وهو يقول لمهرة ساخراً: «**ظننتك ترقصين مع زوجك! أم أن السيد نادر انشغل بسيدات المجتمع الراقي وترك زوجته وحيدةً؟**». رمقته بنظرة ناريةٍ والدم يغلي في عروقها من الطريقة التي كان يضم بها أختها وردت ببرودٍ: «**نادرٌ رجلٌ يُقَدِّر واجباته ويعرف جيداً الأصول يا سامر.**». لم تمنحه فرصةً للرد، وإنما أمسكت بشقيقتها من مرفقها وقادتها بعيداً عن الجمع حتى بلغتا باب القاعة فتوقفت لتلتقط أنفاسها وتقول دون ترددٍ: «**لا أريد أن يتكرر ما حدث ثانيةً يا مي، مفهوم؟ لو رآك ماجدٌ لما مر اليوم على خيرٍ..**».. ردت مي بطفولةٍ: «**وماذا فعلتُ أنا ولم يفعله غيري هنا؟ انظري حولك يا مهرة، الجميع يرقصون ويمرحون، حتى (أبيه) نادر، وربما أيضاً ماجد وجد من يرقص معها! على الأقل أنا أراقص رجلاً من العائلة، وليس رجلاً غريباً!!**». حدقت بها مهرة لثوانٍ

لا تدري كيف توضح لها بأن سامراً بالذات لديها عليه تحفظاتٍ أكثر من أي رجلٍ آخر، فقالت بعد لحظةٍ: «**لم نتربى على هذا.**» وأشارت بيدها إلى القاعة ثم أكملت: «**ولا يجوز أن تراقصي أيَّ مخلوقٍ أياً كان بهذه الطريقة مالم يكن زوجك، وهذا في المستقبل.. أين حياؤك؟ ألم تخجلي من الطريقة التي كان يقربك بها منه؟!!**».. زفرت مي دون ردٍّ فتابعت: «**اسمعي يا مي، أنا أعصابي على حافة الانهيار ولا أريد أن تختلقِي بطيشكِ مشكلةً قد تُعَقِّد الدنيا وتقلبها رأساً على عقبٍ، فلو تكرر منك هذا التصرف مع سامرٍ، سأجعل نادراً يتحدث إليه.. مفهوم؟! لا تدعيني أكرر كلامي يا مي.**». أنهت كلامها وانطلقت عائدةً إلى حيث كانت، تاركةً أختها تهتز غضباً وهي تنظر إلى سامرٍ من بعيدٍ بينما أخذ الأخير يرمقها بنظرةٍ ضاحكةٍ وقد جعَّد وجهه بطريقةٍ أضحكتها وهو يقلد حركات مهرة وهي تبتعد.. وفي الجهة الأخرى من القاعة، لمح نادراً يقترب من زوجته ويهمس شيئاً في أذنها جعلها تدفعه برفقٍ ودلالٍ وقد بدا عليها الخجل والارتباك...

لم يكن نادرٌ قد تمكن قبل هذه اللحظةِ من الانفراد بزوجته، وقد اغتبط بالنظرة التي أطلت من عينيها وهي ترقبه يقترب، وبالابتسامة العذبة التي منحته إياها حين وضع ذراعه خلف ظهرها وقبل وجنتها برقةٍ.. همس وأنفاسه الحارة تلفح رقبتها: «**أتعلمين بأنك أجمل من في الحفل الليلة.. و أنا شخصياً سأحتفل بهذا حتى الصباح.**».. دفعته عنها بخفةٍ وقالت وهي تنظر إلى كتفه: «**وأنت أيضاً تبدو جميلاً.. أعني أنيقاً.**».. ثم نظرت في عينيه نظرة ذات مغزى سائلةً باهتمامٍ: «**كيف تبلي اليوم.. أتشعر بأنك أفضل حالاً، أم .. لا زلت.. أعني، أنا أعرف طبعاً..**». قاطعها بهدوءٍ: «**أنا بخيرٍ يا حبيبتي، اطمئني.**». تابع وهو يمسك بيدها ليقودها إلى وسط الجمع الراقص ويلف ذراعه حولها: «**ما رأيك بالعرس؟ هل يعجبك؟**». رفعت رأسها قليلاً لتدنو من أذنه قائلةً بصراحةٍ: «**أجده مبهرجاً أكثر من اللازم.. يعجبني حفل عرسنا أكثر.. كنت قد شاهدت الأعراس التي تقام في الفيلات بالنهار فقط في الأفلام، ولكن عرسنا كان أجمل من كل ما شاهدت أو حلمت بأن يكون عليه عرسي.**». ابتسم لصراحتها وسألها مداعبا: «**وماذا عن عريسك؟ أهو كما تمنيتِ؟**». أشاحت بوجهها وأعادت خصلة شعر متمردةٍ إلى

الوراء مجيبة باقتضابٍ: «**أفضل.**».. نظر إليها طويلاً قبل أن يضمها برفقٍ دون أن يُعلق..

امتد الحفل حتى أخذ الفجر يطوي أطراف الليلِ، وكلما أراد فؤادٌ أن ينسحب بعروسه رجته أن ينتظرا قليلاً بعدُ حتى يستمتعا بعرسهما الذي لن يحظيا به مرة أخرى، وكان في كل مرة يذعن بصمتٍ، ولكنه هذه المرة شعر بالنعاس يغشاه وهو جالسٌ على كرسيه المرتفع فمال على أميرة قائلاً بسخريةٍ: «**لو انتظرنا لخمس دقائق أخرى ستضطرين لحمل عريسك حتى السيارة بدلاً من العكس، ولا أظن أن هذا هو المشهد الذي تودين رؤيته في المجلات غداً.. فأنا متأكدٌ من أن أحدهم التقط لي صورةً وأنا نائمٌ منذ ثوانٍ يا حبيبتي..**».. سألته مذعورةً: «**حقا؟!!**».. ضحك وهو يقف ماداً يده إليها لتقف بدورها وقال بعدما عدل حلته وأغلق زرها: «**هيا يا أميرة الليلة، فلدينا ليلة من ألف ليلةٍ وليلة..**».. سارت إلى جواره وسط الجميع والكل يُحييهم بابتساماتٍ سعيدةٍ وكلماتٍ مُبارِكةٍ، ووسط ذاك الزخم من الوجوه تعلقت عيناها بوجهٍ واحدٍ فقط، وقف قرب الباب منتظراً وصولهما بابتسامةٍ عريضةٍ وسعادةٍ بالغةٍ.. غصت بريقها وشعرت برغبةٍ شديدةٍ بالبكاء.. اليوم ستضع نهايةً لحلم راودها طوال حياتها وما أن يغلق باب الحجرة عليها هي وفؤاد، حتى توصم إلى الأبد ب(زوجة أخيه)... أخته... آخرُ امرأةٍ في الدنيا قد ينظر إليها أو يفكر فيها كحبيبةٍ وزوجةٍ.. أما هي، فعليها الآن أن تكون عروساً محبةً وفيةً لا ترى ولا تحس إلا بهذا الرجل الذي تعشق أخاه عشقاً أورثها سقماً... كانت الترتيبات والاستعداد للعرس قد جرفاها بعيداً عن التفكير في الخطوة المخيفة التي أقدمت عليها، ولكن الآن، وقد رحلت السكرة وجاءت الفكرة، فقد شعرت بطوقٍ من نارٍ يُطبق على رقبتها وتراءى لها ثوب زفافها الأبيض كفناً، وتساءلت إن كانت مجرد صدفةٍ أن يكون لون كلاهما واحداً.. أبيضَ بارداً؟!!. وقف فؤادٌ ليعانق أخاه عند باب السيارة وتبادلا بضع تعليقاتٍ ساخرة لم تنتبه لها ونظرها مثبتٌ رغماً عنها على ذراع نادر التي ارتاحت بتلقائيةٍ على خصر مهرة.. (تلك السمراء القصيرة الرخيصة قاطنة العشوائيات)..

«**قل أعوذ برب الفلق.. ما شاء الله.. أنت الليلة كالبدر يا بنيتي.. الله أكبر.. فليحرسكما الله من كل عين رأتكما ولم تُصلِّ على النبي..**».. استدارت تعانق كريمةً بفتورٍ وسلمت على آدم بسرعةٍ، كما عانقت مي وماجد بابتسامةٍ خفيفةٍ..

«**أخيراً عصفورتي الصغيرة تغادر العش.. أكاد أبكي لرؤية شقيقتي الصغيرة البريئة عروساً وزوجة.. تعالي عانقيني قبل أن أُحدث فضيحةً.**».. احتضنته بشدةٍ قائلةً من بين أسنانها التي ظهرت من ابتسامتها العريضة: «**قل كلمةً واحدةً زائدةً وستندم.**»، وليغيظها قال بصوتٍ عالٍ: «**أتبكين يا حبيبتي؟**».. غرزت كعب حذائِها بقوةٍ في مقدمة حذائه وهي تضم عنقه بقوةٍ أكبر ثم تركته فور ما صرخ متأوِّهاً ما جعل خاله يسأله بقلقٍ: «**ما بكَ يا سامر.**»..

عادت أميرة لتنظر نحو فؤادٍ الذي أشار إلى ساعته مقطباً، فابتسمت رغماً عنها وهمت بقطع الخطوتين اللتان تفصلانها عن السيارة وحياتها الجديدة، إلا أن المخلوقة الأكثر إزعاجاً لها في الدنيا وقفت أمامها بثوبها الأسود الطويل وقد بسطت ذراعيها بودٍّ قائلةً: «**ألف مبروكٍ يا أميرة..**».. تعمدت أميرة أن تميل أكثر من اللازم كي تبرز مدى قِصَرِ قامة غريمتها و ضآلتها وهي تطبع قبلةً خاطفةً في الهواء بجوار أذن مهرة دون أن تلامسها، وتخطتها بخيلاءٍ لتركب إلى جوار فؤادٍ في سيارته الفورد الحمراء التي ستقلهما إلى المطار حيث سيستقلان الطائرة في جولة حول أجمل منتجعات العالم كما خططت...

انتظر الجميع حتى غادر العروسان ثم بدأ الضيوف بالانصراف، ونادرٌ وحسَّاب يسلمون عليهم فرداً فرداً..

الضوء الخفيف للفجر الوليد أضفى روحاً عذبةً على الطريق، فتنهدت مهرة وأرجعت رأسها إلى الوراء وهي تسترخي في كرسيها المجاور لمقعد السائق حيث قاد نادر السيارة إلى الفيلا عائداً بهم، هي وأخويها وشهد التي نامت قبل أن ينتصف الليل وبقيت في حضن كريمةٍ لبقية السهرة، يتبعهم في سيارةٍ أخرى سامرٌ وحسَّاب مصطحبَين آدم وزوجته... نظر نادرٌ إلى مهرة إثر تنهيدتها القويةِ متسائلاً: «**متعبةٌ؟**».. ردت دون أن تفتح عينيها: «**حين وقف فؤادٌ**

آخر مرةٍ، كدت أبكي إذ ظننتهما سيرقصان ثانية.».. ضحك نادرٌ ونظر بسرعةٍ في مرآته الأمامية ليجد كل من بالخلف نيام فقال بصوتٍ خافتٍ: **«أتعرفين؟ أظننا بحاجةٍ لرحلةٍ كتلك التي ذهب إليها فؤاد وأميرة لنجدد نشاطنا ونعوض ما فاتنا من..»**.. انتفض حين اعتدلت ميّ فجأةً لتميل إلى الأمام قائلةً بحماسٍ وبصوتٍ عالٍ أيقظ ماجداً فزعاً: **«أنا موافقة، لقد كنت أريد أن أقترح عليكما هذه الفكرة منذ مدة، ولكن الزفاف وال...»**. قاطعتها مهرة ساخرةً: **«والدراسة؟.»**.. تابعت مي متجاهلةً أختها: **«وكل الأمور الأخرى التي شغلتنا الفترة الماضية منعتني.. أين تخطط لأن نذهب يا (أبيه)؟»**.. أحرجه حماسها ولم يستطع أن يفصح عن نيته المسبقة بالذهاب وزوجته وحدهما في هذه الرحلة، فنظر إلى مهرة علها تفهم ما يدور بخلده وتخلصه من هذا الحرج، ولكنه وجدها شاردةً في المناظر خارج السيارة فقال بهدوءٍ: **«اختاري أنتِ يا مي. أين تحبين أن تذهبي؟»**. قالت بسرعةٍ: **«ديزني في باريس؟ أم أنها في أمريكا؟! لا أدري، ولكن، أيمكن أن نذهب إليها؟»**. رد ببساطةٍ: **«هناك واحدةٌ في فرنسا وأخرى في أمريكا.. اختاري أيهما شئت وأعدك أن آخذكم إليها.»**. رد ماجدٌ محتجاً: **«بالطبع لن نذهب في النهاية إلى مدينة ملاهٍ!!! نحن لسنا أطفالاً يا مي.»**. صحح نادرٌ له: **«ولكنها ليست ملاهٍ بالمعنى المتعارف عليه، إنها مدينة إنتاج ضخمةٍ وبها مواقع تمثل كل قصة من القصص الخيالية على مستوى ضخم وعالٍ.. إنها مزارٌ عالمي يا ماجد وأنا متأكدٌ من أنك ستقضي بها وقتاً خيالياً..»**.. سألهُ ماجدٌ: **«ولكن لو اخترت أنت يا (أبيه)، فإلى أين ستذهب؟»**. مط نادرٌ شفتيه وهز رأسه إلى الجانب قليلاً راداً ببساطةٍ: **«أنا من عشاق إيطاليا، ولا يمكن أن تذهب إليها في أي وقتٍ من العام دون أن تستمتع بكل لحظةٍ تقضيها بها، وكل منظرٍ تقع عليه عينيك.. أما في هذا الوقت من العام، فهي الجنة على الأرض.. لو أحببتم، أخذتكم إلى هناك.»**.. سألته مي بتلقائيةٍ: **«تلك التي بها روما؟ صحيح؟»**. ضحك نادر و هو يومئ إيجابا و قال بلطف: **«صحيح يا حبيبتي.. ولكن بها أماكن أخرى غير روما في منتهى الجمال.. مثلاً، لو ذهبنا فسآخذكم إلى سيينا، مديني المفضلة هناك.. إن لها سحراً خاصاً، و تشعر وأنت تسير في طرقاتها القديمة بين مبانٍ عتيقةٍ، وكأنك تسير في قلعةٍ رمليةٍ كبيرةٍ كتلك التي تبنيها على الشاطئ، أتفهمان قصدي؟ .»**. ردا معاً:

«**نعم.**». ثم أكملت مي: «**تبدو مكاناً جميلاً!.**». رفع نادر أحد حاجبيه معلقاً: «**رائعة. إيطاليا بها كل شيء جميلٍ. عليكما أن تزورا يوماً ساحل أمالفي، المباني الملونة والتي تتراص من تحت أقدّام الجبل بجوار الشاطئ صعوداً إلى قمته وسط مجموعة من الجبال الصخرية المغطاة بالخضرة وتمتد عشرات الكيلومترات، إنه منظر لا ينساه المرء أبداً ومهما قلتُ فلن أستطيع أن أصف جماله.. عليكِ أن تريهِ بنفسك.**». سأله ماجدٌ: «**أزرت المدينة العائمة يا (أبيه)؟**»، رد نادر ببساطةٍ: «**فينيسيا، بالطبع**». صمت فظنَّا بأنه انتهى ولكنه عاد فتابع وقد شرد وكأنه يسترجع ذكرىً ما: «**هناك أيضاً آثار مدينة بومبي التي دمرها بركان فيزوف، سنذهب إلى هناك ونرى البركان.. مشهدٌ مهيبٌ..**». أفاق من شروده ونظر في المرآة ليجدهما يصغيان إليه بانتباهٍ تام، فابتسم قائلاً: «**هل تريدان رؤية مياهٍ زرقاءَ براقةٍ وكأنها تُشِعُّ في الظلام؟**». رآهما يهزان رأسيهما بقوةٍ فقال: «**إذاً نُبحر إلى جزيرة كابري.. بها كهفٌ يسمى كهف غروتو الأزرق.. ساحرٌ بمعنى الكلمة.**». سأل ماجدٌ: «**أهي في إيطاليا أيضا؟**». هز نادر رأسه إيجاباً.. صمتوا بعدها قليلاً وقد سرح خيال الشابين في تلك الأماكن التي وصفها نادرٌ لهما بشغفٍ أسرهما.. قالت مي بعد برهةٍ تحسم الأمر: «**إذا، لنذهب إلى إيطاليا. نعم.. أظن أننا سنقضي وقتاً ممتعاً هناك.**». ونظرت إلى شقيقها مبتسمةً، فابتسم لها بدوره.. استدارت مهرة لتشارك بالحديث للمرة الأولى بعد فترة قائلةً بتكاسلٍ وإنما بحسمٍ ورأسها مرتاحٌ إلى الوراءِ: «**لن نذهب إلى هناك.. سنذهب إلى دبي.**»..

خيم الصمت فوراً على الجميع، وظلا مي وماجدٌ يحدقان بأختهما في دهشةٍ بينما انشغل نادر بالطريق غير مدركٍ للجدل الصامت الدائر بين الركاب الثلاثة والذي حسمته مهرة بإبعاد نظرها عنهما لتعود لمراقبة الطريق...عادت مي لتستقر في مقعدها بجوار شقيقها دون أن تزيد كلمةً، فرمقها نادرٌ في المرآة الأمامية بسرعةٍ قبل أن يوجه حديثه لمهرة بدون أن يلتفت إليها: «**دبي! ظننتك قد تقترحين باريس، نيس، لوس أنجلوس، لندن، برايتون، نابولي، فينيسيا.. أو لو شئت ربما تايلاند.. لكنك تخطيت كل هذه الأماكن، وبصراحة، توقعاتي أيضاً، باختيارك دبي! لِمَ دبي؟**».. رمقته بطرفِ عينها فوجدته لا يزال منشغلاً بالطريق الممتد أمامه

فردت ببساطةٍ: «**سمعتُ بأنها أصبحت أحدث وأجمل مدن العالم.**».. لم يزد عن أن هزَّ رأسه بخفةٍ معلقاً باقتضابٍ: «**أكثرها ترفاً و إبهاراً، نعم.**»..

أمضوا بقية الطريق في صمتٍ، وفور وصولهم التفت نادرٌ يحيي الجميع والتقط شهد من السيارة ليضعها في فراشها ومهرة تتبعه في كل خطوةٍ لتتهرب من نظرات أخويها وأسئلتهما وحسابهما.. حين اطمئنا على أن الصغيرة قد استقرت في سريرها الوثير بارتياح، اتجها إلى غرفتهما وما أن أغلقا بابها خلفهما حتى طبع نادٌر قبلةً طويلةً على شَفتي زوجته.. طويلةٌ؟ نعم.. خاويةٌ؟ أيضاً نعم..... كان باديَ الإرهاق حتى أنه أوى إلى الفراش دون أن ينطق بكلمةٍ واحدةٍ، وقد قدرت مهرة ذلك، فهي دون غيرها تعلم جيداً ما يمر به زوجها، كما أنها كانت ترجو وأن تلقي بكل ما يدور بخلدها على وسادتها العريضة الباردة لتطفئ نار اللوم التي أخذت تلتهم أعصابها لاقتراحها الأخير...

مالت لتطبع قبلةً خفيفةً على جانب وجهه ولكنه لم يستدر أو يأت بأي ردةِ فعلٍ، وقد بدا غارقاً في سباتٍ عميقٍ، فاستدارت موليةً ظهرها إليه، تاركة الفراغ البارد بينهما ينمو لتلامس أذرعه مشاعراً أعيتها الحيرة والحب والغضب...



«**ناصر؟ صباح الخير.... حبيبي يا أبا خالد، أعلم بأنك تستيقظ باكراً مثلي...... لا والله افتقدتك في الحفل ولولا علمي بانشغالك في تلك الصفقة لما كنت تركتك تتغيب عنها، المهم طمئني، كيف جرت الأمور؟...... تمام..... نعم...... تمام...... جيد، هانت.... لا، سآتي ولهذا طلبتك، سآتي أنا وزوجتي .... نعم، أعلم، أنت أخي يا رجل.. اسمع يا ناصر، أريد منك خدمةً، وليبق الأمر بيني وبينك... أنا في طريقي.........**»...

لم تسمع مهرة باقي العبارة إذ خرج نادرٌ وأغلق باب الحجرة وراءه في هدوءٍ. كان شديد الحرص على ألا يحدث جلبةٌ بعدما اطفأ صوت المنبه الذي

دق بعد رقودهما بساعةٍ واحدةٍ، وشعرت به يتسلل من الفراش ليأخذ حماماً سريعاً ويجري اتصاله المبكر وهو يكمل ارتداء ثيابه في غرفة تبديل الملابس، كل هذا دون أن يدري بأنها لم تنم من الأساس وبأنها قضت الساعة الماضية تراقبه وهو نائم ، تتأمل أشعة الشمس التي تسللت من شق الستائر وهي تلقي بخيوط ذهبية على شعره وظهره، وتعجبت كيف أن الشمس نفسها تنتقي بطبقيةٍ من يبدو لامعاً مشرقاً في ضوئها، ومن يُلَوِّحه السمار الحارقِ و يكتوي بنارها و حر نورها!!!

ما أن غادر حتى اعتدلت جالسةً وهي تضم ركبتيها إلى صدرها محاولةً إيجاد جوابٍ مناسبٍ للسؤال الذي ظل يؤرقها طوال الساعة الماضية وهي تتخيل النظرة في عيني أخويها وهما ينتظران جوابها عليه.. لقد وضعت نفسها في موقف حرج أمام أخويها الصغيرين وكرهت الانطباع الذي خلفه طلبها زيارة دبي لديهما، وهي لا تلومهما، إذ لديهما كل الحق، وهي بذاتها نادمةٌ على تفوهها برغبتها دون تفكير.. والحق بأنها لا تدري بم فكرت! هل تظن بأنها ستلتقي بطارقٍ صدفةً وهي تتجول في طرقات المدينة؟ وكأن دبي هذه ليست سوى زقاقاً ضيقاً تتخبط فيه أكتاف المارة وتتعثر الوجوه فيه بضالتها؟!!! أم أنها أرادت أن ترى ذلك المكان الذي سحر عنها خطيبها وامتصه من أحلامها؟! ارتمت مجدداً على الوسائد وهي تأخذ أنفاساً عميقةً، لتنفثها حارةً قويةً، و عينيها تتقلبان في محجريها باحثتين في الأرجاء عن تفسير واحد مقبولٍ ومعقولٍ لما تمر به وما يعتريها من مشاعر تصارع بعضها بعضاً فوق ذاك الخيط الرفيع الفاصل بين المُراد والصواب... كيف يصح أن تفكر برجلٍ تركها بلا سببٍ وسط العاصفة، تتلمس طريقها وحدها وقد أعمت دموع قلبها عينيها، بينما لديها زوجٌ كنادرٍ..الرجل الذي مد يده وانتشلها بقوةٍ من حيث تركها الآخر، الرجل الذي ما بخل عنها، منذ عرفها، بكل إمكاناته وأمواله وقلبه وثقته، والذي لا يكاد يلمح طيف أمنية لها حتى يسارع بتحقيقها كما هو الحال هذا الصباح؟!!! وإن كانت تعلم أن مجرد التفكير في طارقٍ يعد خطأً جسيماً وبأن زوجها هو الشخص الوحيد الذي يستحق أن تنشغل بإرضائه وبإنجاح

علاقتها به، فأين المشكلة؟ لم لا تشعر بالاستقرار وتتقلب كل ليلة بجواره دون راحة، بل وتستيقظ كل صباح، في حال تمكنت من النوم، على إحساسٍ بأنها حيث لا تنتمي؟!!! احتارت فيما يريد طارقٌ منها.. هل يريدها أن تترك زوجها وأن تدمر زواجاً عمره أشهرٍ لأجله؟! أم لعله يظن بأنهما سيتوافقان على وضع يبقيها مع الرجلين دون الحاجة إلى دراما عنيفةٍ كالطلاق؟! نفضت رأسها تنفض عنها الفكرة الأخيرة، فطارقٌ، برغم كل شيء، ليس وضيعاً إلى هذا الحد، كما أنه يعلم بأن شيئاً كهذا لن يحدث ولو بعد ألف عام...

إذا!! هل تطلب من نادرٍ الط....؟!

«**قلت لك بأنها مستيقظة..**».. دخل شقيقيها، آخر شخصين تود الحديث معهما الآن، وسط هرجٍ وجدالٍ وجلسا إلى جوارها على الفراش وهما يتحدثان عنها وكأنها غير موجودةٍ، فقال ماجدٌ: «**حتى ولو رأيت(أبيه) نادر يغادر، فلا يجوز أن تدخلي غرفتهما هكذا دون أن تطرقي الباب أولاً... ماذا لو كانت مهرة.. ممم... نائمة؟ أو أن الرجل يضع بعض أغراضه الخاصة هنا أو هناك، ولا يصح أن تريها؟!!**».. ردت مي باستهتارٍ: «**ولِمَ دخلت معي إذاً ما دمت ترى تصرفي خطأً؟!**». ضم شفتيه وهو يهز رأسه ناظراً لمهرة ليقول بقلقٍ وقد أدرك شحوب وجهها وتورم عينيها: «**ما بكِ يا مهرة؟ وجهك شاحبُ جداً؟**».. انتبهت مي كذلك فاعتدلت تمسك بكف أختها سائلةً: «**ما الذي يجري هنا يا مهرة؟ بصراحة لقد لاحظت توتركِ والهالات السوداء تحت عينيك منذ فترةٍ وفي البداية كنت أظن بأن جريان الأحداث بسرعةٍ هو السبب، ولكن يبدو بأن هناك شيئاً آخر يقلقك.. ما الأمر يا مهرة؟ أخبرينا، فنحن الوحيدان هنا اللذان يستطيعان أن يتفهما ما يجول بخاطركِ وأن يكتما سركِ...**».. جلست مهرة وهي تأخذ وقتها لتجد رداً مناسباً تُطمئن به أخويها وتغلق به أبواب التساؤل والقلق لديهما، ولكنها قبل أن ترد، فاجأها ماجدٌ سائلاً بصراحةٍ: «**أما زلتِ تفكرين بطارقٍ يا مهرة؟**». نهرته بقوةٍ: «**ماجد!! ماذا تقول؟!!**». أجاب بثباتٍ: «**أسألكِ يا مهرة عن طارقٍ.. ألازلت تفكرين به؟ أو ربما ... لا أدري، ولكن افهميني يا حبيبتي، فطلبك الذهاب إلى دبي**

بهذه الطريقة وشرودك الدائم لا يرسلان إلا إشارةً واحدةً..». ابتلعت ريقها دون أن يلحظا والأفكار تتسارع في رأسها والاعترافات تهوي عن لسانها علها تزيح عن كاهلها الحمل الذي ينقض ظهرها مذ أخذت قرارها الكبير بتحويل دفة حياتهم جميعاً نحو هذا القصر.. «**اسمعا، ما سأقوله الآن سأقوله لمرةٍ واحدةٍ، فقط لأنكما كبرتما ولم تعودا هذين الطفلين اللذين لا يستطيعان استيعاب حقيقة الأمور، ولأن أي قرار اتخذته أو سأتخذه لاحقاً سيترتب عليه إعادة ترتيب حياتنا جميعاً، لهذا لا تقاطعاني، ولا تستنتجا أشياء من مخيلاتكما ولا تحكما على كلامي قبل أن أنتهي مما أقول وبعد أن تفكرا به ملياً..»**. قطرات العرق الصغيرة على مقدمة شعرها وحركات يديها ذات الأصابع المرتعشة، وكذلك حرصها على ألا تلتقي عينيها بعيونهما، في حالةٍ قلَّما حدث، أو ربما لم تحدث أبداً من قبل، أن رأيا عليها شقيقتهما الكبرى، جعلتهما يصمتان ويصغيان والقلق يتآكلهما وقد توقعا ما سيسمعان سلفاً..

«**لقد حاولت، أقسم بالله بأني حاولت، ولا زلت أحاول أن أتخلص من كل ما يتعلق بذكرى طارقٍ، ومنذ اليوم الذي خطبت فيه لنادرٍ وأنا أخلص إليه بكل ذرةٍ من كياني، ولكن هناك قوة ما تشدني إلى البيت والأحلام القديمة.. شيءٌ يعكر عليّ كل لحظة يفترض بأن استمتع بها.. ولقد ظننت بأن هذا طبيعيٌ وبأن أي فتاةٍ تتعرض للغدر من خطيبها، كما حدث معي، لابد وأن تتذكر كثيراً ما حدث لها وأن تكره الرجل الذي أهانها وحطمها.. أن تتعلق بكل كيانها باليد الوحيدة التي امتدت إليها وانتشلتها من كل الأسى الذي تعانيه.. ولكني...»**.. صمتت تشهق وتبتلع ريقها لتكمل وهي تمسح دموعها عن خديها بظهر كفها: «**لا أدري ما بي!! أشعر بكل شيءٍ معكوسٍ.. أفكر بطارقٍ وأقارن كل لحظة أعيشها بما تخيلت أني سأعيشه معه.. لا أدري.. بالرغم مما فعل أظنني لازلت أ..»**.

قاطعها ماجدٌ حتى لا تتم الكلمة التي لن يستسيغ سماعها من أخته عن رجلٍ آخر غير زوجها: «**وما الفائدة من كل هذا يا مهرة؟ لم تنغصين عليكِ عيشكِ وقد صرت زوجةَ رجلٍ آخرَ يا حبيبتي؟!!»**. ردت مي بتحفزٍ: «**وما أدراك أنتَ**

بما تشعر به المرأة.» وأمسكت بيد أختها تربت عليها برفقٍ وهي تكمل: «**أنا أشعر بكل كلمة قلتها يا حبيبتي، ولكن، ألم يمض وقتٌ كافٍ لتتخطي طارقاً وما فعل؟ وأين هو طارقٌ من كل هذا؟ إنه لم يكلف خاطره بأن يطلبكِ ليعتذر منك عن تركك بهذه الطريقة، أو حتى أن يتم كلامه معك بعدما انقطع الاتصال في ذاك اليوم! أتذكرين؟!**».. تنهدت مهرة ونظرت إليهما مترددةً، أتخبرهما باتصالات طارقٍ المتكررةِ والتي تتجاهلها في أغلب الأحيان، إلا من مرتين أو ثلاثة؟ وهل سيصدقان مثلها بأنه نادمٌ وآسفٌ على ما فعل؟. كانت مي لاتزال تمسك بكفها بينما ماجدٌ جالسٌ قبالتها يرقبها بنظراتٍ ثاقبةٍ قلقةٍ.. لا تدري بم يفكر أو كيف يراها الآن وقد اهتزت صورة الأخت الكبرى التي تعرف دائماً الفرق بين الخطأ والصواب، وتقومهما وترشدهما طريق الرشاد.. تنهدت ثانيةً وهزت رأسها وهي تعتدل ململةً شتات نفسها ومحاولةً التماسك علَّها تسترد شيئاً من صلابتها القديمة ولو ظاهرياً هي تقول: «**لا تشغلا نفسيكما، واذهبا كلٌّ إلى دروسه وانسيا كل ما سمعتما الآن... ربما الإرهاق والتغير السريع كما قالت مي هو ما أربكني وجعلني أتفوه بأمورٍ لا أشعر بها حقيقةً، ولكنها بعض أفكارٍ تأتي وتذهب.. لا تأبَها.**».. احتضنتها مي بقوةٍ فجعلت الدموع تطفر من عينيها، ووجدت صعوبةً في كبتها فشهقت شهقاتٍ صغيرةٍ وهي تتمسك بأختها بقوة هي الأخرى، بقي ماجدٌ يرقبهما والتوتر باد على محياه... ليس فقط لأنه لا يدري ما عليه أن يفعل أمام دموع أخته، ولكن كان هناك شيء يثير قلقه وخاصة لمعرفته القوية بطبيعة مهرة وقوتها، ولهذا فإنه يرى أن انهيارها أمامهما الآن ليس تعبيراً عن كبتٍ أو ألمٍ قديم، مالم يكن هناك ما أحيا تلك الذكرى وبقوةٍ، وما الذي يمكن أن يحييها أكثر من ظهور طارقٍ شخصياً في الصورة من جديد. ولكن كيف؟ ومتى؟ وهل يمكن لظهوره أن يؤثر بشقيقته التي وقفت في وجه الزمن بعثراته وغدراته كالسد بهذه البساطة؟! وإن كان، فَفِيم تفكر؟ إنها متزوجةٌ!!! قال بترددٍ: «**مهرة.. هل اتصل بك طارقٌ مؤخراً؟**». حين لم ترفع نظراتها إليه لتصرخ في وجهه بأن يسكت كعادتها حين يسأل عن أمر بعيد الاحتمال أو لا تقبل افتراضه منه، علم بأن ما يخشاه قد حدث بالفعل، فأوقف

مي التي همت بالرد عليه ليقول وهو يخفض صوته، إذ شعر بأن مجرد الكلام بهذا الشأن، وذكر اسم رجلٍ آخرٍ في غرفة زوج أخته لا يتماشى مع الأخلاق والأدب: «**متى؟ وماذا يريد؟**».. قالت مي بغيظٍ: «**ألا تستطيع أن تصمت؟!!! ألا تراها منهارةً وتعبةً؟ أليس لديك ذرة إحساس؟ ثم إن هذا شأنٌ خاص بها، ولو حدث فهي وحدها المسئولة عن تصرفاتها وقراراتها..**» .. سحبت مهرة نفساً عميقاً وقد حسمت أمرها، نعم، مي على حق، فالقرار قرارها، ولكنها بحاجةٍ إلى نوع من الدعم المعنوي الذي لن تجده إلا لدى شقيقيها، فقالت ببطءٍ: «**طلبني طارقٌ ليعتذر، وقد التقيته صدفةً قبلها يوم ذهبت إلى الشقة.**». ساد الصمت مقلباً الكثير من الأفكار والمعاني والمشاعر فوق الرؤوس الساكنة... لم تدرِ مي ما عليها أن تقول فظلت تقلب الأمر في رأسها، لا تريد أن تحكم على أختها التي جُرحت وهُجرت ثم عاد حبيبها الآن يلوح لها عن قرب، فهي لا تدري ماذا كانت لتفعل لو كانت مكان مهرة، لهذا آثرت الصمت.. أما ماجدٌ فقد شعر بالدم يغلي في رأسه والغضب يطبق على عنقه بقبضةٍ خانقةٍ وقد ألجم الحنق لسانه فظلَّ يحدق في مهرة وهي تبادله النظرات في صمتٍ مستكينٍ... سأل أخيراً: «**أهو من أصاب وجهك بتلك الكدمة يومها؟**». كذبت دون تفكيرٍ: «**بالطبع لا.. قلت لك بأني ارتطمت بباب الخزانة حين انقطعت الكهرباء.**». «**يعني ليس (أبيه) نادر بعدما أهنته بكلامٍ جارحٍ؟!!**».. انتقلت مي لتجلس قبالتها وتحول بينها وبين ماجدٍ سائلةً بابتسامةٍ حالمةٍ: «**أيريد أن يستعيدكِ؟ ألا زلت تحبينه يا مهرة؟**». انتفض ماجدٌ واقفاً ليصيح وهو يجاهد ليبقي صوته داخل جدران الحجرة الكبيرة: «**ما هذا الهذيان يا مي؟ أجننتِ؟ لا يجوز مجرد السؤال عن شيء كهذا، فهي متزوجةٌ!! أنسيتِ؟ هناك حدود حتى للكلام يا مي، فلا تُجَنِّي وتثيري جنوني..**».. التفتت مي إليه وهي تقلده ساخرةً بحركات وجهها ويدها: «**هناك حدودٌ.. هي متزوجةٌ..**»، ثم تابعت وهي تقف لتواجهه: «**أنت لا تفهم، إن كانت لا تزال تحبه فحياتها مع (أبيه) نادر مستحيلةٌ.. لم عليها أن تعاني وسعادتها تقف على بابها للمرة الأولى في حياتها؟ أنت بالذات تعرف كم تعذبت وتألمت وضحَّت، ألا تستحق منا الآن أن نضحي براحتنا لأجل سعادتها؟!**». واستدارت تحدث مهرةٍ بثباتٍ: «**دعيه**

يا مهرة، دعي (أبيه) نادر.. اطلبي منه الطلاق بلا ترددٍ وتزوجي طارقاً وإلا ستندمين بقية حياتك وفي النهاية ستبغضين (أبيه) نادر أكثر مما بغضت مخلوقاً في حياتك.». لم يتمالك ماجد نفسه فشدَّ مي من مرفقها بقوةٍ قائلاً وقد احمرت عيناه: «تطلب الطلاق ممن؟! أتظنين الزواج لعبةً؟ أترين الأزواج كالأحذية أو الفساتين يبَدَّلون حسب الموسم والمزاج؟.»، وتابع موجها كلامه لمهرةٍ: «لا تستمعي لها، بالطبع أنت لن تفكري حتى في كلام طفلةٍ تعيش في عالم الأفلام والروايات.. أليس كذلك يا مهرة؟.. أعني، كيف تطلبين الطلاق من رجل ك(أبيه) نادر وهو يحبكِ ولا يدخر جهداً لإسعادكِ، وتحملنا من أجل خاطركِ، في حين تركك الآخر تعانين و تتحملين عبء الحياة وحدك.».. ردت بخفوتٍ مدافعةً بتلقائيةٍ: «لو كانت ظروف طارقٍ كظروف نادرٍ لما تركني.».. اقترب ليجلس قبالتها وقال وقد قرب وجهه من وجهها كثيراً وعيناه تأسران عينيها: «لو كان (أبيه) نادر مكانه وظروفه كظروف طارقٍ وقتها لما تركك.».. قام وهمَّ بالمغادرة إلا أن مهرةً استوقفته بصوتها الضعيف قائلةً بأسىً: «لهذا أشعر بالشفقةِ والحزنِ على نادرٍ، لأنه لا ذنب له في كل هذه الفوضى.».. ردَّ بغضبٍ قبل أن يفتح الباب: «لا تشفقي على زوجكِ، فالشفقة ليست هي الشعور الذي ينتظره ولا الذي يستحقه منك.»... لم تجد ما ترد به عليه فاكتفت بالنظر إليه في أسىً وهو يغادر ويصفق الباب وراءه ثم هزت رأسها يميناً ويساراً بلا معنىً. قالت مي بصراحةٍ: «دعكِ منه يا مهرة.. هو لا يريد أن يخسر حجرته الجديدة ولا عالمه الذي وعده به (أبيه) نادر..»، قاطعتها أختها برفقٍ: «تعلمين بأن هذا غير صحيح.». أكملت مي كلامها وكأن مهرة لم تقاطعها: «ولكنه لا يستطيع أن يفرض علَيكِ نمط الحياة الذي عليكِ أن تعيشيه.. لا يمكن أن يجعلكِ تضيعين فرصة عمرك في الحصول على الحب والسعادة يا مهرة... تلك الفرص لا تتكرر في الحياة مرتين، هذا إن حدثت من الأساس.». ردت مهرة مبتسمةً: «أليس هذا هو نفس المنطق الذي أقنعتني به بقبول الزواج من نادرٍ؟ ولربما استخدمتِ نفس العبارات؟! ولكن الحياة لا تسير على هذا النحو يا حبيبتي. أنتِ لا زلت صغيرةً، ولا تدركين كل الأبعاد والتفاصيل. وأبسط ما يقال، هو أن ما تقولينه ليس واقعياً، وليس أخلاقياً أيضاً..».. وقفت مي وهزت كتفيها قائلةً ببساطةٍ:

«**ربما كنت صغيرةً، ولكن الحياة أيضا قصيرةٌ ولابد أن تعيشيها بالشكل الصحيح.**».
أومأت مهرة برأسها وقد هدأت كثيراً، فيبدو أن كل ما احتاجت إليه، هو هذه اللحظات من الصراحةِ والفضفضة، حتى تستطيع أن تواصل دورها الجديد في الحياة الموازية لأحلامها، فربتت على الفراش بجوارها تدعو أختها لتعاود الجلوس، ولما شعرت مي بحاجة أختها لقربها، لم تمتنع بالرغم من حنقها من نعتها بالصغيرة قليلة الخبرة، وما أن استقرت بجوار أختها ثانيةً حتى سألت بحماسٍ: «**أخبريني، أين هو طارقٌ الآن؟.**». ردت مهرة ببساطةٍ: «**وأين سيكون؟ في دبي.**». سألتها مي مجدداً وبنفس الحماسة: «**وهل طلب منك أن تطلبي الطلاق وأن تعودي إلي؟ وبِمَ أجبته..**» واعتدلت مكملة بتأنيبٍ: «**لا تقولي لي بأنكِ رفضت!!**». قالت مهرة بهدوءٍ: «**ولكن ما تقترحينه ليس هو بالتصرف الصحيح يا مي.**».. سألتها مي فوراً: «**وما هو الصحيح؟ أن تعيشي مع زوجٍ وأنتِ تفكرين برجلٍ آخر؟!**»... صاحت مهرة: «**مي!!!!**».. رفعت مي يدهاً وكأنها تعترف بخطئها وفوراً انتفضت مغادرةً الحجرة التي مادت بمهرة للحظاتٍ، فقد نبهها سؤال أختها إلى أن مكالمات طارقٍ كلها قد خلت من طلبه عودتها إليه وترك زوجها، ولا حتى ألمح بذلك، ولو عرضاً!! إذا، ما مراده؟! رفضت التفسير المنطقي الوحيد..(مستحيل.. لا، لا يفكر طارقٌ بهذا الأسلوب، ولا يجرؤ أن يظن بأني يمكن أن أكون من ذاك النوع من النساء... ولكن، هل أعرف طارقاً حقاً؟!! ألم يثبت لي كم أنا جاهلة فيما يخصه ولا أدري شيئاً عمَّ يفكر؟)... وعاودها السؤال الذي طرحته عليها مي منذ دقائق (ما الصواب؟!! أين الصواب؟!!).. وكعادتها كلما شعرت بالتيه في أفكارها وبساقيها تتخبطان على الأرض المهتزة تحتها، التقطت هاتفها المحمول لتتصل بالحقيقة الأكثر ثباتاً ووضوحاً الآن في حياتها....

١٠

استرخى نادر خلف مكتبه وهو يمد ساقيه قبل أن يسمع طرقاً خفيفاً على الباب تبعه دخول نهلة يسبقها عطرها النفاذ الذي أيقظ حواسه فاعتدل وهو يأخذ نفساً عميقاً مبادراً إياها بقوله: «**أفهم لم لِمَ تحضري عرسي، ولكني لم أتوقع ألا تأتي بالأمس.**». قالت بابتسامة هادئة وهي تضع ملفاً مفتوحاً أمامه برفقٍ: «**وأنا لم أتوقع أن تأتي اليوم.**».. لم يعلق على تهربها من الرد بأدبٍ واكتفى بتفحص الأوراق مدققاً في بعض الفقرات، ولكنه شعر بها تتململ بجواره على غير عادتها وهي منتظرة انتهاءه من توقيع الأوراق فقال دون أن يرفع عينيه: «**ما الأمر يا نهلة، خيراً؟ أتودين أن تقولي شيئا؟**».

اندفعت قائلةً وكأنها كانت تنتظر سؤاله بفارغ الصبر: «**ما بك؟ أنا قلقةٌ عليك؟ مذ عملت معك، منذ ست سنواتٍ أو أكثر، لم أرك بمثل هذا الضيق والقلق والتوتر؟ ما الأمر؟ لا تبدو لي بخيرٍ!!.**». رمقها بطرف عينه بسرعةٍ قائلاً وهو يعاود القراءة: «**هل هناك مشكلة في العمل؟**». ردت بيأسٍ: «**قلقي عليكَ أنت! أتُنكر بأنك لستَ على ما يرام؟**».. قال بهدوءٍ وهو يوقع الأوراق بسرعةٍ: «**كلٌّ لديه ضغوطٌ.**». اعترضت مجادلةً: «**ولكن الضغوط أبداً لم تشكل يوماً مشكلةً بالنسبة إليك، بل على العكس، كلما ازدادت الضغوط ازددت عزماً وإبداعاً، لذا أنا أتساءل إن كان... لا أدري، ربما..**»، ترددت في التصريح بظنها أن زواجه هو ما

يؤثر به سلباً، ثم آثرت الصمت.. انتهى نادرٌ مما يفعل فملس شعره بيده وأسند مؤخر عنقه على كفه ليتأملها في حلتها الحمراءَ الأنيقة بتأنٍ وشبح ابتسامة يلوح على شفتيه اللتين انفرجتا ببطء ليقول بصوتٍ خافتٍ وعيناه تتلكآن على العرق الذي بات ينتفض في عنقها: «**أنا بخير..**».. همت بالاعتراض فقال وهو يعتدل: «**لا تقلقي، هيا.. اذهبي واهتمي بالعمل ولا تشغلي بالكِ..**».. أذعنت وتحركت بسرعةٍ مغادرةً المكتب ولكنها وقفت لتسأله قبل أن تغلق الباب وراءها: «**أتناولت فطورك أم أرسل في طلب شيء لتأكله؟**».. رد مبتسماً: «**قهوة... وبسرعة.**».. أومأت وأغلقت خلفها الباب برفقٍ شديدٍ.

تنهد وهو يمسد جبينه بأصابعه ويده الأخرى تعبث بقلمه الذي علق مشبكه في خاتم زواجه، فحرره وبقي يحدق في خاتمه للحظاتٍ وهو يديره حول إصبعه في شرود.. دخول الساعي بالقهوة ومن خلفه نهلة ومستشاريه الاقتصاديين أخرجه من شروده فوقف قائلاً بترحابٍ ليرد تحيتهما: «**صباح الخير... أرجو أن تكونا قد وجدتما حلاً.**»... قادهما إلى غرفة الاجتماعات الملحقة ومن خلفه نهلة ليناقشوا طارئاً بخصوص صفقة الدمج الجديدة، ويبدأ بهذا سلسلة اجتماعاته اليومية...



«**ماذا؟ ماذا تعني؟ والشركة؟ ونادرٌ الذي كنت تقول بأنك لن تبتعد عنه ثانيةً؟**».. كانت أميرة تسأل بعينين متسعتين فؤاداً الذي استرخى برضاً تحت أشعة الشمس الذهبية التي غمرت الرمال البيضاء والتي افترشها مباشرةً متجاهلا المقعد الخشبي ليستمتع دون تكلفٍ بالطبيعة الخلابة لجزيرة منوركا الإسبانية (إحدى جزر البليار) والتي وصلاها بالعبارة مبحرين من جزيرة إبيزا التي قضيا بها خمسة أيام كانت من أجمل ما اختبرا في حياتيهما، مستمتعين بالشاطئ الساحر نهاراً وبالحفلات والسهرات الصاخبة مساءً.. رد فؤادٌ دون أن يفتح عينيه: «**لا مشكلة لدى نادرٍ إطلاقاً، بل على العكس، لقد رحب كثيراً بالفكرة**

وشجعني عليها.». كان صدرها يعلو ويهبط الآن بقوةٍ وهي تجاهد لتخفي انفعالها، وأخيراً قالت بعدما ابتلعت ريقها بصعوبةٍ: «**بالطبع سيشجعك! وهل يريد شخصاً مثلك في شركته؟!! لابد وأنه كان يحلم باللحظة التي يُزيحك بها من أمامه حتى يتمكن من مباشرة أعماله دون أن يضيع وقته في إصلاح ما تفسد.**». رفع فؤادٌ نظارة الشمس عن عينيه وقال محذراً بخفوتٍ: «**احترسي لما تقولين حتى لا تسمعي ما لا تحبين.**»، ولكنها ردت متعمدةً استفزازه: «**هي الحقيقة دائماً موجعةٌ، أليس كذلك؟**». أجفلت حين قفز واقفاً صائحاً بها دون أن يأبه للأعين التي اجتذبها صوته إليهما بفضول: «**أميرة، أفيقي حتى لا أضطر لجعلكِ تفيقين بنفسي.. لك حدود في الكلام معي، ومهما ظننتِ أن من حقك أن تتخطيها فلا تفعلي.. مفهوم؟ وأبقي أنفكِ الطويل هذا خارج علاقتي بشقيقي.. هذه أمورٌ لا تخص إلَّانا.. انتهى.. وأتمنى ألا أعيد كلامي هذا ثانيةً، فأنا أمقت التكرار..**».. تركها مغاضباً وانطلق نحو المياه التي تضاهي السماء صفاءً وزرقةً ليطفئ فيها غيظه من تلميحها الجارح، والذي للأسف شعر بداخله أنه يحوي لمحةً من الحقيقة، فقد أحسَّ دون أن ينتظر من نادر تلميحاً أو تصريحا بأن وجوده في الشركة قد أعاق العمل بصورة أو بأخرى، فمرة يتخذ أو يوصي ببعض القرارات التي يتضح له فيما بعد بأنها كانت متسرعةً، أو غير متوافقةٍ مع أسلوب نادرٍ وسياسته في تسيير الأمور، ومرةٌ يتعطل العمل حتى يتسنى له استيعاب كافة جوانب الموضوع، وهذا تحديداً ما جعله يتخذ قراره بالعودة إلى العمل الوحيد الذي يجيده، ألا وهو الصحافة.. وقد تناقش ونادرٌ في قراره هذا قبل زفافه بأيام، وأبدى نادرٌ سعادته بهذا القرار بصدقٍ، وعلى الرغم من تأكده من أن شقيقه سعيدٌ من أجله، إلا أنه لم يستطع أن يكتم ذلك الصوت الخافت الذي تردد همسه برأسه مراراً بأن أخاه لم يعد يريده في الشركة.. سبح بقوةٍ وذراعيه يضربان المياه بعنفٍ وسرعةٍ حتى ابتعدت الأصوات، فاستدار عائداً... حين وصل الشاطئ، كانت ثورته قد هدأت وأدرك بأنه ربما بالغ قليلاً في رد فعله وفيما قال لأميرة، فقد صبَّ عليها جام غضبه لأنها مست لديه وتراً حساسا على الرغم من علمه بأنها لم تكن تبغ سوى الصالح.. بحث عنها بعينيه ولكنها لم تكن حيث كانا،

فعاد بنظره إلى البحر علها تبعته أو سبحت هي الأخرى لتهدأ ولكنها لم تكن هناك.. التقط هاتفه المحمول ليطمئن عليها ويستعلم عن مكانها ليلحق بها، فلربما عادت إلى الفندق.. أعطاه الهاتف إشارة الانتظار ما يعني بأنها تحادث شخصاً ما، وعلى الأغلب إحدى صديقاتها، ولكن هذا لم يجعله ينهي الانتظار بل انتظر بصبر حتى ردت أخيراً بهدوءٍ: «**ألو.**».. سألها فوراً: «**أين أنتِ؟ هل عدتِ إلى الغرفة؟**».. ردت بنفس الهدوء: «**لا، أنا أتمشى ومعي اتصال الآن، سأعود خلال دقائق .**».. سألها وهو يجلس على الرمال الساخنة: «**مع من تتحدثين؟**».. قالت بصبرٍ: «**سامر.. حين نزلت إلى المياه طلبته كي اطمئن عليه..**». كانت تعلم بأنها تسير على جليدٍ رقيقٍ، وبأن أبسط كلمةٍ أو تلميح باستعجالها إنهاء الحديث قد تفجر ثورةً جديدةً من ثورات زوجها لذا احتملت تطفله بصبر بالغ وهي تسمعه يعتذر منها ببرودٍ وكأن ما حدث من فضيحةٍ ليس بالحدثِ العظيم، واستجابت هي لكلامه ببرودٍ عاطفي لم تعكسه كلماتها اللطيفة له بأنها لا يمكن أن تغضب منه لأنها تحبه، بل واعتذرت هي منه لأنها تخطت حدودها في استفزازه، كي ترضي غروره وتنهي موقفاً قد يستمر أياماً إن لم تتنازل... لم تكن تفعل هذا عن اقتناعٍ أو رغبةٍ في السلام، أو حتى لتثبيت أركان زواجها الحديث العهد، وإنما كانت تشعر بأنه كلما اطمأن لها أكثر، كلما كانت الصفعة التي سيتلقاها منها أقوى وأعنف، فقد أقسمت بأن تجعله هو الآخر يدفع ثمن كل لحظة مهانة عاشتها معه، فهي ليست شهيرة، ولن تكون.. أخيراً تركها تعود لمكالمتها مع شقيقها فقالت فوراً: «**لا أدري إلى متى يمكنني التحمل! أفففف..**».. وحين لم تتلق رداً قالت متسائلةً: «**أما زلت معي على الخط؟**».. رد سامرٌ: «**مم، نعم.. فقط أدخن..**».. سألته بفضولٍ: «**أين أنت؟ أين الجميع؟ أنا لا أسمع صوتاً حولك..**». رد بفتورٍ: «**أخبرتك بأنهم سافروا جميعا.**»..

«**نعم، ولكن إلى أين؟**».. سألته بنفاذ صبرٍ ولكنه أجاب بنفس الفتور: «**دبي، سيد القصر وحرمه وأخويها، وابنة زوجك، كلهم في دبي..**».. استنبط بأنها في قمة ثورتها من صوت تنفسها العالي، وأكدت ظنه بقولها: «**ابنة العشوائيات التي كانت بالأمس تتعلق بالميكروباصات مرتدية هلاهيل ممزقة، تجوب العالم الآن وتشتري**

ملابسها الداخلية من (فيكتوريا سيكريتس).. والله مهزلة.»... صمته استفزها فقالت بعصبيةٍ: «**مالكَ صامتٌ كالأمواتِ هكذا؟ ما بك؟**».. قال بهدوءٍ: «**دعيها وشأنها يا أميرة.**».. استفسرت بدهشةٍ رافعةً إحدى حاجبيها: «**ماذا؟!**».. تابع برفقٍ: «**الفتاة أبسط مما ظننا، ولا تشكل تهديداً من أي نوعٍ، وإنما يجب أن تركزي أنت في..**».. قاطعته بصوتٍ ناعمٍ منخفضٍ: «**أوتظنني بلهاء؟! أتعتقد بأنني لم ألاحظ ما يحدث تحت أنوف الجميع يا سامر.. اسمعني جيداً، يوم أظن بأنك حدتَ عما خططنا لأي سببٍ كان بعد أن ورطتني في هذه الزيجة، أقسم بأن أخرجك منها كما ولدتك أمك.. واعلم أن ما تفكر فيه لن يجلب لك ولي سوى الخراب، وأنا لن أسمح لهذا بأن يحدث.. أتفهم؟**».. أغلقت الخط دون انتظار ردٍّ على تهديدها ووقفت تتأمل البحر التركوازي الهادئ الممتد كالأزل والهواء العليل يتلاعب بشعرها ويجعل القميص الشفاف الذي ترتديه يلتصق بجسدها ليبرز مفاتنها في ثوب السباحة الأخضر ذو القطعتين من تحته، ما جذب إليها أنظار مجموعة من الشباب.. ولكنها كانت في ذهولٍ عن كل هذا، فيبدو أنها باتت لوحدها بعدما مال عقل أخاها وقلبه لما سيقضي عليه في يوم من الأيام.. لمَ يتداعى كل شيءٍ الآن؟! استندت على جذع إحدى الأشجار المنتشرة على الشاطئ وتمنت لو كان معها سيجارةٌ تنفث دخانها بدلاً من لهيب أنفاثها... كانت محتاجةً بشدةٍ إلى الهدوء وهو ما لم يسمح به فؤادٌ إذ رن هاتفها لينبهها إلى زوجها الذي ينتظرها فانتصبت متأففةً وسارت عائدةً أدراجها، وعلى وجهها رسمت أرق ابتسامة لديها..



حبست مهرة أنفاسها وهي تتأمل بانبهارٍ هذا الفيض من الأشكال والألوان للورود والأزهار من كل حجمٍ وشكلٍ ولونٍ، فتعلقت بذراع زوجها كالطفلة وهما يجوبان ممرات (دبي ميريكال جاردن) تحت أقواسٍ من الورود التي عبقت الأجواء بأزكى العطور.. لم يقل تأثُّرها بالحديقة مع مرور الوقت ولا مع مشاهدتها المتوالية لتماثيل وتشكيلات الزهور واحدةً تلو الأخرى بداية

من ممر القلوب والممرات المغطاة بمظلاتٍ ملونةٍ بديعةٍ، ومروراً بنماذج المنازل والقصور المغطاة بالكامل بالزهور، ونماذج العربات القديمة الكلاسيكية المصممة من الزهور أيضاً والتي أعجبتها كثيراً إذ ذكرتها بلقطاتٍ من الأفلام الرومانسية القديمة.. وضحكت حين مرت ببرج خليفة المصغر والمصمم بارتفاع ثمانية عشر متراً من الأزهار كما أخبرها نادرٌ، الذي اكتشفت لديه عشقاً خاصاً ومعرفة كبيرة بالنباتات بأنواعها وخصائصها ما جعلها تستمتع أكثر وتستكشف عالماً جديداً تماماً عليها.. أخبرها بأن هرم الأزهار هنا مميز جداً وقد ترشح لموسوعة عالمية ما ولكنه لم يعجبها كما أعجبتها نماذج الطاووس أو الساعة الحقيقية الكبيرة.. كان نادرٌ منفتحاً بشكل كبير وقد تحدث بشغف طفلٍ صغيرٍ يستعرض ألعابه..

حين غادرا الحديقة أخيراً، كانت مهرة تحمل معها ذكرى حالمةً عن كل نبات لمسته أو استنشقت عطره أو حتى تذوقته من النباتات القابلة للأكل والذي كان من المسموح للزوار بتذوقها... قالت متنهدة وهي تلقي برأسها على كتف نادرٍ بسعادة حقيقيةٍ: «**آه يا نادر! ما أجمل هذا اليوم..**».. ربت على كفها التي ارتاحت على ذراعه برقةٍ قائلاً وهو يشعر بخفةٍ وسرور لا يقلان عما تشعر به: «**نعم.. كان الشابين ليستمتعا لو جاءا...**».. ضحكت بخفةٍ وقالت: «**لقد تعبا، فأنت مرشدٌ مرهقٌ يا نادر، حتى الصغار لم يستطيعوا مجاراتك.. فمذ وطأنا الأرض وأنت تتنقل بنا من هنا لهناك.**».. قال هازاً كتفيه ببساطةٍ: «**أريد أن أريكم قدر ما أستطيع قبل أن نعود، فالرحلة قصيرة ولا يزال هناك الكثير لتروه.. فبرج العرب وبرج خليفةٍ ليسا هما كل دبي..**».. اعتدلت وقالت ساخرةً: «**نعم، وتلك المحمية في الصحراء هنا، وذاك المكان البارد المليء بالتماثيل الثلجية هناك، وقرية التراث وسوق الذهب والقرية العالمية!!.. أنا لم أكن أعلم أن بدبي كل هذه المزارات...**».. قاطعها: «**ولكنكِ أنتِ من اختار دبي لنزورها فوق كل مدن العالم، فكيف لا تعلمين ما بها من مزارات!! وعموماً، سنعود بعد غدٍ ولن تتسنى لي فرصة السفر في إجازةٍ قريبةٍ، لذا.. إن أردتم أكملنا زيارة الأماكن الأخرى، وإن تعبتم فكما تشاؤون.. ولكني**

أنبهكِ، فإن تكاسلت الآن فاعلمي بأنك تفوتين عليك الكثير.». ابتسمت دون أن تعلق.. كانت متعبةً والليموزين مريحةٌ جداً حتى أنها كانت لا تمانع إن نامت بها وابتسمت وهي تتذكر كيف أن أكثر نزهاتها ترفاً مع طارقٍ كانت حين يتناولان غداءهما في أحد المطاعم الشعبية المزدحمة .. لمح نادرٌ ابتسامتها الشاردة فسألها: «ما الأمر؟ فيمَ شردتِ؟». ردت بعد لحظةٍ: «تذكرت ذاك الحزام الذهبي الذي أصررتَ على شرائه لي من سوق الذهب.. كنت أتساءل أين يمكن أن أرتديه..».. ضحك قائلاً ببساطةٍ: «هذا جزءٌ من الزي الشعبي للمرأة وجزءٌ من تراثهم الذي يعتزون به هنا.. أعلم بأنك لن ترتديه، ولكني أردتك أن تحتفظي بشيءٍ من تراث البلد كتذكارٍ..».. ردت متنهدةً: «نعم، ولكن أتعلم، ربما لن تصدقني، لكنني اشتقت لمصر..».. قال بابتسامةٍ ممازحةٍ: «ستزول هذه الأعراض مع الوقت.. فقط لأنك لأول مرةٍ تغادرينها فلازلت تعانين من أعراض الانسحاب..». ضحكت وهي تعود لتنام على كتفه قائلةً بصدقٍ: «ولكني لا أريدها أن تزول.. لا أدري كيف يمكن أن يترك الناس مصر ليعيشوا بغيرها؟!! أين يمكن أن يجدوا الأهرام أو النيل؟!.».. قال بلطفٍ: «صحيح..».. أكملت تثبت وجهة نظرها: «أنت مثالٌ على صحة كلامي يا نادر، فرغم كل ما تملك، وبرغم قدرتك على أن تعيش بأي مكان بالعالم، اخترت أن تبقى بمصر.. لِمَ؟ إن لم يكن لأنك تحبها ولا ترى أيَّ مكان آخر مثلها؟».. رد ببساطةٍ: «ربما لأني أملك الكثير، أو لأن أمهات شركاتي هناك.. ليس بالضرورة لسبب عاطفي..». علمت بأنه يستفزها لا أكثر فقالت ببساطةٍ: «أعلم بأن هذا غير صحيح.» ابتسم وسألها وهو يفتح باب السيارة: «هل تظنين بأنك تستطيعين تناول العشاء خارجاً أم تحبين أن نطلبه بالغرفة؟». ترجلت من السيارة وهي تريح كفها بيده سائلةً: «كم الساعة؟.»، أتبعت سؤالها بأن نظرت في ساعة معصمها الفضية لتقول بدهشةٍ: «يا إلهي!! هل تجاوزت التاسعة؟ لم ألحظ مرور المساء بهذه السرعة! لابد أن الأولاد قد تناولوا عشاءهم بالمطعم إذاً..».. تابعت وهما يرتقيان بالمصعد: «أتعلم؟ لا أشعر بالجوع، اطلب أنت لنفسك العشاء وسأنام

أنـا، فـرأسي يـدور مـن النعـاس.». قـال بابتسـامةٍ ذات مغـزىً وهو يضـع يديه في جيبـي سروالـه الجينـز ويسـتند بظهـره عـلى الحائـط الزجاجـي للمصعد: «**ولا أنـا أشـعر بالجـوع... للطعام عـلى الأقـل.**». أنَّبتـه بنظرتها مشـيرةً إلى عامل المصعـد فقـال برفق: «**هـوني عليـكِ، إنـه لا يفهـم العربية.**»..

وصلا غرفتهما ودلف نادرٌ مباشرةً إلى الحمام ليأخذ دشاً بينما ارتمت هي على الفراش دون أن تبدل سروالها الجينز وقميصها القطني الأبيض بانتظار خروج نادرٍ لتدخل مكانه... كان يصفر لحناً قديماً معروفاً لم تتذكر كلماته أو لم تجد بها طاقة لتذكرها.. خرج وقد لف بشكيراً أبيضَ حول خصره ووقف يمشط شعره إلى الوراء بسرعةٍ قائلاً: «**أتعرفين ما أكثر ما لفت نظري اليوم؟**».. استدار حين لم ترد، ليجدها قد استسلمت لنوم عميقٍ، فبقي يتأملها بشرودٍ للحظات وهو يتابع تنفسها الهادئ المنتظم بينما تحتضن وسادتها .. اقترب ليغطيها، ثم جلس على المقعد الحريري المقلم الوثير بجانب الفراش ينظر إليها بعينين لا تريانها وعقل يدور كالمكوك.. زفر بعد حينٍ وقام فارتدى ثياباً عمليةً خفيفةً ثم التقط هاتفه المحمول وولى مغادراً الحجرة، وفي انتظار المصعد الخاص اتصل برقم خاصٍ ليقول لصديقه الذي رد فوراً: «**مساء الخير.. طمئنني، هل أنجزت ما طَلبته منك؟..**».. استمع للحظاتٍ إلى محدثه، ثم انفرجت أساريره فقال بارتياح: «**عظيم.. أشكرك يا صديقي... أنا بالفعل في طريقي إليك، فهل نلتقي في المكان المعتاد؟.... عظيم، إذا سأراك بعد قليل، مع السلامة..**»..



في الصباح، استيقظت مهرة بتكاسلٍ ودهشت حين لم تجد زوجها بجوارها على الرغم من أن الساعة لم تتجاوز السابعة والنصف صباحاً.. قامت تبحث عنه في غرفات الجناح ولكن بدا وكأنه لم يقض الليلة به من الأساس، فالفراش مرتبٌ حيث ينام وحين استيقظت في منتصف الليل افتقدته كذلك!.. كانت ترتدي ثيابها بسرعةٍ وهي تنوي الذهاب لجناح شقيقيها علهما قابلا نادراً،

أو خرجوا جميعاً تاركين إياها لترتاح أو شيئاً من هذا القبيل.. تعثرت وهي تتراجع بشيء أملسٍ باردٍ وكادت تسقط لولا توازنت في اللحظة الأخيرة، ولكن ما أن التفتت لترى ما عرقلها حتى هجم عليها بغتةً، جسمٌ أسودٌ غليظٌ فاتحاً فاه، مكشراً عن أنيابٍ تقطرُ سُمّاً، وجسده الضخم اللامع بنقاطه الصفراء الفاقعة، يلتف بإحكام حول جسدها الضئيل.. أغمضت عينيها بقوةٍ وهي تحاول الفكاك قدر ما تستطيع وحلقها يأبى أن يطلق أي صوتٍ، ولو حتى الأنين، وقد جف تماماً كصخرةٍ تحت لهيب الشمس في الصحراء..

انتفضت بقوةٍ دافعةً عنها بكل ما أوتيت من عزم ذلك الكيان الثقيل، وفتحت عينيها لتجد الظلام يلفها وسط سكونٍ باردٍ.. استغرقها الأمر لحظاتٍ حتى تدرك بأنها ممددة فوق فراشها في غرفة الفندق، وقد ألقت بعيداً بغطائه ليسقط أرضاً، وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة.. ابتلعت ريقها واعتدلت تتحسس موضع زوجها فوجدته مستوياً بارداً.. التقطت هاتفها المحمول لتتصل به وهي تضغط برفقٍ على زر فتح الستائر الثقيلة، ليغمر الضوء القوي بسرعةٍ كل شبر من الغرفة..

«**صباح الخير.**».. كلمةٌ رقيقةٌ غايةٌ في اللطفِ نطقها زوجها بكل حنانٍ وهو يجيب عليها، ولكنها سمعتها باردةً بليدةً مستفزةً بكل المقاييس، فأجابت متجاهلةً رد التحية: «**أين قضيتَ الليل يا نادر؟ ولِمَ لَمْ توقظني حتى الآن؟ أين أنت وأين الأولاد؟.**».. حذا حذوها في تجاهل الرد وقال ببساطةٍ: «**ارتدي ثيابكِ بسرعةٍ، سأنتظرك بالكافتيريا المجاورة للفندق.. أسرعي فلدينا برنامجٌ مهمٌّ اليوم.**».. أغلق الخط بعدها ببساطةٍ تاركاً إياها وسط غيمةٍ وجوم قاتمةٍ لم تغادر ملامحها حتى وهي تتلقى التحية من عمال الفندق وموظفيه الذين كانوا يلقون عليها تحية الصباح بأدبٍ وابتسامةٍ مرحبةٍ. ولا ساعدتها المناظر الخلابة للمباني الحديثة في طريقها ولا النافورات الراقية على إطفاء جام غضبها الذي اختارت بحكمةٍ أن تصبه على أخويها اللذين كانا يجلسان حول الطاولة الزجاجية المستديرة يستمعان بشغفٍ إلى حكايةٍ من حكايات أسفارِ نادرٍ التي اعتاد أن

يذهلهما بها.. قالت فور ما وصلت إليهم: «**ماذا قلت لكما بشأن ترك غرفتكما إلى أي مكان دون إعلامي؟!! وأين شهد؟**».. همت مي كالعادة بالرد لولا أن سبقها نادرٌ بهدوءٍ وهو يقف ليمسك بمرفق زوجته بلطفٍ قائلاً بهدوءٍ: «**ارتاحي أولاً يا حبيبتي، ودعيني أطلب لك فنجان شاي، فيبدو أن نومك لم يكن مريحاً ليلة أمسٍ.**».. اشتدت أصابعه قليلاً حول مرفقها وهو يجلسها على الكرسي المجاور له.. انتظر حتى استقرت في مقعدها فتابع و هو يرجع بظهره إلى الوراء مشيرا للنادل الذي كان ينتظر إشارته ليقترب وقال دون أن يسألها عم تريد: «**بيض مخفوق وكوب شاي، وفنجان قهوة تركية سادة آخر.**»..

وضع ساقاً فوق الأخرى وهو يلمح تراشق النظرات الحادة بين مهرة ومي، بينما انشغل ماجدٌ بهاتفه المحمول كعادته .. قال برفقٍ: «**مهرة..**».. انتظر أن تنظر إليه ولكنها بقيت تراقب شهداً التي كانت تركض حول النافورة المستديرة في باحة المقهى السابحة في ضوء الشمس فقال بصوتٍ أعلى: «**مهرة!.**».. «**نعم.**» رفعت عينيها نحوه لتواجهه للمرة الأولى هذا الصباح، وقد بدا متحرراً في بنطاله المصنوع من الكتان الأبيض الفضفاض وقميصه الكتاني السماوي بأكمامه الطويلة المطوية. قال برفقٍ: «**ما بكِ يا حبيبتي؟**»، ولاح طيف ابتسامةٍ ساخرةٍ على جانب فمه: «**ألم تأخذي كفايتك من النوم؟!**». طرفت بعينها نحو أختها التي وجدتها قد انشغلت هي الأخرى بما يفعله ماجدٌ على هاتفه فعادت تنظر لزوجها بحنقٍ وتسأله بخفوتٍ وهي تميل قليلاً نحوه: «**وكيف تريدني أن أكون وأنا أعلم بأنك قضيت الليل خارجاً؟!! أين كنت؟**».. انتظر حتى فرغ النادل من وضع الإفطار ثم قال وهو يفتح أحد المجلات المصفوفة بعناية على طاولة قصيرةٍ بجانبه: «**تناولي إفطارك قبل أن يبرد، ثم حاولي أن تجهزي نفسكِ بسرعةٍ، فقد قارب النهار على الانتصاف ولدينا برنامج طويل اليوم كما أخبرتكِ.**»..

همت بالوقوف ولكنه توقع تصرفها فقال ببطءٍ: «**صدقيني يا مهرة أنت لا تريدين أن تفعلي ما تفكرين به.. لا تفتعلي فضيحةً هنا أمام أخويك والناس، اهدئي وتناولي فطوركِ كي نذهب بسرعةٍ.**».. قالت وهي تتمكن بصعوبةٍ من كبت

صياحها: «**لا أريد أن آكل ولا أن أذهب إلى أي مكانٍ.. سأعود إلى الغر..**». قاطعها وهو يضع المجلة جانباً ويغطي كفها بكفه في لمحة تبدو للناظر رومانسيةً حنونةً، بينما استشعرت هي بها نوعاً من التهديد أكدته لهجته الباردة وهو يقول: «**بلى، ستأتين معنا يا حبيبتي، ليس لأني أريدك أن تفعلي لا سمح الله، وإنما لأن مضيفنا، والذي هو أحد أهم شركائي، وصديق عزيز جداً لدي، ينتظرنا هو وعائلته ويتوقع قدومكِ.. فكيف أبرر غيابكِ دون أن أسبب له الحرج؟.**».. اعتدل ثانيةً مكملاً وهو يعيد ساقه فوق الأخرى: «**ولأن لقاءنا سيتبعه اجتماع عملٍ، فلا يمكنني تأجيله أو الاعتذار عنه.**».. سكت متوقعاً رداً معارضاً أو مستفزاً، ولكنها فاجأته بأن بدأت في تناول الشاي الساخن بيدٍ ثابتة وعينيها لا تفارقان وجهه.. أخفى ابتسامةَ إعجابٍ بعنادها وقال ببساطةٍ وقد ساعدته نظارة الشمس العاكسة كالمرآة في إخفاء نظراته التي لانت وهو يقول: «**لم أقض الليلة خارجاً، فقط، غلبني النعاس على الأريكة وأنا أشاهد التلفاز.**».. قالت بسخريةٍ: «**نعم، بالطبع، لأن هذا ما تفعله دائماً.. تشاهد التلفاز.**».. هز كتفيه دون أن يعلق، ثم التفت للشابين ممازحاً: «**سنرى من منكما سيتعلم أسرع، ويصمد مدةً أطول فوق صهوة الجياد.. ستريان اليوم جياداً، آيةً في الجمال والقوة.. لن تنسيا هذه التجربة أبداً، أعدكما.**». سألته مي: «**كالخيل التي رأينها في المزرعة؟.**». أجاب ضاحكا: «**لا شيء يقارن بما ستريانه اليوم، فمزرعة صديقي هذه تمتد أميالاً، حيث يربي ويستولد أجود أنواع خيل السباقات العالمية.. لديه فصائلٌ أصيلةٌ ونادرةٌ.. (الأشقر) لو تذكرانه، كان هدية عيد مولدي منه.**»..

توقف حين وقفت مهرة قائلة: «**أين أوافيكم؟ سأصعد لأبدل ثيابي؟ و.. ماذا علي أن أرتدي؟ أأرتدي عباءةً أم ماذا؟.**»..

وقف بدوره أدباً وبدا أنه تذكر شيئاً فقال: «**قد يمر أحدهم ليأخذ حلتي وقميصي إلى السائق ليضعهما في السيارة.**».. وتابع: «**سننتظرك هنا، وارتدي ثيابا مريحة، أي شيء يشعرك بالحرية..**».

أومأت واستدارت مغادرة، وكلماته ترن في أذنيها..(أي شيء يشعرك بالحرية..)...



كما وعدهم نادرٌ، بقيت ذكرى تلك الرحلة عالقةً، بعبق بخورها العربي وقهوتها المرة وجميع اللحظات التي نقلتهم إلى بعدٍ آخر لم يعرفوا بوجوده، في ذاكرتهم لشهورٍ بعدما عادوا.. كما بقيت المسافة التي فرضت نفسها كطرفٍ ثالث في علاقة مهرة بزوجها كما هي كذلك، إن لم تكن قد ازدادت اتساعاً و برودا. مرت الأيام بوتيرةٍ ثابتةٍ وأحداثٍ مكررةٍ، فبين قضاء النهار بالتسكع بالحديقة قليلاً والثرثرة أحياناً، أو بالأحرى، الاستماع إلى ثرثرة كريمة أثناء احتساء الشاي حول طاولة المطبخ، وبين مساعدة شهدٍ في دروسها والاهتمام بواجباتها ومتابعة دراسة أخويها، كانت تقضي مهرة يومها بشكل مثالي يبقيها منشغلةً أكثر الوقت، وقد نجح هذا كثيراً في تهدئة أعصابها ولململة شتات نفسها، فصارت لا تفكر في طارقٍ إلا حينما يتصل بها كما اعتاد أن يفعل، بمعدل اتصالٍ كل يومين أو ثلاثة... تجاهلت اتصالاته ولم ترد عليها إطلاقاً، فماذا عساه أن يقول أو يطلب مما قد يجلب الخير لها ولإخوتها؟! إن كان يود الاعتذار، فقد اعتذر مراراً وتكراراً، ولا تجد سبباً محترماً قد يدفعها للتحدث إليه بعد الآن، وعلى الرغم من الضعف الذي يسكنها أمام رومانسية الحلم القديم والتردد الذي تشعر به كلما رأت الرقم الذي حفظته عن ظهر قلبٍ الآن، إلا أنها تمكنت من إقناع نفسها بالتماسك والالتزام بالواقع الحالي وبزوجها وزواجها الحديث.... وبالطبع لم يمضِ يوم دون احتفاليةٍ خاصةٍ بين فؤادٍ وأميرة، من ذاك النوع الصاخب الذي كان يدفعها في كثيرٍ من الأحيان إلى وضع وسادتها فوق رأسها حتى لا تسمع الكلام السام الذي يتراشقان به.. غالباً ما كان نادر غائباً في تلك الليالي، وحين ينشب بينهما شجارٌ في وجوده، كان يكتفي بأن يذهب ليبقى بغرفة شهدٍ ليطمئن من أنها لم تستيقظ، وربما قضى الليل إلى جانبها، وهو ما لم تجرؤ مهرة على فعله خشيةَ أن تحرجها أميرة باعتبارها

والدتها الحالية... تعجبت كيف لا يشعر نادرٌ بالحرج من تصرفات شقيقه، وحين سألته مرةً عن سبب عدم تدخله لوقف الشجار، رد ببساطةٍ عادّاً على أصابعه وهو يهمُّ بالذهاب لغرفة شهدٍ: «**لأن التدخل لن يزيد الأمورَ إلا تأججاً، ولأنه مهما حدث فسينتهي الأمر بهما متصالحين كالعادة، ولن يبقى سوى كلامي الذي ربما أغضب أحدهما أو كلاهما.. وثالثاً، لأنهما زوجان، و هذا شأن خاص لن أتدخل فيه مالم يُطلب مني أن أفعل. وأخيراً.... هي تزوجته وهي على علم تامٍّ بطبعه وأسلوبه... وصدقيني، هي تدرك تماماً بأن ما يفعله الآن ليس أسوأ ما لديه...إنما اطمئني، فأنا لن أدع الأمور تخرج عن حدودها أو تتطور أكثر، وإن حدث، تأكدي بأنني سأتدخل.. فاهدئي وحاولي أن تنامي، فقد تخطت الساعة الثانية..**».. هكذا! وبكل بساطة غادر ليلتها الغرفة!!..

كانت معظم الليالي تمر عليها وحيدةً في فراشها الواسع الوثير، تحتضن وسادتها وتتشبث بها وكأنها تخاف إن تركتها أن تتوه وسط برودة الأغطية الناعمة التي هجرها دفء الحب فلم يعد يبقى لها سوى الحفيف الخافت كلما تقلبت يمنةً ويسرةً، يعزز وحدتها ويمسح على قلبها المحموم بيدٍ باردةٍ، دون أن تتمكن من أن تطفئ أحياناً حرارة جسمها وهجير عواطفها لافتقادها المضني لقربِ زوجها الجسدي والمعنوي.. كانت تبقى ساهرة تناجي النوم لساعاتٍ طوالٍ، والذي ما كان يزورها إلا قرب بزوغ الشمس. ولكن الليلة، كان فكرها منشغلاً بشأنٍ آخر غيرها وزوجها.. نتائج اختبارات ميٍّ، فها هي اللحظة التي انتظرتها بفارغ الصبر قد حانت، لتجني ثمار تعبها لسنواتٍ، ولطالما تسارع نبضها وهي تتخيل لحظة سماع مجموع أختها التي ترنو لدخول كلية الطب..

اليوم ستخبر العالم بأنها استطاعت أن تحفظ الأمانة وترعاها وتصل بها، على الرغم من كل ما عاكسها، إلى بر الأمان وأعتاب المستقبل المضمون..

رن هاتفها فالتقطته مفزوعةً، وحين لم تتعرف على الرقم أدركت بأنه ربما أحد معارف نادرٍ الذين أعطاهم رقمها ليتواصلوا معها حين يتمكنوا من معرفة نتيجة مي.. ردت بلهفة: «**ألو؟!**».. سكتت للحظاتٍ لتستوعب ما

تسمع ثم قالت بغضبٍ بالغ: «**طارق؟!! أجننت؟!!! أتعلم أننا بعد منتصف الليل؟!! كيف تسمح لنفسك؟ لقد تخطيت حدودك هذه المرة وأنا..**». قاطعها: «**أنا آسف، والله لم أقصد أن أضايقك إطلاقاً، ولكن أعيتني الحيلة وأنا أحاول الاتصال بكِ دون أن أتلقى رداً على الإطلاقَ.. واليوم تنتظرين نتيجة مي..**».. تنهد مكملًا: «**كم تمضي الأيام مسرعة!!..**». ابتسمت رغماً عنها، ولكنها عادت لتقول بنبرةٍ أرادتها صارمةً: «**كيف عرفت؟! اسمع، هذا ليس وقتاً مناسباً للسؤال عن نتيجة!! وما هذا الرقم؟ أأنت بمصر؟!!**».. فرح على الرغم من غضبها الذي تحاول التظاهر به إلا أنها فتحت نافذةً للحوار ومجالاً للكلام لأول مرةٍ منذ تقابلا آخر مرةٍ، فقال بسرعةٍ: «**نعم، منذ فترةٍ، انتقلت للعمل هنا، كانت ضربة حظ وتوفيق كبير من الله... رشحني صاحب العمل الذي كنت محاسباً لديه لهذه الوظيفة كمحامٍ بالشئون القانونية بمرتب ضخم هنا.. وصاحب العمل بنفسه أثنى علي وعلى اجتهادي... أظنني أخيراً صرت على الطريق الصحيح... وأمي سعيدة جداً بوجودي إلى جوارها..**» ضحك وقال بخفةٍ: «**بالمناسبة، أخبرتها عما صار معك وتتمنى لك كل السعادة..**». ردت بفتورٍ: «**نعم، أعرف.. لطالما أحبتني.**».. ضحك فابتلعت ريقها وأغمضت عينيها بقوةٍ، فلطالما أثرت بها ضحكته وأسرتها تلك البحة فيها.. والآن، في عتمة الليل، ذكرتها تلك الرنة الخافتة لضحكته بمكالماتهما الطويلة قديماً، وأثارت نبرته حنيناً كاد أن يذوي بصدرها، فشدت الأغطية حول جسدها لا شعورياً.. انتظرت تعليقه وحين لم يقل شيئاً سألته مباشرةً: «**ماذا تريد يا طارق؟ حقاً؟ ما الذي تتوقعه من كلامك معي؟**». رد بصوت هادئٍ: «**أن أتأكد من أنكِ سامحتني على ما حدث، وأن أستعيد ثقتك بي يا عزيزتي.**».. سألته بحيرةٍ: «**وفيمَ يهمك هذا الآن؟! أتريد أن أريحك من عذاب الضمير مثلاً؟ أهذا ما تشعر به يا طارق؟ الذنب؟!!.. حسنٌ، لا تقلق حيال هذا الأمر، فأنا أؤكد لك بأني في أحسن حال.. بل، ربما تركك إياي في ذاك الوقت كان أفضل ما حدث لي على الإطلاق، فلولا ذلك لما كنت الآن ما أنا عليه، فاطمئن، ليس لدي أدنى ذرةٍ من الحقد عليك أو الغضب منك..**». قال بعد لحظة صمتٍ قصيرةٍ: «**ولكن.. هل فعلاً نسيتِ كل شيء؟! أعني، نسيتني تماما؟!! يصعب علي تصور هذا وأنت لا تفارقين**

تفكيري لحظةً واحدةً منذ التقيتك ذاك اليوم في شقتك القديمة!! أتنكرين أن...».. قاطعته بقوةٍ: «**نعم، أنكر.. ولا تتمادى في مثل هذه التلميحات يا طارق، لقد طلبت صفحي وقد منحتك إياه، فدعني وشأني واحترم مشاعري وظرفي، هذا إن كنت فعلاً تريدني أن أثق بك مجدداً..**». طال سكوته هذه المرة وحارت فيما عليها أن تفعل، أتغلق الخط أم تمنحه بعض الوقت ليتأكد من أن كل ما كان بينهما قد ولى إلى غير رجعةٍ.. انتظرت حتى ظنت بأن الاتصال قد انقطع فقالت بخفوتٍ: «**طارق؟.**».. رد فوراً: «**بإمكانك أن تثقي بي يا مهرة، ثقي بأني لن أنساكِ ولن أتخلى عن حبي لكِ ولن أكرر غلطتي للمرة الثانية... ثقي بأني مهما ابتعدتِ أنتِ عني سأبقى أنا إلى جواركِ مهما كان..**».. كان مسترسلاً في كلامه الذي أثر تأثير السحر على حواسها فنسيت للحظاتٍ أين هي وتاهت في ظلمة الغرفة تطير فوق خيالاتها الشفافة. فكرت بتعجبٍ (و أخيراً استمعت إلى كلام يثلج الصدر وكأنه بلسمٌ داوى كل جرحٍ وألمٍ سببته السنون).. كان طارقٌ لا يزال يتكلم ولكن عقلها كان في عالمٍ آخرٍ.. عالَم تسير فيه فوق سحابٍ أبيضَ وسط زخات من بتلات الورود البيضاء، تختال في ثوب أبيضٍ طويلٍ وصوت طارقٍ يناديها لتتبعه بلهفة.. آه لو علم أخويها بأحلامها الساذجة البسيطة! «**مهرة! لم لا تردين؟!**» .. انتبهت لسؤاله فردت حائرةً: «**علام؟**».. «**ما رأيك فيما قلت؟ هل يمكنكِ فعل هذا؟**». سألته باهتمامٍ: «**فعل ماذا؟ عمَّ تتحدث؟**»... زفر بضيقٍ وأوضح: «**الطلاق!! هل تستطيعينَ أن تتطلقي من ذاك الرجلِ لنتزوج؟ بإمكاني الآن أن أعيلك أنت وأخويك.. دعينا نعش ما حلمنا به يا مهرة..**».. قاطعته مجدداً: «**كفى، اصمت و لاتنطق حرفاً واحداً.. لابد من أنك فقدت عقلك.. أتعرفني حقا؟!! كيف تجرؤ يا طارق؟!! أولاً لست عالةً أبحث عمن يعيلني، وثانياً.. ثانياً، كيف تراني لتتحدث معي بهذا الشكل.. أنا آسفةٌ بأنني استمعت إليك وإن كنت لا زلت تحتفظ ببعض الاحتر..**».. قاطعها بدوره صائحا: «**وماذا أطلب؟ هل أطلب علاقةً في الحرام لا سمح الله؟!! أحقاً تفاجأتِ بطلبي وتضايقتِ إلى هذا الحد؟!! لم إذاً لازلت تستمعين إلي؟ ها؟ وحتى هذه اللحظة لازلتِ معي على الخط؟! ..**». هدأ قليلاً وتابع بنبرةٍ مؤنبةٍ: «**أنا لا أريدك أن تحمِّلي نفس الذنب الذي حملته حين**

حطمت حياتنا وحلمنا يا مهرة، أرجوكِ فكري مرةً أخرى.. هذا كل ما أرجوه، فقط فكري في الأمر.. ولو شئتِ، تقابلنا في أي مكان تختارينه، سواء أكان عاماً أو في شقتك القديمة... فقط امنحيني الوقت والفرصة لأريكِ كيف تغيرت وأدركت كم كنت مغفلاً حين تركتك.. مهرة! ألو؟!.».. كانت ترتعش وقد كتمت شهقاتها بكفها وهي تهز رأسها ببطءٍ ومزيجٌ من الحسرة والرغبة والاشمئزاز جعلها تشعر بغثيانٍ مفاجئ، فأنهت الاتصال دون أن ترد وركضت إلى حوض الحمام، ووقفت حافية على الرخام البني الأصم لتغسل وجهها بدفعاتٍ من الماء البارد، وكانت كلما رفعت وجهها لترى انعكاس صورتها في المرآة بعينيها الحمراوتين ارتسمت على ملامحها أمارات الإحساس بالخزي من تصرفها، ومن أفكارها، وحلت صورة نادرٍ كالستار بينها وبين صورتها الشاحبة، فتعود لتلطم وجهها بالمياه مرةً بعد مرةٍ.. ربما لم تحب نادراً بقدر ما أحبت طارقاً، وربما كانت ستصبح أكثر سعادةً بدرجاتٍ إن كانت أمورها مع طارقٍ قد سارت في مسارها الصحيح.. وربما هي تبالغ الآن في ردة فعلها.. ولكنها مرهقة.. نعم، بل منهكة حرفياً، تماماً.. فعلى الرغم من الجرح والألم الذي سببه اختفاء طارقٍ دون كلمة وداع أو توضيح أو حتى اعتذار، إلا أن هذا التصرف بالتحديد كان يمنحها الحافز والقوة لتكمل حياتها وتستجيب لمحاولات زوجها بالتقرب من مشاعرها واجتياز حواجز قلبها الواحد تلو الآخر.. من السهل اتخاذ القرار حين لا يكون هناك ثمة اختيارات.. ولأن الحال حالياً ليس فيه اختيارات ،إذا ما أخذت بعين الاعتبار الأصول والأخلاق، فيفترض بها ألا تشعر بكل هذا الألم الذي يعتصر قلبها، ولا بهذه الغصة التي تخنقها.. ولأن المنطق شيءٌ والواقع شيءٌ آخر تماماً، فقد كادت تجن وهي حائرةٌ بين التصنيفات التي وضعت نفسها بها كزوجةٍ لرجلٍ محترم، تسمح بحبٍ قديم بأن يخطو مختالاً داخل جدران زواجها، وأن تسمح لكلامه بملء الأركان المظلمة المنسية في عقلها ليغطي على صوت العقل وأي صوتٍ آخر ينصحها بالتريث.. وفيما هي بين أخذٍ وجذبٍ مع ذاتها، سمعت باب الحجرة يغلق ليعلمها بأن زوجها قد عاد... نظرت إلى وجهها مجدداً وابتلعت ريقها وهي تحاول تعديل مظهرها

دون جدوى فتوقفت عن المحاولة وتركت الحمام عائدةً إلى الغرفة. لحسن حظها لم يهتم نادرٌ بإشعال الأضواء المبهرة واكتفى بالضوء الهادئ للمصباح المجاور لجانبه من الفراش حيث جلس ليخلع حذاءه ويفك ربطة عنقه بإرهاقٍ واضح، ولكنه حين لمحها قال وهو يمد يده إليها: «**ها أنت ذا!! لقد اتصلت بك مراراً، فلم لم تطلبيني؟..**».. أمسكت بيده وجلست إلى جانبه محاولة ألا تجعل الضوء يلامس صفحة وجهها المحمر وهي تقول بهدوءٍ: «**متى؟ لم أسمع رنين الهاتف؟.**».. فقال وهو يضيق عينيه ويتفحص وجهها: «**مع من كنت تتحدثين؟ أهناك خطبٌ ما؟**».. حاولت التملص من يده ولكنه أحكم قبضته على كفها وأشعل الضوء العالي من جهاز التحكم الصغير فأجفلت لوهلةٍ من شدة الضوء وأغمضت عينيها قائلةً: «**لم أكن أتحدث مع أحدٍ، لقد كنت نائمةً.. أطفئ النور يا نادر فالضوء يضايقني..**».. أفلتها بالفعل فابتعدت لتتكوم على الفراش حيث كانت جالسةً منذ دقائق قبل أن يأتي، ولكنه لم يطفئ النور وإنما وقف واضعاً يديه في جيبيه سائلاً وعلى وجهه ملامحٌ غريبةٌ: «**كنتِ نائمة الآن؟**».. هزت رأسها إيجاباً واستلقت ساحبةً الأغطية فوق أذنيها علَّه يدعها وشأنها، ولكنه تابع: «**مهرة، هلَّا جلستَ حتى أنهي كلامي؟..**».. قالت وهي لا تزال على وضعها: «**في الصباح يا نادر أرجوك، فأنا مرهقةٌ جداً وأعصابي منهكةٌ من انتظار النتيجة، والتي بالمناسبة، لم تكلِّف خاطرك بأن تسألني أحصلت عليها أم لا؟.. دعك من أنك وعدتني بأن تجعل أحد معارفك يخبرك بها.**».. (ماذا تفعلين؟!!!!) لامت نفسها بقوةٍ، فلم تدرِ لم اندفعت وراء رغبةٍ قويةٍ في تأنيب نادرٍ وافتعال شجارٍ معه!!.. ربما أرادت أن تشعره بالذنب والتقصير نحوها كما تشعر هي تجاهه؟!! ربما أرادته أن ينفعل عليها ويجرحها!!! اقترب نادرٌ من حيث تنام وجلس بهدوء على حافة الفراش كاشفاً وجهها برفقٍ ليقول بهدوءٍ: «**أخبرتك بأنني طلبتك أكثر من مرةٍ، وآخرها كان قبل دخولي البيت بدقائق، وحينها ، كنتُ على وضعية الانتظار... مع من كنت تتحدثين يا مهرة ومن سبَّب لكِ كل هذا التوتر؟.**». كان صوته خافتاً، إنما لمحت فيه نبرةً أنبأتها بأن سعيها للشجار قد بدأ يؤتي ثماره، فاعتدلت تبادره بعصبيةٍ وهي تلتقط هاتفها وتلقيه بإهمالٍ بين يديه: «**لم لا**

تفتش الهاتف بنفسك لتكتشف السر الذي أخفيه؟ ها؟ تفضل يا نادر بك، مارس سلطاتك...».. لعق شفته السفلى قبل أن يعض عليها كابتاً قدر ما استطاع النزعة التي تملكته في أن يضرب رأسها بالهاتف الذي ألقته عليه. سحب نفساً عميقاً وقال وقد ظهرت عليه أمارات نفاذ الصبر جليةً: «**ولِمَ؟**». وضع الهاتف برفقٍ على الطاولة المجاورة مكملاً: «**يكفيني أن تقولي بأنك لم تكوني تتحدثين على الهاتف، فربما كان الخط مشغولا وحسبتها نغمة انتظار.**».. تنهد وهو يشد قامته وهمَّ بمغادرة الحجرة حين رن هاتفها فالتفتا كليهما إلى الهاتف قبل أن يبتسم نادرٌ ويتقدم ليمسكه من جديدٍ معلقاً على الرقم الذي لم يكن مسجلاً باسم رقم الطالب: «**رقمٌ غريبٌ! أتحبين أن أرد؟.**».. ابتلعت ريقها وهزت كتفيها بلا مبالاةٍ ففتح الخط دون ترددٍ وكأنه لم يكن بانتظار موافقتها قائلاً ببرودٍ: «**ألو!.**».. استمع للحظاتٍ إلى محدثه، لحظاتٌ بدت لمهرة كالدهر وقد لعنت طارقً لردِّه بدلاً من الاكتفاء بإغلاق الخط، كما لم تدر لم أخذ الادعاء بأن الرقم غير صحيح كل هذا الوقت!.. وصعقت حين قال نادرٌ بتساؤلٍ: «**نعم، هذا رقمها، من أنت؟.**». لم تدرِ أكان هناك زلزالٌ بالفعل أم أن الحجرة كانت تميد بها لأن دواراً حاداً لفَّ رأسها وهي جالسةٌ كالمخدرة على الفراش دون أن يرف لها جفنٌ تراقب ملامح نادرٍ التي لم تُظهر شيئاً سوى التعجب وهو يقول: «**لم أعرف بأن لها ابن خالة مهاجر!! عموماً تشرفنا، نعم.. أنا زوجها.. لا، للأسف فقد خلدت للنوم، فالوقت متأخرٌ جداً... لا، لا داعي للاعتذار.. سأعطيها رقمك وستتصل بك غداً.. عفواً، ولكن ما اسمك ثانيةً؟.. أهلاً سيد طارق.. نعم، بل الشرفُ لي.. تصبح على خيرٍ..**».. استمع للحظاتٍ قبل أن يغلق الخط دون أن يضيف كلمةً، وألقى الهاتف بجوارها قائلاً بلا تعابير: «**طارقٌ، ابن خالة والدتك..**».. ابتعد ليغادر الغرفة ولكنه تذكر شيئاً، فأخرج ورقةً صفراءَ صغيرةً، مطويةً بعنايةٍ، ألقاها على الطاولة الأنتيك الموضوعة قرب الباب قائلاً: «**أه، كدت أنسى... نتيجة مي، استخرجها لي أحد معارفي منذ قليلٍ، ولذا كنت أحاول الاتصال بك كي أطمئنك... مبروك.**»...

خرج وصفق الباب وراءه بقوةٍ... تسمرت مهرة من الصدمة والذهول، من تصرف طارقٍ الوقح غير المفهوم وغير المتوقع!!!.. ومن تصرف نادرٍ النموذجي في إغراقها في بحر الخطأ وسوء التفاهم!!!.. من عالم الرجال الذي شعرت لحظتها بأنه عالم من الشراك والأفاعي والذئاب!!!.. لعنت ألف مرة طارقاً ونفسها، وما يسمونه الحب.. أرادت أن تلحق بنادرٍ لتعتذر منه.. كالعادة... أرادت كذلك أن تقوم لتفتح الورقة الصغيرة التي حوت بين سطورها شفرة باب مستقبل أختها.. ولكنها بدلاً من هذا وذاك، ركضت ثانيةً إلى حوض الحمام لتتقيأ كل ما بداخلها من مشاعر أسقمتها، حتى انهارت قواها تماماً، فجلست على الأرض تجهش ببكاءٍ مرير...



اندفع نادرٌ إلى الشرفة علَّ نسيم المساء المتأخر يكسر طوق الغضب العارم الذي يضيق حلقته حول رقبته ويخنق أنفاسه. كان ضوء القمر الرقيق يطلي الأفق بلونٍ أزرق حالم انعكس على الأرض ليلون كل ما لامسه من أشجار الحديقة وأزهارها بمزيج من خطوط الضوء الأزرق والظل، فبعث في نفسه راحةً وسكينةً عجيبةً...لسع نسيم الليل الصيفي بشرته وتخلل شعره بعذوبةٍ لحظة خرج إلى فضاء الشرفة فتوقف ليأخذ نفساً عميقاً مغمضاً عينيه في محاولةٍ يائسةٍ للاسترخاء وطرد التوتر الرابض في كل أوصاله.. فتح عينيه وهو يتقدم نحو الإفريز الرخاميّ ، حين لاحظ أنه ليس وحيداً وسط هذا السكون. تعرف فوراً على ظل فؤادٍ مرتكناً على أحد الأعمدة المصقولة المصطفة بمحاذاة دوران إفريز الشرفة وهو يدخن سيجاره التي أخذت تضاء شعلتها كلما سحب منها نفساً عميقاً طويلاً...اقترب منه بهدوءٍ وبادره بصوتٍ خافتٍ:

«**أمعك سيجارة أخرى؟**»

تعجب فؤادٌ الذي كان يراقب شقيقه في صمتٍ مذ خرج إلى الشرفة، فقال بهمسٍ خشية أن يفسد جمال اللحظة وسكونها: «**لم أعرف أنك تدخن!!!**»

رد نادرٌ بعصبيةٍ وسرعةٍ: «**لا أدخن ولكنني بحاجةٍ لواحدةٍ الآن، فهل معك أخرى ؟**»

أخرج فؤاد سيجارة من العلبة التي كانت في جيب سرواله الخلفي وناولها لنادرٍ ثم مد يده ليسحب الولاعة من جيبه الآخر، إلا أن نادراً سحب السيجارة من فم فؤادٍ واستخدمها ليشعل بها سيجاره، ما جعل الأخير يبتسم .. انتظر حتى يأخذ شقيقه بضع أنفاسٍ عميقةٍ في صمتٍ ويتلذذ برؤية عمود الدخان الذي حوله الضوء الأزرق للون ليلكي ناعم وهو يتراقص مرتفعاً حتى يذوب في ظلمة السماء الداكنة المرصعة. كان معتاداً على رؤية نادرٍ يرزح تحت ضغوط كثيرة، ولكنه لم يلاحظ عليه يوماً شيئاً مثلما يبدو عليه هذه الأيام من توترٍ وضيقٍ وعصبيةٍ تجاه أي كلام لا يوافق هواه. كان يعلم أن هناك ما يدور بينه وبين مهرة، إلا أنه لم يحب أن يسأل نادراً عما يعتبره شأنا شخصياً ربما لن يستسيغ أخوه خوضه فيه. أمَّا وأن يراه يدخن وهو من أشد الرافضين للتدخين فهذا لا يعني إلا أن شقيقه ما عاد يستطيع الصمود تحت ضغط العمل والعائلة، وعليه أن يحاول التخفيف عنه ولو ببضع كلماتٍ سخيفةٍ. استند بكوعيه على الإفريز الأملس قائلاً ببساطةٍ: «**لم يتسن لنا أن نتحدث بهدوءٍ منذ زمنٍ بعيدٍ... حتى أنّي لم أجد فرصة لأقتص لسخريتك مني، أنت والشباب، يوم زواجي بشهيرة**»

ضحك بخفةٍ فابتسم نادرٌ ونفث دخان سيجاره وهو ينضم لأخيه مستنداً هو الأخر على الإفريز..سحبته الذكرى ليوم زفاف فؤادٍ وشهيرةٍ، وكيف لم يكف هو وأصدقاء فؤادٍ، الكثر حينها، والذين استبدلهم بشلة الفساد التي يرافقها منذ الحادث، عن السخرية منه ومعايرته بدخول القفص طوعاً على رجليه، والكثير من الأمور الشبيهة.. ما جعله يضحك مطأطئاً رأسه، ثم رفعها لينظر إلى جانب وجه فؤادٍ الذي تخفت ملامحه قليلاً خلف سُتر الظلام.

«**كان يوماً جميلاً .. وكنا جميعاً سعداء.**»

هز فؤادٌ رأسه، ولكنه حول الكلام إلى نادرٍ: «**كيف هو الزواج معك؟**» ، قالها بخفةٍ حتى يستخرج الكلام منه ببساطةٍ دون أن يشعر بأن أخيه يستقصي عن ما لا يعنيه.. رد نادر بسخرية لاويا شفتيه: «**رائع.**» ورفع السيجارة لتواجه فؤاداً الذي فهم قصد شقيقه فابتسم للحظةٍ، ثم قال بجديةٍ: «**لازالت مهرة تعتاد على البيت والعائلة الجديدة.. أمهلها بعض الوقت.**»

لم يعلق نادرٌ، وإنما تابع تدخين السيجارة التي بدأ فعلاً يتضايق منها، وفهم فؤادٌ صمته كما أراد نادرٌ بالضبط، ولكنه قلق عليه، ويريد أن يخبره بأنه ما عاد منهمكاً في ذاته فقط كما كان سابقاً، وبأنه موجودٌ إلى جانبه إن أراد أن يتحدث عما يضايقه ولو على سبيل الفضفضة.. فقال بنفس الصوت الخافت: «**هل يسير العمل على ما يرام ، أم أن هناك مشاكل جديدة؟**»

أطفأ نادر سيجاره في مطفاة السجائر الكريستالية التي وضعها فؤادٌ بينهما على الإفريز، واعتدل واضعا يديه في جيبي سرواله قائلا ًبسخريةٍ: «**دائماً ما هنالك مشاكل وتحديات في العمل... لا تقلق ، فأنا معتادٌ على ذلك.**»

سأله فؤادٌ مباشرةً: «**إذا ما بك يا نادر؟ لم أرك في حياتي على مثل هذا الحال؟**»

أشار إلى السيجارة التي أطفاها شقيقه منذ لحظاتٍ متابعاً: «**سجائر وتوترٌ... اعذرني ، يكفي أنك تقف معي هنا تاركاً عروسك ولم يمر على زواجكما سوى أشهرٍ.. لربما لا شان لي بعلاقتك بزوجتك، إنما ما يعنيني هو أنت يا نادر... أخبرني ما بك، فأنا قلق عليك... بالله عليك لا تضغط على أعصابك أكثر من اللازم.**». صمت متأثرا، فهو يخشى أن يمرض نادرٌ كما حدث من قبل، فقد كاد يموت حينها وكذلك هو ...

رد نادرٌ ساخراً: «**صرت تتحدث ككريمة...**» وضحك ضحكةً قصيرةً، ثم تابع بصوت ثابتٍ ليطمئن أخاه: «**لا تقلق يا فؤاد، أنا بخيرٍ ... فعلا... ولكنك تعلم، ربما أكثر مني، كيف أن النساء يستطعن أن يشغلن المرء و يرهقن تفكيره.**»

تنهد بعمقٍ: «**كل ما هنالك أني لم أعتد على عدم القدرة على تحديد ما علي أن**

أقول أو أفعل... لا أشعر بأني أفهم جيداً ما يضايقها أو يسعدها، فأحيانا أجدني أصارع وسط سوء تفاهمٍ سخيفٍ في حين أنني ما رتبت إلا لرحلةٍ أو مفاجأةٍ ما.!!!! أشعر فقط بأنني لست على أرضٍ ثابتةٍ يا رجل! أتفهم ما أعني؟ لا يمكنني أبداً أن أعرف متى سأخطئ أو متى سأصيب، وأنا لا أحب هذا التيه.»

هز رأسه بغضبٍ وهو يمرر يده في شعره بعصبيةٍ.. كان فؤادٌ صامتاً يهز رأسه بين الحين و الآخر مؤمِّناً على كلام أخيه. قال ساخراً حين أيقن أن نادراً قد أنهى كلامه :

« أليست هذه هي روعة الزواج؟!!! واااااو!!!!! حتى أنت يا نادر؟!!!!»

ضحك عالياً وهو يكمل: «**واااااااو!!!**»

علق نادر بهدوءٍ : «**سعيدٌ بأنني أدخلت الفرحة على قلبك .**»

نظر إلى فؤادٍ مليّاً واستطرد مقطباً: «**أم لعلك سكران؟**»

اعتدل فؤادٌ وهو يضع يديه في جيبي سرواله هو الآخر قائلاً بخفةٍ وهو يهز كتفيه:

«لقد أقلعت عن الخمر تماماً منذ فترة، وأنت تعرف هذا... لم يعد لي بها حاجة بعد الآن.»

سأله نادر مازحاً:

«ألهذه الدرجة أنت سعيد مع أميرة؟ أعلي أن أحسدك الآن؟»

رد فؤاد بجديةٍ ساخرةٍ: «**يا عزيزي أقلعت عن الخمر لأنه ليس هناك على وجه الأرض أي نوع من مُذهبات العقل، وإن شربت منه بحراً، أن يجنبك الاحساس بطعنات أميرة وسياط لسانها اللاذع...**»

انفجر نادرٌ ضاحكاً فيما أكمل فؤادٌ بسرعةٍ وهو سعيدٌ بخروج أخيه من حالة الكآبة وضحكه على تعليقاته: «**حقاً!!! ما بهن هؤلاء النساء؟!!! أعني، لا تشعر الواحدة منهن أنها بخيرٍ وسعيدةٍ إلا بعد أن تطمئن وتتأكد من تعكير مزاج**

زوجها وإفساد نهاره.. وعندما يعود إليها ليلاً، لا يمكنه أن يدير لها ظهره ولو من باب العتب، وإلا صاحبته اللعنات والنكد والغم أياماً وليالٍ طويلةٍ...مِمَّ صنعت هذه المخلوقات؟ أتعرف بمن يذكرنني؟» لم ينتظر جواب نادرٍ وإنما تابع: «**بقصص عرائس البحر، فهن يسحرنك بجمالهن وغنائهن العذب، وما أن يتمكن منك حتى تظهر حقيقتهن وبشاعتهن ، فيغرقنك ويتغذين على أحشائك..**»

كان يتحدث كبحَّارٍ عجوزٍ مستخدماً كلتا يديه في تمثيل كلامه وهو يقطب حاجبيه بشدةٍ، ونادرٌ يضحك من قلبه الذي احتضن اللحظة بحبٍ، ليس لخفة الطُرفةِ، وإنما قد أحب هذا الجو الحميم الخفيف بينه وبين فؤادٍ، فربما كان ما يقوله فؤادٌ مبالغاً فيه وسخيفاً، ولكنه كان بحقٍّ يحتاج لمثل هذا الحوار والاسترخاء... تنفسا بعمقٍ للحظات بعدما توقفا عن الضحك، فسأل نادرٌ فؤاد بهدوءٍ مسرحيٍّ : «**أتظننا سننجو لنروي القصة لأبنائنا ؟**»

ابتسم فؤاد ابتسامةً جانبيةً وهو يربت على كتف أخيه:

«**إن نجا آدم كل أعوام زواجه الطويلة من كريمةٍ، فأظننا نستطيع أن نفعلها نحن أيضاً ...**»

ضحكا بصمتٍ هذه المرة ووقفا بجانب بعضهما معتدلين كلٌّ يضع يديه في جيبي سرواله وهما يطالعان جمال الحديقة في هذا الضوء الفضي الرقيق والنسيم يتلاعب بشعريهما، وكلاهما يدخر هذه اللحظة الرقيقة من التقارب العذب بينهما لاسترجاعها بعد ذلك مراتٍ ومراتٍ، فما أندر مثل هذه الأوقات وأعزها....بقيا على حالهما هذا لدقائق قبل أن يسأل نادرٌ بصوتٍ هادئٍ حائرٍ:

«**كيف تعرف إن كانت المرأة تحبك أم لا؟**»

رد فؤادٌ فوراً دون تفكيرٍ:

«**بألا تحتاج لأن تسأل نفسك هذا السؤال؟**»

وندم فوراً على رده المتهور، فقد لاحظ توتر شفتي نادرٍ حين استدار إليه ليصحح كلامه (ياللني من غبي) وبخ نفسه بعنف... لقد بدد بكلمةٍ واحدةٍ كل

ما جناة في محاولته التخفيف عن أخيه.. (عبقري) ..تابع بالإنجليزية، محاولاً إصلاح ما أفسده بالتظاهر بأنه كان يسخر من النساء مجدداً: «**أتمزح؟!! بالطبع لن تعرف أبداً..**»

تنهد نادرٌ وقد أدرك محاولة أخيه تلطيف الأجواء وتخفيف أثر قوله الصريح، فاستدار رابتاً على ظهره وهو يغادر الشرفة قائلاً من وراء ظهره:

«**فعلاً، لن أعرف أبداً... اذهب إلى غرفتك وخذ قسطاً من الراحة فقد تأخر الوقت... تصبح على خيرٍ.**»

راقب فؤادٌ ظل أخيه وهو يختفي في ظلام الردهة قبل أن يقول لنفسه:

«نعم ، نَمْ يا فؤاد، فلا نفع لكَ أبداً...» زفر بقوةٍ، ثم انطلق هو الآخر إلى غرفته عازفاً عن جمال الحديقة التي ما عاد في مزاج يسمح له بالاستمتاع بها.. غضب من نفسه كثيراً، ولكنه غضب أكثر من مهرة «**ما الذي لا يعجبها في نادرٍ؟**» تساءل بحيرةٍ، فهو يرى كيف أن أخاه لا يدخر جهداً ولا مالا لإسعادها هي وشقيقيها!!!!! ما هذه التعاسة التي تتنفسها النساء!!!!!!!! وصل غرفته وأفكاره تتآكله فلم يلحظ الظل الجالس على الكرسي بجوار المصباح المعلق في ركن الغرفة، لهذا فزع عندما أضيء وأخذ يطرف بعينيه حتى اعتاد الضوء المفاجئ رغم خفوته. بادرته أميرة عاقدةً ساعديها أمام صدرها وإحدى ساقيها العاريتين تتأرجح فوق الأخرى: «**أعُدنا لما كنا عليه من سهر وقلةِ قيمةٍ؟**»

دخل إلى الغرفة مغلقا بابها وراءه وهو يحدث نفسه: « **اقلق لشأنك الآن يا سيد فؤاد...**»

رفعت أميرة صوتها قائلةً بحدةٍ:

« **أنا أتحدث إليك يا فؤاد!!! أين كنت حتى هذه الساعة؟**»

أخذ فؤادٌ نفساً عميقاً، و بدأت سهرته فعالياتها.....



انتفضت مهرة لدى سماعها صوت الطرقات العنيفة على الباب، فسارعت تشعل الضوء الخافت بجانب السرير واستدارت لتوقظ نادراً، ولكنها لم تجد في مكانه إلا خواءً بارداً ما يدل على أنه لم يعد إلى غرفتهما ولم ينم في الفراش أبداً هذا المساء بعدما انصرف عنها مغاضباً.. توقف الطرقُ للحظاتٍ جعلها تظن بأنها تحلم، ولكنه ما لبث أن عاد بقوةٍ أكبر تصاحبه جلبةٌ عاليةٌ نفذت بقوةٍ من خلال الباب الخشبي السميك فقفزت من الفراش قفزاً وهي تحث الخطى نحو الباب، وكادت أن تفتحه وقد ميزت صوت فؤادٍ وكريمة وربما سامرٍ أيضا، ثم انتبهت إلى أنها بثوب نومها الخفيف... ركضت تلتقط الروب الشيفون الخفيف الملقى على حافة الفراش وهمت بارتدائه ثم ألقته بعيداً وهي تزفر بحدةٍ حيث وجدته سيفضح أكثر مما يستر، والطرقات السريعة تتوالى بعجالةٍ وعصبيةٍ جعلتها تتعثر وهي تربط حزام روب نادرٍ الحريري الأزرق الواسع.. وقفت جامدةً للحظاتٍ تستوعب ما ترى، فهناك على الأرض يتكئ سامرٌ على كل من ماجدٍ ومي ليقف فيما يبدو وكأنه سقط أرضاً لسبب ما، بينما يشتبك فؤاد وأميرة بالأيدي في مشهدٍ جعلها تشهق بقوةٍ وتندفع بسرعةٍ لتساعد كريمةً التي كانت تحاول بجسدها الضئيل الحيلولة بينهما دون فائدةٍ... صرخ سامرٌ وهو يندفع نحوهم وقد ظنت بأنه سيحاول أن يساعدها هي وكريمة في وقف هذا الشجار المريع، إلا أنها أدركت أن هذا أبعد ما يكون عن غرضه حين سمعته يقول: «**أقسم برب العزة أن أربيك يا فؤاد كما لم يفعل أباك، يا ابن ال..**».. صاحت كريمة وهي تفلت أميرة وتقف في طريق سامرٍ لتمنعه بجسدها من الاشتباك ثانيةً مع فؤادٍ الذي كان يبدو كالمجنون في هذه اللحظة: «**لا يا سامر، كفى... كفى...**».. ساعدها ماجدٌ في تهدئة سامرٍ، ولكن فؤاداً كان قد انتبه لسبابه فاقترب منه مهاجماً وهو يقول: «**دعيه، دعيني أرى ماذا يستطيع أن يفعل الفاشل عديم النخوة.**».. هاجمته أميرة من الخلف صارخةً: «**احترم نفسك، لا تتحدث إلى أخي بهذا الأسلوب.. ما بك؟ هل جننت؟.. أقسم بالله بأني لن أدعَ ما فعلت يمر على خيرٍ، وسأخبر خالي ونادراً.. سأفضحك يا فؤاد، وسأتحدث إلى زملاءك في الجريدةِ ليعلموا من هو أنت على حقيقتك..**».. طارت يده في الهواء

لتستقر بقوةٍ على خدها وتلقيها أرضاً بعيداً بضع خطواتٍ، هادراً: «**أخبري من تريدين، وليريني أياً كان ما يستطيع أن يفعله..**».. سحبه سامرٌ من قميصه وهو يبعد كريمة وماجد بقوةٍ: «**أتظن أن لن يقدر عليك أحد؟!! أليس لك كبير؟!.**».. دفعه فؤادٌ بقوةٍ غاشمةٍ كاد أن يسقط على إثرها من أعلى الدرج وسط صرخات مهرةٍ ومي المذعورتين، لولا أن تدارك نفسه في اللحظة الأخيرة وفؤادٌ يهدر: «**لا، ليس لي كبير، وها أنا أقولها مجدداً، ليس لي كبير، فليرني أحدكم ماذا سيفعل.**».. اقتربت منه مهرة بخطواتٍ مترددةٍ وقد أوكلت لكريمة مهمة تهدئة أميرةٍ والسيطرة عليها كي لا تهاجم فؤاد ثانيةً وقالت بصوت حاولت أن يكون هادئاً، وهي تجاهد لتخفي اختلاجةَ البكاء فيه: «**ما الأمر يا فؤاد؟ لم لا تهدأ ودعنا ننزل للأسفل قليلاً لنحتسي كوب شاي وننتظر ريثما يعود نادرٌ.**».. التفت إليها قائلاً بلا ترددٍ: «**أيمكن ألا تتدخلي أنتِ من فضلك..**».. صاحت به كريمة حينها أمام صدمة مهرة وماجد ومي لرده غير المتوقع: «**فؤاد!! ما بك؟! أنسيت أنك تكلم زوجة شقيقك الكبير؟!!! ماذا قالت المسكينة لترد عليها هكذا؟**».. تنحنحت مهرة لتجلي صوتها وقالت موجهة كلامها لكريمةٍ وهي تشير لماجدٍ ألا يتكلم حين لاحظت غضبه ومحاولته التدخل: «**لا بأس يا كريمة.. أنا مقدرة عصبيته وبأنه لم يقصد أن يضايقني.**».. ولكن لذهولها قال بقوةٍ: «**بلى قصدت.. أنتِ الأخرى تنكدين على زوجك و تحيلين حياته جحيماً...**». وأشار لأميرةٍ التي كان وجهها في هذه اللحظة يضاهي حبة الفراولة احمراراً، والعرق والدموع يغرقان وجهها كأنها محمومةٌ، متابعاً: «**أنتِ وهي صنفٌ واحدٌ.. لا تنصحي ولا تتدخلي، فيكفي أن أخي يكاد يشعل أصابعه العشر شمعٍ لكِ، ورغم ذلك، لا حمدٌ ولا شكر..**».. لكزته كريمةٌ في كتفه قائلةً بحدةٍ: «**وهل سيعجب نادراً ما تقول الآن؟!! أتظن بأنك هكذا تتحدث لصالحه؟!!.**»، تابع صائحاً: «**اسأليها إذاً أين زوجها الآن؟ الرجل لم يعد يرتح حتى في بيته!!! منكنَّ لله!!.**».. قالت كريمة وهي تكز على أسنانها: «**والله لو علم بما قلتَ وفعلتَ فلن يدعَ الأمرُ يمرَّ مرور الكرام ككل مرة.**». صاح في وجهها: «**فليفعل ما يفعل، وليريني كبيركم أقصى ما يستطيع.**».. قالت أميرةٌ بقوة: «**ومن تظن نفسك؟ ها؟ أتخال بأني سأسمح لك بإهانتي وقهري كما كانت تلكَ تفعل؟!!**

لا، اصح يا هذا.. أصابعك ليست كبعضها، ورب العزة، أحيلُ حياتك جحيماً أنت وعائلتك!!»، وتابعت صارخة: «.. **يا قاتل يا عديم الأخلاق.. يا قتلة**».. اندفع سامرٌ نحوها هذه المرة ليسكتها، إلا أن قوةً كبيرةً دفعته نحو الدرج ليتدحرج نزولاً وهو يلمح فؤاد ينهال على وجه شقيقته بصفعاتٍ متتاليةٍ، والجميع يحاولون منعه دون جدوى، حتى تمكنت مهرة وكريمة أخيراً من تخليصها من بين يديه ودفعاها داخل غرفة مهرة وأغلقا الباب بقوةٍ بينما لا يزال كل من ماجدٍ ومي يحاولان تهدئة فؤادٍ ومنعه برفقٍ من محاولة كسر الباب وهو يدقه بقوة: «**لا تقحمي نفسك في هذا يا مهرة.. افتحي.**». وقف سامر بصعوبةٍ وقد شعر بآلام شديدةٍ في جنبه وكتفه إثر سقوطه، ولكنه تمالك نفسه وتحامل عليها صاعداً الدرج ببطءٍ وهو يسمع فؤاداً يصيح وقد بدا كمن فقد عقله تماماً: «**افتحي الباب يا مهرة و أخرجيها من عندك.. لا تتدخلي في مثل هذه الأمور.. افتحي يا كريمة..**».. حين لم يتلق جواباً وقف يحدق في وجهي ميٍّ وماجدٍ وهو يهز رأسه والغضب لم يبارح مقلتيه.. تقدم سامرٌ وهو يفرك جبينه بأصابعه فخفَّ إليه ماجدٌ ومن ورائه مي التي قالت بقلقٍ بالغ: «**هل ارتطم رأسك؟ ربما يجب أن ننقلك إلى المشفى لنطمئن عليك.**».. اندفع فؤادٌ هابطاً الدرج قبل أن يجيب سامرٌ، ولسبب غير واضح انتظر ثلاثتهم حتى سمعوا صون محرك سيارته يهدر مبتعداً قبل أن يتابعوا كلامهم، فقال ماجدٌ بخفوتٍ: « **م.. ماذا؟!! أنا لا أصدق ما رأيت!!!**».

قال سامرٌ بهدوءٍ وهو يجلس على الأرض ماداً ساقيه ومي تتفحص جرحاً دقيقاً في جانب حاجبه: «**أنتِ لم تَـرَيْ شيئاً.. هذه هي حقيقة هذه الأسرة الكريمة، و زوج شقيقتك لا يختلف عن أخيه كثيراً، وإنما فقط هو أقل ضجيجاً وأكثر إيذاءاً.**».. وقفت مي بعصبيةٍ وقالت لماجدٍ وهي تمسك بمرفقه بقلقٍ: «**لابد أن نرحل من هنا! لا يمكن أن تعيش مهرة تجربةً كهذه يا ماجد!! ماذا إن .. إن.. فعلوا بها مثلما فعلوا بشهيرةٍ؟!.**». سألها ماجدٌ فوراً: «**ماذا فعلوا بشهيرة؟ ومن (هم) الذين فعلوا؟!**».. تراجعت وعقدت ذراعيها متسائلةً باستنكار: «**هل ترى ما حدث طبيعياً؟!!**».. ردَّ وقد بدا شارداً: «**أرى أن فؤاداً ليس طبيعياً.. ولكني لم أرَ أحداً هنا يوافِقه على**

تصرفاته كذلك! فلم تُقحمين زواج مهرة في ما يحدث لأميرة؟.». صاحت: «**توقف عن التظاهر بالعقلانية والموضوعية، فحياة أختِنا هنا على المحك.**». رد فوراً: «**توقفي أنتِ عن التحدث عن الزواج وكأنه لقاء غرباء في محطة!!! لا أحتاج إليكِ لتنبهيني لمصلحة مهرة، ولن أسمح لمخلوقٍ مهما بلغت سلطته بإيذائها ولو كلفني هذا حياتي، فلست نذلاً مخنثاً..**». قطع كلامه عندما رفع سامرٌ نظراته الساحرة إليه فابتلع ريقه وقال بخفوتٍ: «**أنا آسفٌ يا سامر، لم أقصد شيئاً مما..**»، ولكن سامر أشار بيده بلا مبالاةٍ مقاطعاً إياه بسخريةٍ: «**لا عليك، فأنا لا آخذ كلام الصغار على محمل الجد بأي حال.. اذهبا إلى غرفكما.. هيا.**».. قالت مي من وراء ظهرها وهي تبتعد: «**سأتفقد شهداً ثم آوي إلى الفراش.**».. راقبها ماجدٌ حتى دخلت غرفةَ الصغيرة، ثم التفت ليسأل سامرٍ بأدبٍ: «**أتود أن أصحبك لغرفتك؟**». هز سامرٌ رأسه نفياً، فتركه ماجدٌ حيث هو دون أن يضيف كلمةً أخرى...

بقي سامرٌ على الأرض يعيد ويكرر ما حدث في رأسه، ولسبب ما لم يكن يشعر بالغضب أو الخوف كما هو متوقعٌ، ولكنه على النقيض، شعر بهدوءٍ عجيبٍ، وفي رأسه بدأت ترتسم الخطوط الأولية لخطةٍ بديلةٍ جديدةٍ، ربما قلبت موازين الأمور تماماً ووضعت كل الخيوط في يده هو.. خطةٌ ستدفع كلاً من فؤادٍ ونادرٍ للركوع له فقط ليبقي على حياتيهما كما عرفاها دون أن يدمرها....

وقف بصعوبة واقترب ليلصق أذنه بباب غرفةِ نادرٍ محاولاً استكشاف حال أخته الآن، وحين لم يستبين شيئاً، طرق الباب برفقٍ موضحاً: «**هذا أنا يا مهرة، لا تقلقي فقد غادر فؤادٌ مذ فترة.**»... انتظر دقائق قبل أن يُفتح الباب وتظهر كريمة على عتبته وقد عاد اللون إلى وجهها قليلاً وهي تقول بطيبةٍ: «**هل أنت بخير؟.**». أومأ إيجاباً، فمدت يدها تربت على كتفه دون أن تعلق ونظرت خلفها حيث تجلس كل من أميرةٍ ومهرة، وعادت لتقول وهي تهز رأسها بأسفٍ: «**الأمور أهدأ هنا، لا تقلق.. أتود أن أحضر لك شيئاً لتشربه قبل أن تنام.**». هز رأسه نفياً: «**لا، سأنام.. تصبحين على خير.**».. استدار ليغادر وهمت كريمةٌ بإغلاق الباب ولكنه عاد ليسألها بدهشةٍ: «**أين آدم.؟!!**».. ردت وعيناها

تتهربان من عينيه ما جعله يرفع أحد حاجبيه وهو يسمعها تقول بخفوتٍ: «**في مشوارٍ طارئ.. يزور قريباً مريضاً في قريتنا وسيعود صباحاً إن شاء الله..**»... استدار وغادر دون تعليقٍ فأغلقت الباب وراءه وتنهدت بقوةٍ... سارت، في الضوء الخافت للمصباح الصغير المجاور للفراش في الجهة الأخرى من الغرفة والذي ينير الغرفة على استحياء، نحو أميرة التي جلست على طرف الأريكة المخملية النحاسية اللون تلتقط أنفاسها بصعوبةٍ وسط شهقاتها المتتابعة وبجوارها مهرة تمسح الدموعَ عن خديها برفقٍ وتربت على ظهرها مهدئةً دون أن تعير ما تقوله أميرة اهتماماً، فالأخيرة لم تتوقف مذ دخلن الغرفة عن السب واللعن والوعيد... جلست كريمة إلى جوارها واحتضنتها برفقٍ قائلةً بأمومةٍ صرفةٍ غلبتها في لحظة ضعفٍ أمام دموع الفتاة: «**هيا الآن يا أميرة، اهدئي يا حبيبتي.. صدقيني سيعتذر منكِ قبل الصباح وسيُقَبِّلُ رأسكِ ويديكِ أمام الجميع، سترين... أنا أعرف فؤاداً جيداً.. وأعرف أيضاً بأنه يحبك.**».. انتفضت أميرة تبعد ذراعي كريمة من حولها وهي تصيح بغضبٍ: «**يعتذر؟!! أهذا هو جزاؤه؟!! جل ما في الأمر أن يقول: أنا آسف؟!! بعد كل ما فعل بي وما أصابني.**».. أشارت لوجهها وشعرها الذي كان على ما يبدو مصففاً بعناية لمناسبةٍ ما أو سهرةٍ قبل أن ينتزعه فؤادٌ انتزاعاً.. حاولت كريمة أن تهدئها بأن تربت على يدها ولكن أميرةً دفعت يدها وهي تمسح دموعها بحنقٍ، فاكتفت بأن تقول برقةٍ: «**بالطبع ليس صحيحاً، ولا مسموحٌ بما فعله يا حبيبتي، ولكن إذا اعتذر منكِ واسترضاكِ، فما المطلوب أكثر؟ أليس اعتذاره معناه بأنه أدرك خطأه وندِم عليه؟**».. ابتسمت متابعةً: «**وإذا أردتِ الصراحة، أنا متأكدةٌ من أنه لا يمكن أن يثور لهذه الدرجةِ دون سببٍ قويٍّ جداً.. ما الذي حدث؟**». وقفت أميرة فوراً وقالت وهي تميل بجذعها الطويل نحو كريمة والحقد يقطر من كلماتها: «**بالطبع ستتخذين صفه، فهو تربيتك وربُّ نعمتك في نفس الوقت.. أنا المخطئة لأني سمحت لكِ بالتدخل في شئوني من الأساس..**»، واعتدلت متابعةً وقد استعادت سيطرتها التامة على أعصابها بطريقة أصابت مهرة بقشعريرة باردةٍ وهي تسمعها تقول بتسلطٍ لكريمة التي جمدتها الصدمة مكانها فحدقت بألمٍ في وجه أميرة الذي جعلته

الظلال والدموع يبدو مقيتاً: «**أين آدم؟**». ردت كريمة بصوتٍ مبحوح: «**يزور أحد أقاربنا في كفر الشيخ.. مرِض الرجل، فذهب ليطمئن عليه وسيعود غداً إن شاء الله.**». رفعت أميرة أحد حاجبيها وعقدت ساعديها حول صدرها في وقفةٍ متعاليةٍ متسائلةً ببرودٍ: «**هكذا؟ دون أن يستأذن أو يُعلم أحداً؟!! أليَ..**». قاطعتها مهرة دون ترددٍ: «**أنا أعلم، وقد استأذن نادراً.**».. هنا تحولت المعركة من بين كريمةٍ المسكينة وأميرة إلى تحدٍ بين الأخيرة ومهرة التي وقفت وهي تقاوم بشدةٍ رغبتها في عقد ساعديها لتشد من أزر نفسها، حتى لا تقلب الوضع من كونها تحاول تهدئة أميرة إلى مظهرٍ يثير لديها الرغبة في تمزيقها بكلماتها دون رحمةٍ.. ولكن أميرة ابتسمت بهدوءٍ وهي تسير نحو المرآةِ وظلها الطويل يسقط على وجهي المرأتين المترقبتين، ومهرة تتأمل قوامها النحيل الذي بدا أكثر طولاً في الضوء الخافت، وكانت كلما اقتربت من الفراش، امتد ظلها ليطول بشكل بدا غريباً مخيفاً و مضحكاً معاً.. كانت لحظةً غريبةً ذكرتها بذاك الثعبان الي يسكن أحلامها والجو المهيب الذي يلف وجوده..(هل أنت كابوسي يا أميرة؟!).. وقفت أميرة أمام المرآة ترتب شعرها بأصابع خبيرةٍ وهي تقول: «**إذا، مادام نادرٌ وزوجته على علم، فلا داعي لإزعاج نفسك بإخبار الآخرين.. لا بأس.. انصرفي الآن وفي الصباح لا توقظيني باكراً، واعلمي بأني سأنام في غرفتي القديمة.**»..

قبل أن تغلق كريمة باب الغرفة وراءها والدموع تملأ مآقيها، أمسكت مهرة، التي لحقت بها غير مباليةٍ بنظرة أميرة الساخرةِ، بالمقبض وقالت بخفوتٍ: «**هوّني عليكِ يا كريمة.**». هزت كريمة رأسها وعيناها لم تفارقا السجاد الكثيف قائلةً بحسرةٍ: «**لا بأس... لا بأس.**».. قالت مهرة وهي تدنو منها لتتأكد من ألا يسمعها أحدٌ غير كريمةٍ: «**أيمكن أن نتحدث قليلاً بعدما تعود أميرة لغرفتها؟ أحتاج لأن أتحدث إلى شخص أثق به وبنصيحته.**».. ابتسمت كريمة وعانقتها بقوة وهي تقول: «**اللهم اجبر بخاطركِ يا عزيزتي.**». وانصرفت فور ما تركتها مهرة التي ظلت ترقبها بقلبٍ ينفطر لمظهرها العجوز الحزين.. لعلّها أرادت بطلبها أن ترفع من معنوياتِ كريمةٍ، لكن هذا لا ينفي أبداً رغبتها الحقيقية الملحة في الحديث

والإفصاح عن مكنون نفسها لشخصٍ خارج دائرة الخبث والمجاملات..

أخذت نفساً عميقاً وعادت لضيفتها اللئيمة التي كانت قد انتهت من تعديل هندامها حتى خلا مظهرها من أي أثرٍ للبكاء والاعتداء، اللهم إلا من بضع رضوضٍ بدأت في الظهور على عظمة خدها وأسفل ذقنها.. بقيت أمام المرآة تتلاعب بأصابعها ذات طلاء الأظافر الخمري بعقد ماسيٍّ تركته مهرة هناك مذ ليلتين.. تنحنحت مهرة لتنبهها، وحين لم يُجدِ ذلك نفعاً قالت بصوتٍ خافتٍ مهذبٍ: «**أظنكِ بحاجةٍ لقسطٍ من النوم يا أميرة.. وأظن أن مُسكناً للصداع سيكون مفيداً إن أردتِ نصيحتي.**». تقدمت نحوها أميرة بثقةٍ وثباتٍ على غير عجلٍ أشعرا مهرة بأنها فأرٌ ثبته قطٌ بنظراته، وكرهت إحساس الضعف الذي حل بساقيها..(أنا في غرفتي، بإمكاني طردها من هنا.. لا، بل أنا زوجة نادرٍ، وبإمكاني طردها من الفيلا بأسرها).. أخذت تردد لنفسها تلك الكلمات علها تستمد منها القوة لمواجهة ما سترميه أميرةٌ بوجهها.. صارت الآن في مواجهتها، فأمسكت الأخيرة بمعصم مهرةٍ وأجلستها وجلست بدورها برفقٍ وهي تقول دون مقدماتٍ: «**أتعلمين أن فؤاداً كان يضرب شهيرةً كل يومٍ، وأنها حينما كانت تغضب وتذهب لمنزل أبويها، كان يسترضيها ويعيدها ، لا لشيءٍ إلا ليعاقبها في ذاتِ الليلة على ما أحدثته من فضيحةٍ، حتى أنه في إحدى المرات التي استدعت فيها والدها إلى هنا، اعتدى فؤادٌ عليه ضرباً وسباً دون رادع، ولما تدخل نادرٌ ليمنعه كاد يلقيه أرضاً... يومها غادرت شهيرة الفيلا، وظننا جميعاً بأنها إلى غير رجعةٍ، وبالفعل رفعت ضده دعوى قضائيةً وكاد أن يسجن إثرها، لولا أن تفاجأنا ذات صباحٍ بشهيرةٍ تخرج من غرفة فؤادٍ وقد قضت ليلتها عنده، وفي ذات الصباح تنازلت عن الدعوى وتصالحت معه... الجميل، أنها فعلت كل هذا دون علم أو موافقة والدها.. كانت تحبه، وتتحايل على نفسها بأنه سيتغير يوماً ما، خاصة بعدما قاطعها والداها بسبب ما فعلت.. ولكن ذيل الكلب سيظل ملتوٍ، وصارت خلافاتهما أعنف، وفؤادٌ صار أكثر وحشيةٍ وعصبيةٍ معها... وفي إحدى الليالي ، بعدما عادا من إحدى سهراتهما، ثار بينهما شجارٌ أيقظ الجميع كالعادة، والمشهد الذي لن ينساه أحدٌ هو منظر فؤادٍ وهو يجرها من شعرها نازلاً بها الدرج وهو يصيح: أنا أيضا لم أعد**

أحتمل، ولكني لن أدعك ترحلين هذه المرة، لن تتركي هذا البيت إلا على قبرك.. تريدين أن تتركيني أنا!! لا، إما أن تعيشي زوجتي أو نموت معاً... وكما رأيت، لا يستطيع أحد إيقاف فؤاد في مثل هذه النوبات، فانطلق و هي معه بسيارته على أقصى سرعته وكانت النتيجة كما تعلمين...». كانت معجزة أن نجحت مهرة في إخفاء ذعرها والسيطرة على الغثيان الذي تصاعد حتى حلقها لتقول بهدوءٍ: «**ولكنك تزوجته على الرغم من كل هذا!! لمِ؟!**».. حدقت أميرة بمقلتي غريمتها لثوانٍ قبل أن تشيح ببصرها بعيداً لتستقر عيناها على الفراش الواسع غير المرتب.. طرفت وهي تتذكر عدد المرات التي كانت تتخيل نفسها فيها هنا مع نادرٍ، وابتسمت وهي تستعيد لحظاتٍ لم تحدث إلا في ظلمات خيالها الحالم.. تمكن عقلها الباطن من تلوين الواقع وتزييفه، فحول كل لحظة قضتها مع فؤادٍ إلى ذكرى سعيدة بين أحضان شقيقه تستدفئ بحميمية أنفاسه الحارة!!.. نعم، لم تفارق نادراً منذ تزوجت لحظة، ولم تنم إلا معه هو كل ليلةٍ، تتنفس عطره وتتخيل همساته... همساته التي تنصب في أذن تلك العشوائية التي امتدت كالطاعون في هذا البيت، فاخترقت أسوار نادرٍ كالهواء دون عناءٍ وانتشرت بملامحها السمراء في أرضها هي ، تزرعها بما تحب وتحصدها وقتما تحب!!

تنهدت وعادت تقول بنفس النبرة الهادئةِ وهي تتطلع إلى عيني مهرةٍ: «**تظنين أن الظروف الواحدة تفرز نفس الشخصيات، أو على الأقل نفس العقد النفسية.. ولكن شتان ما بين نادرٍ وفؤاد.. أنت لن تتخيلي أبداً مهما وصفت لك كم العنف والقسوة التي كان عليها والدهما!! كان يضربهما كالعبيد، وبخاصة فؤاد، وكان يمقته بشكل خاص، ما دعا نادراً في كثير من المواقف أن يدعي بأن الخطأ خطؤه هو حتى يتلقى العقاب بدلاً من أخيه الصغير... يظن المرء بأن الإنسان يحاول أن يتجنب ما آلمه وألا يقع فريسة تكرار أخطاء الآخرين ممن آذوه حتى لا يؤذي من يحب، ولكن يبدو بأن كل هذه مجرد نظرياتٍ و فلسفاتٍ يملئون بها الكتب والروايات لا أكثر، ففؤادٌ نسخة طبق الأصل من والده، وإن كان كليهما، نادرٌ وفؤاد، قاسيين، إلا أن نادراً أكثر قدرة وحنكة في السيطرة على انفعالاته وردود أفعاله... ولا يعني هذا إطلاقا بأنه يدع من ضايقه وشأنه، إلا أن له أساليباً اخرى، أهدأ..... وأشد**

تأثيرا وإيلاما».. لَمَ تدرِ مهرة لِمَ شعرت بسكين الغيرة ينغرز عميقاً في قلبها وهي تشاهد ذلك البريق الذي تلألأ في عيني أميرة وهي تتحدث عن زوجها هي!! قالت باستنكارٍ: «**ولكن فؤاداً ما رأى والده يضرب أمه أبداً؟! أليس كذلك؟.**».. ردت أميرة فوراً وهي تقف وتسير مجدداً نحو طاولة الزينة: «**نعم، ولكن العرق دساس، كما يقولون.**».. رفعت العقد الماسي بإصبعيها وقالت: «**هديةٌ جميلةٌ. لدي توأمه.. أهداني إياه نادرٌ في عيد ميلادي الماضي.. أظنه أوكل إلى سكرتيرته شراء هديةٍ لكِ، فلو كان هو الفاعل لانتبه للشبه.. أليس كذلك؟.**». لا تدري مهرة من أين حل عليها كل ذلك البرود وتعجبت وهي تسمع نفسها تقول بسخريةٍ: «**أو أنه أوكلها بشراء هديتك أنت ولم يكلف نفسه عناء التحقق من الهدية قبل تقديمها لك.. لذا لم ينتبه للشبه حين اشتراها لي**».. جفلت حين ضحكت أميرة بقوةٍ ضحكةً حادةً عاليةً، وقالت وهي تعتصر العقد بيدها: «**نعم، صحيح.. افتراض منطقي..**».. ضحكت مجدداً ثم قالت وهي تضع العقد في كف مهرة برفقٍ: «**الجانب المشرق في الأمر أن كلا الشقيقين يغدق بالهدايا على زوجته.. وأخيراً وجدنا وجه شبهٍ بينهما..**».. سارت مهرة خلفها صوب الباب وقالت وهي تفتحه: «**بل أخيراً وجدت أنتِ شيئاً واحداً جيداً بهما..**».. استدارت أميرة واقتربت من أذن مهرة التي تراجعت خطوةً إلى الوراء من المفاجأة، ولكن أميرة أمسكت بمرفقها وقربتها قائلةً بسخريةٍ وهي تداعب قماش روب نادرٍ الحريري الذي ترتديه مهرة: «**بالطبع هو أمرٌ جيدٌ، فهما يغدقان مما يملكان بوفرةٍ، ليعوضا عما يفتقدان بقوةٍ..**» وأشارت بعينها إلى الفراش مكملةً بابتسامةٍ لئيمةٍ: «**أظن أن الأسد يواجه مصاعباً في عرينه هو الآخر.. لا تقلقي من تأخر الحمل، فالعيب ليس منك، ولعلك تعلمين بأن شهداً نتاجٌ للتلقيح الاصطناعي**».. ودون أن تنتظر رداً انصرفت وسط موجة عطر أثارت رغبة مهرة في التقيؤ من جديد... أغلقت الباب ببطءٍ (ما هذه المخلوقة؟!!!)...

نظرت من خلال الزجاج إلى خيوط الفجر الحَيِيَّة وهي تنبعث ببطء من جوف الظلام..(لم يعد هذا وقت النوم، ونادرٌ غالباً لن يعود اليوم.. سأنزل لأتحدث إلى كريمة وأضع حداً لهذا الطوفان من الأسرار والأكاذيب الذي يطبق على أنفاسي.. سأنجو بإخوتي قبل أن تصيبنا لعنة هذا المكان.)...

١١

كما توقعت مهرة، لم يعد نادرٌ حتى اللحظة.. غيرت ثيابها وهبطت الدرج وسط أجواءٍ من السكون العجيب وقد ألقى الزجاج الملون خيوطاً من الألوان الهادئة التي نفذت مع ضوء الصباح الوليد برفقٍ، بعد ليلة هائجة مخيفة ، ما جعلها تشعر برهبة غريبةٍ تدب في صدرها..

حين وصلت إلى المطبخ، وجدت كريمةً جالسةً إلى الطاولة المستديرة، فاقتربت بهدوء وجلست برفقٍ تحت أنظار العجوز المبتسمة بحنانٍ.. تعجبت كيف يمكن للحظات أن تصنع العجائب على وجه إنسان ما ليبدو السن بادياً جلياً على محيا كريمة، وكأن الأعوام التي حاربتها بالمزاح والثرثرة نجحت أخيراً في اختراق دفاعات روحها وزحفت بشراسةٍ لتشق طريقها في وجهها شقوقاً عميقة، وتزرع الألم في عينيها بلا رحمة.. ربتت مهرة على يد كريمة قائلة بصدق: «**لا تأبهي لما قالت أميرة، أرجوك ألا تضايقي نفسك أو تعيري كلامها أي اهتمام، فأنت تعرفين جيداً مكانتك أنت وآدم لدى جميع من بالبيت، حتى هي، تحبكما وتعتمد عليكما، و كنها... أنت أدرى بها مني.. أليس كذلك؟**». وقفت كريمةٌ قائلةً بانكسارٍ وهي تعد فنجاناً من الشاي لمهرة: «**يضيع عمر المرء في معايشة أحلامٍ وأوهامٍ يري بأنه ربما استحقها أو حققها ليجد في نهاية عمره بأنه أفنى حياته مع أناسٍ لا يرونَ فيه أكثر من شخصٍ لا قيمة له إلا لإعداد الفطور وتوضيب الأسرة.. حسرة**

على السنين والأعصاب التي احترقت قلقاً عليهم وسهراً على راحتهم وكأنهم من لحمه ودمه.. والله إن قلبي موجوعٌ يا ابنتي، ليس فقط مما قالت أميرة، ولكن كذلك من كل ما يحدث أمام عيناي لهذا البيت، دون أن أستطيع أن أفتح فمي ولو حتى بالنصيحة!.».. جلست وهي تضع الفنجان أمام مهرة ونظرت إلى الأخيرة من خلال البخار المتصاعد منه متابعةً: «**مثلا، قبل الفجر، هرع نادُر مغادراً الفيلا ومزاجه وحالته النفسية دفعت آدم ليصحبه حتى لا يدعه وحده.. ولم يعودا حتى الآن!! ولكن، أأستطيع أن أسأل أو حتى ألمح إلى تساؤلي عما يحدث بينكما؟! بالطبع لا.. ومن أنا لأتدخل في شئون أولياء نعمتي؟!**». كانت عيناها دامعتان وأنفاسها مثقلة بحزن حقيقي، على الرغم من المبالغة الميلودرامية في تعبيرها من وجهة نظر مهرة، فلم يحدث أبداً أن عوملت من هذا المنطلق ولا يعقل أن تجرحها أميرة لهذه الدرجة وهي تعرف طباعها جيداً! وعلى الرغم من أنها لاحظت كيف أن كريمة حشرتها في زاويةٍ ضيقةٍ الآن لتخبرها بما دار بينها وبين نادرٍ، إلا أنها لم تمانع إطلاقاً، بل على العكس، لقد ناسبها هذا كثيراً، إذ لهذا السبب تحديداً، تجلس هنا الآن.. فحاجتها لأمٍّ في هذه اللحظة لا تقل عن احتياج كريمة لابنة، لذا قالت فوراً : «**أستحلفك بالله يا كريمة ألا تتحدثي بمثل هذا الكلام، فأنا ونادرٌ نحبك كثيراً، وشخصياً أعتبرك كأمي التي حرمت منها وربما أكثر.. فقط.. إن.. أنا أقصد..**».. تلعثمت وأخذت تعقد أصابعها ببعضها كالطفلة الصغيرة وقد حارت من أين تبدأ في الإفصاح عما يدمر نفسيتها ويحرق أعصابها، ولاحظت كريمة ترددها فانتقلت إلى الكرسي المجاور لها وربتت بيدها برقةٍ على كتفها مهدئةً وهي تقول بصوتٍ هادئٍ مطمئنٍ: «**أخبريني يا ابنتي بما يضايقك ولا تقلقي بشأن ثرثرتي، فلا يغرنك كلامي الكثير، إن هناك من الأمور التي دفنتها هنا مع السنين مالا يتصوره عقلك الشاب.**»، كانت تشير إلى قلبها وابتسامةٌ رقيقةٌ تعلو وجهها العجوز متابعةً: «**ولا يعلمها إلا الله وآدم.. فلا تقلقي وجربيني يا حبيبتي، وأعدك بأنك لن تندمي أبداً على إخباري، مهما كان ما ستقولينه.. ها؟ ما الأمر؟ ماذا يمكن أن يكون ذاك الشيء الثقيل الذي يجعلكما دائماً تعيسين هكذا؟!**». ويبدو أن الدهشة التي أصابت مهرة، لانفضاح حالها مع نادرٍ بسهولة أمام كريمة على

الرغم من حرصها التظاهر بأنها على أفضل ما يكون، قد بدت على ملامحها السمراء، ففسرت كريمة: «**أنا أحفظ نادراً ككف يدي يا حبيبتي، وأعرف من نظرة عينيه، لا، بل من طريقة وقوفه ولو كان مولياً إياي ظهره، إن كان هناك ما يقلقه أو يضايقه.**»، وفردت كفها على صدرها متابعة باعتزاز: «**أنا من ربيته.**».

فباغتتها مهرةٌ: «**و هل يستطيع نادرٌ أن يؤذي أحداً؟ أعني.. أعلم بقدرته على ذلك، ولكن أتسمح له شخصيته بالأذى وإن كان صاحب حقٍّ فيما يفعل؟!**».. تراجعت كريمة في مقعدها دهشةً قبل أن ترد ببطءٍ وهي تمعن النظر في عيني الشابة وقد ارتقبت كلاماً ربما سيطير النوم من عينيها لأيام: «**لم يحدث أن فعل نادرٌ شيئاً كهذا من قبل يا ابنتي.. أبداً، لم يؤذِ مخلوقاً..!**». تنهدت مهرة وقالت بيأسٍ تحاول أن تطمئن نفسها: «**ليس هذا قصدي يا كريمة.. ليس هذا ما أسأل عنه.**».. سحبت العجوز نفساً عميقاً وقالت بودٍّ بالغ: «**لم لا تخبريني بكل ما لديك يا حبيبتي؟ فلعل أمراً التبس عليك، أو تصرفاً ما بدر من زوجك ربما أسأتِ أنتِ فهمه وأستطيع توضيحه لك، فلكل شيءٍ خلفية كما تعلمين، وحداثة زواجكما وسرعته لم تمنحكما فرصة التعرف على خلفيات بعضكما لتتفاهما كما يجب.. وكذلك زواج فؤادٍ الذي شغلكما عن بعضكما لفترةٍ طويلةٍ**». حدقت بها مهرة للحظاتٍ وبدت شاردةً وكأنها تراجع نفسها للمرة الأخيرة، قبل أن تحسم أمرها وتقول بسرعة كي لا تدع لنفسها فرصةً للتراجع: «**ليس الأمر بالبساطة التي تظنينها، وليس قلقي ناجمٌ عن قلة خبرةٍ أو جهلٍ، بل على العكس تماماً، إنه ناتج عن معرفة.. ربما معرفة أكثر من اللازم... وقد نندم سوياً بعدما أخبرك بما لدي، ولكني سأفعل على أية حال، فقد تعبت.**». أرجعت كريمة بأصابع نحيلةٍ ثابتةٍ خصلة شعرٍ من أمام وجه مهرة إلى خلف أذنها قائلةً بحنوٍ: «**أحسنتِ، دعي القلق وقرار ما إذا كنت سأندم أم لا لي..**».. ابتلعت الشابة ريقها وهزت رأسها إيجاباً وهي تقول بصوتٍ خافتٍ: «**للأمر علاقةٌ بلندن وسفره المنتظم إليها..**». ثم انتبهت لفكرةٍ لم تخطر ببالها من قبل فقالت فوراً وعينيها تبحثان بلهفةٍ وتساؤلٍ في عيني كريمة: «**أنت تعرفين لم يسافر إلى هناك؟!! أنت تعرفين، أليس كذلك؟.. تعلمين بأن موضوع الشركة السياحية هذا مجرد غطاءٍ!! أليس كذلك.**». ردت كريمة والدهشة والصدمة

تتسابقان لتحتلَّا وجهها وقد زحفت يدها لا إرادياً لتضرب صدرها برفقٍ: «**قلبي كان يحدثني بالأمر والله.. كنت أشعر به في قرارة نفسي، ولكن زواجه بك جعلني أستبعد الفكرة، وبخاصة أنه قد توقف مؤخراً عن السفر..**».. نظرت حولها بلا هدفٍ وهي تتابع تحت نظرات مهرة المذهولة: «**تتزوج بالسر يا نادر؟! لِمَ؟! فلا أنتَ صغيرٌ لتخضع لرقابة أحدٍ، ولا قليل الشأن لتخاف من رد فعل أحدٍ؟!! تتزوج دون أن تخبرني أنا وآدم؟!!!!!..**».. ثم التفتت لمهرة متابعةً: «**انتظري حتى يعلم آدم وفؤاد.. ستكون صدمةَ العمر لهما.**». غطت مهرة وجهها بكفيها وأخذت تهز رأسها نفياً قبل أن تنفجر من فمها ضحكةٌ هستيريةٌ عاليةٌ اختلطت بالدموع التي انسابت على خديها... وقبل أن تفتح إحداهما فاها سمعتا صوت باب الفيلا الزجاجي الضخم يغلق وبدا أن من أغلقه حاول أن يفعل ذلك برفقٍ، ورغم ذلك فقد انتفضت مهرة بقوةٍ وأمسكت بكُمِّ كريمة كالأطفال وعينيها تبرقان بقلقٍ مبالغٍ فيه قائلةً: «**أنا لم أقل لك شيئاً، لا تدعيني معه الآن وحدنا يا كريمة، ابقي هنا ولا تذهبي إلى أي مكان.**».. ابتسمت كريمة لتهدئها وهي تشعر بأن الفتاة على وشك انهيار عصبيٍّ لسبب غير موجودٍ بالواقع، فمهما قالت أو فعلت، فإن نادراً لن يمس شعرةً واحدةً من رأسها وقد شغفته حباً.. فلو عرفت نادراً كما عرفته كريمة، لأيقنت بأن كل نظرةٍ يرسلها إليها، لهي بمثابةِ رسالة حبٍّ من عاشقٍ متيم.. نعم، لم ترَ كريمة من قبل في عيني صغيرها تلك النظرةَ أبداً، وهو ما يجعلها تجلس الآن براحةٍ ويقينٍ راسخ بأنه مهما كان الأمر، فهو هيِّنٌ ومحلولٌ بإذن الله.. تعلقت عيونهما بالباب ترتقبان الوافد، وكريمة تمسد يد مهرة الباردة بصمتٍ، وإذا بآدم يبدو على عتبة البابِ وقد بدا الإعياء، من طول السهر على غير ما اعتاد، على ملامحه السمراء، فقالت كريمةٌ دون أن تبارح مكانها وذات الابتسامة لم تبارح محياها: «**آدم! قلقت عليك.. أين نادر؟**».. نظرتا خلف آدم علهما تلمحان نادراً، ولكن آدم قال وهو يتقدم نحو الباب الآخر للمطبخ في الجهة المقابلة والمؤدي للمر المفضي إلى منزلهما الملحق بالفيلا: «**أوصلني وعاد إلى الشركة.**». ثم نظر إلى مهرة التي كانت تتفحصه ببعض التعجب، إذ لم تكن معتادةً أن ترى آدم في ثيابٍ غير قميصٍ أبيض وسروالٍ

أسود يضيف إليهما سترةً سوداء في أيام البرد، فبدا غريباً لها، أكثر سمرةً و نحولاً، كما بدا أقصر قليلاً، في قميصه الأصفر قصير الأكمام وسرواله البني القاتم.. قال بأدبه المعتاد وابتسامةٌ محسوبةٌ تشد شفتيه: «**صباح الخير يا سيدة مهرة.**».

لاحظت رسميته في مناداتها فابتلعت ريقها وردت بخفوتٍ وقد استعادت الكثير من رباطة جأشها، وشعرت بالغضب الآن يعلو في صدرها كالحمم على نادر، فلابد وأنه قد تحدث عنها مع آدم بما قد يوغر صدر الأخير عليها وهي امرأته والغريبة عنهم!!.. استحسنت شعور الغضب هذا إذ سيدفعها دفعاً للقيام بما اعتزمت، دون الشعور بالذنب الذي يحاول أن يكتم صوت الحقيقة بداخلها، وستترك بعدها هذا المكان إلى غير رجعةٍ، فاستوقفت آدم قائلةً: «**أيمكنك أن تجلس قليلاً يا آدم، فما سأخبر به كريمة، أريدك أن تعرفه أنت الآخر.**». نظر إلى زوجته مستفسراً ولكنها للمرة الأولى في حياتها لم تنطق بكلمةٍ واحدةٍ رداً على تساؤله الصامت وإنما اكتفت بهز كتفيها بلا معنىً، فتقدم من مهرة وقال بصدقٍ: «**أستطيع أن أجلس يا ابنتي وأن أستمع إليك طيلة النهار والليل إن استلزم الأمر ذلك، ولكني أطلب إليك أن تتريثي قبل أن تتفوهي بأي أمرٍ قد تندمين على البوح به لاحقاً، ففي ساعات الضيق والغضب، يسوِّل عقل الإنسان له أموراً، يندم على أغلبها حين تنتهي المحنة.. فإن وجدتِ نفسكِ بعد يومين لازلتِ تريدين إخبارنا بما تودين، فافعلي حينها بلا ترددٍ.. ولكن أمهلي نفسكِ وقتاً لتراجعي نفسك أولاً، وربما لو أخذتِ قسطاً كافياً من النوم ستجدين بأنك أفضل حالاً من الآن.. وأنا تحت أمرك في كل الأحوال.**». صمت ليدعها تدير كلامه في رأسها للحظاتٍ ثم سأل بأدبٍ: «**هل أجلس أم أكمل طريقي لغرفتي يا ابنتي؟**».. التوى فمها بسخريةٍ وهي ترد: «**خرجتَ معه حين رأيته ينصرف غاضباً، أليس كذلك؟ أخبرتني كريمة.. وبالطبع تحدث إليك عما يضايقه، والآن لا تطيق أن تستمع إلي..**». قال برفقٍ بعد أن رمى كريمةً بنظرةٍ ناريةٍ: «**كنت معه كي أطمئن عليه وأتأكد بألا يصاب بنكسةٍ صحيةٍ.. ولم نتكلم بأي شأنٍ خاص.. صدقيني يا ابنتي.**». ثم أكمل كلامه موجهاً تعليماته لكريمةٍ: «**سيعود على الغداء، لقد وعدني بذلك، سأخلد**

أنا للفراش حتى أستطيع مباشرة عملي حين أستيقظ.. وأنتِ يا كريمة، دعي السيدة ترتاح قليلاً حتى تكون في مزاج جيدٍ على الغداء.». أنهى حديثه بانحناءةٍ بسيطةٍ مهذبةٍ لمهرة، وولّى مغادراً بهدوءٍ.

قالت كريمة فور ما اختفى عن ناظريها: «**لا تأبهي له يا حبيبتي، فالرجال يختلفون عنا، يرتاحون كلما شعروا بأن لديهم أسراراً وغموضاً في حياتهم، أما نحن، فلا نرتاح إلا حين نفضفض بمكنون قلوبنا لمن يحبنا..**». ابتسامتها العريضة شجعت مهرة، فقالت دفعة واحدة: «**ليس للأمر علاقةٌ لا بشركة سياحةٍ ولا بزواجٍ آخر، وإنما بشخص مهم آخر يقيم هناك.. اسمعي جيداً لأن ما سأقوله سيصعبٌ عليك استيعابه في البداية..**». استحوذت الآن على كامل انتباه كريمة، وبدأت يداها تتعرقان وترتعشان، فوضعتهما تحت ساقيها وقالت دون أن يفارقها ترددها: «**أتذكرين متى كانت آخر مرة سافر فيها نادر إلى لندن؟**». زوت كريمة بين حاجبيها وهي تتذكر مجيبةً: «**نعم، أظن أن هذا كان مذ بضع شهورٍ.**». أومأت مهرة معلقةً: «**تحديدا قبل زواج فؤادٍ مباشرةً، ولعلك تتذكرين كذلك بأنه خلافاً لعادته فقد أطال البقاء هناك، ولم يعد إلا قبل الزفاف بأيام فقط، أليس كذلك؟**».. ردت كريمة بحيرةٍ: «**نعم.. فعلاً، ولقد تعجبنا أنا وآدم لذّلك كثيراً، وبخاصةٍ لأنه لم يتصل بنا كعادته ليطمئن على سير الأمور، بالذات في مثل ذاك الظرف الخاص والمميز!!**». قالت مهرة فوراً وكأنها تقطع على نفسها خط الرجوع عن قرارها بالبوح بما كان: «**حسن، هو لم يعد قبلها بأيام كما أوهمكم، ولكنه كان في مصر قبل الزفاف بأسبوعين، ولكنه آثر البقاء في فندقٍ على مواجهتكم وهو في تلك الحالة وقد بات غير قادرٍ على الادعاء بأن كل شيءٍ على ما يرام كعادته، وبخاصةٍ مع فؤادٍ.. فاتصل بي بعد منتصف الليل يوم وصوله، وطلب مني زيارته والتكتم على خبر وصوله تماماً، وهو ما فعلت لِما وجدته عليه من انهيارٍ تامٍ حين رأيته أول ليلة..**».. ابتلعت ريقها وأوضحت: «**حين اتصل بي تلك الليلةً، أفزعني ما استشعرت في صوته من ألمٍ وانهيارٍ، حتى أني لم أتعرف عليه في البداية، لكنني حين رأيته على عتبة باب حجرتهً، فاق ما كان عليه من حزن وأسى كل تصوراتي، فقد كان أشعثاً مجعد القميص وكأنه لم يبدله منذ يومين، وقد أطلق لحيته لأيامٍ وغرقت عيناه في هالاتٍ**

سوداء كمن لم ينم لبضعةِ أيام.. أول ما خطر ببالي وقتها هو أنه ربما أفلس أو تورط في كارثة أو فضيحة قروضٍ مما نسمع عنها في التلفاز لرجال الأعمال، ولكنه ببساطة أخبرني... بأن... هو انهار باكياً بشدةٍ وبطريقة غريبة لم أستوعبها حتى الآن.. كان.. يقول..». تقطع صوتها و شهقت، وقد عاودتها الذكرى ومظهر الانكسار الذي غشي زوجها وهو جالس على حافة الفراش يحدثها من بين دموعه قد داهمتها، فدمعت عيناها الآن وقد اعتصرت الشفقة قلبها فأغمضت عينيها بقوة لتدفع بالدموع خارج محجريها وتعود فتمسحها بظهر يدها كالأطفال.. كان التأثر بادٍ على وجه كريمة وقد انقبض قلبها وهي تتصور نادراً في تلك الحالة وقد ألجمها الفزع عن السؤال عن السبب فبقيت تنظر لمهرة وقد اتسعت عيناها ترقباً وخوفاً مما هو آت على لسان جليستها. قالت أخيراً: «**تحدثي يا ابنتي، فلم أعد أشعر بساقيَّ.**»..

نظرت مهرة في عيني كريمة مباشرة قائلة بخفوتٍ مرتقبة أثر كلامها على محيا رفيقتها: «**أخبرني بأن والده قد مات.**»..

همت كريمة بالتعليق والاستنكار يطل من عينيها ولكن مهرة رفعت يدها مشيرةً لها بأن تصبر حتى تتم كلامها متابعةً: «**أنت كالجميع، تظنين بأن أباه مات إثر نوبةٍ قلبيةٍ أصابته أثناء نومه بينما كان في وقتها يجهز لإطلاق شركة السياحة الجديدة في لندن، وبأنه دفن هناك وفقا لوصيته بأن يدفن حيث يموت، ولكن الحقيقة أنه لم يمت يومها، بل وقصة شركة السياحة تلك لا أساس لها من الصحة إلا على الورق فقط. هذا ما أخبرني به نادرٌ بنفسه.. أصل الموضوع أن والده كان قد أصيب بأعراضٍ صحيةٍ غريبةٍ، وصار عصبياً كثير التشوش والنسيان، حتى أنه في الاجتماع السنوي لمناقشة التقارير الخاصة بالحساب الختامي للمجموعة توقف وسط الكلام وتساءل عن المكان حيث هو، ومن يكون هؤلاء الناس، ويقول نادرٌ بأنه لم يتعرف عليه هو شخصياً للحظاتٍ قبل أن يعود لرشده... عموماً، تمت تشخيص حالته على أنها ألزهايمر.. ولأن والد نادرٍ أدرك بخبرته أن شيوع خبرٍ كهذا سيؤدي بلا شكٍ لانهيارِ المجموعة إذ سيستغله خصومه للتشكيك والتشهير بجميع صفقاته**

وقراراته التي اتخذها مؤخراً ومشاريعه الحديثة، وزعزعة ثقة شركائه في كل خطوةٍ كان قد رتب لها مستقبلاً لشركاتهم.. ولأن نادراً حينها كان لا يزال يافعاً غير معروفٍ للجميع سوى على أنه ابن صاحب الشركة، فقد فكر الرجل الكبير في الخطة التي نفذها نادرٌ بحذافيرها، فقد نقل والده ملكية ثروته بالكامل باسميّ ولديه وأشاع وسط الأوساط بأنه رتب لتقاعده وتسليم دفة الأمور لنادرٍ مع بقاءه لفترة في الخلفية كناصحٍ ومستشارٍ حتى إطلاق الشركة السياحية الجديدة بلندن كآخر عمل يشرف عليه إذ يصبح نادرٌ بعدها رسمياً وعملياً هو القائد والقادر على متابعة كل شيءٍ وكأنه موجود.. وهناك، حيث لا يتابع فؤادٌ عن كثبٍ مجرى الأعمال، أسكن نادرٌ والده فيلا في أحد ضواحي لندن، وعين له فريقاً طبياً متكاملاً واخصائيين محترفين لرعايته، على أن يتواصلوا معه ليطلعوه على تطورات حالة والده أولاً بأولٍ، كما حرص هو على زيارته شهرياً للاطمئنان عليه بنفسه.. ولأن علاقة فؤادٍ بوالده كانت مضطربةً جداً، ولصداقاته مع الصحافيين بطبيعة عمله، فقد أصر الوالد على عدم إخبار فؤادٍ عن مرضه أو خُطته. وقد تقبل الأخير ببساطةٍ كيف أن نادراً قام بكل إجراءات الجنازة المزعومة والدفن دون انتظار لحاقه به هناك.. وفي المرة الأخيرة التي سافر فيها نادرٌ إلى لندن، كان قد تلقى اتصالاً من أحد الأطباء يفيده بأن حالة والده النفسية والجسدية قد تدهورت جداً، وبأنه امتنع عن تناول الطعام والشراب تماماً، وطلبوا منه السفر إليهم فوراً. وكما توقعوا، توفي والده بعد سفره إليه بأيامٍ، ولأنه كان من المستحيل أن يخبر أحداً هنا بما حدث، ولا أن يسمح لنفسه بأن يبدو عليه أي أثرٍ لانهيارٍ أو حزنٍ، ولأن أجواء عرس فؤادٍ لا تتناسب مع إخباره في حينها عن هذا الأمر الخطير، وبخاصةٍ أن حالة فؤادٍ المعنوية المرتفعةَ كانت تقر عينيه، وقد انتظر طويلاً ليراه سعيداً ومقبلاً على الحياة كما كان في تلك الأيام.. ناهيكِ عن أن إخبار أياً كان بمثل هذه الحقيقة لن يجلب سوى الكوارث على مستوى أهل البيت أو على مستوى الأعمال إن تسرب بأي صورةٍ.. فتخيلي فضيحةً من هذا العيار الثقيل، وكيف ستتناولها وسائل الإعلام وكيف سيستغلها خصومه..»..

توقفت لتلتقط أنفاسها بعمقٍ وقد شعرت بأنها أزاحت حملاً ثقيلاً جثم على صدرها شهوراً، وببوحها به، أفسحت مجالاً واسعاً بصدرها للهواء الذي

هجره منذ سكنت هذا البيت المضطرب.. عادت تقول وقد خنقتها العبرات: «إنما ما أفكر به هو، هل حقا يستلزم إتمام الأعمال مثل هذه التمثيلية الخطيرة؟ أم أن كل هذا هو من ترتيب نادرٍ لإبعاد والده والاستيلاء على كل شيءٍ في القريب العاجل بدلاً من انتظار انتقاله إليهما لاحقاً بعدما يكونا قد كبرا في ظل الرجل؟ لم لا يكون قد زور أوراق انتقال الملكية إليهما كما زور بعدها شهادة وفاة والدهما؟ وما يخيفني هو قدرته على إخفاء حقيقة وجود والدهما عن أقرب الناس إليه.. أنتما.. وشقيقه، كل هذه السنين، ثم خبر وفاته الآن؟! من هذا الرجل؟ وماذا يمكن أن يفعل أكثر من ذلك؟ أعترف بأني صغيرةٌ.. أصغر وأضعف من مثل هذه الأمور.»، وأشارت إلى ما حولها على امتداد ذراعها مكملةً: «أصغر من هذا المكان، وهذه الدنيا.. وبعد ما رأيت اليوم، وما عرفت عن حادث شهيرة، والطريقة التي ماتت بها والدة نادرٍ.. أنا»، وتنهدت: «مَنْ هؤلاء الناس؟.. كنت أخشى فؤاداً وأهاب أميرة وأحذر من سامرٍ، وبعدما عرفت ما عرفت، صرت أرى نادراً بطريقةٍ مختلفةٍ..»، وشهقت عدة شهقات تحت نظرات كريمة التي لازالت تحاول أن تتعافى من أثر الصدمةِ، وهي تسمع مهرةً تكمل: «أعني، ما الذي يمكن أن يفعله رجل مثله بواحدةٍ مثلي إن.. إن.. تشاجرنا أو حتى تطلقنا؟!! كيف سينتهي بي الأمر أنا وإخوتي بعدما أخبرني بما كان؟!! هذه العائلة تخيفني، أبوهما، هما.. لا أدري مالي لم أعد أحتمل كما كنت!! أشعر برغبةٍ في الهرب من كل هذا البذخ إلى أمان معطفي الأخضر البالي.. نعم يا كريمة، والله لقد وفر لي الفقر نوعاً من الأمان افتقر إليه الثراء والعيشة الرغدة!! لا، لست الفتاة المناسبة لمثل هذا الرجل.. لا أريد أن أكون أنا تلك الفتاة، ولا أن أنخرط في مثل تلك الأمور وهذه الحياة.. لست خجلى من ضعفي وهواني، ولا يمكن أن أعيش مع رجلٍ أخشاه وأخاف تبعات غضبه على حياتي وحياة إخوتي، أكثر مما أحبه وأثق بحبه لي وبأنه سيحميني من ويلات ثوراته التي تأصلت في تاريخ عائلتهم بالدم.. لا، لا أستطيع أبداً أن أضيع مجهود عمري الذي أفنيته في رعاية إخوتي وحمايتهم مقابل مال الدنيا يا كريمة.. سأرحل وأخوي فوراً.. اليوم قبل الغد.. لن أسمح لنادرٍ ولا لأي مخلوقٍ كان مهما بلغت سلطته وقوته بأن يمس شعرةً واحدةً منهما..»..

كانت نبراتها تعلو وتهبط مع أنفاسها وسط شهقاتٍ متتالية قطعت حديثها بحدةٍ.. لم تعرف بعدما انتهت من كلامها ما كنه ذلك الشعور الذي ملأ صدرها، أو بالأحرى، انسحب منه، مخلفاً خواءً امتد كالبساط يفترش قلبها..! لم تعلم إن كانت دموعها المنهمرة هذه خوفاً مما فعلت، أم راحةً لما فعلت، أم لعلها كانت ندماً على ما فعلت؟!!! حاولت التملص من فكرة أنها ربما أوجدت لنفسها مبرراً كي تترك نادراً دون أن تشعر بأنها تخونه لأجل أي شيءٍ، أو شخصٍ آخر... شخص كطارق.. تعجبت كيف أنها في هذه اللحظة، حين قفز اسم طارق أمامها، شعرت برفضٍ شديدٍ واستنكارٍ بالغ.. ألم ينهر سد معنوياتها، بسبب دقه المستمر عليه بمعول الذكريات، بعدما كانت قد بطنته بصُلب عقلانيتها!! فلِمَ إذاً تشعر الأن بهذا النفور والقرف؟!! قاومت بشدةٍ صداعاً عنيفاً ألمَّ بمقدمة رأسها، وناضلت لتبتلع الغثيان المقيت الذي استحوذ عليها.. تساءلت أين اختفى إحساس الراحة اللحظي الذي ساورها بعدما أفضت بمكنون قلبها؟! هل طغى لديها الشعور بالذنب على الرغبة في الشعور بالحرية؟! صدق آدم حين أخبرها منذ قليل بأنها لن تجد راحتها في البوح دائماً، ستتعلم أن تستمع للنصيحة مستقبلاً، ولكن، لا فائدةَ من مراجعة النفس الآن، فقد حدث ما حدث.. استسلامٌ غريبٌ تمدد في أوصالها وجعلها تشعر بلينٍ في أطرافها وخفةٍ في جسدها، بينما ثقلت روحها وانكفأت على نفسها في ركنٍ مظلمٍ سحيقٍ...

خلال حديثها، فتحت كريمة فاها وأغلقته عدة مرات دون أن تخرج منه بنت شفةٍ.. بقيت جامدةً للحظاتٍ، وحين تحدثت، خرج صوتها مبحوحاً أجوفاً وكلماتها متثاقلةً بطيئةً في سابقة لم تشهد لها مهرة مثيلاً من قبل: «**أنا.. لا أدري ماذا يفترض .. أن أقول لك.. ما قلته!! أنا ظننت.. حين قلتِ لندن ونادر و... لا أدري، ولكني تصورت بأنه ربما.... ربما تزوج من أخرى هناك..! لم أتخيل أبداً.. ما تقولينه الآن يا مهرة.. والله يا ابنتي لا أدري ما القول فيمَ قصصتِ علي الآن!!!!!**».

هزت مهرة رأسها متفهمةً بابتسامةٍ خفيفةٍ مرتعشةٍ قائلةً: « **لقد صُدمتِ.. أعلم.. ولكن ما بيدي حيلة.. أرأيت كم هو أمرٌ عظيمٌ لإنسانةٍ أبسط من البساطة مثلي؟!! صدقيني لا أدري لم أخبرني نادرٌ بسرٍ كهذا!! بم كان يفكر وماذا يتوقع مني؟!! إنه..** »..

فجأة، برز آدم من خلف الباب المؤدي للملحق السكني خاصته هو وزوجته وتقدم بسرعةٍ أجفلت المرأتين، نحو الباب الواسع في الجهة المقابلة للباب حيث أتى، ليقف حائلاً بجسده بين مهرةٍ وشخصٍ ما، حدَّثه بصوتٍ هادئٍ جداً: «**أتحب أن أحضر لك قهوتك إلى المكتب يا سيد نادر؟**».

انسحبت الدماء بسرعة من رأس مهرة وتجمدت في عروقها باردةً تخزها كالإبر، وابتلت راحتيها بعرقٍ غزيرٍ في حين زاغت عيناها كمن سيغشى عليه... تنازعتها رغبتان متناقضتان تمزقت بينهما، أن تتجنب النظر لعيني زوجها حتى لا تعرف مقدار ما سمع من كلامها ومقدار حقده عليها وكرهه لها بعدما خانت ثقته، وأن تنظر بعمقٍ في عينيه لترى أثر كلامها على زوجها وتعرف أيضاً كم سمع مما قالت!!! (عجيبةٌ هي التركيبة النفسية للإنسان!!!! أم لعلي جننت كسائر أهل البيت؟!!!)

كرر آدم سؤاله بصوتٍ أعلى وأكثر ثباتاً وإن شابته لمسةُ رجاءٍ خفيةٍ لنادرٍ الذي لم يحرك ساكناً، محاولاً استرعاء انتباهه: «**سيد نادر.. أتريد قهوتك في المكتب كالعادة أم في غرفتك؟**».

تقدمت كريمة بدورها لتقف بجوار زوجها مشكلةً بجسديهما حاجزاً يحول بين الزوجين الشابين، وقد أسقط في يدها فلم تدر ما عليها قوله أو فعله كمن أُوقف متلبساً بالجرم المشهود.. وحين طرفت بعينيها نحو زوجها، وجدته شديد الشحوب وقد غارت عيناه وتشبثت نظراته بفرائصِ نادرٍ وكأنه يبحث في ثناياها عن الشاب الذي أمضى عمرَه في تنشئته وتهذيبه دون ادخار قطرةٍ عرق في زرع مبادئٍ وقيمٍ تمنى على الله أن يتجلى أثرها في هذه اللحظة...

«**سأصعد لغرفتي، وسترافقني مهرة.**» قالها نادرٌ بصوتٍ شديد الهدوء والجمود فلم يدع لأحدٍ مجالاً للرد أو الاعتراض.. هم بالتقدم نحو مهرة التي وقفت بسرعةٍ والتفت حول الطاولة لتجعلها حائلاً بينها وبينهم في حركةٍ دفاعيةٍ طفوليةٍ لا شعوريةٍ، فتوقف ثانيةً وإنما ليقول لها وقد ثبتها مكانها بنظرةٍ مخيفةٍ: «**لن نركض خلف بعضنا كالأطفال! هيا، دعينا نصعد لغرفتنا ونتحدث ، هيا.**»..

فتحت كريمة فاها لتعترض وقد امسكت بمرفق نادرٍ برفقٍ ولكن آدم أسكتها بلمسةٍ خفيفةٍ على كتفها قائلاً لنادرٍ بتوسلٍ واضحٍ الآن: «**يا بني..**»، وهنا هَدَرَ نادرٌ ونظره لا يزال مثبتاً على مهرة التي بدت كالهرة الصغيرة ترتعش في ليلة شتاءٍ باردةٍ: «**ما الأمر؟!! أأحتاج لموافقة الجميع لأتحدث معها؟!! هلمي، هيا... كفى فضائح..**».. ردت كريمة فوراً: «**بالطبع لا يا بني.. هيا يا مهرة، فزوجك يبدو متعباً.**»، نظرت إليها مهرةٌ بتوسلٍ، ولكنها غمزتها خلسةً مكملةً بهمسٍ وهي تسير وإياها نحو نادرٍ: «**لا تخافي، لا تخافي... فقط تكلمي بصوتٍ خافتٍ.. أو لا تتكلمي من الأساس.**».

سارت مهرة إلى جوار نادرٍ ،الذي استدار مغادراً فور ما صارت بمحاذاته دون أن يقول حرفاً واحداً أو ينظر إليها ولو بلوم، صعدت الدرج كالمخدرةٍ، ولا تدري لم تذكرت لحظتها خروف العيد!!! وكأن الشمس نفسها هابت ما سيحدث تالياً، فاختبأت خلف كومةٍ من السحب الخفيفة، مُضفيةً جواً مظلماً كئيباً على الردهة، وألقت الثريا ظلالاً مريبةً على الأرضية الرخامية، ما جعل رعشةً خفيفةً تسري في أوصالها. ومع ارتقائها الدرج كانت معنوياتها تنهار ونفسيتها تهبط في بئرٍ لزج من الخوف والندم والقرف من الذات، وسؤالٌ واحدٌ فقط يتردد في رأسها بلا توقفٍ: (ماذا فعلتِ؟!!). بلغت أعصابها قمة الانهيار مع بلوغها قمة الدرجات، وتلاشى لديها أي إحساس بعزة النفس أو الكرامة، أو أي شيءٍ آخر في الواقع، فمادت بها الأرض وهوت دون أي مقدماتٍ ليرتطم خدها بقوةٍ بالرخام البارد وتغرق في ظلامٍ تامٍّ رحيمٍ...



الأصوات المألوفة تنساب إلى أذنيها برفقٍ دون أن تستفز فيها الوعي لتفتح عينيها أو تستجيب بالتفاتةٍ أو صوتٍ، وقد ميزت منها أصوات مي وماجدٍ وأناسٍ آخرين لم تستوعب سبب وجودهم في محيطها لوهلة... عاودها وعيها خفيفاً لعوباً، فرأت ضوءاً لطيفاً يُحيط بوجه بدا مألوفاً بالرغم من عجزها عن تعرف صاحبه إلا حين خاطب شقيقها مازحاً: «**ها قد استعادت وعيها، ألم أقل لكَ بأنها بخير.. أختك أعصابها رقيقة، والأخبار السارة تدير رأسها تماما كالسيئةِ.**». رفعت رأسها بقلقٍ ونظرت لزوجها بتوجسٍ وقد داهمها الوعي الآن دفعةً واحدةً فاعتدلت بسرعةٍ، إلا أن صداعاً عنيفاً لف رأسها فعادت تريحها على الوسادة ببطءٍ وصوت كريمة القلق يقول: «**لا تتعجلي الحركة حتى يأتي الطبيب ويطمئننا عليكِ يا حبيبتي.. أنتِ بخيرٍ إن شاء الله، ولكنَّ رأسك ارتطمت بالأرض بقوة... والله لقد كاد قلبي أن يتوقف حين رأيتك تسقطين، ولولا أن أدركك نادرٌ، لكنتِ الآن في حال آخر، الحمد لله.. الحمد لله، قدر ولطف.**»..

اكتفت بالابتسام وهي تنقل بصرها بين الوجوه التي طالعتها بقلقٍ، إلا نادراً، الذي كان يقف إلى جانب الفراش وقد خلع جاكيت البذلة وحل عقدة ربطة عنقه تاركاً إياها معلقة حول ياقة قميصه الأبيض، ويديه مرتاحتان في جيبي سرواله السماوي... لم تفهم النظرة التي أطلت من عينيه، أكانت سخريةً أم استخفافاً أم عدم تصديقٍ... فك سؤال مي المازحِ اشتباك عيونهما الخفي: «**كيف تتكتمين على خبرٍ كهذا يا مهرة؟!! يال أعصابك...**»..

لم تفهم مهرة عم تتكلم أختها، فنظرت لنادرٍ وكريمة بتساؤلٍ قبل أن تصدمها فكرة ما فعادت تنظر بصدمةٍ لزوجها الذي اتسعت ابتسامته الساخرة وهو يرد على سؤالها الصامت ببرودٍ: «**تتحدث عن نتيجتها... وما عساها تقصد غير ذلك؟!**».. احمر وجه مهرة إلا أن الصدمة لم تفارقها وشعرت بنفسها تنسحب لبعدٍ جديدٍ وقد أذهلتها المفاجأة.. انتبهت للعيون التي تعلقت بها منتظرة تعليقها فقالت بضعفٍ: «**ألف مبروكٍ يا حبيبتي.. ألف مبروك، لقد تعبتِ وتستحقين كل درجةٍ حصلت عليها..**»..

لم يدر نادر لِمَ شعر لحظتها بعدم القدرة على البقاء والاستماع إلى هذه الحوارات الفارغة لدقيقةٍ أخرى، فاستأذن قبل أن ترد مي، ولكن ليس قبل أن يعدها بهديةٍ مجزيةٍ جزاء نجاحها وتفوقها قائلاً لماجدٍ ممازحاً: «**وللذكر مثل حظ الأنثيين، إن تفوقت أنت الآخر وأحرزت مجموعا أكبر.**» ...غادر بعدها مبتسماً بأدب ولكن الهموم أبت إلا أن تستقبله مفتوحة الأذرع، فما أن أغلق الباب وراءه حتى لمح حركة في نهاية الرواق. تقدمت نحوه أميرة لدى رؤياه، خطواتها السريعة أعلمته بغضبها حتى قبل أن تقترب جيداً أو أن تقول شيئا.. انتوى الاعتذار منها لاستعجاله إلا أن الكدمة التي أحاطت بعينها اليمنى و السحجات التي انتشرت في وجهها وعلى رقبتها ألجمته فتراجع فوراً.. تأمل وجهها بعينين مضيقتين للحظاتٍ، وقد توقفت على بعد خطواتٍ قليلةٍ منه، قال متململاً: «**فؤاد؟!**» . أومأ برأسه مطأطئاً دون انتظار ردها... مسحت دمعةً غافلتها وسالت على خدها فأمسك رأسها بكلتا يديه وقبل قمتها قائلاً برفقٍ: «**أنا آسف يا أميرة، أرجوكِ ألا تبكِ، وأعدكِ بأني سأعالج الموقف ولن أهدأ حتى يعرف فؤادٌ خطأه ويعتذر منكِ اعتذاراً مُرضياً، وأنا من أعدك بأن هذا لن يتكرر ثانيةً..**»..

«**نعم ، صدقيه، سيحميكِ كما حمى شهيرةً..**». نظر نادرٌ بامتعاضٍ لسامرٍ الذي خرج من غرفته دون أن يلحظه ورد من بين أسنانه: «**إن كان لديك كلمةً طيبةً فقلها، وإلا فلتصمت أفضل.**». وضع سامرٌ يديه في جيبي سرواله قائلاً ببرودٍ: «**لم لا ننزل لمكتبك لنتحدث هناك على راحتنا؟! لقد اتصلت بخالي فجراً ولعله على وصول الآن.**».

نقل نادر نظره بين الأخوين وفهم أنهما متفقان، وبطبيعة الظرف وبطبيعتهما، أدرك بأن اتفاقهما لن يكون على خيرٍ، فقال محاولاً المماطلة وتفادي المزيد من الضغوط حالياً: «**ربما مساءً، فلدي سلسلةٌ من الاجتماعات التي ستبدأ باكراً وقد تأخرت بالفعل.. علّ خالي يكون موجوداً حينها.**»..

نزل الدرج مسرعاً ولكن سامراً لحق به ليسبقه ويعترض طريقه قائلاً بأسلوبٍ مستفزٍ: «**كلامنا لا يحتمل التأجيل، وخالي على علمٍ به وموافقٌ تماماً على**

جميع طلباتنا.». رفع نادرٌ حاجبه مردداً: «**طلباتكم؟!.**»، وتجاوز سامراً نزولاً وهو يقول: «**اتبعاني إذاً مادام الأمر لا يحتمل التأجيل للمساء.**».

تبعتهما أميرةٌ وعيناها معلقتان بظهر ابن خالتها... (لم فعلت بنا كل هذا يا نادر؟!! ماذا كان سيحدث لو كنا تزوجنا؟!! كنتَ وفرتَ علينا كل هذه المشاكل وهذا العناء، لكان هذا البيت يرقص كل ليلةٍ على أنغام حبنا، ولكن انظر إلى أين أدى بنا عنادك وتجاهلك لي ولحبي الذي كان واضحاً لك وضوح الشمس!! كلانا يرزح تحت أحمالٍ من الغم والهم والكآبة..)

فتح باب المكتب ودلفه دون أن ينتظرهما ليتكئ على حافة مكتبه بمواجهتهم عاقدا ساعديه قائلاً ببرودٍ: «**تفضل يا سامر بك، هاتِ ما لديك.**»... تقدم سامرٌ ليجلس على الأريكة الجلدية في ركن الغرفة بهدوءٍ مستفزٍ، وانتظر حتى استقر تماماً واضعاً ساقاً فوق الأخرى.. انتظره نادرٌ بصبرٍ فذٍّ، ولكن أعصاب أميرة هي التي أفلتت منها فقالت بعصبيةٍ: «**أنا سأتطلق يا نادر، ولن أتراجع عن قراري... وحقي سآخذه من فؤادٍ.. وزيادة.**».. أنزل نادر ذراعيه قائلاً بقلقٍ وقد قطب حاجبيه: «**أي طلاقٍ؟! عم تتحدثين يا أميرة؟!!... هيا الآن يا أميرة، أنت قريبتنا قبل أن تتزوجي من فؤادٍ، ولا يصح أن يصدر عنك مثل هذا الكلام السخيف كما ولو كنت غريبةً عن هذا البيت ولا تأبهين لأمره... اطلبي ما شئتِ، ولكن طلاق؟!!!! لا، اهدئي وسأعوضك بكل ما أستطيع... صدقيني.**»..

رد سامرٌ قبلها: «**لم يعد القرار قرارها يا نادر، لقد قررت أنا وخالي بأن ما حدث كافٍ حتى الآن، وأن استمرارها في هذه الزيجة صار ضرباً من الجنون.**».. اعتدل نادرٌ صائحاً: «**أنت بحقٍّ مخلوقٌ مستفزٌ يا هذا!! ألم أقل لك بأن تحتفظ لنفسك بكلامك السام هذا؟!! ماذا تريد؟ أن تطلق أختك بعد أقل من عام على زواجها؟!! ما بك، هل جننت؟!! ماذا تريد بالضبط؟!**».. انتفض سامرٌ واقفاً وصاح بدوره: «**حق أختي، أم تظن بأننا سنترك أخاك يفعل بها كما..**».. قاطعه نادرٌ بعنفٍ: «**احذر مما تقول يا سامر، أنت تتخطى حدودك، ولولا وجود أختك وتقديري للظرف الذي تمر به، لكنتَ قد دفعتَ ثمن ما تقول وتفعل الآن...**» .. واستدار مكملاً لأميرة

بصوتٍ أجشٍ أثر به الصراخ: «**ألا يمكن أن نتحدث وحدنا يا عزيزتي؟ مذ متى وبيننا وسطاء؟.**»..

رد سامرٌ وهو يشد نادراً من ذراعه: «**حديثك معي أنا، أخوها... رجلها..**».. أغلق نادرٌ عينيه بقوةٍ وهو يسحب ذراعه من يد سامرٍ ويستغفر بصوتٍ مسموعٍ قبل أن يقول من بين أسنانه: «**أنا صابرٌ على أفعالك حتى الآن، فلا تدفع الأمور في اتجاه نندم جميعنا عليه يا سامر.. وحين يعود خالي، سأتكلم معه بهذا الشأن، رجلاً لرجل.**»، واستدار لأميرةٍ ليمسك بيدها قائلاً بصدقٍ لمس قلبها: «**اسمعيني يا أميرة، والله والله والله، أنا لدي من المشاكل والهموم ما يكفيني لعشر أعوامٍ قادمة، ورغم هذا فأنتِ وفؤاداً أولويتي.. أجننتِ؟! أنت تعرفين معزتكِ ومكانتكِ عندي.. أنت أختي يا حبيبتي..**».. استفاقت من حلمها الجميل حين لطمها بكلماته الأخيرة فقالت بعصبيةٍ: «**لا يا نادر، لستُ أختك.. بل هو أخاك.. والموضوع انتهى كما قال سامر، وإن كنت تريد فعلاً أن تخدمني، وإن كان ما قلته عن معزتك لي حقيقياً، فأقنع فؤاداً أن ينفذ جميع طلباتي دون فضائح.**».. ردد نادرٌ متعجباً: «**فضائح؟!**». ضرب كفاً بكفٍّ وهو يعود ليقف في مواجهتهما معاً عاقداً ساعديه أمام صدره وهو يسأل مستنكراً: «**وما هي طلباتكِ يا أميرة؟**»..

«**الطلاق وحقوقي الفعلية وليس ما ضحك عليَّ به في عقد الزواج.**».. قطب مستفهماً: «**بمعنى؟!!**».. ردت وهي تبادله نظراته الحادة بثباتٍ: «**لقد وافقت على المؤخر التافه الذي كتبه فؤادٌ لأني أخذت بعين الاعتبار قرابتنا، مستبعدة أن يؤول الحال إلى ما آل إليه.. أما الآن فقد تغيرت الأوضاع، وبصراحة، لا أدري كيف تتوقعون بأن أكمل حياتي بعيداً بخمسة ملايين جنيهاً فقط؟!!**».. «**دعينا لا نتحدث في تفاصيلٍ لن نحتاج إليها لأنني متأ..**».. قاطعته: «**توقف عن الاستخفاف بنا يا نادر.. لقد انتهى هذا المسلسل، وأنا لن اتراجع عن كلمةٍ واحدةٍ مما قلت.**»..

دار نادرٌ حول مكتبه ليجلس على كرسيه الجلدي الضخم وقد شعر بالتعب فجأةً، فبدا وجهه مظلماً مقارنةً بضوء النهار الداخل من الحائط الزجاجي خلفه، واتكأ بمرفقيه على المكتب سائلاً: «**وهل خالي على علم بهذا الكلام، فعلاً؟.**».. أجابته دون أن تتحرك من مكانها: «**نعم..**»..

ضرب كفاً بكفٍّ مجدداً وهو يهز رأسه استنكاراً قبل أن يستند بجبهته على أطراف أصابعه مستفسراً: «**وما مطالبك يا أميرة؟ غير الطلاق.. أظنك قررت مع الأستاذ كل شيءٍ.**»، وأشار بطرف عينه إلى سامرٍ قبل أن يعود بصره ليتعلق بها، فردت وهي تجلس على أحد الكرسيين المواجهين لبعضهما أمام مكتبه: «**لن أطلب الفيلا، ولكني أطلب فيلا في المكان الذي أحدده، حتى ولو في باريس... ومؤخر صداقٍ يتناسب ومستواي الاجتماعي بما يضمن لي حياةً كريمةً بعد مغادرة الفيلا..**»..

«**همممممم... و عن كم تحديداً تتحدثين؟**»..

رد سامرٌ بصلفٍ: «**خمسون مليون... لا تخف.. جنيهاً، لا دولاراً..**».

رفع نادر حاجبيه ونظر إليها نظرة أقسمت بينها وبين نفسها بأنها لن تنساها ما حيت.. تبارزت نظراتهما لدقيقةٍ كاملةٍ، قال بعدها نادرٌ وهو يعود بظهر كرسيه إلى الوراء ويشبك أصابعه أمام صدره مستنداً بكوعيه على مسندي كرسيه: «**تمام.. لا مانع لدي.. أخبري فؤاداً.**»..

سألته بدهشةٍ: «**عمَّ؟!**».. فرد مبتسماً: «**عما تريدين! الطلاق والفيلا، والخمسين مليون... (جنيها).. وإذا وافق، فليدفع إذاً.. ففي النهاية، هذه حياتكما وأنتما فقط أصحاب القرار..**».. قالت بنفس الدهشة: «**ولكنه لن يوافق، لذا تحدثت إليك.. كما أن المال كله أمره بيدك أنت..**».. قال ببساطةٍ وهو يقف ليرتدي جاكيت البذلة ويسير نحو الباب بهدوءٍ: «**فؤادٌ له مثل ما لي، ومن حقه أن يتصرف بماله كما يشاء، وإن ارتأى أن يمنحك إياه كله، فلا كلمة لي في ذلك.. وهو زوجك وليس أنا! لذا اطلبي منه هو الطلاق ومؤخر الصداق... أو دعي رَجلكِ هذا يُحدثه..**»..

قالت بصوتٍ عالٍ لتثير انتباهه: «**وإن رفض، فلا تلومَنَّ إلا نفسك إذاً..**».. قال من فوق كتفه وهو يفتح الباب موضحاً عزمه إنهاء المحادثةِ: «**لا تهدديني يا أميرة.. أبداً.. ولا تدخليني طرفاً في مشاكلكما... هذا لمصلحتكِ أنتِ..**».. ردت وهي تهز ساقها التي أراحتها فوق الأخرى بجذلٍ: «**ليس لدي ما أخسره بعد كرامتي، ولكن يؤلمني أن أتخيل كيف ستتحول حياتكما إلى عذابٍ وخرابٍ بعدما تلوك الصحف سمعتكما، وبخاصة إذا تسربت معلوماتٌ عن حقيقة وفاة زوجة**

فؤادٍ السابقة، مع تقارير طبيةٍ عن حالتي الآن والقضية التي سأرفعها عليه، مع بعض اللمحات عن ماضي خالتي مع والدكما وتاريخ العنف في عائلة عز العرب.. والله سأكره نفسي لما سأضطر لفعله، ولكني كما قلت، سأكون مضطرة.»..

أغلق الباب بهدوءٍ وعاد إلى وسط الغرفة ببطءٍ محدقاً دون أن ترف عيناه بأميرةٍ وكأنه يراها لأول مرةٍ... قيَّمها والموقف بسرعةٍ، وأدرك بخبرته بأنها وسامرٍ لن يتوانيا عن فعل أي شيءٍ الآن.. لعَنَ أميرة.. وفؤاداً.... لعن الزواج ولعنته وما جلبه على بيته من خراب.. لعن نفسه لما جلبه على نفسه من مصائبٍ وأناس اختارهم طواعيةً لتدمير حياته...

كان يشعر بالاختناق...لا، بل بالغرق... نعم.. شعر وكأن يداً ما تدفع رأسه بثبات ليغرق في طوفان فقدان الثقة بكل الثوابت دون رحمةٍ ودون أن يأبه جلاده بمحاولاته لتنفس نسمات الحياة الطبيعية!!! كانت رأسه تدور في حلقاتٍ، وزمجرت أعصابه، كالجواد الحبيس بغرائزه البدائية، يضرب بقوائمه أسوار صبره عله يفلت له الزمام فينطلق يطوي الأرض والناس تحت سنابكه بلا هوادةٍ.. لم يكن مصدوماً بقدر ما شعر بالاشمئزاز من كل ما حوله، ولكن اللحظة الآن فارقة، لا تحتمل أن يمنح نفسه رفاهية التألم أو الصدمة، وعليه أن يقرر وينفذ أقصى وأقسى الخطوات التي يتبعها في عالمه في مثل هذه الظروف، الفرق هنا هو أنها المرة الأولى التي سيضطر إلى استخدام أساليبه فيها مع أهلِ بيته.. أقاربه.. لحمه ودمه.. ولكنهم ما تركوا له بديلاً.. أم علَّه يمهلهما فرصةً أخرى للتراجع عن الهراء الذي هذيا به منذ قليل؟ فلربما كانت الضغوط التي يمر بها في زواجه، بالإضافة لاقتراب الموعد المحدد لعقد الصفقة الكبرى التي سعى وراءها لعامين وازدياد ضغط العمل، قد جعلاه يضخم حجم الشخصين الماثلين أمامه بفجاجةٍ، ويعظم من شأن تهديدهما... ولكن... لا... إن التهديد الذي لوحت به أميرة أمام أنفه لهو في منتهى الخطورة، ومثل تلك الأمور لا تحتمل المزاح أو الطيش، وبخاصة حين تضع الشركة وسمعته على المحك... دار كل هذا برأسه دون أن تبدو منه لمحةً على صفحة وجهه الذي

تجرد تماماً من كل المشاعر فبدا صعب القراءة للأخوين الذين استمعا بصمتٍ تامٍّ له وهو يقول بصوتٍ خافتٍ هادئٍ: «**سأعتبر نفسي لم أسمع شيئاً مما قلتِ الآن، وأتمنى من الله أن يهديكِ لنفسكِ فلا تتفوهي بكلمةٍ واحدةٍ شبيهةٍ لما قلتِ مع زوجك، وإلا فالله وحده أعلم إلى أين ستؤول الأمور.. سأدعك الآن لتهدئي وتستعيدي رشدكِ وذكاءكِ المعهود، ونصيحتي يا أميرة بألا تدعي رأسكِ لمن هم أقل منكِ عقلاً ليقودوها ويملوا عليكِ ما تقولين وما تفعلين.. ففي النهاية، أنتِ، وأنتِ وحدكِ من ستتحمل العقبات...**»، واستدار موجهاً كلامه لسامرٍ وهو يشير إليه بسبابته: «**أما أنت، فحسابي معك سيكون مختلفاً، أعدك.**»..

خرج تاركاً الباب مفتوحاً وراءه، وغادر الفيلا في ثوانٍ، وعيون قريبيه ملتصقةٌ بظهره حتى اختفى عن ناظريهما، فنظرت أميرة إلى أخيها متسائلةً في قلقٍ: «**والآن، ماذا؟**».. رد ببرودٍ وهو يشعل سيجاراً سميكاً من العلبة المستقرة فوق مكتب نادرٍ: «**لا تقلقي.. دعيه لي، سأجعله يدور حول نفسه.. انتظري وسترين.. لن أكون سامراً إن لم أجعله يجثو على ركبتيه ويرجوكِ أن تقبلي بالمال و ن تصفحي عنه.**».. نظرت إليه طويلاً قبل أن تقول وهي تقف وتتقدم بغضبٍ نحو الباب: «**يبدو لي بأني أخطأت حين استمعت إليك أنت وخالي، وبأننا جميعاً سنندم.. وإن حدث هذا يا سامر، فلن أسامحكما ما حييت.. ولن يكفيني ذبحك كالخروف لأشفي غليلي.**». أمسك هاتفه المحمول واتصل برقمٍ ما قائلاً لأميرة التي غادرت قبل أن تسمع ما يقول: «**لا تخافي.. كل شيءٍ تحت السّيطرة، فالعبد لله معه الجمال الذي سيقوض أركان الوحش في يومٍ وليلة.. وحينها سيعرف الجميع من هو سامرٌ.. هيِّنٌ، هَيِّنٌ..**»..

فُتح الخط، فقال بإقبالٍ: «**حبيبتي.. أريد أن أقابلك للضرورة.. حسن.. لا بأس.. أعلم يا حبيبتي، لا تقلقي. فقط، لا تتأخري.. نعم، مشتاقٌ.. مع السلامة يا حبي..**».. استند إلى الوراء متنهداً وابتسامةٌ عريضةٌ ترتسم بارتياحٍ على وجهه النحيل.



خرجت مهرة متسللةً وقد تدثرت بوشاح أسودَ وغطت رأسها بوشاح مماثل. بدا البيت ساكناً تماماً وقد استقر في عقلها بأن الجميع نيام بعد كل ما مروا به في الساعات الأخيرة... سارت تتلفت يميناً ويساراً وقد حمدت الله على غياب حراسة البوابة لسبب لا تعلمه في ذلك اليوم، وانطلقت تسرع الخطى حتى وصلت إلى الطريق العام دون أن تلفت النظر إليها إذ ظنها من كان يقابلها أنها إحدى زوجات البوابين. استخدمت المواصلات العامة وقد ارتفع صدرها وانخفض بتواترٍ سريع والقلق والخوف جففا حلقها فشعرت بريقها كالأشواك... تعجبت من الحر الشديد غير المعتاد في مثل هذا الوقت من العام ولكن يبدو على من حولها بأنهم لا يبالون أبداً بحبات العرق المتساقطة من جباههم العابسة..

وصل الأتوبيس إلى وجهته بسرعةٍ وسارت هي إلى وجهتها بترددٍ واضطراب شديدين وضميرها يراجعها القرار مراتٍ ومراتٍ ولسان حالها يقول (سيمر كل شيء على خير.. الله وحده يعلم بأني مضطرة، وبأنني لولا الظروف الأخيرة لما لجأت أبداً لمثل هذا الفعل الآثم.. اللهم اغفر لي يا رب، سامحني يا رب.. سامحني.) شعرت بعيون المارة القليلين ترمقها بفضولٍ، أو هكذا ظنت... الطرق خاليةٌ إلا من نفرٍ قليلٍ من العابرين على عكس المعتاد بمثل هذه المناطق الشعبية، وقد وجد الحصى الدقيق طريقه إلى كعبيها عبر فتحات حذائها، فأخذ يخزها خزاً خفيفاً، إنما مزعجاً، جعلها تحث الخطى علَّ بلوغها وجهتها بسرعة يريحها من وخز الحصى، والأهم، من وخز الضمير الذي صار كالطعنات الآن، مع دنوها من حيث ترنو شيئاً فشيئاً... مرت من ممرٍ ضيقٍ إلى حارةٍ أخرى ثم التفت خلف إحدى البيوت القديمة لتجد نفسها أمام بيتٍ نصف متهدم وشبه مأهولٍ.. لم يكن يملك من مظاهر الحياة إلا شباكين برتقاليين في الطَّابق الأرضي دهانهما متآكل، شُبك قفلاهما بما يوحي بأن من بالداخل يستجير بخشبهما المتآكل من هجير الشمس الحارقة..
لا تذكر ما الذي دفعها للاتصال بزميلتها وفاء للحصول على هذا العنوان، إلا أنها تدرك جيداً بأنها كانت إحدى زبونات هذه العيادة، على الرغم من

أنها لم تتزوج من قبل!.. صعدت السلالم الضيقة المتكسرة والرطوبة تطبق على صدرها، لتجد نفسها أمام بابٍ يضاهي الشبابيك في تكسره واهترائه، دفعته برفقٍ ليفتح على غرفة ذات حوائط بدهان زيتي أخضر، أو ربما كان أزرقاً في يوم ما، وتقدمت نحو المرأة البشوش الجالسة خلف مكتبٍ صغيرٍ في صدر الحجرة قائلةً بصوتٍ خافتٍ: «**لدي موعد مع الدكتور.. لقد اتصلت بكم صباحاً.**». ردت المرأة بابتسامةٍ عريضةٍ: «**أنت مدام مهرة؟**»، ثم أكملت حين هزت مهرة رأسها إيجابا وقد أشارت لثلاثة كراسٍ صدئة الأرجل خلف مهرة: «**اعطني النقود واجلسي وسأعلم الدكتور بوصولك.**».

امتثلت لكلام المرأة دون ردٍّ، ودون وعيٍ منها أخذت تقصف أظافرها بيدها في توترٍ بالغ وعيناها معلقتان بالستار الأحمر القاني الذي اختفت خلفه المرأة لتغيب لحظاتٍ، قبل أن تظهر مجدداً دون أن تفارق ابتسامتها وجهها وهي تقول بهدوءٍ: « **تعالي يا حبيبتي، الطبيب بانتظارك.**».. تبعتها مهرة خلف الستار لتجد نفسها في رواقٍ ضيقٍ مظلمٍ نسبياً في نهايته غرفةٌ مضيئةٌ بمصباح نيونٍ زاهٍ، وبدخولها الغرفة، وقف الطبيب الشاب متقدماً منها قائلاً بابتسامةٍ خفيفةٍ: «**أهلا يا مدام مهرة، تفضلي.. ارتاحي.**».. جلست ونظرت إلى المرأة في ترددٍ فقال الطبيب موضحاً: «**سامية يدي اليمنى، وهي من ستساعدني في العملية... والآن أخبريني بطلبك بالتحديد يا هانم.**».. تنحنحت مهرة قائلةً بخجلٍ: «**لقد أخبرت مدام سامية على الهاتف هذا الصباح بك..**»، ولكنه قاطعها بحزمٍ: «**لابد أن تخبريني بنفسك يا هانم.. تفضلي.**».. ردت بعد أن ابتلعت ريقها: «**لقد.. أعني.. اكتشفت بالأمس أني حاملٌ، وأريد أن... أتخلص.. أنهي هذا الحمل لظروف خا..**».. قاطعها مجدداً: «**ومتى كانت آخر دورةٍ شهريةٍ؟ وكيف علمت بأنك حامل؟..**». ردت وقد انعقد حاجباها وكأنها تحاول أن تتذكر تحديداً: «**لم تأتني الشهر الماضي، ولقد مر على موعدها هذا الشهر أسبوعان.. وقد استخدمت اختبار حمل من الصيدلية، بل في الواقع اختبارين، وكلاهما موجب.**».. كان يهز رأسه وهو يدون بدفتر الروشتات بعض الأصناف ثم وقف قائلاً وهو يرتدي معطفه الأبيض: «**المهم أن تكوني متأكدةً مما تطلبين، والأهم أن تكوني صائمة منذ ثمان ساعاتٍ على الأقل.**».. ابتلعت

ريقها وهي تهز رأسها وتتملكها الحيرة فيما عليها أن تفعل! أتتبعه للحجرة التي دلفها من بابٍ جانبيٍّ أم تبقى مكانها! بقيت في حيرتها حتى ربتت المرأة التي تقف خلفها على كتفها برفقٍ قائلةً بابتسامتها التلقائية: «**هيا يا حبيبتي، تعالي معي.**»...

كل ما حدث بعد ذلك بدا ضبابياً مشوشاً.. فالغرفة الصفراء التي أُدخلت إليها كانت باردةً على عكس الطقس الحار في الغرفة المجاورة، يتوسطها سرير ضيق في أسفله رافعتين للأرجل انخلع قلبها لمرآهما وشعرت بدوارٍ خفيفٍ، فتمسكت بقوةٍ لا شعورياً بيد الممرضة التي أسندتها حتى وصلت إليه فساعدتها لتجلس عليه قائلةً برفقٍ: «**اهدئي واسترخي.. ارجعي بظهرك إلى الوراء وارفعي رجليك هنا... لا تقلقي، الدكتور يده تلف في الحرير وستنتهين من كل هذا في دقائق.. فقط استرخي حتى تسهلي علينا وعليكِ الأمر..**».. كانت في غضون ذلك ترفع الملاءة البيضاء لتغطيها ويدها تتحرك بسرعةٍ وقد التمع بإصبعها خاتمٌ ذهبيٌ كبيرٌ لفت نظر مهرة فقطبت بشدةٍ وهي تسألها بفزعٍ وقد بلغ توترها أوجه: «**ما هذا؟ ثعبان؟!!**»..». قالت المرأة وهي تعيد رأس مهرة برفق إلى الوراء: «**نعم، ابني أشرف أهداني إياه في عيد الأم العام الماضي.**». لمحت الطبيب يجهز إبرةً في الزاوية فقالت مرتابةً: «**أهذا مخدر؟ هل سأنام؟**».. رد الطبيب هذه المرة وهو يخزها في ذراعها بخفةٍ: «**قليلا فقط، مُهدئٌ أكثر منه مخدرٌ، حتى لا يؤثر توترك على مجرى العملية.**»..

لف الدوار رأسها ولكنها لم تفقد الوعي، كانت ترى الطبيب ومساعدته بشكل مبهمٍ، وبدا كلامهما بعيداً غير مفهومٍ ولكنها ميزت منه بضع كلمات لم تفهم منه شيئاً في البداية: «**إنه ذكر.**».. «**كبير.. أمسكه من عند العنق.**»... «**استعدي سيخرج.**».. شعرت مهرة بمغصٍ رهيب وأرادت أن تصرخ حتى تلفظ روحها مع الجسد المنبوذ الذي قتلته عمداً، إلا أن صوتها أبى أن يخرج.. أرادت أن تخبرهما بأنها تشعر بما يفعلان وبأنها تتألم بشدة وكأن ناراً تتلوى في أحشائها. (هذا يكفي، لم أعد احتمل... لقد اتخذت قراراً خطأً ولم يفت الوقت للتراجع.. سأقف وأنصرف.. أستغفر الله العظيم.. أستغفر الله العظيم..).

صرخت فجأة وقد عاودها صوتها: «**اتركاني، ابتعدا... دعاني أنصرف.**».. كانت تدفع المرأة التي حاولت تثبيت أكتافها، وتحاول أن ترفس حتى تعيق الطبيب عن إكمال ما يفعل، ولكنها وجدت أن قدميها قد قيدتا إلى مكانيهما فصرخت وصرخت ، وأخيرا تغلبت على المرأة فدفعتها واعتدلت والألم ينهش رحمها وساقيها وسمعت الطبيب يصيح بها: «**هل جننت، أتظنين الأمر لعبة؟!! ماذا تفعلين؟! لقد كدنا ننتهي.. انتهى هذا الطفل، لقد مات.**».. صرخت مجدداً وهي تنظر حيث يخرج الموت في أبشع صوره من جسدها والممرضة تؤنبها بخبثٍ: «**فات أوان الندم يا حلوة.. أنت أخذت قرار ذبح ابنك، وعليك أن تتحملي نتيجة قراراتك..**». نظرت إليهما فوجدت وجهيهما مسودين قاتمين ومن بين ساقيها تلوى جسم أملس لزج قاتم أخذ ينزلق ببطء وسط تأوهاتها وصرخاتها و قد هالها ما ترى وتصبب العرق غزيراً منها حتى بلل شعرها بأكمله... صرخت مجدداً ومع نهاية صرختها فتح الباب على مصراعيه وظهر على عتبته نادرٌ الذي حدجها بنظرةٍ ناريةٍ قاتمةٍ وهو يقول باشمئزاز: «**كنت أعلم بأني سأصل متأخراً، فأنت في الأذى ولا أسرع يا مهرة.. ستدفعين الثمن غاليا.. صدقيني.. ستدفعين ثمن فعلتك هذه يا مهرة، لا، بل سيدفع أخويك الثمن كل يوم، وكل ساعة ما حييت.**».. دافعت مستميتةً وسط الدماء عن موقفها المشين بيأسٍ: «**لقد تراجعت يا نادر، والله العظيم لقد ندمت وحاولت التراجع، ولكنهما لم يدعاني أ..**»، ولكنه قاطعها هادراً: «**اخرسي.. أنت مجرمة..**».. ثم نظر إلى الطبيب والممرضة قائلاً بلهجةٍ آمرةٍ: «**إما هي، أو أنتما، ميتان.**».. حدقا إليه في ذهولٍ فأوضح: «**هي ميتةٌ في كل الأحوال، إن نفذتما، نجيتما، وإن امتنعتما، لحقتماها في مصيرها...**»، تابع وقد كسا الاشمئزاز وجهه كما يكسو الليل ملامح الأرض بوشاحٍ قاتمٍ: «**ولا أظن القتل غريباً عليكما**».

لم يحتج الأمر لذكاءٍ فذٍّ ليحددا اختيارهما، ولا لتعرف مهرة مسبقاً ما قررا.. ففوراً، ارتفعت لمحاذاة رأسها ثلاثة رؤوسٍ تحملق بها بِغِلٍّ، الطبيب والممرضة... و .. الطفل!!! الطفل الذي لم يكن سوى ثعبانٍ خبيثٍ يطالعها بتحفزٍ، وقد تماثلت الوجوه الثلاثة بشكلٍ غريبٍ، فلم يعد للطبيب ملامحه ولا

للمرأة الحقودة ملامحها، ولا حتى الثعبان بدا ثعباناً، وإنما كانت كل الوجوه وجها واحداً، وجها مألوفاً..

وجهها هي!!!!!!!

صرخت وصرخت والدنيا تهتز من حولها وصوت شقيقها يناديها من بعيد: «**استيقظي يا مهرة، أنت بخيرٍ يا حبيبتي، أنت تحلمين.**».. شهقت بتتابعٍ سريعٍ وشقيقاها يهدآنها بآياتٍ من القرآن الكريم والكلمات اللطيفة وهي تستعيذ وتستغفر وتحاول لململة شتات نفسها لتجد نفسها لا تزال في فراشها بعدما وضعها فيه نادرٌ حين فقدت الوعي، وعلى ما يبدو فإن النعاس غافلها فتركها أخواها لترتاح، وبقيا إلى جانبها يتحادثان ويتضاحكان سعداءَ بنتيجة مي.. انتظرت حتى هدأت قليلاً فعدلت جلستها وقد اتخذت قرارها النهائي وعزمت إخبارهما به الآن...



«**ثعابين وجو شعوذة و!!!! أنت متأثرةٌ بذاك الفيلم الذي فيه السحرة والثعابين و..**»، فقاطعته مي: «**هاري بوتر.**».. لم يهتم لتعليقها وتابع باهتمام: «**أنتِ لستِ طبيعيةً منذ انتقلنا إلى هنا يا مهرة، وأنا لاحظت ذلك فعلاً، وفي أكثر من مناسبةٍ عزمت على أن أتحدث إليك بهذا الشأن ولكني كنت أتراجع كلما وجدت أن الأمور قد بدأت تهدأ.. لكن أن تصلي لحد الطلاق وترك (أبيه) نادر هكذا، فلابد أن أفهم ماذا يجري يا مهرة... أرجوكِ.**».

نفضت عنها الأغطية وتقدمت نحو غرفة الثياب لتحضر حقيبة سفرٍ صغيرةٍ وهي تقول: «**فيما بعد يا ماجد، سأوضح لك كل شيءٍ في حينه، ولكن الآن، أريدكما أن تذهبا إلى غرفتيكما وأن تجمعا أغراضكما في أقل وقت ممكنٍ، ودون أن يشعر بنا أحد..**».. قاطعتها مي: «**نغادر؟ لا يا مهرة، لا يمكن! أنا.. أعني نحن جميعاً قد تغيرت حياتنا تماماً ومن الصعب جداً أن نعود لذاك المكان، الذي كنا ندعوه بيتاً، مرةً أخرى.**».. توقفت مهرة عما تفعل وقالت وقد بدأ الغضب يحتل

ملامحها ويغزو نبراتها: «**في الواقع، ليس لديكِ اختيارٌ في هذا الأمر يا مي.. نفذا فوراً ما أخبرتكما به.. حالا، ودون جدالٍ.. وكفاني كلاماً فارغاً لن يقدم أو يؤخر شيئاً في قراري.. هيا.**».. عقد ماجدٌ ساعديه أمام صدره قائلاً وقد رفع أحد حاجبيه: «**أنا مستعدٌ إذاً...**».. تساءلت مهرة وقد عقدت حاجبيها بتعجبٍ: « **حقا؟!! كيف؟!! أكنت.. ماذا تعني؟!!**». رد بنفس الهدوء: «**أعني بأني سأغادر البيت كما أتيته، فكل ما تمتلئ به غرفتي هي أشياء وثياب اشتراها لي (أبيه) نادر، وكرامتي لن تسمح لي بأخذ أيٍّ منها حين نغادر، وبخاصة ونحن نتسلل هاربين كاللصوص.**»، وأشار إلى حقيبتها التي تعدها مكملاً: «**وأنصحكِ أن تفعلي المثل، على الأقل لنحتفظ بجزءٍ من حسن المظهر في النهاية.**»..

صاحت مي وهي تنتفض واقفةً: «**عمَّ تتحدث يا ماجد؟!! هي زوجةٌ ولديها حقوق!! وكل ما اشتراه لها زوجها يعد ملكها وحقها وليس عيباً أبداً أن تأخذه معها حين تتركه... وأي امرأةٍ تغادر بيت زوجها، تفعل ذلك من وراء ظهره حتى لا يوقفها، وليس لأنها تسرقه!!!**». قال ببساطةٍ: «**حسنٌ، ما اشتراه لها ملكها، ولكن ماذا عما اشتراه لنا... الآلاف المؤلفة التي أنفقت عليكِ وعلي... هل هي من حقنا نحن الآخرين؟!! تفضلي، أفتي يا قاضي الغبرة.**»..

عقدت مي بدورها ساعديها أمام صدرها وهي ترد بسخريةٍ مقلدةً صوته وأسلوبه: «**نعم يا أذكى إخوتك... من حقنا.. لأنها كلها هدايا وأشياء نستخدمها، فلم يضع لنا أرصدةً في البنوك... أم هل تظن أن (أبيه) نادر سينتظر منا أن نترك بعض الجوارب والألبسة و..**»، فأكمل بعصبيةٍ: «**والأجهزة والمعدات والهواتف وال..**».. قاطعته هي الآن: «**وماذا تظنه سيفعل بها؟! سيرميها إن تركناها، فهو ليس بحاجةٍ إليها إطلاقاً، وربما لن يفهم مطلقاً معنى تركنا لها**».. رد بغضبٍ: «**آه!! تغير موقفكِ الآن!! بعدما كنت ترين أن تركها ل(أبيه) نادر هو القرار المثالي منذ ساعاتٍ!!! أنا أفهمك جيداً يا مي، وأفهم عدم رغبتكِ في ترك كل هذا الترف والرفاهية والدلال الذي صرتِ ترفلين فيه أمام صديقاتك، وتجاوزتكِ أمام فكرة الفقر عن خوفك على أختك وكل ما هذيتِ به قبلاً... وأعلم أن (أبيه) نادر قد وعدك بدخول جامعةٍ**

خاصةٍ برغم مجموعك، وبأنك ..».. صاحت مهرة مقاطعةً كليهما: «ماذا؟!! أي جامعة؟!! أنتِ مجموعك كبير وستدخلين الكلية التي تشائين دون أي قلقٍ!!.».
ردت مي بانكسارٍ: «ليس الأمر قضية مجموعٍ، وإنما أن الجامعات الأهلية لم تعد مظهراً اجتماعياً مناسباً، لقد وعدني (أبيه) نادر بأن يدخلني كلية طب الأسنان في الجامعة التي أختارها، بشرط أن أحصل على المجموع الذي يخولني دخول أعلى كلية في الجامعات الحكومية... وقد أخبرت الناس بالفعل حين كنتِ نائمة بأنني سألتحق ب..»، قاطعتها متسائلةً بذهولٍ: «طب أسنان؟ أي ناسٍ؟!! مَن؟!..»..
ردت وهي تبتلع ريقها بصعوبةٍ: «صديقاتي، وبعض المدرسين و.. عديني بألا تنفعلي..».. نهرتها: «ومن؟ انطقي يا مي!! أنت بحق مفاجأةٌ لي.. تكلمي يا بنت!»..
ردت الصغيرة بصوتٍ هشٍ خافتٍ بالكاد غادر حنجرتها: «طارق.».

«طارق؟!!!!».. كرر كلٌ من ماجد ومهرة الاسم بذهولٍ مطلقٍ وهما يحدقان بميٍّ دون فهم، قبل أن تتقدم مهرة من مي وتسحبها من ذراعها بقوةٍ لتُجلسها بجانبها على حافة الفراش العريض قائلةً بعصبيةٍ وقد انتابها شعورٌ بالتوتر وبالخجل من صورتها التي اهتزت أمام أختها و التي لابد وقد علمت باتصال طارقٍ المستمر بها: «أخبريني الآن كل شيءٍ، كل كلمةٍ قلتها وقالها، وكيف ومتى اتصل بكِ أولمَ؟. ولا تغفلي شيئاً ولو صغيراً وإلا ذبحتكِ، أتفهمين... تحدثي.».

أوضحت مي وهي تفرك يديها ببعضهما: «لا شيء، أقسم بالله بأنه لم يحدث بيننا أي كلامٍ إلا مؤخراً جداً، وبالصدفةِ البحتة.. كنت أغادر أحد الدروس مع زميلاتي حين وجدته أمامي، وقال بأنه كان ماراً من هناك بالصدفة.. سألني عنكِ وعن ماجدٍ وعن دراستي، وطلب رقم هاتفي ليطمئن على نتيجتي... وبصراحةٍ، أحرجت منه ولم أدرِ كيف أرفض، فأعطيته إياه.. ومن بعدها لم يتصل بي إلا مرتين، إحداهما من شهرٍ أو ما يقاربه ولم تزد عن الدقيقتين إذ أمنحه أنا فرصةً للكلام من الأساس، ولكنه قال بأنه يريد أن يطمئن علينا وبأننا بخيرٍ وقد طلبت منه ألا يوقعني في مشاكل، إن علمتِ بأني على اتصال به، فطلب مني أن أعده بأن أطمئنه على نتيجتي .. وهذا ما فعلته اليوم، حتى لا يُلِحَّ ويتصل هو.. والله العظيم، والله العظيم، هذا كل شيءٍ..».

كان ماجدٌ يستمع بغضبٍ مكتوم وصمتٍ تامٍّ حتى آخر جملةٍ لها، ثم لم يتمالك نفسه سائلاً: «**متى حدثته؟! أنتِ لم تتركي الغرفة إلا لحظاتٍ مذ عرفت النتيجة!! أحدثته وأنا إلى جانبك؟!!!! أبلغت بك الوقاحة هذا الحد؟!!**»..

«**اصمت أنت.**»، نهرته مهرة وتابعت كلامها متوجهةً لميٍّ بحزم: «**بالتفصيل.. قولي لي كل كلمةٍ قالها وقلتها له بالتفصيل.**»... طالعتها أختها وهي ترمش بعينيها لحظةً ثم قالت بترددٍ: «**قال بأنه يريد أن يتحدث إليك، وبأنه حاول الاتصال بكِ، ولكنه لم يفلح.. سأل عن زوجكِ وكيف هو معك ومعنا.. ولم أقل سوى الحقيقة، بأنه رجلٌ محترمٌ جداً ويحبكِ ويعتبرنا إخوته.**»، واعتدلت قائلةً بقوةٍ: «**هذا هو كل شيء، أقسم لكِ.. ثم..**»، وترددت لحظةً قبل أن تقول بنعومةٍ: «**يبدو بأنه لايزال يهتم بكِ جداً.. و إن كنت ستتطلقين يا مهرة، فلا أرى مانعاً من أن تعودا لبعضكما.. أليس كذلك.**».

صفق ماجد كفيه مذهولاً واقترب من ميٍّ قائلاً بغضبٍ جمٍّ أفلت زمامه تماماً: «**لا إله إلا الله!!! فجراً رأيتِ أنها لابد وأن تطلق، ثم لتوك كنت تعترضين على تركها البيت، والآن تتحدثين عن زواجها برجلٍ آخر؟!!!!**» ... «**الشقة من حق الزوجة.. بإمكانها المطالبة بالفيلا**»، ردت مي بسذاجةٍ فصاح ماجدٌ: «**ما هذا الغباء الذي تتفوهين به؟!! أي شقة؟ و... بغض النظر عن خطأ مقولتك، ألا ترين أي مانع؟!!! طبعا لا ترين مانعاً، وهل ترين شيئاً على الاطلاق سوى ما تريدين في اللحظة، دون النظر لأي اعتباراتٍ أخلاقيةٍ، فلا أستبعد منكِ أي قولٍ أو فعلٍ حتى ولو كان هذا يشمل الحديث مع أختك المتزوجة عن الارتباط برجلٍ آخر، في بيت الزوجية!!!.. هذا وبالتغاضي عن أن من تتحدثين عنه هذا، والذي يطرق كل الأبواب ليتواصل معها، هو نفسه ذات الشخص الذي أغلق في وجهها كل وسائل الاتصال به ما أن فتحت له الدنيا أبوابها. ماذا جرى لكِ؟**».. استدار ليمسك بمعصم مهرةٍ ويشدها برفقٍ لتقف في مواجهته: «**أفيقي يا مهرة قبل أن تهدمي بيتكِ الذي، ودون تجميلٍ، احتواكِ أنتِ وأخويك في أضيق الأوقات..**»..

ثم همَّ بالمغادرة إلا أنها استوقفته قائلةً وقد جف حلقها وساورها خجلٌ مفاجئٌ للوضع الذي وجدت نفسها فيه أمام أخيها الصغير: **«أنا لم أفكر في الطلاق لأجل طارقٍ أو أي رجلٍ آخر، ولكن هناك أسبابٌ أخرى أعجز عن شرحها لكما الآن.. صدقني يا حبيبي.»**..

نظر إلى عيني أخته الكبيرة لحظاتٍ وبادلته هي نظراته بثبات، فعليها أن تقنعه بصدقها وإلا ستنهار صورتها لديه إلى الأبد.. سألها مباشرةً: **«أتحدثتِ إلى طارقٍ بعد تلك المرة التي أخبرتنا عنها يا مهرة؟»**.. بقيت صامتةً تحدق في عينيه لبرهةٍ، ثم قالت بثباتٍ: « **لا.**».. بقي على وضعه لحظاتٍ أخرى قبل أن يترك معصمها قائلاً وهو يتنهد: **«جيد.. أرجو ألا يتغير هذا... كما أرجوكِ أن تراجعي نفسكِ في قراركِ.. امنحي نفسكِ مهلةً قصيرةً، فكري فيها بهدوءٍ وأياً كان ما ستقررينه بعدها، فأعدك بأني سأؤيدك قلباً وقالباً.. فقط أمهلي نفسكِ فرصةً لن تمنحها لك الحياة مرة أخرى.. ولتكن المهلةُ حتى الحفل الكبير الذي سيقيمه (أبيه) نادر بمناسبة إتمام صفقة الدمج تلك.»**. تنهدت وأغمضت عينيها فعاجلها مكملاً: **«أنا أحدثك في ثلاثة أسابيع فقط يا مهرة... ليس كثيراً على قرارٍ كهذا أن تأخذي ثلاثة أسابيع لتراجعي نفسكِ وتتأكدي مما تريدين.»**.. ردت برفقٍ: **«هناك أشياء لا يمكنني البوح بها لك، أمورٌ حدثت وكلامٌ قيل بيننا ولن يمكن التراجع عنه.. صدقني حتى لو تراجعت أنا، فلن يتراجع نادرٌ، وأظنه ربما طلقني بالفعل ونحن نتحدث الآن..»**.

«ألهذا الحد؟! لِمَ؟ ما الذي حدث؟! ألهذا علاقةٌ بما حدث بين فؤادٍ وأميرة؟!!» انهالت مي بوابلٍ من الأسئلة القصيرة والسريعة، وقد لحقتهما قرب الباب، فيما أختها تهز رأسها نفياً رداً عليها، وفي النهاية قالت مهرة لتوقفها: **«ليس أياً من هذا ولن أخبركما عن أي شيءٍ، على الأقل الآن.. هيا اتركاني الآن لأعيد ترتيب أموري..»**.. قالت مي بإصرارٍ: « **ما الأمر يا مهرة؟! ألا تثقين بنا؟!! هل تظنينني بأن هناك في هذه الدنيا من يهتم بأمرك مثلنا؟ متى ستشعريننا بأننا أخويك ولسنا أبناءك؟! أتحبين أن أخفي عليك أزمةٌ أمر بها؟! لا شأن لي بماجدٍ، ولكني لن أغادر الحجرة إلا**

بعد أن أعرف ما حدث بينك وبين (أبيه) نادر.. وهذا آخر ما عندي من كلام يا مهرة، ولو صرختِ علي حتى الصباح، فلن أتزحزح من هنا حتى تخبريني بالحقيقة أو يأتي (أبيه) نادر وننهي الموضوع هنا..»، قالت تصريحها هذا وعادت لتجلس على السرير ثانيةً عاقدةً ساعديها أمام صدرها.. قالت مهرة بعصبية: «**سأخبركم إذا فيها بعد، فيكفيني أن أقص القصة مرةً واحدةً في اليوم.**». ندمت فوراً من زلة لسانها، و تعجبت مما يجري معها! سألها ماجدٌ مقطباً: «**ما الحكاية يا مهرة؟ مي محقةٌ فيما تقول.. إن كنتِ تستطيعين أن تثقي بأحدٍ هنا، فبإمكانك الوثوق بمن تربى على يديكِ. فلن تجدي غيرنا ليكتم سرك ويربت عليك! هيا يا مهرة، أخبرينا بكل شيء، وصدقيني، ستشعرين بفارق كبير بعدما تفعلين.**»..

(لا.. وإن حدث، فسيكون للأسوأ.. عن تجربةٍ) أخذت تنقل بصرها بينهما... ربما كبرا فعلاً ويستطيعان أن يتفهما ويتحملا ما كانت تشفق عليهما منه قبلاً، وآن لها أن تلوذ بهما عوضاً عن الأغراب! تنهدت باستسلامٍ وعادت لتجلس بجوار ميٍّ قائلةً بحزم: «**ولكني أقسمت عليكما بالله، ألا تتحدثا عما سأخبركما به، حتى فيما بينكما، بعدما تغادران هذه الغرفة..**».. قطب كليهما واستمعا لها بتركيزٍ وهي تعيد عليهما ما سبق وندمت على قوله لكريمةٍ، متخلية عن كل منطقٍ، ومُعرضةً عن كل صوتٍ للعقل والتريث..

بعدما انتهت من قول ما لديها والإجابة عما بدا لها استجواباً من جانب مي، حملا ذهولهما معهما وهما بالمغادرة. سألتها مي بحذرٍ وهي تقترب من ماجدٍ ليغادرا الغرفة سوياً: «**وهل نجهز حقائبنا أم ننتظر كما قال ماجدٌ حتى تمنحي (أبيه) نادر فرصة أخرى؟**».. صحح ماجد فوراً: «**لم أقل أن تمنحه فرصة، ولكن فقط لتتأكد من أن هذا ما تريد، فما قلته يا مهرة، لا أدري، ولكني لا أجده سببا للطلاق.. بل أجد فيه الكثير من المنطق من قِبل (أبيه) ..المشكلة تكمن في شعوره هو الآن إزاء تصرفكِ.. لذا خذي وقتك حتى تتأكدي من أن ما حدث بينكما لا يمكن إصلاحه ولا علاج له إلا ال.. الانفصال.**».

نقلت بصرها بينهما وعيناها ترصد التوسل القابع في نظراتهما، على اختلاف دوافعهما، فأشفقت على مي وفرحتها الوليدة، وعلى ماجدٍ وفتوته التي تشبُّ رجولة، وقالت عن غير اقتناعٍ، وإنما لتقفل أبواب النقاش حتى ترتب شئونها أكثر: «**افعلا ما شئتما ولكن لا تفتّعلا ضجةً اليوم.. و إن استطعتما ألا تتركا غرفتيكما، فسيكون هذا أفضل.**».. اعترضت مي: «**ولكني اتفقت مع صديقاتي أن نلتقي ونحتفل بالنتيجة.**».. رفعت مهرة حاجبيها قالت مقاطعة ماجدٍ قبل أن يرد: «**افعلي ما تشائين.. هيا اذهبا وافعلا ما تريدان، ولكن إياكما وأن تحدثا أحداً بما دار بيننا هنا..**». قطب ماجدٌ للحظةٍ معترضا على التلميح، ثم توجه ومي إلى وجهتيهما تاركَين مهرة وسط حيرتها وقد لاذت بثنايا فراشها الواسع، طوفها الآمن الذي سيطفو بها فوق الليالي وهبات الوحدة المتعاقبة المقبلة.



« **أنا لم أعد أحتمل كم الأخطاء الذي يردنا من قسم المحاسبة في شركة عوني شريف هذه!! لقد دار رأسي وأنا أحدثهم وأراجعهم فيها!!**» اقتربت نهلة من مكتب نادرٍ ووضعت أمامه ملفاً أزرقَ ضخماً، ولكن أيا من كلامها أو ضيقها البادي أو الملف الكبير، قد تمكن من لفت نظر نادرٍ الذي بقي محدقاً في شاشة حاسوبه يتابع فيديو بدا غير واضح وقد كتم الصوت فلم تستطع نهلة تمييز ما يتراقص أمامها من مشاهدٍ، ولكن النظرة الجامدة على وجهه والعِرق الذي ينتفض في جانب جبهته أنبآها بأن ما يرى لا يسره على الإطلاق، فقطبت حاجبيها ومالت قليلاً لتدقق في الشاشة الصغيرة متسائلةً: «**من هذا؟.. أهذا سامر؟!!... و...**»، شهقت ووضعت كفها على فاها وهي تتراجع برأسها مصدومة... قالت بعدما انتهى الفيديو: «**م.. ما هذا يا سيد نادر؟ من أين حصلت على هذا ال... الشيء؟!**»... تراجع في كرسيه وهو يعقد أصابعه أمام وجهه وعيناه لا تزال معلقة بالشاشة الصماء: «**هذا بريد إلكتروني أرسله ابن خالتي العزيز إلي كي يقنعني أكثرَ فأكثرَ بكم أني كنت مغفلاً حين أدفأت الحية في قميصي.**»..

بلعت ريقها دون أن تنبس ببنت شفةٍ وهي ترقبه بقلقٍ وهو يفرك جبهته بسبابتيه المتشابكين. رفع رأسه وسألها دون أن ينظر إليها: «**هل نفذتِ ما قلته لك هذا الصباح؟**».. ردت فوراً: «**بخصوص الشئون القانونية؟ بالطبع.**» ثم أكملت بالإنجليزية: «**تم.**».. هز رأسه قبل أن يقول برفقٍ: «**جيد جداً.. والآن دعيني وحدي وألغي كل مواعيدي اليوم.**». ترددت وهي تسأله: «**حتى موعدك مع لجنة الخبراء بخصوص آخر ..**».. مط شفتيه مستاءً إذ كان قد نسي تماماً أمر هذا الاجتماع، على غير عادته، فقال ممتعضاً: «**إلا هذا.. ولكن ما دونه فليؤجل.**».

أومأت وابتعدت، ولكنها تراجعت بعدما أمسكت بقبضة الباب لتعود وتقترب من المكتب مجدداً حتى صارت إلى جوار نادرٍ فمالت إلى الأمام لتهمس قائلةً: «**ماذا ستفعل بشأن سامرٍ؟ أعلم أنك لن تحبذ تدخلي في شأنٍ خاصٍ كهذا، ولكن اسمح لي فقط بملاحظةٍ، أو بتوضيح وجهة نظرٍ لي.**»، نظر إليها بطرف عينه دون أن يرد، ولكنه لم يعترض، فتابعت: «**تجاهله.. هو أصغر من أن يدفعك لتتصرف على نحو يتدنى بِك لمستواه.. صدقني.. سيهاب جانبك أكثر إن لم يجد رد الفعل الذي رجاه على إثر إرساله لهذا الفيديو الفَجّ.**».. حين لم تتلق رداً أكثر من نفسٍ عميقٍ وتنهيدةٍ مُتعَبةٍ غادرت بهدوءٍ تاركةً رئيسها تتآكله الغيرة وتأتي على أعصابه كالصدأ حين يسرح في الحديد الصلب ليحيله خردةً بالية.. (لم أعد أحتمل، لقد تعبت.. تعبتُ جداً.. وضقتُ ذرعاً بالجميع.).. نظر مجدداً إلى شاشة الحاسوب ثم زفر بحرقةٍ وهو يتراجع بظهر كرسيه ليميل إلى الوراء كثيراً ويغمض عينيه بقوةٍ، فلعله على وشك المواجهة التي تجنبها طويلاً ليعيد ترتيب بيته من الداخل، وليكن هذا لمرةٍ واحدةٍ... نهائيةٍ...

١٢

غاب نادر عن مائدة العشاء تلك الأمسية والأمسيات التي تليها، بل إنه في الواقع لم يقابل أحداً من أهله ذاك الأسبوع بأكمله، ولم يدل على عودته إلى الفيلا إلا رائحة القهوة المُرَّة التي كانت تفوح من مكتبه في ساعات الليل المتأخرة أو ساعات الفجر الأولى، ولم تدر مهرة أكان هذا مريحاً، إذ ربما تجاوز عن تصرفها، أم مقلقاً إذ ربما يخطط لانتقام مخيف. ولكنها امتنعت عن التفكير في نادرٍ تماما خلال هذه الفترة واكتفت بإرهاق فكرها في تدبر كيفية تسيير أمورها بعدما تغادر هذا المكان الكئيب إلى غير رجعةٍ.. الأجواء الباردة التي خيمت على الجميع أصابت أعصابها بالتجمد ولم تعد تطيق النظر في الوجوه الجامدة التي تلتقيها عند كل وجبةٍ، فحتى فؤادٌ الذي كان يحاول سابقاً التخفيف من وطأة التوتر، صار الآن شاحباً شارداً متباعداً، فلم يعد يرد بحماسٍ على ماجدٍ كما اعتاد حين يسأله الأخير عن أمورٍ متعلقةٍ بمجموعة سياراته. وشهدٌ، لم تعد تقفز وتتحدث كثيراً مثلما كانت، بل صارت تتناول وجباتها في صمتٍ تام وكأنها كبرت عشرة أعوامٍ ونظراتها تحمل أسئلةً صامتةً يَئِسَت بأعوامها القَليلة وعقلها اليانع البريء عن إيجاد أجوبةٍ مفهومةٍ لها، فاكتفت بالتطلع بعشمٍ للوجوه الواجمة علَّها تلمح فُرصة لطُرفَةٍ أو مجالاً للعبةٍ كالأيام الماضية.. حتى حسَّاب الذي وصل بعدما أرسلت أميرة في طلبه عقب آخر شجار

بينها وبين زوجها، و الذي انتهى كعادتهما بصلحٍ مُتكلِّفٍ ومكلفٍ، التزم هو الآخر صمتاً مقيتاً تعمد أن يجعله غير مريح عن طريق إرسال نظراتٍ ساخرةٍ طويلةٍ لمهرة وأخويها، وعلى الرغم من تظاهرهم بعدم ملاحظة ذلك التصرف السخيف، إلا أن هذا لم يمنعه من تضييق الحصار على صبرهم والضغط على أعصابهم شيئاً فشيئاً. في الليلة التي وصل فيها، اتصل بنادرٍ ليحدثه بشأن أميرةٍ وفؤادٍ، ولكن يبدو أن رد نادرٍ كان حاداً أو رافضاً أو شيئاً من هذا القبيل، فقد ارتفع صوت حسَّاب بكلماتٍ مؤنبةٍ عنيفةٍ، شعرت مهرة بالجزع لتصور زوجها وحالته وردة فعله وهو يستمع إليها. لقد ظلت كلمات حسَّاب ترن في أذنيها طويلاً بعدما أغلق الخط مع نادرٍ «**أنتما نبتٌ فاسدٌ لرجلٍ ظالمٍ، وستدفعون ثمن أخطائكم وأخطاء أبيكم يوماً ما يا نادر.. أنا؟!! أنا من ظننت أنكَ تختلف عن ذاك الرجل الذي أذلنا وأهاننا ومسح بكرامة أختنا الأرض، ظننت بأنك رأيت من الأخطاء والنتائج ما يجعلك أكثر احتراماً وتعقلاً؟!!!! ولكني كنت مخطئاً، واللوم ليس عليك أنت، وإنما عليَّ أنا.. فقد سمحت لنفسي بأن أخدع بكلامك المعسول وأن أحضر إلى حيث قُتِلت شقي..**»... صمته حينها أنبأها بأن زوجها يرد الآن، ومن امتقاع وجه حسَّابٍ تأكدت من أن كلمات زوجها انهالت على خاله كوابل من الرصاصات التي أَسكتت الحياة في كلماته فبدا كالتمثال مشدوهاً للحظاتٍ قبل أن يتمالك نفسه ليقول بصوتٍ خشنٍ خافتٍ شرخه الصياح: «**جميلٌ جداً جداً، هكذا نضع النقاط على الحروف وتتضح الرؤية يا سيد نادر... جيد.. فعلاً جيد.. إذا سأنتظرك لنفُضَّ هذا المولد وليذهب كلٌّ في طريقه بعدها..**»، استمع وقتها لنادرٍ هنيهةً ثم قال ساخراً: «**فليكن.. حين تتفرغ ويسمح وقتك الثمين بلقائي فستجدني بانتظارك يا سيد نادر.. يا محترم.**».. وعلى الرغم من تأكدها من عدم علمه أنها استمعت إلى أغلب مكالمتهما، إذ كانت ترقبه من خلف أجمةٍ مزهرةٍ وهو يتمشى في الحديقة جيئةً وذهاباً بعصبية، إلا أنه أذهلها أن وجدته في البيت ذلك المساء وقد توقعت بعد مكالمته النارية مع نادر أن يغادر مُقتَصَّاً لكرامته، وفاجأها كثيراً حين بادرها ليلتها على باب غرفة الطعام قائلاً وقد ضاقت عيناه: «**هل أعجبتك ردود زوجك على خاله؟**»، ولم ينتظر ردها وإنما تركها متابعاً سيره حتى

جلس إلى المائدة وشرع في تناول عشاءه في تبلدٍ. غارقةً وسط حيرتها وحرجها، مترددة ما بين الرد والتجاهل، وقفت بمدخل قاعة الطعام لحظاتٍ قليلة، ثم حسمت أمرها ودلفت وراءه متظاهرة كالجميع بأن شيئاً لم يكن، وهو الحال الذي استمر لبقية الأسبوع.

كان الصمت ملموساً هذا المساء، حتى لتكاد تقطعه بسكينٍ، وكريمة وآدم يرصون أطباق الطعام على المائدة، التي تراقصت أنوار الثريا فوق فضياتها وأطباقها الخزفية الغالية برونقٍ وخيلاء، بعدها انهمك الجميع في تناول عشاءهم، أو التلاعب به إن صح القول ورسمت قعقعة الملاعق والأشواك بانوراما معركة دارت بين القلوب والعقول فوق مستوى الشفاه..

وأخيراً، اخترق فؤادٌ حاجز الصمت قائلاً لمهرة برفقٍ: «**هل سيعود نادرٌ هذا المساء يا مهرة، أم سيبيت خارجاً؟ أنا أريد أن أحادثه في أمرٍ هام وهاتفه يحوِّل المكالمات دائماً إلى نهلة، ما معناه أنه لن يرد على أحدٍ، وأنا بالفعل أحتاج للتحدث إليه للضرورة.**». ردت بصدقٍ: «**لا أدري يا فؤاد، غالباً سيعود، و إنما متأخرٌ جداً، فأنت تعرف أنه غارقٌ هذه الأيام حتى أذنيه في وضع التفاصيل النهائية لصفقة الدمج تلك.**». رد حسَّاب ببرودٍ: «**بالتوفيق... إن شاء الله.**». أجابته مهرة بابتسامةٍ مجاملةٍ دون أن ترد، إلا أنَّه أبى أن يترك الوضع على حاله فعقَّب موجهاً حديثه للجميع: «**مذ متى ونادر، مهما بلغ انشغاله، يغيب عن البيت وأهله كل هذه المدة، لدرجة أن أخاه، شقيقه، فؤاد، لا يستطيع أن يتوصل إليه إطلاقاً؟!! أنا في عجبٍ من أمري، وآخر ما كنت أظنه أن يكون نادرٌ من صنف الأزواج الذين تُغير زوجاتهم صدورهم على أهلهم وتنسيهم حياتهم السابقة ومسئولياتهم الأخرى..**»، ثم أكمل محدثاً مهرة التي احمر وجهها بوضوحٍ: «**لا يبدو عليكِ أنكِ من هذا النوع من النساء أبداً يا مهرة!! ولكن، كما يقولونَ، من تحسبه موسى..**».. ولم يُكمل المثل المأثور تاركاً الغيظ يلوي أمعاء المسكينة بقوةٍ مؤلمةٍ، فرجعت بكرسيها إلى الوراء عازمة على الرحيل، وسقط منديل الطعام من على ركبتيها فتقدمت كريمة من ورائها، والتي كانت لا تزال بالغرفة تطمئن لترتيب كل الأصناف،

وتظاهرت بأنها تناولها إياه وتعدل لها وضع الصحن هامسةً: «**يريدكِ أن تقومي ليفتعل مشكلةٍ، ابقِ.**»..

أذعنت متألمةً والمغص يكاد يفتك بها و قد أذهلها العداء الذي بدا واضحاً لها دون مقدمات، حتى أن فؤاداً لم يتدخل ليلطف الأجواء هذه المرة واكتفى باحتساء كوباً من العصير المثلج بهدوءٍ مستفز...

«**ليس لديك حقٌّ في إحراجها هكذا يا خالي! الفتاة المسكينة تعاني مثلنا تجاهل نادرٍ وانكبابه على عمله، وكأنه يهرب من البيت، لا العكس!.**» قال سامرٌ عبارته بلطفٍ وهو يبتسم لمهرة، ولكنها عجزت من شدة الألم عن الرد ولو حتى بابتسامةٍ واهنةٍ، فابتلعت ريقها وتحاملت على نفسها لتقول بأدبٍ: «**لا أظن الأمر كبيراً إلى هذا الحد، ولا جديداً.. فقط أظن أن الصفقة هذه المرة تعد من أكبر الصفقات التي عقدها في حياته.. لا أكثر.**».. قال ماجدٌ بسرعةٍ: «**فعلاً.. هو أخبرني بنفسه عنها وعن مدى أهميتها وكيف أنها ستقفز به في السوق إلى العالمية.. وفقه الله.**».

قال فؤادٌ بهدوءٍ وقد بدا شارداً للحظاتٍ: «**نعم.. بالفعل..**». ثم عاد ليقول لزوجة أخيه مؤكداً: «**ولكن أرجو ألا تنسي أن تخبريه بضرورة التحدث إليَّ يا مهرة.**»، وأكمل بالإنجليزية: «**أرجوك.**».. هزت رأسها مؤكدةً عزمها، وبينها وبين نفسها تتساءل عن كيفية الوصول لزوجها وعجزت عن تخيل طبيعة الحوار بينهما، ولا حتى كيف وبأي العبارات ستستهله!

بل تساءلت كيف ستصل إليه من الأساس!! فإن كان الحال هكذا مع فؤادٍ، وإن كانت نهلة ترفض تحويله لنادرٍ وهو أحد الشركاء وصاحب رأس المال، فكيف سيكون الحال معها هي وبخاصةٍ أن كل هذا الوضع وهذه الحالة بسببها هي من الأساس؟!... مطت شفتيها وهي تدلف حجرتها بعدما ألقت تحية المساء على أخويها اللذين انضما لبعضٍ في غرفة ميٍّ، وأغلقت الباب وراءها برفقٍ مستندة عليه بظهرها بقوة وكأنها تصد قوى التوتر الغاشمة أن تدخل وراءها... تنفست ببطءٍ لبضع دقائق دون عزيمة تعينها على الابتعاد عن الخشب البارد الأصم، وقد تملك الضعف

من ساقيها، ولكنها قاومت رغبتها في الجلوس حيث تقف وسارت نحو الفراش ببطءٍ وذراعيها يتأرجحان إلى جانبها بتراخٍ حتى كاد الهاتف المحمول يسقط من كفها من شدة الإحباط والنعاس.. جلست على حافة الفراش وأطلقت زفيراً عالياً وهي تنظر إلى الأعلى تستجدي القوة من الله على المكالمة التي هي مقبلةٌ عليها.. رن الجرس طويلاً دون ردٍّ حتى انقطع الاتصال، فأعادت الكرَّة بصبرٍ، ولكنها حين لم تتلق رداً هذه المرة، اعتدلت واتصلت مجدداً بتحفزٍ، والغضب يزحف إلى مشاعرها ليوقظ حواسها كلها دفعةً واحدةً فأحرقت الشاشة الصغيرة بنيران عينيها مرتقبةً أن يفتح زوجها الخط في أي لحظةٍ حين يلحظ إلحاحها، ولكنها فوجئت بصوت نهلةٍ الناعم ينصب كالماء المثلج في أذنها وهي ترد بأدبٍ باردٍ حازم: «**أهلا، مساء الخير..**». رفعت مهرة حاجبها وهي ترد بنفس البرود: «**مساء النور.. من معي؟ أليس هذا هاتف السيد نادر عز العرب؟**». جاءها الرد بنفس النبرة: «**نعم يا فندم، وأنا نهلة، سكرتيرته الشخصية.. بمَ يمكن أن أخدمكِ، فالسيد نادرٌ في اجتماع مغلقٍ ولن يستطيع الردَّ الآن.**».. قالت مهرة بغضبٍ ظاهرٍ: «**أنا زوجته، وأظن أن اسمي ظهر أمامك على الشاشة قبل أن تردي يا آنسة.. من فضلك أخبريه بأن هناك أمراً مُلحاً جداً ولابد أن أتحدث إليه.**»، توقعت أن تحرج المرأة على الطرف الآخر بمباغتتها بهذه الطريقة ولكن آمالها تبددت مع الرد الهادئ المحترف: «**تشرفت يا سيدة مهرة، أرجو أن تكوني بخير حالٍ.. أرجو أن تعذريني على قلة ذوقي، فضغط العمل هذه الأيام أنسانا أسماءنا.. ولكن هذا ليس عذراً لهذه الهفوة..**». (نعم!!! ما هذا البرود!!).. قالت مهرة وقد قررت بألا تبدو الموظفة لدى زوجها أكثر لباقةٍ منها: «**لا بأس يا آنسة نهلة، لَم يحدث شيء.. صليني بنادرٍ من فضلك.**».. ردت نهلة فوراً: «**ولكنه الآن ف...**»، إلا أن مهرة قاطعتها بقوةٍ: «**أخبريه بأن هناك أمراً طارئاً.. من فضلك يا آنسة... أنا لن أغلق الخط، وليخبرني بنفسه بأنه مشغول**».. صمتٌ معبرٌ عبر الأسلاك للحظاتٍ أتبعه رد نهلة المهذب: «**حاضر يا سيدة.. لحظات وسيتصل بك.. سأخبره حالا.**».. سحبت

مهـرة نفسـاً عميقـاً وهـي تـرد بعنـادٍ: «**سـأنتظر عـلى الخـط.. رجـاءً أسرعي.**».
عـاد الصمت يتمشـى بـين المرأتين بتثاقـلٍ حتى أوقفتـه نهلة قائلةً بـأدبٍ جَمٍّ:
«**أمـركِ.. ائـذني لي لأخـبره.**».. «**تفضـلي.**» قالتهـا مهرة بتشـفٍّ منتشـيةً بانتصار
إرادتهـا، ولكـن الأصـوات التـي ترامـت إلى مسـامعها عبر الهاتف اسـترعت
انتباههـا فأنصتـت بانتبـاه لتميِّـز صـوت زوجهـا وهـو يتحـدث لسـكرتيرته
فيـما بـدا لهـا حديثاً وديـاً تخللتـه ضحكةٌ قصـيرةٌ منهـا. سرى دبيـب الغيرة في
قلبها وشـعرت بسـخونةٍ تعتـلي خديها وتغـرق أذنيهـا، فاتجهت نحـو الشرفة
علَّ نسـيم الليـل يطفـئ شـيئاً مـن النـار التـي عربـدت في صدرهـا، ومـع
أولى خطواتهـا إلى الخـارج جاءهـا صـوت زوجهـا الـذي بـدا وكأن أذنيها قد
افتقدتـاه إذ ضغطـت الهاتـف على أذنها أكثر لا شـعورياً، كان يبـدو متعباً وهو
يقـول بصـوتٍ خافـتٍ: «**ألـو... مهـرة؟**». ابتلعـت ريقها لـترد بثبـاتٍ وهميٍّ:
«**نعـم.. أنـا..**»، فرد بقلـقٍ واضح: «**خـيراً يا مهرة؟ مـاذا حـدث؟**». قالت برفقٍ:
«**أردت أن.. لم أعـد أرك، وأردت الاطمئنـان عليـك.. هـل تعتنـي بنفسـك جيـداً؟
أعنـي.. هـل تناولـت غـداءك اليـوم؟.**».. عضت شـفتها السـفلى بقـوةٍ (ما هذا
الهذيـان؟!!!! مـاذا أقـول؟!!! ما أغبـاني!! لن ألومـه إن أغلق الخـط بوجهي
وقـد أخرجتـه مـن اجتماعـه لأهـذي بمثـل هـذه التفاهـات!)، ولكنـه قـال
بهـدوءٍ بعدمـا اسـتغرق لحظـاتٍ ليسـتوعب مـا قالـت والتحول الجـذري في
موقفهـا منـه: «**لا تقلقـي.. فحتى إن نسـيت فسـيذكرني مـن معـي.. لا تقلقي.**»..
أفلـت منهـا السـؤال قبـل أن تمسـكه: «**تقصـد نهلـة؟**»... (توقفـي.. توقفـي
الآن.. ادخـلي في صلـب الموضـوع.) كانت تؤنب نفسـها بقوةٍ حـين أتاها رده
الخافـت: «**مـاذا تريدين يـا مهرة؟ مـا الأمر العاجل الطـارئ الذي حدث واسـتلزم
اسـتدعائي مـن اجتماعٍ هـامٍ في هذا الوقت وبهـذه الصـورة؟**». ردت مدافعةً: «**فؤادٌ
يريـدك، وقـد اتصـل بـك كثـيراً، ولكـن تلـك الـ.. نهلـة رفضـت توصيـل المكالمـة
إليـك، فطلـب مني محاولـة الوصـول إليـك وإخبـارك بأنـه يريدك لأمـرٍ هـامٍ جداً
وعاجـلٍ.**»... شـعرت بنـبرةٍ غريبةٍ في صوتـه، لو أرادت أن تمنح نفسـها بعض
الأمـل لصنفتهـا خيبـة أمـلٍ، وهـو يتسـاءل: «**فـؤاد؟**».. قالـت كالطفلة حين

تـشي بغريمتهـا: «**نعـم.. ألم تخـبرك نهلـة؟.**». رد برفـقٍ: «**ربـما أخبرتنـي ولم أنتبه، وربـما نسـيت.. عامـةً لا مشـكلة، سـأمرُّ عليـه بغرفتـه الليلـة إن كان بالبيـت حـين أعـود.. أهنـاك شيءٌ آخـر؟ النـاس بانتظـاري، فالوقـت متأخـرٌ والجميـع متعـبٌ، ويريـدون أن ننهـي الاجتـماع في أقـرب وقت..**».

أدارت عينيها في الحديقة أسفلها باحثةً عن شيء آخر تقوله لتطيل المحادثة ولو لدقائق، ففي نبرة صوت نادرٍ، وعلى الرغم من استعجاله ورغبته في إنهاء الاتصال، لمست تسامحاً ورفقاً، أشعراها براحةٍ عجيبةٍ وأيقظا بقلبها عشماً حَيِيّاً تعجبت هي نفسها من وجوده.. أخيراً وجدت ضالتها فقالت بصوتٍ خافتٍ: «**لقد ظهرت نتيجة تنسيق مي.. طب القاهرة. الحمد لله.**».. هوت معنوياتها من حالقٍ وهي تسمع رده البارد: «**مبروك.. هل هذا كل شيء.**».. لم ترد، ولم تَدْرِ بِمَ تَرُدّ، وليس هذا فحسب، وإنما جعلتها الدموع التي طفرت في عينيها تشهق برفقٍ ليستمع هو إلى أنفاسها المتهدجة بصمتٍ.. بقيا على هذه الحال حتى قطع صوت نهلة تلك اللحظة الخاصة وهي تقول من بعيدٍ: «**سيد نادر، هل ننهي الاجتماع ونكمله غداً؟.**».. فاجأ نادر مهرة بإعادة السؤال عليها: «**ما رأيك يا مهرة.. هل أكمل الاجتماع غداً؟.**»... ردت وسط شهقاتها: «**هل ستعود إلى البيت حينها.**».. سمعت الابتسامة بصوته وهو يقول: «**نعم.**».. ردت بدورها: «**نادر، أنا.. لم أكن...**»، ومنعتها شهقاتها عن إتمام اعتذارها وقد عجزت تماماً عن فهم ما تمر به الآن من انهيارٍ وضعفٍ.. رفع نادرٌ صوته قليلاً مخاطباً نهلة: «**نكمل غداً إن شاء الله، وليكن في السابعة صباحاً..**».. أنهى الاتصال دون أن يضيف كلمةً أخرى، ليكمل عقلها الحديث مع نفسه متسائلاً بتعجبٍ عن سبب تصرفها هذا وعن معنى تصرف زوجها!! أتريد منه أن يسامحها وأن تعود الأمور إلى نصابها بينهما، أم تريد الطلاق منه ونسيان كل ما يتعلق به؟! كيف سيكون لقاءهما الآن بعد هذه المكالمة؟!! هل تتوقع حساباً أم عتاباً؟! وهل تخطى نادرٌ بالفعل فعلتها وتجاوز عنها بهذه البساطة!؟ وإن فعل، فهل فعل هذا على طريقة فلنحفظ هذا بصندوق الأمانات لحين الحاجة للرجوع إليه ككارتٍ رابحٍ، بعقلية رجل الأعمال، أم أنه حقاً سامحها وقدر مدى الضغط والضعف الذي شعرت به نظراً

للظرف التي مرت بها، وذلك بقلب الزوج المحب؟!!! وهل خيانة الثقة أمرٌ يسهل طيه ونسيانه؟ والأهم، ماذا يتوقع نادرٌ أن يحدث الآن؟.. ليتها لم تطلب منه إنهاء الاجتماع، فسيعود الآن بعشمٍ ورغبةٍ في إنهاء الجمود بينهما بأسهل وأقصر طريقةٍ يعرفها الأزواج!! فهل هي مستعدةٌ لمثل هذه الخطوة؟ الآن؟! الليلة؟! بالطبع لا، وكيف يمكن أن تتحول فوراً من النقيض إلى النقيض؟!! ألقت نظرةً سريعةً على الفراش خلفها قبل أن تستدير ثانيةً لتواجه الحديقة وقد أغمضت عينيها بقوةٍ (ماذا فعلت؟!!! وماذا أفعل الآن؟!! هل أتصل به لأخبره بأن يعود لعمله، وأتكل عليه ليفهم هو قصدي؟! ألن يعيد هذا الوضع بيننا إلى ما كان عليه، وربما أسوأ، إذ ألن يكفي أن يتسامح هو ويصفح، فأتباهى أنا وأتدلل؟!!). غطت وجهها بكفيها وهمست برجاءٍ لم يسمعه إلا فراشات الليل الصغيرة ونجمات السماء البعيدة: «**يا الله، يا الله، يا الله!!!**»....

استسلمت لصوت الرُّشد وعادت إلى الداخل علَّها تستطيع إصلاح مظهرها المرهق وانتظار زوجها بطلَّة قد تساعدها في قول ما تريد، وأن يتقبل هو ما تقول، دون أن يفعل بها ما يريد...



ما ستقوله مهرة، لابد وأن تقوله.. وما سيقوله هو ويقرره لابد أيضاً وأن يكون، ولكن ليس هناك من بدٍّ إلا من إنهاء حالة اللَّا سلم واللا حرب تلك، ولو على غيرِ ما يحب، فلم يكن معتاداً أبداً على هذا النوع من ابتلاع الغدر وانتظار الأمور كي تنفرج وحدها.. لم يدرِ ما حل به لدى سماع صوتها، فقد نزلت شهقاتها على حمم الغضب التي كانت تتفجر بصدره كل لحظةٍ يتذكر فيها مهرة وفعلتها، لتحولها إلى صخرٍ أملسٍ باردٍ يُثقل قلبه ويهوى به بين ضلوعه، حتى أن نفسه البائسة بدأت تراوده عن مسامحتها، وأخذت تسبِّب وتعلل ما لا يُسبب ولا يُعقل، فلعل الليلة تكون بدايةً جديدةً لهما وأنَّ كل ما حدث يمهد لعلاقةٍ طويلةٍ قويةٍ مبنيةٍ على أساسٍ متينٍ من الوضوح والصراحة... (ما هذا

السخف؟!!! أأطلي الغدر بلون الصراحة فقط لأني أحببتها؟!! يا للسخف!! ماذا حل بي؟ أنسيت؟)..

حين وصل عند بوابة الفيلا، أمسك هاتفه واتصل برقم فؤادٍ. انتظر بصبرٍ حتى تلقى الرد من الطرف الآخر: «**هالو!**».. سحب نادرٌ نفساً عميقاً قائلاً بهدوءٍ: «**مساء الخير يا أميرة، آسف إن كنت أيقظتك، ولكني ظننت فؤاداً مستيقظاً كعادته في هذا الوقت.. أهو نائم؟**»، لم يكن قد تحدث إليها مذ تلك المرة في مكتبه، ولم يعلم إلى أين آلت الأمور بينها وبين فؤادٍ، ولكن ردها على هاتف شقيقه طمأنه إلى عودتهما إلى رشدهما، وأنها بالتأكيد لم تحدث فؤاداً بما أخبرته، وإلا لاحتدمت الأمور إلى غير انصلاحٍ.. أجابته بدلالٍ: «**لا، ها هو إلى جواري.. لحظة واحدة.. هل أنت في عجلةٍ، سيستحم ويتصل بك..**». رفع نادرٌ حاجبه مندهشاً من جرأتها ولكنه رد بأدبٍ: «**لا بأس، سألقاه بمكتبي.**». انهى الاتصال وضحك من قلبه رغماً عنه وهو يستدير بسيارته ليوقفها أمام باب الفيلا. صعد الدرجات الخارجية القليلة قفزاً وهو يصفر لحناً قديماً دون أن يشعر، ولكنه تردد وأبطأ الخطو وهو يرتقي الدرجات الرخامية المؤدية إلى جناح الغرف، فهل يصعد إلى غرفته حيث تنتظره زوجته والمواجهة المحتومة وربما الراحة من أوجاع سكنت قلبه أياماً، أم ينتظر فؤاداً ليرى ما يريده منه أولاً حتى لا يضطر لترك زوجته وسط هذا الموقف الشائك لأي سببٍ كان......

استقر قراره على الرأي الثاني، فعاد أدراجه هابطاً ليدلف غرفة مكتبه التي ما أن دخلها حتى تنفس الصعداء وكأنه سمكة أعيدت إلى المياه الزرقاء بعدما أغراها الطعم، في صورة امرأةٍ سمراء، لتتعلق بسنارة الحب الزائف ويسحبها صيادٌ قاسٍ ليرميها بلا رحمة على رمال أحرقتها نار الحسرةِ والغضب.. استرخى على الأريكة الجلدية العريضة مريحاً رأسه إلى الوراء مغمض العينين وقد خلع جاكيته وحل عقدة ربطة عنقه قليلاً.. شعر بانقباضٍ خفيف في عضلات صدره ورقبته وهو يسمع مقبض الباب يدور ولكنه لم يحرك ساكناً ولم يفتح عينيه، واكتفى بأن ربت بكفه على الأريكة مشيراً لفؤادٍ بأن يجلس إلى جواره،

وقد شعر به يمتثل لطلبه الصامت بهدوءٍ، ولكن الرائحة النفاذة التي اخترقت حواسه واللمسة الناعمة التي مسدت خده جعلته يجفل مدركاً أن من تجلس بجواره ليست سوى زوجة أخيه في ثياب نومها الخفيفة ملتفة بروبٍ حريري أسودٍ لا يخفي بأكثر مما يكشف، فقال فوراً وهو ينتفض واقفاً: «**ماذا تفعلين هنا يا أميرة؟ أجننتِ؟! أين زوجكِ؟**». رفعت ساقها الطويلة لتريحها فوق الأخرى وقالت بجذلٍ وعيناها ترصدان الجزع في وجه حبيبها المتقع: «**بالأعلى، يستحم كما أخبرتك.. اهدأ، فهو لن ينزل إلى هنا قريباً.**»، وأشارت إلى حيث كان جالساً منذ لحظاتٍ متابعةً: «**تعال.. اجلس، فالتعب بادٍ عليك فوق ما تتصور.**». وضع يديه في جيبي سرواله وقد عقد حاجبيه بشدةٍ سائلاً بضيقٍ واضحٍ: «**ما الأمر الآن؟ ماذا تريدين؟ أنا أحمل فوق رأسي مشاكل..**»، ولكنها قاطعته بنفس النبرة الهادئة الواثقة: «**أنت لم ترَ المشاكل بعد.. صدقني، فما هو آتٍ لأعظم وأمَرّ.**».. اقترب منها خطوةً ولكنه بقي محافظاً على يديه في جيبيه وقد ضم قبضتيه بقوةٍ، ليمنع نفسه من أن يدق عنقها الهش قائلاً بعينين ضيقتين وقد تقارب حاجباه أكثر حتى كادا يتلامسان: «**أنت تهددينني مجدداً يا أميرة، وأنا لا أُحذِّر إلا مرةً واحدةً.. لذا أطلب منكِ، وبمنتهى الأدب والهدوء أن تغادري الحجرة فوراً، وائت بكل ما لديك، ولكن تذكري ألا تلومي إلا نفسك..**».. ورفع صوته قائلاً بحزمٍ: «**هيا.. انصرفي.**»..

تمكنت بمهارة من إخفاء ارتباكها وخوفها وقالت دون أن يرفَّ لها جفن وقد وقفت لتحدق في عينيه عن قربٍ: «**ولم كل هذا؟ ألا تهدأ وتستمع إلى ما جئت لأقوله، فلربما توصلنا لحلٍ يريح الجميع دون أن يكون هناك خاسرٌ ورابحٌ..**»، ومدت يدها الصغيرة تلامس كمَّه برفقٍ ولون طلاء أظافرها الفضي يتلألأ على قماش قميصه الرمادي بقوةٍ رغم الإضاءة الهادئة: «**أنت آخر مخلوقٍ في الدنيا قد أرغب في إيذائه، وأظنك تعلم هذا جيداً.. أرجوك أن تكف عن عنادك، فانظر إلى أين أدى بنا إلى الآن!!**».. تراجع خطوة قبل أن يستدير ليجلس خلف مكتبه وهو يحاول أن يكوِّن صورةً عمَّ يمكن أن يكون نوع المواءمة الذي ستقترحه ابنة خالته الجريئة وقد شعر بها تتبعه لتستقر على أحد الكراسي المقابلة لمكتبه،

وقد تناقض مظهرها المتحرر المثير مع المكان الذي ينطق بالجدية والعملية. قال بعدما جلست: «**أين فؤاد؟ لِمَ لَمْ ينزل كما أخبرتني؟**».. ضحكت بسخريةٍ ولم يفته نبرة المرارة التي لونت كلماتها: «**أخوك سكران، شرِب حتى الثمالة و ..**»، رفعت حاجبها ولوت شفتها باستياءٍ متابعةً: «**لم يشعر بنفسه و لا بما فعل... وما لم يفعل**».. أشاح بوجهه لحظاتٍ متظاهراً بتفقد شاشة هاتفه ثم عاد يراقبها وهي تقول ببطءٍ: «**أحياناً كثيرةً أرغب في أن تتألم بشدةٍ يا نادر لعنادك الذي أوصلنا لهذه الحال.. كلانا يتعذب ويعاني مع شريكٍ لا يشعر به ولا يقدر أحاسيسه، بل وربما لا يفهمه من الأساس... تخيل الحال لو كنا..**»، قاطعها بحزم: «**اقتراحاتك يا أميرة.. لا داع لنخوض في أمورٍ لم ولن تحدث.. ولا يجوز الحديث فيها الآن.**».. استوعبت كلامه بصمتٍ ثم أرجعت شعرها عن رقبتها قائلةً بحزمٍ قاطع: «**أعرض عليك شراكتي.. في كل شيء.. حتى..**» وأشارت بإصبعها اللامعِ نحوه دون أن تكمل عبارتها. عند هذه النقطة أدرك نادرٌ ألا مجال للرجوع إلى الوراء، وأن المرأة التي أمامه قد وصلت لحدٍ من اللامبالاةِ والرغبة في تحقيق مآربها قد تدفعها لفعل أي شيءٍ، فقال ببطءٍ: «**أنتِ فقدتِ صوابك تماماً، أليس كذلك؟!! ألا تخشين أن تكون كلمتكِ في مقابل كلمتي عند زوجكِ، أخي؟! أسمعتِ ما قلت بنفسك الآن؟ أنت تهذين يا أميرة، وهذا اللقاء انتهى... وقبل أن تنصرفي اسمعي مني بضع كلماتٍ زنيها بميزان العقل جيداً واعطها حقها من الاهتمام، لأنها ستكون آخر كلماتي إليكِ، ولتعتبريها دستوراً يحدد كل علاقةٍ وحدٍّ في هذا البيت لصالحكِ وصالح الجميع... ستعودين الآن إلى غرفتك، إلى زوجك.. أخي.. وستمنحينه كل ما تمنحه الزوجة المحترمة من إخلاصٍ واحترام يستحقه.. ولن تتحدثي معي أو مع أيٍّ كان في الأمور المادية، كما لن تذكري أمر الملايين أو الشراكة هذه على لسانك، ولو من باب التغني أو المزاح، مرةً أخرى.. وأخوكِ و خالكِ لا كلام لهما معي فيما يخصكِ أنتِ وزوجك، إطلاقاً.. وهذا أمرٌ نهائي.. ومن جانبي، أعدكِ بشرفي، بأن كل ما قلتِ الآن ومن قبل، وجميع تصرفاتك غير المسئولةِ هذه، ستظل طيَّ الكتمان إلى يوم الدين.. هذا وعدٌ مني.. وسأعمل جهدي لتعود الحياة في هذا البيت إلى ما كانت عليه يوماً، أو أقرب ما يمكن إليها.. كما أعدك أن تعيشي معززةً مكرمةً وسأنسى تماماً... تماماً... هذا**

الاجتماع..». تراجع في كرسيه يراقبها وهي تحدق إليه والدموع تطفر في عينيها دون أن تغادرهما، وانتظر حتى قالت باستسلامٍ غريبٍ: «**كما ترى يا نادر.. كما ترى..**». ضغطت على جبهتها بأطراف أصابعها مكملةً: «**الصداع سيقتلني..**»..
فتح درج مكتبه وأخرج شريطاً لأقراصٍ مسكنةٍ قدمه إليها بصمتٍ واتجه إلى الثلاجة الصغيرة المخفية في الحائط الخشبي ليخرج قارورة مياهٍ معدنيةٍ صغيرةٍ ثم عاد ليقف أمامها ماداً إليها يده بها، فوقفت بدورها، و... حدث كل شيءٍ بسرعة.. لقد ارتمت بين ذراعيه وألصقت شفتيها بفمه بقوةٍ، و لشدة ذهوله استغرق لحظة ليستوعب ما يحدث قبل أن يدفعها بقوةٍ لتسقط على الكرسي خلفها ويصيح وهو يغادر مكتبه كالريح: «**لعنك الله.. لعنك الله.**»..

كان يقفز الدرجات قفزاً والدم يضج في رأسه وأذنيه بقوةٍ وقلبه يخفق بعنفٍ، وقد تملكه غضب لم يشعر بمثيله يوماً في حياته. قادته قدماه لحجرة فؤادٍ فدخلها دون تفكيرٍ أو استئذانٍ، واندفع نحو الفراش منادياً بصوتٍ عالٍ: «**فؤاد؟ استيقظ.. أفق مما أنت فيه... فؤاد؟!**».. لم يجد أخاه في فراشه كما افترض، فتوقف لحظاتٍ ليسترجع كل ما حدث ويحاول فهمه وتحليله.. هل يعقل أن يكون فؤادٌ غير موجودٍ أصلاً في البيت الآن و أن أميرة دفعته كي يصعد إلى هنا كي تلحق به؟!!! أيعقل أن يكون سامرٌ قد رتب لتصويره في غرفة شقيقه مع زوجته، التي هي شقيقته؟! أيمكن أن يبلغ به الانحطاط والخبث هذا الحد؟ هل خاله على علمٍ بهذه المهازل؟ ليس هذا وقت التردد و التفكير، فلربما اتصلت بفؤادٍ وأخبرته بأن أخاه هاجمها في مخدعها!!! (يا لحماقتي). هم بالخروج كمن يهرب من طاعونٍ فتاكٍ وهو يسأل الله ألا يقابل أحداً في هذه اللحظة وألا يراه أحدٌ وهو يغادر الغرفة. ثم تذكر بأن أميرةً ردت عليه من هاتف شقيقه، ما يعني بالضرورة وجوده هنا.. استوقفه صوت سعالٍ صادرٍ عن الحمام، فأطرق السمع ليستبين أصحيحٌ ما سمع أم أنه من نسج خياله وعقله المحموم.. قطب حاجبيه حين سمع صفيراً خفيفاً فاقترب بخفةٍ من مصدر الصوت حتى تبين وجود أخيه في حوض الاستحمام الواسع الأبيض كسائر الغرفة التي ذكرته بعنابر المشافي القديمة. كان فؤادٌ في حالةٍ مزريةٍ وقد انتفش شعره واحمرت

عيناه وبدا في حالة ما بين الوعي واللا وعي، لم تكن جديدةٌ على نادرٍ رؤيته عليها، ولكنه تعجب عودته إليها بعدما هجر الخمر مذ عام على الأقل!! فما السبب الذي يمكن أن يدفعه ليعاقر ذاك الشراب اللعين مُجدداً! تقدم وهو ينادي أخاه بخفوتٍ كي لا يجفل: «**فؤاد!! ما بك يا حبيبي؟ فؤاد! أتسمعني؟**».. اقترب ليجلس على حافة الحوض ومد يده ليبلل وجه أخيه فوجد الماء بارداً كالثلج ما جعله يعتدل ويحاول إخراج أخيه غير آبهٍ لثيابه التي ابتلت تماماً، ولكنه صُدم حين دفعه فؤادٌ بعدما انتصب واقفاً وسط الحوض والماء يجري على جسده العاري المترنح صائحاً: «**دعني وشأني.. أنت بالذات، لا تتدخل في شئوني مجدداً أبداً.. مفهوم؟**».. ارتمى جالساً في الحوض مجدداً دون أن يمنعه نادرٌ الذي ألجمته الصدمة والمفاجأة من موجة العدائية الشديدة التي لطمته مع المياه المنتشرة من الحوض إثر ارتطام أخيه بها، فجلس هو الآخر متجاهلاً التعليق الجارح وقد رسم ابتسامةً مُحبةً على وجهه قائلاً بهدوءٍ: «**حاضر، سأدعك وشأنك.. ولكنك أبلغت مهرة بأن هناك أمراً ضرورياً تريد أن تحدثني به، فهل أعود لنتحدث في وقتٍ لاحقٍ أم ماذا؟ أنا رهن أمرك.**».

ضحك فؤادٌ عالياً وأمسك بكف نادرٍ وقبّلها، ثم قال وهو يربت على ظهر يده التي لازال يمسك بها: «**يدك باردةٌ جداً يا أخي، يقولون أن أصحاب الأكفِّ الباردة قلوبهم ممتلئةٌ بالحب.. لابد وأنك تعشق مهرة أكثر من أي مخلوق آخر في الدنيا.. ومؤكدٌ بأن ثقتك بها فاقت أي قدرٍ من الثقة منحته لأحدٍ على وجه الأرض يوماً، أليس كذلك؟..**».. قطب نادرٌ حاجبيه دون أن يرد وأنصت لأخيه وهو يَشْتَمُّ رائحة وشايةٍ خسيسةٍ في الأجواء: «**ولكن، هل كانت هي على قدر الثقة المطلقة التي منحتها إياها يا ترى؟ أم تذوقت على يديها طعم الغدر وخيانة الثقة يا نادر؟ إحساسٌ قاتلٌ أن تكتشف أن الخديعة لم تأتِكَ إلا من أقرب وأعز من لديكَ في هذا العالم.. أليس كذلك؟ أتعرف مع من كنت أتحدث قبل دخولك، وكان يجلس تماماً حيث تجلس؟ أيمكنك أن تخمِّن..**»، وحين لم يجبه نادرٌ تابع بسخريةٍ: «**الوالد... رحمة الله عليه... أوتعلم ماذا كان يريد؟**»... حافظ نادرٌ على صمته وقبضةٌ صارمةٌ تطبق على رئتيه فتسحقهما وتنتزع الهواء منهما كما يُنتزع الشوك

من الجلد الحي، وشقيقه يكمل: «**كان يلومني على عدم زيارتي له في مرضه، لأني لم أعرفه بشهيرةٍ وشهدٍ... أبي.. تذكره طبعاً يا نادر.. ذاك الرجل الذي لطالما فضلك عليَّ حتى أنك كنت تقر بذنوب اقترفتها أنا لتنقذني من عقابه الصارم الشرس متأكداً من أنه لن يزيد عن نظرة عتابٍ قصيرةٍ لك... ذاك الرجل الذي ما كان يدخر جهداً ليشعرني بأني العبء الذي ما كان يجب أن يتحمله، وأنني السبب في ترمله وفقدانه زوجته.. اليوم يضيف إلى قائمة دناءتي، تقصيري معه في مرضه وإعراضي عن إمتاعه بحفيدته الوحيدة.. وليس هذا فحسب، بل والرقص والاستمتاع بحياتي ولم يمر على وفاته إلا أيام... تخيل وسط كل هذا، لم يفكر في أن يلمك أنت ولو قليلا على كذبك وخداعك لي كل هذه الأعوام..**». رفع صوته ودموع الغضب تتراقص في عينيه: «**كل هذه السنوات يا نادر وأنا آمنُكَ على نفسي ومالي وطفلتي.. على حياتي كلها، حرفياً يا رجل، وأنت تحيك المؤامرات وتغزل الخطط حولنا بدم باردٍ!!!!! تخدعني أنا؟!! أنا يا نادر؟!!! أنا؟!!!! أبوك حيٌّ كل تلك السنوات وأنت تدعي موته؟! هكذا؟! بكل بساطة؟!!!!!**».. مد ذراعه وطوَّق بها رقبة أخيه ليشده مقرباً وجهيهما من بعضهما: «**ما الأمر؟ أأكلت القطة لسان نادرٍ بك فعجز أخيراً عن إيجاد ردٍّ منمقٍ أو كذبةٍ جديدةٍ يغلف بها أكاذيبه القديمة؟!!**».. سحب نادرٌ نفسه بقوةٍ وشعر بالحيطان البيضاء حوله تطبق عليه شيئاً فشيئاً، ولكنه تماسك وقال وهو يعدل ثيابه ويقف معتدلاً: «**أرى أن ننتظر لنتحدث في الصباح، علَّك تكون أكثر وعياً ورشداً حينها.**»..

رد فؤادٌ ببرودٍ وهو يرجع رأسه إلى الوراء ويغلق عينيه والكلمات تخرج من فمه كأنه يتغنى بكلمات أغنيةٍ خفيفةٍ: «**لم يعد هناك ما يقال.. نفذ الكلام.. أريد أموالي..**».. عضَّ نادرٌ على شفته السفلى بقوة ليمنع سباباً عنيفاً كاد يفلت منه، وقال بعصبيةٍ: «**خذ ما تريد! وهل سألتك يوماً عما أخذت أو فيما أنفقت.. المال مالك مثلما هو مالي.. تصبح على خير.**». «**لا أريد مالاً، أريد المال يا نادر.. نصيبي .. في كل شيء.. الشركات والمصانع والفنادق والقرية السياحية والمزرعة والفيلات... حتى في هذه الفيلا.. أريد أن أفض الشراكة وأن أُقَسِّم كل شيءٍ... مناصفة.**».. مسح نادرُ وجهه بكفه وهو يقول وأعصابه تتوثب على حافة الانفلات: «**ماذا؟! ماذا**

تريد؟!». رد فؤادٌ بقوةٍ وهو يزوي ما بين حاجبيه: «**شرع الله!.. مات أبي وأطالب بحقي في الميراث! ما الغريب في هذا؟!**».

عاد نادر ليجلس على حافة الحوضِ وهو يقول بصبرٍ، عل الخمر هي سبب كل هذا الهذر، وسيستيقظ فؤادٌ منها ليعود إلى صوابه ويدرك عظم ما يقول: «**ولكنك بالفعل تمتلك نصيبك وفق شرع الله وعقود بيعٍ سليمة! أنت تعلم يا فؤاد أني لا أملك أن أمنعك من فعل ما تريد بمالك، ولكن من حقي أن أشرح موقفي وأن أوضح سبب ما فعلت، ولعلك لا تنكر بأني راعيت الله في مالك وحملت مسئوليته بأحسن ما أستطيع.. إلا أن ما تطلبه الآن ليست مجرد أرقامٍ على ورقٍ، إنها صفقاتٌ ومعاملاتٌ وأموالٌ متداخلةٌ في أكثر من مائة جهةٍ ومصلحةٍ.. لذا، عملياً، ولو على الأقل في الوقت الحالي، ما تطلبه يعدُّ مستحيلاً بكل الأشكال.. أنت استلمت الأعمال فترةً جعلتك تدرك أن كل شيء متداخل ومتشابك مع أمور أخرى.. أليس كذلك؟..**». رفع فؤادٌ أحد حاجبيه وهو يقول بفمٍ ملتوٍ: «**كل ما تقول وارد حدوثه في ثروة أي شخصٍ، وحين يموت، يقسم الورثة التَّركة بما يرضي الله، دون التحجج بالمصالح و ال..**»... قاطعه نادرٌ صائحاً: «**بما يرضي الله؟!! وشرع الله..!!! ألا ترى أن حالك تتناقض بشدةٍ مع ما تقول!! مالك وشرع الله، والخمر تدخل جوفك أكثر من الماء؟!!! ثم، من قال لك بأن الورثة دائماً ما يهدمون أسماءً وشركاتٍ ليفتتوا تجارةً ضخمةً كتجارتنا؟! وأين تلك التركة التي تتحدث عنها، لم يمتلك أباك شيئاً قبل موته لنقسمه، وما تريده وتطلبه الآن، هو تدمير شركاتك أنت!! أنت بالفعل تهذي، وكلامك يخلو من العقل والمنطق.. اسمع يا فؤاد، لا تدع الخمر، أو حتى الغضب يدمر حياتك، فحين تدرك خطأك سيكون قد فات أوان الندم... اعقل كلامك بالله عليك، وكفاني ما أنا فيه.**»..

ضحك فؤادٌ بخفةٍ فأغمض نادرٌ عينيه مطأطئاً بيأسٍ من حال أخيه التي ما تنفك تنحدر لهوة التطرف في البؤس كلما ارتقت بضع درجات على طريق السعادة. «**أنت خائف على مصالحك وأعمالك، أليس كذلك؟.**» قالها فؤادٌ بخفوتٍ جعل نادراً يأمل بأن تكون ثورة أخيه قد هدأت وبأن

صـوت العقـل قـد وجـد منفـذاً يهمـس مـن خلالـه في أذنه، فـرد بهـدوءٍ هو الآخـر: «**يـا أخـي، وهـل هـذا عيـب؟! وهـل مصالحـي تتعـارض ومصالحك؟!! أيهـا السـاذج، وما أنا ومـا أنت إلا واحـداً يا فؤاد، كنا وسـنظل هكذا!! أنت لسـت أخـي فقـط، أنـت كل عائلتـي، كل ما لـدي يا فـؤاد.. دعنـي أشرح لك ملابسـات مـا حـدث، واسـمعها على ضـوء علاقتنا ومـا تعرفه عنـي، ولا ترى الأمـر بعين من أخـبرك، ورأيـه بي.... فلنتحـدث صباحـاً، أنـا مرهـقٌ بصورةٍ غـير طبيعيةٍ وأشـعر بـأني لا أسـتطيع إبقـاء عينـي مفتوحتين أكثـر. وفي ضـوء النهار، وحـين يغيب تأثير الـشرب عـن رأسـك، سـتجد أن الأمر ليـس بالسـوء ولا بالحجـم الـذي تتصوره، وسـتقدر موقفـي وتـدرك ما تحمَّلـت لأحمينـا، أنا وأنت وشـهد.. تصـب..**»...

قاطعه فؤادٌ ببرودٍ: «**أفهم وأقدر وأشكرك... ولكني لن أتراجع عن مطلبي. لقد فكرت جيداً وهذا القرار يريحني ويناسبني.**». رد نادٌر بغضبٍ: «**ولكنه لا يناسبني أنا يا أخي!!! أنت لا تتحدث عن كومة أوراق بنكنوتٍ فقط، أنت تتحدث عن سهر ليالٍ واستنزاف أعصابٍ وسنوات، وعمرٍ قضيته في تأسيس ما تطلب قصَّه بمنشارٍ إلى نصفين، أنت تتحدث عن حياتي وعالمي الذي أسسته على مدار ما يزيد عن خمسة عشر عاماً دون أن أرتاح ساعةً واحدةً، لتأتيني أنت الآن بهراء الإرث والحق والشرع!!!! أين حقي أنا إذاً، ها؟ أم أن كل هذا لا وزن له لديك؟!..**»

سحب فؤادٌ نفساً عميقاً بطيئاً قبل أن يقول بفجاجةٍ وبرود مستفزَين: «**قَدِّر عرَقَك وأعوام عملك واقتطعها من نصيبي ثم اعطني ما تبقى من نصيبي وأنا أقبل أياً كان ما سيتبقى... أراضٍ الآن؟ أيناسبك هذا؟.**»...

الماء البارد الذي اقتحم أنفه وأذنيه وعينيه دفع الوعي دفعاً إلى عقله بقدر ما كان يدفع الهواء خارج رئتيه وهو يقاوم بقوةٍ قبضة أخيه التي قبضت على شعره بقوة وغطسته تحت الماء بثباتٍ دون ترددٍ أو لمحةَ تراجع وسمع شقيقه يهدر بغضبٍ عارم: «**أفق يا أخي، أفق من سباتك العميق وغيبوبتك الحسية.. أنت متبلدٌ، عديم الحسٍ، لا أمل فيكَ فعلاً، وقد صبرتُ عليك كثيراً أملاً في أن ينصلح حالك وأنا أراك تضيع زوجتك وابنتك ونفسك.. والآن، تستدير علي لتحطمني**

وتحطم كل ما نملك.. عَرَقي؟!! أتقول لي أنا مثل هذا الكلام؟!! أتظن بأنك تستطيع أن تمارس عليّ أعمال البلطجة التي تمارسها على الجميع؟! وابنتك؟!!! ألم تخطر ببالك؟!».. شعر فؤادٌ برئتيه على وشك الانفجار وقد بدأ يرى بقعاً سوداءَ وهو يتخبط في الماء محاولاً التغلب على قبضة أخيه التي تبقي رأسه تحت الماء، دون جدوى، وقد ألان الخمر أطرافه وفكك السكر أوصاله..

وأخيراً، و حين ظن أنه يلفظ أنفاسه، واستسلم لقدره، رفعه نادرٌ بقسوةٍ ثم ترك شعره وقال والغضب واليأس لا يزالان يخضبان كلماته بألوان مقيتةٍ قاتمةٍ وهو يراقب بلا تأثرٍ أخاه يشهق ويسعل ويعطس بقوةٍ ليطرد الماء من أنفه: «**أنا لن أسمح لك أبداً أن تخاطبني بمثل هذه العجرفة، ولا أن تستخف بما أفعل، وهو بالمناسبة ما يبقيك أنت السيد فؤاد الذي يرش الألوف حيثُما حل... فإياك أن تفكر ثانيةً بهذه الطريقة.. هي ليست لعبة!!!! يا الله!!! لكم قاومت لأثبت للجميع بأن نظرتهم إليكَ لم تكن في محلها، ولكن يبدو أن حبي لك أعماني عن رؤية ما يرون.. ليتك تكون استفقت الآن ولو قليلاً، ولتركز أكثر في حياتك الأسرية وحاول إصلاحها والنجاح فيها هذه المرة لأجل ابنتك المسكينة.. كف عن التفكير فيما لا علم لك به، وسأكون بانتظارك حين يعود إليك صوابك لنتفاهم ولأشرح لك بالتفصيل كل الأمور التي حجبتها عنك.... لأحميك.. يا**»، و شدد على حروف كلماته متابعاً: «**أخي.. يا شقيقي.**».

غادر الحمام والغرفة كلها، وعلى أكتافه حِمل الهزيمة والألم يزدادان حتى أحنيا ظهره فسار مطأطئاً (ماذا يحدث؟!) .. لم يشعر بماجدٍ الذي سلم عليه وهو يمر من أمامه شارداً حتى بلغ حجرته فوقف أمام الباب القاتم يتأمله بصمتٍ حزينٍ وكأنه يتأمل من تختبئ وراءه، صاحبة الضربة القاسمة واللطمة المدوية التي اهتز على إثرها أساس هذا البيت بأكمله... تلك الإنسانة التي احتواها كطائرٍ ضعيفٍ صغيرٍ بريءٍ ليجدها تتحول بين يديه إلى غراب مشئوم ينشر الخراب حيثما فتح فاه... تنهد ولكنه لم يتحرك ... (لم؟ ومِن أجل مَن؟!!! مِن أجل مَن يا مهرة؟!!)..

«(أبيه)!! **أهناك خطبٌ ما؟!**» سؤال ماجدٍ البسيط جعله ينفجر ضاحكاً وهو يستدير مجيباً بسخريةٍ مُرَّة: «**خطب؟؟!! هيه..**»، مد يده يربت على كتف الشاب اليافع مكملاً: «**ما دمتم بخير فأنا بخير.**».. استشعر ماجدٌ نبرةً غريبةً في صوته وخشي أن تكون شقيقته قد حدثته بما أخبرتهما به هو ومي الأسبوع الماضي، فألحَّ: «**لا تبدو بخيرٍ يا (أبيه)، صوتك به شيءٌ يقلقني.**»..

تأمل نادرٌ وجه ماجدٍ ذو الملامح السمحة ونظرة القلق الحقيقية في عينيه.. ابتسم بعد لحظاتٍ وهو يرد بصدقٍ: «**لا تشغل بالك.. بعض الضغوط، وأنا معتاد على هذا، فلا تقلق..**».. تنهد مجدداً وهو يراقبه ينزل الدرج ببراءةٍ وإقبال هذا السن، إذ لا يرى الشاب مشكلة في الكون لا يحلها نزهة مع صديقٍ أو جَمعة أصدقاءٍ في مقهى... ارتعش قلبه للحظةٍ ولكنه عاد ليتمالك نفسه، فلو كان قلبه يرق لكل شخصٍ لما كان هو من هو الآن... ما حدث جللٌ، ولابد من دفع الثمن، ولو كان هذا على حساب أناس لا ناقة لهم ولا جمل كهذا الفتي المسكين. (لم تفكري حتى في أخويك وما سيحل بهما بعدما تهدمين أحلاماً ما كانوا ليجرؤوا على نسجها لولا أن منحتهما أنت الأمل بزواجنا في ما يمكن أن يكون عليه مستقبلهما بعدما تذوقا حياة الرفاهية والراحة والأمان!!كيف تتحول إنسانةٌ من شدة الحرص وحسن التدبير والعكوف على تنشئة شابين بمفردها فتحسن تربيتهما، وبعد كل سنوات الكفاح التي خاضتها، إلى مخلوقٍ متهورٍ بمثل هذه الأنانية والغدر؟! أكل ما فعلت من صوابٍ كان فقط لأنها لم يكن لديها خيارٌ آخر؟ من يتحكم بالآخر: أخلاقنا تحدد اختياراتنا وظروفنا، أم الظروف هي التي تفرض علينا اختياراتنا وتحدد أخلاقنا؟). استدار لينزل هو الآخر متراجعاً عن لقاء زوجته وقد فقد كل رغبةٍ في لقائها والحديث إليها، فلن تؤدي مواجهتها وهو على هذه الحالة إلا إلى افتضاح المزيد من الأسرار وتدمير ترتيباته التي اتخذها لتصحيح الأوضاع... (ربما اضطرتني الظروف أنا الآخر يا عزيزتي لاتخاذ قراراتٍ مصيريةٍ ستفاجئك... ولكنك دفعتني دفعاً لهذا..)..

كان ماجد بالقاعة الواسعة يتابع مباراة كرة قدم بتركيزٍ وحماسٍ شديدين، فلم ينتبه لنادرٍ وهو يقترب منه حتى قال الأخير: «**ماجد، سأعود إلى الشركة إذ طرأ أمرٌ هام، ولكني أريد منك خدمةً..**».. قفز ماجدٌ واقفاً بتأهبٍ وحماسٍ جعلا نادراً يغمض عينيه آسفاً للحظةٍ، وليقول برفقٍ بعدها: «**أخبر مهرة بأن تأتي إلى الشركة غداً، وليكن صباحاً.. أنا أعددت لها مفاجأة وإن أخبرتها بنفسي فستظل تسألني عمَّ هي حتى أضطر أخيراً لإخبارها، ولذا ستتصدر أنت لهذه المهمة وتتحمل عني تساؤلات شقيقتك، فما رأيك؟ هل أنت لها؟**».. أعجب مزاحه الفتى فقال فوراً وهو يؤدي التحية العسكرية: «**تمام يا فندم.**».. ضحكا وسلم نادرُ عليه بودٍ حقيقيٍّ قبل أن يغادر بهدوءٍ مثلما عاد، دون أن ينتبه للحية التي نسيها في غرفة مكتبه تتلوى غيظاً وحقداً...



لم تنتظر نهلة عودة نادرٍ لتلَقِّي الأخبار الجديدة، لتقلب الشركة رأساً على عقبٍ وتُحيل الأجواء إلى جحيم مستعرٍ، حتى أن الموظفين على اختلاف وظائفهم تجنبوا تماماً الرد عليها إلا للضرورة حين تسأل أحدهم سؤالاً مباشراً وانطلقوا يركضون هنا وهناك لتنفيذ أوامرها، وقد منحها قربها الشديد من نادرٍ، وهَول الخبر الذي تلقته منذ ساعتين، كل الحق في كل ما تفعل من صراخٍ ورميٍ للفاكسات نحو الحائط وانتقادٍ حادٍ لزملائها.. كانوا يدركون أن كلَّ هذا لا يعد قطرةً من بحر ما ينتظرهم على يد نادرٍ حين يصل ليسمع الخبر المقيت...

«**أريد رئيس القسم الإعلامي أمامي فوراً، ورئيس الشئون القانونية، وأرسلي هذا الشيء إلى مكتب الأمن ومُري الأمن بأن يمنعه من مغادرةِ الشركة حتى إشعارٍ آخر مني أو من السيد نادرٍ، مفهوم.**».. «**حاضر.**» قفزت إحدى السكرتيرات لتنفذ الأوامر وقد صَحِبَت معها موظف الشئون القانونية الذي طلب نادرٌ حضوره إلى مكتبه للتحقيق معه شخصياً في واقعة تبديد أوراقٍ قانونيةٍ خاصة بالشركة وبيع أسرار الشركة للخصوم، إذ أن الوضع الآن أخطر وأهم من أمرٍ

تافهٍ كهذا الموظف البائس... زفرت وهي تلقي أحد هواتفها المحمولة الثلاثة، بعد أن اتصلت بنادرٍ للمرة الألف هذا الصباح لتجد هاتفه لا يزال مغلقاً، وها قد شارفت الساعة على التاسعة صباحاً ولم يظهر له أثرٌ بعد... «**فليبلغ أحدكم أفراد الأمن على البوابة بإعلامي فور وصول السيد نادر.. بسرعةٍ.**».. صاحت بنفاذ صبرٍ لزميلتها التي كانت تهم بالمغادرة فردت فوراً: «**تمام، لا تقلقي.. ألم تصلي إليه بعد؟**». حدجتها بنظرةٍ ناريةٍ قائلةً: «**ما رأيكِ أنت؟**»..

لم تزد الأخرى كلمةً وأمسكت المحامي الشاب من مرفقه قائلةً بعصبيةٍ: «**هيا.. تحرك، و كأننا كنا بحاجة لأمثالك أنت الآخر.**».. أفلت ذراعه من يدها والتفت يقول لنهلةٍ بيأسٍ: «**يا آنسة، الملف والأوراق كلها كانت على مكتبي صباح أمس، وأقسم بالله بأني لم أحركها من مكانها ولكني ذهبت للاجتماع الذي دعا له رئيس القسم لأعود وأجدها قد اختفت.. أرجوكِ أن تقولي هذا للسي..**». قاطعته وهي ترجع شعرها، الذي بدا مشتعلا في ضوء الشمس الذي اخترق الزجاج ليسقط على رؤوسهم جميعاً كشلال حمم غاشم تصدت لحرارته فتحات التكييف المركزية المنتشرة في السقف بنجاحٍ: «**إذاً، تحاسب على إهمالك الجسيم.. والآن دعني فيما أنا فيه وانتظر عودة السيد نادرٍ ليبتَّ في أمرك..**»، وهزت رأسها مكملةً بسخريةٍ: «**ويا لك من محظوظٍ، ليقرر مصيرك اليوم من دون سائر الأيام.. ليلطف الله بك.**».

لم تنتظر رده وجلست تضرب على لوحة مفاتيح حاسوبها بعصبيةٍ وتقلب في بعض الأوراق بجانبها، فابتعد وقد تهدل كتفاه وسار مجرجراً قدميه بجوار السكرتيرة التي أمسكته كالسجان وهي تسحبه بسرعةٍ لتلقيه في مكتب الأمن وتغادر ركضاً بعدما سلمت الأمانة وبلغت الرسالة الهامة.. وتساءل الشاب (ماذا حدث؟! هل انهارت البورصة مجددا؟!)..



«هل قامت الحرب؟ ما الأمر؟ مائة اتصال؟! ألا أستطيع أن أرتاح لبضع ساعاتٍ؟! ها؟ هاتِ ما لديكِ؟ ما الأمر الجلل الذي وقع ولا يستطيع انتظار وصولي، فأجد أمن البوابة يبلغني ببحثك عني كما ولو كنتُ طفلاً تائهاً؟!».. بادر نادرٌ نهلةً بوابلِ الانتقادات هذا وهو يدلف من باب مكتبه ويخلع جاكيته متجهاً إلى مقعده الكبير .. لم يكن هذا أبداً هو المزاج الذي قد يشجع نهلة على الكلام في أي موضوعٍ مهما بلغت بساطته، فما بالك بخبرٍ كالذي تحمله في هذه القصاصة الصغيرة اللّعينة.. ولأنها لم تجد من الكلمات ما تعبر به ببساطةٍ عن الموضوع، فقد آثرت الصمت واكتفت بمد يدها بالفاكس الذي وصلهم منذ باكراً ليصبغ نهاراً كاملاً باللون الأسود!!. التقط نادرٌ منها الورقة بحدةٍ، إذ لم تفلح السويعات التي قضاها مستلقياً على الفراش الواسع في الفندق، حيث أمضى ليلته، محدقاً بالسقف يقاتل رغبةً عنيفةً في تكسير ما حوله وتمزيق كل ما تطاله يده إلى أشلاءٍ، في تخفيف توتره أو حدة الصداع الذي صار يضرب رأسه الآن ضرباً كالمطرقة، ليجد حين فتح هاتفه أن نهلة لم تكف عن الاتصال به في حين لم يصله اتصالٌ واحدُ لا من فؤادٍ، وقد تعشم أن يعود الأخير لرشده فيتصل به ليعتذر عما بدر منه، ولا من مهرةٍ، التي كان من المفترض أنها تنتظر عودته ولكنها لم تكلف خاطرها أن تتصل به لتعلم لِمَ لَمْ يَعُد!! أضافت خيبات الأمل هذه حملاً ثقيلاً رزح صدره تحته فلم يشعر هذا الصباح برغبةٍ في مغادرة الفراش ولا مباشرة العمل بطبيعته المستنزفة لكل طاقةٍ ومقدرةٍ نفسيةٍ وبدنيةٍ..

زفر وهو يباشر في قراءة الكلمات التي ما لبثت أن أخذت تتراقص أمام عينيه اللتين اتسعتا في غير تصديقٍ قبل أن يلقي بالورقة على سطح المكتب صائحاً بجنونٍ: **«ما هذا الهراء؟ كيف هذا؟ أهي لعبة؟ ما معنى هذا الكلام الفارغ، ومن أين جاؤوا بمثل هذه المعلومات المغلوطة؟! انطقي!!!.»**.. بلعت نهلة ريقها بصعوبةٍ وردت بصوتٍ مبحوحٍ: **«لا أدري؟! أنا مصدومةٌ وأبحث منذ الصباح ع...»**، ولكنه قاطعها متسائلاً في حدة: **«مصدومةٌ؟!!! تُوقف صفقة انتهينا بعد سنواتٍ من الإعداد والاجتماعات، من وضع اللمسات والاتفاقات النهائية لها، ونرسل إلى وكالات الأنباء والصحف تسريباتٍ عن إتمامها، ثم تُوْقَف فجأة، بدون**

مقدماتٍ، وبدون اتصالٍ بنا أو الرجوع إلينا بسبب إشاعةٍ تافهةٍ لا أساس لها ، وتقولين مصدومة؟! أتتقاضين أجرك هنا لكي تُصدمي بدلا مني؟ ما مصدر هذه المعلومات؟ بمن اتصلتِ حتى الآن؟ وماذا فعلتِ لوقف هذه المهزلة؟!!».. وقفت تهتز فصرخ بها: «تكلمي!!».. انتفضت مشيرةً إلى حاسوبه المحمول على مكتبه قائلةً بتلعثم: «لقد حاولت التوصل للصحفي الذي سرب هذه الإشاعة ووجدته يعمل في صحيفةٍ صفراء تصدر من الاسكندرية، وهو مغمورٌ وقد اتصلت بمعارفنا ومكاتبنا هناك ليجدوا لنا وسيلة اتصالٍ به، وفي انتظار ردهم.. أما الشركة الأجنبية، فلم أستطع التواصل معهم حتى الآن، فكلما اتصلت طلبوا مني معاودة الاتصال لاحقاً لحدوث ظرفٍ طارئٍ لديهم! لا أفهم حتى وإن صحت الإشاعة، فكيف سيُضيرهم هذا؟ أعني بأنهم سيحصلون على أموالهم في جميع الأحوال، أليس كذلك.»..

كان يطالعها والجنون ينطق من عينيه قبل أن يهدر، حتى خافت من أن ينهار إثر انفعاله الشديد: «لا يا نهلة، لا يا هانم.. ليس الأمر بهذه البساطة، وأنتِ بالذات تعرفين أكثر من غيرِكِ، فكيف تسألين سؤالاً بهذه السذاجة والسطحية؟!! مع شائعة كهذه، ربما ظنوا أننا سنماطل في التنفيذ حتى نرتب بيتنا من الداخل بينما تضيع عليهم فرص عروضٍ أفضل. إن انتشر هذا الخبر انهرنا وضاعت سمعتنا للأبد وستتزعزع ثقة مستثمرينا وشركائنا فينا، وربما أُلغيت الكثير من الصفقات المقبلة أو سرقها منا منافسينا الذين يقفون ببابنا متحينين فرصةً كهذه لينقضوا علينا ويمزقوننا أشلاءً دون رحمةٍ.. عملنا سمعةٌ وأوراق سليمة..... عملنا.. عملنا...». وضرب حاسوبه بكفه ليلقيه إلى الحائط المجاور مكملاً: «جِدي مصدر هذه المعلومات بأسرع ما تستطيعين.». همت بالانصراف قبل أن تتراجع قائلةً بحذرٍ: «نادر!.».. كان قد أولاها ظهره ليواجه النافذة وهو ينتظر الرد من الطرف الآخر للاتصال على هاتفه المحمول، فأدار رأسه قليلاً ولم يفته مناداتها له بدون ألقابٍ، وهو ما لا تفعله إلا لتقول شيئاً يتطلب أن تذكره بقربهما، قائلاً بتعجلٍ: «نعم؟!».. قالت برفقٍ: «هل.. أعني.. هذه الإشاعات.. بالطبع ليست صحيحة ؟ أليس كذلك..». استدار بعد أن رمقها بلا تعابير من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، قائلاً بلباقةٍ متجاهلاً إياها وسؤالها، وهو يجيب على محدثه على الطرف الآخر من الخط، وقد تمكن باحترافٍ من السيطرةِ على نبرة صوته وانفعالاته: «معالي

الوزير، آسف على إزعاجك وأنا أعلم مدى انشغالك ومسئولياتك الجسيمة، كان الله في عون معاليك.... العفو يا باشا، هي لا تليق بمعاليك، ولكن إن شاء الله أفضل وأرقى منها للجميلة عروسنا الغالية قريباً إن شاء الله..»..

استدارت وغادرت وقلبها يخفق بقوةٍ... هل هي النهاية؟!! أهكذا يسقط الكبار؟!! بكلمة؟!!! هل تشهدُ بداية انهيار مجموعة من المجموعات الاقتصادية الضاربة التي لها من العمر ما يوازي سنوات عمرها هي؟!! لم تقلق لما سيئول إليه مصيرها بقدر قلقها على مصير نادرٍ وما سيحل به إن كبرت هذه الموجة ولم تنحسر سريعاً بعد ما أحدثت هذا الضرر البالغ ، والتي في حال تمكن من تخطيها، فسيقضي سنواتٍ طوال يتعافى من تبعاتها على شخصه وعمله سواءً... ولكن من أين يمكن أن يحصل أي مخلوق على معلومةٍ بهذه الدقة والسرية والخصوصية؟!!!

رن جرس هاتفها فالتقطته فوراً وأجابت فور ما ميَّزت رقم أحد العاملين بإحدى شركاتهم بالإسكندرية: «**عادل؟! هات ما لديك، وأرجوك ألا تقل بأنك لم تصل لشيءٍ.. أرجوك.**»... استمعت لمحدثها بتركيزٍ شديدٍ وهي تخط على ورقةٍ بيضاء ما ينصب في أذنها من معلومات، حتى ضربت أذنها معلومةٌ جعلت القلم يتجمد بيدها قبل أن يخط الاسم الذي سمعته وعيناها تتسعان عن آخرهما ومحدثها يتابع: «**أنا لم أصدق، وظننته مجرد تشابه أسماءٍ، ولكني ذهبت إلى هناك بنفسي وقابلته متظاهراً بأني عميلٌ، وكان في عجلةٍ من أمره متعللاً بضرورة عودته إلى القاهرة فوراً.. إنه هو بالفعل يا نهلة!!**».. غطت عينيها بكفها وهي تتنفس بحدةٍ (يا للمصيبة!! أيعقل هذا؟ ماذا يحدث؟! هل قامت القيامة؟!! كان الله في عونك يا نادر، وليستر الله على الجميع فيما سيحدث في الأيام المقبلة). سحبت نفساً عميقاً ثم قالت بصوتٍ خافتٍ شديد الجدية: «**اسمع يا عادل، لا أريد أن يتسرب ما قلته لي تواً لأي مخلوقٍ، مهما بلغت قرابته للسيد نادر، أو منصبه في الشركة.. مفهوم.**».. رد عادلٌ فوراً: «**أتمزحين؟! عيبٌ عليكِ!!بالطبع! لا يمكن أن أفتح فمي بكلمة..**»، فردت بأدبٍ: «**أعلم هذا يا عادل، ولكن اعذرني.. اعذرني.**».. أنهت المكالمة وعادت مجدداً لمكتب نادرٍ لتجده لا يزال

منشغلاً باتصالاته فلوَّحت بالورقة لتلفت انتباهه. أشار إليها بأن تضعها على المكتب وتنصرف، فانصاعت بصمتٍ واستدارت مغادرةً، ولكن ليس قبل أن تسمعه يقول بالإنجليزية: «**عظيم، اتفقنا..**»، وضحك مجيباً: «**لا، بالطبع لا.. ربما لم يفهموا الفاكس كما يجب.. ليس خطأك يا عزيزتي، لا تقلقي.. بالتأكيد لدينا كل المعاملات والأوراق، فلا تقلقي.. عظيم، هذا بالضبط ما أردت سماعه، شكراً عزيزتي.. لا أستطيع الانتظار لألقاك.. حسنٌ.. إلى اللقاء.**»...

كان صوته أهدأ وملامحه ألين وحتى الجو في مكتبه كان أقل توتراً، فهدأت أعصابها قليلاً وتنفست ببطءٍ وهي تُمَنِّي نفسها بانفراجٍ قريبٍ للأزمة كما استشفت.. ولكن أبت الراحة أن تلوح ولو من بعيدٍ كالسراب، إذ أتاها صوت رئيسها عبر جهاز الاتصال الداخلي قائلاً بحدةٍ: «**تعالي حالا..**». (نعم، بالطبع... الورقة.. هه! أي راحةٍ وأي انفراج).. «**أمرُك، حالاً**».. قفزت من على كرسيها الأنيق وهمت بالدخول إلا أن زميلتها التي كلفتها نهلة بعدة مهام مذ قليلٍ بادرتها مذكرةً: «**ذكِّريه بمشكلة الشئون القانونية، فرئيس القسم يود أنْ يبدأ التحقيق فوراً ليرفع تقريره للسيد نادرٍ ويحرر بلاغاً في الرجل قبل نهاية النهار.**». زفرت نهلة وهي تومئ موافقةً.. طرقت الباب برفقٍ ودلفت بهدوءٍ تسير بثوبها الناعم الليلكيّ كالفراشة في رقتها ونعومتها.. تعمدت أن تبتسم علها تلطف الأجواء قليلاً ليتسنى لها مفاتحته في مشكلة الشئون القانونية هي الأخرى وقالت برقةٍ: «**تحت أمرك يا سيد نادر.**».. كان هادئاً مستنداً بظهره إلى كرسيه وقد مال إلى الوراء قليلاً، ولولا الهالات السوداء حول عينيه والخطوط الرفيعة الغائرة حول فمه وعينيه لبدا مرتاحاً هانئ البال، ما جعلها تتابع بابتسامةٍ حقيقيةٍ هذه المرة: «**لقد عدنا إلى ما كنا عليه، أليس كذلك؟ الصفقة تسير كما نريد وتمكنت من السيطرة على الأزمة، كالمعتاد.. أليس كذلك يا سيد نادر؟**»..

ابتسم ببرودٍ عجيبٍ وأشار للورقة الملقاة بإهمالٍ على مكتبه بطرف إصبعه متعمداً عدم الرد عليها سائلاً بهدوءٍ، بدا مفتعلاً قليلاً الآن: «**ما هذا؟**». جلست على حافة الكرسي المقابل له وقالت وقد عقدت أصابعها في

حجرها وهي تتساءل بصمتٍ عن معنى سلوكه الغريب: «**عادل مهنا، مدير فرع المجموعة في الاسكندرية، اتصل بأحد أصدقائه الصحافيين، والذي تكفل بالبحث في مصدر الصحيفة الصفراء التي روجت تفاصيل الصفقة والإشاعات حول تفكك المجموعة وانتهاء الشراكة بينك وبين شريكك الوحيد، السيد فؤاد، وبعض تفاصيل حساباتك وحسابات السيد فؤاد، وكذلك،..... تنويه عن أسباب الشقاق ... ليجد أن الصحيفة مملوكة لرئيس تحريرها حمدي الغوري، ولكنه صاحبٌ صوري، والمالك الحقيقي هو أيضاً صاحب شركة استيرادٍ وتصديرٍ وهميةٍ أو خاملةٍ، إذ تقوم فقط بدور السمسرة التجارية وتوفيق الصفقات بين الشركات الكبرى عن طريق سرقة معلوماتٍ وبيانات عنها وبيعها للخصوم وأشياء من هذا القبيل.. واتضح أن صاحب كلتيهما، الشركة والجريدة هو السيد ... حسَّ...**».. قاطعها ماطاً شفتيه بسخريةٍ: «**نعم، نعم... قرأت الورقة.**» وأكملٍ بتراخٍ: «**وأنت صُدمتِ بالطبع.**» وتابع وهو يقف ويدور حول مكتبه واضعاً يديه في جيبي سرواله ليقف في مواجهتها ما جعلها تقف بدورها: «**أتعلمين ماذا أدركت تواً؟ أن من فعل هذه الفعلة متواطئٌ مباشرةً في هذه المؤامرة مع أحد العاملين هنا ممن لهم الصلاحية للولوج إلى جهاز حاسوبي الشخصي وله كامل الحرية في الوصول للبيانات والحسابات.**»، وعد على أصابعه: «**وهُم تحديداً، أنا... وأنتِ. والمصادفة العجيبة هي أنك كنت بالإسكندريةِ الشهر الماضي. وأعترف بذكاءِ أي كان من دبر هذه الخديعة إذ تمكن من حبكِ خيوطها حول رقبتي دون أن يساورني أدنى شكٍ، مستعينا بأقرب الناس لي، وفي النهاية يُلقي بكل هذه الخيوط في يد خالي فقط ليسحبها برفقٍ وهدوء وينفذ.. أحقر خطة يكون أطرافها مجموعة من الأقارب، تنتهي بتصفية حساباتٍ عائليةٍ، فأنهار وسمعتي، فيما يبقى المدبر بعيداً تماماً عن الصورة.. مَن؟ .**»، ضيَّق عينيه قائلاً وقد انتفض عرقٌ في جانب خده: «**أي خصمٍ عتيدٍ تمكن أخيراً من صيدكِ يا سمكتي الذهبية؟ بم وعدك أكثر مما أعطيتك إلى الآن؟ أم أنها تصفيةُ حسابٍ قديمٍ ظننتنا صفيناه؟**». شحب وجهها بشدةٍ حتى بدت وكأنها سيغشى عليها، ولكنه لم يحرك ساكناً في انتظار ردها وعيناه تتفحصانها بدقة.. لم يعرف لم تلقى صدمته فيها بهذا البرود! أم هل اتخذ سلوكه هذا حجاباً يخفي به صدمته العظيمة في

خاله؟!! ما هذا الفراغ والبساطة التي يشعر بها؟!! تساءل بحيرةٍ، هل صُدِم حقاً فيهما؟!! إذاً لِمَ ليس ثائراً أو مجروحاً!! هل أنعم الله عليه أخيراً بفقد القدرة على الإحساس والتأثر؟! حسنٌ، إن ماتت أحاسيسه، فنعما هي..

لم تفتح نهلة فاها ولم تطرف بعينيها، حتى بدت كتمثال الشمع ببشرتها الشديدة البياض والتي بدت شفافة تحت ضوء الشمس الذي أرسل أذرعاً لعوبةً لتلامس ذراعيها بجرأة.. لم يتحرك نادرٌ هو الآخر حتى فُتح باب الغرفة بعد بضع دقاتٍ مهذبةٍ، لتظهر على عتبته سكرتيرة من طاقم السكرتاريا قائلةً بأدبٍ بالغٍ قطعت به مبارزة الأعين الحامية: «**السيدة هنا يا سيد نادر.**». أفلتت نهلة عينيها منْ عينيه ببطءٍ واستدارت تغادر الغرفة ونادرٌ من ورائها ينظر لظهرها بعصبيةٍ وقد أغضبه مقاطعته، و وتره وصول مهرة في مثل هذا التوقيت، بعد أن رتب للقائهما ترتيباً خاصاً غير مدركٍ للسيرك الذي كان بانتظاره، ولكم كَرِهَ أن تراه مهرةٌ في مثل هذا الحال من الفوضى والإنهاك والتوتر، فقال لنهلة بضيقٍ: «**كلامنا لم ينته.. والآن، ماذا حدث بخصوص الشئون القانونية؟.**» كانت قد وصلت على أعتاب الباب وتمكنت حيث تقف من رؤية مهرةٍ ببنطالها الأبيض وقميصها البرتقالي المقسم بخيوطٍ بيضاء دقيقةٍ وهي تبتسم لهذا وذاك، فاستدارت تردُّ ببرودٍ: «**الرجل في قبضة رجال أمن الشركة بانتظار استدعاءك له هو ورئيس لجنة الشئون القانونية.. أوامرك؟**».. قال بتوترٍ: «**ائتني بالمحامي فوراً. ولكن لا تدخليه مباشرة.. أبقيه بمكتبكِ عشر دقائق قبل إدخاله علي**».. أومأت واستدارت تبتسم تحيةً لزوجةِ مديرها التي بادلتها الابتسامة بتكلفٍ، قبل أن تدخل الغرفة المضيئة الواسعة تاركةً أمر إغلاق الباب للسكرتيرة الشابة...

١٣

« **لم تأتِ كما أخبرتني بأنكَ ستفعل بالأمس!**».. «**وأنتِ لم تسألي عن السببِ قبل الآن.**».. هكذا ابتدآ لقاءهما، وكل منهما ينظر إلى الآخر محاولاً فهمه وسبر أغواره.. قالت وهي تسوي جلستها على الأريكة حيث أشار إليها بأن تجلس: «**أول مرةٍ تطلب مني أن آتي إلى الشركة! خيراً يا نادر؟ أقلقني ماجدٌ حين أبلغني بطلبك.**».. جلس إلى جوارها وعلى الرغم من محاولته الظهور مرتاحاً إلا أن توتر عضلات كتفيه والوريد الذي ينبض بقوةٍ في جانب جبهته أنبآها بأنه يعاني ضغطاً شديداً وأنه يتمالك أعصابه بصعوبةٍ، فوضعت كفها برفقٍ على ركبته سائلةً بجديةٍ: «**ما بك يا نادر؟ لا تبدو بخير..**»..

غطى يدها بكفه وأمعن النظر في عينيها قبل أن يقرب وجهه منها سائلاً بغموضٍ: «**أين ومتى فقدتكِ؟ فيمَ قصَّرت؟ أم أنكِ لم تكوني يوماً لي يا مهرة؟**».. ابتلعت ريقها بصعوبةٍ وقد شارف حاجباها على التلامس وقالت وهي تهز رأسها بتساؤلٍ: «**ماذا؟ ماذا تقصد؟ عمَّ تتحدث؟!**».. لمس ذقنها وهو يحدق بشفتيها لوهلةٍ حتى ظنته سيقبلها، إلا أنه قال برقةٍ أربكتها إذ تنافت مع محتوى كلماته: «**لقد أحببتكِ بقدر ما يمكن لرجلٍ أن يحب امرأةً.. ومنحتك كل ما استطعت يوماً أن أمنح لمخلوقٍ، وإنما زدت على كل هذا، وفوق كل شيءٍ، قلبي وثقتي.. لكن يبدو أن هذا لم يكن كافياً لك لتحاولي حتى أن تمنحيني فرصةً، ولو كانت ضئيلةً،**

لأدنوَ من قلبكِ بعدما أغلقته على أشباح ماضيكِ التي باتت تطاردني أنا الآخر في كل ركنٍ وزاويةٍ سكناها معاً.»، وأطرق وهو يترك يدها مكملاً بأسىً حقيقي: «**أنتِ لم تمنحي نفسك فرصة أن يحبكِ رجلٌ حقيقيٌّ، وآثرتِ ظِلّاً ظل يطوف حولكِ كالذبابة، فلم تدعي لي خياراً فيما سأفعل.**»... وقف فجأةً وسار نحو مكتبه ملتقطاً جاكيته ليرتديه بخفةٍ ويُعدِّل من وضع ربطةِ عنقه، وأرادت أن تحذو حذوه في أن تقف وتسير إلى جواره، ولكن ساقاها خذلتاها ولم تقوَ على حملها (ماذا يقول؟!! ترى ماذا يعني بظلال الماضي التي تطارده؟!! أيعقل أن يقصد..؟!!).. أبعدت الفكرة بقوةٍ إلى أقصى نقطةٍ في عقلها حتى لا تضطر للتعامل مع الهلع الناتج عنها، وراقبته وهو يجلس خلف مكتبه بغطرسةٍ ويقول بهدوءٍ: «**تذكري دائما أن ما سيحدث أمامك الآن ما هو إلا نتيجة تصرفاتكِ والجري وراء نزواتكِ، ولا تقلقي، فإني سأحرص بنفسي على ألا تنسي.**».. «**م.. ماذا تقصد؟ أوضح كلامك يا نادر، ففيه تلميحٌ لم يعجبني، أرجو ألا أكون قد فهمته كما تقصد.**» حاولت أن تبدو متماسكةً أمام نظرته الساخرة ولكن معنوياتها انهارت في الحضيض حين رد باستهزاءٍ: «**حالاً ستعرفين إن كنتِ قد فهمتني أم لا..**». ما كاد ينهي عبارته حتى فتح الباب بعد طرقةٍ خفيفةٍ وظهرت على عتبته نهلة وبصحبتها رجلين، أحدهما رجل مهيبٌ أشيب الشعر والآخر!! (غير معقول)... قفزت مهرة واقفةً كمن صعقها تيارٌ كهربائي وهي تحدق بطارقٍ الذي بدا تعيساً منهاراً، وأسرع نحو نادرٍ قائلا بترج دون أن يلمحها: «**أرجوك يا سيد نادر أن تصدقني، فلا شأن لي إطلاقاً بهذه المسألةَ وأنت أعلم من غيرك بكفاءتي والتزامي، فأنت بنفسك طلبتني بالاسم كي أعمل لديك لاجتهادي ونزاهتي! وأنا متأكدٌ من أن سيادتك لابد وأن كلفت من يتحرَّ عني بدقةٍ قبلها.. أستحلفك بالله أن تمنحني الفرصةَ لأجد تلك الأوراق وأن أعرف من سرقها، وأعدك بأن يكون هو والأوراق أمامك في غضون أيام، ولكن لا تدمر مستقبلي، فلو تركت الشركة بهذه الفضيحة، حتى ولو بُرِّئتُ منها لاحقاً، فلن أجد ثقب إبرةٍ يقبل بتوظيفي في مصر كلها..**». رد نادر ببرود: «**و لا خارجها، و هذا وعد مني بذلك... أما كان الأجدر بك أن تفكر بتبعات فعلتك قبل إتيانها؟.**».. «**يا سيد نادر، أنا رجلٌ على وشك الزواج ولدي مسئ.**»..

«ماذا يحدث هنا؟!!» صاحت مهرةٌ وكل شبرٍ في جسدها ينتفض (طارقٌ يعمل لدى نادرٍ؟! مذ متى؟ ونادرٌ هو من طلبه بالاسم؟!! يا للمصيبة!! يا للكارثة.. يا للفضيحة.. يا لفضيحتك يا مهرة!).. أشار نادرٌ لنهلة كي تنصرف وخاطب الرجل العجوز بأدبٍ قائلاً: **«سأتولى أنا الأمر من هنا يا سيادة المستشار، ارتح أنت بمكتبك وسأرسل نهلة في طلبك وقتما أحتاج لمشورتك..»**.. **«سيشرفني أن تشرب معي الشاي يا نادر بك، فلدي أمورٌ أود مناقشتها معك حين تسنح الفرصة.. أشياءٌ بسيطةٌ ولكنها عالقةٌ رهنٌ بقراراتك.»**.. رد نادرٌ بلباقةٍ: **«في أقرب فرصةٍ يا شوكت باشا.»**.. انتظر حتى أغلق الرجل الباب خلفه بهدوءٍ شديدٍ، ثم أدار عينيه لينقل بصره ببطءٍ بين وجهي زوجته وخطيبها السابق اللذين تباريا في الشحوب وجحوظ العينين.. كان يهز كرسيه يميناً ويساراً كمن يستمتع بما يشاهد، وهو أبعد ما يكون عن ذلك، فالاستمتاع آخر شيء يمكن أن يصف الحمم المنصهرة التي تحرق شرايينه وضجَّ سمعه بانفجاراتها، وهو يرى زوجته في مكان واحدس، وإلى جوار، إنسانٍ لا يكاد يُرى بالعين المجردةِ ولا حتى تحت مجهر الأخلاق والرجولة، أراد أن يفتك به، بأن يمزق وجهه بأظافره، وأن يراها وهي تعوي وتنوح على حبيبها المقتول حزناً وكمداً وهي تحمل ذنبه، وتنوء بوزره دون أن تقدر على أن تبوح بكلمةٍ واحدةٍ خوفاً من الفضيحة ومن بطشه، ولكنه بدلاً من كل ذلك قال أخيراً ببرودٍ: **«أظننتِ أن رجلاً مثلي سيتزوج دون أن يعرف كل كبيرةٍ وصغيرةٍ عمَّن ستحمل اسمه، من الألفِ إلى الياء، وبأنني فعلاً لا أعلم أين كنت تسكنين مع أخويك، وكيف كانت حياتك ومن هُم أهلك وجيرانك، وخطيبك السابق؟!! أيمكنك تصور رجل في العالم يتزوج امرأة، أياً كانت، دون أن يرى بعينيه أين وكيف عاشت؟! أي رجلٍ أنا في نظرك، كي لا ألحظ الكدمات في وجه عروسي؟ وكيف تظنين أن يكون رد فعلي حين أعلم بأنك قابلت خطيبك السابق في شقتك القديمة، وحدكما؟ ماذا تظنينني فاعلاً به بعد علمي بمحاولته الاعتداء عليك، ولولا تدخل جارتك... أم أحمد... لحدث ما لا يعلم مداه إلا الله؟ كان يمكنني أن أكتفي بالتسبب في فقدان عمله بدبي فقط، ولكنك أبيتِ أن تدعي الأمور عند هذا الحد.. هل يمكن أن تتصوري مشاعري وأنا أعلم يقيناً بأنكِ**

في كل مرة أبعدتني عنك، وفي كل مرةٍ اجتهدتُ كي أسعدك، وصددتني، كان السبب هو هذا الشيء التافه الواقف هنا، بكل وقاحته ودناءته.. حتى حين اخترتِ مكاناً نقضي فيه عطلتنا، اخترت المكان الذي ظننت بأنك ستلتقينه فيه.. ولكن أتدرينَ ما المفاجأة؟ لقد قابلته أنا هناك.. وجهاً لوجه، وصدقيني، لقد فاتك الكثير إذ لم تري القرد وهو يقفز ويصفق محاولاً نيل إعجابي لأستخدمه عندي، وتصوري مدى فخره واعتداده بذاته الفارغة وهو يظن بأنه ترك انطباعاً حسناً لدي بحيث وظفته في يومها وليلتها.. نعم، جلبته ليكون تحت سمعي وبصري، كي أتفرج أنا على المسرحية الهزلية التي يتقافز فيها هذا الشيء تيهاً و زهواً وهو يظن بأنه حيزت له الدنيا بحذافيرها، إذ استرد حبيبته القديمة والتي صارت زوجة رجلٍ ثريٍّ ستتركه محملة بمؤخرِ صداقٍ محترمٍ، بينما لديه عملٌ ومركزٌ محترمٌ في مجموعةٍ ضخمةٍ، يضمن له دخلاً ومستقبلاً محترماً..» كان وجهه قد احتقن تماماً وشعر بالكلمات تخنقه، وأنه على وشك الانفجار فوقف ضارباً سطح المكتب بكفيه وهو يحدق بطارقٍ مكملاً بغضبٍ شديدٍ: «ولم يعلم في الواقع أنه ما هو إلا مسخٌ كريهٌ عديم الرجولة.. مخلوقٌ يسمح لنفسه بمطاردةِ امرأةٍ متزوجةٍ، وليس هذا فحسب، بل تبلغ به السفالة أن يتحدث إلي أنا وأن يدعي قرابته لك..! ربما تمنى أن أدعوه يوماً لبيتي، وبدلاً من أن تلتقيا خلسة في ذاك الجحر، تخوناني عياناً بياناً تحت سمعي وناظري!!! .»..

«أنت تتخطى حدودك الآن يا نادر!» قاطعته مهرة بحدةٍ، ولكنه هدر بها وهو يدفع كرسيه إلى الوراء بحدةٍ أجفلتهما فانتفضا بقوةٍ: «اخرسي أنتِ.. اخرسي تماماً.. ألا زلت تملكين الجرأة لتتحدثي؟! لقد أمسكتُ نفسي عنكِ كثيراً، والله وحده يعلم بأني أستطيع أن أمحيكِ أنت وهذه الحشرة التي اتخذتها رجلاً، بل وحارتك بأكملها، من الوجود، دون حتى أن يفكر أحدهم في مساءلتي..»...

«يا سيد نادر.».. حاول طارق أن يتحدث وقد أغرق العرق وجهه وقمة قميصه وبات مظهره مزرياً، وهو يتحدث كرجلٍ في السبعين من عمره، بأنفاسٍ متقطعةٍ وكلماتٍ مرتعشةٍ، محاولاً تهدئة ربِّ عمله: «أقسم لك يا سيد نادر بأنَّ شيئاً لم يحدث مما يدور ببالك، كل ما ..».. لم يستطع أن يتم عبارته إذ وجد

نادراً أمامه في لمح البصر ممسكاً بتلابيبه بقوةٍ صائحاً: «**أجننت؟!! أنا أعلم أنك لم تلمسها، ولو حدث هذا لما كان أي منكما لا يزال يمشي فوق الأرض حتى الآن..!**».. «**إذا أين المشكلة يا افندم؟!**».. أفلت هذا السؤال السمجُ من فم طارق مباشرة، فما كان إلا أن أفلت نادرٌ غضبه أخيراً من عقاله مطلقاً سراح الألم الذي كبته أشهراً غير معلوماتٍ وهو يزوم ويزمجر منهالاً على وجه طارقٍ بلكماتٍ متعاقبةٍ وهو يقول من بين أنفاسه المتقطعةِ: «**أنت ديوثٌ منحطٌ وعديم المروءة.. حقيرٌ.. أنت..**»، تدخلت مهرة لتحرر طارقاً الذي تخضب وجهه بالدماء وهو يحاول بتكوينه المتواضع التصدي، أو بالأحرى الاحتماء من لكمات نادرٍ الجريئة المتتالية وقد بدا الأخيرُ فاقداً للسيطرة تماماً، ما ذكرها بنوبات فؤادٍ التي يكاد يفتك فيها بمن يلقيه حظه العاثر وقتها في طريقه، حتى خافت أن يقضي طارق بين يديه، فصرخت بقوةٍ: «**توقف.. دعه يا نادر، حرامٌ عليك، سيموت بين يديك.. كفى.. توقف.**»، دفعها زوجها بقوةٍ فتراجعت وتعرقلت في أحد الكراسي لتسقط أرضاً وهي تشهق بفزعٍ، ما جعل نادر يلتفت نحوها بسرعةٍ، وحين استوعب ما فعل توجه إليها بسرعة مفلتاً غريمه بلامبالاة وقال وهو يساعدها لتقف بحذرٍ: «**هل أُصبتِ؟ هل رأسكِ بخيرٍ، أم ارتطمت بشيء؟؟.**». كان لا يزال يلهث وعينيه محمرتين ولكنهما حملتا قلقاً جعلها تشعر ببصيص أملٍ في أن يستمع إلى صوتها أو صوت العقل، فتشجعت لتمسك يده التي تلتفُ حول مرفقها بقوةٍ قائلةً بصوتٍ خافتٍ حتى لا يسمعها سواه: «**أنا بخيرٍ يا نادر، لا تقلق.. نادر.. دعه يذهب إلى حال سبيله ولنعد لبيتنا ونكمل حديثنا هناك.. أنت متوهمٌ في كل ما قلت.. صدقني.**».. استدار مشيراً بإصبعه بحدةٍ في وجه طارقٍ الذي كان منشغلاً في تعديل هندامه وإيقاف الدم المنساب من أنفه بغزارةٍ: «**أنا لم أنته منك، وحين أفعل، فلن تصلح حتى لتكون ممحاة محامي.**». أمسكت مهرة بكم نادرٍ بشدةٍ خشية أن يهاجم المسكين مجدداً فحدجها زوجها بنظرةٍ ناريةٍ قبل أن يلتف حول مكتبه ويهم بضغط زر استدعاء نهلة، ولكن يده توقفت في منتصف الطريق، إذ بدا أن طارق قد وجدته جسارته ليقول بنزقٍ: «**الدنيا ليست غابة، والبلد بها قانون.. لا تظن أن ما فعلته تواً سوف يمر**

دون عواقب.».. اتسعت عينا مهرةٍ عن آخرهما وهي مذهولةٌ مما سمعت (أتختار هذه اللحظة بالذات، وهذا الموقف دون غيره لتنتفض الرجولة في عروقك أيها الغبي؟!!).. «**أنت انتهيت، وليتك لم تفتح فاك، إذ ربما أخذتني الرأفة بك فاكتفيت بتركك دون عمل.. أما وقد واتتك الشجاعة وهددتني، فهنيئا لك السجن.. ولنرى قانونك لأي صفٍّ سينحاز.**».. ضرب زر الاستدعاء بقوةٍ وهو يتابع ويديه في جيبيه ببرودٍ: «**هناك قولٌ شهيرٌ ربما سمعته بحكم المهنة، أو لا: القانون كشبكة العنكبوت، تعلق فيه الحشرات الصغيرة، بينما تعصف به الجوارح الكبيرة.. ستجد متسعاً من الوقت في السجن لتستوعب معناه وتؤمن به.**». دخلت نهلة وتقدمت حتى صارت أمام المكتب مباشرة: «**أمرك يا سيد..**»، وتوقفت حين لاحظت قطرات الدم على قميص نادرٍ ولكنها عادت وتابعت وهي ترمق طارقاً بطرف عينها: «**أمرك.**».. قال نادرٌ وهو يجلس بهدوءٍ شديدٍ: «**اطلبي من السيد شوكت أن يباشر إجراءاته وأن يقدم البلاغ الآن. وليبق طارقٌ بحوزة رجال الأمن بالأسفل حتى تتسلمه الشرطة.**».

كتف طارقٌ ساعديه أمام صدره قائلاً بصلفٍ، ما جعل مهرة تود لو تضربه على رأسه بالتمثال المعدني القائم على طاولةٍ صغيرةٍ بجانبها: «**بأي تهمةٍ؟ إجراء اتصال هاتفي بخطيبتي السابقة؟**». اضيقت عينا نادرٌ ورفع حاجبه وهو يجاهد ليتمالك نفسه: «**تقاضي رشوة وسرقة وثائق سرية وبيعها لمنافسٍ وتحرير شيكاتٍ باسم الشركة ، أي التزوير.**». قطب طارقٌ حاجبيه بشدةٍ ونادرٌ يكمل: «**وكله بالقانون..**».. صاح طارقٌ وهو يدنو من مكتب نادر بسرعة: «**ستدفع الثمن، ستندم، وستدخل أنت وعصابتك السجن.**».. توقف لحظة صرخت مهرة باسم زوجها بينما شهقت نهلة بقوةٍ وفوهة المسدس الباردة، الذي سحبه نادرٌ من درج المكتب بسرعةٍ، تحدق بوجه طارقٍ الذي ابيضت شفتاه وجف حلقه.. كانت اللحظة كمشهد ثابتٍ لا تجرؤ حتى بعوضة على الرفِّ بجناحيها خشية أن ينفجر الموقف كله ويحدث ما لا تحمد عقباه.. مضت دقيقةً كاملةً شعرت المرأتان بأنها دهراً قبل أن يقول نادرٌ مخترقاً الصمت المهيب وقد ضيق عينيه وبدا أنه يصارع شيطاناً مريداً يحثه على ضغط الزناد الذي تداعبه سبابته

ببطءٍ وقد شدت شفتيه وشحبت وجنتيه بشدةٍ بينما التصقت خصلا شعره القصير بجبهته ورقبته النديتين بعرق غزيرٍ تساقطت بضع حبات منه قرب عينيه ما جعله يطرف ويهز رأسه بحركةٍ حادةٍ، وقد تعالت أنفاسه مع ارتفاع صدره وهبوطه بتثاقلٍ: «**اصنع بي معروفاً.. انطق حرفاً واحداً آخر بعد.. وسأجد هنا بدلاً من الشاهد عشرة، بل مائة، وعلى رأسهم هي**» وأشار برأسه نحو مهرة بإيماءة خفيفةٍ متابعاً: «**بأنك تهجمت علي بعدما واجهتك بتهمتك وافتضاح أمرك، وبأنني اضطررت اضطراراً للدفاع عن نفسي... هيا.. تابع.. كنت تقول؟**». لم يُجب طارقٌ وإنما ضم شفتيه وهو يرمش بعينيه بقوةٍ، فابتسم نادرٌ ساخراً: «**نعم، هذا بالضبط ما ظننته.**»، ثم تابع وهو يوجه كلامه لمهرة مستخدماً سلاحه كأداة إشارةٍ موجهةٍ إلى غريمه والمرارة تقطر من حروف كلماته: «**هذا؟! أنتِ.. لا أدري بمَ أصفكِ.**».

تمنت مهرة لو تنشق الأرض وتبتلعها، ومشاعر الخوف والغضب والخزي تتنازعها بشراسةٍ. شعرت بألم قويٍّ وقلبها ينقبض بعنفٍ وهي تطالع إلى أين آلت الأمور نتيجة ترددها وسوء تقديرها لما تحب وما يجب أن يكون... حبٌّ ضائعٌ، زوجٌ مغدورٌ مجروح، فضيحةٌ وربما جثة أيضاً... (يا إلهي، أنت الوحيد القادر على إنهاء كل هذه الفوضى في التو واللحظة. اللهم اقبضني إليك وارحمني ومن حولي من كل هذا العذاب والألم. يا رب، لقد تعبت جداً ومللت جداً من كل هذا. لم يعد بي طاقةٌ لتحمل المزيد من أي شيءٍ أو أي أحدٍ ممن حولي. يا رب، أنهِ معاناتي برحمتك يا الله.). طأطأت دامعة العينين وسط ابتهالاتها الصادقة إلى الله أن تموت في حينها ولحظتها.. (كيف فعلت هذا بكل من حولي؟ وكيف سأواجه مي وماجد بعد هذه الفضيحة؟ والبقية.. كيف سينظرون إلي وماذا سيقولون عني ولي؟ آدم وكريمة، ماذا سيظنان بي بعد دعمهما وتبنيهما لي دون قيدٍ أو شرطٍ؟... وفضيحتي أمام نهلة.. سيقول الجميع بأن هذه النتيجة الحتمية لإدخال نادرٍ واحدةً مثلي إلى حياته ومجتمعه.. أنا الفتاة الفقيرة التي ما أن ذاقت طعم النعيم حتى انفلتت أخلاقها وخانت اليد التي امتدت لها بالمساعدة... والحب... يا رب، أنت تعلم أني لم أقصد سوءاً ولم

أخن يوماً.. يا إلهي، اكفني وإخوتي، بل...واكفِ نادراً شره وقدرته) احمر خداها بقوةٍ وانهمرت الدموع غزيرةً من عينيها وجسدها يهتز بنشيج مكتوم مدركةً أن عيون كل من بالغرفة تتفحصها بلا رحمةٍ أو تعاطفٍ، وربما بشماتةٍ، هذا إن صحَّ ظنها فيما يخص علاقة نهلةٍ بنادر.. ازداد نشيجها عند هذه الفكرة وشعرت بمقتٍ شديدٍ للمرأة التي تربعت الآن دون منازع على عرش الثقة، وربما أكثر، لدى زوجها، وبمساعدتها هي.. أوجدت هذه الكراهية قوةً مكنتها من أن تتمالك نفسها وتقول بعدما مسحت وجهها بظاهر وباطن كفيها، دون أن تنظر لنهلةٍ: «**أيمكن أن تدعينا وحدنا يا نهلة؟.... من فضلك.**».

أمالت نهلة رأسها مقطبةً حاجبيها دون أن ترد، ونظرت لنادرٍ تسأله العملٍ، ففاجأها بأن أومأ لها لتنصاع لأوامرِ زوجته.. كانت قد رأته سابقاً، مراراً، في أحوال عصبيةٍ قاسيةٍ، مثال هذا الصباح، ولكنها على يقينٍ من أنها المرة الأولى التي يمر فيها بمثل هذا الموقف.. تأملت مهرة بتعجبٍ وعقلها يرفض أن يقبل فكرةَ رفض امرأة أياً كانت لأي شيء يقدمه نادر، مهما صغر هذا الشيء وقل شأنه، فما بالكِ باسمه وقلبه وحياته!! انتبهت لكونها تحدق في المرأة الأخرى، فأطرقت مجيبةً بإيماءةٍ مختصرةٍ من رأسها الجميل وغادرت دون أن تنبس ببنت شفةٍ، وعينا مهرةٍ تلاحقها بحسدٍ أنثويٍّ، على الرغم من دقة وحساسية الموقف، على قوامها وجمالها وأناقتها، والأهم، لقربها الشديد من زوجها.. الرجل الذي تحلم به أي فتاةٍ، واختارها هي من بينهن ليرفعها فوقهن كافةً.. الرجل الذي يقف الآن مهزوماً متألماً، وإن حاول، وبدا عكس ذلك. هي تعلم، أكثر من غيرها الآن، كم يجاهد ليخفي نزيف كرامته وقلبه المتألم، وإلى أي مدىً ترزح قواه وأعصابه تحت وطأة مقاومة الرغبة في القتل والتدمير.. قالت بمسكنةٍ واستسلام بعدما اطمأنت إلى أن نهلة أغلقت من ورائها الباب: «**أنت تستطيع أن تفعل كل ما قلت يا نادر، ولن يسألك مخلوقٌ عما فعلت، أو حتى لِمَ فعلت ما فعلت.. وأنا لن أطلب منك ألا تفعل ما يريحك ويرضيك... ولكني ، وإن كنت أظنك لن تصدقني، أخشى ألا ترى ما سيجلبه هذا من فضيحةٍ وأثر سيء على الأسرة، أعني أسرتك، وعلى سمعتك وعملك.. و ..**».. نظرت إليه لترى إن كان يستمع إليها وبلعت ريقها حين وجدته يحدجها

بجمودٍ وغيمةٍ من الحقد تطفو بعينيه: أنت لا تصدقني، ولكني أقسم لك بأني لم أفكر بك يوماً إلا بكل خيرٍ، ولم أكنّ لك إلا كل ما هو طيبٌ يا نادر.. ربما لم أتمكن من التعبير عن هذا في حينه.. ربما انجرفت وراء وهمٍ زائفٍ جعلني أخسر واقعاً جميلاً، ولكني، لم.. أنا.. اسمع يا نادر.. أنا لا أبحث عن تبريراتٍ وحججٍ، ولكنك لا تدري، مهما تخيلت، أي حياة عشتها، وما قاسيته ومررت به إلى الآن، وكيف أن شيئاً تافهاً كزوج جواربٍ أو كتابٍ خارجيٍ، قد يشكل هماً يسهد عيني لليالٍ متتاليةٍ، فالدنيا لم تقدم لي إلا كل سوءٍ، ولم يكن يوماً لدي خيار في أي وضعٍ عشته واضطررت لتحمله، بل وتقبله بسعة صدرٍ، كي أتمكن من الاستمرار والاستيقاظ كل صباحٍ لأباشر حياتي وواجباتي وكأن شيئاً لم يكن.. لا تدري كم مرةٍ تمنيت وأنا أضع رأسي على الوسادة، ألا أرفعها مجدداً.. بل أني لا أذكر أني مرة لم أتمن ذلك.. ولم يكن ما فعله طارقٌ من تخلٍّ عني وعن إخوتي غريباً أو مختلفاً، بل أراه الآن منطقياً متوقعاً، كعادة الدنيا وأفعالها معي.. ثم، ظهرت أنت، بكلامك وحنانك وحبك الذي أفضته علي، فتذوقتُ أمناً وراحةً وسكينةً كما لم أفعل من قبل... كنت أنا في أشد لحظات ضعفي واحتياجي لكتفٍ أبكي فوقه دون أن أشعر بأني أخذل أحداً. أن ألقي عني همومي ومسئولياتي دون الشعور بأني أتخلى عن أحدٍ.. أنت يا نادر كنت أول اختيارٍ حقيقيٍّ لي في حياتي كلها.. ربما اخترتك بعقلي، ولكنها لم تكن إلا لعبةً من قلبي الذي استمسك بك منذ اللحظة الأولى. ولكني لم أختر من قبل قط، فكيف أثق في قراري، وبخاصةٍ حين أتخذه في لحظة ضعف؟!! أليس من الطبيعي أن أتردد؟! أن تنتابني الشكوك؟!! لن تصدق كم كنت أشعر بالأسى لأجلك وأنا أراك تجرح أمامي جراء تخبطي؟! لن تصدق أبداً كمّ الكره الذي كنت أكنه لنفسي في كل مرة تحتويني بها وتستوعب أخطائي.. وظل هذا الكره يتراكم ويتراكم حتى بت أمقت النظر في المرآة، لأني لم أعد أراني بها، وإنما كنت أرى شبحاً تائهاً قاسياً.. صرت أخاف نفسي.. صدقني .. رفضت كل ما كنت تحاول تقديمه لي، ليس لأني أريد صدك، وإنما لأني شعرت بأني لا أستحق منك شيئاً، ليس وأنا أتصاغر أمام نفسي يوما تلو الآخر..) ارتفع نشيجها و صار التقاط أنفاسها اصعب : وحين .. حين اتصل .. تعلم.. ليس الأمر كما تظن، وإنما فقط ما حدث هو أنه .. لا أدري.. أربكني، فحين ظننت بأنني اخترتك جاء هو،

ليس كخيار آخر أو بديلٍ، لا والله، وإنما فقط.. شيءٌ مربكٌ، لا أدري له تفسيراً.. نعم، فهمت متأخرةً لِمِ أردتُ أن أراه، لكن ليس لما تظن، وإنما لأؤكد لنفسي بأني ما عدت أشعر نحوه بشيءٍ، وبأني معك لأني، ورغم وجوده، أختارك أنت.. أريدك أنت..)..
نعم، أرادت أن تخبره بكل هذا، وأن تطرح على سطح مكتبه كل مشاعرها وشكوكها ليتفحصها كما يتفحص أعماله ويخلص بها إلى بر الأمان ويخلصها من كل هذا الألم والمعاناة، ولكن هذا الفيض من الكلمات الذي انهمر من قلبها وعقلها إلى فمها ، أثقل لسانها وتكدست الكلمات حبيسة خلف حائط شفتيها الأصم، فما خرج من كل ذلك الزخم إلا كلماتٍ مبعثرةٍ خاويةٍ من أي معنىً وفارغةً من كل مضمونٍ: «**أنا والله .. أرجوك يا نادر، عليك أن تصدق... أنا لم أرد أن... أنت....**».. أجهشت بالبكاء الحار ومدت يدها تلتمس يد المقعد حتى رأته من بين عبراتها فجلست عليه دون أن تقدر على قطع دفعات الشهقات القوية التي اجتاحت جسدها فهزته هزاً حتى وصلت لدرجةٍ شعرت معها بأنها تكاد تعجز عن التقاط أنفاسها. كانت تعجز عن مواجهة زوجها وطارقٍ اللذين لابد وأنهما يرقبانها بمشاعر متباينة، ما فاجأها حين فتحت عينيها لتجد طارقاً قد اختفى ونادراً وحده في الغرفة الواسعة يقف أمام الحائط الزجاجي الواسع المطل على المدينة وقد أولاها ظهره وأسكن قبضتيه في جيبي سرواله كعادته حين يشرد مفكراً، ولم تتمكن الحلة الأنيقة الغالية من إخفاء تصلب كتفيه، أو أنفاسه الثقيلة.

نادته وهي تمسح خديها بباطني كفيها وظاهرهما بطريقتها الطفولية المعتادة، فلم يجب ولم يلتفت.. حارت في أمرها، أتنهض وتدنو منه لتهدئه وتخبره بحبها وتعتذر بكل ما أوتيت من مشاعر إنسانيةٍ وحيلٍ أنثوية لتضمد كرامته ورجولته الجريحة، أم تجرجر أذيال الخزي وترحل إلى حيث تلملم أغراضها وإخوتها لتخرج من حياته دون رجعةٍ، مكتفية بما أحدثته في حياته من جروح لن تندمل إلا بمرور أعوامٍ طويلةٍ بعد أن تترك ندوباً كريهةً في روحه، وفوضى ستمتص أعواماً من عمره كي يتخطى أثرها؟!...

فُتح الباب بسرعةٍ وقالت نهلةٌ وهي عند الباب دون أن تخطو خطوة واحدةً إلى الداخل حافظة حدود الخصوصيةِ لرئيسها وزوجته: «**هل أذِنتَ لطارقٍ بالمغادرة؟! لم أستطع إيقافه ولكن تمكن أمن البوابة من ذلك، وبانتظار أوامرك يا سيد نادر.**»..

«**دعوه.**».. كلمةٌ واحدةٌ.. دون التفاتٍ أو إيضاحٍ أو تعقيبٍ أو تسبيبٍ... كلمةٌ واحدةٌ اختصرت فكراً وشخصاً وجعلت مهرة تفهم جيداً الكثير من المفاهيم التي غابت عنها وعن عالمها.. كلمةٌ واحدةٌ كانت آخر ما سمعت من زوجها قبل أن تغادر، ولفترة غير قصيرة بعدها..

أغلقت نهلة الباب بهدوءٍ، فوقفت مهرة ونادت زوجها للمرة الثانية، وحين لم تتلق رداً قالت بخفوتٍ وهي تحمل حقيبتها التي سقطت أرضاً: «**سامحني.**». خرجت بعدها دون أن تزيد كلمةً وآخر لمحةٍ لمحتها من فتحة الباب الضيقة هي عيني زوجها الحزينتين الغائمتين وهو يرمقها دون أن يستدير بالكامل وهي تغلق الباب خلفها..

بقي نادرٌ على حاله بضع دقائقَ، دون حراكٍ وقد عجزت أطرافه عن الحراك أو أن عقله رفض إصدار الأوامر لجسمه كي يتحرك بعدما عصاه وكبت رغبته المحمومة في الإيذاء، فاستسلم لعجزه باستكانةٍ وتعبٍ.. لم يعد يرغب في المقاومة. لم يعد يرغب في الصفقات والحسابات والأرباح والمناورات. لم يعد يرغب في الدفاع عن أحدٍ، ولا صَون أحدٍ، ولا الحديث مع أحدٍ أو عن أحدٍ. لم يعد يرغب في أن يكون هو، الرجل الحديدي الذي يفز لنجدة عائلته وينقض على خصومه ويجوب الأرض شرقاً و غرباً، لا يوقفه عائقٌ ولا ترهقه المشاكل والتعقيدات. لا يرغب في أن يتنفس نفس الهواء الذي تتنفسه مهرة بعينيها اللوزيتين الغادرتين ووجهها الذي رسم ملامحاً جديدةً للخيانة بريشة البراءة الخادعة. لم يعد يرغب في الزواج، ولا في الحب، ولا في العلاقات الإنسانية كافة. لم يعد يرغب إلا في صمت القبور وسكون الموتى وراحة الأبدية. لم يعد يرغب إلا في هدوء الساعات التي كان يقضيها مع والده المريض لا يتحدثان

عن شيءٍ، ويقولان كل شيء. لم يعد يرغب في الرغبة، وزهد في الحياة وما حوته وما عنته وما تضمنته ومن تضمنته. شعر بخواءٍ وإجهادٍ شديدين. لم يعد لشيء معنى أو طعم..

أخرجه من دوامة كآبته وأعاده من الاستغراق في ذاته، ليعود في لحظة لشخصه الحذر المستعد، طرقٌ خفيفٌ على الباب تبعه دخول نهلة الرزين يسبقها عاصفةٌ من العطر الباريسي الأخاذ وقد ارتسمت على وجهها أمارات الحسم والجدية وفي يدها حملت ورقةً بيضاء كبيرةً مطويةً، مدتها إليه دون أن تقول شيئاً، وتناولها هو في صمتٍ كذلك.. فضها في عجلٍ وطالع محتواها بسرعةٍ قبل أن يزفر بحدةٍ ويشق الورقة إلى نصفين ثم يشق النصفين نصفين، ويلقي القصاصات في السلة الصغيرة. قالت نهلة بثباتٍ: «**لن أتراجع عن قراري.**».. زفر مجدداً وقال بضيقٍ وهو يرتمي على الكرسي: «**أترين الوقت مناسباً لممارسة المزيد من الضغوط يا نهلة، لا تكوني طفلةً.. غضبت، فقلت كلاماً لا أعنيه.. لا تضخمي الأمور، فلو كنت مقتنعاً بكلمةٍ واحدةٍ مما قلتُ، لما قلته لكِ، ولما كان سيغدو ذاك تصرفي نحوكِ. وأظنك أدرى الناس بي، وتعلمين جيدا كيف أتصرف حيال الخائنين في عملنا.**».. ردت بهدوء لم يُخف الألم الكامن في كلماتها: «**و لكنك ما هكذا تعامل المخلصين..**». زفر بقوةٍ وكأنه يطرد عبر فمه الشياطين التي سكنت روحه في الآونة الأخيرة، ولم يرد فوراً، وإنما فتح أحد الأدراج وأخرج ورقةً زرقاء مررها إليها بهدوءٍ قائلاً: «**صحيح، وإنما هكذا أكافئهم.**».. لم تتردد في أخذ الورقة والنظر فيها بتمنُّعٍ في البداية، ثم بتمعُّنٍ حين انتبهت لمحتواها.. راقب ملامحها وهي تتغير ولم تفته اختلاجة شفتها السفلى على الرغم من أنها سيطرت عليها بسرعةٍ، وحين رفعت عينيها إليه، كان الامتنان قد حل محل الحزن، والبسمة محل العبوس البارد وهي تقول بصدقٍ: «**أنا متفاجئةٌ.. لا أصدق بأنك تذكرت.**».. رد ببساطةٍ: «**وهل خلفت يوماً وعدا قطعته لك؟! لقد أتممته منذ أيامٍ ولكن شغلتني الظروف عن إخبارك. هيا عودي إلى عملك، ودعينا نعالج الفوضى التي نغرق فيها حتى آذاننا.**»... قالت من فورها: «**ألم تتمكن من إعادة الصفقة إلى مسارها؟! لقد ظننتك حللت الأزمة! و.. كيف تسربت البيانات**

من على حاسبك». أجابها بضيقٍ: «**أظن أن أحدهم نقلها عن حاسوب فؤادٍ أو هاتفه.. وأظنني أعرف مَن.. أما فيما يخص الصفقة، فالأمور ليست بهذه البساطة، نعم تداركت الكثير، ولكني سأعكف عليها حتى أعيد الأمور إلى نصابها.**».. أفلت منها سؤالٌ غير محسوبٍ: «**والسيد حسَّاب؟**»..

ساد صمتٌ خفيفٌ لحظيٌّ قال بعده بهدوءٍ ظاهريٍ لا يتماشى مع الغضب والحنق اللذين تملكاه حين تذكر خاله: «**سنرى، سنرى.. هناك شيءٌ مغلوطٌ فيما أبلغتني.. هناك خطأٌ ما.**».. غادرت نهلة في هدوءٍ مثلما دخلت مغلقةً الباب برفقٍ، ومن ورائها تركت نادراً يبحر في بحار الحيرة بقلوعٍ مكسورةٍ ودفةٍ معوجةٍ، وبوصلة لا تشير إلا إلى الموت.. الموت راحة.. الموت حل.. الموت نهاية.. الموت هو البر الذي سترسو عليه كل السفن بعد تيه الأعوام وضلال السنين..

ولكن من يستحق الموت؟ ذاك وقف على كينونته، فإن كان عقاباً، فالأولى به مَن أحدث كل هذه الفوضى وكل هذه المعاناة.. أما إن كان هو الراحة والرحمة، فمن أولى به منه؟!!

(يا خالي، يا خالي، يا خالي.... ماذا فعلت؟).



انتظر ماجدٌ عودة أخته على أحرٍّ من الجمر وكله ترقبٌ وعشمٌ في أن تكون الأحوال بينها وبين زوجها قد انصلحت لتحظى مهرة أخيراً بحياة هانئةٍ بعد كل ما مرت به على يد الدنيا والناس، القريب منهم قبل الغريب. كان ظهور طارقٍ في الصورة يؤرقه ويضايقه، وأخشى ما كان يخشاه أن يعلم نادرٌ بتواصله مع أختيه مجدداً، ذاك العديم المروءة، والذي لم تمنعه رجولته من التخلي عنها وسط دوامة الحياة فحسب، بل سولت له التواصل معها والحوم حولها بعدما علم بزواجها.. أو ربما بسبب زواجها.. آهٍ لو يحتكم على رقبته، أو يسعده حظه فيقابله صدفةً كَمَيّ!!!!

انتصف النهار ولم تعد مهرة فهدأت نفسه قليلاً وتوسَّم خيراً. لم يخبر مي حتى لا يثير قلقها ولكنها على حداثة سنها استشعرت شيئاً غير طبيعيٍّ في حركاته فبادرته وهو يقلب في قنوات التلفاز باستمرارٍ دون أن يرى أو يسمع شيئاً: «**ما بك اليوم يا ماجد؟ لا تبدو لي على طبيعتك إطلاقاً!**.».. تظاهر بالدهشة، واعتدل قائلاً بابتسامةٍ واسعةٍ: «**وهل ستمارسين دور الطبيبة عليَّ من الآن! حسنٌ يا دكتور، أشعر بحموضةٍ عاليةٍ ورغبةٌ في القيء.**».. عادت إلى المجلة التي كانت تتصفحها باستغراقٍ قبل أن يزعجها تغير الأصوات والأجواء كلما قلب شقيقها القناة وقالت بامتعاضٍ وهي تثني شاقيها تحتها: «**أنا المخطئة إذ قلقتُ بشأنك..**». ضحك وانتقل إلى جوارها ليقول مازحاً: «**كنت أمازحك، أم أنني لم أعد في مستواكِ يا سيدتي الدكتورة.**». لكمته بخفة في ذراعه مبتسمةً وهي تقول بجذلٍ وقد أطربها اللقب: «**مزاحك مقرف.**». اعتدلت ومدت قدميها إلى الأرض لتقول بجديةٍ: «**صدقا يا ماجد، ما بك؟ وأين مهرة؟ هاتفها مغلقٌ، ولا أدري هل قالت أو فعلت شيئاً مما كانت تتحدث عنه أم ماذا!!.. الوضع هنا بات غريباً مقلقاً، أليس كذلك؟.**». زوى ما بين حاجبيه وضم شفتيه وقد سمح للقلق بأن يجول بملامحه دون رادع ولم يدر ما يقول فاكتفى بهز كتفيه.

لم تكفِ حركته مي كردٍ فهمَّت بالاعتراض حين دخلت كريمة القاعة الواسعة حاملةً معها صينيةً عليها بعض الشطائر وإبريق عصير البرتقال الشهير، الذي تعده باستمرارٍ وتصر على الجميع بشربه كمقوٍّ للمناعة ومكمل غذائي.. كانت خطواتها ثقيلةً قليلاً عن المعتاد، ولكنهما لم يعلقا، إذ من الطبيعي أن تنوء امرأة في مثل سنها تحت حمل رعاية الفيلا بأكملها وأهلها وإن ساعدها زوجها، ولكن لم يكن هذا هو السبب الوحيد لإحجامهما عن التعليق، وإنما الغضب والتوتر الذي تلقى هي به مثل هذا النوع من الأسئلة والاهتمام، وكأن الأمر يتعلق بكرامتها لا بصحتها، فاختار الجميع أن يرضيها وأن يتجنبوا التعليق إن لاحظوا أو استشعروا شيئاً من التقصير أو التأخير من قِبَلِها.

وضعت الصينية الفضية على الطاولة الزجاجية الواسعة بجانب الأريكة قائلةً بأنفاسٍ متقطعةٍ: «**كُلا يا أحبائي هذه الشطائر، فيبدو أن الغداء سيتأخر اليوم. الجميع بالخارج، حتى السيدة مهرة، خرجت منذ الصباح الباكر، ولا أدري إلى أين ذهبت.**».. استدارت ترتب الوسائد وتعدِّل وضع الآنية البلورية على الطاولات وهي تتابع: «**وكأنني أعرف إلى أين يذهب أيٌّ من كان! لم يعد هذا بيتاً من الأساس.. حتى شهد، البنت الصغيرة! صارت تتصرف وكأنها وحدها في البيت، لا تسمع الكلام ولا ترد على أحد.. وأنتما هنا لا تفعلا شيئا سوى التمدد ومشاهدة التلفاز، فلا تخرجان إلى الحديقة لتتمشيا وتنشطا الدورة الدموية بدلاً من هذا الخمول!! إذا كنتما الآن لا تتحركان فمتى ستفعلان.. استمتعا بشبابكما واستغلاه.. ولكني أعلم ألا فائدة من كلامي، كلٌّ يفعل ما يحلو له بلا ضابطٍ ولا رابطٍ.. والله لقد تعبت..**».. أنهت ما كانت تفعل وانصرفت وهي تتمتم بتساؤلاتٍ واستغفار متتاليين، والشابين يتابعانها بصمتٍ تام، حتى ما أن صارت بعيدةً كفايةً، انفجرا ضاحكين حتى دمعت عيناهما.. تناولا الشطائر وهما لا يزالان يتبادلان الضحك كلما تذكر أحدهما كريمة ومزاجها النكد.. وعلى الرغم من أن ما قالته كريمة لم يختلف كثيراً في مضمونه عما يقلقهما وما كانا يناقشاه قبيل دخولها، إلا أن مزاجهما تبدل كثيراً بعدما غادرتهما، وبقيا يتمازحان ويضحكان وهما يتفرجان على أحد الأفلام الهزلية غير مدركين بأن هذا اليوم سيحمل لهما ما سيغير حياتيهما إلى الأبد، تغييراً جذرياً.



«**ماذا؟! هكذا فجأة؟! ماذا حدث؟!**» صاحت مي بهذه الأسئلة وهي تراقب أختها مجدداً تلملم ثيابها وأغراضها في ثلاث حقائبَ كبيرةٍ مفتوحةٍ على الفراش الواسع بغرفتها بحركاتٍ سريعةٍ حازمةٍ.. توقفت مهرة ناهيةً مي بحدةٍ: «**توقفي، كفى.. اذهبي إلى غرفتك حالاً واجمعي أغراضك في أقل من ساعةٍ، فما أن أنتهي أنا مما أفعل فسنغادر فوراً دون انتظار.. مفهوم.. هيا..**». راقبتها مي لحظاتٍ قبل أن تعقد ساعديها أمام صدرها وتقول بعنادٍ جادٍّ: «**لا.**».

تسمرت مهرة وهي تسألها مشدوهةً: «**ماذا؟!**».. ودون أن تنتظر رداً توجهت نحوها وشدتها من ذراعها نحو الباب قائلةً وهي تفتحه وتدفعها خارجاً: «**لستِ صاحبة قرارٍ أو حتى رأيٍ في هذا، وسأنفذ ما قلت.. فما أن أنهي ما بيدي، سأغادر فوراً وأنتما معي، دونما النظر أنتهيتما من جمع أغراضكما أم لا..**».. صفقت الباب وراء مي وعادت لما كانت تفعل بسرعةٍ، علها تنتهي قبل عودةِ نادرٍ، لتتجنب وتجنبه لقاءً مؤلماً آخر لا طائل منه.. آن الأوان لينتهي هذا الفصل البائس من حياته، ولتبدأ هي فصلاً جديداً من بؤسها الخاص..



« **هلا تبطئ قليلاً وتخبرني علام تنوي!!**».. قفز فؤادٌ الدرج هابطاً متجاهلاً سؤال زوجته اللاهثة والتي تبعته مهرولةً محاولةً اللحاق بخطواته الواسعة السريعة.. واصلت دون يأسٍ وهي تراه يتوجه نحو غرفة مكتب شقيقه: «**ماذا ستفعل الآن؟! وماذا تظن أنك ستجد هناك؟!**».. توقف ليردَّ بنزقٍ وهو يحدق بها بعينين حمراوين: «**أي شيءٍ، لا أدري، فلربما اكتشفت بأنه تاجر سلاح أيضاً.**».. هزت رأسها وقالت بحنقٍ ساخرةً من سُخف كلامه: «**نعم.. بالتأكيد.. لأن تجار السلاح يوقعون عقوداً ويحتفظون بها في أدراج مكاتبهم في بيوتهم..**».. زفر بحدةٍ وهو يبعدها عن طريقه قائلاً بنفاذ صبرٍ: «**لن أرد عليكِ، فأنت ستأخذين صفَّه كالعادة.. لا فائدة من التحدث إليكِ على أي حالٍ، اغربي عني الآن، ودعيني وشأني.. اذهبي لتراقبي شهداً أو تمشي في الحديقة باكية كعادتك، أو افعلي أي شيءٍ مما تفعلين وارحميني، فبالي ليس رائقاً لك على الإطلاق**»..

عقدت ساعديها أمام صدرها وقد لمحت آدم يقترب منهما فاستبشرت وقالت بعنادٍ وهي تشكل حائلاً بينه وبين الباب: «**لن تدخل يا فؤاد، على الأقل ليس بهذه الطريقة..**».. دفعها فؤادٌ بقوةٍ فتعثرت وكادت تسقط لولا أن أمسكت بكمه.. تقدم آدم ليقف حيث كانت قبل أن يزيحها زوجها وهو يقول بصبرٍ ورفقٍ: «**ماذا تفعل يا بني؟!**».. هز فؤادٌ رأسه بسخريةٍ وهو يكرر: «**سأدخل**

غرفة المكتب، هل تريد رؤية التأشيرة؟!.».. همَّ بالدخول فتراجع آدم ليلتصق ظهره بالباب الضخم وقال برجاءٍ: «**البيت بيتك يا بني، ولا يستطيع أي مخلوقٍ أن يمنعك من دخول أي غرفةٍ فيه.. ولكن أخشى وأنت في هذه الحال أن تأتي بفعل يزيد الشقاق بينك وبين شقيقك.. لا أريدك أن تقوم بشيء لتندم عليه لاحقاً.**».. حدَّجه فؤادٌ بنظرةٍ ناريةٍ وقال بصوتٍ خافتٍ وقد قرَّب وجهه بشدةٍ من وجه آدم حتى تنفس الأخير رائحة الخمر من لهاثه، فأشاح بوجهه بضيقٍ: «**ابتعد.**».. لم يتحرك آدم وإنما عاد يرجو الشاب المترنح برفقٍ: «**يا بني... أس..**».. صاح فؤادٌ: «**لست ابن.. يااااه!!! ابتعد.. الآن.. لا تضطرني إلى أن أبعدك بنفسي..**».. قطب آدم بشدةٍ وسأله مصدوماً بصدقٍ: «**أتهددني بالضرب يا فؤاد؟!.**»».

تراجع فؤادٌ خطوةً وهو يمرر يده في شعره بعصبيةٍ صارخاً: «**يااااه..**».. ثم قال بألمٍ: «**أنت تعلم بأني من المستحيل أن أفعل يا آدم.. ولكن لا يمكنك أن تتخيل ما أمر به.. أبداً.**»، ثم داهمته فكرة ما فرفع رأسه مذهولاً ليسأل بصوتٍ مبحوحٍ: «**أكنتَ تعلم؟!!**».. اكتفى آدم بابتلاع ريقه ومبادلة فؤادٍ النظرات للحظةٍ، حتى ضرب الأخير جبهته بكفه قائلاً بسخريةٍ مريرةٍ: «**بالطبع.. بالطبع.. أنت تعلم.. بالطبع أخبرك، وأنا التافه الذي لا يؤتمن.. بالطبع.**». ردَّ آدم فوراً وهو يقترب ليربت على كتف فؤادٍ قائلاً بصدقٍ: «**أقسم لك بأني ما علمت عن ذاك الأمر إلا كما علمت أنت.. لم أعرف شيئاً، إطلاقاً، مسبقاً.. صدقني يا بني.. أرجوك لا تفعل هذا بنفسك.. دعني أساعدك لتأخذ حماماً وتستريح قليلاً، وحين تستيقظ، ستجد أن الأمور أقل سوءاً مما تراها الآن.. هيا..**»...

دفعه فؤادٌ واندفع مقتحماً غرفة المكتب فاتحاً الباب بحدةٍ جعلته يرتد بقوةٍ حتى كاد يرتطم بوجهه، ولكنه دفعه ثانية ودخل هادراً: «**حتى أنك تردد كلماته!!! ليس لأحدٍ الوصاية علي، أنا أفعل ما أريد وقتما أريد.. لست طفلاً لتهدهدني حتى أنام.. دعوني وشأني..**».. صفق الباب خلفه بقوةٍ ليغلقه في وجه العالم أجمع، ووقف لاهثاً حائراً محبطاً، لا يدري ماذا يفعل الآن...

« لن ترتاح، أعلم ذلك.. فما تفعله لا معنى ولا أساس له.. ثم إني لا أفهمك إطلاقاً الآن يا فؤاد، فهل ما يزعجك هو أن نادراً لم يخبرك لأنه (لا يثق بك)، أم لأنه لم يخبرك ليقينه بأنك لن تأبه لما يحدث مع أباك. أم أنك فقدت الثقة في شقيقك وتخشى بأن يكون هناك ما هو أكبر وأخطر ويخفيه عنك ؟ أم أن القصة كلها تتلخص في رغبةٍ مكبوتةٍ للخروج من تحت جناح أخيك وواتتك الفرصة الآن لتحقيقها؟! لم لا تكون صريحاً وتحدد ما مشكلتك الحقيقية الآن!.».. كانت زوجته تتحدث بقوةٍ وصراحة وساعديها معقودين بحزم أمام صدرها وهي تطالع زوجها يترنح من أثر الخمر وضربات كلامها المتلاحقة.. وضع يديه على أذنيه بقوةٍ وأخذ يضغط على رأسه عله يحطمه فيرتاح من الألم والقلق والأصوات والأشباح التي باتت تعشش في أركانه المظلمة.. نادته بقوةٍ: **«فؤاد.. واجه الأمر.. رد علي إن استطعت، ولا تقل إلا صدقاً.»**.. هدر بها وهو يلوح بيديه: **«اخرسي.. لا أريد أن أسمع كلمةً واحدةً أخرى للدفاع عنه.. أنت تقفين في صفه دون مواربةٍ ولا حياء وأنا زوجكِ.. زوجكِ.. المفروض أن تؤازريني، لا أن تكوني محاميته ضدي..»**.. بقيت على حالها وردت ببرودٍ: **«صفك؟ صفه؟ مذ متى كنتما في جهتين متقابلتين؟! أنت تهذي كعادتك.. آلآن صار نادرٌ عدوك؟! بعد كل ما بذله من أجلك؟!.»**.. قال بعنفٍ واللون الأحمر يغرق عينيه: **«وكاد يقتلني.. أخي كان يغرقني بالأمس.»**.. أمالت رأسها جانباً وقالت وقد ضيقت عينيها: **«و ها أنت اليوم تقف أمامي بكامل صحتك، فلو كان يريد قتلك، فلم توقف؟.. ها؟ ما الذي منعه؟! فلا تنقصه القوة ولا الدافع. والظروف كانت أكثر من مواتيةٍ، فغرق سكيرٍ في حمام بيته ليس شيئاً مستبعداً، ولا يحتاج لفاعلٍ، ولكان ارتاح منك كما تقول.»**.. صاح بها: **«دفعته، لم أسمح له.»**.. ردت و هي تهز كتفيها: **«إن كنت تريد أن تصدق هذا فصدقه، ولكنك لن تقنعني، فقد كنتُ هناك، أنسيت؟.. وفي حالتك هذه، أستطيع (أنا) أن أقتلك دون مقاومةٍ تذكر منك.»**.. اندفع نحوها صارخاً: **«اغربي عني.. اذهبي واحترقي في جهنم.. ماذا تريدين مني؟!! لم أتيتِ؟! لم تتحدثين إلي في كل وقت أكون في أمس الحاجة فيه إلى سكوتكِ.. اخرسي واخرجي من رأسي كما خرجتِ من حياتي.. اذهبي بلا رجعةٍ.»**.. همَّ بإمساكها ولكنه كاد يسقط على وجهه فاعتدل بسرعةٍ واستدار ليحدق حوله في الغرفة الفارغة إلَّا منه.. كان

يلهث بشدةٍ وشعر بالحرارة تنضح من عينيه وتعبر مع أنفاسه.. مسح جبينه بظاهر كفِّه وتوجه إلى المكتب الضخم بخطواتٍ أرادها حازمةً، فكانت مترنحةً متعثرةً.. ما أن طال السطح الخشبي بيده حتى أخذ يبعثر الأوراق والتحف التي كانت متراصةً عليه هنا وهناك، ولم يأبه لما سقط منها أرضاً.. فتح كافة الأدراج التي لم يوصدها نادرٌ دون أن يعثر على مبتغاه.. هذا إن كان يعرف عما يبحث من الأساس.. أغلب الأدراج كانت فارغةً إلا من بضع أوراقٍ لا قيمة لها.. عقود زواج.. شهادات ميلادٍ.. بعض الصور.. ثم.. لا شيء.. حتى درج السلاح لم يحو إلا فراغاً... ابتسم بسخريةٍ لسذاجة أخيه (هه.. السيد يخبئ السلاح مني! طبعاً.. أولستُ سفاح العائلة؟!)

لم يكن يعلم عمَّ يبحث! هل يبحث عن أوراقٍ تدين أخاه بتهمة التزوير مثلاً؟ وماذا إن وجدها؟! ماذا سيفعل بها حينها؟! أسيقدمها دليلاً على زيف سنوات عمره الماضية، ليسجن أخاه ويهدم بيديه أعوامه المقبلة؟! أم سيحتاجها كسيفٍ على رقبة الإنسان الوحيد الذي عني به وبابنته ولم يدخر وسعاً في إقصائه عن المتاعب، لحين يحتاج إلى هذا السيف يوماً ما إذا ما أغوت أخاه السلطةُ ليتغوَّل عليه وعلى مصالح ابنته؟! أم أنه فقط يريد أن يشعر بأن أخاه بشرٌ يخطئ ويصيب، مثله تماماً، وليس خال من العيوب كما كان يرى والدهما؟... (آآآآه... ماذا أفعل هنا؟ ماذا أفعل بك ولك يا نادر؟! كيف؟!! كيف تمكنت من فعل كل هذا بكل هذا التكتم والحرص؟! هل انشغلت بنفسي لدرجة أني لم ألحظ تغير أحوالك وانعزالك؟ هل تغيرت لدرجة أنك صرت من القسوة بحيث لا يبدو عليك فرقاً ما بين أن تدعي موت أبانا وأن تدفنه بالفعل؟ هل حجبت عني الحقيقة حتى تجنبني الألم والمسئولية؟ أم لأنك تخشى من افتضاح الأمر؟ أم لأنك تعي أن موت والدي لا يشكل فرقا بالنسبة إلي؟ لم ؟ لم؟) .. أسند ظهره على الحائط الزجاجي خلفه و انزلق جالسا القرفصاء وقد أحنى رأسه ليخفيها بين ذراعيه الممدودتين والمستندتين على ركبتيه، ليطلق العنان لنفسه ويبكي كالأطفال.... لساعاتٍ....

١٤

أرخى الليل عباءته الرطبة عله يطفئ بها نار أقدم جريمة اقترفها الإنسان مذ بدء الخليقة، ويستر عوار ضعف النفوس وتكالبها على المادة، ولكن الموت ورائحة الدم أبيا إلا أن يعبّقا نسيمه بتلك الرائحة المقيتة التي أزكمت الأنوف وسالت لها الأدمع من عيون أذهلتها الصدمة والفجأة، فاتسعت لا تصدق ، بل ولا ترى، ما ترى...

رفعت مهرة كفيها المرتعشتين المضرجتين بالدماء لتتأملهما للمرة المائة وقد استقبلت أذنيها الأصوات من حولها بلا وعيٍ ولا استماع، فبدت وكأنها تضع عازلاً فوقهما يحول دون وضوح كلمات ذلك الرجل ذو الحلة السوداء والذي يبدو مهتماً جداً بها ويحاول بقوةٍ أن يستخلص منها أي كلمةٍ!... (عله كغيره يريد أن يطمئن على حالي، ولكنها ليست دمائي.. ليست دمائي!!).. أدارت عينيها عنه تبحث بقلقٍ عن شقيقيها لتطمئن عليهما مجدداً، فوجدتهما حيث ألفتهما جالسين على المقاعد المرصوفة بمحاذاة الحائط المجاور عن يمينها، وقد انكفأت ميّ تبكي بانهيارٍ بينما اكتفى ماجدٌ بعد أن جبِّرت ذراعه المكسورة بأن أسند رأسه إلى الجدار محدقاً في السقف بصمتٍ، وكلاهما خضبت الدماء أجزاء من ثيابه ووجهه.. بحثت حولها عن زوجها، تريد الاحتماء به والارتماء على صدره لتصرخ وتنتحب بين ذراعيه، لكنها بدلاً من كتفه، وجدت كتف

كريمة التي كانت ترتعش بوضوح وتبكي بحرقة وهي تحتضنها.. «**نادر!**»..
أخيراً بللت الحروف شفتيها فخرج اسمه من بينهما خافتاً مهتزاً.. حدقت بها كريمة والرجل الواقف قبالتها بدهشةٍ للحظات قبل أن يغادرهما الرجل دون تعليقٍ.. رفعت كريمة ذراعيها عنها حال لمحت زوجها وحسَّاب يخرجان من المصعد، فهرعت لآدم تستطلع الأخبار وتركت مهرة وحدها فريسةً لهجوم حسَّاب الشرس.. اقترب الأخير منها بخطواتٍ تسابق بعضها بعضاً وعيناه تطفحان غلاً وحقداً قد تحول بياضهما إلى أحمرٍ قانٍ فبدا عنيفاً مخيفاً. سمعت شهقةً عاليةً أفلتت من كريمة فالتفتت إليها ولكن حسَّاب خاطبها مسترعياً انتباهها بقوةِ كلماته: «**فعلها زوجك؟ قتله؟ ما هذا الجبروت؟ ماذا فعل له المسكين؟ إنه لا يساوي بعوضةً بالنسبة إليه؟!!! ولكن إن ظن بأني سأدع حق ابني كما تركت حق أختي من قبل يضيع، فهو مخطئٌ.. سأجعله يدفع الثمن. نعم يا مهرة، سيدفع الثمن غالياً جداً هذه المرة.. سيدفع ثمن إذلال أبيه لنا ولأختي وقتله لها.. سيدفع ثمن صبري كل هذه السنوات لآخذ بثأري.. سيدفع ثمن عمر ابني القصير الذي أمضاه في الشعور بالحقارة والذلّ.**» غلبته دموعه فاهتز صوته واختلجت شفتاه وهو يكمل: «**سيدفع ثمنَ رقود ابني بالأعلى جسداً بلا روح.. لقد كان ما فعلته لصفقته لَعِباً قياساً بما هو آتٍ.. أخبريه يا مهرة.. أخبريه بأن حسَّاب سينتقم..**». صمت لحظةً ليمسح شفتيه من الزبد الذي أرغى حولهما ليكمل بعدما التقط عدة أنفاس: «**أخبريه بأن فاتورة الحِساب قد ثقلت، وأن وقت دفع الثمن قد ابتدأ، ودون حتى أدنى تدخلٍ مني.. فرصاصاته لم تحصد روح سامرٍ فقط، ولكنها نهشت جسد أعزَّ الناس إليه أيضاً.. وليسعد آل عزّ العرب بتركتهم الغارقة بالدماء وليتذوقوا حصاد ما زرعوا.**».. هرع خارجاً من باب المشفى لتبتلعه الظلمة الرابضة خلف الأبواب.. أخذت تهز رأسها وعقلها يناضل ليحلل الكلمات التي تتوارد إليه دون أن تحمل معنىً يقبل أن يستوعبه.. (هل مات سامرٌ!!! م.. مات؟! الرجل الذي كان يحدثني منذ سويعات؟! ماذا يقصد بما أخبر عن أعز من لدى نادرٍ؟ أيعقل أن يقصد....!!)، رفعت رأسها بسرعةٍ تبحث في كل أرجاء القاعة المضاءة بشدةٍ عن فؤادٍ وزوجته.. وطفلته.. «**شهد.**» . صاحت وقد عاد إليها

وعيها تماماً الآن، وذكرى الصغيرة التي تمددت بين ذراعيها والدماء تنضح من مكان ما من جسدها الصغير تهزها هزاً.. كادت تسقط أرضاً من الخوف ولكن ذراع آدم التقفتها بسرعةٍ ورفعتها وهو يقول بصوتٍ عجوزٍ: «**لم تمت.. الحمد الله، لم تمت**».. سألته برجاءٍ: «**ولكني رأيتها مصابةً وفاقدة الوعي، لا تكذب علي يا آدم.. أخبرني بالحقيقة، وإلا أين فؤادٌ وأميرة.. آه!! هل أصيب أحدهما؟!**». كان يهز رأسه نفياً طوال حديثها وأخيراً قال حين منحته الفرصة: «**أقسم لك بأني لا أكذب عليك يا ابنتي.. ولم تصب أميرة بشيءٍ، وإصابة فؤاد طفيفةٌ وفي ذراعه، فلا خطر منها على حياته.. سيكون بخيرٍ.**». صمت وتمنى أن تكف عن استجوابه ولكنها عادت تسأله بقلقٍ: «**وشهد؟ ماذا عنها؟ كيف هي إصابتها؟ أيمكنني رؤيتها؟**».. لم تنتظر رده وإنما تجاوزته نحو المصعد متجاهلة مي التي تنوح الآن بصوتٍ مرتفع وماجدٌ الذي دفن رأسه بين كفيه و اهتز جسده في بكاءٍ صامتٍ بعدما أبلغتهما كريمة بأخبار سامرٍ، ولكن آدم أمسك برسغها ليوقفها قائلاً بخفوتٍ: «**لا تصعدي يا ابنتي، لا داعي.. لن تستطيعي رؤيتها، كما أنك ستسمعين ما لا يسرك. ابقي هنا مع إخوتك وسأصعد أنا لأطمئن على أميرةٍ وأبقى إلى جانبها، فقد أغلقت على نفسها الباب منذ وصولنا وترفض أن تتحدث إلى أحد**»..

هزت رأسها بصمتٍ واستدارت لتعود إلى حيث جلست كما كانت، وكلمات آخر حوار تبادلته مع أميرة قبل الحادث مباشرةً تتردد في عقلها بلا توقفٍ. كانوا قد استعدوا للمغادرة بعدما استغرق أخواها وقتاً طويلاً وهما يجمعان أغراضهما على عكس توصيتها لهما بالإسراع.. عند باب الفيلا وجدت مي تبكي وسامرٌ إلى جوارها يحدثها بلطفٍ ويواسيها كما بدا لها من يده التي تربت على كتفها برقة، وأميرة على بعد خطواتٍ تراقبهما في صمتٍ عاقدةً ساعديها بحنقٍ في انتظار فؤادٍ الذي نزل بعد لحظاتٍ حاملاً شهداً على ذراعه وباليد الأخرى حمل دميتها الضخمة التي تشبهها إلى حد كبيرٍ بشعرها البني وعينيها العسليتين اللامعتين، إذ كانت متعلقةً كثيراً بهذه الدمية التي أهداها إياها نادرٌ عقب عودته من رحلته الأخيرة لسويسرا.. لم تفهم مهرة في البدء ما الذي يجري، ولم يحمل الجميع حقائبه في السيارة الكبيرة رباعية

الدفع التي يحب فؤادٌ أن يستخدمها في الرحلات! سألت ماجداً الذي لحقها بعد لحظاتٍ وهو يحمل حقيبةً متوسطةِ الحجم، بعكس حقيبتي مي الكبيرتين، عما يحدث، فقال برفقٍ وهو يقرب فمه من أذنها مولياً ظهره للجميع: «**الجميع مغادرٌ اليوم. لا أدري ما العلَّة، ولكن يبدو أن (أبيه) فؤاد و(أبيه) نادر مختلفان بشدةٍ، ومما فهمت، أن الخلاف كبير هذه المرة، وربما تعاركا بالأيدي.. لا أدري. ولكنهم مغادرون إلى بيت المزرعةِ الآن.**». سألته مقطبةً: «**وأين آدم وكريمة؟**». رفع كفه ومط شفته علامة عدم العلم وهبط الدرج الرخامي الواسع إلى حيث استوقفه فؤادٌ محدثاً برفقٍ، قبل أن يقفز الأخير الدرجات صاعداً إلى حيث مهرة سائلاً بسخريةٍ: «**وأنتِ أيضا سترحلين؟ هل حاول خنقك أنت الأخرى؟**». رفعت مهرة حاجبيها دهشةً وهمت بالرد ولكنه لم يمهلها وتابع: «**إلى أين ستذهبين؟ إلى فندقٍ أم إلى بيتكِ القديم؟ بإمكانكِ مرافقتنا إلى المزرعة إن شئتِ.**». قالت وهي تهز رأسها، وعينيها تتابعان بقلقٍ سامراً وهو يتحدث بحدةٍ مع أميرة، ومي وماجد بدورهما يتناوشان على بعد خطواتٍ منهما، بينما شهدٌ تتابع من نافذة السيارة، حيث أودعها أبوها، الجميع بتململٍ وحيرةٍ: «**لا، لقد تحدثت إلى إحدى جاراتي منذ ساعاتٍ وستجهز البيت في انتظارنا. شكراً يا فؤاد.**».. ترددت قليلاً ثم سألته بعينين ضيقتين: «**أعرف بأنه لم يعد من شأني، ولكن ما الذي حدث بينك وبين نادرٍ؟ لمَ تغادر؟!**»..رفع حاجبيه وخفضهما بسرعةٍ قائلاً بسخريةٍ: «**وكأنك لا تعلمين.**». قالت فوراً: «**ماذا؟!**»، فردَّ مغيراً الموضوع: «**نعم، عرِفت.. دعكِ من هذا، وأخبري ماجداً أن يضع الحقائب في السيارة وسنوصلكم قبل أن ننطلق إلى وجهتنا.**».. هزت رأسها بقوةٍ وهي تلوح بيدها مجيبةً بثباتٍ: «**لا، لا داعيَ أبداً.. سنستقل سيارة أجرةٍ والمواصلات كثيرة.. كان بإمكاني أن أطلب من السائق إيصالي، ولكني أفضل الوضع على هذه الحال.. شكراً مجدداً يا فؤاد.**». أشاح بيده منهياً النقاش ونزل الدرج قفزاً كما صعد وهو يقول بحزم: «**بلا سخافةٍ يا مهرة بالله عليكِ، فأنا فيَّ ما يكفيني.**»، وصاح بماجدٍ أن يضع حقائبهم في السيارة، بينما توجه نحو جراج السيارات دون أن يضيف كلمةً أخرى..

هبطت مهرة الدرج في استسلام، ولكن ليس قبل أن تلتفت لتلقي نظرة أخيرة على الجنة التي توشك أن تبرح أعتابها الملتهبة، بعدما أضرمت في أركانها النيران، دون رجعةٍ.. بحثت بعينيها عن كريمةٍ وآدم، وكادت تعود إلى الداخل لتبحث عنهما وتسلم عليهما، على الرغم من تأكدها من أنهما ولابد، يحمِّلانها، وليسا مخطئين تماماً، تبعة كل ما جرى ويجري وسيجري من الآن وصاعداً، ولكن صوت ماجدٍ استحثها، فحثت الخطى نحوه وقالت فور ما أدركته: «**أصر فؤادٌ على إيصالنا، ولكني سأجعله ينزلنا على أول الطريق بمجرد أن نغادر المنطقة، وإن شاء الله سنجد سيارة أجرةٍ بسهولةٍ.**». جاءها الرد من ميٍّ التي قالت منفعلةً ووجهها محمرٌّ بشدةٍ: «**أرجوكِ يا مهرة! ألا يكفي بأنك ستعيدينا إلى ذاك الجحر؟! ألابد أن يبدأ الامتهان ويعود البؤس مع أول خطوةٍ؟!! معنا حقائب، فلمَ الشقاء والوقوف في الطرقات بانتظار مواصلةٍ؟! ما الضَير إن أوصلونا؟! ها؟! ما المشكلة.**»..

«**لا مشكلة على الإطلاق، سآخذكم أنا في هذه السيارة وسيركب خالي معنا، وأميرة وشهد سيكونان في السيارة الأخرى مع فؤادٍ.**».. تضايقت مهرة من سامرٍ كثيراً حيث استمع إلى حديثهم ومحتواه خلسةً، وتدخل دون إذن كعادته، وإن كان هذه المرة تدخلاً مهذباً، فقالت بابتسامةٍ شَقَّتْها عنوةً فوق شفتيها الجافتين، وقد داهمها انقباضٌ غريبٌ وهي تشعر بأنها صارت، دون قصدٍ منها، جزءاً من عقوبةٍ فرضها أفراد العائلة على نادرٍ: «**ستتعبك يا سامر، كما أن طريقنا مختلف.**». نظر إلى مي بسرعةٍ قبل أن يرد بابتسامة عريضة: «**لا تقلقي، ليس هناك تعب. هيا، اركبوا.**».. قالها وابتعد يشعل سيجارةً ويستند جزئياً على مقدمة السيارة في انتظار نزول خاله، الذي أذهل مهرة بتخليه عن نادرٍ في مثل هذا الظرف، فما توقعت أبداً أن يتسع الخلاف بينه وبين نادرٍ لهذه الدرجة بسبب أميرة!!.. تنهدت وانتظرت حتى ركب ماجدٌ ومي في الخلف بجوار شهدٍ التي اعترضت ورفضت النزول بشدةٍ، وأغلقت وراءهم الباب. التفتت تبحث عن أميرةٍ، فهناك بضع أمور أخيرةٍ لابد من إيضاحها قبل المغادرة. كانت لاتزال تقف بعينيها اللامعتين غضباً حيث كانت مذ نزلت مهرة، منتظرةً عودة فؤادٍ من الجراج.. تقدمت نحوها وعزمها يخونها مع كل خطوةٍ تحت النظرات القاسية

الحادة كالسهام، والتي سلطتها عليها أميرة وكأنها تحذرها من مغبَّة ما ستُقدم عليه. بدت في ضوء المغيب مهيبةً والظلال تغطي القسم الأكبر من وجهها وجسدها ممشوقٌ طويلٌ في بنطالها الجينز الأزرق وقميصها النبيذي طويل الأكمام. مالت برأسها يمنةً قليلاً وهي ترقُب بفضولٍ مهرةً وهي تدنو منها. ابتسمت مهرة ابتسامةً صغيرةً بشفتين مطبقتين ما أن وقفت قبالة نسيبتها وقالت مستهلَّة الحديث بأمرٍ عامٍّ بدا سخيفا لها بعدما تفوهت به: «**الجو أصبح حاراً جداً مع أننا لازلنا في أول الصيف.**».. رفعت أميرة أحد حاجبيها وردت بتساؤلٍ: «**ماذا؟!**».. سحبت مهرة نفساً عميقاً وقالت وهي تحاول أن ترص الكلمات في عباراتٍ وجيزةٍ مفهومةٍ كي تختصر هذا اللقاء دون أن تنسى شيئاً: «**اسمعي يا أميرة، أعلم بأننا لم نكن .. لنقل مقربتين، مذ تعارفنا، حتى قبل أن أدخل هذه العائلة.. ولكني أريدك أن تعلمي بأني ما أضمرت لك سوءاً يوماً، ولو عادت بنا الأيام لربما حاولت فعلاً التقرب إليك.. أتمنى لو أننا كنا صديقتين. وكذلك أحب أن تعلمي بأن ما حدث لم يكن أبداً في حسباني.. أعني.. كل هذا.**»، وأشارت بيدها نحو الفيلا والسيارة التي يستقلها أخويها وتلك الرياضية التي ركنها فؤادٌ بجوار الأخرى، ونزل منها ليشعل سيجاراً ويتحدث إلى سامرٍ بينما يتيح للمرأتين فرصةً للكلام، وتابعت: «**أعلم بأنك ربما تحملينني مسئولية ما حدث من شقاقٍ، ولا ألومكِ على هذا، فأنا نفسي ألوم نفسي عليه، ولكن عذري بأني لم أقصد إساءةً ولا شراً، قسماً بربي أني أمقت كل ما حدث..**»، توقفت لتلتقط نفساً عميقاً آخر وتتنهد متمةً: «**جُلَّ ما أريده هو أن أوضح لك أني لا أكِّن لك أيَّ مشاعرٍ سلبيةٍ، وأرجو أن تسامحوني جميعاً إن كنتم تعتقدون بأني المذنبة والمسئولة عن خراب هذا البيت...فقط.. هذا كل شيء.**».. انتظرت رد أميرة التي بقيت على وقفتها وحالها طوال الدقائق التي استغرقتها مهرة في مرافعتها للدفاع عن نفسها، حتى لاحظت تململ الأخيرة ففتحت فمها ببطءٍ قائلةً وقد أبقت على حاجبها مرفوعاً وأكدت على كل حرفٍ من حروف كلماتها المسمومة: «**أنت مستفزة..**».. وابتسمت حالما ارتسمت الصدمة على وجه محدثتها وتابعت وهي تفرد ذراعيها إلى جانبها محاولة بقوةٍ عدم مد يدها لتلطم ذلك الوجه

المقيت الذي يطالعها بسذاجةٍ مستفزةٍ: «**أكثر مخلوقٍ مستفز قابلته في حياتي.**»، وضحكت عاقدةً ساعديها مجدداً وثَنَت جسدها قليلاً متابعةً في سخريةٍ: «**أنتِ.. لا تضمرين لي أنا سوءاً!!.. والله هذا كرم أخلاقٍ وفضلٍ منكِ!!**»، فكت ذراعيها جزئياً وأشارت بإصبعها نحو مهرةٍ وقد بدت العدائية واضحةً جليةً في صوتها المرتفع نسبياً الآن: «**أتعلمين ما أنتِ؟! أنت السوسة التي أخذت تنخر في أساس حياتنا جميعاً حين تهاوى كل شيءٍ ولت مُدْبرةً هاربةً سالمةً غانمةً... أنت الشيطانية التي عبثت بعواطف كل من في البيت، حتى الصغيرة لم تسلم من ألاعيبك، ولكني أنا الوحيدة التي تفهمكِ جيداً وتعرف تماماً كل خطوة لم أتيتها وكيف رتبتِ لها.. نعم يا مهرة، بالطبع لا تضمرين لي شراً، ولكني أكرهكِ.. أكرهكِ بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. أكره شكلكِ ورائحتكِ وأخويكِ وكل ما تمثلينه.. أكره صوتكِ وكلامكِ ونظرتكِ ورؤيتكِ كل يوم.. أكره عيناي التي تراكِ وأذناي إذ تنقلان إليَّ نبرات صوتكِ المرتعش.. أنت لا تضمرين لي شراً؟! أنت يا من سرقت حلمي وحياتي وسرت أمامي تختالين في ثوبي وتدمرين، ليس فقط ما عشت عمري كله أحلم بتحقيقه، ولكن دمرت مستقبلي وبقية الأمل الذي تمسكت به بعد احتلالك لبيتي وفراشي.. أكرهكِ يا مهرة، وسأكرهكِ لآخرِ لحظةٍ في حياتي.**».. فردت ذراعيها واحتضنتها ثم دفعتها وهي تقول ساخرةً: «**ها قد بحنا لبعضنا بمكنون قلوبنا وسنفترق كعصفورتين رقيقتين.. وداعاً، وأرجو ألا أرى وجهكِ ثانية.**».. اندفعت نحو فؤادٍ بسرعةٍ ولولا ارتداءها لحذاءٍ رياضيٍّ، لطال صوت خطواتها التي ضربت الأرض بقوة عنان السماء، مفرغةً كامل الطاقة السلبية والغضب على الأسفلت المسكين..

«**مهرة!!.. مهرة! ماذا سنفعل الآن هل سنبقى أم ماذا؟**».. انتبهت من ذكرياتها لصوت ماجدٍ الذي أعادها لردهة المشفى المقيت، ولكنها لم ترد واكتفت بأن هزت رأسها نفياً دونما أن تحدد آلبقاء ترفضُ أم الانتظار.. ولكن ماجداً اكتفى بهذه الإشارة الخفيفة ليعود ويجلس في مكانه بجوار مي التي تكاد تلفظ روحها من شدة البكاء.. التقطت هاتفها المحمول وهمت بإجراء اتصالٍ حين لاحظت أن يديها لا تزالان ملطختان بالدم فمسحتهما بفزع وسرعة في جنبي بلوزتها

الزهرية والتقطت هاتفها مجدداً لتطلب نادراً علَّ هاتفه يكون مفتوحاً هذه المرة على عكس سابقاتها اللواتي تجاوزن العشرين محاولةً، ولكنها أدركت بعد ثوانٍ ألَّا فائدة هذه المرة أيضا..

(أين أنت يا نادر؟! أهذا وقت تختفي فيه؟! يا رب، انقذ شهد، يا رب خذ بيدها وعافها ولا تحرق قلب أبيها وقلوبنا عليها..) رفعت رأسها إلى السماء ثم عادت لتحدق في الأرض وهي تحتضن نفسها بقوةٍ (أين نادر؟! هل يعقل أن تظن أميرة بأن له علاقةً بما حدث لشقيقها كما يظن حسَّاب ولهذا منعها آدم من لقائها؟! آهٍ يا سامر، رحمك الله..) زفرت والدموع تطفر من عينيها غزيرةً وقد باتت في وعيٍ وإدراكٍ تامَّيْن الآن..(أين أنت يا نادر؟!).. التقطت هاتفها ثانية لتعرف الوقت فوجدتها زهاء العاشرة. زفرت وعاودت الاتصال بالشخص الوحيد الذي يفكر فيه الجميع في هذه اللحظة... نادر.



تأفف نادرٌ للمرة العاشرة وهو ينظر في ساعة يده مجدداً.. كان الجو خانقاً لا يطاق بالداخل، على الرغم من أن هذا الصباح كان حسَّن الطقس على عكس المتوقع في هذه الأيام.. كان قد أمضى النصف ساعة الأخيرة وهو يحاول أن يفهم سبب وجوده هنا، ورغم الهدايا المادية العلنية والخفية التي أنفقها هنا وهناك إلا أنه لم يستطع أن يصل لمعلومة تفيد، لشدة تحفظ المحققين فيما يخص وجوده هنا، فاتصل بمحاميه، ثم أتبع اتصاله بآخر لنهلة، التي ردت فوراً: «**سيد نادر، حاولت الاتصال بك كثيراً، فقد وردتني عدة اتصالاتٍ من آدم وكريمة، ولكني لم أرد بناءً على تعليماتك..**». رد بمللٍ: «**خيراً فعلتِ، اسمعي يا نهلة، أنا لن أتمكن من حضور اجتماع اليوم، أريدك أن تتمي الأمر كأني موجود.. لا، بخير.. في القسم... لا، وجدت قوة بانتظاري أمام الشركة........ ولِمَ لَمْ تخبريني؟!..**».. مسح وجهه بكفه بضيقٍ وهو يستمع إليها تعتذر بأن هاتفه كان مغلقاً فلم تتمكن من إخباره عن الضابط الذي سأل عنه اليوم..

«**سيد نادر! خيراً؟! ما الأمر؟!**».. نظر نحو رئيس قسم الشئون القانونية لمجموعته الذي وصل تواً وأشار له بالجلوس، مكملاً حديثه مع نهلة: «**حسنٌ، لا بأس.. اسمعي: لا تردي على أحدٍ من البيت حتى لا تضطري لإخبارهم عما يحدث حتى تستقر الأمور وأعرف ماذا يريدون مني تحديداً... لا ينقصني ولا ينقصهم قلقاً.. جيد..**». أغلق الخط واستدار قائلاً بحنقٍ: «**لِمِ تأخرتَ يا شوكت باشا!**».. قال الرجل بوقارٍ وهو يجلس إلى جانبه: «**الطريق خانقٌ، ولكن أخبرني.. ما الأمر؟**». رد نادرٌ مباشرةً: «**لم أعلم حتى الآن لم تم إحضاري إلى هنا بهذه الطريقة؟ ضبطٌ وإحضارٌ يا سيادة المستشار!**». سأله الرجل المخضرم بتعجبٍ: «**وأنت لا تستطيع أن تخمن مَن أو ما السبب يا نادر بك؟ حاول أن تتذكر شخصاً أو شيئاً قد يثير المتاعب، و إن بدا لك تافهاً.**». مط نادر شفتيه قائلاً ببساطةٍ: «**إطلاقا.**».

لم تفت النظرة التي طافت بعيني نادرٍ للحظة عيني المستشار الخبيرتين، ولكن خبرته أيضاً جعلته يتغاضى عنها مؤقتاً حتى يري عمَّ كل هذا.. استأذن نادراً ليرى إن كان يستطيع أن يعرف شيئاً عن كُنْهِ البلاغ المقدم، فأشار له نادرٌ بأن ينصرف وعاد يشبك أصابعه ويسند ظهره إلى ظهر المقعد الخشبي الذي لزمه مذ وصل إلى القسم قرب الظهيرة. كان القلق ينهش أحشاءه والعرق البارد يبلل كفيه ويتفصد من جبينه، ولكنه تمالك نفسه وخبأ بحنكةٍ كل ذلك خلف ستار من اللامبالاة والتأفف والغطرسة..

لم يغب المستشار طويلاً، وحين عاد، كانت بشرته شاحبة شحوباً ملفتاً وبرزت الحيرة من عينيه وهو يحدق بتساؤلٍ في وجه نادرٍ، ما جعل نادراً يبتلع ريقه ويسأله عاقداً حاجبيه بقوةٍ: «**ما الحكاية يا شوكت باشا؟ أمشكلةٌ كبيرةٌ؟ تحدث يا رجل! خيراً**»..

«**لا يا سيد نادر، ليس خيراً.. أخشى بأنها أخبارٌ سيئةٌ جداً، فالسيد فؤاد تقدم ببلاغٍ ضدك عن...**»..

«**نادر حسين عز العرب.**» قاطعهما صوت الحاجب فوقفا وَدخلا سويا مكتب رئيس المباحث، حيث تقدم نادر مباشرةً نحو الشاب الأنيق الممتلئ

الجالس خلف المكتب المتواضع، ماداً يده بثباتٍ أدهشه هو نفسه، قائلاً بنبرةٍ رسميةٍ: «**مساء الخير يا باشا، نادر عز العرب.**»، وأشار إلى محاميه مكملاً: «**وهذا المستشار شوكت المنياوي.**». صافحهما رئيس المباحث بكياسةٍ وإن أبت عقدة حاجبيه أن تنحل، وقال بعد أن أشار إليهما بالجلوس: «**نعتذر إن كنا عطلناك واطلنا انتظارك يا سيد نادر، ولكنك تعلم كمَّ الأعباء التي تثقل كاهلنا.**». رد نادرٌ بأدبٍ: «**كان الله في العون يا فندم.. ليس هناك من عطَلة، ولكني أتساءل عن سبب استدعائي إلى هنا بهذه الصورة!**».. كان صدى كلمة شوكتٍ الأخيرة لا يزال يتردد في أذنيه (قدم فؤاد بلاغا!!! فؤاد...!!!!).

«**لم يتم استدعاءك يا سيد نادر، ولكن ضبطك وإحضارك، وهناك فرق بين الاثنين، كالفرق بين السماء والأرض.**». صحح له رئيس المباحث الذي كُلِّف من جهاتٍ أعلى بالتحقيق شخصياً في الحادث، وتابع وهو يميل إلى الأمام: «**أولا، بطاقتك من فضلك لينقل الكاتب بياناتها.**».. قال شوكت بهدوءٍ: «**أيمكن أن أنفرد بنادر بك لدقيقةٍ فقط يا باشا؟ فهو لا يدري شيئاً عما حدث بعد.**».. قطب نادرٌ بقوةٍ وهو يسمع رئيس المباحث يقول ببرودٍ: «**لا داعي يا سيادة المستشار، فأنا لن أخفي عنه شيئاً، ومادام لم يعرف بعد، فأفضل أن أخبره بنفسي.**». قاطعهما نادرٌ وقد ضايقه التحدث عنه بصفة الغائب وهو جالس بينهما: «**عفواً، تخبراني بماذا؟ ما الذي حدث؟**»..

تراجع الرائد تحسين عبد الحفيظ وهو يقول بقوةٍ: «**أيمكنك أن تخبرني أين كنت بالأمس يا سيد نادر؟ تحديداً ما بين الساعة التاسعة والنصف مساء والعاشرة؟**».. جاوبه نادرٌ بقلقٍ: «**ماذا؟ لمَ؟**». رد الرائد تحسين بهدوءٍ وإنما بحزمٍ: «**أنا هنا من يسأل يا نادر بك. ولكني سأجيبك حتى ننجز عملنا هنا بوقتٍ قصيرٍ..**»، تراجع وهو يرقب وجه نادرٍ بدقةٍ والأخير يستمع إليه بتركيزٍ: «**أنت متهم بالتحريض على قتل شقيقك وابنته وزوجته وشقيقها، وكذلك وُجد سلاحك الشخصي بجوار جثة خالك السيد..**»، و مال إلى الأمام ليراجع الأوراق أمامه ثم يعود ليتابع: «**السيد حسَّاب حسَّاب.. هممم؟ ما أقوالك؟**». ساد الصمت أطول

مما يحتمل الوضع، ولكن رئيس المباحث أصرَّ على أن يكون أول من يكسر الصمت هو نادرٌ، الذي ظل يحدق في وجه الرائد تحسينٍ دون أن يحرك ساكناً وقد شعر بالعرق البارد يزحف على أطراف جبهته، وأصبح مجال رؤيته محدوداً بهالةٍ سوداء تضيق شيئاً فشيئاً.. كان عقله يحاول التجاوب ولكنه ببساطة لم يستطع. أخيراً اخترق صوت المستشار شوكت جدار الصمت قائلاً برفقٍ: «**السيد نادر لم يعلم بالحادث بعد، كما سبق وأخبرتك يا سيادة الرائد، لذا أرجو إمهاله بضع دقائق ليستوعب الأخبار السيئة ويستجمع نفسه ليتمكن من التجاوب مع التحقيق..**».. لم تفارق عينا الرائد تحسين وجه نادرٍ الذي صار الآن شاحباً يحاكي الجليد ابيضاضاً وقال ببساطةٍ: «**ليكن.. لديكما خمس دقائق وسنعاود التحقيق.. هل أطلب لك شيئا يا سيد نادر؟ عصير ليمون ربما؟**».. بدا سؤاله ساخراً وإن عكست ملامحه غير ذلك. لم يرد نادر وبقي يحدق في عيني الرائد دون أن يراهما. حين وقف شوكت، دبت الحياة في محيا نادرٍ وأطرافه فقال دون أن ينظر لشوكتٍ أو يأبه لطلبه منه الخروج معه للحظات: «**ماذا قلت توا؟! ماذا حدث لشقيقي وابنته.. والآخرين؟.**»، ثم اعتدل فجأة وسأل مجفلاً: «**أين مهرة؟ وأخويها؟ ماذا جرى؟**».. قال شوكت برفقٍ وهو يمد يده نحوه: «**تعالَ معي يا سيد نادر وسأشرح لك ما حدث.**». دفع نادر يده وقد التمعت عيناه وقال مجاهداً ليبقي صوته غير مرتفعٍ: «**ماذا حل بفؤاد؟ أنت قلت بأنه.. هو قدم البلاغ.. يعني هو بخيرٍ؟....**»، ثم استدار للرائد مستفسراً: «**أنت تقول بأنه.. م.. هل؟..**». «**نادر بك.**».. حاول شوكت الشرح ولكن الرائد تحسين سبقه قائلاً: «**ربما أختصر أنا هذا الموقف يا سيادة المستشار، فلدي تحقيقاتٌ وأشغالٌ أخرى.**»، نظر إلى نادرٍ وقال ببطءٍ وبنبرة معتدلةٍ: «**أثناء مغادرة أفراد عائلتك للمنطقة السكنية حيث فيلتك، اعترض طريقهم دراجتين بخاريتين أطلق راكبوهما النار بسخاءٍ على الجميع، وقد تعامل شقيقك وابن خالتك بسلاحيهما مع المعتدين الأربعة جيداً إذ أردوهم جميعاً، ولكن للأسف، لم ينج الجميع، فأصيب أخوك بطلق في ذراعه وآخر اخترق جدار البطن ومر من الخلف، دون إحداث أذىً جسيم.. وكذلك شقيق زوجتك أصيب بجرح سطحي برأسه إثر ارتطامها بزجاج السيارةً لما توقفت فجأة وكسرٍ في ذراعه إثر**

إصابته بطلقٍ هو الآخر، في حين لم تصب لا السيدة مهرة ولا أختها ولا السيدة أميرة بأكثر من رضوضٍ بسيطةٍ لا تذكر..»، رفع عينيه للحظة عن التقرير الطبي الذي كان يتلو منه الإصابات وتابع وهو ينظر في عيني نادرٍ بعينين ضيقتين محاولاً التقاط أي لمحةٍ أو إشارةٍ قد تفلت منه إثر ما سيقوله: **«يؤسفني بأن أبلغك بأن السيد سامر توفي من فوره في موقع الحادث إثر إصابتين بالصدر وواحدة بالبطن، بينما بقيت ابنة أخيك في المشفى في محاولات يائسة لإنقاذها حتى فجر اليوم، إذ.. فارقت الحياة، مع الأسف.. أما بخصو..»**.. قطع كلامه حين هبَّ نادرٌ واقفاً، وقبل أن يتمكن من الالتفاف ليخرج من الحجرة التي شعر بجدرانها تطبق عليه، كان قد أفرغ محتويات معدته على الأرض حتى العصارة، أخذ يتقيأ ويتقيأ حتى كاد أن يتقيأ روحه.. قال محدثاً الرائد تحسين حيناً ونفسه حيناً، وكل ذرة في جسده ترتعش: **«لا. لن أسمح لك بأن تتحدث عن شهدٍ بهذه الطريقة. لا يهمني من أنت، ولكن إياكَ أن تتحدث عنها هكذا. هي لا يمكن أن تموت.... هذه الفتاة لن تموت.. لازال أمامها العمر كله لتعيش وتفرح وتتخرج وتتزوج. لا يمكن أن تترك كل هذا، فلمن ستتركه؟!!!.. أنا لدي مالٌ كثيرٌ، كثيرٌ جداً، وسأفعل أي شيءٍ، أي شيءٍ لأغير ما تقول.. راجع أوراقك، فبالتأكيد لديك خطأ ..نعم.. سأفعل أي شيءٍ يا شهد..... سأعود بالزمن إلى الوراء يا حبيبتي وأمنع أي مخلوق من إغضابك أو إيذاءك. أو ربما أمنع.. أمنع أباك من الزواج بأمك، وإنجابك.. لا يا شهد... لا يمكن أن تأتي لتذهبي.. لا.. ومن يبقَ لي يا ابنتي؟!! راجع المشفى، فربما هناك خطأٌ، أو تشابه في الأسماء.... أرجوك.. إلا شهد.. حاول أرجوك. لا، ليست شهد.»** مع تردد اسمها في عقله قفزت صورتها بعينيها اللعوبتين أمام عينيه اللتين غمرتهما دموعٌ ساخنةٌ أحرقت خديه وسط أنَّاتٍ طويلةٍ ندت منه دون أن يتمكن، أو حتى يحاول، أن يسيطر عليها... (فتاتي! ابنتي!).. كلما تصورها كيفما وصفها ذلك الرجل القاسي بدم باردٍ، انتفض جسده وشعر بالدوار يلفه.. لم يأبه لمظهره أمام الحاضرين، ولا للتّهم التي يتسلى رئيس المباحث بإنشادها على أذنيه.. لم يسمع كلمةً واحدةً مما يقول شوكت.. لم يشعر بسيف الهواء البارد الذي انسل من فتحة الشباك الضيق خلفه، والذي فتحه الكاتب بناء على أمر الرائد، ليخترق

جلده ويبرد مؤخرة عنقه. فقط شهد.. فقط هي من رآها وسمعها وشعر بها في هذه اللحظة..لمحة البراءة والطيبة الوحيدة والأخيرة في حياته.. شهد.. (مستحيل. هذا لم يحدث لها.. لم يحدث لي.. لا يا ربي.. إلا شهد.. شهد!!!!!)

انتظر الرجلان بصمتٍ وصبرٍ حتى هدأ نادرٌ بعد برهة ليست بطويلةٍ.. طلب الرائد كأس ليمونٍ لنادرٍ وقال بينما ينتظرون وصوله: «**اقبل تعازي يا سيد نادر، وأسفي كذلك لكوني مضطراً لأن أكون متطفلاً في مثل هذا الوقت الدقيق.. ولكن هذا عملي، وأظنك ستتعاون معي لكشف الفاعل..**». صمت ليسمح للساعي بوضع كأس الليمون أمام نادرٍ ثم تابع: «**أتعرف شيئاً عن شقة بالمهندسين يمتلكها خالك السيد حسَّاب؟**».. أومأ نادرٌ ببطءٍ إيجاباً، فتابع الرائد تحسين: «**وهل تعلم بأن لا أحد غيرك يعلم عنها، أعني بغيرك، باقي أفراد عائلتك، فجميعهم أنكر معرفته بها.**». أومأ نادرٌ مجدداً، وقال موضحاً حين لاحظ انتظار الرائد لتعقيبه: «**طلب مني خالي ألا أُعلم بها أحداً.. هو له طبيعةٌ منعزلةٌ، فهو لا يحب أن يخبر أحداً إلى أين يذهب أو مع من يقضي وقته..**». سأله الرائد ببساطة: «**ولِمَ كان يخبرك أنت دون غيرك؟**». طرف نادر بعينيه حين انتبه لكلمة (كان) ولكنه تمالك نفسه ورد برويةٍ: «**علاقتي بخالي مختلفةٌ عن علاقته بالجميع.. نحن مقربان، أقرب للأصدقاء منا للأقارب.. في الواقع، انتقل خالي وأبناء خالتي للسكنى معنا في الفيلا بناءً على طلبي منه ذلك، لاحتياجي إليه في تلك الفترة.**». قال تحسين بتساؤلٍ: «**ولم يحدث بينكما أي خلاف؟ مؤخراً على وجه التحديد؟**». حل نادر عقدة ربطة عنقه وهو يجيب بملامح مستاءةً: «**ليس شيئاً أكثر مما يحدث بين أي أفراد أسرةٍ تقيم معاً في بيتٍ واحدٍ.. لا.. لا شيء تحديداً.**». رفع تحسين حاجبه وهو يهز رأسه ويقلب في الأوراق أمامه قائلاً: «**إذاً لِمَ أتى بعد الحادث متهماً إياكَ مباشرةً بالتحريض على قتلهم..**» وتابع وهو يتراجع في مقعده: «**هذا بالطبع قبل أن نتلقى اتصالا من أحد جيرانه ليبلغ عن سماعه لصوت إطلاق نار من داخل شقته، حيث وجدناه هناك مقتولا وبجواره سلاحك حسبما تعرف عليه أقاربك.. كما اتهمك ابنة خالتك بقتله بسبب خلافات خاصةٍ بالعمل بينكما.**».. سارع المحامي معلِّقا: «**لم يكن السيد حسَّاب يعمل مع السيد نادرٍ من الأساس يا سيادة الرائد ومركزه في الشركة،**

مجرد وظيفةٍ وهميةٍ على ورقٍ، كي يتمكن السيد نادر من منحه راتباً شهرياً، دون أن يجرحه... رحمه الله... بل لم يكن يخوض مجال الأعمال الحرة. أعلم هذا لأني المستشار القانوني للمجموعة بالإضافة لعلاقتي الشخصية بالسيد نادرٍ والعائلة منذ عقود، قبل وفاة والده، رحمه الله.». استمع له تحسين باهتمام وسأل نادراً حين أتم شوكت كلامه: «**فسِّر لي إذاً لم يتهمك الجميع، بما فيهم شقيقك وزوجتك، بارتكاب كل تلك الجرائم؟ أليس ذلك غريباً؟.**». قطب نادرٌ حاجبيه بشدةٍ وهو يكرر: «**زوجتي؟**». مط تحسين شفتيه مجيباً: «**نعم، هي والآخرون لم يوجهوا اتهاماً إلا إليك.. لمَ تظن ذلك؟**». انتفض عرقٌ بقوةٍ في جانب فكِّ نادرٍ وهو يسأل بعينين ضيقتين: «**وآدم؟ وكريمة؟.**». جاء دور تحسين هذه المرة ليسأل مقطباً: «**من؟**».. كرر نادرٌ متنهداً: «**آدم وكريمة.. هما من يرعيا الفيلا. ولكنهما بمثابة أبٍ وأمٍّ لي ولـ... لفؤادٍ.**»، ولما انتبه، سأل بقلقٍ: «**هما بخيرٍ، أليس كذلك؟**».. هز تحسينٌ كتفه بلامبالاةٍ قائلاً: «**على ما يبدو، فلا ذكر لهما هنا إلا بضع عباراتٍ أدليا بها للمحقق في المشفى.**»..

تنهد نادرٌ مجدداً وأرجع رأسه إلى الوراء مغمضاً عينيه، ما منح شوكت الفرصة ليقول بسرعةٍ: «**أرجو أن تتكرم يا سيادة الرائد بالسماح لنا بالانصراف الآن، وتأجيل أخذ أقوال السيد نادرٍ ليوم واحدٍ حتى يتمكن من استيعاب كل هذه الأحداث المؤسفة، ويكون بجوار شقيقه و..**».. قاطعه تحسينٌ: «**بإمكانك الانصراف يا سيد شوكت.**». ابتسم شوكت وقال بعرفانٍ: «**أشكرك يا فندم... هيا يا سيد نادر.**».. اعتدل تحسين في مقعده مبتسماً وهو يشير بيده نافياً: «**لا لا لا لا... أنتَ بإمكانك الانصراف.. يا سيد شوكت، يبدو أنك لم تفهم الوضع جيداً. السيد نادر هنا بصفته متهمٌ، وليس أحد الشهود، لذا سيبقى معنا لحين العرض على النيابة.**»، فقاطعه شوكت مقطباً: «**يا سيدي، كلها شهادات كيدية لا أساس لها ولا إثبات.**». سأله تحسينٌ فوراً: «**إذاً أيستطيع أن يثبت مكان وجوده وقت وقوع جريمة قتل خاله على الأقل؟**». نظر شوكت نحو نادرٍ الذي رمقه بضيقٍ قبل أن يتحول إلى تحسينٍ مجيباً بتعقلٍ: «**وإن يكن يا سيادة الرائد، فلنفترض أن لي علاقة بهذه .. بهذه الجريمة.**» قاطعه شوكت: «**أرجو ألا تأخذ أي أقوالٍ من موكلي الآن وهو تحت تأثير الصدمة يا فندم.**». هدأه نادرٌ قائلاً برفق: «**انتظر يا سيادة المستشار،**

أنا أقول فرضاً...»، وعاد يكمل موجهاً كلامه لتحسينٍ: «**هل تظن أن رجلاً مثلي يقوم بشيء من هذه الأمور بيده.. بإمكان أي كان أن يرتكب ما يريد دون التواجد في مكان الجرم.. وإن تواجدت، فهل سأستخدم سلاحاً مسجلاً باسمي، ثم أتركه في مكان الجريمة؟!! ألا يبدو لك الأمر مفتعلاً ومكيدةً مبتذلةً؟!**».. حدق به تحسين للحظاتٍ قبل أن يبتسم وهو يطأطئ رأسه ويهزها قبل أن يقول وهو يميل إلى الأمام: «**أوافقك الرأي.. أين كنت يا سيد نادر ما بين الساعة التاسعة والنصف والعاشرة مساءً؟**».. انتظر نادرٌ بضع لحظات قبل أن يجيب ببساطةٍ: «**كنت أجلس بسيارتي على الكورنيش.**».. رفع تحسين حاجبيه وأمال رأسه جانباً متعجباً، بينما كاد حاجبا شوكت أن يتلامسا من شده ما عقدهما. سأل تحسين: «**هل كنتَ وحدَك، أم كنت بصحبة أحدٍ؟ وقبل ذلك وبعدها، أين كنت؟.**». رد نادرٌ بنفس النبرة الهادئة: «**ظللت بالشركة حتى قرب التاسعة، وبعدها شعرت برغبةٍ في استنشاق بعض الهواء فأخذت سيارتي وقدت دون هدفٍ حتى وصلت إلى الكورنيش، وبقيت هناك حتى ساعات الصباح الأولى، ومن بعدها قدت مجدداً إلى الشركة، حيث وجدتكم بانتظاري.**».. كان تحسين يهز رأسه موافقاً، ثم قال معدداً على أصابعه، بعدما فرغ نادرٌ من إفادته: «**أولاً، حين سألنا في الشركة، علمنا بأنك غادرتها قبيل العشاء، ولم تعد.. ثانياً، لا أحد يؤكد مكان وجودك في الوقت الذي سألتك عنه.. ثالثاً..** »، وأسند مرفقه إلى سطح مكتبه وهو يشير إلى نادرٍ متسائلاً: «**بالله عليك، لو كنت مكاني، ألم تكن لترَ أن كل ما قلته تواً لا يساعدك إطلاقاً.**». رفع نادرٌ حاجبه ومط شفته قائلاً وقد استعاد رباطة جأشه بالكامل: «**ليس لدي ما أساعدك به يا فندم.. ليس لدي إلا الحقيقة التي قلتها لك تواً.**».. تراجع تحسين في مقعده متنهداً وهو يمد ذراعيه قائلاً بهدوءٍ مماثلٍ: «**وأنا ليس أمامي إلا إبقاءك هنا لحين العرض على النيابة غداً..**». اعترض شوكت: «**يا باشا بإمكاننا..**». رفع الرائد تحسين يده بوجهه مانعاً إياه من إتمام كلامه وقال بضيقٍ: «**وفر مرافعتك للنيابة أو المحكمة.. أنا عملي هنا انتهى..**»... دق جرسَ الاستدعاء فدخل العسكري المكلف بحراسة الباب ليأمره تحسين باصطحاب نادرٍ إلى الحجز.. وقف نادرٌ برويةٍ وهدوءٍ شديدين، ومال نحو شوكت وهو يعدل وضع ربطةَ عنقه قائلاً

في أذنه: «**اتصل بفؤادٍ، اشرح له بأني لا شان لي بما حدث.. ابق معه حتى تطمئن عليه وتأكد بأنه لن يتحدث مع أحدٍ عن موضوع أبينا.. أكد عليه بأني سأجد الفاعل ولن أرحمه.. اجعله لا يقدم على أمر نندم عليه أكثر مما نفعل الآن.. لا داعي بأن يكون موتٌ وخرابُ ديارٍ..**».. «**هيا يا أستاذ.**» أمسك العسكري بمرفقه وشده برفقٍ فاستسلم له نادرٌ وغادر الحجرة الكئيبة لينزل بمكانٍ أكثر كآبة وظلمة.. ووضاعة... لكنه طوال فترة تسليمه لمتعلقاته ونزوله إلى حيث الحجز، وحتى بعد دخوله إلى المكعب الضيق ذي الجدران الخشنة الرمادية والرائحة التي تزكم الأنوف، لم يفكر إلا بشخصين.. شهدٌ، حياته، التي أريقت مع روحها كل قطرة حبٍّ جرت في عروقه، وآخر نبضةٍ حيةٍ دقت في قلبه.. ومهرة، زوجته التي شهدت ضده لتسجنه انتقاماً لحبيبها..

«**الباشا غسيل أموالٍ أم مخدرات..**».. سأله الرجل النحيل الذي جلس بجواره على المصطبة الإسمنتية الضيقة وبدا أقرب لهيئة الموظفين البسطاء منه للمجرمين، فأجابه نادرٌ وهو يحل عقدة ربطة عنقه تماماً: «**جريمة قتلٍ.**».. بدت الدهشة على وجه الرجل وهو يسأله مجدداً: «**قتل؟ لا يبدو عليك أنك تستطيع أن تقتل!!**». رد آخر من ركن الحجز: «**وهل مثل هذا يقتل بيديه يا أبو المفهومية؟**». تجاهله الرجل وسأل مجدداً: «**ومن قتلت؟ أهي جريمة شرف؟! تكلم يا رجل، من القتيل؟**» .. سحب نادرٌ نفساً عميقاً وقال وهو يسند رأسه إلى الحائط الخشن خلفه: «**أنا**»...



« **توقف. أنزلني هنا، سأسير حتى البيت.**»

«**ولكن العاصفة الترابية شديدةٌ والحر لا يطاق، كما أن المسافة طويلةٌ يا هانم. دعيني أوصلك لمسافةٍ أقرب بقليل.**».

«**لا، توقف هنا. أريد أن أسير قليلاً و أختلي بنفسي.**»

توقف السائق فوراً، وقبل أن تتمكن مهرة من فتح الباب، استدار وسألها بقلقٍ واهتمامٍ طفرا من عينيه بوضوح: «**كيف حال السيد نادر؟ هل هناك جديدٌ في التحقيقات يبشر بخروجه؟**». سحبت نفساً عميقاً وقالت مختبئةً ومخبئةً خزيها وراء نظارتها السوداء الكبيرة: «**لا جديد للأسف. لا.. حتى الآن.**». لم تمهله ليسألها سؤالاً آخر أو يتمنى خيراً لهم، ففتحت باب السيارة وترجلت لتغلق الباب وراءها بسرعةٍ.

لفحها الهواء الساخن وألصق بلوزتها السوداء الرقيقة بجسمها، وحاول أن يسحب عن رأسها غطاؤه الأسود الشفاف، ولكنها عدَّلت وضعه وعقدته حول رقبتها حتى لا يطير. كتفت ساعديها بقوةٍ حول جسدها الذي صار أكثر نحولاً مما اعتادت يوماً.... كان الصداع، الذي اكتنفها بعد انتهاء التحقيق معها في سراي النيابة والذي امتد لأكثر من ساعتين، أشد الآن عما بدأ، لذا فضلت أن تتنشق بعض الهواء قبل أن تعود لجو الفيلا الخانق، ونظرات كريمة اللائمة المميتة وصمت فؤادٍ وآدم، ونحيب ميّ اللا منقطع.. كانت المستجدات الأخيرة قد جعلتها تظن أنه من غير اللائق أن تترك البيت وترحل عن أهله في مثل هذه الظروف، ولكنها، وكعادتها مؤخراً، ندمت على قرارها هذا، إذ بدا أن الجميع يميل للابتعاد عنها، بمن فيهم أخويها، وتصرخ عيونهم باتهاماتٍ صريحةٍ.. كان الوحيد الذي يتفاعل مع وجودها هو نابليون، فكان كلما رآها قابعةً في أحد الأركان، أتاها متسوِّلاً الرفقة بعدما هجرته أميرة وبقيت لدى إحدى صديقاتها مباشرةً بعد دفن سامرٍ وحسَّابٍ وشهد، فكان المسكين يتكوَّر في حجرها ساكناً مستسلماً لتمليسها البطيء الشارد، راضياً باهتمامها غير الحقيقي، مفضلاً إياه على التجاهل والوحدة.. ابتسمت بمرارةٍ، فالهر تمكن من أن يختار وهماً سعيداً على واقعٍ أليمٍ ببساطةٍ وعفويةٍ، في حين فعلت هي العكس تماماً، وفضلت حلماً غابراً لم يحمل ملمحاً للتفاؤل على واقعٍ حوى الحب والسعادة... تذكرت شهداً، فسالت الدموع على خديها المتوردتيْن من الحر.. لقد مرت أيام العزاء الثلاث كالدهر، ثقيلةً طويلةً، ولكنها ما أن انتهت، حتى حل الصمت كالموت حقيقياً واقعياً ليملأ أرجاء الفيلا ويحيل سكانها إلى أشباحٍ مطبقة الشفاه..

شعرت بثقلٍ يؤلم كتفها، وكأنها تحمل همومها في تلك الحقيبة الصغيرة المعلقة على كتفها، فتوقفت لتنقلها على كتفها الآخر.. وبوقوفها، صارت فريسة سهلة للهواء الذي هب عنيفاً رافعاً تنورتها وغطاء رأسها بجرأةٍ، ولكنها تمكنت من التماسك وتعديل ثيابها لتسترها للبضع أمتارٍ المتبقية قبل أن تصل إلى البوابة الحديدية التي لاحت لها من هذه المسافة، ولامت نفسها إذ لم تستمع لنصيحة السائق..

عادت بأفكارها إلى ما حدث اليوم بالنيابة، وكيف انفعل عليها وكيل النيابة أثناء التحقيق حين أنكرت اتهامها لزوجها بارتكاب ذلك الحادث البشع.. حينها اعترض المستشار شوكت، الذي اتصل بها باكراً ليستعلم منها عن طبيعة شهادتها وعرض عليها، حين أدرك أنها في صف موكله، حضوره التحقيقات معها إن رغبت، وقد رحبت هي بذلك بشدة، فقال لوكيل النيابة حين علت نبرته وازدادت حدة كلماته: «**اسمح لي يا سيادة المستشار أن أنبهك بأن التحقيقات تبدو وكأنها تدفع في اتجاهٍ معينٍ، لا أن تتحرى الوقائع.. السيدة تقسم بأنها لم تُدل بأي شهادةٍ أو إفادةٍ من قبل.. ربما أخطأ الضابط وقتها في كتابة اسم الشاهد أو ما كانت السيدة تقوله نظراً لحالة الهرج والمرج التي كانت تجتاح موقع الحادث والمشفى، فإن لم يكن لدى النيابة مانعٌ، أرجو السماح للسيدة، وقد قالت كل ما لديها، بالانصراف، فعلى الرغم من انتهاء العزاء، إلا أن ما مرت به هي والآخرون قد أرهقهم وأتى على أعصابهم بشكلٍ حاد.**»، واعتدل مغتنماً الفرصة ليلقي تلميحاً خبيثاً: «**وبالأخص السيد فؤاد، الذي نبحث في أمر عرضه على أخصائي نفسي، إذ أنه بالفعل لم يكن في تمام اتزانه النفسي لفقد زوجته مذ عامين أو يزيد، ولهذا يعاني الآن بقوةٍ من انهيارٍ شديدٍ وعدم اتزانٍ واضحٍ.**». رد وكيل النيابة الذي استمع بصبرٍ للمرافعة القصيرة التي ألقاها شوكت وقد عقد حاجبيه واستند بكفه على فخذه وبالأخرى أسند ذقنه مريحاً كوعه على مسند كرسيه والغضب يلوح في عينيه: «**أنا مقدرٌ للحزن والحالة التي يمرون بها، ولكن سرعة سير التحقيق مفيدةٌ للجميع، لتحقيق العدالة، وإخلاء سبيل السيد نادرٍ إن كان بريئاً.**»، وهز رأسه قائلاً لمهرة: «**عليكِ أن تفهمي يا سيدة مهرة بأني لا أدفعك لتصديق أو قول شيءٍ معينٍ،**

لكن الإفادات التي جمعت منكم جميعاً في المشفى أمامي الآن.»، وأشار بسبابته إلى الملف المفتوح أمامه مكملاً: « ومكتوبٌ هنا بأنكِ حين سألك المحقق عمن تتهمين بارتكاب هذه الجريمة، قلتِ صراحةً وحرفياً : نادر.. ولم تزيدي. اعلمي بأن تغيير أقوالك الآن لن يغير من وضع السيد نادرٍ، لأن الاتهامات المقدمة ضده من شقيقه وزوجته لا تزال قائمة، إنما قد تقحمين نفسك في هذه القضية بشكل لا تحبينه.. أتفهمينني يا سيدة؟».

ابتلعت مهرة ريقها ونظرت إلى شوكت الذي ابتسم لها مطمئناً ورد بهدوءٍ: «كيف تقحم نفسها يا باشا؟ أذكر، وصحح لي إن خانتني ذاكرتي، فالسؤال الذي تقول الأوراق بأنه طرح على السيدة هو: مَن (تظنين) بأنه ارتكب الجريمة؟.. وحسب خبرتي، فاتهام شخصٍ بدون أدلةٍ هو ما قد يقحم المرء في المشاكل كشهادة الزور وما إلى ذلك.. ولكن السيدة هنا لم ترَ أو تسمع شيئاً يجعلها (تظن) بأن السيد نادرٍ قد يقدم على فعلٍ كهذا.. و(أظن) بأن الضغط عليها أكثر لتغير أقوالها الآن ليس أمراً مقبولاً.».. رفع وكيل النيابة حاجبيه وابتسم ليسأل بسخريةٍ: «حقا؟ ممن؟»، ثم اعتدل ليقول بجديةٍ: «السيدة كانت تغادر البيت وقد طلبت الطلاق من السيد نادرٍ إثر شجارٍ عائلي ضخمٍ تضمن جميع أفراد العائلة، والذين كانوا يغادرون البيت بدورهم. ألا يمكن أن يفكّر في التخلص من الجميع في حادثٍ مؤسفٍ كهذا وإلقاء اللوم على منافسيه؟ وبعد اتهمت السيدة مهرة وإياهم السيد نادرٍ بالتحريض على الحادث، خاصةً وبأنهم جميعاً اجتمعوا على اتهامه كما يبدو..... جميعهم باستثناء شقيقها ماجد... تجلس الآن أمامي لتقول بأنها لم تقل شيئاً قبلاً، وبأنه بريءٌ، وبأن خلافاتهم كانت بسيطةً! بعد ثلاثة أيام كاملة قضتها تتحدث إلى محاميه.. إن كنت مكاني يا شوكت باشا، أما كنت (لتظن) بأنها ربما تعرضت لضغوطٍ، كالتهديد مثلاً، لتغير أقوالها؟. ثم ماذا عن حادث السيد حسَّاب؟ أم أن ذاكرتك خذلتك يا شوكت باشا؟». قطب شوكت وفتح فاه ليرد على هذا الاتهام، ولكن مهرة قالت بهدوءٍ: «لم أطلب الطلاق.».. ضيق وكيل النيابة حاجبيه متسائلاً: «ماذا؟».. رفعت صوتها لتوضح كلماتها بعزم: «أنا لم أطلب الطلاق من نادرٍ.. مطلقاً.»، فقاطعها: «ولكن أختكِ تقول بأنكِ فعلتِ بسبب خلافٍ كبيرٍ.». تنهدت بصمتٍ مجيبةً:

«نعم، اختلفت معه، ولكن أي زوجين قد يختلفان، وليس غريباً أن تغضب الزوجة فتترك البيت، ولكني لم أطلب الطلاق... فهل يصل الأمر إلى حد القتل؟». قال وهو ينظر لشوكت نظرةً جانبيةً ذات مغزىً: «وبالطبع لن أسأل عن سبب الخلاف، لأني أتوقع أنه خلافٌ تقليديٌّ بين الأزواج على..»، وابتسم متابعاً: «مصروف البيت مثلاً.»...ردت مهرة بجديةٍ: «بالطبع لا.. ليس خلافاً بسبب المال.»، تنحنحت وتابعت: «أنا زوجةٌ، وعروسٌ جديدةٌ، زوجي دائم التأخر في العمل، و.. ولديه الكثير من الجميلات كشريكاتٍ وصديقاتٍ... لم أرَ عليه شيئاً مثيراً للشك، ولكن الغيرة تعميني أحياناً فأفتعل المشاكل.... لا يا سيدي، أنا متأكدةٌ من أن نادراً لم يحاول قتلي.. أو قتل أي شخصٍ آخر.. أنت لا تعلم كيف هي علاقة نادرٍ بفؤادٍ، إنها ليست علاقة أخٍ بأخيه، وإنما علاقة والدٍ بولدِه.. إنهما يحبان بعضهما بشكلٍ قويٍّ وواضحٍ. وقد تولىً نادرٌ أمر فؤادٍ منذ سنواتٍ طوالٍ بعد.. وفاة والدهما.»

هز وكيل النيابة رأسه قائلاً: «همممم، ألاحظ ذلك من إفادة السيد فؤاد في المشفى.. بالطبع، علاقته بأخيه فعلاً مميزةٌ..»، وشبك أصابعه على المكتب متكئاً بمرفقيه على حافته وهو يقول بجديةٍ: «السيد فؤادٍ أدلى بإفادةٍ كاملةٍ في المشفى، وقال بأنها ليست المرة الأولى التي يحاول فيها شقيقه قتله بعدما طلب منه فض الشراكة بينهما والانفراد بالتصرف في نصيبه، ولكنه صمت عن الأمر قبلاً إكراماً لصلة الدم بينهما، أما وقد وصل الأمر لمقتل ابنته، فإنه لن يصمت بعد الآن.»، وقلب في الأوراق متابعاً: «ودعيني أقتبس حرفياً من أقواله... نعم، ها هي.. يقول باللفظ الواحد: لن أهدأ قبل أن يلتف حبل المشنقة حول رقبة القاتل المخادع..» ، وعاد لينظر إليهما متسائلاً: «هل هذا تصريحٌ يتواءم مع شكل العلاقة التي تصورينها؟ تصريحٌ يختص به رجلاً عاش لأجله كما تدعين؟»..

هنا قال شوكت بوضوح: «السيد فؤاد يمر بوضعٍ نفسيٍّ حرجٍ جداً كما أوضحت لك، بإمكاني أن أزودك بتقريرٍ طبيٍّ خاصٍ بحالته.. كما أنك تستطيع أن تسأل عن سلوكياته التي تغيرت بعدما قُتلت زوجته في حادث سيرٍ ومن يومها وهو يعاقر الخمر، وربما أشياء أخرى، تجعله يرى أموراً ويسمع أصواتاً ويتوهم أحداثاً،

بل ويتخيل أشخاصاً غير موجودين ليتحدث إليهم.. وقد شهدت بنفسي موقفاً من تلك المواقف حين زار السيد نادرٍ في الشركة ذات ليلةٍ وهو يتطوح من السُكر ويتحدث مع السيدة شهيرة، زوجته المتوفية وقتها، رحمها الله.. فلو كنت مكانك يا سيدي، لما أقمت قضيتي اعتماداً على أقوال شخصٍ بمثل حالته وفي مثل ظروفه، فهو ما أن يستفيق من انهياره حتى يهرع للسيد نادرٍ ليلملم له أطراف حياته ، كما اعتاد.»..

لم يرد الرجل لوهلةٍ وبقي يهز قدمه ببطءٍ وهو يحدق في مهرة ومحامي زوجها قبل أن يقول بتأنٍ: «**واثقٌ من أنك تستطيع تقديم هذا التقرير.**»، ثم عاد ليسأل مجدداً: «**وماذا عن السيدة أميرة؟ أهي مريضةٌ هي الأخرى؟**». رد شوكت بثقةٍ: «**بالطبع لا، ولكن أتستهين بمحنتها وخسارتها؟ من يستطيع أن يحتفظ بعقلانيته وتوازنه في مثل ظروفها؟**». رفع وكيل النيابة حاجبه قائلاً: «**ربما أفقد اتزاني، ولكني لن أتهم من أعيش في كنفه ورعايته أنا وزوجي.**»... سحب شوكت نفساً عميقاً وقال بصوتٍ منخفضٍ ليضفي أهميةً وحُرمةً لما سيبوح به: «**هناك أمورٌ لا أحبذ التطرق إليها، أخلاقياً ومراعاةً لحرمة البيوت، ولكني هنا على المحك، فرقبة موكلي وحياته رهنٌ بما أعرفه، وهذا يضع على كاهلي عبئاً ثقيلاً، وبخاصةٍ لأن الأخوين بمثابة الابنين لي.. فلا أجد هنا مفراً من إخبارك بكل ما لدي، والأمر لله.**».. قطب وكيل النيابة ولم ينبس ببنت شفةٍ حتى يأتي الرجل الشيخ بكل ما لديه، فاستمع له، وعيناه تتسعان شيئاً فشيئاً، وشوكت يقول ببطءٍ وبصوتٍ خفيضٍ رخيم: «**السيدة أميرة دائماً ما كانت تميل للسيد نادرٍ، وتطمح للزواج به.. وبزواجه من السيدة مهرة، أثار غيرتها وحقدها.. وأنت بالتأكيد، في منصبك هذا يا فندم، مررت بالكثير من القضايا التي يدفع إليها حقد النساء وغيرتهن.**».. رفع وكيل النيابة أحد جانبي شفتيه وقال متعجباً: «**وهل خبرتك تخبرك بأنك تستطيع الاعتماد على علاقةٍ فرضيةٍ كهذه في الدفاع عن موكلك.. اعترف بأن أملي قد خاب، فقد انتظرت سماع قنبلةً خبريةً، لا بعضاً من نميمة النساء.. ألم تسمع عما يسمى بالسب والقذف والتشهير يا سيد.. سأغض الطرف عما قلت إكراماً فقط لقيمتك هذه المرة يا سيادة المستشار**»..
ولم ينتظر رداً من الرجل الذي احمرت أذناه، وإنما تابع وهو ينظر لساعته وقد رفع حاجبيه: «**لقد طال هذا أكثر مما توقعت.**»، والتفت لشوكت قائلاً بحزمٍ:

«**بإمكانك الانصراف الآن يا شوكت باشا.**». وقفت مهرة وقد احمرت وجنتاها إثر تصريح شوكت الأخير، ولكن وكيل النيابة استوقفها مستخدماً نفس النبرة الحازمة: «**سيدة مهرة، ابقَي لدقيقة.**». أراد شوكت أن يعترض ولكن وكيل النيابة هدأه وإنما بحزم: «**لا تقلق، ستتبعك بعد دقيقةٍ واحدةٍ.. من فضلك دعنا قليلاً.**».. انتظر حتى خرج شوكت بعدما تبادل نظرةً سريعةً مع مهرة، ثم قال بصبرٍ: «**للمرة الأخيرة أسألك مباشرةً: هل أنت تحت أي تهديدٍ يا سيدة مهرة؟ أستطيع أن أحميكِ.. بل سأبقي كلامك سراً إلى حين تكونين بأمان أثناء القضية.. فقط أخبريني بما تعرفين.. ثقي بي.**».. لم تنتظر لحظةً بعدما انتهى من سؤاله قبل أن تجيب: «**ليس هناك من تهديدٍ، أقسم لك.. اطمئن يا فندم.. وليس لدي ما أقوله بخلاف ما قلت بالفعل مسبقاً.. هل أستطيع الانصراف الآن؟**».

بدون ردٍّ أشار لها آذنا بالانصراف، فخرجت بسرعةٍ، وما أن التقت شوكت بالممر حتى بادرته بانفعالٍ وعينيها المتورمتين تلتمع بدموع الغيظ والصدمة: «**أيعلم نادرُ ما قلته تواً بالداخل عن شقيقه وزوجته؟ هل رتبتما معاً هذا الدفاع؟! أنت تدمر فؤاداً وتقضي على آخر ما تبقى منه بهذا الشكل؟!! ستتهمانه بالجنون وتلقيانه في مصحة وتتهمان زوجته بأنها تريد شقيقه؟!! أتودان أن تصيباه بالجنون حقاً؟!! أيعلم نادرٌ كل هذا؟.**».. سحبها شوكت من مرفقها عبر الممرات شاقاً طريقه وسط الزحام حتى خرجا تماماً من المبني، فتركها قائلاً بهدوءٍ وخبرةٍ: «**لا شيء من هذه الأشياء سيثبت إن شاء الله إن غيَّر فؤادٌ أقواله، ولكني لابد وأن أزرع الشك في عقيدة وكيل النيابة والقاضي.. وإجابة عن سؤالك: لا، لم يعلم السيد نادر بعد. ولكني سأخبره..**». قطبت وهي تشير بغضبٍ: «**تزرع الشك في عقيدة المحكمة؟ وماذا عن سمعة وحياة ونفسية فؤادٍ؟ ماذا عن زواجه الذي ستدمره؟ كيف سيصلح هذا ما بينه وبين شقيقه؟.. لو كنت مكانه، لاستفزتني هذه التصريحات ودفعتني للإصرار على موقفي، لا أن أتعقل وأستعيد علاقتي ومحبتي لأخي!!!.**». رد بقوةٍ: «**ليس ضرورياً أن يتعقل أو حتى أن يصالح نادراً، ولكن يكفي بأن يعلم بأنه على وشك دخول العباسية دون أملٍ في مغادرتها إن لم يسحب كل ما قاله.**». شهقت وقالت بصوتٍ عالٍ: «**أنت لم تعرف فؤاداً إذاً...هذه وحشية ولا أخلاقية لن تستط..**»، هنا

لم يتمكن الرجل بمركزه ووقاره بأن يتحمل تدخلها وإهاناتها فقاطعها بقوةٍ: **«لن تعلميني عملي يا سيدة، وأنا لا ألعب، وإنما أنقذ الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يخرج فؤاداً من المصحة النفسية، التي بالمناسبة سيدخلها عاجلا أو آجلا، بسبب نادرٍ أو غيره.. هذا الفتى قضيةٌ خاسرةٌ منذ زمن، والوحيد الذي لم ييأس منه هو نادرٌ.. الذي يسعى بجنونه لإلباسه الحلة الحمراء.. فرجاءً لا تدعي البراءة والمثالية بعد أن قام فمك الصغير هذا بإحداث كل هذه الفوضى العارمة، ودعيني أصلح الأمور ما استطعت بالطريقة الوحيدة التي أعرفها.»**..

ألجمتها الصدمة فزمت شفتيها بقوةٍ، واكتفى هو منها برد الفعل هذا. التفت مشيراً للسيارة التي ينتظرها فيها السائق، واعتذر منها مستأذناً بأن لديه الكثير من الأعمال العالقة، ليتركها مزروعة وسط حقلٍ من الشكوك القاتلة..

كان عليها الآن أن تتخطى نفسها ومن حولها بنظراتهم، وتحاول بكل ما أوتيت من قوة تصحيح ما اقترفت، وهو ما تعلم أنه من دروب المستحيل، ولكن هذا لن يمنعها من المحاولة.. تعلم بأنها لن تستطيع أن تعيد من رحلوا، ولكنها تستطيع أن تصلح الأحوال بين الأخوين على الأقل، عليها أن تفعل، هذا ليس خياراً، وإنما واجبٌ عليها أن تناضل لتأديته على قدر المستطاع.. شدت ذراعيها حول جسدها بقوةٍ لتسكت رعشةً اعترته وهي تشاهد الرياح القوية تتلاعب بأغصان الأشجار بقوةٍ، مصدرةً أصواتاً مهيبةً، والتراب الأصفر يرتفع في السماء فيطليها بلون كالزنجبيل.. انكسر غصنٌ صغير جاف فجأة فجفلت. سكنت الرهبة قلبها حين أدركت بأنها وحدها تماماً على الطريق فأسرعت الخطى وأصوات قرع كعب حذائها على الأسفلت القاتم يتبعها..

دخلت الفيلا بهدوءٍ وتوجهت نحو البهو الزجاجي المطل على حوض السباحة لتريح قدميها وتنعم ببرودة التكييف المركزي الذي عزل جو الفيلا عن المحيط الخارجي تماماً.. جلست على أول مقعدٍ على يسارها وخلعت غطاء رأسها بأصابع جافةٍ مرتعشةٍ، فمع وصولها، كان العطش والجفاف قد تغلغلا عميقاً في أوصالها وشعرت بتيبسٍ في ركبتيها وأطرافها.. تنهدت

ومدت ساقيها بقدر ما استطاعت، ومع عودتها لوضعها، لمحت للمرة الأولى مذ وصلت، كريمة تجلس باستكانة على الكرسي الضخم المواجه للزجاج في الجهة المقابلة من الغرفة، تطالع بحزن شيئاً بدا كورقةٍ صغيرة تحملها بين أصابعها وتمرر أناملها فوقها برفق، فاستشفت مهرة بأنها تحمل صورةً ما.. ارتبكت مهرة لا تدرك ما عليها أن تفعل، أتقوم لتتحدث إليها، أم تغادر بهدوءٍ كما دخلت، وبخاصةٍ وأن كريمة كانت تتجنبها بوضوحٍ عقب عودتهم من المشفى، وقد فهمت اليوم السبب.. تململت للحظات ثمّ توجهت نحو المرأة التي لم تبدر منها أي إشارة تدل على أنها لاحظت وجود أحدٍ معها في الغرفة، على الرغم من الجلبة الطفيفة التي أحدثتها مهرة منذ قليل، أو ربما كانت تعبر بأسلوبها عن عدم استعدادها للتواصل مع أي كان. حين بلغتها مهرة، جلست بهدوءٍ إلى جوارها ونظرت إلى الصورة التي تداعبها المرأة في حنانٍ وشغفٍ بالغين.. ابتلعت مهرة ريقها لتمنع عبرة تجمعت في صدرها قبل عينيها وهي تطالع كما توقعت، وجه نادرٍ الضاحك وهو يحمل شهداً بين ذراعيه، وقد بدت أصغر سناً مما عرفتها مهرة يوماً، بينما هي تشد والدها من خديه بقوةٍ فبدا متألماً وضاحكاً في نفس الوقت.. سحبت نفساً عميقاً وقالت برفقٍ وهي تلمس كتف كريمة بخفةٍ: «**كريمة، كنت أود أن اتحدث إليك لدقائق، فهل تستمعين لي؟ أم تحبين أن أؤجل كلامي لما بعد، ربما.. أقصد.. أرجو أن تسمعيني الآن، دعيني أزيح عن صدري هذا الحِمل.**».. لم تجب كريمة بغير هزةٍ خفيفةٍ من رأسها، فتابعت مهرة وقد اعتبرت هذه الإيماءة أكثر مما طمحت إليه: «**أنا أعرف بأنكِ في قمة الحزن، وأعرف بأني مهما قلت فلن أخفف عنكِ، ولو قليلاً، ما أنتِ فيه. ولكني أحتاج لأن تسمعيني أنتِ بالذات، لأنك أغلى لدي من أن أتجاهل توضيح موقفي أمامكِ. يا كريمة أنا لم أقصد أبداً أن يحدث كل ما حدث، بل جل ما فعلته أني بحت بمخاوفي لكِ أنت، ولكن أن تتطور الأمور لتؤول لكل هذا الخراب، فهو أبعد ما يكون عن نيتي وطبيعتي.. ربما أسأتُ لنادرٍ بخوفي وشكّي، هذا ما أعترف به وأندم عليه، ولكني لم أرتكب إثماً حين خفت، ولا حين أخبرتكِ.. وأنا أعدك بأن أبذل كل ما أستطيع لأصحح الوضع.. صدقيني، لن أرحل عن هنا إلا بعدما يعود**

نادرٌ بالسلامة ويتصالح مع أخيه.. إن شاء الله سأستطيع.. ولكني بحاجةٍ لعطفكِ وتفهمكِ، أو على الأقل، لدعمكِ.. وصدقيني، مرةً أخرى حين أقول بأني آسفةٌ، من قلبي، لكِ ولآدم وللجميع.».

لم تنتظر تصفيقاً حاراً ولا عباراتٍ دافئةً بعدما انتهت، كانت تكفيها إيماءةٌ كالتي جادت بها كريمة مذ قليل، ولكنها أيضاً لم تنتظر رد الفعل الذي فاجأتها به المرأة المكلومة، فقد قامت وسارت مغادرةً دون حتى أن تلتفت نحوها أو تنبس ببنت شفةٍ.. هكذا بكل بساطة، وقفت، وانصرفت. صاحت مهرة بتوسلٍ وانهيارٍ: «**أنا أتحدث إليك يا كريمة، فلا تنصرفي عني إلا بعد ما أنتهي.. من فضلكِ عودي واجلسي لِنُتِمَّ حديثنا.**». إثر صياحها، ظهر آدم من العدم كعادته، يستطلع الخبر، ووقف غير بعيدٍ حين لم يجد سوى المرأتين فقط في الردهة.. عادت كريمة إلى حيث تقف مهرة وقالت مباشرةً دون أن يطرف لها جفنٌ: «**ماذا تنتظرين؟ أن نتعانق ونبكي؟! لقد بقيتُ طيلة ما بقيت في هذا البيت أرثي حال أهله وأطلب من الله أن يرفع عنهم البلاء، وكنت أتصبَّر على ما نمر به بأنها ربما عينٌ أو نحسٌ، وإن كان سيتمثل في بعض المشاكل، فلا بأس مادمنا جميعاً بخيرٍ... وحين دخلت حياتنا، حمدت الله .. ظننت أن الدنيا تبسمت ولانت ملامحها في وجه أولادي، ولم أكن أعرف بأن النحس والشؤم سكنا بيتنا في جسدك.. نعم أنتِ المسئولة.. أنت من دكَّ الدنيا فوق رؤوسنا، فلا تتشحي الآن بالسواد وتعزيني.. كفى.. لم أعد أطيق كذبكِ وإدعاءك البراءة.**»، استدارت لتغادر مجدداً و لكن مهرة أمسكت بذراعها لتعيدها قائلةً بذهولٍ: «**كذبي؟! أنا؟! إن كان لي خطيئةٌ، فهي البوح بالحقيقة، فيما كنتم جميعكم تعيشون كذبةً كبيرةً و..**». لم تمهلها كريمة لتتم عبارتها وقاطعتها رافعةً صوتها ليصل إلى آدم الذي أخذ يتقدم نحوهما ببطءٍ: «**حقيقتك هدمت عائلتنا وحياتنا.. نعم عشنا كذبةً، ولكنها أحيتنا.. كنا نواجه العواقب ونتخطاها معا.. الكذبة التي تتحدثين عنها لملمت شمل أسرةٍ صغيرةٍ وجمعت أخَويْنِ ليكونا كإصبعين في كفٍ واحدةٍ.. نعم كذبة، ولكنها كانت بنيةٍ بيضاء وقصدٍ حسنٍ، فأثمرت خيراً.. و لكن حقيقتك، فرقت ومزقت أواصر الدم فحوَّلت أقرب أخين إلى ألد الأعداء.. كذبته أثمرت حباً وحقيقتك أسالت دماً.. وتقفين هنا بكل برودٍ**

تعتذرين، وتطلبين أن (أساعدكِ) لتزيحي الحمل عن كتفيكِ؟!! الكلمة الوحيدة الصحيحة في كل ما قلتِ، هي أن ما قلته لن يغير من الواقع شيئاً... أتعلمين ماذا كنت أتمنى، أتمنى لو أنكِ أنت من تلقيت الرص..»..

«**كريمة!!**».. وبخها آدم بقوةٍ، ولكنها لم تتوقف عند توبيخه كما اعتادت بل واجهته صارخةً بانهيارٍ قارب الجنون: «**لا تسكتني يا آدم!! لا تسكتني!! أحد أبنائي ينام تحت التراب، والآخر في السجن بانتظار الموت، بينما الثالث قاب قوسين أو أدنى من الجنون.. وأميرة، ألقت بنفسها في أحضان روضة سلامة، المدمنة، والتي لا تخرج من المصحة إلا لتعود إليها ثانيةً، والله وحده يعلم ماذا جعلت ابنتنا تتعاطى الآن... وشهد.. ماتت بسببها.. بسببها**».. توقفت تلهث وٍأمسكت بصدرها بقوة، فأسرع آدم يقودها إلى فراشها، وبقي إلى جوارها حتى هدأت، فتركها لترتاح...

كان يهم بمغادرةِ الفيلا حين سمع همهمة المرأتين، ثم صوت مهرة العالي..

اليوم سيزور نادراً ويطمئن عليه، ولا يريد أن يحمل إليه أخباراً تسوؤه.. كان الألم يعتصره ولكنه تمالك نفسه بقوةٍ أوهنته فبدا أكبرَ سناً بعشرِ سنين، فالحزن الذي نما في صدره كالشجرة الشماء قد ضرب جذوره في قلبه واعتصره بعنف وهو يرى أمام عينيه زهرات عمره يقطفها الموت واحدةً تلو الآخرى، بدئا بشهيرة، وانتهاء بنادرٍ الذي ينتظر حكم الإعدام على يد أخيه.. قفزت الدموع إلى عينيه فمسحها قبل أن تغادر محجريهما..

مد الخطى نحو الباب ولكن صوت نشيج مهرة، التي يبدو وكأنها لم تتحرك قيد أنملةٍ من مكانها حيث ألْفَاها وزوجتَه منذ دقائق، أعاده بضع خطواتٍ إلى الوراء ليجدها وقد انخرطت في بكاءٍ مرير.. اقترب منها وتنحنح لينبهها لوجوده فمسحت دموعها وحاولت أن تبتسم ولكن ملامحها عصتها فاستسلمت وتراجعت لتجلس بتثاقلٍ على المقعد حيث كانت وكريمة. وقف آدم قبالتها وقد احتواها ظله الطويل، الَّذي شق الغرفة نصفين، ليخفي ملامحها بعدما غامت السماء تماما بالأتربة وأظلمت الدنيا بشكل ملحوظٍ، وألقى مصباح المدخل والأضواء الخافتة ظلالاً قاتمةً هنا وهناك.. قال برقةٍ: «**لا تأبهي لما قالت**

كريمة يا ابنتي. أعصابها منهارةٌ تماماً، فما حدث ليس بالهين عليها كأمّ. ولكني متأكدٌ من أنها لا تعني شيئاً مما قالت بخصوصكِ، فهي تحبكِ وتعتبركِ وأخويكِ كأولادها، فتحمليها رجاءً كما تتحمل الفتاة غَضبةَ والدتها، هذا مع حفظ المقامات بالطبع.».. قالت فوراً: «بالطبع يا آدم، أنتما أكثر من أبٍ وأمٍّ لي والله يعلم. أي مقاماتٍ يا آدم!!! أنا فقط يعزُّ عليَّ أن تظل غاضبةً مني هكذا وكل خطئي أن تحدثت إليها. ما ذنبي أنا إن تلصص علينا أحدٌ وأخبر فؤاداً؟ ها؟ ما ذنبي؟». غطت وجهها بكفيها لتعود للبكاء ثانيةً فتحرج آدم قليلاً ولكنه مد يده ليربت على رأسها بطيبةٍ، وكأنها كانت بانتظار هذه الحركة لينهار سد تماسكها ويندفع فيضان دموعها بنشيج مرتفع، إذ كانت هذه أول لفتةٍ إنسانيةٍ تحظى بها منذ فترةٍ ليست بوجيزة.. انتظرَ بصبرٍ حتى أفرغت ما بصدرها من شجنٍ ثم رفعت رأسها مترقبةً أي كلمةٍ مطمئنةٍ ما جعله يقول برفقٍ: «هي فقط عاتبةٌ عليكِ لاتهامكِ لنادرٍ في البداية وليس لإفصاحكِ عن ذاك الأمر.. وقد أخبرني المستشار شوكت هاتفياً بتبديلك شهادتك، وهو ما لم تعلمه كريمة بعد.. ولكني سأخبرها بالتأكيد عندما تهدأ. اسمعيني جيداً يا ابنتي، أنتِ الآن سيدة هذا البيت، وأنت من بيدك لمّ الشمل ومساعدة الجميع لتخطي هذه الورطة.. كما كان يفعل زوجك.»، جلس بجانبها وقال بجديةٍ: «وأهم ما يمكن أن تفعليه، هو أن تقنعي فؤاداً بالعدول عن الشهادة ضد نادرٍ.. أقنعيه بخطأ تصوره عما حدث وعن غدر نادرٍ به، وفرصتك كبيرةً بغياب أميرة... الفرصة الوحيدة لإنقاذ نادر هي شهادة شقيقه لصفه وإثبات حجة غيابه.. وإن شاء الله ، أنا متفائلٌ وقد طمأنني سيادة المستشار بأن وضع نادرٍ ليس بالسوء الذي يبدو لنا..»..

«ولكني لم أتهم نادراً! أقسم لك.».. قطب آدم وفكر للحظات، قال بعدها وقد أحجم عن إخبارها بأن كريمة سمعتها بنفسها: «لا بأس.. لا بأس.. اهدئي الآن، وحاولي أن تتماسكي كما أخبرتك، علَّنا ننجو من هذه المرحلة .. ثم بعدها سيكون هناك متسعٌ من الوقت إن شاء الله لتوضيح المواقفِ وحل أي سوء تفاهمٍ عالقٍ.»، ونظر إلى ساعة الهاتف المحمول الذي يمسكه بيده على غير عادته وقال وهو يهبُّ واقفاً: «ياه! لقد تأخرت عن موعدي.. أسأل الله أن يكون الازدحام خفيفاً كي أتمكن من الوصول قبل انتهاء وقت الزيارة.».

وقفت بدورها وسارت معه حتى الباب وهي تقول: «**أيمكن أن تبلغه بأني أود الاطمئنان عليه والتحدث إليه؟ أم تظن بأن هذا سيضايقه؟**».
رد مبتسماً: «**أتمزحين!! بالطبع لن يتضايق، وأظنه بانتظار زيارتكِ يا ابنتي... سأخبره إن شاء الله.. ولكن لا تنسَي أن تتحدثي إلى فؤادٍ، هو في غرفته كما هو الحال مذ عدنا من.. تعلمين..**».. هزت رأسها موافقةً فابتسم وغادر بهدوءٍ دون أن يضيف كلمة أخرى..

أغلقت وراءه الباب بعدما ابتعد قليلاً وقد شغل بالها سؤالٌ واحدٌ: «**ماذا يفعل آدم بهاتف سامرٍ المحمول؟!!**»

١٥

مددت مهرة جسدها المنهك على الفراش الواسع علَّها تغفو قليلاً لتستريح من ضغط التفكير، وتمنت لو تستيقظ لتجد أن كل ما جرى ما هو إلا كابوسٌ من كوابيسها التي أَلِفَتها وتعلمت التعايش معها، وبأنها لا تزال تلك الفتاة الصغيرة ابنة عامل المصنع البسيط، وأمها تنتظر استيقاظها بعدما نامت عقب عودتها من المدرسة وقد جهزت الطعام الساخن بانتظارها، ولا يشغل بالها سوى أن تحل واجباتها وتأكل وتستمع إلى شرائط مطربيها المفضلين، ثم تنام ملء جفنيها لا تحمل هماً. تمنت لو تستطيع النوم من، وبعد دقائق من الفكر تأففت وتقلبت لتتكئ على جانبها، فطالعتها صورة عرسها، في إطارها البرونزي الأنيق.. أخذت تتمعن في نظراتها و نظرات نادرٍ. شتان ما بين الاثنين!!

بقيت هكذا للحظات، ثم تذكرت كلمات آدم، فشحذت همتها وهبت خارجةً من الغرفة لتصل إلى غرفة فؤادٍ بخطواتٍ سريعةٍ وتطرق الباب دون تريثٍ، حتى لا تمنح نفسها وقتاً للتحليل وترتيب ما عليها أن تقوله وتصور رد فعل فؤادٍ.. ربما هكذا أفضل..

لم تتلق رداً، ولكن هذا لم يثنها عن عزمها- وإن كان قد أضعف إرادتها قليلاً- فأعادت الكرة هذه المرة بقوةٍ أكبر وكأنها تخبر نفسها بأنها لن تضعف أمام وسوستها الآن. حين تلقت نفس الجواب الصامت، وجدت نفسها تفتح الباب برفق. تعجبت من جرأتها، ولكن هذه الفكرة لم تستوقفها، فهي لم تعد تتعرف على نفسها في غالب الحال على أي حال. «**فؤاد؟!**».. نادت بخفوتٍ وهي تقحم رأسها ببطءٍ من فتحة الباب الصغيرة التي فتحتها: «**أيمكن أن أدخل؟ أود الاطمئنان عليك.**». لم يردَ، وإنما اكتفى بأن نظر إليها بسرعةٍ وعاد يطالع السماء من النافذة الواسعة القابعة فوق الأريكة التي يتمدد فوقها داخل الثياب، التي لدهشتها، كان يرتديها في جنازة ابنته مذ ثلاثة أيام**!!** «**كيف حالكَ يا فؤاد؟ أكنتَ نائماً؟**» سألته بلطفٍ بينما تجلس على الكرسي الأبيض العريض المقابل للأريكة الجلدية البيضاء التي يتمدد فوقها مكتفاً ساعديه فوق صدره، وقد أغمض عينيه حين اقتربت، فابتسمت رغماً عنها وهي تتذكر شهداً حين كانت تغمض عينيها لتختبئ منها في بداية تعارفهما، معتقدةً بأنها لن تراها إن لم ترها بدورها. هز رأسه دون أن يرد، فقالت برفقٍ: «**لم لا ننزل لتناول قدح شاي وقطعتي بسكويت، فأنا على لحم بطني منذ الصباح، وأظنك أنت الآخر لم تتناول شيئاً.**». هز رأسه نفياً مجدداً، فسألته: «**أتناولت شيئاً؟**». أخيراً فتح عينيه ليطالعها بنظراتٍ ذابلةٍ ممتعضةٍ، ثم عاد ليدير رأسه نحو النافذة مجيباً وهو لا يكاد يفتح شفتيه: «**لست جائعاً، انزلي أنتِ وكلي ما تحبين.**». ردت بنفس النبرة الحانية: «**إذاً، ما رأيك لو خرجنا لنتمشى قليلاً في الحديقة، فالبيت كئيبٌ مملٌ، والهواء بالخارج ... قد تحسن**».. نظر إلى السماء الداكنة والجو الذي ينذر بالسوء على الرغم من انحسار العاصفة الصفراء، ثم عاد ليرمقها بنظرةٍ خاويةٍ سريعةٍ قائلاً بسخريةٍ: «**فعلاً.. طقسٌ بديعٌ.**».. توسَّلته برفقٍ: «**أرجوك يا فؤاد، تعال معي. أرجوك ألا ترفض. اعط نفسك فرصةً لتخرج من هذه الحال. دعنا نتكئ على بعضنا لنتخطى ما حدث، بالله عليك ألا ترفض.**». استوى جالساً باستسلام، أدهشها منه وأقلقها عليه، وهز رأسه موافقاً بخنوع. قفزت واقفةً كالطفلة حين تترقب بشغفٍ أمراً ساراً وقالت بسرعةٍ: «**حسَنٌ، سأعد الشاي وأنتظرك بالأسفل ريثما تأخذ**

حماماً وتبدل ثيابك.. سلام.». وقف وسار إلى جانبها ببساطةٍ متجاهلاً مناورتها لدفعه للاهتمام بنفسه، فمشيا صامتين حتى وصلا إلى الباب الزجاجي الكبير مروراً بالردهة التي أظلمت بشدةٍ مع تكدس السحب في السماء وعدم اهتمام أي شخص بإنارتها.. لفت مهرة ذراعيها حول نفسها معلقةً: «**وكأننا في فيلم رعبٍ!**».

ما أن فتح فؤادٌ الباب الضخم حتى لطمتهما موجة هواءٍ باردةٍ نسبياً، بالنسبة لما كان عليه الجو منذ ساعةٍ، دفعت مهرة للوراء خطوة قبل أن تتمكن من استعادة توازنها، فسارعت تلحق بفؤادٍ الذي سبقها أسفل الدرج بخطواتٍ سريعةٍ.. بادرته: «**أعجب لهذا الطقس!! كل عامٍ أظن بأننا نمر بأسوأ جوٍّ، لأفاجأ في العام الذي يليه بشتاءٍ أقسى وصيفٍ أعنف!! هذه السنة، تبدو الفصول الأربعة وكأنها ستجتمع في نفس الوقت!!!.. أف.. ليتها تمطر ليتحسن الجو قليلاً.. نحن في الصيف، ولا ندري أنرتدي معاطف أم مايوهات!**».. أفلتت من ركن شفتيه لمحة ابتسامةٍ خفيفةٍ.

سارا بضع خطواتٍ وعقلها يبحث عن خيطٍ تبدأ به الحديث في هكذا أمرٍ شائكٍ. قالت بأدبٍ: «**كيف هي أميرة؟ حاولت الاتصال بها ولكن يبدو بأنها لم تتعافَ من الصدمة بعد.. مسكينة.. حين تحدثها، أبلغها مني السلام يا فؤاد.. رجاءً.**». أومأ إيجاباً فتوقفت لتسترعي انتباهه وهي تقول: «**ألا زالت تظن بأن نادراً هو من فعل بنا هذا؟! أخشى بأنها لا ترد عليَّ لهذا السبب؟!**». قطب قليلاً وهو يتأملها للحظاتٍ قبل أن يقول ببطءٍ: «**أنتِ كذلك تفعلين.. وقد اتهمته بنفسكِ في المشفى! فما الذي غير موقفكِ الآن؟!**».. ردت فوراً: «**في المشفى كنت أسأل عنه، حين كان ذاك الشخص يسألني، كنت أظنه طبيباً ويطمئن على حالتي، وما نطقت اسم نادرٍ إلا لأسأل عنه يا فؤاد، صدقني، فالحق أقول...**».. استمع لها بصبرٍ وسكوتٍ تام، جعلها تواصل، علَّ قطرات الماء المتعاقبةِ الحثيثةِ تحطم الصخرة العنيدة: «**هل تظن حقاً يا فؤاد، الآن وقد هدأت قليلاً، بأن نادراً يمكن أن يقدم على فعلةٍ كهذه؟! أتظن بأن نادراً يسعى ل... للتخلص منك؟!**». بدا شارداً، غير عازمٍ على الرد

وهو يتابع عصفوراً حلق عالياً وحيداً وهو يقاوم الرياح بجناحيه الرماديين الصغيرين، فتارةً يرفرفهما بقوةٍ، وتارةً أخرى يقبضهما إلى جسده الضئيل بقوةٍ. فكرت بشفقةٍ (كم يبدو بائساً ذاك المسكين الصغير!! لو علم ما سيصيبه حين يغادر عشه الدافئ الآمن هذا الصباح، لما تركه قط!).

«**لا.**» قالها بسرعةٍ وعاد لصمته حتى ظنت أنها تخيلت رده من أثر صياح الرياح وأغصان الأشجار التي تتخبط بقوةٍ، فسألته مستعلمةً: «**أقلت شيئاً؟**». هز رأسه إيجاباً معيداً رده السابق: «**قلت (لا).. كنت ثائراً وفي غير وعيي، ما جعلني غير منظم التفكير، فتسرعت بظنِّي أنه يريد قتلي.. ولكن الأيام الثلاثة الماضية التي قضيتها وحدي جعلتني أرى الأمور جليةً. لا، لا أظنه أراد قتلي.**».. كبتت مهرة رغبةً عارمةً في الصراخ فرحاً والقفز كالأطفال غبطة، بتغير موقف فؤادٍ، وبهذا تكون كلمة أميرة فقط هي الشهادة الوحيدة ضد نادرٍ.. ومع شهادة فؤادٍ، الذي فقد ابنته في نفس الحادث، ستكون شهادتها ضعيفة... ابتلعت ريقها علَّ هذا يساعدها في إخفاء نبرة الفرح في صوتها: «**الحمد لله.. كنت متأكدةً بأنك ستراجع نفسك، ومع الوقت، ستدرك بأن نادراً لا يمكن أن يكون وراءَ حادثٍ بهذه البشاعة، ضد أفراد أسرته..**».

جلس على مقعدٍ قريبٍ وضيَّق عينيه وهو يقول مبتسماً بسخريةٍ: «**لم أقل بأنه ليس وراء الحادث، وإنما قلت أنه لم يهدف لقتلي.. ولكني معجبٌ بتغير موقفكِ.. ونِعمَ الزوجة أنتِ.**». ضحك بطريقةٍ أهانتها ولكنها رفضت أن تجعل سلوكه يؤثر في موقفها لتنسحب وتتراجع عن محاولتها، لذا قالت بصراحةٍ: «**اسمع يا فؤاد، لك أن تسخر مني كما تشاء، ولكني لن أكون السبب في القضاء على رجلٍ، كل ما فعله هو أن أخلص لكل فردٍ في هذا البيت وأولهم أنت، لمجرد أني اختلفت معه في موقفٍ، أو تشاجرت معه لأي سببٍ، أو لأني سأطلق منه. ولتعلم بأن موقفي لم يتغير، فطلاقي من نادرٍ صار حتمياً بعد كل ما كان بسببي، ولكني أكرر بأن هذا ليس سبباً مقبولاً لإلقائه خلف القضبان بتهمةٍ رهيبةٍ كهذه.**».. ظل طيلة حديثها يهز رأسه إيجاباً بسخريةٍ سافرةٍ، ما استفزها قليلاً فجلست إلى جواره بحدةٍ ولكزته

بأصابعها في كتفه، متناسيةً أن حركةً بسيطةً كهذه قد تفجر إحدى ثوراته لتقتلعها من مكانها، وقالت بحدةٍ: «**أخبرني إذاً ما عنيت بقولكَ بأنك أدركت أنه لا يريد قتلك!.**».

سألها ببساطةٍ وقد زوى ما بين حاجبيه: «**ماذا تظنين أنه سيحدث إن مِتُّ الآن يا مهرة؟ كيف سيكون الوضع؟**». حارت بِم ترد، فلم تكن متأكدةً إن كان يلمح لها بأنه يفكر بالانتحار، فترددت للحظةٍ قبل أن تسأله بصوتٍ خافتٍ مضيقةً عينيها: «**أنت لن تؤذي نفسك يا فؤاد، أليس كذلك؟**». رمقها بصمتٍ دون أن ينفي الفكرة ولكنه قال موضحاً: «**عنيت بكلامي أن موتي في هذا الوقت لن يكون في مصلحة نادر، فلشهدٍ وأميرة نصيبٌ في الإرث.. ما سيجعل خالي وسامراً يقفزان له في الشركة ويتدخلان في عمله بحجة الحفاظ على حقوق أميرة.. ونادر ليس بالغبي، يستطيع أن يصبر ويخطط.. كذلك، وعلى الرغم من أنه سيكون الوصي على أموال شهد، فمع الوقت ستطالبه بإرثها من والدها.. ربما كان هذا مقبولاً في السابق، قبل أن يكون له حياة غيرنا، وربما سيصير له أبناء مستقبلاً، رأى بأنهم أولى بتعبه وثروته. لذا، فبترتيب الحادث، سيقضي على من يقُضُّون مضجعه، وأعود أنا إليه منهاراً ليحتضنني، فيتفضل مشكوراً بإبعادي ومراعاتي وتولي جميع أعمالي دونما الحاجة لقتل شقيقه.. وطبعا فشلت خطته، أو تأجلت لأنه لم يتخلص من أميرة بعد..**».

كانت تستمع إليه مذهولةً، ربما هناك بعض المنطق في كلامه، ولكن فقط في حال كان يتحدث عن حيوانٍ سادٍ مريض، لا يشغله إلا المال ولا شيء سواه!(كيف نسي كل ذكرياته وحياته مع شقيقه بهذه البساطة واستسلم لأسخف فكرةٍ على الإطلاق. ربما هو مريضٌ بالفعل ويحتاج إلى المساعدة كما قال المحامي هذا الصباح!!). صمتها أوهمه بأنه أفحمها بحجته القاطعة، فوقف لينهي الحوار قائلاً ببؤسٍ: «**أرأيتِ؟ في النهاية، لا يمكنكِ أن تثقي بمخلوقٍ في هذه الدنيا. أليس كذلك؟**».. تنهدت وهي تقف بدورها قائلةً بغضبٍ: «**نعم.. أؤيدك في هذا تماماً.. لا يمكنك الوثوق بأحدٍ..**»، وضربت صدره بظهر يدها مكملةً: «**خاصةً إن كان أخاً مثلك. اعذرني، فأنا تعبة وأريد أن أستلقي قليلاً..**»... فاجأها

بأن سحبها من ذراعها بقوةٍ كبيرةٍ كادت تسقطها أرضاً، وقرب وجهه من وجهها وقد احمرت عيناه واتسعتا قائلاً بصوتٍ هادرٍ: «**أجننتِ؟ كيف تحدثينني وتتعاملين معي بهذه الطريقة؟! أنسيتِ من أنتِ، وكيف أتيتِ إلى هنا؟ ألا تعرفين ما يمكنني فعله بكِ؟!**»، وتركها فجأةً مكملاً: «**إياكِ أن تكرري تصرفكِ هذا!! مفهوم؟**».. استدارت تغادره مذعورةً، فقد اعتادت رؤية فؤادٍ عنيفاً إثر جرح كرامته، ولكنه اليوم ليس جريحاً فحسب، بل ذبيحٌ، لا يملك ما يخسره، إن دق عنقها هنا في هذه اللحظة. ولعل شوكت يستغل هذه الحادثةِ لتبرئة الشقيقين في ضربةٍ واحدةٍ، معتمداً على الخلل النفسي لدى فؤاد.. كانت دموعها تسيل جراء إهانته وهي تحث الخطى نحو الفيلا، واستدارت للحظة حتى تتأكد من أنه لا يتبعها. كان واقفاً كالصنم حيث تركته، يحدق بها والغضب يغطي ملامحه.. أم لعلها الصدمة؟! أبطأت الخطى قليلاً ثم توقفت تماماً بعد بضع خطوات. أطرقت مفكرة للحظةٍ قبل أن تعود إلى حيث يقف لتقول ببطءٍ: «**أَتَذْكُرُ أنتَ كيف أتيت إلى هنا؟ أتذكر بأنك أنت من تواصل معي وحرص على وجودي بالقرب من نادرٍ، بل أنك من أخذتني للشركة حيث تقدم لطلب يدي! لِمَ؟ لم فعلت كل هذا يا فؤاد؟ أليس لأنك تشعر بأن نادراً بذَل ولا يزال يبذل كل ما يستطيع لرعايتك و.. وإسعادك؟ أليس لأنك رأيت أن أخاك قد نسي تماماً كيف يسعد نفسه فكان أن تقدمت أنت لتقوم بدلاً منه بهذه الخطوة عرفاناً لأنك تحبه؟ ألا تحبه يا فؤاد؟ نادر! أخوك الذي كان بمثابة الأب والأم لك ول... أعني..**».. توقفت لحظات لتلتقط أنفاسها، فتذكرت شيئاً كانت كريمة قد أخبرتها به في بداية زواجها، في إحدى جلسات الفضفضة، فقالت برفقٍ: «**ألم يكن نادر يبادر لحمايتك، حتى من أقرب الناس إليك، حتى أنه كان يعترف بأخطاء اقترفتها أنت ليتلقى العقاب من والدك بدلاً منك؟.**».. أسكتتها النظرة المتألمة في عينيه للحظةٍ، ولكنها إن أرادت أن تحرز تقدماً فعليها أن تتابع الطرق على الحديد الساخن، لذا أصرت متابعةً: «**كيف يمكن أن يقوم من يفعل كل هذا من أجل شخص ما، بأن يرتكب بحقه جريمة شنعاء كتلك؟! كيف تتصور أن نادراً يمكن أن يفكر بالطريقة التي اقترحتها منذ قليل؟! ها؟ كيف يا فؤاد؟!**»، واختلجت شفتاها وتهدج صوتها

متأثرةً بصورة شهدٍ المضرجة في دمائها والتي مرت أمام عينيها للحظة فقالت بضعفٍ: «**أتظنه كان ليؤذي شهد؟! ألا تعرف ما تعنيه شهد له؟ لقد كان يحلم بالإنجاب، فقط ليكون له طفلة مثلها!! يقتل ابنته؟! أيفعل أي مخلوقٍ هذا حتى، ولو من أجل المال؟.**»..

طرف عينيه أكثر من مرة ليوقف دموعها من مغادرة مآقيها، وأطرق وهو يمنح كلماتها منفذا تمر منه إلى عقله وقلبه. كان الهواء قد هدأ قليلاً، وإنما ليس تماما، فظهر في الأفق بضع عصافير أغراها سكون الهواء بالخروج من أوكارها طلباً للمرح والرزق، وقد استرعت هذه الطيور اهتمامه لوهلةٍ، فأمهلته مهرة بدورها الوقت الذي يلزمه ليتشرب صدره، المتشقق جفافاً ووحدةً، كلماتها التي نزلت عليه كالماء العذب لتروي من جديد بذرة الثقة الصغيرة التي ألقتها، وتسد شقوق الفتنة قدر ما تستطيع، برفقٍ ولكن بثباتٍ.. سار، فجارته. كتف ساعديه أمام صدره وأطرق هازاً رأسه وكأنه يقاوم أفكاراً عادت لتقض أركان راحته، فسألته برفقٍ: «**ألا زلت غير مقتنع!؟**».. رد وهو لا يزال يهز رأسه: «**ولكن توقيت الحادث يا مهرة.. إنه..**»، قاطعته فوراً: «**أكبر دليلٍ على براءته، من وجهة نظري.**». وأشارت إلى حيث كانا واقفين موضحةً: «**ألم تقل بنفسك حالاً بأن نادراً شخص ذكيٌّ وصبور، فإن فرضنا أنه يريد التخلص من الجميع كما تقول، فهل سيختار الوقت الوحيد غير المناسب ليفعل؟!!!! حيث تشير إليه كل الأصابع دون عناء!!! حين لن يعجز طفلٌ صغيرٌ عن ربط الخيوط لاتهامه كمستفيدٍ أوحدٍ من كل ما حدث؟!!! هل هو فعلاً بهذا الغباء!!!**».. رد بضعفٍ: «**ربما يعتمد على هكذا دفاع.**». ردت بدورها: «**وربما الوضع على عكس ما ترى تماماً، فلربما أراد أحدٌ ما توريطه والتخلص منه.. أليس هذا أكثر احتمالاً وقبولاً للتصديق؟**». توقفت فتوقف، فقالت بوضوحٍ وهي تنظر مباشرةً في عينيه: «**معاقبة شخصٍ بريءٍ على هذه الجريمة لن يجلب حقَّ من فقدنا، ولن يريحنا، بل سيزيد فقدنا وألمنا يا فؤاد.. إن أردنا أن نأخذ بثأرنا فعلاً ممن فعل هذا، فعلينا أن نبحث عن المجرم الحقيقي، ولأكن صادقة معك، فأنا أظن أن الشخص الوحيد القادر على إيجاد الفاعل والقصاص منه، هو نادر...**». بدا فؤاد هادئاً جداً، وكأنه استعذب أن يقنعه أحدٌ ببراءة نادرٍ...

بأن الأمور لا يمكن أن تسوء لتنحدر إلى هذا الدرك الأسفل من الجحيم.. سحب نفساً عميقاً وكأن الهواء يزور رئتيه للمرة الأولى منذ أسابيع..

رفع رأسه إلى السماء وقد أسكن يديه في جيبي سرواله وأخذ يقلب بصره بين الغيوم وقطع الضوء التي صارت أكبر فأكبر الآن.. قال بهدوءٍ عجيبٍ: «**إن كنتُ إنساناً سيئاً، وأراد الله أن يأخذني بذنوبي، فلم لم يُمتني أنا؟! ما ذنب زوجتي وابنتي؟!**»، نظر إليها بعينين خاويتين متابعاً: «**أتملكين جواباً على سؤالي يا مهرة؟ أتعرفين لِمَ يبقَى شخصٌ بمثل عيوبي حياً، بينما تموت أطهر وأكثر المخلوقات براءةً، و هي في سن الزهور؟!!**»..

ألجمها السؤال وأخذت تبحث في عقلها عن جوابٍ مناسبٍ فلم تجد سوى أكثر الكلمات تقليديةً: «**هذه أعمارهم يا فؤاد، فلا تفقد إيمانك بالله.. رحمهما الله.**». طأطأت بصمتٍ ظناً منها بأنه اكتفى ولكنه قال بإلحاحٍ: «**لِمَ لَمْ أمت؟! وفي الحادثة الأولى كنتُ أنا من يقود السيارة، وفي الثانية كنت أنا المتقدِّم والأقرب لمطلقي النار؟! لم لا أموت؟! أم أن عقوبتي هي أن أعيش لأتعذب بفراقهم؟!!**».. فتحت فاها لترد، ولكن الجواب جاءه من خلفهما: «**يا بني، لله حكمة في كل شيءٍ، وهو رحيمٌ غفارٌ.. ولكل أجلٍ كتاب.. لا يموت إنسانٌ قبل ولا بعد أجله ولو بدقائق.. ولعل الله ينتظر عودتك ورجوعك عن أخطائك.. فاستغفر يا بني مما قلت واذهب لتأخذ حماماً ساخناً، قبل أن تضع كريمة الغداء.. هيا يا حبيبي.. سننتظرك على المائدة.**».. استسلم فؤادٌ ببساطةٍ وخضع لكلمات آدم باستكانة. انتظرت مهرة حتى ابتعد عنهما مسافةً كافيةً لا تسمح له بسماعهما وقالت: «**أنا قلقةٌ عليه.. أخشى أن يؤذي نفسه.**».. أشار لها آدم لتتقدمه إلى الفيلا، وسارا بخطواتٍ بطيئةٍ وهو يقول: «**لا تقلقي، لن نغفل عنه لحظةً، وإن شاء الله سيتحسن بمرور الوقت، ولكن أمهليه قليلاً، فضربتين على الرأس.. تعلمين.**».. أومأت موافقةً، ثم انتبهت لوجوده المبكر فسألته: «**ولكن كيف عدت بهذه السرعة؟ أبهذه السرعة أدخلوك لنادرٍ؟! الطريق مزدحم، فكيف..**»، قاطعها بهدوءٍ دون أن ينظر في عينيها: «**لا، اتصل بي سيادة المستشار ليخبرني بأنهم أثبتوا حجة غياب نادر، فعدت قبل أن أصل**

إلى هناك لأرتب الأمور لعودته.». انفرجت أساريرها متسائلةً: «**أحقاً؟ أتعني بأنهم سيخلون سبيل نادرٍ؟**».. هز رأسه إيجاباً: «**نعم، ربما اليوم مساءً إن أكدت التحريات صحة مكان وجوده، ولكن يمنع سفره حتى تنتهي التحقيقات.. فالأدلة ليست كافيةً حتى الآن، وبخاصة.. .**»، كانوا قد وصلوا إلى الفيلا فنظر داخلها بتعجبٍ وسأل مغيراً الموضوع: «**ألم تستيقظ كريمة بعد؟**». هزت كتفيها علامة عدم المعرفة وقالت بشبه ابتسامةٍ: «**لم أتجرأ على الدخول عندها.**»..

هز رأسه متفهماً وقال مكرراً نصيحته التي أسداها لفؤادٍ مذ دقائق: «**اصعدي لترتاحي قليلاَ ريثما نجهز الغداء، حاولي أن تأخذي قسطاً من الراحة، فقد كانت الأيام الماضية مجهوداً زائداً عليك يا ابنتي في ظروفك هذه..**». قطبت حاجبيها متسائلةً، فابتسم مطمئناً، وحين همت بقول شيءٍ ما، رفع يده أمام وجهها ليسكتها قائلاً بصدقٍ: «**اطمئني يا ابنتي.. اطمئني.**».. ابتسمت له وتوجهت إلى الدرج العريض دون أن تضيف كلمةً، فصعدته برفقٍ وعينا آدم ترقبها وكأنها تحرسها..

حينما اختفت من مرمى بصره، تنهد بقوةٍ ورفع يديه ليشبك أصابعهما فوق قمة رأسه مغمضاً عينيه بقوة.. كان ما مروا به كثير.. نعم.. ولكن ما هو آتٍ، لن يكون أقل، على كل تقدير..



كادت نهلة تفقد سيطرتها على تصرفاتها وهي تلمح نادراً يخرج من البوابة الحديدية الضخمة، فخفت إليه، وكادت أن تلقي نفسها بين ذراعيه، لولا وجود شوكت الذي جعلها تتمالك نفسها وتخفي سعادتها العارمة خلف قناع من التحفظِ الباردِ الهادئ.. بدا نادرٌ بلا تعابير وهو ينظر إليها بصمتٍ مؤنبٍ، ما جعلها تزم شفتيها بقوةٍ وتطأطئ للحظة قبل أن تمد يدها التي تلقاها بعدم اكتراثٍ وهي تقول بلطفٍ: «**حمداً لله على سلامتك يا سيد نادر.**»..

«**شكراً.**»، واستدار محيياً شوكت بإيماءةٍ خفيفةٍ من رأسه بادله إياها الرجل الوقور ببساطةٍ، قبل أن يقودهما إلى السيارة الرمادية رباعية الدفع التي تنتظرهم على جانب الطريق. دلف نادرٌ إلى المقعد الخلفي و تبعته نهلة، ولدهشته وجد آدم وكريمة جالسَين بها ينتظرانه بشوقٍ.. كانت مفاجأةً سارةً، ولكن غضبه كان يفوق قدرته على إظهار أي مشاعر إيجابيةٍ في هذه اللحظة. عانقه آدم دون أن ينبس ببنت شفةٍ، واكتفى بما فضحته عينيه من مشاعر جياشةٍ، بينما انهالت عليه كريمة بكلمات الترحيب والشوق وشكر الله على سلامته دون أن تفلته من بين ذراعيها، ولكن عينيه من فوق كتفها لم تفارق وجه نهلة لحظةً واحدةً، والذي صار شديد الاحمرار إثر حرجها من نادرٍ. انطلقت السيارة بعدما استوى الجميع في مقاعدهم الجلدية الفخمة التي اصطفت متقابلةً كطقم أنتريه أكثر منها كمقاعد سيارة، وحينها لم يتمكن نادرٌ من كتم السؤال الذي أثقل لسانه مذ قدمت نهلة الأسبوع الماضي الورقة التي بسببها يتمتع الآن بالحرية: «**لم احتفظت بالورقة يا نهلة؟ لقد وثقت بكِ وأعطيتكِ إياها كي تطمئني وتضمني حريتك، بينما تبقين ورقتكِ أنتِ معك في حال أردت الزواج؟! أنا..**»، عض شفته السفلى بغضب قبل أن يكمل: «**أنا مصدوم!! أنت من بين كل الناس يا نهلة، لم أتوقع منك أبداً أن تتربصي بي هكذا!!**». قاطعته: «**لا يا نادر، في حياتي كلها لم أخطط أبداً لأغدر بك، ولم ألوِ على شرٍ حين احتفظت بورقة زواجنا.. ليس لدي مبررٌ منطقيٌّ، ولكني .. لا أدري.. أردت.. أحببت أن أحتفظ بكل ما يمكن أن يذكرني بتلك الفترة من حياتي..!**»، وخفضت صوتها قليلاً موضحةً وهي تشير بها نحوهما معاً: «**بحياتنا القصيرة معاً.. كزوجين.. وليس كرب عمل وسكرتيرته.. هذا كل شيءٍ.. أقسم لك.**». زوى ما بين حاجبيه سائلاً: «**ولم تكن ورقتك تكفي لتذكرك؟!! تلك التي تحمل على ظهرها اتفاق الطلاق؟.. التي لن تصلح لتطالبي بها بأي حقٍّ إن أصابني شيء، أو صرفتك من العمل لأي سببٍ.. أليس كذلك؟**».. تنحنح آدم وتململ في جلسته غير مرتاحٍ لسماع مثل هذا الكلام، بينما مالت كريمة للأمام لتقول بقلقٍ: «**ما الذي يحدث يا جماعة؟ أي طلاقٍ؟.**»، ثم وجهت كلامها لنهلة متابعةً في حيرةٍ: «**أليس العقد الذي قدمتيه حقيقياً؟!**». هنا تدخل

شوكت للمرة الأولى في هذا الحوار مجيباً بلا ترددٍ: «**بالطبع صحيح، وقد أثبت الطب الشرعي صحته. أكد كل شيء فيه، منِ مطابقة الخطوط لكل من السيد نادر ونهلة، لصحة تاريخ كتابته، منذ ست سنواتٍ. بالطبع صحيح..**»، ونظر لنادرٍ مؤكداً بقوةٍ: «**صحيحٌ وسليمٌ مائة بالمائة، وليس هناك قول آخر.. وقد شهدت صديقات نهلة وبواب الفيلا بترددك عليها، كما أكد البواب، وبواب الفيلا المجاورة وصولك إلى فيلتك التي سجلتها قبيل الحادث باسم نهلة. يا سيد نادر، هذه هي حجة غيابك القوية الوحيدة إلى الآن، و إصرارك على عدم البوح بها أكدها، إذ بدا وأنك تحاول إبقاء هذا الزواج سرياً حفاظا على زواجك .**». هز نادر رأسه ساخراً: «**نعم، أضحي برقبتي لأحافظ على زواجي.. كيف انطلى هذا الهراء عليهم!!**»، ثم سأل ساخراً بفظاظةٍ مشيراً لنهلة بإصبعه: «**وهل أثبت فحصها هي زيارتي لها أيضاً بتلك الليلة؟!**». زفر آدم بصوتٍ عالٍ وأشاح بوجهه نحو النافذة، بينما غطت كريمة فما بيدها لتكتم شهقة كادت تفلت منها، وكلاهما يتحاشى النظر نحو نهلة، التي كانت بحالةٍ من الصدمة جعلتها تبتلع لسانها إبَّان هذا الهجوم الضاري وغير المعتاد من نادرٍ عليها، ولكن شوكت رد بثباتٍ: «**لم يكن هناك داع لمثل هكذا فحص يا سيد نادر، فوجود الزوج في بيته لا يعني بالضرورة ...**»، وفرد كفه رافعاً حاجبه مكتفياً بهذه الحركة كتتمة لعبارته.. أسند نادر مرفقه إلى مسند المقعد وارتكن بذقنه على أصابعه وهو يطالع من خلف الزجاج المعتم الشوارع التي افتقد رؤيتها.

ساد الصمت دقائق طويلةً، قبل أن يقطعه صوت حقيبة اليد الفضية الضخمة التي تحملها نهلة، لتتماشى مع جاكيتها الصيفي الأسود فوق قميصها الأسود البسيط الذي زين أعلاه كوفيةٌ رماديةٌ صيفيةٌ رفيعةٌ.. كانت بسيطة المظهر اليوم، دون التخلي عن لمسة الأناقة التي تميزها، بشعرها المرفوع كذيل الحصان وسروالها الجينز الرمادي الضيق، مراعية ظرف الحداد الذي يمر به نادر. فتحت الحقيبة وانتزعت منها بهدوءٍ ورقتين مطويتين بعنايةٍ ومدتهما نحو نادرٍ، الذي استدار نحوها ببرودٍ إثر لكزها له بخفةٍ كي تسترعي انتباهه، وقالت ببرودٍ: «**هاك.. مزقهما.**». تركتهما ليسقطا في حجره وأولته ظهرها متجاهلةً ما

سيفعله بهما. لدهشة الجميع، مدت كريمة يدها وأخذت الورقتين لتتفحص محتواهما بدقةٍ، وأخيراً قالت: «**ثلاثة أشهرٍ!! فقط!!**»، وهزت رأسها بأسىً قائلةً: «**يبدو أني شِخْتُ كثيراً إذ لَم أعُد قادرةً على مجاراة ما يجري أو فهمه.. لم يتزوج رجلٌ مثلك سراً؟ ولِمَ يُطلق عروسَه بعد فترةٍ قصيرةٍ!! ليس هذا فحسب، وإنما يبقيها إلى جواره بعدها كل هذه السنوات!!! لَم أفهم ولا أريد ان أفهم.**»، واختارت الورقة التي كتب على ظهرها اتفاق الطلاق ومزقتها دون ترددٍ تحت أنظار زوجها المذهولة. أتمت مهمتها حتى آخر قصاصةٍ، وسط صيحة نهلة وطلب نادرٍ منها التوقف وهو يحاول أن يسحب الورقة من يدها قبل أن تتلفها تماماً، وصاح بها حين فشل: «**ماذا فعلتِ؟! يااااه يا كريمة!!! نهلة تحتاج هذه الورقة لإثبات زواجها، وأنا أحتاجها لإثبات الطلاق!! ما بالك؟!! أفقد الجميع عقله!!**»، وتراجع في مقعده ضارباً ركبتَه بكفِّه متابعاً: «**يا الله!!.**».. ردت وهي تلهث وكأنها كانت تركض: «**لا يمكن تمزيق الورقة التي قُدمت للنيابة، ولا يمكن تقديم التي مزقتها مكانها يا نادر.. لا يمكن أن تخاطر بظهورها إطلاقاً.. أتبقي ورقة تثبت طلاقك منها وأنت تدعي وجودك في بيتها.. كزوجة؟!! اسمع، قلبي لم يعد يتحمل فقدان شخص آخر منكم.. افعل ما شئت بهذه.. طلقها على ظهرها.. أظنها لن تكون مشكلة..**».. أيدها شوكت بابتسامةٍ خفيفةٍ: «**بصراحةٍ، هذا أفضل تصرفٍ.. بإمكانك الآن وحالاً أن تطلقها مجدداً على ظهر الورقة تلك وسيكون هذا منطقياً، ويسير بنفس المسار الذي نريده.. وإن أُعيد فحص الورقة، وهو أمرٌ واردٌ جداً بالمناسبة، فسوف يثبت أن الطلاق تَمَّ حديثاً.. ولن يضرَّ هذا بشيءٍ..**».. هدأ نادرٌ قليلاً ونظر إلى كريمة ليجدها لا تزال تلهث، فقطب سائلاً بقلقٍ: «**كريمة، أتشعرين بتعبٍ معين؟ لا تبدين بخير.**». كان آدم يمسد يدها برقةٍ وهو يربت عليها بأصابعه النحيلة، فقال بقلقٍ: «**أثَّرت عليها الأحداث الأخيرة وعلى قلبها، فصارت تنهار كثيراً وسريعاً.**»..

مال نادر إلى الأمام وأمسك بيدها الأخرى ليقبلها في لفتةٍ أدهشتهم جميعاً وجعلت دموع كريمة تطفر من عينيها وهي تربت على رأسه الذي لايزال مطأطئاً بحزنٍ. قال بصدقٍ: «**أنا آسف يا كريمة، آسف على كل ما حدث ويحدث،**

ولكن أرجوك أن تصمدي، فأنا لن أحتمل فقدان أمٍّ ثانيةٍ.. لا، لن أتحمل خسارتكِ، وأنتِ تعلمين هذا جيداً.. فتماسكي لأجلي.. أرجوكِ.»..

ربت آدم على كتفه برفقٍ وقال بصوتٍ خافتٍ: «**لا تقلق يا بني، إنها فقط مرهقةٌ ومتأثرةٌ، ولكني أعلم بأنها ستكون بخيرٍ.**»، والتفت لكريمة مؤكداً: «**أليس كذلك يا كريمة؟.**». هزت رأسها وعدلت جلستها قائلةً برفقٍ وثباتٍ لتُطمئن كِلا الرجلين: «**أنا بخيرٍ.. بخيرٍ.**».. تراجع نادرٌ في مقعده يرقبها للحظاتٍ بصمتٍ، ثم نظر إلى نهلة التي التزمت الصمت التام مذ سلمته القسيمتين، ومد يده نحوها قائلاً بخفوتٍ: «**قلم.**». فتحت حقيبتها وناولته منها قلماً فضياً رفيعاً أمسكه بسرعةٍ وقال بصوتٍ واضحٍ: «**فلنقف على جانب الطريق إن كان هذا ممكننا الآن.**»..

قطب آدم فيما سأل شوكت متعجباً: «**لمَ يا سيد نادر؟**». رد ببساطةٍ: «**السيارة تهتز ولن تكون الكتابة واضحة.**».. تساءل آدم بترددٍ: «**ألا يمكن أن تنتظر حتى نعود إلى البيت؟!**».. ضحك شوكت بصوتٍ عالٍ معلقاً: «**الطبع غلَّاب، أليس كذلك يا سيد نادر؟!.. لا تتأخر دقيقة عن تنفيذِ ما نويت.. ولكنك تعلم بأنها ومنذ لحظة الطلاق وحتى انتهاء العدة المفترضة، يكون لها الحق في.. أنت تعلم.. لو لا قدر الله..**».. قاطعه نادرٌ بحزمٍ ونظرةٌ مؤنبةٌ تطل عينيه: «**نعم، أعلم.. شكراً يا شوكت بك.**».. كتب بضع سطورٍ بهدوءٍ، ثم وقع أسفل الورقةِ وناولها إياها لتوقع عليها بدورها دون أن تقرأ كلمةً مما كتب. أخذها منها ثانيةً وناولها لآدم قائلاً برفقٍ وهو يشير بالقلم إلى أحد أركان الورقة السفلية: «**وقع هنا يا آدم.**»... وقع آدم على مضضٍ، كارهاً أن يكتب اسمه على ورقةِ طلاق، ولكنه لم يجد بداً من الانصياع لطلب نادرٍ الآن. مدَّ الورقة لنادرٍ فقال الأخير: «**أعطها لسيادة المستشار ليوقع بدوره.**».. وكذلك فعل الرجلان ما طلب منهما ثم ناول شوكت الورقة لنادرٍ، الذي ألقى عليها نظرةً أخيرةً سريعةً، قبل أن يطويها ويمدها لنهلة قائلاً ببساطةٍ: «**هاكِ.**».. قالت دون أن تمد يدها: «**أستطيع أن أكتب تعهداً الآن بعدم المطالبة بشيء، إن حدث ... مكروهٌ، لا سمح الله.**». رد شوكت مبتسماً

وكأن الموقف برمته يسليه: «**تعهدك بعدم المطالبة بحقك لا يمنعك فعلاً من المطالبة به والتراجع عما كتبت، هذا بمحض القانون.**».. رفع نادرٌ كِلا حاجبيه وقال وقد أفلتت منه هو الآخر ابتسامةٌ عفويةٌ: «**شكراً مجدداً يا سيادة المستشار.**».. ابتسمت نهلة وتلطفت الأجواء قليلاً مع انطلاق السيارة من جديد..



لم يشعر نادرٌ يوماً بمثل التوتر الذي شعر به والسيارة تعبر البوابة الحديدية الفخمة لحديقة بيته، بعدما أوصلوا شوكت ونهلة، كلٌّ حيثما طلب، ولم يكن السبب هو قلقه من لحظة لقاء أخيه، ولا مهرة.. وإنما افتقاده لمن لن يلتقي مجدداً أبداً.... انتابه شعورٌ غريبٌ نحو المكان بحد ذاته، فأخذ يطالعه بشرودٍ..

طالعته جميع الوجوه التي مرت على هذا البيت.. بيته.. منزله ومكمن راحته.. ولدهشته اكتشف أن من بين الثلاثة عشر شخصاً الذين سكنوه، لم يحبه فعلا إلا أربعة، ولم يبق منهم إلا اثنين فقط على قيد الحياة، بينما أمضى أعوامه العشرين الماضية وهو يبحث عن الراحة والحب بين أناسٍ يدفع لهم، ليس مالاً فقط، وإنما من وقته وذاته، فقط ليشعروه بأن حياته طبيعيةٌ وبأنه محفوفٌ بأناسٍ يأبهون لأمره وسلامته.. ولكن يبدو وأنه في طريقه للبحث عن مكان آمن يستظلِ به وسط قفر صحراء الوحدة، قد أخرج كل حيةٍ وعقربٍ من مكمنه، وبدلاً من إبعادهم، أحاط بهم نفسه واتخذهم أنساً، صحبةً وأهلاً..

لم يشعر في غضون شروده بالسيارة وهي تتوقف، ولا انتبه إلى أنه ترجل منها هو وآدم وكريمة.. أراح آدم يده على كتف نادرٍ وأمسك بيد كريمة بيده الأخرى وهم يصعدون الدرج العريض. قالت كريمة بعدما فتح زوجها الباب الزجاجي الكبير: «**سأعدَّ لك شيئاً تأكله، فلابد وأن معدتك تحجرت من عدم الأكل في الأيام الماضية. اصعد لتغير ثيابك وتمدد قليلاً ريثما انتهي، وسأجلب الطعام إلى حجرتك.**»

«لا، ارتاحي أنت، فأنا لست جائعاً.. ولكني كنت أحلم ليل نهار بفنجان القهوة الذي كنت تعده يا آدم.. سأستحم سريعاً وأنزل لغرفة المكتب، فأحضر قهوتي إلى هناك.».. اعترض آدم: «أي قهوةٍ، وأي مكتبٍ؟! نلِ قسطاً من الراحة، وتناول وجبةً حقيقيةً حتى تستعيد قواك.. وغداً إن شاء الله، عُد لمباشرة أعمالك كما تحب.».

هز نادرٌ رأسه نفياً ودفع كُلاً من آدم وكريمة باتجاه سكنهما ولكنهما تمنعا وتوقفا معترضين بقوةٍ، ولكن محاولاتهما باءت جميعها بالفشل، إذ أصر نادرٌ على الاكتفاء بفنجان القهوة.. تقدما يهزان رأسيهما اعتراضاً، ولكن نادر استوقف آدم سائلاً: «هل الجميع هنا؟؟». ردت كريمة التي كانت قد ابتعدت بضع خطواتٍ: «فقط السيدة مهرة وإخوتها.»، ولوت شفتها وابتعدت لتختفي خلف السلم الكبير وسط الردهة.. انتظر آدم حتى اطمأن لأنها لن تسمعهما وعلق مبتسماً: «كريمة تعيش دور الحماة هذه الأيام.»، ثم تابع بجديةٍ: «غادر فؤادٌ هذا الصباح إلى المزرعة، فهو خجلٌ منك ولا يدري كيف يواجهك بعد ما فعل.. وقد أوصيت الحاج أمين.. أبو يوسف، وأم يوسف، بأن يرعياه ويراقباه عن كثب، وسيتصلان بي إن رأيا ما يثير القلق.. وأميرة، منذ يوم الدفن وهي تقيم عند صديقتها روضة سلامة.. و لم يبق هنا سوى مهرة وماجد ومي.».. تردد قليلاً ثم تابع: «لقد بذلت في الأيام الأخيرة مجهوداً جباراً ولم يغمض لها جفنٌ في محاولة إصلاح ما فسد يا نادر.».. صحح نادرٌ: «أفسدته.». تابع آدم وكأنه لم يسمع تعليق نادرٍ: «ولو راجعنا الأمر فستجد بأن السؤال هنا: من نقل الكلام لفؤادٍ وتسبب بكل هذا؟ من أطلق علي أهلك النار، ليقتلهم ويسجنك؟ ليست مهرة يا نادر.. ابحث عن عدوك يا بني، ولا تضع اللوم على أضعف من رأيتُ في حياتي.. ولتعلم أن من فعل، لم يصل لما يريد بوجودك خارجاً الآن، لذا، أخشى أن عليك توخي الحذر يا بني.. أرجوك.. وكما قلت لك، اصبر على مهرة واعطها فرصةً أخرى.. أنا لم أخبرها عن حجة الغياب الحقيقية، وإنما أخبرتها بأن صاحب مطعمٍ ما، تذكرت بأنك تناولت عشاءك فيه، قد أعطاهم الشريط المصور الذي يظهرك به.. أعط نفسك فرصةً لتعيش حياةً جديدةً.. لا داعي ليضيع كل شيءٍ في نفس الوقت.. ها؟».

اضيقت عينا نادرٍ واكتفى بإيماءةٍ صغيرةٍ قبل أن يولي هارباً من المنطق في كلام الرجل الذي يعده أباً، ليصعد الدرج بسرعةٍ، إلا أن سرعته خفت تدريجيا وهو يدنو من حجرته متسائلاً إن كان سيجد مهرة بها، أو تكون قد لاذت منه بإحدى غرف أخويها. أمسك مقبض الباب، ثم تراجع وطرق طرقاتٍ خفيفةٍ، وانتظر للحظاتٍ قبل أن يدخل الحجرة التي بدت مضاءةً بقوةٍ قياساً بالأضواء الخافتة المتبعثرة في الردهة والممر العريض. «**نادر!.**» وقفت مهرة من على الكرسي الضخم في ركن الحجرة وتركت الصحيفة التي كانت تطالعها تسقط أرضاً دون اهتمام، وقد أشرق وجهها للحظاتٍ قبل أن تعود لتستوعب النظرة الواجمة التي حدجها بها زوجها وهو يغلق الباب وراءه، ثم استدار ليوليه ظهره واضعاً يديه في جيبي سرواله قائلاً باقتضابٍ: «**لقد طرقت الباب.**».. وقف يتأملها في ثيابها السوداء التي لم تكن سوى تنورةٍ طويلةٍ وبلوزة صيفيةٍ ضيقةٍ مثلثة الفتحة، ولم يفته الشحوب الشديد الذي اصطبغ به خديها وشفتيها، وقد ذكره مظهرها هذا بالمرة الأولى التي رآها فيها، إذ بدت ضعيفةً متوترةً هشةً، فانتابته موجةٌ من المشاعر المتضاربة. كان يعلم أن مجرد رؤيتها ستثير جنونه وأنه قد يفقد هذه المرة سيطرته على أعصابه وربما ألحق بها الضرر، على طريقة شقيقه، ولكنه الآن وهو يتلقى تلك النظرة الحائرة الخجولة من عينيها، شعر برغبةٍ أكبر في.. ولعجبه، وجد نفسه يرغب في ضمها إلى صدره بقوةٍ! أن يضمها حتى تختفي أنفاسها وسط انفاسه.. أن يبكي بين ذراعيها فقد شهدٍ، كما بكى من قبل فقده لأبيه.. ولكنه مع تذكره لأبيه، عاد إليه كل رشدٍ فقده في لحظة ضعفه هذه، فتجمدت ملامحه وهو يستمع إليها ترد بحرجٍ: «**لا بأس، كنت ..**»أرادت أن تقول (أنتظرك) ولكنها عدلت عن ذلك كي لا يظنها تلمح له برغبتها لعودتهما لبعضهما وكأن شيئا لم يكن، فقالت بعدما لعقت شفتها السفلى: «**أتوقع وصولك، ولكن يبدو أنني شردت في .. لا تهتم.. حمداً لله على سلامتك.**». تحرك ببطءٍ نحو خزانة الثياب وغاب بداخلها لدقيقة ثم عاد حاملاً ثياباً نظيفةً، وضعها بعنايةٍ على الفراش ثم استدار لمهرة قائلاً: «**أين مي؟**».

ابتلعت ريقها، وأجابت مدافعةً: «**مي طفلةٌ، لا شأن لها بكل هذه الأمور، إنما فقط كانت متعاطفةً مع.. مع من رحلوا، لذا تحدثت باندفاع.. وقد أخبرني المستشار شوكت بألا أقلق لإفادتها، فلا وزن لها إذ لا زالت قاصراً، أو شيئاً من هذا القبيل**». عاد ليضع يديه في جيبي سرواله معيداً سؤاله بإصرارٍ: «**أين هي يا مهرة؟**». رفعت صوتها قليلاً وهي تعقد ساعديها أمام صدرها بعنادٍ وخوفٍ شديدين: «**دعها وشأنها، وإن كان لديك ما تقوله، فقله لي أنا، فلن أسمح لأي مخلوقٍ بالعالم أن يؤذ..**».. قاطعها بحدةٍ: «**كفى.**». ابتلعت لسانها وانتظرت أن ينفجر بها ليخرج الحمم المستعرة بداخله، ولكنه أخذ يحدق إليها بتمعنٍ وكأنه شرد بعيداً بحيث صار لا يراها بالفعل.. طرفت بعينيها وتململت قليلاً ولكنها بقيت واقفةً تصارع رغبةً عارمةً في إلقاء نفسها بين ذراعيه كي تبكي وتعتذر منه كما اعتادت، وأن يسامحها ويتفهم هو كما اعتاد. تساءلت عمَّ قد تكون ردة فعله إن فعلت! ربما عليها أن تجرب لتعرف.. ولكن ماذا إن.... ؟ لم تتخيل كيف سينتهي بها الحال إن تحلت ببعض الجرأة ولو للحظاتٍ! فلعلها تكتب بهذا السطور الأولى لحياتها الحقيقية، للأبد.. (حسنٌ، لا بأس إن أهنتُ نفسي للحظاتٍ، فهو لديه، من وجهة نظره، كل الحق ليكون ثائراً علي، ولا بأس إن تحملته ومنحته الفرصة للتنفيس عما بداخله. فلربما إن فعلت هذا، امتصصت غضبه، وقد يمنحني بدوري الفرصة لشرح كل شيء، ثم..).. سخرت من سخف فكرتها، فكيف يصمد زواجها الذي حرمته السقيا من ينابيع الثقة والحب حتى تحول لغصنٍ جافٍ هشٍ أمام هذه العاصفة القوية التي قد تقتلع جذعاً متيناً من جذوره؟!

«**أتدرين ماذا أرى حين أنظر إليك الآن؟ أتعرفين بم تذكرينني يا مهرة؟**».. سحبت نفسها من أفكارها لتركز فيم سيقول، والتساؤل بادٍ على محياها، وتابع هو دون انتظار ردها: «**(الغرقانة).. أترين الشبه؟ تقبع في أجمل بقاع الأرض، وكل نصف منها يسكن في عالم من أجمل ما خلق الله، ولكنها لا ترى ما حولها من جمالٍ ولا تستطيع التمتع به، لأنها وفي النهاية، مجرد حطام.. سفينةٍ غارقةٍ.. تقف في المياه ولا تسبح، ولا تملك أن تغادرها لأنها، سفينة.. هكذا أنت**

يـا مهـرة، عشـت مشـتتةً بـين عالمـين، لـو اخـترت أحدهمـا وأخلصـت لـه ، لكنتِ في أسـعد حـالٍ.. ولكنـك حاولـتِ العيـش في الاثنـين معـاً، فتحطمـتِ، وحطمت كل مـن تعلـق بـك.. أترين في أي ميـاهٍ ضحلـةٍ رسـوت بنـا؟! أرأيـتِ كيـف أغرقـتِ معـك عالمـاً كان هادئـاً طافيـاً فـوق كل أمـواج الحيـاة.. فقط ذلـك الثقب الصغـير الـذي أحدثتـه في الثقـة، ولتركـي ميـاه الحقـد والخـوف تفعـل الباقـي.. مـا لا أفهمـه يـا مهـرة، هـو لِمَ؟ ولكـن يبـدو بأني لـن أحظـى بالفرصـةِ لأفهـم.»..

سيطرت مهرة على الرعشة التي انتابت جسدها بصعوبةٍ، وقطبت حاجبيها بانتظار تتمة كلامه، وقد نفَّذت بسكوتها وعدها لنفسها بتحمل كل ما يعزم نادرٌ على قوله، ولكنها لم تظن أن كلامه سيؤلمها إلى هذا الحد، فقد انتظرت قصفاً بالألفاظ الثقيلة والاتهامات بالطمعِ والغدر والأنانية.. أشياء من تلك التي يتعمد بها المجروح، جرح من أمامه.. ولكن كلماته البسيطة جعلتها تشعر بأنه عرى روحها ولمس بعصاً جليدية، عصباً حساساً.. تشبيهه جعلها تشعر بصعوبة التنفس، وبطعمِ الماء المالح فوق شفتيها، ولكنها انتبهت بعد وهلةٍ بأن ما تتذوقه ليس خيالاً، بل دموعٌ حقيقيةٌ ساخنةٌ. «**الآن، سيعود كل شيءٍ كما كان، أنا وشقيقي فقط، وأنت وشقيقيك.. وكأن شيئاً لم يكن.. أليس كذلك؟.**». كان يتحدث وهو يحمل الثياب التي وضعها على الفراش وبدا وكأنه قد غير رأيه بأخذ حمامه هنا في الغرفة، وأنه سيستخدم غرفةً أخرى.. ردت بخفوتٍ: «**لا شيء يعود أبداً كما كان..**».. لا تدري لم شعرت في هذه اللحظة بأنها لا تريده أن يغادر الغرفة، فقد شعرت بأنها ربما كانت المرة الأخيرة التي يجتمعان معاً فيها في نفس الغرفة إن تركته يرحل هكذا.. حاولت أن تجد شيئاً يدفعه للبقاء والتحدث أكثر، ولكن عقلها الذي ما برع إلا في إيقاعها في المشاكل، الواحدة تلو الأخرى، خرج عليها بأسوأ عبارةٍ قد تقال في مثل هذا الموقف: «**ولكنك لا تبدو مستاءً من هذه النتيجة، وكأنك كنت تتمناها.**». و فورا وضعت يدها على فمها وكأنه نطق رغماً عنها. كان نادر قد وصل إلى منتصف الغرفة فتوقف واستدار مذهولاً. كانت صورته المعلقة على الجدار وراءه تُظهر جلياً الفرق القاسي الذي أحدثه العام المنصرم بالرجل، فما بين وجهه المشرق الفتي المبتسم بثقةٍ في

الصورة، وبين وجهه النحيف غير الحليق بعينيه الغائرتين وشفتيه المشدودتين، فرق كما الفرق بين الوردة الندية في الربيع، وتلك الجافة في بواكير الشتاء.. «**ماذا تعنين؟! أتلمحين لأن لي علاقة ب..**». تقدمت خطوة وقد شعرت بأن شيطاناً يتحلها ليدمر ما بقي من فرصةٍ لها مع زوجها، على عكس ما رغبت تماماً، ومع ذلك لم تستطع أن تمنع نفسها من سؤاله ذلك السؤال الذي ظل يتردد في عقلها مذ عرفت بخروجه، وتحتاج لأن تسمع جوابه من نادرٍ شخصياً، فقالت برفقٍ وهي تدنو منه شيئاً فشيئاً: «**لا، لا أقصد ولا أتمنى أمراً كريهاً كهذا! ولكن...**»، ترددت لحظةً ثم تابعت: «**أن تتذكر فجأةً بأنك كنت بمطعم ما وأن يشهد صاحب المطعم، وهذه القصة!! ألا تبدو لك هزيلة؟!!**».. صارت الآن قبالته تماماً، فمدت يدها لتمسك بمرفقه برقةٍ مكملةً بخفوتٍ شديدٍ: «**لا تبدو لي منطقية! أين كنت وقتها يا نادر؟ وبما أنه لا ضلوع لك بما حدث، فلم تخفي حجة غيابك الحقيقة؟ أين كنت يا نادر؟ أخبرني.. دعني أطمئن.. عليك..**»..

سحب نادر نفساً عميقاً قبل أن يهز رأسه وهو ينظر نحو الأرض ضاحكاً، وقد فاجأها رد فعله هذا فرفعت يدها عن ذراعه وتراجعت بضع خطواتٍ إلى الوراء، تجنباً لأي حركةٍ مفاجئةٍ قد يأتي بها، إثر استفزازها له.. ولكنه قال ورنة الضحك لم تفارق حروف كلماته: «**أنتِ غير معقولة! لا يمكنك ترك الأمور كما هي، ولا الاكتفاء بما تسمعين.. أنت وبحثك الدائم عن الحقيقة!! عليكِ أن تنبشي وتنبشي بأظافركِ الدقيقة حتى تصلين إليها، ثم حينها، تنهارين وتكتشفين بأنك لستِ أهلاً لتحمُّل عبئها.. فتقلبين الدنيا على رؤوس الجميع.. ولكن لا بأس.. لا بأس.**»، ومط شفتيه بسخريةٍ وقال مقطباً حاجبيه: «**لا يمكن أن يمنعك أحدٌ من حقكِ في معرفة الحقيقة.. فهل أنتِ مستعدةً لسماعها؟.**». ألقى الثياب جانباً لتتناثر على الأرض، وأمسكها من ذراعيها بقوةٍ بحركةٍ مفاجئةٍ وهو يكمل بصوتٍ هادئٍ، لم يتماشَ مع الغضب الذي التمع في عينيه: «**هل أنت مستعدةٌ لسماعها، وتقبلها، والعيش معها؟!**». حدقت إليه بعينين متسعتين عن آخرهما ولم تدر ما الذي ألجمها، أخوفها من نظرته، أم مِمَّ تنتظر أن تسمع، ويبدو وكأنه لم يكن ينتظر ردها، فقد قال ببرودٍ غلَّف غِلاً عميقاً احتوته كلماته: «**بالفعل لم أكن**

بأي مطعم، ولكننا لم نكذب على النيابة، وإنما كذب عليك آدم مراعاةً لمشاعرك، فقد كنت عند زوجتي يا مهرة.. أنت تعرفينها.. نهلة.. ولكن لا تشعري بالإهانة، فقد تزوجتها مذ ست سنواتٍ، فأنت حسبما يقولون، الجديدة.. ها؟ أأرضيتِ فضولكِ؟ هل اطمأننت عليَّ الآن؟ أتشعرين بأنكِ أفضل حالاً بعد معرفة الحقيقة؟!!. أيستطيع عقلكِ هضم هذه الحجة؟! ها؟».. كان يهزها مع كل سؤالٍ، حتى شعرت بدوارٍ طفيفٍ، فتمسكت بذراعيه بدورها دون أن تتمكن من قول أي كلمةٍ.. شعرت بالصدمة تجمد عقلها ولسانها وتمنعها من اتخاذ أي رد فعلٍ للصفعة التي تلقتها كرامتها بناءً على طلبها الشخصي.. تركها نادرٌ فجأةً، وأخذ يلملم الثياب المبعثرة بعشوائيةٍ وحملها بين ذراعيه. همَّ بمغادرة الحجرة، ولكنه عاد وأغلق الباب قائلاً دون أن يتقدم إلى الداخل: «**سأغادر البيت لأسبوع..**». قاطعته متألمةً: «**ستمكث عندها؟.**». ابتسم بسخريةٍ راداً ببساطةٍ: «**لا، فقد طلّقتها اليوم، تماماً كما سأفعل معكِ.. أنت طالق يا مهرة.. سأتركك لترتبي أمورك هذا الأسبوع، وهناك شقة باسمكِ ستنتقلين إليها أنت وأخويك، كما ستصلك كافة حقوقك.. أرأيتِ!! أنا أستمتع بإعادة كل الأمور إلى سابق عهدها.**».. أنهى كلامه وغادر مغلقاً الباب وراءه بهدوءٍ، ليعُمَّ السكون المكان ويسطو الظلام على عقل مهرة ليغرقها في بحر اللاوعي الحنون...



أنهى نادرٌ حمامه وعدل هندامه أمام مرآة غرفة الضيوف الفخمة، ذات السريرين الكبيرين بخشبهم العاجي، والسجادة الفارسية الكبيرة ذات التموجات المتراوحة ما بين الذهبي والعاجي.. كانت أصاصي الزرع الذهبية التي تحمل نباتات الظل الخضراء النادرة، تنتشر في الغرفة هنا و هناك، مضفية جواً من السلام المريح للأعصاب، والذي ربما ساعد نادراً قليلاً في السيطرة على الرعشة التي تملكت كفَّيه مذ غادر حجرة مهرة.. وقف يطالع وجهه الحليق ومظهره الأنيق بجاكيته الكحلي وقميصه البني القاتم الذي يضاهي سرواله الجينز البني قتامةً وأناقةً، وكأنه ينظر لرجلٍ آخر في بُعْدٍ ثانٍ لا يكن

له أي مشاعرٍ ولا يدين له بأي فضلٍ.. رجل يستطيع أن يفعل كل ما (يريد)، لنفسه ولغيره، ولكنه لا يستطيع أنْ يمنح نفسه ما (يحتاج).. رجلٌ اشترى وباع وفاوض وهدم صروحاً وبنى امبراطورية من القوة، ولكنه فشل في جمع عشٍ صغيرٍ آمن لنفسه.. رجلٌ يحسده الناس إذ أبحر هنا وهناك، في حين أنه ما فعلها حباً في الترحال، وإنما بحثاً عن شاطئٍ ترسو به مراكبه... رجلٌ أحبَّ الكثيرين، فقط ليفقِدهم، وقرب الكثيرين، فقط ليُضيعوه!... رجلٌ لديه سياراتٌ من كل الأشكال والأحجام والألوان، وليس لديه مكان (يحب) الذهاب إليه.. رجل معه كل شيء، وليس لديه أي شيء..

رفع كفيه علَّه يجدهما قد توقفا عن الارتعاش، ولما وجدهما قد استقرتا قليلاً، فركهما ببعضهما وتنهد مغمضاً عينيه، قبل أن يغادر الغرفة متوجها نحو غرفة مي، تلك الصغيرة التي تضمر له عداءً شديداً، ورغبةً في الانتقام، مخيفةً بالنسبة لفتاة في مثل عمرها.. في طريقة لغرفة مي، مر أمام حجرته ولكنه لم يتوقف، بل أسرع الخطى قليلاً حتى وصل لباب حجرة شهد، فوقف ينظر إليه، لا يدري أيستطيع تحمل أن يدخل غرفتها الآن، أم أنها ليست فكرة جيدة في هذا الوقت تحديداً، حيث يحتاج لتماسكه وصلابته، الظاهريين على الأقل، حتى تمر هذه الأزمة وتنتهي كما يريد؟ وضع يديه في جيبي سرواله وأغمض عينيه متنهداً، ثم استدار متابعاً طريقه حتى بات على أعتاب غرفة ميٍّ، فطرق الباب برفقٍ وانتظر حتى سمع صوتها الرفيع يأذن لمن بالباب بالدخول. دخل من فوره وأغلق الباب وراءه عامداً، فما سيدور بينه وبين الصغيرة، لا يمكن بأي شكلٍ من الأشكال أن ينتقل خارج هذه الغرفة.

انتفضت مي لدى رؤيتها لنادرٍ، وقد ظنت أن من بالباب ليس سوى ماجد أو مهرة.. رمقها نادر بنظرةِ عدم رضىً، للنحول الشديد الذي صارت به، وأظهره بوضوحٍ بنطالها الأسود الضيق وقميصها الصيفي الذي فتحت الأزرار بأعلاه لتبدوَ رقبتها الدقيقة من خلال فتحته، وقد رفعت شعرها على شكل كعكة.. بللت الرطوبة بشرته، فقال ملاحظاً بأنها لم تأبه لإشعال التكييف:

«**ثيابك الخفيفة، ليست كافية للتخفيف من شدة الحر، أتحاولين أن تمرضي؟!**».. حين لم ترد، استدار وأدار القفل الصغير في مقبض الباب حتى لا يقاطعهما أحد، ثم تقدم ليضغط برفقٍ على زر الضوء الرئيسي ليضيء الغرفة كالشمسِ، عوضاً عن ضوء المصباح الصغير ذو المخمل البنفسجي، القائم بركن الغرفة، والذي ألقى بأضواء بنفسجية زهرية خافتة. كما لمس بخفةٍ أزرار التكييف ليشغله ويبدأ الهواء البارد في الانسياب إلى الغرفة.. لم يتلقَ رداً، فنظر حوله ليجد مكاناً يجلس فيه، وأخيراً اختار أحد مقاعد ال (بين باج) التي ملأت بها حجرتها عوضا عن الأثاث الحقيقي، مكتفية بفراش أبيضٍ واسعٍ، ومكتبٍ، وما دون ذلك كله كان يبدو أشياء تصلح للمرح منها للاستخدام.. حافظت الفتاة على صمتها بطريقةٍ أعجبت نادراً حتى كاد يبتسم، ولكنه قال بجديةٍ مقطباً حاجبيه : «**اجلسي يا مي، فلدي ما أقوله لكِ.. كما أن لديك ما أريد أن أعرفه.. وأعدكِ أن أياً كان ما سيقال الآن، فإنه سيبقى بيننا، إلى الأبد.**». عقدت ساعديها أمام صدرها بعنادٍ، فذكرته بشقيقتها، وقالت بنزقٍ: «**ليس لدي ما أقوله لك يا (أبيه)، ولا أريد أن أعرف شيئاً.**». ضيق نادرٌ عينيه وقال من بين شفتين مطبقتين وهو يشير إلى المقعد المجاور له: «**اجلسي يا مي.**»، وحين رفعت ذقنها عناداً قال بحزمٍ وقد رفع حاجبه قليلاً: «**قلت اجلسي..**»، ورفع صوته: «**الآن.**».. أعجبه كثيراً أنها انتظرت للحظاتٍ على حالها قبل أن تمتثل، فلهذه الفتاة شخصيةٌ دائماً ما أعجبته، بثقتها بنفسها واعتدادها برأيها، إنما ليس هذا وقت التعبير عن هذا الإعجاب ولا مكانه... (أم ربما هذا أوانه بالفعل**!**)..

«**أنت تعرفين أني لطالما أعجبت بذكائكِ وفطنتكِ ونظرتكِ الشاملة للأمور، وبصراحةٍ، أنا أراك تسبقين سنكِ كثيراً برجاحة عقلكِ وثقتكِ بنفسك، التي صدقيني، هي في محلها تماماً.. فهي حقٌّ لفتاةٍ جميلةٍ رقيقةٍ وذكيةٍ مثلك.. ولكن أتعرفين ما الذي ينقصكِ؟.. الخبرة.. ومن هنا قد يتمكن، للأسف، أصحاب النوايا غير السليمة، من استغلال فتاةٍ بمثل مزاياكِ يا مي..**».. قالت بحدةٍ: «**أنا لم أُستغَل، وأرجو يا (أبيه) أن توضح كلامكَ أكثر، إن كنت تريدنا أن ننتهي مما جئت لأجله، بسرعةٍ.**»..

سحب نفساً عميقاً وأطلقه في صورة أفٍّ طويلةٍ، قبل أن يستدير بجسده نحوها ليقول وهو ينظر في عينيها مباشرةً: «**أولاً، أحب أن تصدقي بأني لا شأن لي بما حدث، وإن بدا لك هذا مستحيلاً نظراً لما مُلِئَت به رأسكِ من أكاذيبٍ.. وثانياً،..**»، وصمت للحظةٍ قبل أن يتابع مستاءً من اضطراره للتحدث مع الفتاة بهكذا أمرٍ مُخجلٍ: «**أنا أعلم يا مي.. أعلم ما كان بينك وبينه..**».. احمر وجه مي بشكلٍ عنيفٍ وقالت وهي تطرف بعينيها محاولةً منع دموع الخجل والحزن والأسف من الانهيار أمام عدوِّها: «**مَن؟ لا أعرف عمَّ تتحدث يا (أبيه)؟ لاحظ أن كلامك قد يسبب مصيبةً إن سمعه ماجدٌ أو.. أي أحد.**».. قال نادرٌ برفقٍ: «**بدون لفٍّ أو دورانٍ، وكي أختصر عليكِ وعلي كل هذا الحرج، فقد عرفت بعلاقتك بسامرٍ، لأنه هو من أخبرني بها.. سامرٌ بنفسه.**».. التفتت نحوه بحدةٍ قبل أن تطلق ضحكةً عاليةً وقالت بسخريةٍ وهي تقفز واقفةً بعصبيةٍ: «**لا تتضايق مني يا (أبيه)، ولكن هذه أسوأ كذبةٍ، وأكثرهم سذاجةً على الإطلاق، لتخرج من رجلٍ مثلك.. فلو أخبر سامرٌ العالم بأكمله عنا، فمن عاشر المستحيلات أن يخبرك أنت.. وأنتما..**»، وحين أغمض عيناه أدركت الهفوة التي أفلتت منها، فابتلعت ريقها وقالت موضحةً: «**أنا أقصد، على فرض أن ما تقوله صحيحٌ.**». تراجع نادرٌ ومدَّ ساقيه قائلاً بعد تنهيدةٍ قصيرةٍ: «**كما قلت سابقاً، فقد أخبرني سامر.. أراني، إن توخينا الدقة.**».. مد يده في جيب جاكيته الداخلي، وأخرج هاتف سامرٍ، الذي ميزته مي فوراً صائحةً: «**هذا موبايل سامر؟!!! لم أخذته؟**». مدت يدها لتلتقطه فأمسك نادر يدها برفقٍ ووقف بدوره قائلاً بلطفٍ بالغٍ: «**اسمعي يا مي، قبل أن تري ما على هذا الجهاز، لابد وأن تعرفي بأن لا أحد غيري رأى ما فيه.. وما أحضرته لك إلا لكي تمحي بنفسك كل ما عليه وتطمئني تماماً.**». ترك يدها والهاتف وعاد ليجلس ويراقبها وهي تسير ببطء نحو الفراش وتجلس على طرفه وهي تبحث بين الملفات عما يقصد، حتى سمع أصواتاً ميزها فوراً، فزم شفتيه وهو يسمع شهقتها ووقف وسار حتى فتح باب الشرفة، وخرج ليسمح لهواء الليل الرطب بأن يلفه باستسلامٍ..

لطالما أحبَّ حديقته في المساء، وقد ألزم الجنائني بعدم إشعال كافة الأضواء ليلاً، كي يسمح لسحر القمر بملامسة نباتاته ومنحها تلك اللمسة الخيالية التي دائماً ما أسرته. لم يتعجل الدخول ليمنح مي الوقت الذي تحتاجه، ولكن حين طال انتظاره واشتدت الرطوبة عليه، تراجع إلى الداخل، ليجد الغرفة فارغةً! انطلق نحو الباب ليبحث عن الفتاة قبل أن تقدم على فعل أخرقٍ، ولكن شهقات مي، التي قبعت على الأرض بجوار الفراش على الجهة الأخرى من الشرفةِ، نبهته، فخفَّ إليها وجلس إلى جوارها.. كانت تنظر إلى الشاشة السوداء مصعوقةً والشهقات والدموع تتسابق لتُحَدِّث بها يعتمل بصدرها من وجعٍ إثر نصل الاستغلال والخيانة الذي غرسه سامرٌ بدمٍ باردٍ في قلبها الصغير.. علا نواحها، وكلما حاول نادر تهدئتها كان صياحها يزداد ارتفاعاً: **«لقد استغلني.. و.. فضحني.. آآآآه ... قال بأنه يحبني.. أقسَم بأن نتزوج... لِمَ؟!!! لِمَ؟!!! لِمَ فعل بي هذا؟!! ماذا فعلتُ له؟ لقد أحببته.. آآآآه يا سامر.. أنا؟!!! آآآه... آآآآه... آآآآ.. آآآه يا مهرة!!! ماذا فعلت بكِ؟!!! آآآه يا أختي!!! أنا.. أنا.. أفسدت كل شيءٍ..»**.. رفع نادر ذقنها وقال بقوةٍ: **«لا، ليس أنتِ.. اسمعيني.. لن تعرف مهرة ع..»**، ولكنها رفعت صوتها صارخةً: **«بلى.. أنا من دمر كل شيءٍ.. أنا..»**، وغطت وجهها بكفيها متابعةً: **«أفسدت كل شيءٍ.. أنا..»**. ولكن نادراً أمسك بيديها وقال محدقاً بعينيها مُصراً على أن تبادله النظر وتستمع إليه بتركيزٍ: **«قلت لك بأنك ينقصك الخبرة، وسامرٌ رجلٌ، ليس بأذكى منكِ، بل على العكس، في سنكِ هذا أنت تفوقينه ذكاءً بكثير.. ولكنه يتمتع بميزةٍ ويفتقد أخرى ما جعله يتمكن منكِ.. لديه الخبرة.. ويفتقد الأخلاق.. انظري إلى الوضع! سامرٌ في مثل سني أنا و فؤاد! أنت تنادين كُلا منا ب(أبيه)! وأنتِ قاصرٌ، ستتمين الثامنة عشر بعد شهورٍ! أي رجلٍ هذا؟!! سامرٌ منحرف، ولطالما كان.. لن أتظاهرَ بالحزن لفقده، ربما آسَفُ للطريقة التي مات بها، ولكن لا أكثر، ولا يجب عليكِ أنتِ أن تضيعي لحظةً أخرى من حياتكِ في التفكير فيه، ولا فيما فعله بكِ..»**.. وصمتَ لحظةً قبل أن يقول بخفوتٍ: **«ولو كان قد تخطى معك الحدود فلا تق..»**، فقاطعته فوراً وهي تمد الهاتف نحوه: **«أقسم لك يا (أبيه) بأن ما حدث بيننا لم يتعد ما رأيته في هذا الفيديو**

أو غيره.. هاك.. تأكد إن كنتَ لا تصدقني.».. دفع نادرٌ يدها، التي تحمل الهاتف، بلطفٍ، آمراً برفقٍ: «امسحي كل شيءٍ.. الآن وحالاً.. وكما أخبرتك.. لا أحد في هذه الدنيا سيعلم شيئاً عن هذا الأمر سوانا.. مفهوم؟! لابد وأنكِ أدركتِ بعد كل ما حدث، أن كلمةً واحدةً كفيلةً بقلب حياة إنسانٍ رأساً على عقب.. أليس كذلك؟»... أمسكت الهاتف بكلتا يديها بقوةٍ ثم ارتمت على الأرض لتجلس على ركبتيها في مواجهته قائلةً وهي تتحاشى النظر بعينيها المتورمتين إلى عينيه بعدما استردت بعض تماسكها: «أنا من أخبرت سامراً بالأشياء التي سمعتها من مهرة بخصوص والدك، رحمه الله. و.. بكل شيءٍ آخر كانت مهرة تخبرنا به أو أستمع إليها وهي تقوله لكريمة...»، ولأنها لم تر النظرة الغاضبة التي طافت بعيني نادرٍ لانشغالها بفرك أصابعها والضغط على الموبايل حتى كادت تكسره تابعت: «لقد.. لقد أخبرني قصصاً عن والدك، و.. والدتك.. وعما حدث مع مدام شهيرة. جعلني أخاف منك وأقلق على مهرة.. أقنعني بأننا بما نعرف، سنحمي أنفسنا من بطشكم، وأنكما حين تقررا أذيتنا، سيكون معنا السلاح الذي ندافع به عن نفسنا.. قال بأنه يكرهك لأنك نسخةٌ من أبيك، لا تهتم إلا بالمادة، وبأنك ما أحضرتهم إلى هنا إلا ليكونوا تحت عينيك خوفاً من أذاهم.». رفع نادرٌ عينيه متعجباً من الفكرة، وكاد أن يسخر منها، لولا أن لاحظ أن الفتاة أمامه بدأت تمر بحالةِ انهيارٍ أخرى فقال برفقٍ وهو يميل ليربت على ركبتها: «لا بأس يا مي.. لا بأس.. لقد انتهى كل هذا الآن..».

رفعت رأسها متسائلةً بترددٍّ: «ولكن يا (أبيه)، أنت لم.. ليس لك علاقة.. بما حدث؟ صحيح؟! أقصد، أني لا أظن بأن هذه النهاية، يستحقها أي كان، مهما كانت أفعاله، أليس كذلك؟»..

«لا.». رد باقتضابٍ وهو يقف فارداً ظهره ومحركاً كتفيه كأنه يمسد تصلباً أصاب عضلاته.

مد يده ليتناول منها الهاتف، وقال وهو يلقيه في جيبه مجدداً، بعدما سلمته إياه بلا ترددٍ، ويساعدها على النهوض بدورها: «كما قلت، سيبقى كل هذا بيننا.. حتى ما أخبرتني به عما تحدثت به إلى سامر من تلك الأمور.. مفهوم يا مي؟». هزت

رأسها إيجاباً، ثم مسحت دموعها عن خديها المحمرتين قبل أن تسأله برفقٍ: **«ستكون الأمور بينك وبين مهرة بخيرٍ الآن، أليس كذلك يا (أبيه)؟ بعدما أخبرتك الحقيقة، صرت تدرك بأنها بريئة من كل ما حدث، فستعودان لبعضكما.. كما كنتما، أليس كذلك؟»**.. ابتسم وهو يفكر (كما كنا.. نعم.. كما كنا دائماً.. فنحن لم نكن معاً أبداً.)، ولكنه أجاب مبتسماً: **«كما قلت لكِ، و سأظل أكررها دائماً.. أنت فتاة ذكيةٌ، لذا ستتفهمين الوضع، وتستحقين أن تعرفيه على حقيقته قبل الجميع.. أنا ومهرة تطلقنا يا مي.»**، لم توقفه شهقتها وهي ترفع يديها لصدرها وتابع برفقٍ: **«أعتمد عليكِ لتكوني إلى جوارها الآن.. سأغادر لبضعةِ أيام، حتى يتاح لها ترتيب أمورها دون الشعور بوجودي يضغط عليها.»**. مد يده يمسح الدموع عن خدها بلطفٍ متابعاً: **«اهتمي بنفسك ودراستكِ يا مي، فمستقبلكِ واعدٌ.. أستطيع أن أرى هذا، صدقيني.. أنت من المميزين، ولو أخلصتِ لوصلتِ لأعلى مما حلمت يوماً.. وأنا سأكون دائماً أخاك الأكبر، في أي وقتٍ تظنين بأنكِ بحاجةٍ إلي، لا تترددي.. اتفقنا؟.»**.. علا نشيجها المكتوم وهي تراقبه يفتح باب الغرفة، فقالت بخفوتٍ: **«ألم يحبني؟ أفعلت كل هذا للا شيء؟!»**..هز رأسه مجيباً بتأملٍ: **«أحبكِ.. ولِمَ لن يفعل؟!.. أنت جميلةٌ صغيرةٌ ذكيةٌ و ممتلئة بالمشاعر الطاهرة.. ولكنه أحبك على طريقته.. الخطأ مِنَّا، حين نظن بأن الحب يغير البشر، في حين أنه لا يفعل سوى أن يعميهم فقط.. تصبحين على خير.»**..

غادر بهدوءٍ تاركاً مي غارقةً وسط النور الذي أغرق بصرها وبصيرتها للمرة الأولى في حياتها..

١٦

انتصف الشتاء وغرز أنيابه الزرقاء في أوصال كل حيٍّ وجامدٍ بلا شفقةٍ، وتحولت الألوان كلها إلى رمادي وبني، واحتجبت الشمس خلف السحاب القطني تدفئ نفسها بعيداً عن الرياح الباردة التي رفعت أصاغر الأوراق والطيور إلى أعالي السماء، ليس إلا لترميهم بعيداً، ثم تعود لتحملهم مجدداً، معيدةً الكرة بلا كللٍ ولا رحمةٍ.

لم تكن المزرعة هي المكان الأمثل لتمضية مثل هذا الشتاء القارس، ولكن آدم وكريمة لم يجدا بُدًّاً من الانتقال إليها بعدما قرر نادر البقاء هناك إثر محاولةِ فؤادٍ التخلص من حياته بابتلاع كميةٍ كبيرةٍ من الأدوية المهدئة. والآن، وبعدما سافر فؤادٌ ليمضي فترة نقاهةٍ وإعادة تأهيلٍ بأحد أكبر المصاح النفسيةِ بغربِ أمريكا، فلم يبقَ هنا إلا نادراً، وحيداً، وسطَ هذا الفضاء الشاسع ليجتر ذكرياته وآلامه، ويعيش موقناً لما ولمن فقد..

وقفت كريمة بجوار زوجها يطالعان نادراً بقلقٍ، من خلف الزجاج العريض لأحد شبابيك بيت المزرعة، حيث اعتاد أن يجلس بجوار سياج مضمار الخيل ليراقب بصمتٍ الفرس الصغيرة (مهرة)، التي أهداها لشهدٍ في آخر عيد ميلادٍ لها، والتي بدورها أسمتها تيمناً بالمرأة التي

أحبتها من كل قلبها، تركض خببا حيناً وتقفز مزهوةً بعنفوان شبابها حيناً آخر، والهواء يعبث بشعرها الكستنائي الطويل، كأجمل ما صور الخالق..
كان يجلس هناك، على المقعد الخشبي الطويل، مسنداً ظهره إلى الوراء، عاقداً ساعديه، لساعاتٍ وساعاتٍ، دون حراكٍ، ودون طعام أو شرابٍ، متجاهلاً كل محاولات كريمة وآدم بإغرائه أو تحفيزه لتناول ولو القليل مما يقيم الأود، مكتفيا بفنجان القهوة الذي يجلبه له آدم حين يطلب، ولقمة خبزٍ أو قطعة بسكويت صغيرةٍ، إذا ما أَنَّت معدته من قوة القهوة الحارقة، حتى بات نحيلاً بشكلٍ ملحوظٍ، يصعب على من يراه بعد غيابٍ طويلٍ أن يتعرفه.. لم يكن منهاراً ظاهرياً على الرغم من ذلك، وإنما كان حين يلتقي آدم أو كريمة أو أحد العمال، يتحدث ببساطةٍ وطبيعيةٍ شديدةٍ، حتى أنه عاد لمباشرة أعماله من مكتبه هنا في المنزل، بنفس الجدية واليقظة، ولكنه ما أن يبتعد عن عمله والناس، حتى يعود لقوقعته ويغوص بها لأعماق ذكرياته القابعة في قاع ذلك المحيط المظلم الذي ندعوه اللاوعي...

«**لابد وأن تتحدث إليه! سيمرض إن بقي خارجاً، فالجو باردٌ جداً اليوم!**».

«**لن يستمع لي يا كريمة. أتظنينني لم أحاول؟! ولكنك تعرفينه.. لا تقلقي، سيعود إلى طبيعته عندما يتمكن من التعامل ما كل جرى، بداخله.. امنحيه بعض الوقت فقط، فهو لا يحب التطفل عليه حين يكون بهذه الحال.**».

دفعته كريمة من طريقها قائلةً وهي تتوجه نحو الباب الخشبي العريض المفضي إلى شرفة واسعةٍ، ينتصفها صفين من الدرجات المؤدية للأرض المنبسطة للباحة المحيطة ببيت المزرعة، وهي تلف حولها الشال الأسود الضخم: «**قِف أنت مكانك، راقبهم يضيعون واحداً تلو الآخر.**». لم تأبه لندائه ولم يحاول هو إيقافها، فقد صار مؤخراً، شديد القلق على صحتها ومن نوبات الإرهاق المتكررة التي تعتريها، فاكتفى بالعودة للوقوف داخل البيت المظلم حيث كان، ليراقب عن بعد أحب شخصين إلى قلبه، دون أن يتمكن من سماع ما يدور بينهما، بينما بدا نادرٌ غير متضايقٍ من اقتحام كريمة لخلوته مع نفسه، على عكس ما توقع.

«**حصانٌ جميل، لولا الجو، والغيوم، لكان المنظر يستحق الجلوس.**».. جلست ببطءٍ بجوار نادرٍ الذي اعتدل مبتسماً دون تعليق، فتابعت بعدما استوت في جلستها وهي تتأوه من ألم ركبتها: «**لِمَ لا تدخل لنتناول معاً كوباً من الشاي؟ ستصاب بالإنفلونزا في هذا الجو، بهذه الثياب الخفيفة.**»، وأمسكت بطرف الجاكيت السماوي الصوفي الخفيف الذي فتح نادرٌ أزراره باستهتارٍ متابعةً: «**لديك ما هو أثقل من هذا الجاكيت! فلم لا ترتدي ثيابك الثقيلة من باب التغيير؟!**».. مطَّ نادرٌ شفتيه وفرك كفيه راداً بخفةٍ: «**لم أشعر بالبرد إلا عندما نبهتني.**»، وحين رفعت حاجبها بتعجبٍ واستنكارٍ، تابع ببساطة: «**صدقيني.. كما أني لا أشرب الشاي، فأرجو أن تخبري آدم بأن يعد لي فنجان قهوة حين تعودين إلى الداخل.**»، وعاد لجلسته الأولى، إلا أن كريمة قالت بحزم: «**لا، لا مزيد من القهوة.. النهار لم ينتصف بعد، وأنت شربت حتى الآن أربعة فناجين! أتريد أن تقتل نفسك؟!.**».. رد بسخريةٍ رافعاً حاجبيه وكأن الفكرة فاجأته: «**أنا؟! بالطبع لا؟!**»، وأشار حوله مكملاً: «**ولِمَ أترك هذه الحياة الجميلة؟!.**».. قطبت كريمة بشدةٍ محذرةً: «**لا تمزح معي بهذا الشأن يا نادر، أرجوك..**» . اعتذر منها مبتسماً وعاد يتأمل فرسه السعيد الذي بدا وكأنه يظن بأن هذه الأسوار التي تحيطه وجدت لتحميه وتحمي عالمه، لا لتسجنه. حذت كريمة حذوه وأخذت تطالع الفرس الصغير بابتسامةٍ صغيرةٍ. بقيا لدقائق صامتين قبل أن تقول كريمة دون مقدماتٍ: «**ما أخبار مهرة؟**». التفت إليها بحدة متسائلاً باستغرابٍ: «**وما أدراني؟ لِمَ تسألين؟**». التفتت إليه وقالت بابتسامةٍ آسفةٍ: «**وأنا من كنت أظنك العاقل في هذا البيت يا نادر! ظننتك ستردها بعد أن تهدأ، قبل أن .....تنتهي عدتها.**». عقد ساعديه وعاد يمد ساقيه قائلاً بشفتين ملتويتين: «**نعم.. ربما ظننت هذا أنا أيضاً.. ولكن.. ما حدث قد حدث، صفحةٌ وطُويت، فدعينا لا نُقلِّب فيما فات يا كريمة، وعودي إلى الداخل حتى لا تتأثر ركبتك بالبرد.**». ولكن كريمة حين خرجت تاركة دفء البيت وراءها، لم تكن تنتوِي أن تجعل هبات البرد تؤثر في عزمها على انتزاع ابنها الوحيد الباقي من براثن الوحدة والكآبة، ليعود معها إلى حيث الأمان والراحة، فقالت بإصرارٍ: «**لقد مرت المسكينة بما مررنا به، وأكثر.. لم تحظ أبداً**

بفرصةٍ أو حياةٍ سهلةٍ، ولقد لُمتها بنفسي مثل الجميع على ما حدث.. ولكن، يا بني، بعد مرور القليل من الوقت، تتضح الأمور، ولم يعد في العمر بقيةٌ كي أضيعها في التمسك برأيي للمكابرة، ولا لكتم كلمة حقٍ، ونحن نرجو وجه كريم.. مهرة أحبتك يا بني.. صدقني.. أكثر مما كانت هي نفسها تعلم، وإنما هذه الدنيا الجديدة عليها جعلتها لا تدرك ذلك.. لا تنس كم هي بسيطةٌ وحياتها كانت متمحورةً حول دراسة أخويها ومأكلهما.. والواقع أن الفتاة لم ترتكب جرماً بالحديث إلي.. ولكن منه لله النمام الذي تسبب بكل هذا..».

استمع لها نادرٌ بجمودٍ وقد ماتت التعابير على وجهه، حتى ما أن أتمت خطبتها العصماء، وقف واضعاً يديه في جيبيه معلقاً باقتضاب: «**ليت الأمور بهذه البساطة.. ولكن كما أخبرتك.. ما حدث قد حدث.. وأرجو ألّا تعاودي الكلام بهذا الموضوعِ ثانيةً.**»، وسار نحو السياج الأبيض مستندا إليه بكوعيه ليوليها ظهره معلناً نهاية هذا النقاش. حارت كريمة فيما عليها أن تفعل، أتترك الأمور عند هذا الحد مؤقتاً وتكتفي بأنه سمح لها هذه المرة بأن تكمل حديثها عن مهرة، أم تستغل فرصة أنه فتح لها باباً لطالما كان مغلقاً، وربما لن يُفتح مجدداً، لتقول كل ما أتت لقوله علها تصل هذه المرة إلى نهايةٍ سعيدةٍ؟!.. حسمت أمرها، فوقفت ببطءٍ متأوهةً وسارت بحذرٍ، خوفا من اندلاع آلام ركبتها، حتى وقفت بجانبه، ولكنها بدلا من النظر مثله إلى الحصان، استدارت نحوه وقد ضمت الشال على صدرها بذراعيها المعقودتين قائلةً بخفوتٍ: «**أنت لا تصدقني حين أقول بأن مهرة تحبك، أليس كذلك؟ ولكن لو صدقتني.. لو منحت نفسك الفرصة لترى الأمور من وجهة نظري..**»، قاطعها رافعاً حاجبه: «**ولكن هذا ما يجعلني مختلفاً عن الجميع.. ما أنا عليه.. ما أراه، ولا يراه غيري.. وجهة نظري..**»، ثم استدار ليواجهها بالكامل قائلاً بغضبٍ ودموعٍ طفرت في صوته ولكنها لم تصل عينيه: «**نعم، أصدقكِ يا كريمة.. أصدقُ أن مهرةً تحبني.. تماماً كما كنت أصدقكِ كل ليلةٍ وأنا في فراشي الصغير تضمدين جروحي وحروقي جراء تربية أمي لي، حالفةً بالله بأنها تحبني.. أتذكرين ذلك؟! أتذكرين كيف كان حب أمي يا كريمة.. ذاك الحب المحترق بالشمع المنصهر. أتذكرين الحب الذي كان ينهمر**

على وجهي وظهري حين كنت طفلاً، أعترض على أمرٍ تافهٍ كزيارةٍ لأحد أقاربها؟ أتذكرين كم كانت تحبني بحيث مزقت وكسَّرت، في نوبات غضبها، كل شيء أهديته أو رسمته لها بأعوامي الأربعة.. ؟ أتذكرين؟!! كنت تحتضنيني ليلاً ونحن نسمعهما يتشاجران بسببي وأنت تخبرينني بأنها تحبني أكثر من أي مخلوقٍ آخر في الدنيا؟.. أوتعلمين شيئاً؟ كنت أصدقكِ..! تماماً كما صدقت فؤاداً وهو يخبرني الشهر الماضي بأنه يحبني كما أحبني دائماً، ولكنه لم يدر لم كان يشعر بالسعادة ووالدي يعاقبني بدلاً منه.. نعم، أصدق بأنهم جميعاً أحبوني، و لكن لا تلوميني إن اكتفيت من هذا الحب الآن.. وإن كنتِ لا ترغبين في أن أترك لكم البلاد بأكملها، فلا تتحدثي معي عن تلك المخلوقة، ولا عن ذاك الهراء.. أبداً.. أبداً.. مفهوم!!»...

استدار ليفتح السياج للمهر الصغير الذي سابق الرياح منطلقاً يجري دون توقفٍ، متحرراً من سياجه ليجول محتفلاً.... داخل أسوار المزرعة الواسعة..

بينما عادت كريمة إلى الفيلا وقلبها يغص بالذكريات الحارة كالجمر، والتي قلبها نادرٌ بسيخ حديديٍّ حادٍ، حتى جددَّ الوشم القديم الذي تركته منذ زمن على جدران قلبها العجوز..



أوقف نادرٌ سيارته المرسيدس البيضاء الحديثة الطراز، بموازاة أحد أبراج مدينة نصر، بعد عناءٍ طويلٍ للبحث عن مَوقفٍ، وأنَّب نفسه كثيراً على اختياره لمثل هذا التوقيت بالنهار ليقوم بزيارته، فالساعة الثانية ظهراً، من أكثر الساعات ازدحاماً على الإطلاق في العاصمة المكتظة بالنسمات ليل نهار.. ولكنه كان قد أجل هذه الخطوة طويلاً، وما انتبه إلا وقد مرت ثلاث سنواتٍ عجافٍ! نزل بحلته الرمادية الأنيقة، ووقف يحدق من وراء نظارته السوداء في البناية العالية المنتصبة على أحد النواصي المميزة بهذا الحي. كانت المحال التي تحتل الطابق الأرضي بأكمله تعج بالزبائن والضجيج. خلع نادرٌ نظارته وألقاها في جيب سترته بإهمالٍ وهو يدلف إلى المدخل المرمري الضيق، وقد أجفل حين ظهر

من العدمِ رجلٌ متين البنيان يرتدي جلبابا صعيدياً أبيضَ ليقول بأدبٍ وتأنٍ: «**الباشا، مَن يريد؟**».. أشار نادرٌ إلى الأعلى مجيباً بتساؤلٍ: «**الدور الحادي عشر، السيدة مهرة الخولي.**».. سأله البواب مجدداً: «**ومن تكون سعادتك؟**».. قال نادرٌ بحزمٍ دون أن يطرف له جفنٌ وهو يدنو من المصاعد الثلاثة ضاغطاً على أحد أزرارها: «**قريب.**»..

فُتح باب المصعد بعد دقائق من الانتظار فدلف نادرٌ بهدوءٍ وضغط الزر بلطفٍ، قبل أن يعيد الكرة مرتين حتى أضاء الزر الذي يحمل الرقم أحد عشر، ولكن قبل أن يغلق المصعد بابه، مد رأسه من الباب منادياً البواب بِلينٍ: «**تعال يا عم.**»، ومد يده للرجل بمبلغٍ من المال، جعله ينحني قليلاً وهو يشكره بامتنانٍ، ثم تقدم ليغلق الباب عوضاً عن السيد المهذب.. تعلقت عينا نادرٌ بسلسلة الأضواء المتعاقبة الإنارة والخبو، وقلبه يدق بقوةٍ حتى كادت دقاته تصم أذنيه.. لم يكن نادماً على إنصاته لآدم واستجابته لإلحاحه بزيارة مهرة، والتحدث إليها، ولكنه كان يشعر كالتلميذ الذي ينتظر الناظر ليقدم له اعتذاره، فلا كلماتٍ ستسعفه ولا يتوقع تعاطفاً، كما لا يمكنه أن يتنبأ بالغفران.. مع دقة الوصول، انتفض قلبه، فعض على أضراسه وأفرغ توتره في خطواته السريعة نحو الباب الذي يطابق العنوان الصغير المخطوط على القصاصة الصغيرة التي سكنت جيبه وقد حفظ محتواها عن ظهر قلبٍ وراجعه على مدار الأيام والليالي الستِّ الماضية..

على الباب الخشبي المحمر، توقع أن يجد علامةً ما تدل على وجود المرأة التي طوى السنوات الماضية محاولاً دفنها في طياتها، ليجدها كلما مر الوقت وكَثر الناس، ازدادت ذكراها وهجاً، بدلاً من أن تخبو وتنطفئ.. انتظر بعدما رن الجرس بضغطةٍ سريعةٍ مدة ليست بالقليلة، فاستدار مغادراً.(بالطبع، ستكون في عملها والولدين بالجامعة.)..

إلا أن حظه بدا أفضل مما توقع، فبينما وقف ينتظر المصعد مطأطئ الرأس، دافنا قبضتيه في جيبي سرواله وهو يطارد بطرف حذائه رسماً وهمياً على الأرضية الرمادية، فُتح الباب عن آخره وأتبع ذلك شهقةً عاليةً: «(أبيه؟!!!).». وقبل أن يستوعب المفاجأة، وربما قبل أن تستوعبها مي بنفسها، وجدت نفسها إلى جانبه تشده من مرفقه نحو الشقة: «**تعال، تعال.. أنا غير مصدقةٍ لما أرى!!.**».. أخرج كفه من جيبه ورفع ذراعه لتتأبطه مجيباً بابتهاجٍ وهو يربت بيده الأخرى على كفها التي ارتاحت على ذراعه: «**مي!! كم كبرتِ!! يسعدني أنك موجودةٌ، فقد اشتقت لكِ.!.**». غمزته وهي تدفعه إلى الداخل لتغلق الباب بقوةٍ: «**اشتقت لي أنا؟!.**»، وضحكت بسعادةٍ بالغةٍ وهي تتابع: «**انتظر هنا بالصالون، وسأعلم مهرة بوجودك.. ياه!! أحمدُ الله بأنني لم اذهب للكلية اليوم، وإلا لما قابلتك!! سبحان مسبِّب الأسباب!!**».. تركته ضاحكاً مستبشراً وسط غرفة صالونٍ واسعةٍ أنيقةٍ، واختفت في الطرقة المواجهة التي غرقت في ظلام بدا مُتعَمَّدَاً في مثل هذا الوقت من النهار.. دار حول الغرفة يتأمل أثاثها الأنيقَ البسيط بألوانه المتماوجة بين الزيتوني والبيج القاتم المحاط بخشب ذهبيٍ محفور.. على الطاولات الذهبية، وضعت مزهرياتٌ حملت وروداً اصطناعيةً صفراء، من نوع التيوليب الذي أحبته مهرة، وعلى الحائط في منتصف الغرفة، علقت صورةٌ كبيرةٌ بالأبيض والأسود لرجلٍ ليس عجوزاً جداً، استنتج بأنه والد مهرة المتوفي..

«**ماذا تحب أن تشرب يا (أبيه)؟.**». استدار بسرعةٍ ليجيب غامزاً: «**ماذا تظنين؟**». قفزت مجيبةً: «**قهوة.. دقيقةٌ وتكون أمامك.**». قاطعها برفقٍ: «**لا تتعبي نفسك، تعالي واجلسي لنتحدث!.**». ولكن نهاية عبارته سقطت على الأرض حين لم تجد أذناً مصغيةً، إذ كانت مي قد اختفت مجدداً.. (تُرى ماذا كان رد فعل مهرة حين عرفت بوجودي هنا، في شقتها؟ هل ثارت على مي، كعادتها حين يضعها أي من أخويها في موقفٍ حرجٍ؟).. حين طالت دقائق انتظاره، فكر مكفهراً (بالتأكيد رفضت الخروج للقائي وأخبرت مي بأن تتصرف هي معي!!!).. وقف حين اقتنع بمنطقية فرضيته الأخيرة، فخروجه بهدوءٍ سيكون أقل حرجاً له وللفتاة الشابة.. التقف سلسلة مفاتيحه، وهاتفه المحمول عن الطاولة.

«**قهوتك.**».. وقف متجمداً.. فعلى عتبة الباب، وقفت مهرة في ثوبٍ صيفيٍ كلاسيكيٍّ مقلمٍ بالعاجي والفيروزي، حاملةً صينية القهوة الصغيرة، وعلىٍ وجهها ارتسمت ابتسامةٌ متوترةٌ فوق ملامحها الناعسة، تحت غرة قصيرة وشعر معقود..

«**آسف إن أتيت بدون سابق اتفاقٍ، هل أيقظتكِ مي؟!**».. (نعم، أخبرها كم تبدو تعبةً متورمةً الملامح في لقائكما الأول بعد فراقِ ثلاثِ سنوات.. ستساعدك هذه الافتتاحية.). وضعت الصينية بلطفٍ على الطاولة وأشارت له ليجلس..

كان شعره أقصر قليلاً مما اعتاد، ووجهه أكثر نحولاً، كما بدت الشعيرات الفضية التي كانت تخط فوديه، أكثر وضوحاً. فيما عدا ذلك، بدا نادٌر كما هو، بنظرته الواثقة وهيئته المكتملة وحضوره المهيمن.. اغتصبت ابتسامةً بما بقي لها من قواها الخائرةِ إثر سهرة ليلة أمسٍ وقالت بأدبٍ وهي تناوله فنجانه بعدما جلس في منتصف الأريكة: «**تفضل.**»..

«**شكراً.**».. وضع الفنجان جانباً بعدما تناوله منها وقد غادرته شهيته لها. أن يخونك شخص ما، أمر تستطيع التعامل معه، مهما بدا مؤلماً.. ولكن ماذا يفعل المرء حين يخونه عقله وقلبه وجسده! حين يقفون صفاً واحداً مع قاتلك! حين لا يكتب دمك إلا اسمها ولا يتنسم جلدك إلا عطرها!! كيف هو الحال حينها؟! كيف عليك أن تتصرف وبمن عليك أن تستعين؟! ليس أمامك إلا الاستسلام والتسليم بأنك مِلكٌ حصري لتلك المرأة، وتقبع ساكناً منتظراً أوامر قلبك المسحور.. لقد ذكر نفسه مائة مرة بالإهانات التي قذفها بوجهها وبالطريقة المهينة التي أنهى بها زواجهما، عله يقتل الأمل الخبيء في صدره ويقنع عقله ألا فرصة لديه معها، ولكن ما أثمرت محاولاته شيئاً إلا إضاعةُ أيامٍ غاليةٍ..

حين وجدته غير متعجلٍ للبدء بالحديث، بادرته: «**كيف عرفت العنوان؟ كريمة، أليس كذلك؟ فآدم لا يفعلها.**»... كان يحدق بها بدهشةٍ وقال بعد لحظاتٍ: «**آدم وكريمة يعرفان هذا العنوان؟! ماذا، هل هما على اتصالٍ بكم؟!.**»، وضرب كفاً

بكفٍّ مكملاً: **«والرجل جعلني أستخدم معارفي لأجد أين تقطنون!!. لذا لم تسألني مي عن أخبارهما، ولا عن فؤاد!... مذ متى وهما متواصلان معكما؟.»**. عضت شفتها السفلى للخطأ الساذج الذي بسببه ربما أوقعت أكثر شخصين سانداها في حياتها، في مشكلةٍ كبيرةٍ وقطبت مدافعةً: **«لا ذنب لهما إن لم يحدثاك بأخبارنا، فقد أقسمت عليهما ألا يفعلا، وهددتهما بأن أختفي أنا و.. الأولاد إن تلاعبا بي...»**.. كادت أن تفلت منه ضحكةً صغيرةً، فبعض الطباع لا تتغير أبداً، وطبيعة مهرة الدفاعية، قفزت في وجهه كالزنبرك بمجرد أن استشعرت خطراً على شخص تحبه، ولكنه ابتلع ضحكته مع ريقه وقال ملطفاً الجو: **«لست غاضباً منهما، وليس هناك من ذنبٍ كي يتحمله أحد.. أنا فقط أتعجب من..»**، ثم ابتسم قائلاً برقةٍ: **«لا بأس.. ولكن حقاً أود أن أعرف مذ متى وهما يعرفان عنوانكما الجديد.»**.. ابتسمت بدورها وقالت وهي تداعب طرف الصينية بأصابعها: **«آدم هو من ساعدني في بيع الشقة التي أعطيتني إياها، وهو من عثر لي على هذا البديل.»**.. ضحك، فضكحت بدورها... وذاب أول جدارٍ جليديٍّ، ما شجع نادراً على الميل قليلاً إلى الأمام ويقول: **«مهرة، لن أستخدم مقدماتٍ طويلةٍ تستغرق من وقتنا أكثر مما ضيعنا بالفعل.. لن أتراجع عما فعلت وأتخفى كالصغار خلف الأعذار، مهما كانت هذه الأعذار مباحةً، أو بدت مقبولةً.. أنا هنا لأسمعك.. لتخرجي كل ما لديك، تماماً كما سمحت لنفسي بأن أفعل معك.. على الأقل لنقف على أرضٍ متساويةٍ، ونحاول أن نبدأ شيئاً جديداً..»**.

اضيقت عيناها وهي تسأله بخفوتٍ: «ونهلة؟!.».. ضحك مجدداً وقال ليغيظها قليلاً: **«إذا لَم يخبرك العجوزان بكل شيءٍ؟! جميل..»**.. ابتلعت ريقها وأسكتت فرحةً همست في أذنها بأنه لم يعد ملك تلك المرأة الزجاجية، وانتظرت بترقبٍ توضيحه: **«لم أكذب عليكِ حين قلت بأني طلقتها.. ولكن ما كذبت بشأنه هو متى.. فقد طلقتها قبل أن أعرفكِ بسنواتٍ. وقد نقلت لتتولى إدارة إحدى الشركات بأوروبا الآن»**، وحين فتحت فمها لتعترض، رفع يده لتسمح له بأن يكمل، فأطبقت شفتيها مجدداً واستمعت له وهو يخبرها بجديةٍ وخفوتٍ عن كل تفاصيل القضية وكيف اضطرت نهلة

لفعل ما فعلت لتخرجه وكيف استخدام علاقاته ومعارفه لإغلاق القضية كما يجب، وليس كما توجهها الأوراق...

صعقت وهي تستمع للتفاصيل المريعة التي كشفتها الأحداث.. وحين ذكر اسم أميرة، انتابتها قشعريرةٌ قويةٌ بالكاد سيطرت عليها كي لا تبدو لنادرٍ.. سألته بخوفٍ: «**ولكنها كانت معنا بالسيارة، ومعنا بالمشفى؟!!.**»، وأرجعت رأسها للوراء متراجعةً عما قالت: «**دعك من كل هذا!! نحن.. أنتم أهلها!! يا نادر، من هاجمونا كانوا يهدفون للقتل وليس التهديد!! فكيف..؟**»..

«**شككت بها لحظة علمت بما حدث، ولكني لم أشأ أن أثير قلقها، فأميرة فيها كمّ من الخبث والحيلة، لا حد لهما.. وحين.. لنقل، تخلت عن حذرها معي، وكشفت عن وجهها بسفورٍ، تو..**». قاطعته متسائلةً: «**كيف؟ ماذا فعلت؟**»، وهزت رأسها ساخرةً: «**وطبعاً لن أسألك لِمَ لَمْ تخبرني حينها، فلست على مستوى أصحاب العقول الذرية.**».

«**أولاً، لا تقارني نفسك بها.. أبداً.. فشتان بينكما.. وثانياً، ليس مُهماً ما فعلت، ولكني حينها توقعت أن تهد المعبد على رؤوس الجميع.. فالخوف وعدم وجود ما تفقده، هما أسوأ محرك لأمثال أميرة.. هاااه.. المهم، لم أصل لشيءٍ في البداية، ولكننا توصلنا لعلاقة صديقتها بتاجر مخدراتٍ محليٍّ تشتري منه ما يلزمها ل.. تعلمين.. وقد سلطت أميرة على رقبتها سيف الفضيحة إن لم تساعدها فيما تنوي.. و الباقي متوقع.. ولكن ما لم نتوقعه، هو أن تحاول أميرة التخلص من صديقتها تلك بإغراقها في حمامها والتظاهر بأنه حادثٌ إثر التعاطي لتخفي آخر رابطٍ بينها وبين فعلتها، وهنا سارت الرياح بما لا تشتهيه سفن الأميرة. فلما تمكنت روضة من الفكاك منها وإفقادها وعيها، سارعت لأقرب قسم شرطةٍ، واعترفت بكل شيءٍ.. ومن هنا تولى المستشار شوكت القضية.**»..

كان ما تسمعه كثيراً على الاستيعاب دفعةً واحدةً.. نعم، تدرك بأن لأميرة شرٌّ مستطيرٌ، ولكن ليس لحد القتل!! فقد ظنت بأن أقصى ما قد تأتيه المرأة هو أن تدمر زواجها وتطردها من البيت.. لكن أن تقتل!! تقتل أخاها وزوجها وابنته، وخالها الذي رباها؟!!! لتلصق التهمة بقريبها!!! كل هذا لأجل المال!! وقطبت.. ألهذا الحد؟!!!

انتبهت حين لوح نادرٌ بيده أمام عينيها قائلاً برفقٍ: «**هاي.. لا، لا تشردي وتسترسلي في تخيل تلك الصور والتصورات القبيحة، فكل هذا انتهى الآن.. الأمر الوحيد الذي لا أعرفه، هو كيف و متى حصلت على سلاحي..**». سألته بسرعةٍ: «**ولكنها بالفعل كانت بالمشفى وقت.. وقت مقتل السيد حسَّاب، رحمه الله! فكيف.. هل استأجرت أحداً وأعطته سلاحك!.**». رد ببساطةٍ وكأنه يحكي قصةً لا جريمةً مروعةً حصدت أرواحاً: «**لا، فقد ذهبت بنفسها لتفاجئه بمعرفتها مسكنه الخاص الذي لا يعلم بأمره سواي، وهذا سبب أن أقفال البيت بدت سليمة لدى فحصها، فمن دخل، دخل من الباب بعدما فتحه له خالي من الداخل.. وحسب اعترافاتها، فقد أطلقت عليه النار فور دخولها وغادرت بعدما تأكدت من موته. ولم يستغرق الأمر برمته أكثر من عشر دقائق.. فقط عشر دقائق!**».

سألته وقد بدأ الكلام في هذا الموضوع يخنقها، ولكن فضولها كان أقوى من قدرتها على التغاضي: «**ولِمِ اعترفت من الأساس؟ فقد كان بإمكانها إنكار اعترافات صديقتها المدمنة.. والأرجح أن صديقتها ربما ابتدعت كل هذا رداً على شجارهما الذي ربما كان سببه مثلاً أن طلبت مالاً أو أمراً من أميرة، بينما رفضت الأخيرة؟! أليس كذلك؟**».. مد يده يدفع فنجان القهوة قليلا قائلا بأريحية: «**أحتاج لفنجان قهوةٍ (طازج) إن كنت سأخوض تحقيقاً بهذا الشأن مجدداً!.**». رفعت حاجبيها منتبهة لأنها ألهته عن قهوته ولم تقدم له شيئاً آخر! نادت مي التي ظهرت من خلف الباب مبتسمةً بظُرفٍ وتقدمت لترفع الصينية وتختفي في لحظةٍ، إذ لا تود أن يفوتها شيءٌ من باقي القصة. ولكن نادراً لم ينتظر عودتها، بل أجاب عن سؤال مهرة رافعا أحد حاجبيه: «**أوحى لها أحد محاميها بأن تتظاهر بالانهيار العصبي، وأنه سيستخدم تاريخ ... والدتي المرضي، فلربما أخبرت أنها عانت اكتئاباً حاداً و.. .**»، وتنفس بعمقٍ ليتابع: «**ما علينا، المهم أن أميرة كانت تحاول ادعاء عدم الاتزان النفسي والعقلي، ولكن شوكت قلب كل هذه الموازين.**»، وفرد كفيه متراجعاً في جلسته ليرفع ساقاً فوق الأخرى مكملاً بارتياح: «**وها هي تنتظر تنفيذ حكم الإعدام في أي لحظة، بينما ستشيخ صديقتها في ظلمات السجن قبل أن ترى النور مجدداً.**». كان يشعر بالارتياح كلما ذكر الأمر أو طاف بعقله، وظن أن

هذه النهاية هي ما ستريح بال مهرة كذلك، ولكنه تعجب حين سألته: «**ولكن، ألا يعقل بأن تكون أميرة مريضةً فعلاً؟! أقصد.. إن كل تصرفاتها تدل على خللٍ نفسيٍّ حادٍ، والمرضى النفسيون قد يؤذون أنفسهم أو غيرهم، أليس كذلك؟**».

اعتدل وفك ساقيه قائلاً بعصبيةٍ وهو يميل إلى الأمام: «**نعم، هي كذلك. ولكن بهذه الطريقة، سيكون العذر النفسي مؤهلاً لخروج كل مجرمٍ من محبسه! فكل مجرم مختل في النهاية.. ولكن أن نمنح قاتلة من الطراز الأول، هذا العذر السلس لتمضي بقية حياتها خارج أسوار السجن، والله وحده أعلم هل ستتمكن بعدها من الهروب من المصحة أم لا، لهو أمرٌ خارج إطار العقل والمنطق.. لا، فأميرة اقترفت ما لا يغتفر ولن أمنحها امتياز المرض النفسي لتتبختر أمام عيناي متباهية بتدمير كل ما ومن أحببت.. لا.. صدقيني، السراي الصفراء ليست العقاب الأخف، فلو أردت التلذذ بتعذيبها لأريتها العذاب ألواناً داخل أسوار ذلك المكان..**»، وتراجع مجدداً وتابع وهو يعدل جاكيته: «**ولكني رجلٌ أحترم القانون، وأحترم أحكامه.**». أرادت أن تبتلع لسانها وتصمت، فالأمر لم يعد يخصها لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ الآن، ولكنها لم تستطع إلا أن تستوضح: «**أيمكن أن تجعلها تموت وأنت تعلم بأنها مريضة؟!**». زفر بقوةٍ وظنته لن يرد، ولكنه كان قد آل على نفسه أن يتقبل اليوم كل ما ستلقيه بوجهه من توبيخ وأن يجيب على كل تساؤلٍ بكل صراحةٍ، عاقداً النية على الالتزام بهذين الأمرين، ليبدآ معاً صفحة جديدة، لذا قال ببطءٍ: «**لا.. لن أدعها تموت إن كنت أظنها مريضةً.. ولكنها ليست مريضةً.. وعليَّ تقبل واقع أنها شريرةٌ... قاتلةٌ، باعترافها ، لا باعترافي.. وبحكم قاضٍ، لا بحكمي، فهي تستحق الشنق.. والقاتل يقتل، فالنفس بالنفس، وهذا ليس كلامي أنا.. فلا تحولي القصاص لجُرم! وليس لأنها قريبتي، فسأرفض أن أتقبل هذا الواقع!.. لنغلق الموضوع عند هذا الحد، لأني ما جئت اليوم للتحدث بخصوصها..**»...

و مال نحوها هامساً: «**ولكن ما أود قوله، لا يجوز وأن تسمعه مي من خلف الباب.**». وغمز مشيراً نحو طرف حذاء الفتاة الذي برز من جانب حافة الحائط، فهزت مهرة رأسها مناديةً وهي تحاول أن تخفي الترقب والخجل اللذين خضبا

خديها بحمرةٍ خفيفةٍ دافئةٍ: «**القهوة يا مي.. لابد وأنها فارت وأنت واقفة هنا!**»..
خرجت مي من مخبئها دون خجلٍ وقالت وهي تهز كتفيها بلا مبالاةٍ: «**لم أضعها على النار بعد، فأظن أن (أبيه) سيتناول معنا الغداء.. أليس كذلك يا (أبيه)؟.**»، وقبل أن يرد أكملت: «**وإن أردت رأيي، فأنا أؤيدك في كل كلمةٍ قلتها..**». واستدارت مسرعة نحو المطبخ..

كان قلب مهرة يضرب بقوةٍ.. لقد انتظرت هذه اللحظة طويلاً، حتى يئست من حدوثها.. وواقع أن نادراً لديه العالم أجمع لينساها، واقعٌ مؤلمٌ بغيضٌ. هي تعرف بأن الرجال لا يهيمون عشقاً وشوقاً كالنساء، وبأن النهايات السعيدة لا يخطها إلا كاتبو الروايات ومؤلفو الأفلام، وإن حدثت على أرض الواقع، فهي لفتياتٍ لديهن من المقومات والفرص ما لم يكن، ولم يصبح يوماً لديها، ولذا فقد تعايشت مع واقعها الجديد- القديم، وانكفأت على حياتها ترتقها وتلملم خيوطها لتقف مجدداً على قدميها، وتعود لتقود أسرتها عبر شواطئ الحياة، تاركةً قلبها خلفها، على ذاك الشاطئ البعيد، أمانة لا تجرؤ على المطالبة بها... واليوم! ها هو! يجلس في بيتها! يحتسي قهوتها! ويضحك على مزاحها!!

سمعا قعقعةً في المطبخ فسألها نادرٌ عم تكون. «**إنها مي، تعد الغداء.**» ردت ماطةً شفتيها بسخريةٍ، فسألها مستغرباً: «**أتعرف كيف تطهو غداءً؟!**».. هزت رأسها نفياً، فضحكا وعقبت: «**هي فقط تعبر عن سعادتها برؤيتك.**»..

دوى صوت ارتطام عالٍ أخذ يرن ويتردد، ما جعل مهرة تقفز من كرسيها محمرة الوجه وهي تنادي بخفوتٍ: «**حرامٌ عليك يا مي!! الصوت! الصوت!!.**»، وقبل أن تتم عبارتها، ارتفع من الداخل ما يشبه صوت المواء المكتوم، تبعته جلبةٌ خفيفةٌ، ثم حركة على أول الممر، لم يتبين نادر كنهها حتى رأى مهرة تخف نحو الكائن الصغير الذي سار متعثراً وهو يفرك عينيه بنزقٍ ويئن ويزن بتقطعٍ..

انتفض نادرٌ واقفاً وهو يستوعب ما يرى.. صاحت مهرة بمي: «**أرأيتِ! أيقظتها بعدما غلبتني حتى نامت.. والله حرامٌ عليك، فأنا لم أرتحْ مذ**

ثلاثة أيام..».. وقفت مي بباب المطبخ مرتبكةً، ونادت مهرة بقلقٍ وهي تشير نحو نادرٍ، فانتبهت مهرة للمعركة الأخرى التي تنتظرها (وأنا من ظننت بسذاجتي بأن الدنيا ستلين لي جانبها أخيراً!) سخرت من نفسها وهي تحتضن الصغيرة ذات الشعر البني الأشعث القصير والعينين القاتمين اللذين ملأت الدموع مآقيهما الواسعة، وتقدمت نحو نادرٍ الذي، وعلى أقل وصفٍ، وقف مصعوقاً تماماً غير قادرٍ على الإتيان بأي حركةٍ، وهو يحدق بوجه مهرة بجمودٍ، حتى وقفت أمامه تماماً قائلةً بخفوتٍ وخدُّ الطفلة المحمر يلتصق بخدها البارد الشاحب: «**ابنتي.. شهد.**». لم يتحرك نادرٌ ولم يقل شيئاً، ولم يحول عينيه إلى الطفلة التي كانت تتململ وتتملص من يد أمها، وإنما بقي يحدق في مهرة كالتمثال. همست بتوترٍ: «**كنت سأخبرك.. فقط، انتظرت الوقت المناسب.**»، وحين لم يغير كلامها من موقفه شيئاً، قالت برجاءٍ: «**قل شيئاً!**».. بالكاد انفرجت شفتاه اللتان ابيضتا تماماً، لتخرج منهما السؤال الوحيد الذي تمكن من جمع حروفه: «**أتزوجتِ طارقاً؟**».

صاحت مي وهي تحمل الطفلة عن ذراع أختها: «**أي زواجٍ يا (أبيه)؟! انظر إلى شهد! أليست نسخة من (أبيه) فؤاد؟! بالذات عينيها!! ماجدٌ يقول بأنها أشبه به من.. شهد الكبيرة.... بالمناسبة، ماجدٌ على وصولٍ، فقد طلبته لحظة أدخلتك يا (أبيه) وكان سعيداً بشكلٍ لا يوصف.. أتعلم يا (أبيه) لق..**»..

«**خذي البنت وادخلي يا مي.. دعينا وحدنا قليلاً.**»

«**شهد.. البنت.. ابنتك، اسمها شهد.**».. قالتها مهرة باعتدادٍ وقد أثارها وجرحها أن نادراً لم ينظر نحو الفتاة ولو للمحة، وكأنها غير موجودةٍ، أو لا قيمة لها، بل وهمت تأخذ الطفلة من أختها مجدداً ولكن مي ابتعدت بضع خطواتٍ وهي تقول لمهرة برجاءٍ: «**تحدثوا يا مهرة، وشهد معي، لن تطير!.**».

نظرت مهرة لنادرٍ ثانيةً لتجد اللون قد عاد لوجهه، بل وربما أكثر من اللازم، فقد انتفض عرق عريض في جبهته بينما احمرت عيناه بشكل مخيف.. كانت تدرك حجم الصدمة، ولم تتخيل بأنه قد يتلق الخبر بأي شكل جيد، إلا

أنها أملت أن تكون مستعدةً للموقف حين يحدث، لا أن تؤخذ بالمفاجأة تماماً مثله!. قالت باستسلام: «**من حقك أن تقول ما تشاء، وأنا أتفهم تماماً كيف تشعر حيال هذا الأمر.. صدقّني.. أنا لم أقصد ما تفهمه، وإنما أردت المصلحة العامة.. فأرجوك يا نادر، لا تقف ساكتاً هكذا، ولا تتصرف كما تمليه عليك سلطتك فتؤذي ابنتنا نكايةً بي.**».. رد بصوت منخفضٍ نسبياً: «**إن كنت لا أقول شيئاً الآن، فلأني، من بين كل الأوصاف والألقاب التي أعرفها، لا أجد الكلمة المناسبة لوصف مخلوقةٍ مثلك!!**»، أخذ صوته يرتفع شيئاً فشيئاً مع تسارع كلماته التي تسابقت لتجلدها: «**أنا جالسٌ هنا أنوح وأبوح وأصفي الأجواء، وأنت تجلسين أمامي بكل برودٍ بابتسامتكِ الكاذبة، وتخفين أن لي ابنةً، وتنام على بعد خطوة مني؟!!.**».. أزعج صياحه الصغيرة فهزتها مي وهمت بالدخول لولا أن أوقفتها مهرة قائلةً بحنقٍ: «**لا، أبقها هنا يا مي.. دعيها تقابل والدها و تتعرف على الحياة الأسرية التي تفتقدها..**». ترجتها مي: «**يا مهرة.**»، ولكن نادراً الذي رفع عينيه إلى السماء قاطعها هادراً وهو يوبخ مهرة بعنفٍ: «**أنتِ باااااردةٌ.. حقا!! ستبدئن من فوركِ بلومي؟!! على ماذا!!! ماذا تظنيني سأفعل حين أكتشف بأن لي ابنةً أخفيتِها عني؟!! حين أجد ابنتي تعيش بجحرٍ بينما أملك أنا كل ما أملك؟!! أتظنين..**»، ولكن الكيل كان قد طفح مع مهرة، ولم تعد تحتمل تنمر هؤلاء الأغنياء على حياتها ومستواها، فردت بحدةٍ: «**هذا الذي تسميه جحراً، هو بيتي، ولن أسمح لك ولا لأي كان بإهانتي و أسرتي ، وخاصة في... جحرنا ... ولتعلم أن هذا (الجحر) ليس به قتلةٌ ولا مر..**»..

«**مهرة!!**» صيحة مي ،وإفلاتها للصغيرة عمداً كي تسقط أرضاً وتنفجر بالبكاء أوقفا مهرة عن إتمام تلميحها الجارح، وجعلها تصيح بميٍّ وهي تجلس بجوار صغيرتها وتتفحصها تحت نظرات نادرٍ المهتمة وقد تراجع بعدما، وكرَدِّ فعلٍ تلقائيٍّ، مال إلى الأمام ليلتقف الطفلة قبلَ أن ترتطم بقوةٍ بالأرض، وعلى الرغم من عدم نجاحه، إلا أن يده خففت قليلاً من ارتطام الصغيرة بالأرضية الصلبة: «**ماذا فعلتِ يا مي؟! أجننتِ؟!! لم فعلتِ هذا!!**»، وعادت تحدث شهدٍ بلطفٍ بالغٍ: «**لا، لا تبكي يا حبي.. مامي هنا.. مي سيئة، لن نلعب معها ثانيةً..**»..

أخذت وقتها تماماً حتى هدأت طفلتها فالتفتت لمي لتجدها تتنفس بسرعةٍ وكأنها كانت في سباقٍ مع القنبلة الكلامية التي كادت تنفجر لولا أوقفتها بفعلها الأخرق، ثم نظرت إلى نادرٍ، فلاحظت عضلة فكه لازالت تختلج بقوةٍ، وعرفت أنه يقاوم قول شيءٍ يُلح عليه بقوة.. قال بعد أن وقفت وابنتها فوق ذراعها: «**أهي بخير؟**». هزت رأسها إيجاباً، فقال بحزم: «**سآخذ الطفلة يا مهرة.. أنت تعرفين أني سأفعل. لا يمكن أن أدع ابنتي تعيش بعيدةً عني..**». غصت بالكلمات للحظاتٍ ولكنها ردت برفقٍ: «**ولهذا تحديداً لم أخبرك في حينها.**»، فقاطعها صائحاً: «**في حينها؟!**»، ثم خفض صوته حين لاحظ انزعاج الصغيرة: «**أنتِ لم تخبريني حتى الآن!!! ولولا ما حدث، لما عرفت، ولخرجت من هنا وأنا لازلت جاهلاً لوجودها!!!.**»، وقطب مستدركاً: «**آدم وكريمة؟!!.**»..فوراً رددت الصغيرة: «**آبم.. كيينا.**».

تأوهت مي بضيقٍ، في حين أمالت مهرة رأسها جانباً للحظة، ثم قالت بصراحةٍ: «**لا تلمهما، فهما يوقنان بأني كنت سأختفي بها ما بين ليلةٍ وضحاها، إن علمت عنها شيئاً، ولكنهما عوضاً عن ذلك لم يتركاني أو يتركاها للحظةٍ، فكريمة تعتني بها مذ ولدت، وتبقى معها حين أذهب إلى عملي.. وآدم...آدم أصر على.. تعرف.. ترك شيءٍ كمصروفٍ شهريٍّ للفتاة، وغضب بشدةٍ حين رفضت، قائلاً بأنه كجدها، وبأن كله من خير والدها، فلم أجد سبباً لأضايقه.. صرت آخذ منه الظرف المغلق كل شهرٍ، وأضعه في الخزانة بالداخل.. لو شئت لأحضرتهم جميعاً لك الآن.**»... كان يهز رأسه ويديه في وسطه وهي تتحدث وقال فوراً: «**هذا غير طبيعي.. غير طبيعيٍّ بالمرة.. كل هذا لا معنى له.**»، وفض كفيه صائحاً بجنونٍ: «**لي ابنة، أنا الوحيد الذي لا يعلم عنها شيئا؟!! هذا جنون..**».، ثم سأل عن كريمة بتحفزٍ، فأخبرته مي بأنها لم تأت اليوم لأن شهد الصغيرة متوعكةٌ قليلاً، ومهرة تفضل أن تبقى هي معها وتعتذر عن عملها.. «**لهذا ملأت بيتي بالفلبينيات! وأنا صدقتها حين قالت بأن صحتها لم تعد تسعفها في العناية بالبيت.. لم أقدر دماغ هذه العجوز جيداً..**»، وعدد على أصابعه: «**إذا، ابنتي.. وآدم وكريمة.. هل هناك أحدٌ آخر تودين أن أضمه إلى أسطولك من مجموعتي يا سيدة مهرة؟!**». قالت مهرة

بضعفٍ: «**أخبرتك بأني كنت خائفة منك في ذاك الوقت، ولا زلت..**». قال بعنفٍ وكلماته تتطاير كالحمم: «**وماذا فعلت لك لتشعري تجاهي بكل هذا الخوف؟ ها؟ لم لا تنفكين ترددين هذه الكلمة السمجة كلما تشاجرنا؟ بم قصرت أنا؟! أنا لم أدخر جهداً لأشعرك بالراحة والأمان، وأنت لا تنفكين تتأوهين من الخوف!!! فلِمَ أدفع أنا ثمن هذا الخوف؟ ها؟ ما ذنبي؟!**».. جلست على الكرسي والصغيرة تتملص منها، حتى نجحت أخيراً، وتعثرت بخطاها حتى وصلت إلى سلسلة مفاتيح نادرٍ الملقاة على الطاولة، فالتقطتها وجلست بقوةٍ على الأرض تلوكها وتعضها.

«**ألا ترى يا نادر؟! انظر لنفسك! انظر كيف تشير هنا وهناك بإصبعك! بالطبع كنت ستأخذ مني شهداً بغض النظر عن كل قوانين الحضانة وكل شيء. هكذا بكل بساطة.. ولم أستطع أن أسمح لكل هذا بأن يحدث، ولأني لا قبل لي بمواجهتك، فاختبأت.. أتلومني على رغبتي في الاحتفاظ بابنتي؟ ألا تعرف كم أحتاجها؟!.**». قال بصوتٍ عال، وإنما ليس بالقوة السابقة: «**وأنا لا أحتاجها؟ ليس لي حقٌّ بها وبالشعور بوجودها؟**».. ردت بمرارةٍ: «**أنت رجل.. غداً تتزوج وتنجب وتصير لك أسرةً كاملةً، وستشعر مع الوقت بأن شهداً، ابنة مهرة، عبئاً على أسرتك الجديدة. وقد ظننتُ أن ما جهلتَه ، لن يضرك**».. « **وأنتِ لا يمكنك أن تفعلي نفس الشيء؟ أليس كذلك، يا قديسة مهرة!؟ ثم عن أي عبءٍ تتحدثين؟ لقد احتويت أغراباً في بيتي، فكيف أفكر في ابنتي كعبء؟ أنتِ تهذين بالمناسبة، هذا هذيان يا عزيزتي.. طيب. لِمَ لَمَ تفكري بأني قد أردك كي تعيش ابنتنا بيننا؟! لِمَ لَمَ يصور لك خيالك الخصب، مثل هذا السيناريو (العجيب)؟!**».. قاطعت سخريته قائلةً بحدةٍ: «**انظر إلينا يا نادر.. هل هذه هي الحياة الأسرية التي تتمنى أن تنشأ بها ابنتنا؟!.**».

فُتح الباب ودخل ماجدٌ مبتهجا، ولكن ملامح مي البائسة ووجه مهرة الشاحب، ومن فوق رأسها يقف نادرٌ واضعاً يديه في جيبيه دون أن يُبد بادرة ترحيبٍ أو نيةٍ لمصافحة الشاب، جعله كل هذا يغلق الباب ببطءٍ، قبل أن يلمح الصغيرة التي وقفت وسارت نحوه بخطواتها المتعثرة ومفاتيح والدها لا تزال في يدها، فاستقبلها مقبلاً: «**حبيبة ماجد.. ما**

هـذا؟..(كييـز)...»، ثـم حملها بـين ذراعيه وتحـدث إلى الجمـع المتوتر، وخصَّ نـادراً: «**السـلام عليكـم.. كيـف حالك يا(أبيـه)؟.**».

تجاهل نادر سلامه وسؤاله، وسأله مباشرة: «**أيجوز ما فعلتم يا ماجد؟ أنت كرجلٍ، أتقبل بهذا التصرف؟ أتقبل أن يحدث معك أنت؟.. ها؟**».. هز الشاب رأسه نفياً وهم بتبرير موقفه حين هبت مهرة واقفةً لتقول بضيقٍ: «**نعم.. كان تصرفاً خطأً.. ولكنه كان التصرف المنطقي الوحيد المتاح لي وفق الظروف حينها.**». مط نادُر شفتيه وقال وهو يلتقط هاتفه المحمول ويعدل ربطة عنقه، إيذاناً باستعداده للرحيل: «**حسنٌ.. فلتتحضري إذاً لسلسلة من التصرفات المنطقية المتاحة لي وفق الظرف الحالي الآن.**».. أمسكت بذراعه لتوقفه وهو يمر من أمامها قائلةً بلينٍ: «**اسمع يا نادر، أنا لم أفعل ذلك نكايةً بك، ولا لأحرمك من ابنتك.. بإمكانك أن تراها وقتما تحب، فالبيت بيتك وأنت أبوها.. وحتى لو أردت أن تأخذها لتقضي معك في الفيلا يوماً، فلا بأس.. ولكن، خذ وقتك أولا في التعرف عليها، حتى تعتادك وتستمتع بصحبتك.. انظر، إنها تتمتع بالكثير من صفات شهد.. انظر..**»..

ولكنه لم ينظر.. بل بقي يحدق بمهرة للحظاتٍ، قال بعدها وهو يشد قامته: «**لأول مرةٍ اليوم، تتفوهين بشيء له معنى.. نعم.. أحتاج إلى أن أتعرف على (ابنتي) ذات العامين والنصف، كي تعتاد على (أبيها).. والفضل في هذا يعود (لأمها).. شكراً.. صدقيني، سأعمل جاهداً على تغيير هذا الوضع.**»، ونظر إلى ماجدٍ مشيراً إلى ابنته التي انهمكت بتبليل السلسلة المسكينة بلعابها: «**ناولني المفاتيح من فضلك يا ماجد، فقد تأخرت على موعدٍ هام.**»..

هز ماجد كتفه ببساطةٍ قائلاً: «**لن تسمح لي بلمسها، ولكن يمكنك أن تحاول أنت، فقد تخجل منك.**».. حدق به كلٌ من نادرٍ ومهرةٍ بدهشةٍ ولكنه بقي واقفاً حاملاً الصغيرة بهدوءٍ وتحدٍّ صامتٍ.. وبخته مهرة أخيراً: «**كفى يا ماجد.. هات المفتاح منها.**»، وعقبت محذرةً وقد خمَّنت ما قد يفعل: «**وبدون أن تجعلها تبكي.**». أومأ ماجدٌ بخفةٍ، وأنزل الصغيرة التي ركضت مروراً بنادرٍ، الذي لم يحاول أن يوقفها، نحو أمها، وفي اللحظة الأخيرة استدارت وحولت مسارها مجدداً راكضةً نحو غرفةٍ أخرى في آخر الممر المقابل. صاحت مهرة: «**ماجد!!.**»..

ولكنه تجاهلها وتقدم من نادرٍ قائلاً بودٍّ وعشم: «**لم لا تبقَ قليلاً، لن تستغرق دقائق أخرى حتى تملَّ من المفاتيح وتلقيها لتلعب بلعبةٍ أخرى، بدلاً من أخذها منها وجعلها تبكي وهي مريضةٌ؟ وصدقني سيستمر بكاءها لساعات.. أستطيع أن أشده منها، ولكن..**»، ومط شفتيه مكملاً العبارة بهذه الحركة. عقد نادر ساعديه أمام صدره ثم رفع قبضته أمام فمه وهو ينظر لماجدٍ بعينين ضيقتين.. استغل ماجدٌ الهدوء النسبي ليقول بخفةٍ وخفوتٍ هامساً لنادرٍ: «**ستتشاجران ثانية وثالثة ورابعة.. ستتشاجران كلما التقيتما.. لم لا تجمعا كل الشجار المتبقي وتنهياه في الدقائق المتبقية قبل أن تلقي شهدُ سلسلة المفاتيح؟ فلربما توصلتما إلى صيغة تعفيكما من كل هذا الشجار! أما وإن قادكما كلامكما إلى مزيدٍ من الشجار...**»، ورفع كتفيه ببساطةٍ متابعاً: «**فتحصيل حاصلٍ.**»، وأشار من وراء ظهره: «**صدقني يا (أبيه)، هذه صفقةٌ جيدةٌ..**»..

جاراه نادرٌ في همسه قائلاً: «**ليت الأمور تُحل بمثل هذه الطفولية.**»، ووكز صدر ماجدٍ بإصبعه برفقٍ مكملاً: «**لي معك كلامٌ كثير، وعتابٌ طويلٌ يا ماجد.**».. رد ماجد: «**لك كل الحق. ولكن، أرجوك، لا تخرج من هنا إلا بعد أن تنهي هذا الوضع، مهما كلف الأمر.. طوال حياتك يا (أبيه) وأنت ترتب شئون الناس، أليست حياتك أولى؟!**».. ضيق نادرٌ عينيه قليلاً، ثم اعتدل قائلاً لمي، التي ألزمت نفسها صمت القبور طوال هذا النقاش، وإحساسها بالذنب يغزها في جنبيها وهي ترى شقيقتها ومن كان يوما زوجها، يتجابهان بهذه الصورة بسبب فعلتها: «**أيمكن أن أحصل على فنجان قهوةٍ الآن!.**»..

خفت مي إلى المطبخ، بينما تراجع ماجدٌ إلى غرفته مصطحباً شهداً، بعدما تبرع بشد الحاجز ذو النقوش الصينية عند مدخل الصالون، ليعزل نادر ومهرة عن أي شيءٍ وكل أحدٍ...



قفزت شهد بتهور أعوامها الخمسة في بركة السباحة الصغيرة محدثةً رذاذاً قوياً بلل أسفل سروال فؤادٍ فسحب قدميه بسرعةٍ زاعقاً بمرح، وهنا ضحكت الصغيرة وخرجت من الماء لتحتضنه، وكي يداعبها، تظاهر بأنه يهرب منها خائفاً على ثيابه من البلل، ما جعل وتيرة ضحكها تتعالى وهي تطارده بثوب السباحة الزهري المرقط الصغير ذو القطعتين وشعرها المجعد المتطاير يلاحقها كشعلةٍ مستعرةٍ تحت شمس الربيع الحانية..

أخيراً تظاهر بأنها ادركته فسقط أرضاً متجاهلاً ثيابه البيضاء التي لطخها العشب الندي، واستلقت فوقه تقبله وترشه بالماء المتبقي على يديها وذراعيها.. «**كفى يا بنت، أنت يا شقية.. ابتعدي عني.. لا تبلليني..**».. كلما كرر فؤادٌ هذه الكلمات، ازدادت ضحكاتها ونفضت ذراعيها أكثر فأكثر.. بعد دقائق من اللعب والدغدغة، جلس فؤادٌ معتدلاً وأخذها فوق ركبته قائلاً وهو ينزع أوراق الشجر الصغيرة والعشب الذي علق بشعرها: «**لم لا تخبري مامي، بأن بابي يريدك أن تبقي معه اليوم.. سأجعلك تنامين معي في غرفتي، بجوار (شايمس).. ما رأيك؟**».. ردت وهي تنفض العشب عن لحيته الكثة المهذبةِ بعنايةٍ: «**لا.. (شايمس) يبلل ثيابي.. دعه ينام على الأرض.**»، ضحك ملءَ فِيهِ، وأشار إلى ال (جرايت دان) الذهبي الضخم الذي وقف يترقب إشارة صاحبه ليقترب ويشاركهما المرح، فاقترب من فوره واستسلم تماماً تحت يدي الصغيرة وهي تلعب بأذنيه وتربت على ظهره بكفها الصغير.. شاركها فؤادٌ قليلاً قبل أن يقف، ويحاكيه كلبه، ومدد ساقيه قائلاً وهو يعدل هندامه: «**سأُلقي شايمس في الحديقة إن كان هذا يرضيكِ.. هيا لنجد مامي ونستأذنها..**».. أمسكت يده بإصبعها وشايمس يتبعهما حتى دخلا بهو الفيلا الواسع المضيء، حيث فتحت كريمة كل النوافذ والأبواب الزجاجية لتسمح لضوء الشمس ونسيم الربيع بأن يتعانقا في جنبات البيت وأروقته..

صاحت شهدٌ وهي تفلت يد فؤادٍ وتركض نحو السلم لتصعد إلى غرفة أبيها.. هم شايمس باللحاق بها، إلا أن كريمة ظهرت من اللا مكان صارخةً:

«**أخرج هذا المخلوق من هنا يا فؤاد، لا تجعله يصعد إلى أعلى.**»، فنهره فؤادٌ ليعود ويجلس عند قدمي سيده صاغراً مستكيناً، ولكن ما أن استدارت كريمة حتى زعق فؤادٌ بسرعةٍ: «**أب.**».. فز شايمس وطار على الدرج طيراً ليقف بأعلاه يهز ذيله بانتظار أمر سيده التالي، و سط اعتراض كريمة ودعواتها على المخلوق المسكين بأن تتخلص منه، و من قرفه - على حد تعبيرها - هو ونابليون.

دخل نادر من الباب الأمامي ومن ورائه ظهرت مهرة، إذ كانا يتمشيان قليلاً بناء على اقتراح فؤادٍ، بينما ينتبه هو لشهدٍ، فألفيا فؤاداً يُطيب خاطر كريمة وعيناه تطفران بدموع الضحك: «**والله لا أدري لم تكرهينه يا كريمة، على الرغم من أنه يحبك كثيراً.. دعيني أناديه لأريكِ..**»، فصاحت: « **إياك يا فؤاد، والله لو اقترب مني هذا الشيء، لضربته على رأسه..**».. اعترض نادرٌ هذه المرة برفقٍ: «**لِمَ يا كريمة، إنه طيبٌ جداً ومهذبٌ ومدربٌ على الطاعة أكثر من كثيرٍ من البشر.**».. قالت بنزقٍ: «**أنا إنسانة (غير طبيعيةٍ)، وأحب التعامل مع البشر أكثر.. ها؟ ارتحتما؟! .**».. قال فؤادٌ: «**ولكنه يعتبرك كأ..**».. لوحت بإصبعها أمام وجهه محذرةً فابتلع باقي عبارته وغمز لمهرة التي قالت وهي ترمق الكلب الضخم بقلقٍ: «**أنا أيضاً أخاف منه كثيراً بصراحةٍ يا فؤاد.. لا أعرف كيف تستطيع شهدٌ أن تتعامل معه هكذا بكل بساطة؟!.**».. أجاب نادرٌ باعتداد: «**لأنها ورثت عن أبيها الجرأة والمواجهة.. ستكون سيدة أعمال لا يشق لها غبار.**».. قهقهت مهرة معلقةً: «**فقط لأنها لا تخاف من شايمس؟!**».. رفع حاجبه ومط شفتيه بخيلاءٍ دون أن يرد..

«**مهرة، لم لا تتركي شهداً هنا الليلة، لقد وعدتها بأني سأقنعك، وستمضي الليل معي في غرفتي.. لا تقلقي، فلن أدعها تسهر لبعد العاشرة.**».. صححت برفقٍ: «**الثامنة والنصف.**».. قايضها: «**التاسعة.**».. ابتسمت وقالت وهي تنظر إلى ساعتها: «**وأين هي الآن؟**».

«**بغرفة نادرٍ، حيث تركت ثيابها.**»..

نظرت إلى ساعتها مجدداً وقالت بترددٍ: «**حسنٌ.. سأذهب أنا الآن إذاً، وسأتصل لأطمئن إن كانت تسمع كلامك أم لا.. سأطمئن عليها لاحقاً.**»..

رد نادرٌ بهدوء: «**سأنتظر اتصالك.**»..

تبادلا ابتسامةً خفيفةً وأخجلتها نظرات فؤادٌ وكريمة المحدقة بهما بتطفلٍ سافرٍ فحييتهما بابتسامةٍ وانصرفت.. انتظر نادرٌ حتى ركبت مهرة السيارة وانطلقت بها مبتعدةً، ثم استدار عائداً ليختفي بمكتبه وابتسامةٌ عريضةٌ تعلو وجهه تلاحقه نظرات فؤادٍ الراضية.. التفت فؤادٌ ليجد كريمةً تحدق به فقطب سائلاً: «**ما بكِ يا كريمة؟!**».. تنهدت وردت بحنانٍ: «**أتخيلك مع زوجةٍ وأولادٍ يا حبيبي..**» ..

ابتسم لها للحظةٍ، ثم زعق فجأة: «**شايمس.**».. صاحت كريمة وأسرعت نحو الحديقة وهي تلمح الكلب الضخم ينزل كالبرق، ليستقر تحت قدمي سيده الذي علا ضحكه حتى اهتز جسده بقوةٍ.



«**أأيقظتك؟!**»

«**لم أكن نائمةً. لا تزال التاسعة!**»

«**انتظرت اتصالك للاطمئنان على شهدٍ، وقلقت حين لم تفعلي.**»

«**لم أشأ أن يشعر فؤادٌ بأني أخاف عليها معه.. أتفهم قصدي؟**»

«**نعم**»

«**وعموما، هي لم تنس حقها.. لقد جعلت فؤاد يطلبني لأقبلها قبلة المساء.**»

«**تعجبني الفتاة التي تعرف حقها، وتطالب به.**»

«**نعم.**»

سألها بعد لحظةٍ: «**ماذا تفعلين؟**»

«**لا شيء.. كنت سأشاهد فيلماً، أو أصنع كعكةً.. لا أدري، فلم أستعد للسهرة المفاجئة بدون شهد.**»

«وهل اطمأننت على مي وماجد؟»

«نعم، لقد اعتدت مواعيد معامل مي المتأخرة.. وكنت أظن هذا مستحيلاً.. وماجد يدرس أفضل حين يكون مع أصدقائه. لو علم بأني وحدي لما تركني، ولكني لا أريد أن أقلقه.»

«أستطيع أن آتِ.»

ضحكت بصمتٍ فتابع مبتسماً: **«أقصد لاصطحابك لمكان ما.. نمضي سهرةً هادئةً ونتحدث..»**

«فلنتحدث إذاً.. لا داعي للخروج.»

تسابقت عقارب الساعة مع النبضات، وامتد الليل تحت أقدام الحالمين نياماً وأيقاظاً، ونادرٌ ومهرة يتنقلون من موضوعٍ لموضوعٍ حائمين بحذرٍ حول حَرَمِ الثمرة المحرمة.. حبهما...

«أتعرفين ما أكثر ما أتمناه يا مهرة؟.». لم ينتظر ردها وتابع وهو يرفع ذراعه ليسند بها رأسه المرتاحة على الوسادة الضخمة: **«أن تتذكر ابنتنا إيانا بابتسامةٍ سعيدة تعلو وجهها، لا أن تداري بابتسامتها جرحاً أليما ينز كلما أتت على ذكر أبيها أو أمها.»**.

ابتسمت قائلة بلطفٍ: **«لا تقلق يا نادر، فشهد طفلة سعيدة.. تحبك جداً وتظل طيلة الوقت تتحدث عنك وعن عمها.. لا تقلق عليها.. لا أظن أن هناك طفلةً بالعالم أجمع، تحظى بقدر الحب والحنان الذي تنعم به شهد منا جميعا..»**..

تنهد متسائلاً: **«وماذا عن أمِّ شهدٍ وأبيها؟! أليس لهما نصيبٌ ولو بسيطٌ من كل هذا الحب والحنان؟!»**..

ضحكت مداعبةٌ: **«أتغار من ابنتك؟»**

رد فوراً: **«أغار من كل ما يمكنه الاقتراب منك أكثر مني يا مهرة.. حتى تلك الفراشة البيضاء التي وقفت على رأسك اليوم، صدقيني، لقد حقدت عليها.»**..

قالت برقةٍ: «**إلى أين سيأخذنا هذا الكلام يا نادر؟!**»

رد بهدوء: «**إلى كل شيء جميل..**»، وتابع ممازحاً: «**على ما أرجو هذه المرة.**»

لفت الغطاء حولها وقالت وهي تسمع المآذن ترفع أذان الفجر: «**يا الله!! الفجر!! لم أنتبه للوقت!! كيف سأذهب إلى عملي؟ وأنت.. لابد وأن لديك اجتماعاتٍ مبكرةً كالعادة.**».

ولكن نادراً، الذي كان في مزاجٍ جيدٍ جداً مذ فترة ليست بالقليلة، رد ببساطةٍ: «**فلنعتذر كلانا ونقضي اليوم استرخاء في أسرتنا....آهٍ لو فقط..**».. وأمسك كلماته التي طارت لتلامس مشاعرها ، فاحمرت خجلا وقالت برفقٍ: «**وشهد؟**»..

رد بسخريةٍ: « **شهد مع كريمة وفؤاد وآدم... صدقيني، لن تلحظ غيابنا..**»

حين لم ترد تنهد مجدداً، فقالت مغيرة الموضوع: «**أأستطيع أن أسألك عن أمرٍ حرجٍ، وألا تغضب لسؤالي.**».. رد برفقٍ: «**أها..**»، فتابعت: «**ألم تغير رأيك في موضوع أميرة؟ أعرف بأن الحكم لم ينفذ بعد.. ألن.. أقصد.. يمكنك أن..**».. قاطعها بحزمٍ: «**لا..**»

«**ولكني أظنك تستطيع أن..**»

كرر وقد بت بوادر الغضب على صوته: «**لا.**».. لم تقل شيئاً، فقال مبرراً بخفوتٍ: «**دمي على يدها يا مهرة.... لا.. لا أستطيع.**»..

سكوتها أعلمه باستسلامها وعدم استحسانها، فغير الموضوع قائلاً بخفةٍ: «**أتعرفين أن للحشرات وجودٌ أصيل في علاقتنا؟**»..

سألته مبتسمة بتعجبٍ: «**يا للرومانسية!! حشرات؟! وكيف هذا؟**».

قال برفقٍ وهو يعد على أصابعه: «**قابلتك بسبب كائنٍ مريبٍ غالبا ما كان صرصوراً، وأول شجار لنا كان بسبب النملة والعنكبوت.. أتذكرين هذه؟.**»..

ضحكت: «**نعم.**».. فتابع: «**وتلك النحلة التي جعلتك تركضين محدثة فضيحة في شهر العسل وتشاجرت معي لوقوفي ضاحكاً بدلا من (إنقاذك) منها.. واليوم الفراشة البيضاء.**»..

قالت ممازحةً: «**إلى يذهب بنا هذا؟!!**».. ضحك بقوةٍ مجيباً بصراحةٍ: «**لا أدري.. يبدو بأني بدأت أهذي..**»..

صمتا قليلاً، قبل أن تقطع مهرة الصمت قائلةً: «**نادر.**»

«**نعم.**»

«**أين كنت ليلتها؟**»

صمت لحظاتٍ قبل أن يرد بهدوء شديد: «**في سيارتي على الكورنيش.. حتى الصباح.**». صمتت بدورها قليلا، ثم عادت تسأل: «**نادر؟.**»

«**نعم.**»

«**ستكون الأمور بخيرٍ.. أليس كذلك؟!**».

«**أفضل.. ستكون أفضل من (بخيرٍ).. أعدك يا حبيبتي.**»..

ظلا يتحدثان حتى داعب الشروق أهداب الليل السمراء، فأسلمت نجومه الساهرة عينيها لنومٍ لذيذٍ، وخرجت الشمس في ثوبها اللامع، ترسل خيوطها الذهبية لتنساب بنعومةٍ عبر النوافذ المشرعة وتحتضن قلوبا أرهقها قرُّ الوحدة وقفر الشوق، وتفرد دفئها المخملي على الأسرة الباردة...



الخاتمة

لا يحتاج الحطاب ليسقط شجرةً ضخمةً أصيلةً، لأن يضرب جذعها بفأسه من الحافة إلى الحافة، ولكن يكفيه أن يضرب بقوةٍ وثبات حتى منتصفه ثم يبتعد ليراقبها تنهار وحدها... وكلما كانت الشجرة عاليةً، كلما كان السقوط مدوٍّ وقوي، وكان الإثم أعظم وأفدح....

أعرف جيداً بما تشعر الشجرة، فقد كنت يوماً شجرة، ولم يكن أقرب الناس إلي هو الحطاب، بل كان الفأس الذي اغتال كياني...

وكأن سقوطي لم يكفه ولم يُرضِ ذاته الغاشمة، فانهال على غابتي ليحرقها، وعلى بلدتي ليجعلها خاويةً على عروشها...لم تأخذه شفقةٌ ببراعم أحلامي، ولم يأبه لصرخات أيامي... طَفِقَ يخصِف عليها من أوراق الجحيم ليواري جريمته التي تَبْرَأ منها كل الأزمنة ونواميس الكون...

إلا أني رغم جُرمِه سأبقى، رغم أنفه سأبقى، في كل تفاصيل الحياة سأبقى.. فأنا النار التي تدفئه ... أنا المقعد والمنضدة... أنا الباب والشباك.... أنا الورقة وأنا القلم...

ورغم أن فروعي لم تعد في السماء، إلا أن أصلي ثابتٌ في حياته.... فسأبقى... وسأبقى.... دائماً وأبداً...........

أنا الشجرة....

تمت

إيمان بدران

٢٠١٦/٢/١٧

شارك برأيك عن الرواية
على موقع جودريدز
من خلال الرابط التالي

www.goodreads.com/book/show/35965105